الميزان

في تفسير القرآن

ج/٩

الجزء التاسع

من كتاب

الميزان

في تفسير القرآن

لمؤلفه

الأستاذ العلامة

السيد محمد حسين الطباطبائي

ملتزم الطبع والنشر

الشيخ محمد الآخوندي

مؤسس

دار الكتب الإسلامية

طهران . سوق السلطاني

في سنة ١٣٧٩ هـ

مطبعه الحيدري بطهران

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿سورة الانفال ـ مدنية و هى خمس وسبعون آية﴾

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَ رَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١) إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَ إِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَاناً وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلٰوةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٤) كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَ إِنَّ فَرِيقاً مِنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ (٥) يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُونَ (٦) .

﴿بيان﴾

سياق الآيات في السورة يعطي أنّها مدنيّة نزلت بعد وقعة بدر ، وهي تقصّ بعض أخبار بدر ، وتذكر مسائل متفرّقة تتعلّق بالجهاد والغنائم والأنفال و نحوها ، و اُموراً اُخرى تتعلّق بالهجرة ، وبها تختتم السورة .

قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » إلى آخر الآية . الأنفال جمع نفل بالفتح وهو الزيادة على الشيء ، ولذا يطلق النفل والنافلة على التطوّع

لزيادته على الفريضة ، و تطلق الأنفال على ما يسمّى فيئاً أيضاً وهي الأشياء من الأموال الّتي لا مالك لها من الناس كرؤوس الجبال، وبطون الأودية، والديار الخربة، والقرى الّتي باد أهلها، وتركة من لاوارث له ، وغير ذلك كأنّها زيادة على ما ملكه الناس فلم يملكها أحد وهي لله ولرسوله ، و تطلق على غنائم الحرب كأنّها زيادة على ماقصد منها فإنّ المقصود بالحرب والغزوة الظفر على الأعداء واستئصالهم فإذا غلبوا و ظفر بهم فقد حصل المقصود ، والأموال الّتي غنمه المقاتلون والقوم الّذين أسروهم زيادة على أصل الغرض .

و « ذات » في الأصل مؤنّث «ذا» بمعنى الصاحب من الألفاظ اللازمة الإضافة غير أنّه كثر استعماله في نفس الشيء بمعنى مابه الشيء هو هو فيقال : ذات الإنسان أي ما به الإنسان إنسان ، وذات زيد أي النفس الإنسانيّة الخاصّة الّتي سمّيت بزيد ، و كأنّ الأصل فيها النفس ذات أعمال كذا ثمّ اُفردت بالذكر فقيل ذات الأعمال أوما يؤدّي مؤدّاه ثمّ قيل ذات ، وكذلك الأمر في ذات البين فلكون الخصومة لاتتحقّق إلّا بين طرفين نسب إليها البين فقيل ذات البين أي الحالة والرابطة السيّئة الّتي هي صاحبة البين فالمراد بقوله : أصلحوا ذات بينكم أي أصلحوا الحالة الفاسدة والرابطة السيّئة الّتي بينكم .

و قال الراغب في المفردات : «ذو» على وجهين : أحدهما يتوصّل به إلى الوصف بأسماء الأجناس والأنواع ، ويضاف إلى الظاهر دون المضمر ، ويثنّى ويجمع ، ويقال في التثنية : ذواتا ، وفي الجمع : ذوات ، ولا يستعمل شيء منها إلّا مضافاً .

قال : وقد استعار أصحاب المعاني الذات فجعلوه عبارة عن عين الشيء جوهراً كان أوعرضاً ، واستعملوها مفردة ومضافة إلى المضمر و بالألف واللام ، وأجروها مجرى النفس والخاصّة فقالوا : ذاته ونفسه وخاصّته ، وليس ذلك من كلام العرب ، و الثاني في لفظ ذو لغة لطيّىء يستعملونه استعمال «الّذي» و يجعل في الرفع و النصب والجرّ و الجمع و التأنيث على لفظ واحد نحو :

وبئري ذو حفرت و ذوطويت

أي الّتي حفرت والّتي طويت . انتهى .

والّذي ذكره من عدم إضافته إلى الضمير منقول عن الفرّاء ، ولازمه كون استعماله

مضافاً إلى الضمير من كلام المولّدين والحقّ أنّه قليل لا متروك ، وقد وقع في كلام عليّ عليه‌السلام في بعض خطبه كما في نهج البلاغة

وقد اختلف المفسّرون في معنى الآية و موقعها اختلافا شديداً من جهات : من جهة معنى قوله : « يسألونك عن الأنفال » وقد نسب إلى أهل البيت عليهم‌السلام و بعض آخر كعبدالله بن مسعود وسعدبن أبي وقّاص وطلحة بن مصرف أنّهم قرأوا : يسألونك الأنفال» فقيل : عن زائدة في القراءة المشهورة ، وقيل : بل مقدّرة في القراءة الشاذّة ، و قيل : إنّ المراد بالأنفال غنائم الحرب ، وقيل : غنائم غزوة بدرخاصّة بجعل اللام في الأنفال للعهد ، وقيل : الفيء الّذي لله والرسول والإمام ، وقيل : إنّ الآية منسوخة بآية الخمس ، وقيل : بل محكمة ، وقد طالت المشاجرة بينهم كما يعلم بالرجوع إلى مطوّلات التفاسير كتفسيري الرازيّ والآلوسيّ وغيرهما .

والّذي ينبغي أن يقال بالاستمداد من السياق : أنّ الآية بسياقها تدلّ على أنّه كان بين هؤلاء المشار إليهم بقوله : « يسألونك » تخاصم خاصم به بعضهم بعضاً بأخذ كلّ جانباً من القول لا يرضى به خصمه ، والتفريع الّذي في قوله : « فاتّقوا الله و أصلحوا ذات بينكم » يدلّ على أنّ الخصومة كانت في أمر الأنفال ، و لازم ذلك أن يكون السؤال الواقع منهم المحكيّ في صدر الآية إنّما وقع لقطع الخصومة ، كأنّهم تخاصموا في أمر الأنفال ثمّ راجعوا رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يسألونه عن حكمها لتنقطع بما يجيبه الخصومة ويرتفع عمّا بينهم .

وهذا ـ كما ترى ـ يؤيّد أوّلاً القراءة المشهورة : « يسألونك عن الأنفال » فإنّ السؤال إذا تعدّى بعن كان بمعنى استعلام الحكم و الخبر ، وأمّا إذا استعمل متعدّياً بنفسه كان بمعنى الاستعطاء ولا يناسب المقام إلّا المعنى الأوّل .

وثانياً : أنّ الأنفال بحسب المفهوم وإن كان يعمّ الغنيمة و الفيء جميعاً إلّا أنّ مورد الآية هي الأنفال بمعنى غنائم الحرب لا غنائم غزوة بدر خاصّة إذ لا وجه للتخصيص فإنّهم إذ تخاصموا في غنائم بدر لم يتخاصموا فيها لأنّها غنائم بدر خاصّة بل لأنّها غنائم مأخوذة من أعداء الدين في جهاد دينيّ ، وهو ظاهر .

و اختصاص الآية بحسب موردها بغنيمة الحرب لا يوجب تخصيص الحكم الوارد فيها بالمورد، فإنّ المورد لايخصّص، فإطلاق حكم الآية بالنسبة إلى كلّ مايسمّى بالنفل في محلّه ، وهي تدلّ على أنّ الأنفال جميعاً لله ولرسوله لايشارك الله ورسوله فيها أحد من المؤمنين سواء في ذلك الغنيمة و الفيء .

ثمّ الظاهر من قوله : « قل الأنفال لله والرسول » ومايعظهم الله به بعد هذه الجملة ويحرّضهم على الإيمان هو أنّ الله سبحانه فصل الخصومة بتشريع ملكه لنفسه ولرسوله ، ونزعه من أيديهم وهو يستدعي أن يكون تخاصمهم من جهة دعوى طائفة منهم أنّ الأنفال لها خاصّة دون غيرها ، أو أنّها تختصّ بشيء منها ، وإنكار الطائفة الأُخرى ذلك، ففصل الله سبحانه خصومتهم فيها بسلب ملكهم منها وإثبات ملك نفسه ورسوله ، وموعظتهم أن يكفّوا عن المخاصمة والمشاجرة ، وأمّا قول من يقول : إنّ الغزاة يملكون ماأخذوه من الغنيمة بالإجماع فأحرى به أن يورد في الفقه دون التفسير .

وبالجملة فنزاعهم في الأنفال يكشف عن سابق عهدلهم بأنّ الغنيمة لهم أو ما في معناه غير أنّه كان حكماً مجملاً اختلف فيه المتخاصمان وكلّ يجرّ النار إلى قرصته ، و الآيات الكريمة تؤيّد ذلك .

توضيحه أنّ ارتباط الآيات في السورة و التصريح بقصّة وقعة بدر فيها يكشف أنّ السورة بأجمعها نزلت حول وقعة بدر وبُعيدها حتّى أنّ ابن عبّاس ـ على مانقل عنه ـ كان يسمّيها سورة بدر ، والّتي تتعرّض لأمر الغنيمة من آياتها خمس آيات في مواضع ثلاثة من السورة هي بحسب ترتيب السورة ، قوله تعالى «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول » الآية ، وقوله تعالى : «واعلموا أنّ ماغنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول و لذي القربى و اليتامى و المساكين و ابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان والله على كلّ شيء قدير » الآية ، و قوله تعالى : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا و الله يريد الآخرة و الله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً و اتّقوا الله إنّ الله غفور رحيم » الآية .

و سياق الآية الثانية يفيد أنّها نزلت بعد الآية الاُولى و الآيات الأخيرة جميعاً لمكان قوله فيها : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» فهي نازلة بعد الوقعة بزمان .

ثمّ الآيات الأخيرة تدلّ على أنّهم كلّموا رسول الله صلى الله عليه وآله في أمر الأسرى و سألوه أن لا يقتلهم ويأخذ الفدية ، وفيها عتابهم على ذلك ، ثمّ تجويز أن يأكلوا ممّا غنموا وكأنّهم فهموا من ذلك أنّهم يملكون الغنائم والأنفال على إبهام في أمره : هل يملكه جميع من حضر الوقعة أو بعضهم كالمقاتلين دون القاعدين مثلاً ؟ و هل يملكون ذلك بالسويّة فيقسّم بينهم كذلك أو يختلفون فيه بالزيادة والنقيصة كأن يكون سهم الفرسان منها أزيد من المشاة ؟ أو نحو ذلك .

وكان ذلك سبب التخاصم بينهم فتشاجروا في الأمر ، ورفعوا ذلك إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فنزلت الآية الاُولى : «قل الأنفال لله و الرسول فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم » الآية فخطّأتهم الآية فيما زعموا أنّهم مالكوا الأنفال بما استفادوا من قوله : « فكلوا ممّا غنمتم » الآية وأقرّت ملك الأنفال لله والرسول ونهتهم عن التخاصم والتشاجر فلمّا انقطع بذلك تخاصمهم أرجعها النبيّ صلى الله عليه وآله إليهم ، وقسّمها بينهم بالسويّة ، وعزل السهم لعدّة من أصحابه لم يحضروا الوقعة، ولم يقدّم مقاتلاً على قاعد ، ولا فارساً على ماش ، ثمّ نزلت الآية الثانية : « واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه » الآية بعد حين فأخرج النبيّ صلى الله عليه وآله ممّا ردّ إليهم من السهام الخمس وبقي لهم الباقي . هذا ما يتحصّل من انضمام الآيات المربوطة بالأنفال بعضها ببعض .

فقوله تعالى : «يسألونك عن الأنفال » يفيد بما ينضمّ إليه من قرائن السياق أنّهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله عن حكم غنائم الحرب بعد ما زعموا أنّهم يملكون الغنيمة ، واختلفوا فيمن يملكها ، أو في كيفيّة ملكها وانقسامها بينهم، أو فيهما معاً ، و تخاصموا في ذلك .

وقوله : « قل الأنفال لله والرسول» جواب عن مسألتهم وفيه بيان أنّهم لا يملكونها وإنّما هي أنفال يملكها الله ورسوله ، فيوضع حيثما أراد الله ورسوله ، وقد قطع ذلك أصل ما نشب بينهم من الاختلاف والتخاصم .

ويظهر من هذا البيان أنّ الآية غير ناسخة لقوله تعالى : «فكلوا ممّا غنمتم » إلى آخر الآية وإنّما تبيّن معناها بالتفسير ، وأنّ قوله : « كلوا » ليس بكناية عن ملكهم للغنيمة بحسب الأصل ، و إنّما المراد هو التصرّف فيها و التمتّع منها إلّا أن يمتلكوا بقسمة النبيّ صلّى الله عليه وآله إيّاها بينهم .

ويظهر أيضاً أنّ قوله تعالى : « و اعلموا أنّ ماغنمتم من شيء فأنّ لله خمسه و للرسول ولذي القربى» الآية ليس بناسخ لقوله : « قل الأنفال لله والرسول » الآية فإنّ قوله : « واعلموا أنّ ماغنمتم » الآية إنّما يؤثّر بالنسبة إلى المجاهدين منعهم عن أكل تمام الغنيمة والتصرّف فيه اذلم يكن لهم بعد نزول قوله : « الأنفال لله و الرسول » إلّا ذلك ، و أمّا قوله : « الأنفال لله والرسول » فلا يفيد إلّا كون أصل ملكها لله والرسول من دون أن يتعرّض لكيفيّة التصرّف وجواز الأكل والتمتّع،فلا يناقضه في ذلك قوله : «واعلموا أنّ ماغنمتم » الآية حتّى يكون بالنسبة إليه ناسخاً،فيتحصّل من مجموع الآيات الثلاث : أنّ أصل الملك في الغنيمة لله والرسول ثمّ يرجع أربعة أخماسها إلى المجاهدين يأكلونها و يمتلكونها و يرجع خمس منها إلى الله و الرسول و ذي القربى و غيرهم لهم التصرّف فيها والاختصاص بها .

ويظهر بالتأمّل في البيان السابق أيضاً : أنّ في التعبير عن الغنائم بالأنفال و هو جمع نفل بمعنى الزيادة إشارة إلى تعليل الحكم بموضوعه الأعمّ ، كأنّه قيل : يسألونك عن الغنائم وهي زيادات لا مالك لها من بين الناس ، وإذاكان كذلك فأجبهم بحكم الزيادات والأنفال ، وقل : الأنفال لله والرسول ، ولازم ذلك كون الغنيمة لله و الرسول .

وبذلك ربّما تأيّد كون اللّام في لفظ الأنفال الأوّل للعهد و في الثاني للجنس أو الاستغراق ، وتبيّن وجه الإظهار في قوله : « قل الأنفال » الآية حيث لم يقل : قل هي لله والرسول .

ويظهر بذلك أيضاً : أنّ قوله : « قل الأنفال لله و الرسول » حكم عامّ يشمل بعمومه الغنيمة وسائر الأموال الزائدة في المجتمع نظير الديار الخالية و القرى البائدة و رؤوس الجبال وبطون الأودية وقطائع الملوك وتركة من لاوارث له ، أمّا الأنفال بمعنى

الغنائم فهي متعلّقة بالمقاتلين من المسلمين بعمل النبي صلى الله عليه وآله ، و بقي الباقي تحت ملك الله ورسوله .

هذا ما يفيده التأمّل في كرائم الآيات ، و للمفسّرين فيها أقاويل مختلفة تعلم بالرجوع إلى مطوّلات التفاسير لاجدوى في نقلها والتعرّض المنقض والإبرام فيها .

قوله تعالى : «إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» إلى آخر الآيتين. الآيتان و الّتي بعدهما بيان ما يتميّز به المؤمنون بحقيقة الإيمان و يختصّون به من الأوصاف الكريمة والثواب الجزيل بيّنت ليتأكّد به ما يشتمل عليه قوله تعالى : «فاتّقوا الله وأصلحوا ذات بينكم» إلى آخر الآية .

وقد ذكر الله تعالى لهم خمس صفات اختارها من بين جميع صفاتهم الّتي ذكرها في كلامه لكونها مستلزمة لكرائم صفاتهم على كثرتها وملازمة لحقّ الإيمان ، وهي بحيث إذا تنبّهوا لها وتأمّلوها كان ذلك ممّا يسهّل لهم توطين النفس على التقوى، وإصلاح ذات بينهم، وإطاعة الله ورسوله .

وهاتيك الصفات الخمس هي : وجل القلب عند ذكر الله ، و زيادة الإيمان عند استماع آيات الله ، والتوكّل ، وإقامة الصلاة ، والإنفاق ممّا رزقهم الله ، ومعلوم أنّ الصفات الثلاث الاُول من أعمال القلوب ، والأخيرتان من أعمال الجوارح .

وقد روعي في ذكرها الترتيب الّذي بينها بحسب الطبع ، فإنّ نور الإيمان إنّما يشرق على القلب تدريجاً ، فلايزال يشتدّ ويضاعف حتّى يتمّ و يكمل بحقيقته ، فأوّل ما يشرق يتأثّر القلب بالوجل و الخشية إذا تذكّر بالله عند ذكره ، وهوقوله تعالى : « إنّما المؤمنون الّذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم» .

ثمّ لايزال ينبسط الإيمان ويتعرّق وينمو ويتفرّع بالسير في الآيات الدالّة عليه تعالى ، والهادية إلى المعارف الحقّة.فكلّما تأمّل المؤمن في شيء منها زادته إيماناً ، فيقوى الإيمان ويشتدّ حتّى يستقرّ في مرحلة اليقين ، وهو قوله تعالى : «وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيماناً» .

و إذا زاد الإيمان و كمل كمالاً عرف عندئذ مقام ربّه وموقع نفسه ، معرفة تطابق

واقع الأمر ، وهو أنّ الأمر كلّه إلى الله سبحانه فإنّه تعالى وحده هو الربّ الّذي إليه يرجع كلّ شيء ، فالواجب الحقّ على الإنسان أن يتوكّل عليه ويتّبع ما يريده منه بأخذه وكيلاً في جميع ما يهمّه في حياته ، فيرضى بما يقدّر له في مسير الحياة ، ويجري على ما يحكم عليه من الأحكام ويشرّعه من الشرائع فيأتمر بأوامره و ينتهي عن نواهيه ، و هو قوله تعالى : «وعلى ربّهم يتوكّلون» .

ثمّ إذا استقرّ الإيمان على كماله في القلب، استوجب ذلك أن ينعطف العبد بالعبوديّة إلى ربّه، وينصب نفسه في مقام العبوديّة وإخلاص الخضوع وهو الصلاة ، وهي أمر بينه و بين ربّه ، وأن يقوم بحاجة المجتمع في نواقص مساعيهم بالإنفاق على الفقراء ممّا رزقه الله من مال أو علم أو غير ذلك ، وهو أمر بينه وبين سائر أفراد مجتمعه، وهو قوله تعالى : «الّذين يقيمون الصلاة وممّا رزقناهم ينفقون» .

و قد ظهر ممّا تقدّم أنّ قوله تعالى : « زادتهم إيماناً» إشارة إلى الزيادة من حيث الكيفيّة و هو الاشتداد و الكمال ، دون الكمّيّة وهي الزيادة من حيث عدد المؤمنين كما احتمله بعض المفسّرين .

قوله تعالى : «اُولئك هم المؤمنون حقّاً لهم درجات عند ربّهم ومغفرةٌ ورزقٌ كريمٌ» قضاء منه تعالى بثبوت الإيمان حقّاً فيمن اتّصف بما عدّه تعالى من الصفات الخمس ، و لذلك اُطلق ما ذكره لهم من كريم الأجر في قوله : « لهم درجات عند ربّهم» الآية فلهؤلاء من صفات الكمال و كريم الثواب وعظيم الأجر ما لكلّ مؤمن حقيقيّ .

وأمّا قوله : «لهم درجات عند ربّهم ومغفرة ورزق كريم» فالمغفرة هي الصفح الإلهيّ عن ذنوبهم ، والرزق الكريم ما يرتزقون به من نعم الجنّة ، وقد أراد الله سبحانه بالرزق الكريم الجنّة ونعمها في مواضع من كلامه، كقوله تعالى : «فالّذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والّذين سعوا في آياتنا معاجزين اُولئك أصحاب الجحيم» الحج :٥١ وغير ذلك .

وبذلك يظهر أنّ المراد بقوله : « لهم درجات عند ربّهم» مراتب القرب و الزلفى ودرجات الكرامة المعنويّة ، وهو كذلك.فإنّ المغفرة والجنّة من آثار مراتب القرب من الله

سبحانه وفروعه البتّة .

و الّذي يشتمل عليه الآية من إثبات الدرجات لهؤلاء المؤمنين ، هو ثبوت جميع الدرجات لجميعهم ، لا ثبوت جميعها لكلّ واحد منهم فإنّها من لوازم الإيمان،والإيمان مختلف ذو مراتب فالدرجات الموهوبة بإزائه كذلك لا محالة ، فمن المؤمنين من له درجة واحدة ، ومنهم ذوالدرجتين ، ومنهم ذوالدرجات على اختلاف مراتبهم في الإيمان .

ويؤيّده قوله تعالى : « يرفع الله الّذين آمنوا منكم والّذين اُوتوا العلم درجات » المجادلة : ١١ و قوله تعالى : «أفمن اتّبع رضوان الله كمن باء بسخط من الله و مأواه جهنّم وبئس المصير،هم درجات عندالله والله بصير بما يعملون» آل عمران : ١٦٣ .

وبما تقدّم يظهر أنّ تفسير بعضهم ما في الآية من الدرجات بدرجات الجنّة،ليس على ما ينبغي،وأنّ المتعيّن كون المراد بها درجات القرب ؛ كما تقدّم وإن كان كلّ منهما يلازم الآخر .

قوله تعالى : « كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ و إنّ فريقاً من المؤمنين لكارهون» إلى آخر الآيتين . ظاهر السياق أنّ قوله : « كما أخرجك» متعلّق بمايدلّ عليه قوله تعالى : «قل الأنفال لله والرسول» والتقدير : أنّ الله حكم بكون الأنفال له ولرسوله بالحقّ مع كراهتهم له ، كما أخرجك من بيتك بالحقّ مع كراهة فريق منهم له.فالجميع حقّ يترتّب عليه من مصلحة دينهم ودنياهم ماهم غافلون عنه .

وقيل : إنّه متعلّق بقوله : «يجادلونك في الحقّ »وقيل : إنّ العامل فيه معنى الحقّ والتقدير : هذا الذكر من الحقّ كما اُخرجك ربّك من بيتك بالحقّ . والمعنيان ـ كما ترى ـ بعيدان عن سياق الآية .

والمراد بالحقّ ما يقابل الباطل،وهو الأمر الثابت الّذي يترتّب عليه آثاره الواقعيّة المطلوبة،وكون الفعل ـ وهو الإخراج ـ بالحقّ هو أن يكون هو المتعيّن الواجب بحسب الواقع ، و قيل : المراد به الوحي ، و قيل : المراد به الجهاد ، و قيل غير ذلك ، و هي معان بعيدة .

والأصل في معنى الجدل شدّة الفتل،يقال : زمام جديل أي شديد الفتل ، و سمّي

الجدال جدالاً لأن فيه نزاعاً بالفتل عن مذهب إلى مذهب كما ذكره في المجمع .

ومعنى الآيتين : أن الله تعالى حكم في أمر الأنفال بالحق مع كراهتهم لحكمه كما أخرجك من بيتك بالمدينة إخراجاً يصاحب الحق ، والحال أن فريقاً من المؤمنين لكارهون لذلك ، ينازعونك في الحق بعد ما تبين لهم إجمالاً والحال أنهم يشبهون جماعة يساقون إلى الموت ، وهم ينظرون إلى ما اُعد لهم من أسبابه وأدواته .

﴿بحث روائي﴾

في جامع الجوامع للطبرسي : قرء ابن مسعود و علي بن الحسين زين العابدين و الباقر و الصادق عليهم السلام : يسألونك الأنفال .

أقول : ورواه عن ابن مسعود و كذا عن السجاد والباقر والصادق عليهم السلام غيره .

وفي الكافي بإسناده عن العبد الصالح عليه السلام قال : الأنفال كل أرض خربة قد باد أهلها ، و كل أرض لم يوجف عليها بخيل ولاركاب و لكن صالحوا صلحاً و أعطوا بأيديهم على غير قتال ـ فقال ـ: وله ـ يعني الوالي ـ رؤوس الجبال و بطون الأودية و الآجام ، و كل أرض ميتة لارب لها ، وله صوافي الملوك : ماكان في أيديهم من غير وجه الغصب لأن الغصب كله مردود ، وهو وارث من لاوارث له ، ويعول من حيلة له .

وفيه :بإسناده عن الصادق عليه السلام في قوله تعالى : «يسألونك عن الأنفال» قال : من مات وليس له مولى فماله من الأنفال .

أقول : وفي معنى الروايتين روايات كثيرة مروية من طرق أهل البيت عليهم السلام ولاضير في عدم ذكرها الأنفال بمعنى غنائم الحرب ، فإن الآية بموردها تدل عليه على ما يفيده سياقها .

وفي الدر المنثور:أخرج الطيالسي والبخاري في الأدب المفرد ومسلم والنحاس في ناسخه وابن مردويه والبيهقي في الشعب عن سعد بن أبي وقاص قال : نزلت في أربع آيات من كتاب الله : كانت اُمي حلفت أن لاتأكل ولا تشرب حتى اُفارق محمداً صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله

وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما في الدنيا معروفاً

و الثانية : أنّي كنت أخذت سيفاً أعجبني فقلت : يا رسول الله هب لي هذا فنزلت : يسألونك عن الأنفال .

والثالثة : أنّي مرضت فأتاني رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقلت : يا رسول الله إنّي اُريد أن اُقسّم مالي أفاُوصي بالنصف ؟ قال : لا ، فقلت : الثلث ؟ فسكت فكان الثلث بعده جائزاً .

و الرابعة : أنّي شربت الخمر مع قوم من الأنصار فضرب رجل منهم أنفي بلحيي جمل فأتيت النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فأنزل الله تحريم الخمر .

أقول : الرواية لاتخلو عن شيء أمّا أوّلاً فلأنّ قوله تعالى : «وإن جاهداك على أن تشرك بي» الآية ذيل قوله تعالى : « و وصّينا الإنسان بوالديه » لقمان : ١٤ و هي بسياقها تأبى أن تكون نازلة عن سبب خاصّ . على أنّه قد تقدّم في ذيل قوله تعالى : «قل تعالوا أتل ما حرّم ربّكم عليكم أن لا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً » الآيات الأنعام : ١٥١ أنّ الإحسان بالوالدين من الأحكام العامّة غير المختصّة بشريعة دون شريعة .

وأمّا ثانياً : فلأنّ ماذكر من أخذ السيف واستيهابه من النبيّ صلى الله عليه وآله إنّما يناسب قراءة : «يسألونك الأنفال» لاقراءة : «يسألونك عن الأنفال» و قد تقدّم توضيحه في البيان المتقدّم .

و أمّا ثالثاً : فلأنّ استقرار السنّة على الإيصاء بالثلث لم يكن بآية نازلة بل بسنّة نبويّة .

وأمّا رابعاً فلأنّ قصّة شربه الخمر مع جماعة من الصحابة و شجّ أنفه بلحيي بعير وإن كانت حقّة لكنّه إنّما شرب الخمر مع جماعة مختلطة من المهاجرين و الأنصار ، و قد شجّ أنفه عمر بن الخطّاب ثمّ أنزل الله آية المائدة ، ولم ينزل للتحريم بل لتشديده ، و قد تقدّم ذلك كلّه في ذيل قوله تعالى : «ياأيّها الّذين آمنوا إنّما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان» المائدة : ٩٠ .

و فيه : أخرج أحمد و عبد بن حميد و ابن جرير و أبو الشيخ و ابن مردويه والحاكم

والبيهقيّ في سننه عن أبي أمامة قال : سألت عبادة بن الصامت عن الأنفال فقال : فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا في النفل فساءت فيه أحلامنا فانتزعه الله من أيدينا و جعله إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقسّمه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين ، عن براء يقول : عن سواء .

وفيه : أخرج سعيد بن منصور و أحمد و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبّان و أبو الشيخ والحاكم وصحّحه والبيهقيّ و ابن مردويه عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فشهدت معه بدراً فالتقى الناس فهزم الله العدوّ فانطلقت طائفة في آثارهم منهزمين يقتلون ، و أكبّت طائفة على العسكر يحوزونه و يجمعونه ، و أحدقت طائفة برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لاتصيب العدوّ منه غرّة حتّى إذا كان الليل و فاء الناس بعضهم إلى بعض قال الّذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها و جمعناها ، فليس لأحد فيها نصيب ، و قال الّذين خرجوا في طلب العدوّ : لستم بأحقّ بها منّا ، نحن نفينا عنها العدوّ وهزمناهم ، وقال الّذين أحدقوا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخفنا أن يصيب العدوّ منه غرّة واشتغلنا به فنزلت : «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول فاتّقوا الله و أصلحوا ذات بينكم » فقسّمها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين المسلمين الحديث .

وفيه : أخرج ابن أبي شيبة وأبوداود والنسائيّ وابن جرير و ابن المنذر وابن حبّان و أبوالشيخ و ابن مردويه والحاكم و صحّحه والبيهقيّ في الدلائل عن ابن عبّاس قال : لمّا كان يوم بدر قال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : من قتل قتيلاً فله كذا و كذا ومن أسر أسيراً فله كذا و كذا فأمّا المشيخة فثبتوا تحت الرايات ، و أمّا الشبّان فتسارعوا إلى القتل و الغنائم فقالت المشيخة للشبّان : أشركونا معكم فإنّا كنّا لكم ردءاً و لو كان منكم شيء للجأتم إلينا ،فاختصموا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فنزلت : «يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » فقسّم الغنائم بينهم بالسويّة .

أقول : و في هذه المعاني روايات اُخر ، وهنا روايات تدلّ على تفصيل القصّة تتّضح بها معنى الآيات سنوردها في ذيل الآيات التالية .

و في بعض الروايات أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعدهم أن يعطيهم السلب والغنيمة ثمّ نسخه الله تعالى بقوله : « قل الأنفال لله و الرسول » و إلى ذلك يشير ما في هذه الرواية ، و لذلك

ربّما قيل : إنّه لايجب على الإمام أن يفي بماوعد به المحاربين . لكن يبعّده اختلافهم في أمر الغنائم يوم بدر إذلوكان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعدهم بذلك لم يختلفوا مع صريح بيانه .

و فيه : أخرج ابن جرير عن مجاهد : أنّهم سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم عن الخمس بعد الأربعة الأخماس فنزلت : يسألونك عن الأنفال » .

أقول: و هو لاينطبق على ما تقدّم من مضمون الآية على ما يعطيه السياق ، و في بعض ماورد عن المفسّرين السلف كسعيدبن جبير و مجاهد و عكرمة و كذا عن ابن عبّاس أنّ قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول » الآية منسوخة بقوله : « واعلموا أنّ ماغنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول » الآية ، وقد تقدّم في بيان الآية ماينتفي به احتمال النسخ .

و فيه ، أخرج مالك و ابن أبي‌شيبة و أبوعبيد و عبدبن‌حميد و ابن جرير والنحّاس و ابن المنذر و ابن أبي‌حاتم و أبوالشيخ و ابن مردويه عن القاسم‌بن محمّد قال : سمعت رجلاً يسأل ابن عبّاس عن الأنفال فقال : الفرس من النفل والسلب من النفل فأعاد المسألة فقال ابن عبّاس : ذلك أيضا .

ثمّ قال الرجل : الأنفال الّتي قال الله في كتابه ماهي ؟ فلم يزل يسأله حتّى كاد يحرّجه فقال ابن عبّاس : هذا مثل صبيغ الّذي ضربه عمر - و في لفظ - ما أحوجك إلى من يضربك كما فعل عمر بصبيغ العراقيّ ، و كان عمر ضربه حتّى سالت الدماء على عقبيه .

و فيه في قوله تعالى : « اُولئك هم المؤمنون حقّاً » أخرج الطبرانيّ عن الحارث‌بن مالك الأنصاريّ أنّه مرّ برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال له : كيف أصبحت ياحارث ؟ قال: أصبحت مؤمناً حقّاً . قال : انظر ماتقول فإنّ لكلّ شيء حقيقة فما حقيقة إيمانك ؟ فقال : عزفت نفسي عن الدنيا فأسهرت ليلي و أظمأت نهاري و كأنّي أنظر إلى أهل الجنّة يتزاورون فيها ، وكأنّي أنظر إلى أهل النار يتضاغون فيها قال : ياحارث عرفت فالزم، ثلاثاً .

أقول: والحديث مرويّ من طرق الشيعة بأسانيد عديدة .

* * *

وَ إِذْ يَعِدُكُمُ اللّهُ إِحْدَى الطّائِفَتَيْنِ أَنَّها لَكُمْ وَ تَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِماتِهِ وَيَقْطَعَ دابِرَ الْكافِرِينَ (٧) لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَ يُبْطِلَ الْباطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ (٨) إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ (٩) وَ ما جَعَلَهُ اللّهُ إِلاّ بُشْرى وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ وَمَا النَّصْرُ إِلاّ مِنْ عِنْدِ اللّهِ إِنَّ اللّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (١٠) إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاسَ أَمَنَةً مِنْهُ وَ يُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ وَ يُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطانِ وَ لِيَرْبِطَ عَلى قُلُوبِكُمْ وَ يُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدامَ (١١) إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْناقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنانٍ (١٢) ذلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللّهَ وَ رَسُولَهُ وَ مَنْ يُشاقِقِ اللّهَ وَ رَسُولَهُ فَإِنَّ اللّهَ شَدِيدُ الْعِقابِ (١٣) ذلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكافِرِينَ عَذابَ النّارِ (١٤) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى قصّة بدر ، وهي أوّل غزوة في الإسلام ، و ظاهر سياق الآيات أنّها نزلت بعد انقضائها على ماسيتّضح .

قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم و يريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته و يقطع دابر الكافرين » أي واذكروا إذ يعدكم الله ، وهو بيان منن الله وعدّ نعمه عليهم ليكونوا على بصيرة من أنّ الله

سبحانه لايستقبلهم بأمر ولايأتيهم بحكم إلّا بالحقّ و فيه حفظ مصالحهم و إسعاد جدّهم فلا يختلفوا فيما بينهم ، ولا يكرهوا مايختاره لهم،ويكلوا أمرهم إليه فيطيعوه و رسوله .

والمراد بالطائفتين العير و النفير ، والعير قافلة قريش وفيها تجارتهم وأموالهم وكان عليها أربعون رجلاً منهم أبوسفيان بن حرب ، والنفير جيش قريش وهم زهاء ألف رجل .

وقوله : « إحدى الطائفتين » مفعول ثان لقوله : « يعدكم » و قوله : « أنّها لكم » بدل منه وقوله : « وتودّون » الآية في موضع الحال،و المراد بغيرذات الشوكة:الطائفة غير ذات الشوكة وهي العير الّذيكانأقلّ عِدّة وعُدّة من النفير ، والشوكة الحدّة،استعارة من الشوك .

وقوله : « ويريد الله أن يحقّ الحقّ بكلماته » في موضع الحال ، والمراد بإحقاق الحقّ إظهاره وإثباته بترتيب آثاره عليه ، و كلمات الله هي ماقضى به من نصرة أنبيائه و إظهار دينه الحقّ، قال تعالى : ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنّهم لهم المنصورون و إنّ جندنا لهم الغالبون » الصافّات : ١٧٣ و قال تعالى : « يريدون ليطفؤوا نور الله بأفواههم والله متمّ نوره ولو كره الكافرون هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون » الصفّ : ٩ . وقرىء : « بكلمته »:وهوأوجه وأقرب و الدابر مايأتي بعد الشيء ممّا يتعلّق به ويتّصل إليه وقطع دابر الشيء ، كناية عن إفنائه واستئصاله بحيث لا يبقى بعده شيء من آثاره المتفرّعة عليه المرتبطة به .

ومعنى الآية : واذكروا إذ يعدكم الله أنّ إحدى الطائفتين لكم تستعلون عليها بنصرالله إمّا العير وإمّا النفير وأنتم تودّون أن تكون تلك الطائفة هي العير لما تعلمون من شوكةالنفير،وقوّتهم و شدّتهم، مع مالكم من الضعف و الهوان ، والحال أنّ الله يريد خلاف ذلكوهوأن تلاقوا النفير فيظهركمعليهم ويظهر ماقضى ظهوره منالحقّ ، ويستأصل الكافرين ويقطع دابرهم .

قوله تعالى : « ليحقّ الحقّ ويبطل الباطل ولو كره المجرمون » ظاهر السياق أنّ اللام للغاية ، وقوله : «ليحقّ » الآية متعلّق بقوله : «يعدكم الله » أي إنّما وعدكم الله ذلك وهو لايخلف الميعاد ليحقّ بذلك الحقّ و يبطل الباطل ولو كان المجرمون

يكرهونه ولا يريدونه .

وبذلك يظهر أنّ قوله : « ليحقّ الحقّ » الآية ليس تكراراً لقوله : « و يريدالله أن يحقّ الحقّ بكلماته » وإن كان في معناه .

قوله تعالى : « إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملائكة مردفين » الاستغاثة طلب الغوث وهو النصرة كما في قوله : « فاستغاثه الّذي من شيعته على الّذي من عدوّه » القصص : ١٥ والإمداد معروف ، و قوله : « مردفين » من الإرداف وهو أن يجعل الراكب غيره ردفاً له ، والردف التابع قال الراغب : الردف التابع ، وردف المرأة عجيزتها ، والترادف ، التتابع ، و الرادف : المتأخّر ، و المردف المقدّم الّذي أردف غيره . انتهى .

وبهذا المعنى تلائم الآية ما في قوله تعالى فيما يشير به إلى هذه القصّة في سورة آل عمران : «ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلّة فاتّقوا الله لعلّكم تشكرون إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين وما جعله الله إلّا بشرى لكم و لتطمئنّ قلوبكم به وما النصر إلّا من عندالله العزيز الحكيم » آل عمران : ١٢٦ .

فإنّ تطبيق الآيات من السورتين يوضح أنّ المراد بنزول ألف من الملائكة مردفين نزول ألف منهم يستتبعون آخرين فينطبق الألف المردفون على الثلاثة آلاف المنزلين .

وبذلك يظهر فساد ماقيل : إنّ المراد بكون الملائكة مردفين كون الألف متّبعين ألفاً آخر لأنّ مع كلّ واحد منهم ردفاً له فيكونون ألفين ، و كذا ماقيل : إنّ المراد كون بعضهم إثر بعض ، و كذا ماقيل : إنّ المراد مجيئهم على أثر المسلمين بأن يكون مردفين بمعنى رادفين ، و كذا ماقيل : إنّ المراد إردافهم المسلمين بأن يتقدّموا عسكر المسلمين فيلقوا في قلوب الّذين كفروا الرعب .

قوله تعالى : «وماجعله الله إلّا بشرى ولتطمئنّ به قلوبكم وماالنصر إلّا من عندالله

إنّ الله عزيز حكيم» الضميران في قوله : «جعله» وقوله : «به» للإمداد بالملائكة على ما يدلّ عليه السياق ، والمعنى أنّ الإمداد بالملائكة إنّما كان لغرض البشرى واطمئنان نفوسكم لا ليهلك بأيديهم الكفّار كما يشير إليه قوله تعالى بعدُ : «إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سأُلقي في قلوب الّذين كفروا الرعب» .

وبذلك يتأيّد ما ذكره بعضهم : أنّ الملائكة لم ينزلوا ليقتلوا المشركين ولا قتلوا منهم أحداً فقد قتل ثلث المقتولين منهم أو النصف عليّ عليه السلام و الثلثين الباقين أو النصف سائر المسلمين و إنّما كان للملائكة تكثير سواد المسلمين حينما اختلطوا بالقوم و تثبيت قلوب المسلمين ، وإلقاء الرعب في قلوب المشركين ، وسيجيء بعض الكلام في ذلك .

وقوله : « وما النصر إلّا من عندالله إنّ الله عزيز حكيم» بيان انحصار حقيقة النصر فيه تعالى وأنّه لوكان بكثرة العدد والقوّة و الشوكة كانت الدائرة يومئذ للمشركين بما لهم من الكثرة والقوّة ؛ على المسلمين على ما بهم من القلّة والضعف .

و قد علّل بقوله : «إن الله عزيز حكيم» جميع مضمون الآية وما يتعلّق به من الآية السابقة فبعزّته نصرهم وأمدّهم ، وبحكمته جعل نصره على هذه الشاكلة .

قوله تعالى : «إذ يغشّيكم النعاس أمنة منه» إلى آخر الآية . النعاس أوّل النوم وهو خفيفه والتغشية الإحاطة ، والأمنة الأمان ، و قوله : «منه» أي من الله وقيل : أي من العدوّ والرجز هو الرجس والقذارة ، والمراد برجز الشيطان القذارة الّتي يطرء القلب من وسوسته وتسويله .

ومعنى الآية : أنّ النصر و الإمداد بالبشرى و اطمئنان القلوب كان في وقت يأخذكم النعاس للأمن الّذي أفاضه الله على قلوبكم فنمتم و لو كنتم خائفين مرتاعين لم يأخذكم نعاس ولا نوم ، وينزّل عليكم المطر ليطهّركم به ويذهب عنكم وسوسة الشيطان وليربط على قلوبكم ويشدّ عليها - وهو كناية عن التشجيع - وليثبت بالمطر أقدامكم في الحرب بتلبّد الرمل أو بثبات القلوب .

والآية تؤيّد ما ورد أنّ المسلمين سبقهم المشركون إلى الماء فنزلوا على كثيب رمل ، وأصبحوا محدثين ومجنبين ، و أصابهم الظمأ ، ووسوس إليهم الشيطان فقال : إنّ عدوّكم

قد سبقكم إلى الماء ، و أنتم تصلّون مع الجنابة والحدث وتسوخ أقدامكم في الرمل فأمطر عليهم الله حتّى اغتسلوا به من الجنابة ، و تطهّروا به من الحدث ، وتلبّدت به أرضهم ، وأوحلت أرض عدوّهم .

قوله تعالى : « إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا سألقي في قلوب الّذين كفروا الرعب » إلى آخر الآية حال الظرف في أوّل الآية كحال الظرف في قوله : « إذ تستغيثون ربّكم » وقوله : « إذ يغشّيكم النعاس » ومعنى الآية ظاهر .

وأمّا قوله : « فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان » فالظاهر أن يكون المراد بفوق الأعناق الرؤوس وبكلّ بنان جميع الأطراف من اليدين والرجلين أو أصابع الأيدي لئلّا يطيقوا حمل السلاح بها والقبض عليه .

ومن الجائز أن يكون الخطاب بقوله : « فاضربوا » الخ للملائكة كما هو المتسابق إلى الذهن ، والمراد بضرب فوق الأعناق و كلّ بنان ظاهر معناه ، أو الكناية عن إذلالهم و إبطال قوّة الإمساك من أيديهم بالإرعاب ، و أن يكون الخطاب للمؤمنين والمراد به تشجيعهم على عدوّهم بتثبيت أقدامهم والربط على قلوبهم ، وحثّهم و إغراؤهم بالمشركين .

قوله تعالى : « ذلك بأنّهم شاقّوا الله ورسوله ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب » المشاقّة المخالفة وأصله الشقّ بمعنى البعض كأنّ المخالف يميل إلى شقّ غير شقّ من يخالفه ، والمعنى أنّ هذا العقاب للمشركين بما أوقع الله بهم ، لأنّهم خالفوا الله ورسوله وألحّوا وأصرّوا بذلك ومن يشاقق الله ورسوله فإنّ الله شديد العقاب .

قوله تعالى : «ذلكم فذوقوه وأنّ للكافرين عذاب النار» خطاب تشديديّ للكفّار يشير إلى ما نزل بهم من الخزي ويأمرهم بأن يذوقوه ، ويذكر لهم أنّ وراء ذلك عذاب النار .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع قال ابن عبّاس : لمّا كان يوم بدر واصطفّ القوم للقتال قال أبوجهل : اللّهمّ أولانا بالنصر فانصره ، واستغاث المسلمون فنزلت الملائكة ونزل قوله : « إذ تستغيثون ربّكم » إلى آخره .

و قيل : إنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا نظر إلى كثرة عدد المشركين و قلّة عدد المسلمين استقبل القبلة وقال : اللّهمّ أنجز لي ما وعدتني اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض فما زال يهتف ربّه مادّاً يديه حتّى سقط رداؤه من منكبيه فأنزل الله : « إذ تستغيثون ربّكم » الآية عن عمر بن الخطّاب والسدّيّ و أبي صالح و هو المرويّ عن أبي جعفر عليه السلام .

قال : ولمّا أمسى رسول الله وجنّه اللّيل ألقى الله على أصحابه النعاس وكانوا قد نزلوا في موضع كثير الرمل لاتثبت فيه قدم فأنزل الله عليهم المطر رذاذاً حتّى لبّد الأرض وثبت أقدامهم وكان المطر على قريش مثل العزالى ، وألقى الله في قلوبهم الرُّعب كما قال الله تعالى : « سأُلقي في قلوب الّذين كفروا الرعب » .

أقول : لفظ الآية : « إذ تستغيثون ربّكم » الخ لا يلائم نزولها يوم بدر عقيب استغاثتهم بل السياق يدلّ على نزولها مع قوله تعالى : « يسألونك عن الأنفال » والآيات التالية له ، وهي تدلّ على حكاية حال ماضية وامتنانه تعالى على المسلمين بما أُنزل عليهم من آيات النصر وتفاريق النعم ليشكروا له ويطيعوه فيما يأمرهم وينهاهم .

ولعلّ المراد من ذكر نزول الآية بعد ذكر استغاثتهم انطباق مضمون الآية على الواقعة ، وهو كثير النظير في الروايات المشتملة على أسباب النزول .

و في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب : قال النبيّ صلى الله عليه وآله في العريش : اللّهمّ إنّك إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد بعد هذا اليوم فنزل : « إذ تستغيثون ربّكم » فخرج يقول : سيهزم الجمع ويولّون الدبر فأيّده الله بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين ، و كثّرهم في أعين المشركين ، وقلّل المشركين في أعينهم فنزل : « وهم بالعدوة القصوى من الوادي

خلف العقنقل والنبيّ صلى الله عليه وآله بالعدوة الدنيا عند القليب .

أقول : والكلام فيه كالكلام في سابقه .

وفي المجمع : ذكر البلخيّ عن الحسن أنّ قوله : « وإذ يعدكم الله » الآية نزلت قبل قوله : « كما أخرجك ربّك من بيتك بالحقّ » وهي في القراءة بعدها .

أقول : وتقدّم مدلول إحدى الآيتين على مدلول الاُخرى بحسب الوقوع لايلازم سبقها نزولاً ، ولا دليل من جهة السياق يدلّ على ماذكره .

وفي تفسير العيّاشيّ عن محمّد بن يحيى الخثعميّ عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم وتودّون أنّ غير ذات الشوكة تكون لكم » فقال : الشوكة الّتي فيها القتال .

أقول : وروى مثله القمّيّ في تفسيره .

و في المجمع قال أصحاب السير و ذكر أبوحمزة و عليّ بن إبراهيم في تفسيرهما ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ أقبل أبوسفيان بعير قريش من الشام وفيها أموالهم وهي اللطيمة ، و فيها أربعون راكباً من قريش فندب النبيّ صلى الله عليه وآله أصحابه للخروج إليها ليأخذوها ، وقال : لعلّ الله أن ينفلكموها فانتدب الناس فخفّ بعضهم وثقل بعضهم ، ولم يظنّوا أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله يلقى كيداً ولاحرباً فخرجوا لايريدون إلّا أباسفيان و الركب لايرونها إلّا غنيمة لهم .

فلمّا سمع أبوسفيان بمسير النبيّ صلى الله عليه وآله استأجر ضمضم بن عمر و الغفّاريّ فبعثه إلى مكّة ، و أمره أن يأتي قريشاً فيستنفرهم و يخبرهم أنّ محمّداً قد تعرّض لعيرهم في أصحابه فخرج ضمضم سريعاً إلى مكّة .

وكانت عاتكة بنت عبدالمطّلب رأت فيما يرى النائم قبل مقدم ضمضم بن عمر و بثلاث ليال أنّ رجلاً أقبل على بعيرله ينادي ياآل غالب اغدوا إلى مصارعكم ثمّ وافى بجمله على أبي قبيس فأخذ حجراً فدهدهه من الجبل فماترك داراً من دور قريش إلّا أصابته منه فلذة فانتبهت فزعة من ذلك و أخبرت العبّاس بذلك فأخبر العبّاس عتبة بن ربيعة فقال عتبة : هذه مصيبة تحدث في قريش ، وفشت الرؤيافيهم و بلغ ذلك أباجهل فقال : هذه

نبيّة ثانية في بني عبدالمطّلب ، واللاّت والعزّى لننظرنّ ثلاثة أيّام فإن كان مارأت حقّاً و إلّا لنكتبنّ كتاباً بيننا : أنّه مامن أهل بيت من العرب أكذب رجالاً و نساءً من بني هاشم .

فلمّا كان اليوم الثالث أتاهم ضمضم يناديهم بأعلى الصوت يا آل غالب يا آل غالب . اللطيمة اللطيمة . العير العير . أدركوا و ما أراكم تدركون إنّ محمّداً و الصباة من أهل يثرب قد خرجوا يتعرّضون لعيركم فتهيّأوا للخروج ، و ما بقي أحد من عظماء قريش إلّا أخرج مالاً لتجهيز الجيش ، و قالوا من لم يخرج نهدم داره ، وخرج معهم العبّاس بن عبدالمطّلب، ونوفل بن الحارث بن عبد المطّلب ، و عقيل بن أبي طالب ، و أخرجوا معهم القيان يضربن الدفوف .

و خرج رسول الله صلّى الله عليه وآله في ثلاثمأة و ثلاثة عشر رجلاً فلمّا كان بقرب بدر أخذ عيناً للقوم فأخبره بهم ، و في حديث أبي حمزة : بعث رسول الله صلّى الله عليه وآله أيضاً عيناً له على العير اسمه عديّ فلمّا قدم على رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبره أين فارق العير نزل جبرائيل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبره بنفير المشركين من مكّة فاستشار أصحابه في طلب العير و حرب النفير فقام أبو بكر فقال: يا رسول الله إنّها قريش وخيلاؤها ما آمنت منذ كفرت ، ولا ذلّت منذ عزّت، ولم نخرج على هيئة الحرب ؛ و في حديث أبي حمزة : أنا عالم بهذا الطريق فارق عديّ العير بكذا و كذا ، وساروا وسرنا فنحن والقوم على ماء بدر يوم كذا و كذا كأنّا فرسا رهان فقال صلّى الله عليه وآله : اجلس فجلس . ثمّ قام عمر بن الخطّاب فقال : مثل ذلك ، فقال صلّى الله عليه وآله اجلس فجلس .

ثمّ قام المقداد فقال : يارسول الله إنّها قريش وخيلاؤها ، وقد آمنّا بك وصدّقنا وشهدنا أنّ ما جئت به حقّ ، والله لو أمرتنا أن نخوض جمر الغضا وشوك الهراس لخضناه معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربّك فقاتلا إنّا ههنا قاعدون ولكنّا نقول : إمض لأمر ربّك فإنّا معك مقاتلون فجزاه رسول الله صلّى الله عليه وآله خيراً على قوله ذاك .

ثمّ قال : أشيروا عليّ أيّها الناس وإنّما يريد الأنصار لأنّ أكثر الناس منهم ،

ولأنّهم حين بايعوه بالعقبة قالوا : إنّا برآء من ذمّتك حتّى تصل إلى دارنا ثمّ أنت في ذمّتنا نمنعك ممّا نمنع أبناءنا ونساءنا فكان صلى الله عليه وآله يتخوّف أن لايكون الأنصار ترى عليها نصرته إلّا على من دهمه بالمدينة من عدوّ ، وأن ليس عليهم أن ينصروه خارج المدينة .

فقام سعد بن معاذ فقال : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله كأنّك أردتنا . فقال : نعم . قال : بأبي أنت واُمّي يا رسول الله إنّا قد آمنّا بك وصدّقناك وشهدنا أنّ ماجئت به حقّ من عند الله فمرنا بما شئت ، وخذ من أموالنا ما شئت ، واترك منها ما شئت ، والله لو أمرتنا أن نخوض هذا البحر لخضناه معك و لعلّ الله عزّ وجلّ أن يريك منّا ما تقرّ به عينك فسر بنا على بركة الله .

ففرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وآله و قال : سيروا على بركة الله فإنّ الله عزّ وجلّ قد وعدني إحدى الطائفتين و لن يخلف الله وعده ، والله لكأنّي أنظر إلى مصرع أبي جهل بن هشام وعتبة بن ربيعة وشيبة بن ربيعة وفلان وفلان(١).

وأمر رسول الله صلى الله عليه وآله بالرحيل ، و خرج إلى بدر وهو بئر ، و في حديث أبي حمزة الثمالي : بدرُ رجل من جهينة والماء ماؤه فإنّما سمّي الماء باسمه ، وأقبلت قريش و بعثوا عبيدها ليستقوا من الماء فأخذهم أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وقالوا لهم : من أنتم ؟ قالوا نحن عبيد قريش . قالوا : فأين العير ؟ قالوا لا علم لنا بالعير فأقبلوا يضربونهم ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله يصلّي فانفتل من صلاته وقال : إن صدقوكم ضربتموهم و إن كذبوكم تركتموهم فأتوه بهم فقال لهم : من أنتم ؟ قالوا : يا محمّد نحن عبيد قريش ، قال : كم القوم ؟ قالوا : لا علم لنا بعددهم قال : كم ينحرون في كلّ يوم من جزور ؟ قالوا : تسعة إلى عشرة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله القوم تسعمأة إلى ألف رجل ، وأمر صلى الله عليه وآله بهم فحبسوا و بلغ ذلك قريشاً ففزعوا وندموا على مسيرهم .

ولقي عتبة بن ربيعة أبا البختريّ بن هشام فقال: أماترى هذا البغي والله ما اُبصر موضع قدمي خرجنا لنمنع عيرنا وقد أفلتت فجئنا بغياً وعدواناً ، والله ما أفلح قوم بغوا قطّ ، ولوددت أنّ ما في العير من أموال بني عبد مناف ذهبت ولم نسر هذا المسير فقال له أبو البختريّ : إنّك

(١) وقد كان صلى الله عليه وآله يشير بذلك الى لقاء النفير وهم يرجون لقاء العير .

سيّد من سادات قريش فسر في الناس وتحمّل العير الّتي أصابها محمّد وأصحابه بنخلة [١] ودم ابن الحضرميّ فإنّه حليفك . فقال له عليّ ذلك ، و ما على أحد منّا خلاف إلّا ابن الحنظليّة يعني أبا جهل فصر إليه وأعلمه أنّي حملت العير ودم ابن الحضرميّ وهوحليفي وعليّ عقله .

قال : فقصدت خباءه وأبلغته ذلك فقال : إنّ عتبة يتعصّب لمحمّد فإنّه من بني عبدمناف وابنه معه يريد أن يخذل بين الناس لا واللّات والعزّى حتّى نقحم عليهم يثرب أو نأخذهم اُسارى فندخلهم مكّة و تتسامع العرب بذلك ، و كان أبو حذيفة بن عتبة مع رسول الله صلى الله عليه وآله .

وكان أبوسفيان لمّا جاز بالعير بعث إلى قريش : قد نجّى الله عيركم فارجعوا ودعوا محمّداً والعرب ، وادفعوه بالراح ما اندفع ، و إن لم ترجعوا فردّوا القيان فلحقهم الرسول في الجحفة فأراد عتبة أن يرجع فأبى أبوجهل وبنومخزوم وردّوا القيان من الجحفة .

قال : وفزع أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا بلغهم كثرة قريش ، واستغاثوا وتضرّعوا فأنزل الله عزّ وجلّ : « إذ تستغيثون ربّكم » وما بعده .

قال الطبرسيّ : ولمّا أصبح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم بدر عبّأ أصحابه فكان في عسكره فرسان : فرس للزبير بن عوّام وفرس للمقداد بن الأسود ، وكان في عسكره سبعون جملاً كانوا يتعاقبون عليها ، وكان رسول الله صلى الله عليه وآله و عليّ بن أبي طالب عليه السلام و مرثد بن أبي مرثد الغنويّ يتعاقبون على جمل لمرثد بن أبي مرثد وكان في عسكر قريش أربعمأة فرس ، وقيل : مأتا فرس .

فلمّا نظرت قريش إلى قلّة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله قال أبوجهل : ما هم إلّا اُكلة رأس لو بعثنا إليهم عبيدنا لأخذوهم أخذاً باليد ، فقال عتبة بن ربيعة : أترى لهم كميناً أو مدداً ؟ فبعثوا عمير بن وهب الجمحيّ وكان فارساً شجاعاً فجال بفرسه حتّى طاف على عسكر رسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ رجع فقال : ليس لهم كمين ولا مدد ولكن نواضح يثرب قد حملت

---

(١) وقد تقدمت الروايات في قصته في الجزء الثاني من الكتاب في ذيل قوله تعالى : يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الاية البقرة : ٢١٧ .

الموت الناقع أما ترونهم خرساً لا يتكلّمون ويتلمّظون تلمّظ الأفاعي ما لهم ملجأ إلّا سيوفهم ، وما أراهم يولّون حتّى يقتلوا ، ولا يقتلون حتّى يقتلوا بعددهم فارتأوا رأيكم فقال له أبوجهل : كذبت وجبنت .

فأنزل الله تعالى : « و إن جنحوا للسلم فاجنح لها » فبعث إليهم رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا معشر قريش إنّي أكره أن أبدأ بكم فخلّوني والعرب وارجعوا فقال عتبة : ماردّ هذا قوم قطّ فأفلحوا ، ثمّ ركب جملاً له أحمر فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله و هو يجول بين العسكرين وينهى عن القتال فقال صلى الله عليه وآله : إن يك عند أحد خير فعند صاحب الجمل الأحمر وإن يطيعوه يرشدوا .

وخطب عتبة فقال في خطبته : يا معشر قريش أطيعوني اليوم واعصوني الدهر إنّ محمّداً له إلّ وذمّة وهو ابن عمّكم فخلّوه والعرب فإن يك صادقاً فأنتم أعلى عيناً به وإن يك كاذباً كفتكم ذؤبان العرب أمره فغاظ أبا جهل قوله و قال له : جبنت وانتفخ سحرك فقال : يا مصفّر إسته مثلي يجبن ؟ وستعلم قريش أيّنا ألأم وأجبن ؟ و أيّنا المفسد لقومه .

ولبس درعه وتقدّم هو وأخوه شيبة وابنه الوليد ، وقال : يا محمّد أخرج إلينا أكفاءنا من قريش فبرز إليهم ثلاثة نفر من الأنصار وانتسبوا لهم فقالوا : ارجعوا إنّما نريد الأكفاء من قريش فنظر رسول الله صلى الله عليه وآله إلى عبيدة بن الحارث بن عبدالمطّلب ـ وكان له يومئذ سبعون سنة ـ فقال : قم يا عبيدة ، ونظر إلى حمزة فقال : قم يا عمّ ثمّ نظر إلى عليّ بن أبي طالب فقال : قم يا عليّ ـ وكان أصغر القوم ـ فاطلبوا بحقّكم الّذي جعله الله لكم فقد جاءت قريش بخيلائها و فخرها تريد أن تطفيء نور الله ويأبى الله إلّا أن يتمّ نوره . ثمّ قال : يا عبيدة عليك بعتبة بن ربيعة ، وقال لحمزة عليك بشيبة ، وقال لعليّ : عليك بالوليد .

فمرّوا حتّى انتهوا إلى القوم فقالوا : أكفاء كرام فحمل عبيدة على عتبة فضربه على رأسه ضربة فلقت هامته ، وضرب عتبة عبيدة على ساقه فأطنّها فسقطا جميعاً ، وحمل شيبة على حمزة فتضاربا بالسيفين حتّى انثلما ، وحمل أمير المؤمنين عليّ عليه السلام على الوليد فضربه على حبل عاتقه فأخرج السيف من إبطه قال عليّ لقد أخذ الوليد يمينه بيساره فضرب بها هامتي فظننت أنّ السماء وقعت على الأرض .

ثمّ اعتنق حمزة وشيبة فقال المسلمون : يا عليّ أما ترى أنّ الكلب قد نهز عمّك فحمل عليه عليّ عليه السلام ثمّ قال : يا عمّ طأطئ رأسك وكان حمزة أطول من شيبة فأدخل حمزة رأسه في صدره فضربه عليّ فطرح نصفه ثمّ جاء إلى عتبة و به رمق فأجهز عليه .

و في رواية أُخرى أنّه برز حمزة لعتبة ، وبرز عبيدة لشيبة ، وبرز عليّ للوليد فقتل حمزة عتبة ، وقتل عبيدة شيبة ، و قتل عليّ عليه السلام الوليد ، فضرب شيبة رجل عبيدة فقطعها فاستنقذه حمزة وعليّ ، وحمل عبيدة حمزة وعليّ حتّى أتيا به رسول الله صلى الله عليه وآله فاستعبر فقال : يا رسول الله ألست شهيداً ؟ قال : بلى أنت أوّل شهيد من أهل بيتي .

و قال أبوجهل لقريش : لا تعجلوا ولا تبطروا كما بطر أبناء ربيعة عليكم بأهل يثرب فاجزروهم جزراً ، وعليكم بقريش فخذوهم أخذاً حتّى ندخلهم مكّة فنعرّفهم ضلالتهم الّتي هم عليها .

وجاء إبليس في صورة سراقة بن مالك بن جشعم فقال لهم : أنا جار لكم ادفعوا إليّ رايتكم فدفعوا إليه راية الميسرة وكانت الراية مع بني عبدالدار فنظر إليه رسول الله صلى الله عليه وآله فقال لأصحابه : غضّوا أبصاركم ، وعضّوا على النواجذ ، ورفع يده فقال : اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لا تعبد ثمّ أصابه الغشي فسري عنه وهو يسلك العرق عن وجهه فقال : هذا جبرائيل قد أتاكم بألف من الملائكة مردفين.

و في الأمالي بإسناده عن الرضا عن آبائه عليهم السلام : أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله سافر إلى بدر في شهر رمضان وافتتح مكّة في شهر رمضان .

أقول : وعلى ذلك أطبق أهل السير والتواريخ ، قال اليعقوبيّ في تاريخه : وكانت وقعة بدر يوم الجمعة لثلاث عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان بعد مقدمه صلى الله عليه وآله - يعني إلى المدينة - بثمانية عشر شهراً .

وقال الواقديّ : ونزل رسول الله صلى الله عليه وآله وادي بدر عشاء ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من شهر رمضان فبعث عليّاً والزبير وسعد بن أبي وقّاص وبسبس بن عمرو يتجسّسون على الماء فوجدوا روايا قريش فيها سقاؤهم فأسروهم و أفلت بعضهم ، و أتوا بهم النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وهو قائم يصلّي فسألهم المسلمون فقالوا : نحن سقاء قريش بعثونا نسقيهم

من الماء فضربوهم فلمّا أن لقوهم بالضرب قالوا : نحن لأبي سفيان ونحن في العير ، وهذا العير بهذا القوز فكانوا إذا قالوا ذلك يمسكون عن ضربهم. فسلّم رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من صلاته ثمّ قال : إن صدقوكم ضربتموهم وإن كذبوكم تركتموهم .

فلمّا أصبحوا عدّل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الصفوف وخطب المسلمين فحمد الله وأثنى عليه ثمّ قال :

أمّا بعد فإنّي أحثّكم على ما حثّكم الله عليه ، وأنهاكم عمّا نهاكم الله عنه فإنّ الله عظيم شأنه ، يأمر بالحقّ ، ويحبّ الصدق ، ويعطي على الخير أهله على منازلهم عنده به يذكرون ، وبه يتفاضلون ، وإنّكم قد أصبحتم بمنزل من منازل الحقّ لا يقبل الله فيه من أحد إلّا ما ابتغى به وجهه ، وإنّ الصبر في مواطن البأس ممّا يفرّج الله به الهمّ وينجّي به من الغمّ تدركون به النجاة في الآخرة ، فيكم نبيّ الله يحذّركم ويأمركم فاستحيوا اليوم أن يطلع الله على شيء من أمركم يمقتكم عليه فإنّه تعالى يقول : لمقت الله أكبر من مقتكم أنفسكم انظروا في الّذي أمركم به من كتابه ، وأراكم من آياته ، وما أعزّكم به بعد الذلّة فاستكينوا له يرض ربّكم عنكم ، وأبلوا ربّكم في هذه المواطن أمراً تستوجبوا به الّذي وعدكم من رحمته ومغفرته فإنّ وعده حقّ ، وقوله صدق ، وعقابه شديد ، وإنّما أنا وأنتم بالله الحيّ القيّوم ، إليه ألجأنا ظهورنا ، وبه اعتصمنا ، وعليه توكّلنا ، وإليه المصير ، ويغفر الله لي وللمسلمين .

وفي المجمع : ذكر جماعة من المفسّرين كابن عبّاس وغيره : أنّ جبرائيل قال للنبيّ صلّى الله عليه وآله يوم بدر خذ قبضة من تراب فارمهم بها فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لمّا التقى الجمعان لعليّ : أعطني قبضة من حصا الوادي فناوله كفّاً من حصا عليه تراب فرمى به في وجوه القوم وقال : شاهت الوجوه فلم يبق مشرك إلّا دخل في عينه وفمه ومنخريه منها شيء ثمّ ردفهم المؤمنون يقتلونهم ويأسرونهم ، وكانت تلك الرمية سبب هزيمة القوم .

وفي الأمالي بإسناده عن ابن عبّاس قال : وقف رسول الله صلّى الله عليه وآله على قتلى بدر فقال: جزاكم الله من عصابة شرّاً لقد كذّبتموني صادقاً وخوّنتم أميناً ، ثمّ التفت إلى أبي جهل بن هشام فقال : إنّ هذا أعتى على الله من فرعون إنّ فرعون لمّا أيقن بالهلاك وحّد الله ،

وإنّ هذا لمّا أيقن بالهلاك دعا باللات والعزى .

وفي المغازي للواقدي : وأمر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يوم بدر بالقليب أن تغوّر ثمّ أمر بالقتلى فطرحوا فيها كلّهم إلّا أميّة بن خلف فإنّه كان مسمناً انتفخ من يومه فلمّا أرادوا أن يلقوه تزايل لحمه فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : اُتركوه ، فأقرّوه و ألقوا عليه من التراب والحجارة ماغيّبه .

ثمّ وقف على أهل القليب فناداهم رجلاً رجلاً : هل وجدتم ما وعد ربّكم حقّاً فإنّي قد وجدت ماوعدني ربّي حقّاً بئس القوم كنتم لنبيّكم كذّبتموني وصدّقني الناس، وأخرجتموني وآواني الناس ، و قاتلتموني و نصرني الناس . فقالوا يا رسول الله أتنادي قوماً قد ماتوا ؟ فقال : لقد علموا أنّ ما وعدهم ربّهم حقّ ، وفي رواية اُخرى : فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ولكنّهم لا يستطيعون أن يجيبوني .

قال : وكان انهزام قريش حين زالت الشمس فأقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ببدر وأمر عبدالله بن كعب بقبض الغنائم وحملها ، وأمر نفراً من أصحابه أن يعينوه فصلّى العصر ببدر ثمّ راح فمرّ بالأثيل قبل غروب الشمس فنزل به وبات ، وبأصحابه جراح وليست بالكثيرة ، وأمر ذكوان بن عبد قيس أن يحرس المسلمين حتّى كان آخر اللّيل فارتحل .

وفي تفسير القمّي في خبر طويل : وخرج أبوجهل من بين الصفّين وقال : اللّهمّ إنّ محمّداً أقطعنا للرحم ، وآتانا بمالا نعرفه فأحنه الغداة فأنزل الله على رسوله : « إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح وإن تنتهوا فهو خير لكم وإن تعودوا نعد ولن تغني عنكم فئتكم شيئاً ولو كثرت وإنّ الله مع المؤمنين .

ثمّ أخذ رسول الله صلى الله عليه وآله كفّاً من حصى ورمى به في وجوه قريش وقال : شاهت الوجوه فبعث الله رياحاً تضرب في وجوه قريش فكانت الهزيمة فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : اللّهمّ لايفلتنّ فرعون هذه الاُمّة أبوجهل بن هشام فقتل منهم سبعين ، وأسر منهم سبعين .

والتقى عمرو بن الجموح مع أبي جهل فضرب عمرو أباجهل على فخذه وضرب أبوجهل عمراً على يده فأبانها من العضد فتعلّقت بجلده فاتّكى عمرو على يده برجله ثمّ تراخى إلى

السماء حتّى انقطعت الجلدة ورمى بيده .

وقال عبدالله بن مسعود : انتهيت إلى أبي جهل وهو يتشحّط بدمه فقلت : الحمد لله الّذي أخزاك فرفع رأسه فقال : إنّما أخزى الله عبداً ، ابن امّ عبد لمن الدبرة ويلك ؟ قلت: لله ولرسوله وإنّي قاتلك ، و وضعت رجلي على عنقه فقال : ارتقيت مرتقى صعباً يا رويعي الغنم أما إنّه ليس شيء أشدّ من قتلك إيّاي في هذا اليوم ألا تولّى قتلي رجل من المطّلبيّين أورجل من الأحلاف ؟ فاقتلعت بيضة كانت على رأسه فقتلته و أخذت رأسه و جئت به إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله و قلت : يا رسول الله البشرى هذا رأس أبي جهل بن هشام فسجد لله شكراً .

وفي الإرشاد للمفيد ثمّ بارز أمير المؤمنين عليه السلام العاص بن سعيد بن العاص بعد أن أحجم عنه من سواه فلم يلبث أن قتله ، وبرز إليه حنظلة بن أبي سفيان فقتله ، وبرز إليه بعده طعيمة بن عديّ فقتله ، وقتل بعده نوفل بن خويلد وكان من شياطين قريش ، ولم يزل يقتل واحداً منهم بعد واحد حتّى أتى على شطر المقتولين منهم وكانوا سبعين رجلاً ، تولّى كافّة من حضر بدراً من المسلمين مع ثلاثة آلاف من الملائكة المسوّمين قتل الشطر منهم ، وتولّى أمير المؤمنين عليه السلام قتل الشطر الآخر وحده .

و في الإرشاد أيضا : قد أثبتت رواة العامّة و الخاصّة معاً أسماء الّذين تولّى أمير المؤمنين عليه السلام قتلهم ببدر من المشركين على اتّفاق فيما نقلوه من ذلك واصطلاح فكان ممّن سمّوه : الوليد بن عتبة كما قدّمناه و كان شجاعاً جريّاً وقاحاً فتّاكاً تهابه الرجال ، و العاص بن سعيد وكان هولاً عظيماً تهابه الأبطال ، وهو الّذي حاد عنه عمر بن الخطّاب و قصّته فيما ذكرناه مشهورة نحن نبيّنها فيما نورده ، وطعيمة بن عديّ بن نوفل و كان من رؤوس أهل الضلال ، ونوفل بن خويلد وكان من أشدّ المشركين عداوة لرسول الله صلّى الله عليه وآله ، و كانت قريش تقدّمه وتعظّمه وتطيعه ، وهو الّذي قرن أبابكر وطلحة قبل الهجرة بمكّة و أوثقهما بحبل وعذّبهما يوماً إلى الليل حتّى سئل في أمرهما ، ولمّا عرف رسول الله صلّى الله عليه وآله حضوره بدراً سأل الله أن يكفيه أمره فقال : اللّهمّ اكفني نوفل بن خويلد فقتله أمير المؤمنين عليه السلام .

وزمعة بن الأسود[١]، والحارث بن زمعة، والنضر بن الحارث بن عبد الدار، وعمير بن عثمان بن كعب بن تيم عمّ طلحة بن عبيدالله، وعثمان ومالك ابنا عبيدالله أخوا طلحة بن عبيدالله ومسعود بن أبي أُميّة بن المغيرة، وقيس بن الفاكه بن المغيرة، وحذيفة بن أبي حذيفة بن المغيرة و[أبو]قيس[٢] بن الوليد بن المغيرة، وحنظلة بن أبي سفيان، وعمرو بن مخزوم، وأبو منذر بن أبي رفاعة، ومنبّه بن الحجّاج السهميّ، والعاص بن منبّه، وعلقمة بن كلدة، وأبو العاص ابن قيس بن عديّ، ومعاوية بن المغيرة بن أبي العاص، ولوذان بن ربيعة، وعبدالله بن المنذر بن أبي رفاعة، ومسعود بن أُميّة بن المغيرة، وحاجب بن السائب بن عويمر، وأوس بن المغيرة بن لوذان، وزيد بن مليص، وعاصم بن أبي عوف، وسعيد بن وهب حليف بني عامر، ومعاوية بن [عامر بن]عبد القيس، وعبدالله بن جميل بن زهير بن الحارث بن أسد، و السائب بن مالك، و أبو الحكم بن الأخنس، وهشام بن أبي أُميّة بن المغيرة.

فذلك خمسة وثلاثون رجلاً سوى من اختلف فيه أوشرك أمير المؤمنين عليه السلام فيه غيره وهم أكثر من شطر المقتولين ببدر على ماقدّمناه.

أقول: وذكر غيره كما في المجمع أنّه قتل يوم بدر سبعة وعشرين رجلاً، وذكر الواقديّ: أنّ الّذي اتّفق عليه قول النقلة و الرّواة من قتلاه تسعة رجال و الباقي مختلف فيه.

لكنّ البحث العميق عن القصّة و ما يحتفّ بها من أشعارهم و الحوادث المختلفة الّتي حدثت بعدها تسيء الظنّ بهذا الاختلاف، وقد نقل عن محمّد بن إسحاق أنّ أكثر قتلى المشركين يوم بدر كان لعليّ عليه السلام.

وقد عدّ الواقديّ فيما ذكره ابن أبي الحديد من قتلى المشركين في وقعة بدر اثنين وخمسين رجلاً و نسب قتل أربعة وعشرين منهم إليه عليه السلام ممّن انفرد بقتله أوشارك غيره.

ومن شعر أُسيد بن أبي أياس يحرّض مشركي قريش على عليّ عليه السلام على مافي الإرشاد والمناقب قوله:

في كلّ مجمع غاية أخزاكم　*　جذع أُبرّ على المذاكي القرّح

(١) في بعض النسخ: وعقيل بن الاسود وفيه فذلك ستة وثلاثون.
(١) هو أخو خالد بن الوليد، والثلاثة الذين قتله أبناء أعمامه.

لله درّكم ألمّا تنكروا * قد ينكر الحرّ الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة الّذي أفناكم * ذبحاً و قتلة قعصة لم تذبح
أعطوه خرجاً واتّقوا تضريبه * فعل الذليل و بيعة لم تربح
أين الكهول وأين كلّ دعامة * في المعضلات وأين زين الأبطح
أفناهم قعصاً و ضرباً يفترى * بالسيف يعمل حدّه لم يصفح

وفي الإرشاد روى شعبة عن أبي إسحاق عن حارث بن مضرّب قال : سمعت عليّ بن أبي طالب عليه السلام يقول : لقد حضرنا بدراً وما فينا فارس غير المقداد بن الأسود ، ولقد رأيتنا ليلة بدر وما فينا إلّا من نام غير رسول الله صلى الله عليه وآله فإنّه كان منتصباً في أصل شجرة يصلّي فيها ويدعو حتّى الصباح .

أقول : والروايات في قصّة بدر كثيرة جدّاً وقد اقتصرنا منها على ما يتّضح به فهم مضامين الآيات ، ومن الأخبار ما سيأتي إن شاء الله في تضاعيف البحث عن الآيات التالية المشيرة إلى بعض أطراف القصّة .

(فهرس أسماء شهداء بدر.رض)

في البحار عن الواقديّ قال : حدّثني عبد الله بن جعفر قال : سألت الزّهريّ كم استشهد من المسلمين ببدر ؟ قال : أربعة عشر : ستّة من المهاجرين ، و ثمانية من الأنصار .

قال : فمن بني المطّلب بن عبد مناف ، عبيدة بن الحارث قتله عتبة وفي غير رواية الواقديّ قتله شيبة فدفنه النبيّ صلى الله عليه وآله بالصفراء ، و من بني زهرة عمير بن أبي وقّاص قتله عمرو بن عبدودّ فارس الأحزاب ، و عمير بن عبدودّ ذو الشمالين حليف لبني زهرة قتله أبو اُسامة الجشميّ ، ومن بني عديّ عاقل بن أبي البكير حليف لهم من بني سعد قتله مالك بن زهير ، ومهجع مولى عمر بن الخطّاب قتله عامر بن الحضرميّ ويقال : إنّ مهجعاً أوّل من قتل من المهاجرين ، ومن بني الحارث بن فهر صفوان بن بيضاء قتله طعيمة بن عديّ .

ومن الأنصار ثمّ من بني عمرو بن عوف مبشّر بن عبد المنذر قتله أبو ثور ، وسعد بن

خيثمة قتله عمرو بن عبدود ، ويقال : طعيمة بن عدي ، ومن بني عدي بن النجار حارثة بن سراقة رماه حنان بن العرقة بسهم فأصاب حنجرته فقتله ، ومن بني مالك بن النجار عوف ومعوذ ابنا عفراء قتلهما أبو جهل ، ومن بني سلمة عمير بن الحمام بن الجموح قتله خالد بن الأعلم ، ويقال : إنه أول قتيل قتل من الأنصار ، وقد روي : أن أول قتيل منهم حارثة بن سراقة ، ومن بني زريق رافع بن المعلى قتله عكرمة بن أبي جهل ، ومن بني الحارث بن الخزرج يزيد بن الحارث قتله نوفل بن معاوية فهؤلاء الثمانية من الأنصار .

وروي عن ابن عباس : أن أنسة مولى النبي صلى الله عليه وسلم قتل ببدر ، وروي : أن معاذ بن ماعص جرح ببدر فمات من جراحته بالمدينة ، و ابن [أن ظ] عبيد بن السكن جرح فاشتكى جرحه فمات منه .

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

***

يا أيّها الّذين آمنوا اذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلاتولّوهم الأدبار(١٥)
و من يولّهم يومئذ دبره الّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً الى فئة فقدباء بغضب
من اللّه ومأواه جهنّم و بئس المصير(١٦) فلم تقتلوهم ولكنّ اللّه قتلهم و ما
رميت اذ رميت ولكنّ اللّه رمى وليبلى المؤمنين منه بلاء حسناً انّ اللّه سميع
عليم(١٧) ذلكم و أنّ اللّه موهن كيد الكافرين (١٨) ان تستفتحوا فقد جاءكم
الفتح وان تنتهوا فهو خير لكم و ان تعودوا نعد ولن تغنى عنكم فئتكم شيئاً
ولو كثرت وأنّ اللّه مع المؤمنين(١٩) يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا اللّه ورسوله
ولا تولّوا عنه و أنتم تسمعون (٢٠) و لا تكونوا كالّذين قالوا سمعنا وهم
لايسمعون (٢١) انّ شرّ الدّوابّ عند اللّه الصّمّ البكم الّذين لايعقلون (٢٢) ولو
علم اللّه فيهم خيراً لأسمعهم ولو أسمعهم لتولّوا وهم معرضون (٢٣) يا أيّها
الّذين آمنوا استجيبوا للّه وللرّسول اذا دعاكم لما يحييكم و اعلموا أنّ اللّه
يحول بين المرء و قلبه و أنّه اليه تحشرون (٢٤) و اتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين
ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنّ اللّه شديد العقاب (٢٥) واذكروا اذ أنتم قليل
مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم النّاس فآويكم و أيّدكم بنصره
و رزقكم من الطّيّبات لعلّكم تشكرون(٢٦) يا أيّها الّذين آمنوا لاتخونوا اللّه
والرّسول و تخونوا أماناتكم و أنتم تعلمون (٢٧) و اعلموا أنّما أموالكم و
أولادكم فتنة و أنّ اللّه عنده أجر عظيم (٢٨) يا أيّها الّذين آمنوا ان تتّقوا
اللّه يجعل لكم فرقاناً و يكفّر عنكم سيّآتكم و يغفرلكم واللّه ذوالفضل
العظيم (٢٩) .

﴿بيان﴾

أوامر ونواه متعلّقة بالجهاد الإسلاميّ ممّا يناسب سوق القصّة ، و حثّ على تقوى الله و إنذار و تخويف من مخالفة الله و رسوله والتعرّض لسخطه سبحانه ، و فيها إشارة إلى بعض ماجرى في وقعة بدر من منن الله و أياديه على المؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار » اللّقاء مصدر لقي يلقى من المجرّد ولاقى يلاقي من المزيد فيه قال الراغب في مفردات القرآن : اللقاء مقابلة الشيء و مصادفته معاً ، وقد يعبّر به عن كلّ واحد منهما يقال : لقيه يلقاه لقاءً ولقيّاً ولقية ، ويقال ذلك في الإدراك بالحسّ وبالبصر وبالبصيرة قال : لقد كنتم تمنّون الموت من قبل أن تلقوه ، وقال : لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً ، و ملاقاة الله عبارة عن القيامة وعن المصير إليه قال : واعلموا أنّكم ملاقوه ، وقال : الّذين يظنّون أنّهم ملاقوا الله ، واللّقاء الملاقاة قال: وقال الّذين لا يرجون لقاءنا ، وقال: إلى ربّك كدحاً فملاقيه . انتهى.

وقال في المجمع : اللقاء الاجتماع على وجه المقاربة لأنّ الاجتماع قد يكون على غير وجه المقاربة فلا يكون لقاء كاجتماع الأعراض في المحلّ الواحد . انتهى .

وقال فيه : الزحف الدنوّ قليلاً قليلاً، والتزاحف التداني يقال: زحف يزحف زحفاً وأزحفت للقوم إذا دنوت لقتالهم وثبتّ لهم قال اللّيث : الزحف جماعة يزحفون إلى عدوّ لهم بمرّة وجمعه زحوف . انتهى.

وتولية الأعداء الأدبار جعلهم يلونها وهو استدبار العدوّ واستقبال جهة الهزيمة .

و خطاب الآية عامّ غير خاصّ بوقت دون وقت ولا غزوة دون غزوة فلا وجه لتخصيصها بغزوة بدر وقصر حرمة الفرار من الزحف بها كما يحكى عن بعض المفسّرين. على أنّك عرفت أنّ ظاهر سياق الآيات أنّها نزلت بعد غزوة بدر لا يومها ، وأنّ الآيات ذيل ما في صدر السورة من قوله : « يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله و الرسول » الآية ، وللكلام تتمّة ستوافيك في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى: « و من يولّهم يومئذ دبره إلّا متحرّفاً لقتال أومتحيّزاً إلى فئة » إلى آخرالآية . التحرّف : الزوال عن جهة الاستواء إلى جهة الحرف و هوطرف الشيء وهو أن ينحرف و ينعطف المقاتل من جهة إلى جهة اُخرى ليتمكّن من عدوّه و يبادر إلى إلقاء الكيد عليه ، والتحيّز هوأخذ الحيّز وهوالمكان ، والفئة القطعة منجماعة الناس ، والتحيّز إلى فئة أن ينعطف المقاتل عن الانفراد بالعدوّ إلى فئة من قومه فيلحق بهم و يقاتل معهم .

والبواء الرجوع إلى مكان و الاستقرار فيه ، ولذا قال الراغب : أصل البواء مساواة الأجزاء في المكان خلاف النبوة الّذي هو منافاة الأجزاء . انتهى فمعنى قوله : باء بغضب من الله أي رجع ومعه غضب من الله .

فمعنى الآيتين : يا أيّها الّذين آمنوا إذالقيتم الّذين كفروا لقاء زحف أو زاحفين للقتال فلاتفرّوا منهم و من يفرّ منهم يومئذ أي وقتئذ فقد رجع ومعه غضب من الله ومأواه جهنّم و بئس المصير إلّا أن يكون فراره للتحرّف لقتال أوالتحيّز إلى فئة فلابأس به .

قوله تعالى: « فلم تقتلوهم ولكنّ الله قتلهم و ما رميت إذرميت و لكنّ الله رمى » إلىآخر الآية ، التدبّر في السياق لايدع شكّاً في أنّ الآية تشير إلى وقعة بدر وما صنعه رسول الله صلى الله عليه وآله من رميهم بكفّ من الحصا ، و المؤمنون بوضع السيف فيهم و قتلهم القتل الذريع ، و ذيل الآية أعني قوله : و ليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً » يدلّ على أنّ الكلام جار مجرى الامتنان منه تعالى ، و قد أثبت تعالى عين مانفاه في جملة واحدة أعني قوله : « ومارميت إذرميت » .

فمن جميع هذه الشواهد يتحصّل أنّ المراد بقوله : « فلم تقتلوهم و لكنّ الله قتلهم ومارميت إذرميت و لكنّ الله رمى » نفي أن تكون وقعة بدر و ما ظهر فيها من استئصال المشركين و الظهور عليهم و الظفر بهم جارية على مجرى العادة و المعروف من نواميس الطبيعة ، و كيف يسع لقوم هم شرذمة قليلون مافيهم على ماروي إلّا فرس أوفرسان وبضعة أدرع وبضعة سيوف ، أن يستأصلوا جيشاً مجهّزاً بالأفراس و الأسلحة و الرجال والزاد والراحلة ، هم أضعافهم عدّة ولايقاسون بهم قوّة و شدّة ، وأسباب الغلبة عندهم ، وعوامل

البأس معهم ، والموقف المناسب للتقدّم لهم .

إلّا أنّ الله سبحانه بما أنزل من الملائكة ثبّت أقدام المؤمنين وأرعب قلوب المشركين، وألقى الهزيمة بما رماه النبيّ صلى الله عليه وآله من الحصاة عليهم فشملهم المؤمنون قتلاً وأسراً فبطل بذلك كيدهم وخمدت أنفاسهم وسكنت أجراسهم .

فبا لحريّ أن ينسب ماوقع عليهم من القتل بأيدي المؤمنين و الرمي الّذي شتّت شملهم وألقى الهزيمة فيهم إليه سبحانه دون المؤمنين .

فما في الآية من النفي جار مجرى الدعوى بنوع من العناية ، بالنظر إلى استناد الوقعة بأطرافها إلى سبب إلهيّ غيرعاديّ، ولا ينافي ذلك استنادها بماوقع فيها من الوقائع إلى أسبابها القريبة المعهودة في الطبيعة بأن يعدّ المؤمنون قاتلين لمن قتلوا منهم ، والنبيّ صلى الله عليه وآله رامياً لمارماه من الحصاة .

وقوله : « وليبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً » الظاهر أنّ ضمير « منه » راجع إلى الله تعالى ، والجملة لبيان الغاية وهي معطوفة على مقدّر محذوف ، والتقدير : إنّما فعل الله ما فعل من قتلهم و رميهم لمصالح عظيمة عنده ، وليبلي المؤمنين ويمتحنهم بلاءً وامتحاناً حسناً أو لينعم عليهم بنعمة حسنة ، و هو إفناء خصمهم و إعلاء كلمة التوحيد بهم و إغناؤهم بما غنموا من الغنائم .

وقوله : «إنّ الله سميع عليم» تعليل لقوله : «وليبلي المؤمنين» أي إنّه تعالى يبليهم لأنّه سميع باستغاثتهم عليم بحالهم فيبليهم منه بلاءً حسنا .

والتفريع الّذي في صدر الآية : « فلم تقتلوهم » الخ متعلّق بما يتضمّنه الآيات السابقة : «إذ تستغيثون ربّكم» إلى آخر الآيات من المعنى ، فإنّها تعدّ منن الله عليهم من إنزال الملائكة وإمدادهم بهم وتغشية النعاس إيّاهم وإمطار السماء عليهم و ما اُوحي إلى الملائكة من تأييدهم و تثبيت أقدامهم و إلقاء الرعب في قلوب أعدائهم ، فلمّا بلغ الكلام هذا المبلغ فرّع عليه قوله : « فلم تقتلوهم و لكنّ الله قتلهم و ما رميت إذ رميت و لكنّ الله رمى »

وعلى هذا فقوله : «ياأيّها الّذين آمنوا إذالقيتم ـ الى قوله ـ وبئس المصير» معترضة

متعلّقة بقوله : «فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كلّ بنان» أو بمعناه المفهوم من الجمل المسرودة ؛ وقوله : «فلم تقتلوهم» الخ متّصل بما قبله بحسب النظم .

وربّما يذكر في نظم الآية وجهان آخران :

أحدهما : أنّ الله سبحانه لمّا أمرهم بالقتال في الآية المتقدّمة ذكر عقيبها أنّ ماكان من الفتح يوم بدر و قهر المشركين إنّما كان بنصرته و معونته تذكيراً للنعمة . ذكره أبومسلم .

والثاني : أنّهم لمّا اُمروا بالقتال ثمّ كان بعضهم يقول : أنا قتلت فلاناً و أنا فعلت كذا نزلت الآية على وجه التنبيه لهم لئلّا يعجبوا بأعمالهم . وربّما قيل : إنّ الفاء في قوله «فلم تقتلوهم» لمجرّد ربط الجمل بعضها ببعض . والوجه ماقدّمناه .

قوله تعالى : «ذلكم وأنّ الله موهن كيد الكافرين» قال في المجمع : «ذلكم» موضعه رفع ، و كذلك «أنّ الله» في موضع رفع ، والتقدير : الأمر ذلكم و الأمر أنّ الله موهن ، و كذلك الوجه فيما تقدّم من قوله : «ذلكم فذوقوه وأنّ للكافرين عذاب النار» ، ومن قال : إنّ « ذلكم» مبتدء و «فذوقوه» خبره فقد أخطأ لأنّ ما بعد الفاء لا يكون خبراً لمبتدء ، ولايجوز : زيدفمنطلق ، ولا : زيدفاضربه إلّا أن تضمر «هذا» تريد: هذا زيدفاضربه . انتهى. فمعنى الآية : الأمر ذلكم الّذي ذكرناه و الأمر أنّ الله موهن كيد الكافرين .

قوله تعالى : «إن تستفتحوا فقد جاءكم الفتح» إلى آخر الآية . ظاهر الآية بما تشتمل عليه من الجمل المسرودة كقوله : « وإن تنتهوا فهوخير لكم» و قوله : «وإن تعودوا نعد » الخ أن تكون الخطاب فيه للمشركين دون المؤمنين باشتمال الكلام على الالتفات للتهكّم ، وهو المناسب لقوله في الآية السابقة : «وأنّ الله موهن كيد الكافرين » .

فالمعنى : إن طلبتم الفتح وسألتم الله أيّها المشركون أن يفتح بينكم و بين المؤمنين فقد جاءكم الفتح بما أظهر الله من الحقّ يوم بدر فكانت الدائرة للمؤمنين عليكم ، و إن تنتهوا عن المكيدة على الله ورسوله فهو خير لكم وإن تعودوا إلى مثل ماكدتم نعد إلى مثل ماأوهنّا به كيدكم ، ولن تغني عنكم جماعتكم شيئاً ولو كثرت كما لم تغن في هذه المرّة وإنّ الله مع المؤمنين ولن يغلب من هومعه .

و بهذا يتأيّد ما ورد أنّ أباجهل قال يوم بدرحين اصطفّ الفريقان أوحين التقى الفئتان : اللّهمّ إنّ محمّداً أقطعنا للرحم وأتانا بما لانعرف فانصر عليه ، وفي بعض الروايات ـ وهو الأنسب ـ كما في المجمع عن أبي حمزة : قال أبوجهل : اللّهمّ ربّنا ديننا القديم ودين محمّد الحديث فأيّ الدينين كان أحبّ إليك و أرضى عندك فانصر أهله اليوم .

و ذكر بعضهم : أنّ الخطاب في الآية للمؤمنين ، و وجّهوا مضامين جملها بما لا يرتضيه الذوق السليم ، ولا جدوى للإطالة بذكرها و المناقشة فيها فمن أراد ذلك فعليه بالمطوّلات .

قوله تعالى: « يا أيّها الّذين آمنوا أطيعوا الله و رسوله ولا تولّوا عنه و أنتم تسمعون» الضمير على مايفيده السياق راجع إلى الرسول صلّى الله عليه وآله، والمعنى: ولاتولّوا عن الرسول و أنتم تسمعون مايلقيه إليكم من الدعوة الحقّة وما يأمركم به وينهاكم عنه ممّا فيه صلاح دينكم و دنياكم . ومصبّ الكلام أوامره الحربيّة و إن كان لفظه أعمّ .

قوله تعالى: « ولا تكونوا كالّذين قالوا سمعناوهم لايسمعون » المعنى ظاهر وفيه نوع تعريض للمشركين إذقالوا : سمعنا ، وهم لايسمعون ، وقد حكى الله عنهم ذلك إذقال بعد عدّة آيات : « وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قدسمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا » الأنفال: ٣١ لكنّهم كذبوا ولم يسمعوا ولو سمعوا لاستجابوا كما قال الله تعالى : « ولهم آذان لا يسمعون بها » الأعراف : ١٧٩ وقال تعالى حكاية عن أصحاب السعير : « و قالوا لو كنّا نسمع أونعقل ما كنّا في أصحاب السعير » الملك : ١٠ فالمراد بالسمع في الآية الاُولى تلقّي الكلام الحقّ الّذي هو صوت من طريق الاُذن ، وفي الآية الثانية الانقياد لما يتضمّنه الكلام الحقّ المسموع .

والآيتان ـ كما ترى ـ خطاب متعلّق بالمؤمنين متّصل نوع اتّصال بالآية السابقة عليهما و تعريض للمشركين ، فهو تعالى لمّا التفت إلى المشركين فذمّهم و تهكّم عليهم بسؤالهم الفتح ، و ذكر لهم أنّ الغلبة دائماً لكلمة الإيمان على كلمة الكفر و لدعوة الحقّ على دعوة الباطل ، التفت إلى حزبه وهم المؤمنون فأمرهم بالطاعة له و لرسوله ، و

حذّرهم عن التولّي عنه بعد استماع كلمة الحقّ ، و أن يكونوا كاُولئك إذ قالوا : سمعنا وهم لايسمعون .

و من الممكن أن يكون في الآية إشارة إلى عدّة من أهل مكّة آمنوا بالنبيّ ﷺ ولمّا تخلّص قلوبهم من الشكّ خرجوا مع المشركين إلى بدر لحرب رسول الله ﷺ فابتلوا بما ابتلي به مشركوا قريش ، فقد ورد في الخبر : أنّ فئة من قريش أسلموا بمكّة و احتبسهم آباؤهم فخرجوا مع قريش ، يوم بدر ، وهم قيس بن الوليد بن المغيرة ، وعليّ بن اُميّة بن خلف ، والعاص بن منبّه بن الحجّاج ، والحارث بن زمعة ، و قيس بن الفاكه بن المغيرة و لمّا رأوا قلّة المسلمين قالوا : مساكين هؤلاء غرّهم دينهم ، و سيذكرهم الله بعد عدّة آيات بقوله : « و إذ يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » الآية .

و ربّما قيل : إنّ المراد بالّذين قالوا سمعنا و هم لايسمعون هم أهل الكتاب من يهود قريظة والنضير . وهو بعيد .

قوله تعالى : «إنّ شرّ الدوابّ عندالله الصمّ البكم الّذين لا يعقلون» إلى آخر الآيتين . تعريض و ذمّ للّذين سبق ذكرهم من الكفّار على ما يعطيه سياق الكلام و ما اشتملت عليه الآية من الموصول و الضمائر المستعملة في اُولي العقل ، وعلى هذا فالظاهر أنّ اللّام في قوله : «الصمّ البكم» للعهد الذكريّ ، ويؤول المعنى إلى أنّ شرّ جميع مايدبّ على الأرض من أجناس الحيوان و أنواعها هؤلاء الصمّ البكم الّذين لا يعقلون ، و إنّما لم يعقلوا لأنّه لا طريق لهم إلى تلقّي الحقّ لفقدهم السمع و البصر فلا يسمعون و لا يبصرون .

ثمّ ذكر تعالى أنّ الله إنّما ابتلاهم بالصمم والبكمة فلايسمعون كلمة الحقّ و لا ينطقون بكلمة الحقّ ، وبالجملة حرمهم نعمة السمع والقبول ، لأنّه تعالى لم يجد عندهم خيراً ولم يعلم به ولو كان لعلم، لكن لم يعلم فلم يوفّقهم للسمع و القبول ، و لو أنّه تعالى رزقهم السّمع و الحال هذه لم يثبت السّمع و القبول فيهم بل تولّوا عن الحقّ و هم معرضون .

ومن هنا يعلم أنّ المراد بالخير حسن السريرة الّذي يثبت به الاستعداد لقبول الحقّ ويستقرّ في القلب ، وأنّ المراد بقوله : « ولو أسمعهم » الإسماع على تقدير عدم الاستعداد الثابت المستقرّ فافهم ذلك فلا يرد أنّه تعالى لو أسمعهم و رزقهم قبول الحقّ استلزم ذلك تحقّق الخير فيهم ولا وجه مع ذلك لتولّيهم و إعراضهم ، وذلك أنّ الشرط في قوله : «ولو أسمعهم» على تقدير فقدهم الخير على مايفيده السياق .

قوله تعالى : «ياأيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لمايحييكم» لمّا دعاهم في قوله : «أطيعوا الله والرسول» الخ إلى إطاعة الدعوة الحقّة و عدم التولّي عنها بعد استماعها أكّده ثانياً بالدعوة إلى استجابة الله والرسول في دعوة الرسول ، ببيان حقيقة الأمر والركن الواقعيّ الّذي تعتمد عليه هذه الدعوة ، وهو أنّ هذه الدعوة دعوة إلى ما يحيي الإنسان بإخراجه من مهبط الفناء والبوار ، وموقفه في الوجود أنّ الله سبحانه أقرب إليه من قلبه وأنّه سيحشر إليه فليأخذ حذره وليجمع همّه ويعزم عزمه .

الحياة أنعم نعمة وأعلى سلعة يعتقدها الموجود الحيّ لنفسه كيف لا ؟ وهو لا يرى وراءه إلّا العدم والبطلان ، وأثرها الّذي هو الشعور والإرادة هو الّذي ترام لأجله الحياة ويرتاح إليه الإنسان ولايزال يفرّ من الجهل وافتقاد حرّيّة الإرادة والاختيار ، وقد جهّز الإنسان وهو أحد الموجودات الحيّة بما يحفظ به حياته الروحيّة الّتي هي حقيقة وجوده كما جهّز كلّ نوع من أنواع الخليقة بما يحفظ به وجوده وبقاءه .

و هذا الجهاز الإنسانيّ يشخّص له خيراته و منافعه ، و يحذّره من مواطن الشرّ والضرّ .

وإذ كان هذه الهداية الإلهيّة الّتي يسوق النوع الإنسانيّ إلى نحو سعادته وخيره ويندبه نحو منافع وجوده هداية بحسب التكوين وفي طور الخلقة ، و من المحال أن يقع خطأ في التكوين ، كان من الحتم الضروريّ أن يدرك الإنسان سعادة وجوده إدراكاً لايقع فيه شكّ كما أنّ سائر الأنواع المخلوقة تسير إلى مافيه خير وجوده ومنافع شخصه من غير أن يسهو فيه من حيث فطرته ، وإنّما يقع الخبط فيما يقع من جهة تأثير عوامل وأسباب اُخر مضادة تؤثّر فيه أثراً مخالفاً ينحرف فيه الشيء عمّا هو خير له إلى ما هو شرّ ، وعمّا

فيه نفعه إلى مافيه ضرر يعود إليه ، و ذلك كالجسم الثقيل الأرضيّ الّذي يستقرّ بحسب الطبيعة الأرضيّة على بسيط الأرض ثمّ إنّه يبتعد عن الأرض بالحركة إلى جهة العلو بدفع دافع يجبره على خلاف الطبع فإذا بطل أثر الدفع عاد إلى مستقرّه بالحركة نحو الأرض على الاستقامة إلّا أن يمنعه مانع فيخرجه عن السير الاستقاميّ إلى انحراف واعوجاج .

وهذا هو الّذي يصرّ عليه القرآن الكريم أنّ الإنسان لايخفى عليه ما فيه سعادته في الحياة من علم وعمل ، وأنّه يدرك بفطرته ماهو حقّ الاعتقاد والعمل قال تعالى : «فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم» الروم : ٣٠ ، و قال تعالى «الّذي خلق فسوّى والّذي قدّر فهدى ـ إلى أن قال ـ فذكّر إن نفعت الذكرى سيذّكّر من يخشى ويتجنّبها الأشقى» الأعلى : ١١ ، و قال تعالى : « و نفس و ما سوّاها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكّاها وقد خاب من دسّاها» الشمس : ١٠.

نعم ربّما أخطأ الإنسان طريق الحقّ في اعتقاد أو عمل وخبط في مشيته لكن لا لأنّ الفطرة الإنسانيّة والهداية الإلهيّة أوقعته في ضلالة و أوردته في تهلكة بل لأنّه أغفل عقله و نسي رشده و اتّبع هوى نفسه وما زيّنه جنود الشياطين في عينه قال تعالى : إن يتّبعون إلّا الظنّ وما تهوى الأنفس ولقد جاءهم من ربّهم الهدى» النجم : ٢٣ وقال: «أفرأيت من اتّخذ إلهه هواه وأضلّه الله على علم» الجاثية : ٢٣ .

فهذه الأمور الّتي تدعو إليها الفطرة الإنسانيّة من حقّ العلم والعمل لوازم الحياة السعيدة الإنسانيّة وهي الحياة الحقيقيّة الّتي بالحريّ أن تختصّ باسم الحياة ، والحياة السعيدة تستتبعها كما أنّها تستلزم الحياة وتستتبعها ، وتعيدها إلى محلّها لوضعفت الحياة في محلّها بورود مايضادّها ويبطل رشد فعلها .

فإذا انحرف الإنسان عن سويّ الصراط الّذي تهديه إليه الفطرة الإنسانيّة و تسوقه إليه الهداية الإلهيّة ، فقدفقد لوازم الحياة السعيدة من العلم النافع والعمل الصالح ، ولحق بحلول الجهل وفساد الإرادة الحرّة والعمل النافع بالأموات ولايحييه إلّا علم حقّ وعمل حقّ ، وهما اللّذان تندب إليهما الفطرة وهذا هو الّذي تشير إليه الآية الّتي نبحث عنها : «يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» .

واللام في قوله : «لما يحييكم» بمعنى إلى ، وهو شائع في الاستعمال ، و الّذي يدعو إليه الرسول صلى الله عليه وآله هو الدين الحقّ و هو الإسلام الّذي يفسّره القرآن الكريم باتّباع الفطرة فيما تندب إليه من علم نافع و عمل صالح .

وللحياة بحسب مايراه القرآن الكريم معنى آخر أدقّ ممّا نراه بحسب النظر السطحيّ الساذج فإنّا إنّما نعرف من الحياة في بادىء النظر مايعيش به الانسان في نشأته الدنيويّة إلى أن يحلّ به الموت ، وهي الّتي تصاحب الشعور والفعل الإراديّ ، ويوجد مثلها أو ما يقرب منها في غير الإنسان أيضاً من سائر الأنواع الحيوانيّة لكنّ الله سبحانه يقول : «وما هذه الحياة الدنيا إلا لهو ولعب وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون» العنكبوت ٦٤ ويفيد ذلك أنّ الإنسان متمتّع بهذه الحياة غير مشتغل إلّا بالأوهام ، و أنّه مشغول بها عمّا هو أهمّ و أوجب من غايات وجوده و أغراض روحه فهو في حجاب مضروب عليه يفصل بينه وبين حقيقة ما يطلبه ويبتغيه من الحياة .

وهذا هو الّذي يشير إليه قوله تعالى وهو من خطابات يوم القيامة : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ .

فللإنسان حياة اُخرى أعلى كعباً وأغلى قيمة من هذه الحياة الدنيويّة الّتي يعدّها الله سبحانه لعباً ولهواً ، وهي الحياة الاُخرويّة الّتي سينكشف عن وجهها الغطاء ، و هي الحياة الّتي لايشوبها اللعب و اللهو ، ولا يدانيها اللغو والتأثيم ، لايسير فيها الإنسان إلّا بنور الإيمان وروح العبوديّة قال تعالى : «اُولئك كتب في قلوبهم الإيمان وأيّدهم بروح منه» المجادلة : ٢٢ وقال تعالى : «أومن كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس كمن مثله في الظلمات ليس بخارج منها» الأنعام : ١٢٢ .

فهذه حياة اُخرى أرفع قدراً وأعلى منزلة من الحياة الدنيويّة العامّة الّتي ربّما شاركها فيها الحيوان العجم الإنسان ، ويظهر من أمثال قوله تعالى : «وأيّدناه بروح القدس» البقرة : ٢٥٣ و قوله : «و كذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا» الآية الشورى : ٥٢ أنّ هناك حياة اُخرى فوق هاتين الحياتين المذكورتين سيوافيك البحث عنها فيما يناسبها من المورد إن شاء الله .

و بالجملة فللإنسان حياة حقيقيّة أشرف و أكمل من حياته الدنيّة الدّنيويّة يتلبّس بها إذا تمّ استعداده بالتحلّي بحلية الدّين والدّخول في زمرة الأولياء الصالحين كما تلبّس بالحياة الدنيويّة حين تمّ استعداده بالتلبّس بها وهو جنين إنسانيّ .

وعلى ذلك ينطبق قوله تعالى في الآية المبحوث عنها : «ياأيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله و للرسول إذا دعاكم لما يحييكم» فالتلبّس بما تندب إليه الدعوة الحقّة من الإسلام يجرّ إلى الإنسان هذه الحياة الحقيقيّة كما أنّ هذه الحياة منبع ينبع منه الإسلام وينشأ منه العلم النافع والعمل الصالح ، وفي معنى هذه الآية قوله تعالى : «من عمل صالحاً من ذكر أو اُنثى وهومؤمن فلنحيينّه حياةطيّبة ولنجزينّهم أجرهم بأحسن ماكانوا يعملون» النحل : ٩٧ .

والآية أعني قوله فيها : «إذا دعاكم لما يحييكم» مطلق لايأبى عن الشمول لجميع دعوته صلى الله عليه وآله المحيية للقلوب ، أوبعضها الّذي فيه طبيعة الإحياء أولنتائجها الّتي هي أنواع الحياة السعيدة الحقيقيّة كالحياة السعيدة في جوارالله سبحانه في الآخرة .

ومن هنا يظهر أن لاوجه لتقييد الآية بما قيّدهابه أكثر المفسّرين فقد قال بعضهم: إنّ المراد بقوله : «إذ ادعاكم لما يحييكم» بالنظرالى مورد النزول : إذا دعاكم إلى الجهاد إذفيه إحياء أمركم وإعزاز دينكم .

وقيل : المعنى إذ ادعاكم إلى الشهادة في سبيل الله في جهاد عدوّكم فإنّ الله سبحانه عدّ الشهداء أحياءً كما في قوله : «ولاتحسبنّ الّذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربّهم يرزقون» آل عمران : ١٦٩ .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى الإيمان ، فإنّه حياة القلب والكفر موته ، أوإذادعاكم إلى الحقّ .

وقيل : المعنى إذا دعاكم إلى القرآن والعلم في الدين لأنّ العلم حياة والجهل موت والقرآن نور وحياة وعلم .

و قيل : المعنى إذا دعاكم إلى الجنّة لما فيها من الحياة الدّائمة و النعمة الباقية الأبديّة .

وهذه الوجوه المذكورة يقبل كلّ واحد منها انطباق الآية عليه غير أنّ الآية كما عرفت مطلقة لاموجب لصرفها عمّا لها من المعنى الوسيع .

قوله تعالى : «واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون» الحيلولة هي التخلّل وسطاً ، والقلب العضو المعروف . ويستعمل كثيراً في القرآن الكريم في الأمر الّذي يدرك به الإنسان ويظهر به أحكام عواطفه الباطنة كالحبّ والبغض والخوف والرجاء والتمنّي والقلق ونحو ذلك فالقلب هو الّذي يقضي ويحكم ، وهو الّذي يحبّ شيئاً ويبغض آخر ، وهو الّذي يخاف ويرجو ويتمنّى ويسرّ ويحزن ، وهو في الحقيقة النفس الإنسانيّة تفعل بما جهّزت به من القوى والعواطف الباطنة .

والإنسان كسائر ما أبدعه الله من الأنواع الّتي هي أبعاض عالم الخلقة مركّب من أجزاء شتّى مجهّز بقوى و أدوات تابعة لوجوده يملكها و يستخدمها في مقاصد وجوده ، والجميع مربوطة به ربطاً يجعل شتات الأجزاء و الأبعاض على كثرتها و تفاريق القوى و الأدوات على تعدّدها ، واحداً تامّاً يفعل و يترك ، و يتحرّك و يسكن ، بوحدته وفردانيّته .

غير أنّ الله سبحانه لمّا كان هو المبدع للإنسان وهو الموجد لكلّ واحد واحد من أجزاء وجوده وتفاريق قواه وأدواته كان هو الّذي يحيط به وبكلّ واحد من أجزاء وجوده وتوابعه ، ويملك كلّاً منها بحقيقة معنى الملك يتصرّف فيه كيف يشاء ، و يملّك الإنسان ما شاء منها كيف شاء فهو المتوسّط الحائل بين الإنسان وبين كلّ جزء من أجزاء وجوده وكلّ تابع من توابع شخصه : بينه وبين قلبه ، بينه وبين سمعه ، بينه وبين بصره ، بينه و بين بدنه ، بينه وبين نفسه . يتصرّف فيها بإيجادها ، و يتصرّف فيها بتمليك الإنسان ما شاء منها كيف شاء ، وإعطائه ما أعطى ، وحرمانه ما حرم .

ونظير الإنسان في ذلك سائر الموجودات فما من شيء في الكون وله ذات و توابع ذوات من قوى وآثار وأفعال إلّا والله سبحانه هو المالك بحقيقة معنى الكلمة لذاته ولتوابع ذاته ، وهو المملّك إيّاه كلّاً من ذاته وتوابع ذاته فهو الحائل المتوسّط بينه و بين ذاته وبينه وبين توابع ذاته من قواه وآثاره وأفعاله .

فالله سبحانه هو الحائل المتوسّط بين الإنسان وبين قلبه وكلّ ما يملكه الإنسان ويرتبط ويتّصل هو به نوعاً من الارتباط والاتّصال وهو أقرب إليه من كلّ شيء كما قال تعالى : « ونحن أقرب إليه من حبل الوريد » ق : ١٦ .

وإلى هذه الحقيقة يشير قوله : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه وأنّه إليه تحشرون » فهو تعالى لكونه مالكاً لكلّ شيء ومن جملتها الإنسان ملكاً حقيقيّاً لا مالك حقيقة سواه ، أقرب إليه حتّى من نفسه وقوى نفسه الّتي يملكها لأنّه سبحانه هو الّذي يملّكه إيّاها فهو حائل متوسّط بينه وبينها يملّكه إيّاها ويربطها به فافهم ذلك .

ولذلك عقّب الجملة بقوله : « وأنّه إليه تحشرون » فإنّ الحشر والبعث هوالّذي ينجلي عنده أنّ الملك الحقّ لله وحده لا شريك له ، ويبطل عند ذلك كلّ ملك صوري وسلطنة ظاهريّة إلّا ملكه الحقّ جلّ ثناؤه كما قال سبحانه : « لمن الملك اليوم لله الواحد القهّار » المؤمن : ١٦ ، وقال : « يوم لا تملك نفس لنفس شيئاً والأمر يومئذ لله » الانفطار : ١٩.

فكأنّ الآية تقول : واعلموا أنّ الله هو المالك بالحقيقة لكم ولقلوبكم وهو أقرب إليكم من كلّ شيء ، وأنّه ستحشرون إليه فيظهر حقيقة ملكه لكم وسلطانه عليكم يومئذ فلا يغني عنكم منه شيء .

وأمّا اتّصال الكلام أعني ارتباط قوله : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » الخ بقوله : « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » فلأنّ حيلولته سبحانه بين المرء وقلبه ، يقطع منبت كلّ عذر في عدم استجابته لله والرسول إذا دعاه لما يحييه ، وهو التوحيد الّذي هو حقيقة الدعوة الحقّة فإنّ الله سبحانه لمّا كان أقرب إليه من كلّ شيء حتّى من قلبه الّذي يعرفه بوجدانه قبل كلّ شيء ، فهو تعالى وحده لاشريك له أعرف إليه من قلبه الّذي هو وسيلة إدراكه وسبب أصل معرفته وعلمه .

فهو يعرف الله إلهاً واحداً لاشريك له قبل معرفته قلبه وكلّ ما يعرفه بقلبه ، فمهما شكّ في شيء أو ارتاب في أمر فلن يشكّ في إلهه الواحد الّذي هو ربّ كلّ شيء ولن يضلّ في تشخيص هذه الكلمة الحقّة .

فإذا دعاه داعي الحقّ إلى كلمة الحقّ ودين التوحيد الّذي يحييه لو استجاب له ، كان عليه أن يستجيب داعي الله فإنّه لا عذر له في ترك الاستجابة معلّلاً بأنّه لم يعرف حقّيّة ما دعي إليه ، أو اختلط عليه ، أو أعيته المذاهب في الإقبال على الحقّ الصريح فإنّ الله سبحانه هو الحقّ الصريح الّذي لا يحجبه حاجب ، ولا يستره ساتر إذ كلّ حجاب مفروض فالله سبحانه أقرب منه إلى الإنسان ، وكلّ ما يختلج في القلب من شبهة أو وسوسة فالله سبحانه متوسّط متخلّل بينه ـ مع ماله من ظرف وهو القلب ـ وبين الإنسان فلا سبيل للإنسان إلى الجهل بالله والشكّ في توحّده .

وأيضاً فإنّ الله سبحانه لمّا كان حائلاً بين المرء وقلبه فهو أقرب إلى قلبه منه كما أنّه أقرب إليه من قلبه فإنّ الحائل المتوسّط أقرب إلى كلّ من الطرفين من الطرف الآخر ، وإذا كان تعالى أقرب إلى قلب الإنسان منه فهو أعلم بما في قلبه منه .

فعلى الإنسان إذا دعاه داعي الحقّ إلى ما يحييه من الحقّ أن يستجيب دعاءه بقلبه كما يستجيبه بلسانه ، ولا يضمر في قلبه ما لا يوافق ما لبّاه بلسانه وهو النفاق فإنّ الله أعلم بما في قلبه منه وسيحشر إليه فينبّؤه بحقيقة عمله ويخبره بما طواه في قلبه قال تعالى : « يوم هم بارزون لا يخفى على الله منهم شيء » المؤمن : ١٦ ، وقال : « ولا يكتمون الله حديثاً » النساء : ٤٢ .

وأيضاً فإنّ الله سبحانه لمّا كان هو الحائل بين الإنسان وقلبه وهو المالك للقلب بحقيقة معنى الملك كان هو المتصرّف في القلب قبل الإنسان وله أن يتصرّف فيه بما شاء فما يجده الإنسان في قلبه من إيمان أو شكّ أو خوف أو رجاء أو طمأنينة أو قلق واضطراب أو غير ذلك ممّا ينسب إليه باختيار أو اضطرار ، فله انتساب إليه تعالى بتصرّفه فيما هو أقرب إليه من كلّ شيء تصرّفاً بالتوفيق أو الخذلان أو أيّ نوع من أنواع التربية الإلهيّة ، يتصرّف بما شاء ويحكم بما أراد من غير أن يمنعه مانع أو يهدّده ذمّ أو لوم كما قال تعالى : « والله يحكم لا معقّب لحكمه » الرعد : ٤١ ، وقال تعالى : « له الملك وله الحمد وهو على كلّ شيء قدير » التغابن : ١ .

فمن الجهل أن يثق الإنسان بما يجد في قلبه من الإيمان بالحقّ أو التلبّس

بنيّة حسنة أو عزيمة على خير أو همّ بصلاح وتقوى ، بمعنى أن يرى استقلاله بملك قلبه وقدرته المطلقة على ما يهمّ به فإنّ القلب بين أصابع الرحمان يقلّبه كيف يشاء وهو المالك له بحقيقة معنى الملك والمحيط به بتمام معنى الكلمة قال تعالى : «ونقلّب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أوّل مرّة» الأنعام : ١١٠ فمن الواجب عليه أن يؤمن بالحقّ ويعزم على الخير على مخافة من الله تعالى أن يقلّبه من السعادة إلى الشقاء ويحوّل قلبه من حال الاستقامة إلى حال الانتكاس و الانحراف ، و لا يأمن مكر الله ، فلا يأمن مكر الله إلّا القوم الخاسرون .

و كذلك الإنسان إذا وجد قلبه غير مقبل على كلمة الحقّ والعزم على الخير وصالح العمل ، عليه أن يبادر إلى استجابة الله ورسوله فيما يدعوه إلى ما يحييه ، ولا ينهزم عمّا يهجم عليه من أسباب اليأس وعوامل القنوط من ناحية قلبه فإنّ الله سبحانه يحول بين المرء وقلبه ، وهو القادر على أن يصلح سرّه و يحوّل قلبه إلى أحسن حال و يشمله بروح منه ورحمة فإنّما الأمر إليه ، وقد قال : « إنّه لا ييأس من روح الله إلّا القوم الكافرون » يوسف : ٨٧ وقال : « ومن يقنط من رحمة ربّه إلّا الضالّون » الحجر : ٥٦ .

فالآية الكريمة ـ كما ترى ـ من أجمع الآيات القرآنيّة تشتمل على معرفة حقيقيّة من المعارف الإلهيّة ـ مسألة الحيلولة ـ وهي تقطع عذر المتجاهلين في معرفة الله سبحانه من الكفّار والمشركين ، وتقلع غرّة النفاق من أصلها بتوجيه نفوس المنافقين إلى مقام ربّهم وأنّه أعلم بما في قلوبهم منهم ، ويلقي إلى المسلمين والّذين هم في طريق الإيمان بالله وآياته مسألة نفسيّة تعلّمهم أنّهم غير مستقلّين في ملك قلوبهم ولا منقطعون في ذلك من ربّهم فيزول بذلك رذيلة الكبر عمّن يرى لنفسه استقلالاً وسلطنة فيما يملكه فلا يغرّه ما يشاهده من تقوى القلب و إيمان السرّ ، ورذيلة اليأس والقنوط عمّن يحيط بقلبه دواهي الهوى ودواعي أعراض الدنيا فيتثاقل عن الإيمان بالحقّ والإقبال على الخير ، و يورثه ذلك اليأس والقنوط .

وممّا تقدّم يظهر أنّ قوله : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء و قلبه » الخ تعليل

لقوله تعالى: « استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » على جميع التقادير من وجوه معناه.

وبذلك يظهر أيضاً أنّ الآية أوسع معنى ممّا أورده المفسّرون من تفسيرها : كقول من قال : إنّ المراد أنّ الله سبحانه أقرب إلى المرء من قلبه نظير قوله : ونحن أقرب إليكم من حبل الوريد ، وفيه تحذير شديد.

وقول من قال : إنّ المراد أنّ القلب لا يستطيع أن يكتم الله حديثاً فإنّ الله أقرب إلى قلب الإنسان من نفسه ، فما يعلمه الإنسان من قلبه يعلمه الله قبله .

وقول من قال : إنّ المراد أنّه يحول بين المرء وبين الانتفاع بقلبه بالموت فلا يمكنه استدراك ما فات فبادروا إلى الطاعات قبل الحيلولة ودعوا التسويف ، وفيه حثّ على الطاعة قبل حلول المانع .

وقول من قال : معناه أنّ الله سبحانه يملك تقليب القلوب من حال إلى حال فكأنّهم خافوا من القتال فأعلمهم الله سبحانه أنّه يبدّل خوفهم أمناً بأن يحول بينهم وبين ما يتفكّرون فيه من أسباب الخوف .

وقد ورد في الحديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد بذلك أنّ الله سبحانه يحول بين الإنسان وبين أن يعلم أنّ الحقّ باطل أو أنّ الباطل حقّ ، وسيجيء في البحث الروائيّ إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة واعلموا أنّ الله شديد العقاب » قرأ عليّ والباقر عليهما السلام من أئمّة أهل البيت وكذا زيد بن ثابت والربيع ابن أنس وأبو العالية على ما في المجمع : لتصيبنّ باللام ونون التأكيد الثقيلة ، والقراءة المشهورة : لا تصيبنّ بلا الناهية ونون التأكيد الثقيلة .

وعلى أيّ تقدير كان ، تحذّر الآية جميع المؤمنين عن فتنة تختصّ بالظالمين منهم ، ولا يتعدّاهم إلى غيرهم من الكفّار والمشركين ، واختصاصها بالظالمين من المؤمنين وأمر عامّتهم مع ذلك باتّقائها يدلّ على أنّها وإن كانت قائمة ببعض الجماعة لكنّ السيّىء من أثرها يعمّ الجميع . ثمّ قوله تعالى « واعلموا أنّ الله شديد العقاب » تهديد للجميع بالعقاب

الشديد ولا دليل يدلّ على اختصاص هذا العقاب بالحياة الدنيا وكونه من العذاب الدنيويّ من قبيل الاختلافات القوميّة وشيوع القتل والفساد وارتفاع الأمن والسلام ونحو ذلك .

ومقتضى ذلك أن تكون الفتنة المذكورة على اختصاصها ببعض القوم ممّا يوجب على عامّة الاُمّة أن يبادروا على دفعها ، ويقطعوا دابرها ويطفؤوا لهيب نارها بما أوجب الله عليهم من النهي عن المنكر والأمر بالمعروف .

فيؤول معنى الكلام إلى تحذير عامّة المسلمين عن المساهله في أمر الاختلافات الداخليّة الّتي تهدّد وحدتهم وتوجب شقّ عصاهم واختلاف كلمتهم ، ولا تلبث دون أن تحزّبهم أحزاباً وتبعّضهم أبعاضاً ، ويكون الملك لمن غلب منهم ، والغلبة لكلمة الفساد لا لكلمة الحقّ والدين الحنيف الّذي يشترك فيه عامّة المسلمين .

فهذه فتنة تقوم بالبعض منهم خاصّة وهم الظالمون غير أنّ سيّىء أثره يعمّ الكلّ ويشمل الجميع فيستوعبهم الذلّة والمسكنة وكلّ ما يترقّب من مرّ البلاء بنشوء الاختلاف فيما بينهم ، وهم جميعاً مسؤلون عند الله والله شديد العقاب .

وقد أبهم الله تعالى أمر هذه الفتنة ولم يعرّفها بكمال اسمها ورسمها غير أنّ قوله فيما بعد : « لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » وقوله : « واعلموا أنّ الله شديد العقاب » ـ كما تقدّم ـ يوضحها بعض الإيضاح ، وهو أنّها اختلاف البعض من الاُمّة مع بعض منها في أمر يعلم جميعهم وجه الحقّ فيه فيجمح البعض عن قبول الحقّ ويقدم إلى المنكر بظلمه فلا يردَعوه عن ظلمه ولا ينهوه عن ما يأتيه من المنكر ، وليس كلّ ظلم، بل الظلم الّذي يسري سوء أثره إلى كافّة المؤمنين وعامّة الاُمّة لمكان أمره سبحانه الجميع باتّقائه، فالظلم الّذي هو لبعض الاُمّة ويجب على الجميع أن يتّقوه ، ليس إلّا ما هو من قبيل التغلّب على الحكومة الحقّة الإسلاميّة ، والتظاهر بهدم القطعيّات من الكتاب والسنّة الّتي هي من حقوقها .

وأيّاً ماكان ففي الفتن الواقعة في صدر الإسلام ما ينطبق عليه الآية أوضح انطباق وقد انهدمت بها الوحدة الدينيّة ، وبدت الفُرقة ونفدت القوّة ، وذهبت الشوكة على ما اشتملت عليه من القتل والسبي والنهب وهتك الأعراض والحرمات وهجر الكتاب وإلغاء

السنّة ، وقال الرسول يا ربّ إنّ قومي اتّخذوا هذا القرآن مهجوراً .

ومن شمول مشأمتها وتعرّق فسادها أنّ الاُمّة لا تستطيع الخروج من أليم عذابها حتّى بعد التنبّه منهم لسوء فعالهم وتفريطهم في جنب الله كلّما أرادوا أن يخرجوا منها اُعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق .

وقد تفطّن بعض المفسّرين بأنّ الآية تحذّر الاُمّة و تهدّدهم بفتنة تشمل عامّتهم وتفرّق جمعهم ، وتشتّت شملهم ، وتوعدهم بعذاب الله الشديد ، وقد أحسن التفطّن غير أنّه تكلّف في توجيه العذاب بالعذاب الدنيويّ ، وتمحّل في تقييد ما في الآية من إطلاق العقاب ، وأنّى لهم التناوش من مكان بعيد .

ولنرجع إلى لفظ الآية :

أمّا على قراءة أهل البيت عليهم السلام وزيد : « واتّقوا فتنة لتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » فاللّام في « لتصيبنّ » للقسم والنون الثقيلة لتأكيده ، والتقدير : واتّقوا فتنة اُقسم لتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة ، وخاصّة حال من الفتنة ، والمعنى اتّقوا فتنة تختصّ إصابته بالّذين ظلموا منكم أيّها المخاطبون وهم الّذين آمنوا ، وعليك أن تتذكّر ما سلف بيانه أنّ لفظ : « الّذين آمنوا » في القرآن خطاب تشريفيّ للمؤمنين في أوّل البعثة وبدء انتشار الدعوة لولا قرينة صارفة عن ذلك ، ثمّ تذكر أنّ فتن صدر الإسلام تنتهي إلى أصحاب بدر ، والآية على أيّ حال يأمر الجميع أن يتّقوا فتنة تثيرها بعضهم ، وليس إلّا لأنّ أثرها السيّىء يعمّ الجميع كما تقدّم .

وأمّا على قراءة المشهور : « واتّقوا فتنة لا تصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » فقد ذكروا : أنّ لا في « لاتصيبنّ » ناهية و النون لتأكيد النهي ، و ليس « لاتصيبنّ » جواباً للأمر في « اتّقوا » بل الكلام جار مجرى الابتداء و الاستيناف كقوله تعالى : « ياأيّها النمل ادخلوا مساكنكم لايحطمنّكم سليمان و جنوده » النمل : ١٨ فقد قال أوّلا : « واتّقوا فتنة » ثمّ استأنف وقال : « لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » لاتّصال الجملتين معنى .

وربّما جوّز بعض النحاة أن يكون « لاتصيبنّ » نهياً وارداً في جواب الأمر كما

يقال : اتّق زيداً لايضربك أولايضربنّك والتقدير : اتّق زيداً فإنّك إن اتّقيته لا يضربك ولم يشترط في نون التأكيد أن لايدخل الخبر .

وربّما قال بعضهم : إنّ لازائدة والمعنى : اتّقوا فتنة تصيبنّ الآية .

وربّما ذكر آخرون : « أنّ أصل لاتصيبنّ » « لتصيبنّ » اشبعت فتحة اللّام حتّى تولّدت الألف ، وإشباع الفتحة ليس بعزيز في الشعر قال :

فأنت من الغوائل حين ترمي * و من ذمّ الرجال بمنتزاح

يريد : بمنتزح ، والوجهان بعيدان لا يحمل على مثلهما كلامه تعالى .

ومآل المعنى على هذاالوجه أي على قراءة « لاتصيبنّ » أيضاً إلى ما تفيده القراءة الأُولى « لتصيبنّ » كماعرفت .

والآية ـ كما عرفت ـ تتضمّن خطاباً اجتماعيّاً متوجّهاً إلى مجموع الأُمّة و ذلك يؤيّد كون الخطاب في الآية السابقة : « يا أيّها الّذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم » خطاباً اجتماعيّاً متوجّهاً إلى كافّة المؤمنين ، ويتفرّع عليه أنّ المراد بالدعوة إلى مايحييهم الدعوة إلى الاتّفاق على الاعتصام بحبل الله و إقامة الدين و عدم التفرّق فيه كما قال : « و اعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا » آل عمران : ۱۰۳ وقال : « أن أقيموا الدين ولا تتفرّقوا فيه » الشورى : ۱۳ وقوله : « وأنّ هذا صراطي مستقيماً فاتّبعوه ولاتتّبعوا السبل فتفرّق بكم عن سبيله » الأنعام : ۱۵۳ .

و بهذا يتأيّد بعض الوجوه المذكورة سابقاً في قوله : « إذا دعاكم لمايحييكم » و كذا في قوله : « أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » وتختصّ الآية به بحسب السياق و إن كانت تفيد معنى أوسع من ذلك باعتبار أخذها في نفسها مفردة عن السياق ، والباحث الناقد لا يعوز عليه تمييز ذلك والله الهادي .

قوله تعالى : «واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض تخافون أن يتخطّفكم الناس» إلى آخر الآية . الاستضعاف عدّ الشيء ضعيفاً بتوهين أمره ، والتخطّف و الخطف و الاختطاف أخذ الشيء بسرعة انتزاع ، والإيواء جعل الإنسان ذامأوى ومسكن يرجع إليه ويأوى ، والتأييد من الأيد وهو القوّة .

والسياق يدلّ على أنّ المراد بقوله : « إذ أنتم قليل مستضعفون في الأرض » الزمان الّذي كان المسلمون محصورين بمكّة قبل الهجرة وهم قليل مستضعفون ، و بقوله : « تخافون أن يتخطّفكم الناس » مشركوا العرب وصناديد قريش ، و بقوله : « فآواكم » أي بالمدينة وبقوله : « وأيّدكم بنصره » ما أسبغ عليهم من نعمة النصر ببدر ، وبقوله : « ورزقكم من الطيّبات » مارزقهم من الغنائم وأحلّها لهم .

وماعدّه في الآية من أحوال المؤمنين ومننه عليهم بالإيواء وإن كانت ممّا يختصّ بالمهاجرين منهم دون الأنصار إلّا أنّ المراد الامتنان على جميعهم من المهاجرين والأنصار فإنّهم اُمّة واحدة يوحّدهم دين واحد . على أنّ فيما ذكره الله في الآية من مننه التأييد بالنصر والرزق من الطيّبات وهما يعمّان الجميع ، هذا بحسب ماتقتضيه الآية من حيث وقوعها في سياق آيات بدر ، ولكن هي وحدها وباعتبار نفسها تعمّ جميع المسلمين من حيث إنّهم اُمّة واحدة يرجع لاحقهم إلى سابقهم فقد بدء ظهور الإسلام فيهم وهم قليل مستضعفون بمكّة يخافون أن يتخطّفهم الناس فآواهم بالمدينة و كثّرهم بالأنصار وأيّدهم بنصره في بدر وغيره ورزقهم من جميع الطيّبات الغنائم وغيرها من سائر النعم لعلّهم يشكرون .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول و تخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » إلى آخر الآيتين . الخيانة نقض الأمانة الّتي هي حفظ الأمن لحقّ من الحقوق بعهد أووصيّة ونحو ذلك قال الراغب : الخيانة والنفاق واحد إلّا أنّ الخيانة تقال اعتباراً بالعهد والأمانة والنفاق يقال اعتباراً بالدين ثمّ يتداخلان فالخيانة مخالفة الحقّ بنقض العهد في السرّ ، ونقيض الخيانة الأمانة يقال : خنت فلاناً ، وخنت أمانة فلان و على ذلك قوله : لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم . انتهى .

وقوله : « وتخونوا أماناتكم » من الجائز أن يكون مجزوماً معطوفاً على تخونوا السابق ، والمعنى : ولا تخونوا أماناتكم ، وأن يكون منصوباً بحذف أن والتقدير : و أن تخونوا أماناتكم ويؤيّد الوجه الثاني قوله بعده : « وأنتم تعلمون » .

وذلك أنّ الخيانة وإن كانت إنّما يتعلّق النهي التحريميّ بها عند العلم فلا نهي مع جهل بالموضوع ولا تحريم غير أنّ العلم من الشرائط العامّة الّتي لا ينجّز تكليف من

التكاليف المولويّة إلّا به فلا نكتة ظاهرة في تقييد النهي عن الخيانة بالعلم مع أنّ العلم لكونه شرطاً عامّاً مستغنى عن ذكره ، وظاهر قوله : « وأنتم تعلمون » بحذف متعلّقات الفعل أنّ المراد : ولكم علم بأنّه خيانة لاماقيل : إنّ المعنى : وأنتم تعلمون مفاسد الخيانة وسوء عاقبتها وتحريم الله إيّاها فإنّ ذلك لادليل عليه من جهة اللفظ ولا من جهة السياق .

فالوجه أن تكون الجملة بتقدير : وأن تخونوا أماناتكم ، و يكون مجموع قوله : « لا تخونوا الله والرسول وتخونوا أماناتكم » نهياً واحداً متعلّقاً بنوع خيانة هي خيانة أمانة الله ورسوله وهي بعينها خيانة لأمانة المؤمنين أنفسهم فإنّ من الأمانة ماهي أمانة الله سبحانه عند الناس كأحكامه المشرّعة من عنده و منها ما هي أمانة الرسول كسيرته الحسنة ، ومنها ماهي أمانة الناس بعضهم عند بعض كالأمانات من أموالهم أو أسرارهم ، ومنها مايشترك فيه الله ورسوله والمؤمنون ، وهي الاُمور الّتي أمر به الله سبحانه وأجراه الرسول و ينتفع به الناس و يقوم به صلب مجتمعهم كالأسرار السياسيّة و المقاصد الحربيّة الّتي تضيع بإفشائها آمال الدين وتضلّ بإذاعته مساعي الحكومة الإسلاميّة فيبطل به حقّ الله ورسوله ويعود ضرره إلى عامّة المؤمنين .

فهذا النوع من الأمانة خيانته خيانة لله ورسوله و للمؤمنين فالخائن بهذه الخيانة من المؤمنين يخون الله والرسول وهو يعلم أنّ هذه الأمانة الّتي يخونها أمانة لنفسه و لسائر إخوانه المؤمنين وهو يخون أمانة نفسه ، ولن يقدم عاقل على الخيانة لأمانة نفسه فإنّ الإنسان بعقله الموهوب له يدرك قبح الخيانة للأمانة فكيف يخون أمانة نفسه ؟

فالمراد بقوله : « وتخونوا أماناتكم وأنتم تعلمون » ـ والله أعلم ـ وتخونوا في ضمن خيانة الله والرسول أماناتكم والحال أنّكم تعلمون أنّها أمانات أنفسكم وتخونونها ، و أيّ عاقل يقدم على خيانة أمانة نفسه و الاضرار بمالايعود إلّا إلى شخصه فتذييل النهي بقوله : « وأنتم تعلمون » لتهييج العصبيّة الحقّة و إثارة قضاء الفطرة لا لبيان شرط من شرائط التكليف .

فكأنّ بعض أفراد المسلمين كان يفشي اُموراً من عزائم النبيّ صلّى الله عليه وآله المكتومة من المشركين أو يخبرهم ببعض أسراره فسمّاه الله تعالى خيانة و نهى عنه ، و عدّها خيانة لله

والرسول والمؤمنين .

و يؤيّد ذلك قوله بعد هذا النهي : « واعلموا أنّما أموالكم وأولادكم فتنة » الخ فإنّ ظاهر السياق أنّه متّصل بما قبله غير مستقلّ عنه ، ويفيد حينئذ أنّ موعظتهم في أمر الأموال والأولاد مع النهي عن خيانة الله والرسول وأماناتهم إنّما هو لإخبار المخبر منهم المشركين بأسرار رسول الله المكتومة ، استمالة منهم مخافة أن يتعدّوا على أموالهم و أولادهم الّذين تركوهم بمكّة بالهجرة إلى المدينة،فصاروا يخبرونهم بالأخبار إلقاءً للمودّة واستبقاءً للمال والولد أومايشابه ذلك نظير ماكان من أبي لبابة مع بني قريظة .

و هذا يؤيّد ماورد في سبب النزول أنّ أباسفيان خرج من مكّة بمال كثير فأخبر جبرئيل النبيّ صلى الله عليه وآله بخروجه وأشار عليه بالخروج إليه و كتمان أمره فكتب إليه بعضهم بالخبر فأنزل الله : « يا أيّها الّذين آمنوا لاتخونوا الله و الرسول و تخونوا أماناتكم و أنتم تعلمون » و في نزول الآية بعض أحاديث اُخر سيأتي إن شاء الله في البحث الروائيّ التالي .

قوله تعالى: « يا أيّها الّذين آمنوا إن تتّقوا الله يجعل لكم فرقاناً ويكفّرعنكم سيّآتكم و يغفر لكم والله ذوالفضل العظيم » الفرقان ما يفرّق به بين الشيء والشيء ، و هو في الآية بقرينة السياق و تفريعه على التقوى الفرقان بين الحقّ والباطل سواء كان ذلك في الاعتقاد بالتفرقة بين الإيمان والكفر و كلّ هدى وضلال أوفي العمل بالتمييز بين الطاعة والمعصية وكلّ مايرضي الله أويسخطه ، أو في الرأي والنظر بالفصل بين الصواب والخطأ فإنّ ذلك كلّه ممّا تثمره شجرة التقوى ، وقد أطلق الفرقان في الآية ولم يقيّده وقد عدّ جمل الخير والشرّ في الآيات السابقة والجميع يحتاج إلى الفرقان .

و نظير الآية بحسب المعنى قوله تعالى : « ومن يتّق الله يجعل له مخرجاً و يرزقه من حيث لايحتسب و من يتوكّل على الله فهو حسبه » و قد تقدّم الكلام في معنى تكفير السيّآت والمغفرة ، و الآية بمنزلة تلخيص الكلام في الأوامر والنواهي الّتي تتضمّنها الآيات السابقة أي إن تتّقوا الله لم يختلط عندكم مايرضي الله في جميع ماتقدّم بمايسخطه ويكفّر عنكم سيّآتكم ويغفرلكم والله ذوالفضل العظيم .

﴿بحث روائى﴾

في الكافي بإسناده عن عقيل الخزاعيّ : أنّ أميرالمؤمنين عليه السلام قال : إنّ الرعب والخوف من جهاد المستحقّ للجهاد والمتوازرين على الضلال ، ضلالٌ في الدين وسلب للدنيا مع الذلّ و الصغار ، و فيه استيجاب النار بالفرار من الزحف عند حضرة القتال يقول الله عزّوجلّ : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار » .

و في الفقيه والعلل بإسناده عن ابن شاذان أنّ أبا الحسن الرضا عليه السلام كتب إليه فيما كتب من جواب مسائله : حرّم الله الفرار من الزحف لما فيه من الوهن في الدين ، والاستخفاف بالرسل والأئمّة العادلة ، وترك نصرتهم على الأعداء ، والعقوبة لهم على ترك ما دعوا إليه من الإقرار بالربوبيّة و إظهار العدل ، و ترك الجور وإماتة الفساد ، لما في ذلك من جرأة العدوّ على المسلمين ، و ما يكون في ذلك من السبي و القتل و إبطال دين الله عزّوجلّ و غيره من الفساد .

أقول: وقد استفاضت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ الفرار من الزحف من المعاصي الكبيرة الموبقة ، وقد تقدّم طرف منها في البحث عن الكبائر في تفسير قوله تعالى : « إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفّر عنكم سيّآتكم » النساء : ٣١ في الجزء الرابع من الكتاب .

و على ذلك روايات من طرق أهل السنّة كما في صحيحي البخاريّ و مسلم عن أبي هريرة عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم قال : اجتنبوا السبع الموبقات قالوا : وماهنّ يا رسول الله ؟ قال : الشرك بالله وقتل النفس الّتي حرّم الله إلّا بالحقّ والسحر وأكل الربا وأكل مال اليتيم و التولّي يوم الزحف و قذف المحصنات الغافلات المؤمنات ، و هناك روايات اُخرى عن ابن عبّاس و غيره تدلّ على كون الفرار من الزحف من الكبائر .

نعم قوله تعالى : « اليوم خفّف الله عنكم و علم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مأة صابرة يغلبوا مأتين » الآية يقيّد إطلاق آية تحريم الفرار بما دون الثلاثة لواحد .

وقد روي من طرقهم عن عمربن الخطّاب و عبدالله بن عمر وابن عبّاس وأبي هريرة

و أبي‌سعيد الخدريّ و غيرهم كما في‌الدرّ المنثور : أنّ تحريم الفرار من الزحف في هذه الآية خاصّ بيوم بدر .

و ربّما وجّه ذلك بأنّ الآية نزلت يوم بدر ، وأنّ الظرف في قوله « ومن يولّهم يومئذ دبره » إشارة إلى يوم بدر ، وقدعرفت أنّ سياق‌الآيات يشهد بنزولها بعد يوم بدر، و أنّ‌المراد بقوله : « يومئذ » هو يوم الزحف لا يوم بدر . على أنّه لوفرض نزولها يوم بدر لم يوجب خصوص السبب في عموم مدلول الآية شيئاً كما في سائرالآيات الّتي جمعت بين عموم الدلالة وخصوص السبب .

قال صاحب المنار في تفسيره : وإنّما قد يتّجه بناء التخصيص على قرينة الحال لو كانت الآية قد نزلت قبل اشتباك القتال ـ خلافاً للجمهور ـمع مالغزوة بدر من الخصائص ككونها أوّل غزوة في الإسلام لو انهزم فيها المسلمون و النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم فيهم لكانت الفتنة كبيرة . وتأييد المسلمين بالملائكة يثبّتونهم ، ووعده تعالى بنصرهم وإلقاء الرعب في‌قلوب أعدائهم .

فإذا نظرنا إلى مجموع الخصائص و قرينة الحال في النهي اتّجه كون التحريم المقرون بالوعيد الشديد الّذي في الآية خاصّاً بها . أضف إلى ذلك أنّ الله تعالى امتحن الصحابة (رض) بالتولّي و الإدبار في القتال مرّتين مع وجوده صلّى الله عليه وآله وسلّم معهم : يوم اُحد ، وفيه يقول‌الله تعالى (٣ : ١٥٥ إنّ الّذين تولّوا منكم يوم التقى الجمعان إنّما استزلّهم الشيطان ببعض ما كسبوا ولقد عفاالله عنهم إنّ‌الله غفور حليم) ويوم حنين ، و فيه يقول الله تعالى (٩ : ٢٥ لقد نصركم‌الله في مواطن كثيرة و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثمّ و لّيتم مدبرين ٢٦ ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين) الخ ، وهذا لاينافي كون التولّي حراماً ومن الكبائر ، ولايقتضي أن‌يكون كلّ تولّ لغير السببين المستثنين في‌آية الأنفال يبوء صاحبه بغضب عظيم من‌الله ومأواه جهنّم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك ، ويتقيّد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في‌التهلكة من حيث عمومها كما تقدّم في‌سورة‌البقرة وسيأتي تفصيله قريباً .

و قد روى أحمد وأصحاب السنن إلّا النسائيّ من حديث ابن عمر قال : « كنت في سريّة من سرايا رسول الله صلى الله عليه وسلّم فحاص الناس حيصة و كنت فيمن حاص فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثمّ قلنا : لودخلنا المدينة فبتنا ؟ ثمّ قلنا : لوعرضنا نفوسنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ؟ فإن كان لنا توبة وإلّا ذهبنا، فأتيناه قبل صلاة الغداة فخرج فقال: من الفرّارون ؟ فقلنا : نحن الفرّارون . قال : بل أنتم العكّارون أنا فئتكم وفئة المسلمين . قال : فأتينا حتّى قبّلنا يده .

«ولفظ أبي داود» فقلنا : ندخل المدينة فنبيت فيها لنذهب ولا يرانا أحد فدخلنا فقلنا: لوعرضنا أنفسنا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فإن كانت لنا توبة أقمنا وإن كان غيرذلك ذهبنا فجلسنا لرسول الله صلّى الله عليه و سلّم قبل صلاة الفجر فلمّا خرج قمنا إليه فقلنا : نحن الفرّارون الخ .

تأوّل بعضهم هذا الحديث بتوسّع في معنى التحيّز إلى فئة لا يبقى معه للوعيد معنى ولا للّغة حكم ، وقد قال الترمذيّ فيه : حسن لانعرفه إلّامن حديث يزيدبن أبي زياد أقول : وهو مختلف فيه ضعّفه الكثيرون ، وقال ابن حبّان كان صدوقاً إلّا أنّه لمّا كبرساء حفظه وتغيّر فوقعت المناكير في حديثه فمن سمع منه قبل التغيّر فسماعه صحيح ، وجملة القول : أنّ هذا الحديث لاوزن له في هذه المسألة لامتناًولا سنداً ، وفي معناه أثرعن عمرهو دونه فلا يوضع في ميزان هذه المسألة . انتهى .

أقول : والّذي نقله في أوّل كلامه من الوجوه و القرائن المحتفّة بغزوة بدر من كونه أوّل غزوة في الإسلام ، و كون النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بينهم ونحوذلك مشتركة بحسب حقيقة الملاك بينها وبين أمثال غزوة اُحد والخندق وخيبر وحنين ، و الإسلام أيّامئذ في حاجة شديدة إلى الرجال المقاتلين وثباتهم في الزحوف ، والنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم بينهم ، والله وعدهم بالنصر وأنزل في بعضها الملائكة لتأييدهم وإلقاء الرعب في قلوب أعدائهم .

والّذي ذكره من الآيات النازلة في فرارهم يوم اُحد ويوم حنين لا دلالة فيها على عدم شمول وعيد آية الأنفال لهم إذذاك وأيّ مانع يمنع من ذلك والآية مطلقة وليس هناك مقيّد يقيّدها .

ومن العجيب تسليمه كون فرارهم في اليومين كبيرة محرّمة ثمّ قوله : إنّ ذلك لا يقتضي كونه ممّا يبوء صاحبه بغضب من الله ومأواه جهنّم وبئس المصير بل قد يكون دون ذلك مع أنّ الكبائر الموبقة هي المعاصي الّتي أوعدالله عليها النار .

وأعجب منه قوله : إنّه يتقيّد بآية رخصة الضعف الآتية في هذه السورة ، وبالنهي عن إلقاء النفس في التهلكة من حيث عمومها ! مع أنّ آية رخصة الضعف إنّما تدلّ على الرخصة في الفرار إذا كان يربو عدد الزاحفين من الأعداء على الضعف .

وآية النهي عن إلقاء النفس في التهلكة لودلّت بعمومها على أزيد ممّا يدلّ عليه آية رخصة الضعف لغت آية الأنفال وبقيت بلا مصداق كما أنّ التأوّل في قوله تعالى : « أو متحيّزاً إلى فئة » على حسب ما تقتضيه رواية ابن عمر يوجب إلغاء الآية كما ذكره صاحب المنار فقد تلخّص أن لامناص عن إبقاء الآية على ظاهر إطلاقها .

وفي تفسير العيّاشيّ عن موسى بن جعفر عليه السلام في الآية : « إلّا متحرّفاً لقتال » قال متطرّداً يريد الكرّة عليهم « أومتحيّزاً إلى فئة » يعني متأخّراً إلى أصحابه من غير هزيمة . من انهزم حتّى يجوز صفّ أصحابه فقد باء بغضب من الله .

أقول : تشير الرواية إلى نكتة مهمّة في لفظ الآية ، وهي أنّ النهي إنّما تعلّقت في الآية على تولّي الأدبار وهي أعمّ من الانهزام فإذا استثني الموردان أعني التحرّف لقتال والتحيّز إلى فئة وهي غير موارد الفرار عن هزيمة ، بقيت موارد الهزيمة تحت النهي فكلّ انهزام عن أعداء الدين إذا لم يجوزوا الضعف عدداً حرام محرّم .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب عن الثعلبيّ عن ضحّاك عن عكرمة عن ابن عبّاس في قوله تعالى : « ومارميت إذرميت » أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله قال لعليّ : ناولني كفّاً من حصى وناوله ورمى به في وجوه قريش فما بقي أحد إلّا امتلأت عيناه من الحصى .

أقول: ورواه في الدرّ المنثور عن الطبرانيّ وأبي الشيخ وابن مردويه عن ابن عبّاس وروى العيّاشيّ في تفسيره حديث المناولة عن محمّد بن كليب الأسديّ عن أبيه عن الصادق عليه السلام ، وفي خبر آخر عن عليّ عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير عن محمّد بن قيس ومحمّد بن كعب رضى الله عنهما

قالا لمّادنا القوم بعضهم من بعض أخذ رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وسلّم قبضة من تراب فرمى بها في وجوه القوم ، وقال : شاهت الوجوه فدخلت في أعينهم كلّهم ، وأقبل أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم يقتلونهم ، وكانت هزيمتهم في رمية رسول‌الله صلّى الله عليه وآله وسلّم فأنزل‌الله : « وما رميت إذرميت ـ إلى قوله ـ سميع عليم » .

أقول: والمراد بنزول الآية نزولها بعد ذلك وهي تقصّ القصّة لانزولها وقتئذ ، و هو شائع في أسباب النزول . وقد ذكر ابن هشام في سيرته : أنّ النبي صلّى‌الله عليه و سلّم رماهم بالتراب ثمّ أمرأصحابه بالكرّة فكانت الهزيمة ،

وفيه أخرج ابن أبي‌شيبة وأحمد وعبدبن حميد و النسائی و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي‌حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه وابن منده والحاكم وصحّحه والبيهقيّ في‌الدلائل عن ابن شهاب عن عبدالله بن ثعلبة بن صعير : أنّ أباجهل قال حين التقى القوم : اللّهمّ أقطعنا للرحم وآتانا بما لا نعرف فأحنه الغداة فكان ذلك استفتاحاً منه فنزلت : « إن تستفتحوا فقدجاءكم الفتح » الآية .

وفي المجمع في قوله تعالى : « إنّ شرّ الدوابّ عندالله » الآية قال : قال الباقر عليه‌السلام : هم بنو عبد الدار لم‌يكن‌أسلم منهم غير مصعب بن عمير وحليف لهم يقال له : سويبط .

وفي جامع الجوامع : قال الباقر عليه السلام هم بنو عبدالدار لم يسلم منهم غير مصعب ابن عمير وسويدبن‌حرملة ، وكانوا يقولون : نحن صمّ بكمٌ عميٌ عمّا جاء به محمّد ، وقدقتلوا جميعاً بأُحد وكانوا أصحاب اللواء .

أقول : وروى في الدرّ المنثور مافي معناه بطرق‌عن ابن عبّاس وقتادة ، والروايةمن قبيل الجري والانطباق ، والآية عامّة .

وفي تفسير القمّيّ في‌قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا استجيبوالله و المرسول إذا دعاكم لما يحييكم » الآية قال : قال : الحياة الجنّة .

وفي الكافي بإسناده عن أبي‌الربيع‌الشاميّ قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن قول‌الله عزّوجلّ : « ياأيّها الّذين آمنوا استجيبوالله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم» قال :

نزلت في ولاية عليّ عليه السلام .

أقول : ورواه في تفسير البرهان عن ابن مردويه عن رجاله مرفوعاً إلى الإمام محمّد ابن عليّ الباقر عليه السلام ، وكذا عن أبي الجارود عنه عليه السلام كما رواه القمّيّ في تفسيره ، و الرواية من قبيل الجري وكذا الرواية السابقة عليها ، وقد قدّمنا في الكلام على الآية أنّها عامّة .

و في تفسير القمّيّ عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في قوله تعالى : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » يقول : بين المرء و معصيته أن يقوده إلى النار ، و يحول بين الكافر وطاعته أن يستكمل بها الإيمان ، واعلموا أنّ الأعمال بخواتيمها .

وفي المحاسن بإسناده عن عليّ بن الحكم عن هشام بن سالم عن الصادق عليه السلام في قول الله تبارك وتعالى : « واعلموا أنّ الله يحول بين المرء و قلبه » قال : يحول بينه و بين أن يعلم أنّ الباطل حقّ .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني عن ابن أبي عمير عن هشام بن سالم عنه عليه السلام .

وفي تفسير العيّاشيّ عن يونس بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لا يستيقن القلب أنّ الحقّ باطل أبداً ، ولا يستيقن أنّ الباطل حقّ أبداً .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن هذه الآية : «يحول بين المرء وقلبه» قال : يحول بين المؤمن والكفر ، ويحول بين الكافر وبين الهدى .

أقول : وهو قريب من الخبر المتقدّم عن أبي الجارود عن الباقر عليه السلام في معنى الآية .

و في تفسير العيّاشيّ عن حمزة الطيّار عن أبي عبدالله عليه السلام « و اعلموا أنّ الله يحول بين المرء وقلبه » قال : هو أن يشتهي الشيء بسمعه وبصره و لسانه ويده أما إنّه لا يغشى شيئاً منها وإن كان يشتهيه فإنّه لا يأتيه إلّا وقلبه منكر لا يقبل الّذي يأتي : يعرف أنّ الحقّ ليس فيه .

أقول : ورواه البرقيّ في المحاسن بإسناده عن حمزة الطيّار عنه عليه السلام وروى ما يقرب

منه العيّاشيّ في تفسيره عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام ، ويؤول معنى الرواية إلى الروايتين المتقدّمتين عن هشام بن سالم ويونس بن عمّار عن الصادق عليه السلام .

وفي تفسير العيّاشيّ عن الصيقل : سئل أبوعبدالله عليه السلام « و اتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » قال : أُخبرت أنّهم أصحاب الجمل .

وفي تفسيرالقمّيّ قال : قال : نزلت في الطلحةوالزبير لمّا حاربا أميرالمؤمنين عليه السلام وظلماه .

وفي المجمع عن الحاكم بإسناده عن قتادة عن سعيدبن المسيّب عن ابن عبّاس قال : لمّا نزلت هذه الآية : « واتّقوا فتنة » قال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : من ظلم عليّاً مقعدي هذا بعد وفاتي فكأنّما جحد نبوّتي و نبوّة الأنبياء من قبلي .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي‌شيبة وعبدبن حميد ونعيم بن حمّاد في الفتن و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي‌حاتم و أبوالشيخ و ابن مردويه عن الزبير رضي‌الله عنه قال : لقد قرأنا زماناً ومانرى أنّا من أهلها فإذا نحن المعنيّون بها : « واتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » .

وفيه أخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن السدّيّ في الآية قال : هذه نزلت في أهل بدرخاصّة فأصابتهم يوم الجمل فاقتتلوا فكان من المقتولين طلحة والزبيروهما من أهل بدر .

و فيه أخرج أحمد والبزّاز وابن المنذر و ابن مردويه و ابن العساكر عن مطرف قال : قلنا للزبير : ياأباعبدالله ضيّعتم الخليفة حتّى قتل ثمّ جئتم تطلبون بدمه ؟ فقال الزبير رضي‌الله عنه : إنّا قرأنا على عهد رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم و أبي‌بكر و عمر و عثمان رضى‌الله عنهم « واتّقوا فتنة لاتصيبنّ الّذين ظلموا منكم خاصّة » ولم نكن نحسب أنّا أهلها حتّى وقعت فينا حيث وقعت .

وفيه أخرج عبدبن حميد وأبوالشيخ عن قتادة رضي‌الله عنه في الآية قال : علم والله ذووا الألباب من أصحاب محمّد صلّى‌الله عليه وسلّم أنّه سيكون فتن .

وفيه : أخرج أبوالشيخ وأبونعيم والديلميّ في مسند الفردوس عن ابن‌عبّاس رضي الله عنهما عن رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم في قوله : « واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون

في الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس » قيل : يارسول الله ومن الناس ؟ قال : أهل فارس .

اقول : والرواية لا تلائم سياق الآية .

وفيه في قوله تعالى : « ياأيها الذين آمنوا لا تخونوا الله والرسول » الآية أخرج ابن جرير وابن المنذر وأبوالشيخ عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه أن أباسفيان خرج من مكة فأتى جبرئيل النبي صلى الله عليه و سلم فقال : إن أبا سفيان بمكان كذا و كذا فاخرجوا إليه وا كتموا فكتب رجل من المنافقين إلى أبي سفيان أن محمداً يريدكم فخذوا حذركم فأنزل الله : « لاتخونوا الله والرسول » الآية .

اقول : و معنى الرواية قريب الانطباق على ما استفدناه من الآية في البيان المتقدم .

وفيه : أخرج ابن جرير عن المغيرة بن شعبة قال : نزلت هذه الآية في قتل عثمان رضي الله عنه .

أقول : والآية لا تنطبق عليه بسياقها البتة .

وفي المجمع عن الباقر والصادق عليهما السلام والكلبي والزهري : نزلت في أبي لبابة بن عبدالمنذر الأنصاري ، وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وآله حاصر يهود قريظة إحدى و عشرين ليلة فسألوا رسول الله صلى الله عليه وآله الصلح على ماصالح عليه إخوانهم من بني النضير على أن يسيروا إلى إخوانهم إلى أذرعات وأريحات من أرض الشام فأبى أن يعطيهم ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله إلا أن ينزلوا على حكم سعد بن معاذ فقالوا : أرسل إلينا أبالبابة و كان مناصحاً لهم لأن عياله وماله وولده كانت عندهم فبعثه رسول الله صلى الله عليه وآله فأتاهم فقالوا : ماترى يا أبالبابة ؟ أننزل على حكم سعد بن معاذ ؟ فأشار أبولبابة بيده إلى حلقه : أنه الذبح فلا تفعلوا فأتاه جبرئيل فأخبره بذلك .

قال أبولبابة : فوالله مازالت قدماي عن مكانهما حتى عرفت أني قد خنت الله ورسوله فنزلت الآية فيه فلما نزلت شد نفسه على سارية من سواري المسجد ، و قال : والله لا أذوق طعاماً ولاشراباً حتى أموت أو يتوب الله علي فمكث سبعة أيام لايذوق فيها طعاماً ولا شراباً حتى خر مغشياً عليه ثم تاب الله عليه فقيل له : يا أبا لبابة قد تيب عليك

فقال : لا والله لاأحلّ نفسي حتّى يكون رسول الله هو الّذي يحلّني فجاءه وحلّه بيده .

ثمّ قال أبولبابة : إنّ من تمام توبتي أن أهجر دار قومي الّتي أصبت فيها الذنب وأن أنخلع من مالي . فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : يجزيك الثلث أن تصدّق به .

أقول : قصّة أبي لبابة وتوبته صحيحة قابلة الانطباق على مضمون الآيتين غير أنّها وقعت بعد قصّة بدر بكثير ، وظاهر الآيتين إذا اعتبرتا وقيستا إلى الآيات السابقة عليهما أنّ الجميع في سياق واحد نزلت بعد وقعة بدر بقليل . والله أعلم .

***

وَاذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ
وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ (٣٠) وَاذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا
لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَا انْ هَٰذَا الَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ (٣١) وَاذْ قَالُوا اللَّهُمَّ انْ
كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِنْدِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ
أَلِيمٍ (٣٢) وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنْتَ فِيهِمْ وَمَا كَانَ اللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ
يَسْتَغْفِرُونَ (٣٣) وَمَا لَهُمْ الَّا يُعَذِّبَهُمُ اللَّهُ وَهُمْ يَصُدُّونَ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَمَا
كَانُوا أَوْلِيَاءَهُ انْ أَوْلِيَاؤُهُ الَّا الْمُتَّقُونَ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٣٤) وَمَا
كَانَ صَلَاتُهُمْ عِنْدَ الْبَيْتِ الَّا مُكَاءً وَتَصْدِيَةً فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (٣٥)
انَّ الَّذِينَ كَفَرُوا يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ لِيَصُدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ فَسَيُنْفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ
عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ وَالَّذِينَ كَفَرُوا الَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ (٣٦) لِيَمِيزَ اللَّهُ
الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي
جَهَنَّمَ أُولَٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٣٧) قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا انْ يَنْتَهُوا يُغْفَرْ لَهُمْ مَا قَدْ
سَلَفَ وَانْ يَعُودُوا فَقَدْ مَضَتْ سُنَّتُ الْأَوَّلِينَ (٣٨) وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ
وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ فَانِ انْتَهَوْا فَانَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٣٩) وَانْ تَوَلَّوْا
فَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَوْلَاكُمْ نِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ (٤٠) .

﴿ بيان ﴾

الآيات في سياق الآيات السابقة وهي متصلة بها ومنعطفة على آيات أول السورة إلّا قوله : « وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ » الآية والآية الّتي تليها ، فإنّ ظهور اتصالها دون بقية الآيات ، وسيجيء الكلام فيها إن شاءالله تعالى .

قوله تعالى : « و إذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك » إلى آخر الآية قال الراغب : المكر صرف الغير عمّا يقصده بحيلة ، وذلك ضربان : ضرب محمود وذلك أن يتحرّى به فعل جميل وعلى ذلك قال : والله خير الماكرين ، و مذموم وهو أن يتحرّى به فعل قبيح قال : ولا يحيق المكر السيّء إلّا بأهله . وإذ يمكر بك الّذين كفروا . فانظر كيف كان عاقبة مكرهم ، وقال في الأمرين : ومكروا مكراً ومكرنا مكراً ، و قال بعضهم : من مكر الله إمهال العبد وتمكينه من أعراض الدنيا ، و لذلك قال أمير المؤمنين رضي الله عنه : من وُسّع عليه دنياه ولم يعلم أنّه مكر به فهو مخدوع عن عقله . انتهى .

وفي المجمع : الإثبات الحبس يقال : رماه فأثبته أي حبسه مكانه ، وأثبته في الحرب أي جرحه جراحة مثقلة . انتهى .

ومقتضى سياق الآيات أن يكون قوله : « و إذ يمكر بك الّذين كفروا » الآية معطوفة على قوله سابقاً : « وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنّها لكم » فالآية مسوقة لبيان ما أسبغ الله عليهم من نعمته ، وأيّدهم به من أياديه الّتي لم يكن لهم فيه صنع .

ومعنى الآية : واذكر أو وليذكروا إذ يمكر بك الّذين كفروا من قريش لإبطال دعوتك أن يوقعوا بك أحد اُمور ثلاثة : إمّا أن يحبسوك و إمّا أن يقتلوك و إمّا أن يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين .

والترديد في الآية بين الحبس والقتل والإخراج بياناً لما كانوا يمكرونه من مكر يدلّ أنّه كان منهم شورى يشاور فيها بعضهم بعضاً في أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وما كان يهمّهم و يهتمّون به من إطفاء نور دعوته ، وبذلك يتأيّد ما ورد من أسباب النزول أنّ الآية تشير إلى قصّة دار الندوة على ما سيجيء في البحث الروائيّ التالي إن شاءالله تعالى .

قوله تعالى : « و إذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا »

إلى آخر الآية الأساطير الأحاديث جمع أسطورة ويغلب في الأخبار الخرافيّة ، و قوله حكاية عنهم : « قد سمعنا » وقوله : « لو نشاء لقلنا » وقوله : « مثل هذا » ولم يقل : مثل هذه أو مثلها كلّ ذلك للدلالة على إهانتهم بآيات الله وإزرائهم بمقام الرسالة ، و نظيرها قولهم : « إن هذا إلّا أساطير الأوّلين » .

والمعنى : وإذا تتلى عليهم آياتنا الّتي لاريب في دلالتها على أنّها من عندنا وهي تكشف عن ما نريده منهم من الدين الحقّ لجّوا واعتدوا بها وهوّنوا أمرها وأزروا برسالتنا وقالوا قد سمعنا وعقلنا هذا الّذي تلي علينا لا حقيقة له إلّا أنّه من أساطير الأوّلين ، ولو نشاء لقلنا مثله غير أنّا لا نعتني به ولا نهتمّ بأمثال هذه الأحاديث الخرافيّة .

قوله تعالى : « و إذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك » إلى آخر الآيتين . الإمطار هو إنزال الشيء من فوق ، وغلب في قطرات الماء من المطر أو هو استعارة إمطار المطر لغيره كالحجارة و كيف كان فقولهم : أمطر علينا حجارة من السماء بالتصريح باسم السماء للدلالة على كونه بنحو الآية السماويّة و الإهلاك الإلهيّ محضاً .

فإمطار الحجارة من السماء عليهم على ماسألوا أحد أقسام العذاب و يبقى الباقي تحت قولهم : « أوائتنا بعذاب أليم » ولذلك نكّر العذاب وأبهم وصفه ليدلّ على باقي أقسام العذاب ، ويفيد مجموع الكلام : أن أمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب آخر غيره يكون أليماً ، وإنّما أفرد إمطار الحجارة من بين أفراد العذاب الأليم بالذكر لكون الرضخ بالحجارة ممّا يجتمع فيه عذاب الجسم بما فيه من تألّم البدن وعذاب الروح بما فيه من الذلّة والإهانة .

ثمّ قوله : «إن كان هذا هو الحقّ من عندك» يدلّ بلفظه على أنّ الّذي سمعوه من النبيّ صلى الله عليه وآله بلسان القال أو الحال بدعوته هو قوله : « هذا هو الحقّ من عندالله » و فيه شيء من معنى الحصر ، وهذا غير ماكان يقوله لهم : هذا حقّ من عندالله فإنّ القول الثاني يواجه به الّذي لايرى ديناً سماويّاً ونبوّة إلهيّة كما كان يقوله المشركون وهم الوثنيّة : ما أنزل الله على بشر من شيء ، وأمّا القول الأوّل فإنّما يواجه به من يرى أنّ هناك ديناً حقّاً من عندالله ورسالة إلهيّة يبلّغ الحقّ من عنده ثمّ ينكر كون ما أتى به النبيّ صلى الله عليه وآله أو بعض ما أتى به هو الحقّ من عندالله تعالى فيواجه بأنّه هو الحقّ من

عندالله لا غيره ثمّ يردّ بالاشتراط في مثل قوله : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم .

فالأشبه أن لا يكون هذا حكاية عن بعض المشركين بنسبته إلى جميعهم لاتّفاقهم في الرأي أورضا جميعهم بما قاله هذا القائل بل كأنّه حكاية عن بعض أهل الردّة ممّن أسلم ثمّ ارتدّ أو عن بعض أهل الكتاب المعتقدين بدين سماويّ حقّ فافهم ذلك .

ويؤيّد هذا الآية التالية لهذه الآية . « وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » أمّا قوله : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » فإن كان المرادبه نفي تعذيب الله كفّار قريش بمكّة قبل الهجرة والنبيّ فيهم كان مدلوله أنّ المانع من نزول العذاب يومئذ هووجودالنبيّ ﷺ بينهم ، والمراد بالعذاب غير العذاب الّذي جرى عليهم بيد النبيّ ﷺ من القتل والأسر كما سمّاه الله في الآيات السابقة عذاباً ، وقال في مثلها : « قل هل تربّصون بنا إلّا إحدى الحسنيين ونحن نتربّص بكم أن يصيبكم الله بعذاب من عنده أو بأيدينا » التوبة : ٥٢ بل عذاب الاستئصال بآية سماويّة كما جرى في اُمم الأنبياء الماضين لكنّ الله سبحانه هدّدهم بعذاب الاستئصال في آيات كثيرة كقوله تعالى : « فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود » حم السجدة : ١٣ و كيف يلائم أمثال هذه التهديدات قوله : « وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » لوكان المراد بالمعذّبين هم كفّار قريش ومشركوا العرب مادام النبيّ ﷺ بمكّة .

ولو كان المراد بالمعذّبين جميع العرب أوالاُمّة ، والمراد بقوله : « وأنت فيهم » حياة النبيّ ﷺ ، والمعنى : ولايعذّب الله هذه الاُمّة وأنت فيهم حيّاً كما ربّما يؤيّده قوله بعده : « وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون » كان ذلك نفياً للعذاب عن جميع الاُمّة ولم يناف نزوله على بعضهم كما سمّى وقوع القتل بهم عذاباً كما في الآيات السابقة ، و كما ورد أنّ الله تعالى عذّب جمعاً منهم كأبي لهب والمستهزئين برسول الله ﷺ ، وعلى هذا لاتشمل الآية القائلين : «اللّهمّ إن كان هذا هوالحقّ من عندك » إلى آخر الآية ، وخاصّة باعتبار ما روي أنّ القائل به أبوجهل كما في صحيح البخاريّ أوالنضر بن الحارث بن كلدة كما في بعض روايات اُخر وقدحقّت عليهما كلمة العذاب وقتلا يوم بدر فلاترتبط الآية :

« وماكان الله ليعذّبهم » الآية بهؤلاء القائلين : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك » الآية مع أنّها مسوقة سوق الجواب عن قولهم .

ويشتدّ الإشكال بناءً على ماوقع في بعض أسباب النزول أنّهم قالوا : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أوائتنا بعذاب أليم فنزل قوله تعالى « سأل سائل بعذاب واقع للكافرين ليس له دافع » وسيجيء الكلام فيه وفي غيره من أسباب النزول المرويّة في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله .

والّذي تمحّل به بعض المفسّرين في توجيه مضمون الآية بناء على حملها على ما مرّ من المعنى أنّ الله سبحانه أرسل محمّداً صلى الله عليه وآله رحمة للعالمين ونعمة لهذه الاُمّة لا نقمة و عذاباً . فيه أنّه ليس مقتضى الرحمة للعالمين أن يهمل مصلحة الدين ، و يسكت عن مظالم الظالمين وإن بلغ مابلغ و أدّى إلى شقاء الصالحين و اختلال نظام الدنيا و الدين ، وقد حكى الله سبحانه عن نفسه بقوله : « ورحمتي وسعت كلّ شيء » ولم يمنع ذلك من حلول غضبه على من حلّ به من الاُمم الماضية والقرون الخالية كماذكره في كلامه .

على أنّه تعالى سمّى ماوقع على كفّار قريش من القتل والهلاك في بدر وغيره عذاباً ولم ينافِ ذلك قوله : «وماأرسلناك إلّا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧ ، وهدّد هذه الاُمّة بعذاب واقع قطعيّ في سورة يونس والإسراء والأنبياء والقصص و الروم و المعارج و غيرها ولم ينافِ ذلك كونه صلى الله عليه وآله رحمة العالمين فما بال نزول العذاب على شرذمة تفوّهت بهذه الكلمة : « اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ » الخ ينافي كون النبيّ صلى الله عليه وآله نبيّ الرحمة مع أنّ من مقتضى الرحمة أن يوفّى لكلّ ذي حقّ حقّه ، و أن يقتصّ للمظلوم من الظالم و أن يؤخذ كلّ طاغية بطغيانه .

وأمّا قوله تعالى : « وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون» فظاهره النفي الاستقباليّ على ماهو ظاهر الصفة : « معذّبهم » و كون قوله : « يستغفرون » مسوقاً لإفادة الاستمرار والجملة حاليّة ، والمعنى : ولا يستقبلهم الله بالعذاب ماداموا يستغفرونه .

والآية كيفما اُخذت لاتنطبق على حال مشركي مكّة وهم مشركون معاندون لايخضعون لحقّ ولا يستغفرون عن مظلمة ولا جريمة ، ولا يصلح الأمر بماورد في بعض

الآثار أنّهم قالوا ماقالوا ثمّ ندموا على ما قالوا فاستغفروا الله بقولهم : « غفرانك اللّهمّ » .

وذلك ـ مضافاً إلى عدم ثبوته ـ أنّه تعالى لا يعبأ في كلامه باستغفار المشركين ولاسيّما أئمّة الكفر منهم ، واللاّعي من الاستغفار لاأثر له ، ولولم يكن استغفارهم لاغياً وارتفع به ماأجرموه بقولهم : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية لم يكن وجه لذمّهم وتأنيبهم بقوله تعالى : « وإذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ » في سياق هذه الآيات المسوقة لذمّهم ولومهم وعدّ جرائمهم ومظالمهم على النبيّ صلّى الله عليه وآله و المؤمنين .

على أنّ قوله تعالى بعد الآيتين : « ومالهم أن لايعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام » الآية لايلائم نفي العذاب في هاتين الآيتين فإنّ ظاهر الآية أنّ العذاب المهدّد به هو عذاب القتل بأيدي المؤمنين كما يدلّ عليه قوله بعده : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وحينئذ فلوكان القائلون : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ » الآية مشركي قريش أوبعضهم وكان المراد من العذاب المنفيّ العذاب السماويّ لم يستقم إنكار وقوع العذاب عليهم بالقتل ونحوه فإنّ الكلام حينئذ يؤول إلى معنى التشديد : ومحصّله: أنّهم كانوا أحقّ بالعذاب ولهم جرم آخر وراء ماأجرموه وهوالصدّ عن المسجد الحرام ، و هذا النوع من الترقّي أنسب بإثبات العذاب لهم لالنفيه عنهم .

و إن كان المراد بالعذاب المنفيّ هوالقتل ونحوه كان عدم الملاءمة بين قوله : « ومالهم أن لايعذّبهم الله » وقوله : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » وبين قوله : « وما كان الله ليعذّبهم » الخ أوضح و أظهر .

و ربّما وجّه الآية بهذا المعنى بعضهم بأنّ المراد بقوله : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم» عذاب أهل مكّة قبل الهجرة ، و بقوله : « وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون» عذاب الناس كافّة بعد هجرته صلّى الله عليه وآله إلى المدينة و إيمان جمع و استغفارهم ولذا قيل : إنّ صدر الآية نزلت قبل الهجرة ، و ذيلها بعد الهجرة !

و هو ظاهر الفساد فإنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله لمّا كان فيهم بمكّة قبل الهجرة كان معه جمع ممّن يؤمن بالله ويستغفره ، وهو صلّى الله عليه وآله بعد الهجرة كان في الناس فما معنى تخصيص صدر الآية

بقوله : « وأنت فيهم » و ذيلها بقوله : « وهم يستغفرون » .

ولو فرض أنّ معنى الآية أنّ الله لايعذّب هذه الاُمّة مادمت فيهم ببركة وجودك ، ولا يعذّبهم بعدك ببركة استغفارهم لله والمراد بالعذاب عذاب الاستئصال لم يلائم الآيتين التاليتين : « وما لهم أن لايعذّبهم الله » الخ مع ماتقدّم من الإشكال عليه .

فقد ظهر من جميع ماتقدّم ـ على طوله ـ أنّ الآيتين أعني قوله : « و إذ قالوا اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة » إلى آخر الآيتين لاتشار كان الآيات السابقة و اللاحقة المسرودة في الكلام على كفّار قريش في سياقها الواحد فهما لم تنزلا معها .

و الأقرب أن يكون ماحكي فيهما من قولهم والجواب عنه بقوله : « و ما كان الله ليعذّبهم » غير مرتبط بهم و إنّما صدر هذا القول من بعض أهل الكتاب أو بعض من آمن ثمّ ارتدّ من الناس .

و يتأيّد بذلك بعض ماورد أنّ القائل بهذا القول الحارث بن النعمان الفهريّ ، وقد تقدّم الحديث نقلاً عن تفسيري الثعلبيّ والمجمع في ذيل قوله تعالى : « يا أيّها الرسول بلّغ ما اُنزل إليك من ربّك » الآية المائدة : ٦٧ في الجزء السادس من الكتاب .

و على هذا التقدير فالمراد بالعذاب المنفيّ العذاب السماويّ المستعقب للاستئصال الشامل للاُمّة على نهج عذاب سائر الاُمم ، والله سبحانه ينفي فيها العذاب عن الاُمّة مادام النبيّ صلّى الله عليه وآله فيهم حيّاً ، وبعده ماداموا يستغفرون الله تعالى .

ويظهر من قوله تعالى : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » بضمّه إلى الآيات الّتي توعد هذه الاُمّة بالعذاب الّذي يقضي بين الرسول و بينهم كآيات سورة يونس : « و لكلّ اُمّة رسول فإذا جاء رسولهم قضي بينهم بالقسط وهم لايظلمون » يونس : ٤٧ إلى آخر الآيات أنّ في مستقبل أمر هذه الاُمّة يوماً ينقطع عنهم الاستغفار ويرتفع من بينهم المؤمن الإلهيّ فيعذّبون عند ذاك .

قوله تعالى : « وما لهم أن لايعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام وماكانوا أولياءه » إلى آخر الآية استفهام في معنى الإنكار أو التعجّب ، و قوله : « و مالهم » بتقدير

فعل يتعلّق به الظرف ويكون قوله : « أن لا يعذّبهم » مفعوله أو هو من التضمين نظير ماقيل في قوله : « هل لك إلى أن تزكّى » النازعات : ١٨ .

والتقدير على أيّ حال نحو من قولنا : « وما الّذي يثبت و يحقّ لهم عدم تعذيب الله إيّاهم والحال أنّهم يصدّون عن المسجد الحرام ويمنعون المؤمنين من دخوله وماكانوا أولياءه . فقوله : «وهم يصدّون» الخ حال عن ضمير « يعذّبهم » وقوله : «وماكانوا أولياءه» حال عن ضمير « يصدّون » .

و قوله : « إن أولياؤه إلّا المتّقون » تعليل لقوله : « وماكانوا أولياءه » أي ليس لهم أن يلوا أمر البيت فيجيزوا ويمنعوا من شاؤوا لأنّ هذا المسجد مبنيّ على تقوى الله فلا يلي أمره إلّا المتّقون وليسوا بهم .

فقوله : « إن أولياؤه إلّا المتّقون» جملة خبريّة تعلّل القول بأمر بيّن يدركه كلّ ذي لبّ ، وليست الجملة إنشائيّة مشتملة على جعل الولاية للمتّقين ، ويشهد لما ذكرناه قوله بعد : « ولكنّ أكثرهم لا يعلمون » كما لا يخفى .

والمراد بالعذاب العذاب بالقتل أو الأعمّ منه على ما يفيده السياق باتّصال الآية بالآية التالية ، وقد تقدّم أنّ الآية غير متّصلة ظاهراً بما تقدّمها أي إنّ الآيتين : « و إذ قالوا اللّهمّ» الخ « و ما كان الله ليعذّبهم » الخ خارجتان عن سياق الآيات ، ولازم ذلك ما ذكرناه .

قال في المجمع : ويسأل فيقال : كيف يجمع بين الآيتين وفي الاُولى نفي تعذيبهم ، وفي الثانية إثبات ذلك ؟ وجوابه على ثلاثة أوجه :

أحدها : أنّ المراد بالأوّل عذاب الاصطلام والاستئصال كما فعل بالاُمم الماضية ، وبالثاني عذاب القتل بالسيف والأسر وغير ذلك بعد خروج المؤمنين من بينهم .

والآخر : أنّه أراد : ومالهم أن لا يعذّبهم الله في الآخرة ، ويريد بالأوّل عذاب الدنيا . عن الجبّائيّ .

والثالث : أنّ الأوّل استدعاء للاستغفار يريد أنّه لا يعذّبهم بعذاب دنيا ولا آخرة

إذا استغفروا وتابوا فإذا لم يفعلوا عذّبوا ثمّ بيّن أنّ استحقاقهم العذاب بصدّهم عن المسجد الحرام . انتهى .

وفيه : أنّ مبنى الإشكال على اتّصال الآية بما قبلها وقد تقدّم أنّها غير متّصلة . هذا إجمالاً .

وأمّا تفصيلاً فيرد على الوجه الأوّل : أنّ سياق الآية وهو كما تقدّم سياق التشدّد والترقّي ، ولا يلائم ذلك نفي العذاب في الأُولى مع إثباته في الثانية و إن كان العذاب غير العذاب .

وعلى الثاني أنّ سياق الآية ينافي كون المراد بالعذاب فيها عذاب الآخرة ، و خاصّة بالنظر إلى قوله في الآية الثالثة ـ وهي في سياق الآية الأُولى ـ « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » .

و على الثالث : أنّ ذلك خلاف ظاهر الآية بلاشكّ حيث إنّ ظاهرها إثبات الاستغفار لهم حالاً مستمرّاً لاستدعاؤه وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وماكان صلاتهم عندالبيت إلّا مكاءً و تصدية فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » المكاء بضمّ الميم الصفير ، و المُكّاء بصيغة المبالغة طائر بالحجاز شديد الصفير ، ومنه المثل السائر : بنيك حمّري و مكّيكيني . و التصدية التصفيق بضرب اليد على اليد .

وقوله : « وماكان صلاتهم » الضمير لهؤلاء الصادّين المذكورين في الآية السابقة وهم المشركون من قريش ، وقوله : « فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون » بيان إنجاز العذاب الموعد لهم بقرينة التفريع بالفاء .

ومن هنا يتأيّد أنّ الآيتين متّصلتان كلاماً واحداً ، وقوله : « وما كان » الخ جملة حاليّة والمعنى : وما لهم أن لا يعذّبهم الله والحال أنّهم يصدّون العبّاد من المؤمنين عن المسجد الحرام وماكان صلاتهم عند البيت إلّا ملعبة من المكاء والتصدية فإذا كان كذلك فليذوقوا العذاب بما كانوا يكفرون ، والالتفات في قوله : «فذوقوا العذاب» عن الغيبة إلى الخطاب لبلوغ التشديد .

ويستفاد من الآيتين أنّ الكعبة المشرّفة لو تركت بالصدّ استعقب ذلك المؤاخذة الإلهيّة بالعذاب قال عليّ عليه السلام في بعض وصاياه : « الله الله في بيت ربّكم فإنّها إن تركت لم ينظروا [1] » .

قوله تعالى : « إنّ الّذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدّوا عن سبيل الله » إلى آخر الآية يبيّن حال الكفّار في ضلال سعيهم الّذي يسعونه لإبطال دعوة الله والمنع عن سلوك السالكين لسبيل الله ، ويشرح ذلك قوله : « فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون » الخ .

وبهذا السياق يظهر أنّ قوله : « والّذين كفروا إلى جهنّم يحشرون » بمنزلة التعليل ، ومحصّل المعنى أنّ الكفر سيبعثهم ـ بحسب سنّة الله في الأسباب ـ إلى أن يسعوا في إبطال الدعوة والصدّ عن سبيل الحقّ غير أنّ الظلم والفسق وكلّ فساد لا يهدي إلى الفلاح والنجاح فسينفقون أموالهم في سبيل هذه الأغراض الفاسدة فتضيع الأموال في هذا الطريق فيكون ضيعتها موجبة لتحسّرهم ، ثمّ يغلبون فلا ينتفعون بها ، وذلك أنّ الكفّار يحشرون إلى جهنّم ويكون ما يأتون به في الدنيا من التجمّع على الشرّ والخروج إلى محاربة الله ورسوله بحذاء خروجهم محشورين إلى جهنّم يوم القيامة .

وقوله : « فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة ثمّ يغلبون » إلى آخر الآية من ملاحم القرآن والآية من سورة الأنفال النازلة بعد غزوة بدر فكأنّها تشير إلى ما سيقع من غزوة اُحد أو هي وغيرها ، وعلى هذا فقوله : « فسينفقونها ثمّ تكون عليهم حسرة » إشارة إلى غزوة اُحد أو هي وغيرها ، وقوله : « ثمّ يغلبون » إلى فتح مكّة ، وقوله : « والّذين كفروا إلى جهنّم يحشرون » إلى حال من لا يوفّق للإسلام منهم .

قوله تعالى : ليميز الله الخبيث من الطيّب ويجعل الخبيث بعضه على بعض فيركمه جميعاً فيجعله في جهنّم اُولئك هم الخاسرون » الخباثة والطيب معنيان متقابلان وقدم شرحهما والتمييز إخراج الشيء عمّا يخالفه وإلحاقه بما يوافقه بحيث ينفصل عمّا يخالفه ، والركم

(١) نهج البلاغة في باب الوصايا .

جمع الشيء فوق الشيء ومنه سحاب مركوم أي مجتمع الأجزاء بعضها إلى بعض ومجموعها وتراكم الأشياء تراكب بعضها بعضاً .

و الآية في موضع التعليل لما اُخبر به في الآية السابقة من حال الكفّار بحسب السنّة الكونيّة ، وهو أنّهم يسعون بتمام وجدهم ومقدرتهم إلى أن يطفؤوا نورالله ويصدّوا عن سبيل الله فينفقون في ذلك الأموال ويبذلون في طريقه المساعي غير أنّهم لايهتدون إلى مقاصدهم ولا يبلغون آمالهم بل تضيع أموالهم ، وتحبط أعمالهم وتضلّ مساعيهم ، ويرثون بذلك الحسرة والهزيمة .

وذلك أنّ هذه الأعمال والتقلّبات تسير على سنّة إلهيّة وتتوجّه إلى غاية تكوينيّة ربّانيّة ، وهي أنّ الله سبحانه يميز في هذا النظام الجاري الشرّ من الخير والخبيث من الطيّب ويركم الخبيث بجعل بعضه على بعض ، ويجعل ما اجتمع منه وتراكم في جهنّم وهي الغاية الّتي تسير إليها قافلة الشرّ والخبيث يحلّها الجميع وهي دارالبوار كما أنّ الخير والطيّب إلى الجنّة ، والأوّلون هم الخاسرون كما أنّ الآخرين هم الرابحون المفلحون .

ومن هنا يظهر أنّ قوله : « ليميزالله الخبيث من الطيّب » الخ قريب المضمون من قوله تعالى في مثل ضربه للحقّ والباطل : « أنزل من السماء ماءً فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً وممّا يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع زبد مثله كذلك يضرب الله الحقّ والباطل فأمّا الزبد فيذهب جفاء وأمّا ما ينفع الناس فيمكث في الأرض » الرعد : ١٧ والآية تشير إلى قانون كلّيّ إلهيّ وهو إلحاق فرع كلّ شيء إلى أصله .

قوله تعالى : « قل للّذين كفروا إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف » إلى آخر الآية الانتهاء الإقلاع عن الشيء لأجل النهي ، والسلوف التقدّم ، والسنّة هي الطريقة والسيرة .

أمر النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يبلّغهم ذلك و في معناه تطميع و تخويف وحقيقته دعوة إلى ترك القتال والفتنة ليغفر الله لهم بذلك ما تقدّم من قتلهم وإيذائهم للمؤمنين فإن لم ينتهوا عمّا نهوا عنه فقد مضت سنّة الله في الأوّلين منهم بالإهلاك والإبادة وخسران السعي .

قوله تعالى : « وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة ويكون الدين كلّه لله فإن انتهوا فإنّ الله بما يعملون بصير » الآية وما بعدها يشتملان على تكليف المؤمنين بحذاء ما كلّف به الكفّار في الآية السابقة ، والمعنى : قل لهم إن ينتهوا عن المحادّة لله ورسوله يغفر لهم ما قد سلف و إن يعودوا إلى مثل ما عملوا فقد علموا بما جرى على سابقتهم ؛ قل لهم كذا وأمّا أنت والمؤمنون فلا تهنوا فيما يهمّكم من إقامة الدين وتصفية جوّ صالح للمؤمنين ، وقاتلوهم حتّى تنتهي هذه الفتن الّتي يفاجؤكم كلّ يوم ، ولا تكون فتنة بعد فإن انتهوا فإنّ الله يجازيهم بما يرى من أعمالهم ، و إن تولّوا عن الانتهاء فأديموا القتال والله مولاكم فاعلموا ذلك ولا تهنوا ولا تخافوا .

والفتنة ما يمتحن به النفوس وتكون لا محالة ممّا يشقّ عليها ، وغلب استعمالها في المقاتل و ارتفاع الأمن و انتقاض الصلح ، وكان كفّار قريش يقبضون على المؤمنين بالنبيّ صلّى الله عليه وآله قبل الهجرة و بعدها إلى مدّة في مكّة ويعذّبونهم ويجبرونهم على ترك الإسلام والرجوع إلى الكفر ، وكانت تسمّى فتنة .

وقد ظهر بما يفيده السياق من المعنى السابق أنّ قوله : « وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة » كناية عن تضعيفهم بالقتال حتّى لا يغترّوا بكفرهم ولا يلفوا فتنة يفتتن بها المؤمنون ، ويكون الدين كلّه لله لا يدعو إلى خلافه أحد ، وأنّ قوله : « فإن انتهوا فإنّ الله بما يعملون بصير » المراد به الانتهاء عن القتال ولذلك أردفه بمثل قوله : « فإنّ الله بما يعملون بصير » أي عندئذ يحكم الله فيهم بما يناسب أعمالهم وهو بصير بها ، وأنّ قوله : « وإن تولّوا » الخ أي إن تولّوا عن الانتهاء ، ولم يكفّوا عن القتال ولم يتركوا الفتنة فاعلموا أنّ الله مولاكم وناصركم وقاتلوهم مطمئنّين بنصر الله نعم المولى ونعم النصير .

و قد ظهر أنّ قوله : « و يكون الدين كلّه لله » لا ينافي إقرار أهل الكتاب على دينهم إن دخلوا في الذمّة وأعطوا الجزية فلا نسبة للآية مع قوله تعالى : « حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » التوبة : ٢٩ . بالناسخيّة والمنسوخيّة .

ولبعض المفسّرين وجوه في معنى الانتهاء والمغفرة و غيرهما من مفردات الآيات الثلاث لا كثير جدوى في التعرّض لها تركناها .

وقد ورد في بعض الأخبار كون « نعم المولى ونعم النصير » من أسماء الله الحسنى والمراد بالاسم حينئذ لا محالة غير الاسم بمعناه المصطلح بل كلّ ما يخصّ بلفظه شيئاً من المصاديق كما ورد نظيره في قوله تعالى : « لا تأخذه سنة ولا نوم » وقد مرّ استيفاء الكلام في الأسماء الحسنى في ذيل قوله تعالى : « و لله الأسماء الحسنى» الأعراف ١٨٠ في الجزء الثامن من الكتاب .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي في قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الّذين كفروا » الآية أنّها نزلت بمكّة قبل الهجرة .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن جرير و أبوالشيخ عن ابن جريح (رض) « و إذ يمكر بك الّذين كفروا » قال : هي مكّيّة .

أقول : وهوظاهر ما رواه أيضاً عن عبد بن حميد عن معاوية بن قرّة ، لكن عرفت أنّ سياق الآيات لا يساعد عليه .

وفيه أخرج عبدالرزّاق وأحمد وعبد بن حميد وابن المنذر والطبرانيّ و أبوالشيخ وابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل والخطيب عن ابن عبّاس رضي الله عنهما في قوله : « وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك » قال : تشاورت قريش ليلة بمكّة فقال بعضهم : إذا أصبح فأثبتوه بالوثاق ـ يريدون النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ وقال بعضهم : بل اقتلوه ، و قال بعضهم بل أخرجوه فاطّلع الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم على ذلك فبات عليّ رضي الله عنه على فراش النبيّ صلى الله عليه وسلّم وخرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حتّى لحق بالغار ، و بات المشركون يحرسون عليّاً رضي الله عنه يحسبونه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم فلمّا أصبحوا ثاروا عليه فلمّا رأوه عليّاً رضي الله عنه ردّ الله مكرهم فقالوا : أين صاحبك هذا ؟ قال : لا أدري فاقتصّوا أثره فلمّا بلغوا الجبل اختلط عليهم فصعدوا في الجبل فرأوا على بابه نسج العنكبوت فقالوا : لو دخل هنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه فمكث ثلاث ليال .

و في تفسير القمّي : كان سبب نزولها أنّه لمّا أظهر رسول الله صلى الله عليه وآله الدعوة بمكّة قدمت عليه الأوس والخزرج فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : تمنعوني وتكونون لي جاراً حتّى أتلو كتاب الله عليكم وثوابكم على الله الجنّة ؟ فقالوا : نعم خذ لربّك و لنفسك ما شئت فقال لهم : موعدكم العقبة في اللّيلة الوسطى من ليالي التشريق فحجّوا و رجعوا إلى منى وكان فيهم ممّن قد حجّ بشر كثير .

فلمّا كان اليوم الثاني من أيّام التشريق قال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : إذا كان اللّيل فاحضروا دار عبدالمطّلب على العقبة ، ولا تنبّهوا نائماً ، ولينسلّ واحد فواحد فجاء سبعون رجلاً من الأوس والخزرج فدخلوا الدار فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله : تمنعوني و تجيروني حتّى أتلو عليكم كتاب ربّي وثوابكم على الله الجنّة .

فقال أسعد بن زرارة والبراء بن معرور وعبدالله بن حرام : نعم يا رسول الله اشترط لربّك ونفسك ما شئت . فقال : أمّا ما أشترط لربّي فأن تعبدوه ولا تشركوا به شيئاً ، وما أشترط لنفسي أن تمنعوني ممّا تمنعون أنفسكم وتمنعون أهلي ممّا تمنعون أهليكم وأولادكم . فقالوا فما لنا على ذلك ؟ فقال : الجنّة في الآخرة ، وتملكون العرب ، ويدين لكم العجم في الدنيا ، و تكونون ملوكاً في الجنّة فقالوا : قد رضينا .

فقال : أخرجوا إليّ منكم اثني عشر نقيباً يكونون شهداء عليكم بذلك كما أخذ موسى من بني إسرائيل اثني عشر نقيباً فأشار إليهم جبرئيل فقال : هذا نقيب و هذا نقيب تسعة من الخزرج و ثلاثة من الأوس : فمن الخزرج أسعد بن زرارة والبراء بن معرور و عبدالله بن حرام أبو جابر بن عبدالله و رافع بن مالك و سعد بن عبادة و المنذر بن عمر وعبدالله بن رواحة وسعد بن ربيع وعبادة بن صامت ومن الأوس أبو الهيثم بن التيّهان وهو من اليمن واُسيد بن حصين وسعد بن خيثمة .

فلمّا اجتمعوا وبايعوا لرسول الله صلى الله عليه وآله صاح إبليس : يا معشر قريش والعرب هذا محمّد والصباة من أهل يثرب على جمرة العقبة يبايعونه على حربكم فأسمع أهلَ منى ، وهاجت قريش فأقبلوا بالسلاح ، وسمع رسول الله صلى الله عليه وآله النداء فقال للأنصار : تفرّقوا فقالوا : يا رسول الله إن أمرتنا أن نميل عليهم بأسيافنا فعلنا . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لم اُومر بذلك

ولم يأذن الله لي في محاربتهم . قالوا : فتخرج معنا ؟ قال : أنتظر أمر الله .

فجاءت قريش على بكرة أبيها قد أخذوا السلاح وخرج حمزة وأمير المؤمنين عليه السلام بالسلاح ومعهما السيوف فوقفا على العقبة فلمّا نظرت قريش إليهما قالوا : ما هذا الّذي اجتمعتم له ؟ فقال حمزة : ما اجتمعنا وما ههنا أحد والله لا يجوز هذه العقبة أحد إلّا ضربته بسيفي .

فرجعوا إلى مكّة وقالوا : لا نأمن أن يفسد أمرنا ويدخل واحد من مشائخ قريش في دين محمّد فاجتمعوا في دار الندوة ، وكان لا يدخل دار الندوة إلّا من أتى عليه أربعون سنة فدخلوا أربعين رجلاً من مشائخ قريش ، و جاء إبليس في صورة شيخ كبير فقال له البوّاب : من أنت ؟ فقال : أنا شيخ من أهل نجد لا يعدمكم منّي رأي صائب إنّي حيث بلغني اجتماعكم في أمر هذا الرجل جئت لأُشير عليكم فقال : اُدخل فدخل إبليس .

فلمّا أخذوا مجلسهم قال أبوجهل : يا معشر قريش إنّه لم يكن أحد من العرب أعزّ منّا نحن أهل الله تفد إلينا العرب في السنة مرّتين و يكرموننا ، ونحن في حرم الله لا يطمع فينا طامع فلم نزل كذلك حتّى نشأ فينا محمّد بن عبدالله فكنّا نسمّيه الأمين لصلاحه وسكونه وصدق لهجته حتّى إذا بلغ ما بلغ وأكرمناه ادّعى أنّه رسول الله وأنّ أخبار السماء تأتيه فسفّه أحلامنا ، وسبّ آلهتنا ، وأفسد شبّاننا ، وفرّق جماعتنا ، و زعم أنّه من مات من أسلافنا ففي النار ، ولم يرد علينا شيء أعظم من هذا ، وقد رأيت فيه رأياً. قالوا : وما رأيت ؟ قال : رأيت أن ندسّ إليه رجلاً منّا ليقتله فإن طلبت بنو هاشم بديته أعطيناهم عشر ديات .

فقال الخبيث : هذا رأي خبيث قالوا : و كيف ذلك ؟ قال : لأنّ قاتل محمّد مقتول لامحالة فمن هذا الّذي يبذل نفسه للقتل منكم ؟ فإنّه إذا قتل محمّداً تعصّبت بنوهاشم و حلفاؤهم من خزاعة ، وإنّ بني هاشم لاترضى أن يمشي قاتل محمّد على الأرض فتقع بينكم الحروب في حرمكم و تتفانون .

فقال آخر منهم : فعندي رأي آخر . قال : وما هو ؟ قال : نثبته في بيت و نلقي عليه قوته حتّى يأتي عليه ريب المنون فيموت كما مات زهير والنابغة وامرء القيس . فقال

إبليس : هذا أخبث من الآخر . قالوا : و كيف ذاك ؟ قال : لأنّ بني هاشم لاترضى بذلك فإذا جاء موسم من مواسم العرب استغاثوا بهم فاجتمعوا عليكم فأخرجوه .

قال آخر منهم : لا ولكنّا نخرجه من بلادنا و نتفرّغ لعبادة آلهتنا . قال إبليس هذا أخبث من ذينك الرأيين المتقدّمين ، قالوا : و كيف ؟ قال : لأنّكم تعمدون إلى أصبح الناس وجهاً ، وأتقن الناس لساناً و أفصحهم لهجة فتحملوه إلى بوادي العرب فيخدعهم و يسحرهم بلسانه فلايفجؤكم إلّا وقد ملأها خيلاً ورجلاً . فبقواحائرين .

ثمّ قالوا لإبليس : فما الرأى ياشيخ ؟ قال : ما فيه إلّا رأي واحد . قالوا : وماهو ؟ قال : يجتمع من كلّ بطن من بطون قريش فيكون معهم من بني‌هاشم رجل فيأخذون سكّيناً أو حديدة أو سيفاً فيدخلون عليه فيضربونه كلّهم ضربة واحدة حتّى يتفرّق دمه في قريش كلّها فلايستطيع بنوهاشم أن يطلبوا بدمه فقد شاركوه فيه فإن سألوكم أن تعطوهم الدية فأعطوهم ثلاث ديات . قالوا : نعم و عشرديات . قالوا : الرأي رأي الشيخ النجديّ فاجتمعوا فيه ، ودخل معهم في ذلك أبولهب عمّ النبيّ صلّى الله عليه وآله .

فنزل جبرئيل على رسول‌الله صلّى الله عليه وآله فأخبره أنّ قريشاً قد اجتمعت في دار الندوة يدبّرون عليك فأنزل الله عليه في‌ذلك : «وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أويقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكرالله والله خير الماكرين .

واجتمعت قريش أن يدخلوا عليه ليلاً فيقتلوه ، و خرجوا إلى المسجد يصفّرون ويصفّقون ويطوفون بالبيت فأنزل الله : « وما كان صلاتهم عند البيت إلّا مكاءً و تصدية فالمكاء التصفير والتصدية صفق اليدين وهذه الآية معطوفة على قوله : «وإذ يمكربك‌الّذين كفروا » قد كتبت بعدآيات كثيرة .

فلمّا أمسى رسول الله صلّى الله عليه وآله جاءت قريش ليدخلوا عليه فقال أبولهب : لاأدعكم‌أن تدخلوا عليه بالليل فإنّ في‌الدار صبياناً ونساءً ولا نأمن أن يقع بهم يد خاطئة فنحرسه الليلة فإذا أصبحنا دخلنا عليه فناموا حول حجرة رسول الله صلّى الله عليه وآله .

وأمر رسول‌الله صلّى الله عليه وآله أن يفرش له فرش فقال لعليّ بن أبي‌طالب عليه السلام : أفدني

بنفسك قال : نعم يارسول‌الله قال : نم على فراشي والتحف ببردتي فنام علي عليه السلام على فراش رسول‌الله صلى الله عليه وآله والتحف ببردته .

وجاء جبرئيل فأخذ بيد رسول‌الله صلى الله عليه وآله فأخرجه على قريش وهم نيام وهو يقرء عليهم : « وجعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لايبصرون » و قال له جبرئيل : خذ على طريق ثور وهو جبل على طريق منى له سنام كسنام الثور فدخل الغار وكان من أمره ماكان .

فلمّا أصبحت قريش و أتوا إلى الحجرة و قصدوا الفراش فوثب عليّ عليه السلام في وجوههم فقال : ماشأنكم ؟ قالوا : أين محمّد ؟ قال : أجعلتموني عليه رقيباً ؟ ألستم قلتم : نخرجه من بلادنا ؟ فقد خرج عنكم فأقبلوا على أبي‌لهب يضربونه ويقولون : أنت تخدعنا منذ الليل .

فتفرّقوا في الجبال ، و كان فيهم رجل من خزاعة يقال له : أبو كرز يقفو الآثار فقالوا : يا أباكرز اليوم اليوم فوقف بهم على باب حجرة رسول‌الله صلى الله عليه وآله وقال لهم : هذه قدم محمّد والله إنّها لاُخت القدم الّتي في المقام ، وكان أبو بكر بن أبي قحافة استقبل رسول الله صلى الله عليه وآله فردّه معه فقال أبو كرز . وهذه قدم ابن أبي قحافة أو أبيه ثمّ قال : و ههنا عبر ابن أبي قحافة ، ولا يزال يقف بهم حتّى أوقفهم على باب الغار .

ثمّ قال : ماجاوزوا هذا المكان إمّا أن يكونوا صعدوا إلى السماء أو دخلوا تحت الأرض ، وبعث الله العنكبوت فنسجت على باب الغار ، وجاء فارس من الملائكة ثمّ قال : مافي الغار أحد فتفرّقوا في الشعاب ، و صرفهم الله عن رسوله صلى الله عليه وآله ثمّ أذن لنبيّه صلى الله عليه وآله في الهجرة .

أقول : وروي ما يقرب من هذا المعنى ملخّصاً في الدرّ المنثور عن ابن إسحاق و ابن جرير وابن المنذر وابن أبي‌حاتم وأبي‌نعيم والبيهقيّ معاً في الدلائل عن ابن عبّاس لكن نسب فيه إلى أبي جهل ما نسب في هذه الرواية إلى الشيخ النجديّ ثمّ ذكر أنّ الشيخ النجديّ صدّق أباجهل في رأيه واجتمع القوم على قوله .

وقد روي دخول إبليس عليهم في دار الندوة في زيّ شيخ نجديّ في عدّة روايات

من طرق الشيعة وأهل السنّة .

وأمّا ما في الرواية من قول أبي كرز لمّا اقتفى أثر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : «هذه قدم محمّد ، وهذه قدم ابن أبي‌قحافة ، وههنا غير ابن أبي‌قحافة» فقد ورد في الروايات أنّ ثالثهما هندبن أبي‌هالة ربيب رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم واُمّه خديجة بنت خويلد رضي‌الله عنها .

وقد روى الشيخ في أماليه بإسناده عن أبي‌عبيدة بن محمّدبن عمّاربن ياسر عن أبيه و عبيدالله‌بن أبي‌رافع جميعاً عن عمّاربن ياسر وأبي رافع وعن سنان بن أبي‌سنان عن ابن هند ابن أبي هالة ، وقد دخل حديث عمّار وأبي‌رافع وهند بعضه في بعض ، وهو حديث طويل في هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم و فيه : و استتبع رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم أبابكربن أبي‌قحافة و هندبن أبي هالة فأمرهما أن يقعدا له بمكان ذكره لهما من طريقه إلى الغار ، وثبت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكانه مع عليّ عليه السلام يأمره في‌ذلك بالصبر حتّى‌صلّى العشائين ثمّ خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في فحمة العشاء والرصد من قريش قد أطافوا بداره ينتظرون أن ينتصف الليل و تنام الأعين .

فخرج وهو يقرء هذه الآية : «و جعلنا من بين أيديهم سدّاً ومن خلفهم سدّاً فأغشيناهم فهم لا يبصرون» وكان بيده قبضة من‌تراب فرمى بها في رؤوسهم‌فماشعر القوم به حتّى تجاوزهم و مضى حتّى أتى إلى هند وأبي‌بكر فنهضا معه حتّى و صلوا إلى‌الغار . ثمّ رجع هند إلى مكّة بما أمره به رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم ، و دخل رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و أبوبكر الغار .

قال بعد سوق قصّة الليلة : حتّى إذا اعتمّ من الليلة القابلة انطلق هو ـ يعني عليّاً عليه السلام ـ وهندبن أبي‌هالة حتّى دخلا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في الغار فأمر رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم هنداً أن يبتاع له ولصاحبه بعيرين فقال أبوبكر قد كنت أعددت لي ولك يانبيّ‌الله راحلتين نرتحلهما إلى يثرب فقال : إنّي لاآخذهما ولا أحدهما إلّا بالثمن قال : فهي‌لك بذلك فأمر رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم عليّاً عليه السلام فأقبضه الثمن ثمّ وصّاه بحفظ ذمّته وأداء أماناته .

وكانت قريش قد سمّوا محمّداً في‌الجاهليّة : الأمين ، وكانت تودعه وتستحفظه‌أموالها وأمتعتها ، و كذلك من يقدم مكّة من العرب في الموسم ، وجاءت النبوّة والرسالة و الأمر

كذلك فأمر علياً عليه السلام أن يقيم صارخاً بالأبطح غدوة وعشياً : من كان له قبل محمد أمانة أودين فليأت فلنؤدّ إليه أمانته .

قال : فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّهم لن يصلوا من الآن إليك ياعليّ بأمر تكرهه حتّى تقدم عليّ فأدّ أمانتي على أعين الناس ظاهراً ثمّ إنّي مستخلفك على فاطمة ابنتي و مستخلف ربّي عليكما و مستحفظه فيكما فأمر أن يبتاع رواحل له و للفواطم [1] ومن أزمع الهجرة معه من بني هاشم .

قال أبوعبيدة : فقلت لعبيدالله يعني ابن أبي رافع : أوكان رسول الله صلى الله عليه وآله يجد ما ينفقه هكذا ؟ فقال : إنّي سألت أبي عمّا سألتني وكان يحدّث لي هذا الحديث . فقال : وأين يذهب بك عن مال خديجة عليها السلام .

قال عبيدالله بن أبي رافع : وقد قال عليّ بن أبي طالب عليه السلام يذكر مبيته على الفراش ومقام رسول الله صلى الله عليه وآله في الغار ثلاثاً نظماً :

وقيت بنفسي خير من وطىء الحصا * ومن طاف بالبيت العتيق وبالحجر
محمّد لمّا خاف أن يمكروا به * فوقّاه ربّي ذوالجلال من المكر
و بتّ أراعيهم متى ينشرونني * وقد وطّنت نفسي على القتل والأسر
و بات رسول الله في الغار آمناً * هناك و في حفظ الإله و في ستر
أقام ثلاثاً ثمّ زمّت قلائص * قلائص يفرين الحصا أينما تفرى

وقد روى الأبيات عنه عليه السلام بتفاوت يسير في الدرّ المنثور عن الحاكم عن عليّ بن الحسين عليه السلام .

و في تفسير العيّاشيّ عن زرارة وحمران عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام : قوله : « خير الماكرين » قال : إنّ رسول الله صلى الله عليه وآله قد كان لقي من قومه بلاءً شديداً حتّى أتوه ذات يوم وهو ساجد حتّى طرحوا عليه رحم شاة فأتته ابنته وهو ساجد لم يرفع رأسه فرفعته عنه ومسحته ثمّ أراه الله بعد ذلك الّذي يحبّ . إنّه كان ببدر وليس معه غير فارس واحد

---

(١) وهن على ما فى ذيل الرواية : فاطمة بنت النبى عليها السلام و فاطمة بنت أسد ، و فاطمة بنت الزبير .

ثمّ كان معه يوم الفتح اثنا عشر ألفاً حتّى جعل أبوسفيان والمشركون يستغيثون . الحديث .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن السدّيّ رضي الله عنه قال : كان النضر بن الحارث يختلف إلى الحيرة فيسمع سجع أهلها وكلامهم فلمّا قدم إلى مكّة سمع كلام النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والقرآن فقال : قد سمعنا لونشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلّا أساطير الأوّلين .

أقول : وهناك بعض روايات اُخر في أنّ القائل بهذا القول كان هو النضر بن الحارث وقد قتل يوم بدر صبراً .

وفيه أخرج البخاريّ وابن أبي حاتم وأبوالشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال أبوجهل بن هشام : اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم فنزلت : « وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون » .

أقول : وروى القمّيّ هذا المعنى في تفسيره وروى السيوطيّ أيضا في الدرّ المنثور عن ابن جرير الطبريّ وابن أبي حاتم عن سعيد بن جبير و عن ابن جرير عن عطاء : أنّ القائل : « اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك » الآية النضر بن الحارث ، وقد تقدّم في البيان السابق مايقتضيه سياق الآية .

وفيه أخرج ابن جرير عن يزيد بن رومان ومحمّد بن قيس قالا : قالت قريش بعضها لبعض : محمّد أكرمه الله من بيننا ؟ اللّهمّ إن كان هذا هو الحقّ من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء الآية فلمّا أمسوا ندموا على ماقالوا فقالوا : غفرانك اللّهمّ فأنزل الله : وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون ـ إلى قوله ـ لايعلمون .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن ابن أبزى رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بمكّة فأنزل الله : « وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة فأنزل الله : وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون » فلمّا خرجوا أنزل الله : « ومالهم أن لايعذّبهم الله الآية فأذن في فتح مكّة فهو العذاب الّذي وعدهم .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ عن

عطيّة رضي الله عنه في قوله : « وما كان الله ليعذّبهم و أنت فيهم » يعني المشركين حتّى يخرجك منهم « وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » قال : يعني المؤمنين . ثمّ أعاد المشركين فقال : « ومالهم أن لا يعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام »

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّي رضي الله عنه في قوله : « وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون» يقول : لو استغفروا وأقرّوا بالذنوب لكانوا مؤمنين ، و في قوله : « و مالهم أن لايعذّبهم الله وهم يصدّون عن المسجد الحرام » يقول : و كيف لا اُعذّبهم وهم لا يستغفرون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر وأبو الشيخ عن مجاهد رضي الله عنه في قوله : « وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » قال : بين أظهرهم « وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » قال : يسلمون .

وفيه أخرج عبد بن حميد وابن جرير عن أبي مالك رضي الله عنه «وماكان الله ليعذّبهم وأنت فيهم » يعنى أهل مكّة « وما كان الله معذّبهم » وفيهم المؤمنون يستغفرون .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم عن عكرمة والحسن رضي الله عنهما في قوله : «وماكان الله معذّبهم وهم يستغفرون » قالا : نسختها الآية الّتي تليها : « و مالهم أن لا يعذّبهم الله » فقوتلوا بمكّة فأصابهم فيها الجوع والحصر .

أقول : عدم انطباقها على الآية بظاهرها المؤيّد بسياقها ظاهر ، وإنّما دعاهم إلى هذه التكلّفات الاحتفاظ باتّصال الآية في التأليف بما قبلها وما قبلها من الآيات المتعرّضة لحال مشركي أهل مكّة ، ومن عجيب ما فيها تفسير العذاب في الآية بفتح مكّة ، ولم يكن إلّا رحمة للمشركين والمؤمنين جميعاً .

وفيه أخرج الترمذيّ عن أبي موسى الأشعريّ رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : أنزل الله عليّ أمانين لاُمّتي « وماكان الله ليعذّبهم و أنت فيهم وما كان الله معذّبهم وهم يستغفرون » فإذا مضيت تركت فيهم الاستغفار إلى يوم القيامة .

أقول : مضمون الرواية مستفاد من الآية ، وقد روي ما في معناها عن أبي هريرة وابن عبّاس عنه صلّى الله عليه وسلّم ورواها في نهج البلاغة عن عليّ عليه السلام .

وفي ذيل هذه الرواية شيء ؛ وهو أنّه لا يلائم ما مرّ في البيان المتقدّم من إبعاد القرآن هذه الاُمّة بعذاب واقع قبل يوم القيامة ، ولازمه أن يرتفع الاستغفار من بينهم قبل يوم القيامة .

وفيه أخرج أحمد عن فضالة بن عبيد رضي الله عنه عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال العبد آمنٌ من عذاب الله ما استغفر الله .

وفي الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن حنان بن سدير عن أبيه عن أبي جعفر عليه السلام قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله مقامي بين أظهركم خير لكم فإنّ الله يقول : وما كان الله ليعذّبهم وأنت فيهم ، ومفارقتي إيّاكم خير لكم . فقالوا : يارسول الله مقامك بين أظهرنا خير لنا فكيف يكون مفارقتك خيراً لنا ؟ فقال : أما مفارقتي إيّاكم خير لكم فإنّ أعمالكم تعرض عليّ كلّ خميس واثنين فما كان من حسنة حمدت الله عليها ، وماكان من سيّئة أستغفر الله لكم .

أقول : وروى هذا المعنى العيّاشيّ في تفسيره و الشيخ في أماليه عن حنان بن سدير عن أبيه عنه عليه السلام ، وفي روايتهما أنّ السائل هو جابر بن عبدالله الأنصاريّ رضي الله عنه ، ورواه أيضا في الكافي بإسناده عن محمّد بن أبي حمزة وغير واحد عن أبي عبدالله عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبد بن حميد و ابن جرير عن سعيد بن جبير رضي الله عنه قال : كانت قريش تعارض النبيّ صلّى الله عليه وسلّم في الطواف يستهزؤون و يصفّرون و يصفّقون فنزلت ، « وما كان صلاتهم عند البيت إلّا مكاء وتصدية » .

وفيه أخرج أبو الشيخ عن نبيط وكان من الصحابة رضي الله عنه في قوله : « وما كان صلاتهم عند البيت » الآية قال : كانوا يطوفون بالبيت الحرام وهم يصفّرون .

وفيه أخرج الطستيّ عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : أنّ نافع بن الأزرق قال له : أخبرني عن قوله عزّ وجلّ : « إلّا مكاء وتصدية » قال : المكاء صوت القنبرة ، و التصدية صوت العصافير وهو التصفيق ، وذلك أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم كان إذا قام إلى الصلاة وهو بمكّة كان يصلّي قائماً بين الحجر و الركن اليمانيّ فيجيء رجلان من بني سهم يقوم أحدهما عن يمينه والآخر عن شماله ، و يصيح أحدهما كما يصيح المكّاء ، و

الآخر يصفق بيده تصدية العصافير ليفسد عليه صلاته .

وفي تفسير العياشي عن إبراهيم بن عمر اليماني عمن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في قول الله : « وهم يصدون عن المسجد الحرام وماكانوا أولياءه » يعني أولياء البيت يعني المشركين « إن أولياؤه إلا المتقون » حيث ماكانوا هم أولى به من المشركين « وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية » قال : التصفير والتصفيق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن إسحاق وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والبيهقي في الدلائل كلهم من طريقه [1] قال : حدثني الزهري ومحمد بن يحيى بن حيان و عاصم ابن عمر بن قتادة والحصين بن عبدالرحمان بن عمر قال : لما اُصيبت قريش يوم بدر ورجع فلهم إلى مكة ورجع أبوسفيان بعيره مشى عبدالله بن ربيعة وعكرمة بن أبي جهل و صفوان بن اُمية في رجال من قريش إلى من كان معه تجارة فقالوا : يا معشر قريش إن محمداً قد وتركم وقتل خياركم فأعينونا بهذا المال على حربه فلعلنا أن ندرك منه ثاراً ففعلوا ففيهم كما ذكر عن ابن عباس أنزل الله : إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله ـ إلى قوله ـ والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عباس رضي الله عنهما في قوله : «إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » قال نزلت في أبي سفيان بن حرب .

وفيه أخرج ابن سعد وعبد بن حميد و ابن جرير و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ و ابن عساكر عن سعيد بن جبير في قوله : « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله » الآية قال : نزلت في أبي سفيان بن حرب استأجر يوم اُحد ألفين من الأحابيش من بني كنانة يقاتل بهم رسول الله صلى الله عليه وسلم سوى من استجاش من العرب فأنزل الله فيه هذه الآية .

وهم الذين قال فيهم كعب بن مالك رضي الله عنه :

وجئنا إلى موج من البحر وسطه * أحابيش منهم حاسر ومقنع
ثلاثة آلاف و نحن نصية * ثلاث مئين إن كثرن فأربع

(١) يعني طريق محمد بن اسحاق .

أقول : و رواه ملخّصاً عن إبن إسحاق و ابن أبي حاتم عن عبّاد بن عبدالله بن الزبير .

و في المجمع في قوله تعالى : « وقاتلوهم حتّى لا تكون فتنة و يكون الدين كلّه لله » الآية قال : روى زرارة و غيره عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه قال : لم يجيء تأويل هذه الآية ولو قام قائمنا بعدُ سيرى من يدركه ما يكون من تأويل هذه الآية وليبلغنّ دين محمّد صلى الله عليه وآله ما بلغ اللّيل حتّى لا يكون مشرك على ظهر الأرض .

أقول : ورواه العيّاشيّ في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام ، و في معناه ما في الكافي بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام ، و روى هذا المعنى أيضاً العيّاشيّ عن عبدالأعلى الحلبيّ عن أبي جعفر عليه السلام في رواية طويلة ،

وقد تقدّم حديث إبراهيم اللّيثيّ في تفسير قوله : « ليميز الله الخبيث من الطيّب » الآية مع بعض مايتعلّق به من الكلام في ذيل قوله : « كما بدأكم تعودون» الأعراف :٢٩ في الجزء الثامن من الكتاب .



***

وَاعْلَمُوا أَنَّمَا غَنِمْتُمْ مِنْ شَيْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ وَمَا أَنْزَلْنَا عَلَى عَبْدِنَا يَوْمَ الْفُرْقَانِ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٤١) إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدُّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَاخْتَلَفْتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ (٤٢) إِذْ يُرِيكَهُمُ اللَّهُ فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكَهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَلَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ (٤٣) وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ الْتَقَيْتُمْ فِي أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِي أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ (٤٤) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ (٤٥) وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (٤٦) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (٤٧) وَإِذْ زَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ وَقَالَ لَا غَالِبَ لَكُمُ الْيَوْمَ مِنَ النَّاسِ وَإِنِّي جَارٌ لَكُمْ فَلَمَّا تَرَاءَتِ الْفِئَتَانِ نَكَصَ عَلَى عَقِبَيْهِ وَقَالَ إِنِّي بَرِيءٌ مِنْكُمْ إِنِّي أَرَى مَا لَا تَرَوْنَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ وَاللَّهُ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٤٨) إِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ غَرَّ هَؤُلَاءِ دِينُهُمْ وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٤٩) وَلَوْ تَرَى إِذْ يَتَوَفَّى الَّذِينَ كَفَرُوا الْمَلَائِكَةُ

يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ وَذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ (٥٠) ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ (٥١) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ فَأَخَذَهُمُ اللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ شَدِيدُ الْعِقَابِ (٥٢) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٥٣) كَدَأْبِ آلِ فِرْعَوْنَ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُمْ بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَا آلَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا ظَالِمِينَ (٥٤) .

﴿ بيان ﴾

تشتمل الآيات على الأمر بتخميس الغنائم وبالثبات عند اللّقاء وتذكّرهم ، وتقصّ عليهم بعض ما نكب الله به أعداء الدين وأخزاهم بالمكر الإلهيّ ، وأجرى فيهم سنّة آل فرعون ومن قبلهم من المكذّبين لآيات الله الصادّين عن سبيله .

قوله تعالى : « واعلموا أنّما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول » إلى آخر الآية . الغنم والغنيمة إصابة الفائدة من جهة تجارة أو عمل أو حرب وينطبق بحسب مورد نزول الآية على غنيمة الحرب قال الراغب : الغنم ـ بفتحتين ـ معروف قال : ومن البقر والغنم حرّمنا عليهم شحومهما ، والغنم ـ بالضمّ فالسكون ـ إصابته والظفر به ثمّ استعمل في كلّ مظفور به من جهة العدى و غيرهم قال : واعلموا أنّما غنمتم من شيء فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً . والمغنم ما يغنم وجمعه مغانم قال : فعند الله مغانم كثيرة انتهى .

وذوالقربى القريب والمراد به قرابة النبيّ صلّى الله عليه وآله أو خصوص أشخاص منهم على ما يفسّره الآثار القطعيّة ، واليتيم هو الإنسان الّذي مات أبوه وهو صغير ، قالوا : كلّ حيوان يتيم من قبل اُمّه إلّا الإنسان فإنّ يتمه من قبل أبيه .

وقوله : « فأنّ لله خمسه » الخ قرىء بفتح أنّ ، و يمكن أن يكون بتقدير

حرف الجرّ والتقدير : واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فعلى أنّ لله خمسه أي هو واقع على هذا الأساس محكوم به ، ويمكن أن يكون بالعطف على أنّ الأولى ، و حذف خبر الأولى لدلالة الكلام عليه ، والتقدير : اعلموا أنّ ما غنمتم من شيء يجب قسمته فاعلموا أنّ خمسه لله ، أويكون الفاء لاستشمام معنى الشرط فإنّ مآل المعنى إلى نحو قولنا : إن غنمتم شيئاً فخمسه لله الخ فالفاء من قبيل فاء الجزاء ، وكرّر أنّ للتأكيد ، والأصل : اعلموا أنّ ما غنمتم من شيء أنّ خمسه لله الخ ، والأصل الّذي تعلّق به العلم هو : ماغنمتم من شيء خمسه لله وللرسول الخ ، وقد قدّم لفظ الجلالة للتعظيم .

وقوله: « إن كنتم آمنتم بالله » الخ قيد للأمر الّذي يدلّ عليه صدر الآية أي أدّوا خمسه إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا ، وربّما قيل : إنّه متّصل بقوله تعالى في الآية السابقة : فاعلموا أنّ الله هو مولاكم » هذا والسياق الّذي يتمّ بحيلولة قوله : « واعلموا أنّما غنمتم من شيء » الخ لا يلائم ذلك .

وقوله تعالى : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » الظاهر أنّ المراد به القرآن بقرينة تخصيص النبيّ ﷺ بالإنزال ، ولوكان المراد به الملائكة المنزلون يوم بدر ـ كما قيل ـ لكان الأنسب أوّلاً : أن يقال : ومن أنزلنا على عبدنا أوما يؤدّي هذا المعنى ، وثانياً : أن يقال : عليكم لا على عبدنا فإنّ الملائكة كما اُنزلت لنصرة النبيّ ﷺ اُنزلت لنصرة المؤمنين معه كما يدلّ عليه قوله : « فاستجاب لكم أنّي ممدّكم بألف من الملائكة مردفين» الأنفال : ٩ . وقوله بعد ذلك : «إذ يوحي ربّك إلى الملائكة أنّي معكم فثبّتوا الّذين آمنوا » الخ الأنفال : ١٣ ونظيرهما قوله : « إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدّكم ربّكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين بلى إن تصبروا وتتّقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربّكم بخمسة آلاف من الملائكة مسوّمين » آل عمران : ١٢٥ .

و في الالتفات من الغيبة إلى الخطاب في قوله : « إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا » من بسط اللطف على رسول الله ﷺ واصطفائه بالقرب ما لا يخفى .

ويظهر بالتأمّل فيما قدّمناه من البحث في قوله تعالى في أوّل السورة : « يسألونك

عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول » الآية أنّ المراد بقوله : « وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان » هو قوله تبارك و تعالى : « فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً » بما يحتفّ به من الآيات .

والمراد بقوله : «يوم الفرقان» يوم بدر كما يشهدبه قوله بعده : « يوم التقى الجمعان فإنّ يوم بدر هو اليوم الّذي فرّق الله فيه بين الحقّ والباطل فأحقّ الحقّ بنصرته ، وأبطل الباطل بخذلانه .

وقوله تعالى : « والله على كلّ شيء قدير » بمنزلة التعليل لقوله : « يوم الفرقان » بما يدلّ عليه من تمييزه تعالى بين الحقّ والباطل كأنّه قيل : والله على كلّ شيء قدير فهو قادر أن يفرّق بين الحقّ والباطل بما فرّق .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ واعلموا أنّ خمس ما غنمتم أيّ شيء كان هو لله ولرسوله ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل فردّوه إلى أهله إن كنتم آمنتم بالله و ما أنزله على عبده محمّد صلّى الله عليه وآله يوم بدر ، وهو أنّ الأنفال وغنائم الحرب لله ولرسوله لا يشارك الله ورسوله فيها أحد ، وقد أجاز الله لكم أن تأكلوا منها وأباح لكم التصرّف فيها فالّذي أباح لكم التصرّف فيها يأمركم أن تكفّوا عن التصرّف فيها وأمركم أن تؤدّوا خمسها إلى أهله .

وظاهر الآية أنّها مشتملة على تشريع مؤبّد كما هو ظاهر التشريعات القرآنيّة ، وأنّ الحكم متعلّق بما يسمّى غنماً وغنيمة سواء كان غنيمة حربيّة مأخوذة من الكفّار أو غيرها ممّا يطلق عليه الغنيمة لغة كأرباح المكاسب والغوص والملاحة والمستخرج من الكنوز و المعادن ، و إن كان مورد نزول الآية هو غنيمة الحرب فليس للمورد أن يخصّص .

و كذا ظاهر ما عدّ من موارد الصرف بقوله : « لله خمسه و للرسول و لذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل » انحصار الموارد في هؤلاء الأصناف ، وأنّ لكلّ منهم سهماً بمعنى استقلاله في أخذ السهم كما يستفاد مثله من آية الزكاة من غير أن يكون ذكر الأصناف من قبيل التمثيل .

فهذا كلّه ممّا لاريب فيه بالنظر إلى المتبادر من ظاهر معنى الآية ، و عليه وردت الأخبار من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وقد اختلفت كلمات المفسّرين من أهل السنّة في تفسير الآية و سنتعرّض لها في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « إذ أنتم بالعدوة الدنيا وهم بالعدوة القصوى والركب أسفل منكم ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » العدوة بالضمّ و قد يكسر شفير الوادي ، والدنيا مؤنّث أدنى كما أنّ القصوى وقد يقال : القصيا مؤنّث أقصى والركب كما قيل هو العير الّذي كان عليه أبوسفيان بن حرب .

والظرف في قوله : « إذ أنتم بالعدوة » بيان ثان لقوله في الآية السابقة : « يوم الفرقان كما أنّ قوله : « يوم التقى الجمعان » بيان أوّل له متعلّق بقوله : « أنزلنا على عبدنا » وأمّا ما يظهر من بعضهم إنّه بيان لقوله : « والله على كلّ شيء قدير » بما يفيده بحسب المورد ، والمعنى : والله قدير على نصركم و أنتم أذلّة إذ أنتم نزول بشفير الوادي الأقرب ، فلا يخفى بعده ووجه التكلّف فيه .

وقوله تعالى: « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد» ، سياق ما تقدّمه من الجمل الكاشفة عن تلاقي الجيشين ، و كون الركب أسفل منهم ، وأنّ الله بقدرته الّتي قهر على كلّ شيء فرّق بين الحقّ والباطل ، وأيّد الحقّ على الباطل ، و كذا قوله بعد : « ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » كلّ ذلك يشهد على أنّ المراد بقوله : « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » بيان أنّ التلاقي على هذا الوجه لم يكن إلّا بمشيّة خاصّة من الله سبحانه حيث نزل المشركون وهم ذووا عدّة و شدّة بالعدوة القصوى وفيها الماء والأرض الصلبة ، والمؤمنون على قلّة عددهم وهوان أمرهم بالعدوة الدنيا ولا ماء فيها والأرض رمليّة لا تثبت تحت أقدامهم ، و تخلّص العير منهم إذ ضرب أبو سفيان في الساحل أسفل ، و تلاقى الفريقان لا حاجز بينهما ولا مناص عندئذ عن الحرب ، فالتلاقي والمواجهة على هذا الوجه ثمّ ظهور المؤمنين على المشركين ، لم يكن عن أسباب عاديّة بل لمشيّة خاصّة إلهيّة ظهرت بها قدرته وبان بها عنايته الخاصّة ونصره وتأييده للمؤمنين .

فقوله : « ولو تواعدتم لاختلفتم في الميعاد » بيان أنّ هذا التلاقي لم يكن عن سابق

قصد وعزيمة ، ولا رويّة أو مشورة ، ولهذا المعنى عقّبه بقوله : « ولكن ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » بما فيه من الاستدراك .

وقوله : « ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة » لتعليل ما قضي به من الأمر المفعول أي إنّ الله إنّما قضى هذا الّذي جرى بينكم من التلاقي والمواجهة ثمّ تأييد المؤمنين وخذلان المشركين ليكون ذلك بيّنة ظاهرة على حقيّة الحقّ وبطلان الباطل فيهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة .

وبذلك يظهر أنّ المراد بالهلاكة والحياة هو الهدى والضلال لأنّ ذلك هو الّذي يرتبط به وجود الآية البيّنة ظاهراً .

وكذا قوله : « وأنّ الله لسميع عليم » عطف على قوله : « ليهلك من هلك عن بيّنة » الخ أي وإنّ الله إنّما قضى ما قضى وفعل ما فعل لأنّه سميع يسمع دعاءكم عليم يعلم ما في صدوركم ، وفيه إشارة إلى ما ذكره في صدر الآيات : « إذ تستغيثون ربّكم فاستجاب لكم » إلى آخر الآيات .

وعلى هذا السياق ـ أي لبيان أنّ مرجع الأمر في هذه الواقعة هو القضاء الخاصّ الإلهيّ دون الأسباب العاديّة ـ سيق قوله تعالى بعد : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً » الخ ، وقوله : « وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم » الخ ، وقوله : « إذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » الخ .

ومعنى الآية يوم الفرقان هو الوقت الّذي أنتم نزول بالعدوة الدنيا وهم نزول بالعدوة القصوى ، وقد توافق نزولكم بها ونزولهم بها بحيث لو تواعدتم بينكم أن تلتقوا بهذا الميعاد لاختلفتم فيه ولم تتلاقوا على هذه الوتيرة فلم يكن ذلك منكم ولا منهم ولكنّ ذلك كان أمراً مفعولاً والله قاضيه وحاكمه ، وإنّما قضى ما قضى ليظهر آية بيّنة فتتمّ بذلك الحجّة ، ولأنّه قد استجاب بذلك دعوتكم بما سمع من استغاثتكم وعلم به من حاجة قلوبكم .

قوله تعالى : « إذ يريكهم الله في منامك قليلاً » إلى آخر الآية ، الفشل هو الضعف مع الفزع ، والتنازع هو الاختلاف وهو من النزع نوع من القلع كأنّ المتنازعين ينزع

كلّ منهما الآخر عمّا هو فيه ، والتسليم هو التنجية.

والكلام على تقدير اذكر أي اذكر وقتاً يريكهم الله في منامك قليلاً ، و إنّما أراكهم قليلاً ليربط بذلك قلوبكم و تطمئنّ نفوسكم ولو أراكهم كثيراً ثمّ ذكرتها للمؤمنين أفزعكم الضعف واختلفتم في أمر الخروج إليهم ولكنّه تعالى نجّاكم بإراءتهم قليلاً عن الفشل والتنازع إنّه عليم بذات الصدوروهي القلوب يشهد مايصلح به حال القلوب في اطمئنانها وارتباطها وقوّتها .

والآية تدلّ على أنّ الله سبحانه أرى نبيّه ﷺ رؤيا مبشّرة رأى فيها ماوعده الله من إحدى الطائفتين أنّها لهم ، وقد أراهم قليلاً لايعبأ بشأنهم ، وإنّ النبيّ ﷺ ذكر مارآه للمؤمنين ووعدهم وعد تبشير فعزموا على لقائهم . والدليل على ذلك قوله : « ولو أراكهم كثيراً لفشلتم » الخ وهو ظاهر .

قوله تعالى : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم في أعينكم قليلاً ويقلّلكم في أعينهم إلى آخر الآية . معنى الآية ظاهر ، ولا تنافي بين هذه الآية وقوله تعالى : « قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأُخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيّد بنصره من يشاء » آل عمران : ١٢ بناءً على أنّ الآية تشير إلى وقعة بدر .

وذلك أنّ التقليل الّذي يشير إليه في الآية المبحوث عنها مقيّد بقوله : « إذ التقيتم » وبذلك يرتفع التنافي كأنّ الله سبحانه أرى المؤمنين قليلاً في أعين المشركين في بادىء الالتقاء ليستحقروا جمعهم ويشجّعهم ذلك على القتال والنزال حتّى إذا زحفوا و اختلطوا كثّر المؤمنين في أعينهم فرأوهم مثليهم رأي العين فأوهن بذلك عزمهم وأطار قلوبهم فكانت الهزيمة فآية الأنفال تشير إلى أوّل الوقعة ، وآية آل عمران إلى مابعد الزحف والاختلاط وقوله: « ليقضي الله أمراً كان مفعولاً » متعلّق بقوله : « يريكموهم » وتعليل لمضمونه .

قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيراً لعلّكم تفلحون » إلى آخر الآيات الثلاث . قال الراغب في المفردات : الثبات ـ بفتح الثاء ـ ضدّ الزوال انتهى فهو في المورد ضدّ الفرار من العدوّ ، وهو بحسب ماله من المعنى أعمّ من الصبر الّذي يأمر به في قوله : « واصبروا إنّ الله مع الصابرين » فالصبر ثبات قبال المكروه بالقلب

بأن لايضعف ولايفزع ولايجزع ، وبالبدن بأن لايتكاسل ولا يتساهل ولا يزول عن مكانه ولا يعجل فيما لايحمد فيه العجل فالصبر ثبات خاصّ .

والريح على ماقيل : العزّ و الدولة ، وقد ذكر الراغب : أنّ الريح في الآية بمعنى الغلبة استعارة كأنّ من شأن الريح أن تحرّك ماهبّت عليه و تقلعه و تذهب به ، والغلبة على العدوّ يفعل به ماتفعله الريح بالشيء كالتراب فاستعيرت لها .

و قال الراغب : البطردهش يعتري الإنسان من سوء احتمال النعمة و قلّة القيام بحقّها وصرفها إلى غير وجهها قال عزّ وجلّ : « بطراً ورئاء الناس ، وقال : بطرت معيشتها» وأصله : بطرت معيشته فصرف عنه الفعل ونصب ، ويقارب البطر الطرب ، وهو خفّة أكثر مايعتري من الفرح وقد يقال ذلك في الترح ، والبيطرة معالجة الدابّة . انتهى . و الرئاء المراءاة .

وقوله : « فاثبتوا » أمر بمطلق الثبوت أمام العدوّ ، و عدم الفرار منه فلا يتكرّر بالأمر ثانياً بالصبر كما تقدّمت الإشارة إليه .

وقوله : « واذكروا الله كثيراً » أي في جنانكم ولسانكم فكلّ ذلك ذكر ، و من المعلوم أنّ الأحوال القلبيّة الباطنة من الإنسان هي الّتي تميّز مقاصده و تشخّصها سواء وافقها اللفظ كالفقير المستغيث بالله من فقره وهو يقول : ياغنيّ و المريض المستغيث به من مرضه وهو يقول : ياشافي ولوقال الفقير في ذلك : ياالله أو قال المريض فيه ذلك لكان معناه : ياغنيّ وياشافي لأنّهما بمقتضى الحال الباعث لهما على الاستغاثة والدعوة لايريدان إلّا ذلك كما هو ظاهر .

والّذي يخرج إلى قتال عدوّه ، ثمّ لقيه واستعدّ الظرف للقتال ، و ليس فيه إلّا زهاق النفوس ، وسفك الدماء ونقص الأطراف و كلّ ما يهدّد الإنسان بالفناء فيما يحبّه فإنّ حاله يحوّل فكرته ويصرف إرادته إلى الظفر بما يريده بالقتال ، والغلبة على العدوّ الّذي يهدّده بالفناء ، والّذي حاله هذا الحال وتفكيره هذا التفكير إنّما يذكر الله سبحانه بما يناسب حاله وتنصرف إليه فكرته .

وهذا أقوى قرينة على أنّ المراد بذكر الله كثيراً أن يذكر المؤمن ماعلّمه تعالى من

المعارف المرتبطة بهذا الشأن وهو أنّه تعالى إلهه وربّه الّذي بيده الموت والحياة وهو على نصره لقدير ، وأنّه هو مولاه نعم المولى ونعم النصير ، وقد وعده النصر إذ قال : إن تنصروا الله ينصركم ويثبّت أقدامكم ، وأنّ الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً ، وأنّ مآل أمره في قتاله إلى إحدى الحسنيين إمّا الظفر على عدوّه ورفع راية الإسلام وإخلاص الجوّ لسعادته الدينيّة ، وإمّا القتل في سبيل الله والانتقال بالشهادة إلى رحمته ، و الدخول في حظيرة كرامته ، ومجاورة المقرّبين من أوليائه ، وما في هذا الصفّ من المعارف الحقيقيّة الّتي تدعو إلى السعادة الواقعيّة والكرامة السرمديّة .

وقد قيّد الذكر بالكثير لتتجدّد به روح التقوى كلّما لاح للإنسان ما يصرف نفسه إلى حبّ الحياة الفانية والتمتّع بزخارف الدنيا الغارّة والخطورات النفسانيّة الّتي يلقيها الشيطان بتسويله .

وقوله : « وأطيعوا الله ورسوله » ظاهر السياق أنّ المراد بها إطاعة ما صدر من ناحيته تعالى وناحية رسوله من التكاليف والدساتير المتعلّقة بالجهاد و الدفاع عن حومة الدين و بيضة الإسلام ممّا تشتمل عليه آيات الجهاد و السنّة النبويّة كالابتداء بإتمام الحجّة و عدم التعرّض للنساء والذراري والكفّ عن تبييت العدوّ وغير ذلك من أحكام الجهاد .

وقوله : «ولا تنازعوا فتفشلوا وتذهب ريحكم » أي ولا تختلفوا بالنزاع فيما بينكم حتّى يورث ذلكم ضعف إرادتكم وذهاب عزّتكم ودولتكم أو غلبتكم فإنّ اختلاف الآراء يخلّ بالوحدة و يوهن القوّة .

وقوله : « و اصبروا إنّ الله مع الصابرين » أي الزموا الصبر على ما يصيبكم من مكاره القتال ممّا يهدّدكم به العدوّ ، وعلى الإكثار من ذكر الله ، وعلى طاعة الله ورسوله من غير أن يهزهزكم الحوادث أو يزجركم ثقل الطاعة أو تغويكم لذّة المعصية أو يضلّكم عجب النفس وخيلاؤها .

وقد أكّد الأمر بالصبر بقوله : «إنّ الله مع الصابرين» لأنّ الصبر أقوى عون على الشدائد وأشدّ ركن تجاه التلوّن في العزم وسرعة التحوّل في الإرادة ، وهو الّذي يخلّي بين الإنسان وبين التفكير الصحيح المطمئنّ حيث يهجم عليه الخواطر المشوّشة و الأفكار الموهنة لإرادته عند الأهوال والمصائب من كلّ جانب فالله سبحانه مع الصابرين .

وقوله : « ولا تكونوا كالّذين خرجوا من ديارهم بطراً ورئاء الناس » الآية نهي عن اتّخاذ طريقة هؤلاء البطرين المرائين الصادّين عن سبيل الله ، وهم على مايفيده سياق الكلام في الآيات ، كفّار قريش ، وماذكره من أوصافهم أعني البطر ورئاء الناس والصدّ عن سبيل الله هو الّذي أوجب النهي عن التشبّه بهم واتّخاذ طريقتهم بدلالة السياق ، وقوله : « والله بما يعملون محيط » ينبىء عن إحاطته تعالى بأعمالهم وسلطنته عليها وملكه لها . ومن المعلوم أنّ لازم ذلك كون أعمالهم داخلة في قضائه متمشّية بإذنه ومشيّته وماهذا شأنه لايكون ممّا يعجز الله سبحانه فالجملة كالكناية عمّا يصرّح به بعدعدّة آيات بقوله : « ولاتحسبنّ الّذين كفروا سبقوا إنّهم لا يعجزون » الأنفال : ٥٩ .

وظاهر أنّ أخذ هذه القيود أعني قوله : « بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله » يوجب تعلّق النهي بها والتقدير : ولاتخرجوا من دياركم إلى قتال أعداء الدين بطرين ومرائين بالتجمّلات الدنيويّة ، وصدّ الناس عن سبيل الله بدعوتهم بأقوالكم وأفعالكم إلى ترك تقوى الله والتوغّل في معاصيه والانخلاع عن طاعة أوامره ودساتيره فإنّ ذلك يحبط أعمالكم ويطفىء نور الإيمان ويبطل أثره عن جمعكم فلا طريق إلى نجاح السعي والفوز بالمقاصد الهامّة إلّا سويّ الصراط الّذي يمهّده الدين القويم وتسهّله الملّة الفطريّة والله لايهدي القوم الفاسقين إلى مقاصدهم الفاسدة .

وقد اشتملت الآيات الثلاث على اُمور ستّة أوجب الله سبحانه على المؤمنين رعايتها في الحروب الإسلاميّة عند اللقاء وهي الثبات ، وذكر الله كثيراً ، وطاعة الله ورسوله ، وعدم التنازع ، وأن لايخرجوا بطراً ورئاء الناس ويصدّون عن سبيل الله .

ومجموع الاُمور الستّة دستور حربيّ جامع لايفقد من مهامّ الدستورات الحربيّة شيئاً ، والتأمّل الدقيق في تفاصيل الوقائع في تاريخ الحروب الإسلاميّة الواقعة في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله كبدر واُحد والخندق وحنين وغيرذلك يوضح أنّ الأمر في الغلبة والهزيمة كان يدور مدار رعاية المسلمين موادّ هذا الدستور الإلهيّ وعدم رعايتها ، والمراقبة لها والمساهلة فيها .

قوله تعالى : « وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم وقال لاغالب لكم اليوم » إلى آخر

الآية تزيين الشيطان للإنسان عمله هو إلقاؤه في قلبه كون العمل حسناً جميلاً يستلذّ به وذلك بتهييج قواه الباطنة وعواطفه الداخلة المتعلّقة بذلك العمل فينجذب إليه قلبه ، ولا يجد فراغاً يعقل ماله من سوء الأثر و شؤم العاقبة .

وليس من البعيد أن يكون قوله : « وقال لا غالب لكم اليوم » الآية مفسّراً أو بمنزلة المفسّر للتزيين الشيطاني على أن يكون المراد بالأعمال نتائجها وهي ماهيّؤوه من قوّة وسلاح وعدّة وما أخرجوه من القيان والمعازف والخمور ، وما تظاهروا به من نظام الجيش والجنائب تساق بين أيديهم ، ويمكن أن يكون المراد بها نفس الأعمال وهي أنواع تماديهم في الغيّ والضلال وإصرارهم في محادّة الله ورسوله ، واسترسالهم في الظلم و الفسق فيكون قوله المحكيّ : « لا غالب لكم اليوم من الناس » ممّا يتمّ به تزيين الشيطان ، و تطيب به نفوسهم فيما اهتمّوا به من قتال المسلمين ، وقد أكمل ذلك بقوله : « وإنّي جار لكم » .

والجوار من سنن العرب في الجاهليّة الّتي كانت تعيش عيشة القبائل ، و من حقوق الجوار نصرة الجار للمجار إذا دهمه عدوّ ، وله آثار مختلفة بحسب السنن الجارية في المجتمعات الإنسانيّة .

وقوله : « فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه » النكوص الإحجام عن الشيء و « على عقبيه » حال والعقب مؤخّر القدم أي أحجم وقد رجع القهقرى منهزماً وراءه .

وقوله : « إنّي أرى مالا ترون » الآية تعليل لقوله : « إنّي بريء منكم » و لعلّه إشارة إلى نزول الملائكة المردفين الّذين نصر الله المسلمين بهم ، و كذا قوله : « إنّي أخاف الله والله شديد العقاب » تعليل لقوله : « إنّي بريء منكم » ومفسّر للتعليل السابق .

والمعنى ويوم الفرقان هو الوقت الّذي زيّن الشيطان للمشركين ماكانوا يعملونه لمحادّة الله ورسوله وقتال المؤمنين ، ويتلبّسون به للتهيّىء على إطفاء نور الله ، فزيّن ذلك في أنظارهم ، وطيّب نفوسهم بقوله : لا غالب لكم اليوم من الناس ، وإنّي مجير لكم أذبّ عنكم فلمّا تراءت الفئتان فرأى المشركون المؤمنين والمؤمنون المشركين رجع الشيطان القهقرى منهزماً وراءه وقال للمشركين إنّي بريء منكم إنّي أرى مالا ترونه من نزول

ملائكة النصر للمؤمنين وماعندهم من العذاب الّذي يهدّدكم إنّي أخاف عذاب الله والله شديد العقاب .

وهذا المعنى ـ كماترى ـ يقبل الانطباق على وسوسة الشيطان لهم في قلوبهم و وتهييجهم على المؤمنين و تشجيعهم على قتالهم و تطييب نفوسهم بمااستعدّوا به حتّى إذا تراءت الفئتان ونزل النصر واستولى الرعب على قلوبهم انتكست أوهامهم وتبدّلت أفكارهم وعادت مزعمة الغلبة وأُمنيّة الفتح والظفر مخافة مستولية على نفوسهم و خيبة و يأساً شاملة لقلوبهم .

ويقبل الانطباق على تصوّر شيطانيّ يبدولهم فتنجذب إليه حواسّهم بأن يكون قد تصوّرلهم في صورة إنسان ويقول لهم ماحكاه الله من قوله : «لاغالب لكم اليوم من الناس وإنّي جارلكم » فيغويهم ويسيّرهم ويقرّبهم من القتال حتّى إذا تقاربت الفئتان و تراءتا فلمّا تراءت الفئتان ورأى الوضع على خلاف ماكان يؤمّله ويطمع فيه نكص على عقبيه و قال إنّي بريء منكم إنّي أرى مالاترون من نزول النصر والملائكة إنّي أخاف الله والله شديد العقاب ، وقد ورد في روايات القصّة من طرق الشيعة و أهل السنّة ما يؤيّد هذا الوجه .

وهو أنّ الشيطان تصوّر للمشركين في صورة سراقة بن مالك بن جشعم الكنانيّ ثمّ المدلجيّ وكان من أشراف كنانة وقال لهم ماقال وحمل رايتهم حتّى إذا تلاقى الفريقان فرّ منهزماً وهو يقول : إنّي بريء منكم إنّي أرى مالاترون » إلى آخرما حكاه الله تعالى ، و ستجيء الرواية في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

وقد أصرّ بعض المفسّرين على الوجه الأوّل ، وردّ الثاني بتزييف الآثار المرويّة وتضعيف أسناد الأخبار ، وهي وإن لم تكن متواترة ولا محفوفة ببعض القرائن القطعيّة الموجبة للوثوق التامّ لكنّ أصل المعنى ليس من المستحيل الّذي يدفعه العقل السليم ، ولا من القصص الّتي تدفعها آثار صحيحة ، ولا مانع من أن يتمثّل لهم الشيطان فيوردهم مورد الضلال والغيّ حتّى إذا تمّ له ماأراد تركهم في تهلكتهم أوحتّى شاهد عذاباً إلهيّاً نكص على عقبيه هارباً .

على أنّ سياق الآية الكريمة أقرب إلى إفادة هذا الوجه الثاني منه إلى الوجه الأوّل ، وخاصّة بالنظر إلى قوله : « وإنّي جارلكم » وقوله : «حتّى إذا تراءت الفئتان نكص على عقبيه » وقوله : « إنّي أرى ما لاترون» الآية فإنّ إرجاع معنى قوله : « إنّي أرى » الخ مثلاً إلى الخواطر النفسانيّة بنوع من العناية الاستعاريّة بعيد جدّاً .

قوله تعالى : « إذ يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » إلى آخر الآية أي يقول المنافقون وهم الّذين أظهروا الإيمان وأبطنوا الكفر ، و الّذين في قلوبهم مرض وهم الضعفاء في الإيمان ممّن لايخلو نفسه من الشكّ و الارتياب - يقولون مشيرين إلى المؤمنين إشارة تحقير واستذلال - : غرّ هؤلاء دينهم إذ لولا غرور دينهم لم يقدموا على هذه المهلكة الظاهرة ، وهم شرذمة أذلّاء لاعدّة لهم ولا عُدّة ، وقريش على مابهم من العدّة والقوّة والشوكة .

قوله تعالى : « ومن يتوكّل على الله فإنّ الله عزيز حكيم » في مقام الجواب عن قولهم وإبانة غرورهم أنفسهم ؛ وقوله : « فإنّ الله عزيز حكيم » من وضع السبب موضع المسبّب ، والمعنى : وقد أخطأ هؤلاء المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض في قولهم فإنّ المؤمنين توكّلوا على الله ونسبوا حقيقة التأثير إليه وضمّوا أنفسهم إلى قوّته و حوله ، و من يتوكّل أمره على الله فإنّ الله يكفيه لأنّه عزيز ينصر من استنصره حكيم لايخطأ في وضع كلّ أمر موضعه الّذي يليق به .

و في الآية دليل على حضور جمع من المنافقين و ضعفاء الإيمان ببدر حين تلاقي الفئتين .

أمّا المنافقون وهم الّذين كانوا يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر فلامعنى لكونهم بين المشركين فلم يكونوا إلّا بين المسلمين لكنّ الشأن في العامل الّذي أوجب منهم الثبات واليوم يوم شديد .

وأمّا الضعفاء الإيمان أوالشاكّون في حقّيّة الإسلام فمن الممكن أن يكونوا بين المؤمنين أوفي فئة المشركين وقد قيل : إنّهم كانوا فئة من قريش أسلموا بمكّة و احتبسهم آباؤهم ، و اضطرّوا إلى الخروج مع المشركين إلى بدر حتّى إذا حضروها و شاهدوا ما

عليه المسلمون من القلّة والذلّة قالوا : مساكين هؤلاء غرّهم دينهم ، و سيجيء في البحث الروائيّ التالي إن‌شاء الله تعالى .

وعلى أيّ حال ينبغي إمعان النظر في البحث عمّا تفيده هذه الآية من حضور جمع من المنافقين والّذين في قلوبهم مرض يوم بدر عند القتال ، واستخراج حقيقة السبب الّذي أوجب لهؤلاء المنافقين والضعفاء حضور هذه الغزوة ، والوقوف في ذلك الموقف الصعب الهائل الّذي لا يساعد عليه الأسباب العاديّة ولا يقف فيه إلّا رجال الحقيقة الّذين امتحن الله قلوبهم للإيمان . وأنّهم لما ذا حضروها ؟ و كيف ولما ذا صبروا مع الصابرين من فئة الإسلام ؟ و لعلّنا نوفّق لبعض البحث في ذلك فيما سيوافي من آيات سورة التوبة في شأن المنافقين و الّذين في قلوبهم مرض إن‌شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « ولو ترى إذ يتوفّى الّذين كفروا الملائكة » إلى تمام الآيتين .
التوفّي أخذ الحقّ بتمامه ، ويستعمل في كلامه تعالى كثيراً بمعنى قبض الروح ، ونسبة قبض أرواحهم إلى الملائكة مع ما في بعض الآيات من نسبته إلى ملك الموت ، وفي بعض آخر إلى الله سبحانه كقوله : « قل يتوفّاكم ملك الموت الّذي و ُكّل بكم » الم السجدة : ١١ ، و قوله : « الله يتوفّى الأنفس حين موتها » الزمر : ٤٢ دليل على أنّ لملك الموت أعواناً يتولّون قبض الأرواح هم بمنزلة الأيدي العمّالة له يصدرون عن إذنه و يعملون عن أمره ، كما أنّه يصدر عن إذن من الله و يعمل عن أمر منه ، و بذلك يصحّ نسبة التوفّي إلى الملائكة الأعوان ، وإلى ملك الموت ، وإلى الله سبحانه .

وقوله : « يضربون وجوههم وأدبارهم » ظاهره أنّهم يضربون مقاديم أبدانهم و خلاف ذلك فيكنّى به عن إحاطتهم واستيعاب جهاتهم بالضرب ، وقيل : إنّ الأدبار كناية عن الأستاه فبالمناسبة يكون المراد بوجوههم مقدّم رؤوسهم ، وضرب الوجوه والأدبار بهذا المعنى يراد به الإزراء و الإذلال .

وقوله : « وذوقوا عذاب الحريق » أي يقول لهم الملائكة : ذوقوا عذاب الحريق وهو النار .

وقوله : « ذلك بما قدّمت أيديكم » تتمّة لقولهم المحكيّ أو إشارة إلى مجموع

مايفعل بهم ومايقول لهم الملائكة ، والمعنى إنّما نذيقكم عذاب الحريق بما قدّمت أيديكم أو : نضرب وجوهكم وأدباركم ونذيقكم عذاب الحريق بما قدّمت أيديكم .

وقوله : « و أنّ الله ليس بظلّام للعبيد» معطوف على موضع قوله « ما قدّمت » أي و ذلك بأنّ الله ليس بظلّام للعبيد أي لا يظلم أحداً من عبيده فإنّه تعالى على صراط مستقيم لاتخلّف ولااختلاف في فعله فلو ظلم أحداً لظلم كلّ أحد ، ولو كان ظالماً لكان ظلّاماً للعبيد فافهم ذلك .

وسياق الآيات يشهد على أنّ المراد بهؤلاء الّذين يصفهم الله سبحانه بأنّ الملائكة يتوفّاهم ويعذّبهم هم المقتولون ببدر من مشركي قريش .

قوله تعالى : « كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم كفروا بآيات الله » إلى آخر الآية . الدأب والديدن : العادة وهي العمل الّذي يدوم ويجري عليه الإنسان ، والطريقة الّتي يسلكها ، والمعنى كفر هؤلاء يشبه كفر آل فرعون و الّذين من قبلهم من الاُمم الخالية الكافرة كفروا بآيات الله وأذنبوا بذلك فأخذهم الله بذنوبهم إنّ الله قويّ لايضعف عن أخذهم شديد العقاب إذا أخذ .

قوله تعالى : «ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» الخ أي إنّ العقاب الّذي يعاقب به الله سبحانه إنّما يعقّب نعمة إلهيّة سابقة بسلبها واستخلافها ، ولاتزول نعمة من النعم الإلهيّة ولاتتبدّل نقمة و عقاباً إلّا مع تبدّل محلّه وهو النفوس الإنسانيّة ، فالنعمة الّتي أنعم بها على قوم إنّما اُفيضت عليهم لمّا استعدّوا لها في أنفسهم ، ولايسلبونها ولاتتبدّل بهم نقمة وعقاباً إلّا لتغييرهم ما بأنفسهم من الاستعداد و ملاك الإفاضة وتلبّسهم باستعداد العقاب .

و هذا ضابط كلّيّ في تبدّل النعمة إلى النقمة و العقاب ، و أجمع منه قوله تعالى : «إنّ الله لايغيّر مابقوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم» الرعد : ١١ وإن كان ظاهره أظهر انطباقاً على تبدّل النعمة إلى النقمة .

و كيف كان فقوله : «ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً» الخ من قبيل التعليل بأمر عامّ وتطبيقه على مورده الخاصّ أي أخذ مشركي قريش بذنوبهم، وعقابهم بهذا العقاب الشديد ، وتبديل نعمة الله عليهم عقاباً شديداً إنّما هو فرع من فروع سنّة جارية إلهيّة هي أنّ الله لايغيّر

نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم .

وقوله : «وأنّ الله سميع عليم» تعليل آخر بعد التعليل بقوله : «ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً» الخ وظاهره ـ بمقتضى إشعار السياق ـ أنّ المراد به : وذلك بأنّ الله سميع لدعواتكم عليم بحاجاتكم سمع استغاثتكم وعلم بحاجتكم فاستجاب لكم فعذّب أعداءكم الكافرين بآيات الله ، ويحتمل أن يكون المراد : ذلك بأنّ الله سميع لأقوالهم عليم بأفعالهم فعذّبهم على ذلك ، ويمكن الجمع بين المحتملين .

قوله تعالى : « كدأب آل فرعون والّذين من قبلهم كذّبوا بآيات ربّهم فأهلكناهم بذنوبهم» الخ كرّر التنظير السابق لمشابهة الفرض مع ماتقدّم فقوله : « كدأب آل فرعون» الخ السابق تنظير لقوله : «ذلك بما قدّمت أيديكم وأنّ الله ليس بظلّام للعبيد» كما أنّ قوله: « كدأب آل فرعون ـ إلى قوله ـ وكلّ كانوا ظالمين» ثانياً تنظير لقوله : «ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة» الخ .

غير أنّ التنظير الثاني يشتمل على نوع من الالتفات في قوله : «فأهلكناهم بذنوبهم» وقد وقع بحذائه في التنظير الأوّل : «فأخذهم الله بذنوبهم» من غير التفات و لعلّ الوجه فيه أنّ التنظير الثاني لمّا كان مسبوقاً بإفادة أنّ الله هو المفيض بالنعم على عباده ولا يغيّرها إلّا عن تغييرهم ما بأنفسهم ، و هذا شأن الربّ بالنسبة إلى عبيده اقتضى ذلك أن يعدّ هؤلاء عبيداً غير جارين على صراط عبوديّة ربّهم ولذلك غيّر بعض سياق التنظير فقال في الثاني : « كذّبوا بآيات ربّهم» وقد كان بحذائه في الأوّل قوله : « كفروا بآيات الله» ولذلك التفت ههنا من الغيبة إلى التكلّم مع الغير فقال : «فأهلكناهم بذنوبهم» للدلالة على أنّه سبحانه هو ربّهم وهو مهلكهم ، وقد اُخذ المتكلّم مع الغير للدلالة على عظمة الشأن وجلالة المقام ، و أنّ له وسائط يعملون بأمره ويجرون بمشيّته .

وقوله : «وأغرقنا آل فرعون» أظهر المفعول ولم يقل : و أغرقناهم ليؤمن الالتباس برجوع الضمير إلى آل فرعون والّذين من قبلهم جميعاً .

وقوله تعالى : «وكلّ كانوا ظالمين» أي جميع هؤلاء الّذين أخذهم العذاب الإلهيّ من كفّار قريش وآل فرعون والّذين من قبلهم كانوا ظالمين في جنب الله .

وفيه بيان أنّ الله سبحانه لايأخذ بعقابه الشديد أحداً ، ولا يبدّل نعمته على أحد نقمة إلّا إذا كان ظالماً ظلماً يبدل نعمة الله كفراً بآياته فهو لا يعذّب بعذابه إلّا مستحقّه .

﴿ بحث روائى ﴾

في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن الحسين بن عثمان عن سماعة قال : سألت أبا الحسن عليه‌السلام عن الخمس فقال : في كلّ ما أفاد الناس من قليل أو كثير .

وفيه عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن حمّاد بن عيسى عن بعض أصحابنا عن العبد الصالح قال : الخمس في خمسة أشياء : من الغنائم و الغوص ومن الكنوز ومن المعادن و الملّاحة يؤخذ من كلّ هذه الصنوف الخمس فيجعل لمن جعل الله له ، ويقسّم أربعة أخماس بين من قاتل عليه وولي ذلك .

ويقسّم بينهم الخمس على ستّة أسهم : سهم لله ، وسهم لرسوله ، وسهم لذي القربى وسهم لليتامى ، وسهم للمساكين ، وسهم لأبناء السبيل فسهم الله وسهم رسوله لأُولي الأمر من بعد رسول الله وراثة فله ثلاثة أسهم : سهمان وراثة ، و سهم مقسوم له من الله فله نصف الخمس كلّاً ، ونصف الخمس الثاني بين أهل بيته : فسهم ليتاماهم ، و سهم لمساكينهم ، و سهم لأبناء سبيلهم يقسّم بينهم على الكتاب والسنّة مايستغنون به في سنتهم فإن فضل منهم شيء فهو للوالي ، وإن عجز أونقص عن استغنائهم كان على الوالي أن ينفق من عنده مايستغنون به . و إنّما صار عليه أن يمونهم لأنّ له ما فضل عنهم ، و إنّما جعل الله هذا الخمس خاصّة لهم دون مساكين الناس وأبناء سبيلهم عوضاً لهم عن صدقات الناس تنزيهاً من الله لقرابتهم من رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و كرامة من الله لهم من أوساخ الناس فجعل لهم خاصّة من عنده وما يغنيهم به ، أن يصيّرهم في موضع الذلّ و المسكنة ، ولا بأس بصدقة بعضهم على بعض .

وهؤلاء الّذين جعل الله لهم الخمس هم قرابة النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الّذين ذكرهم الله فقال :

«وأنذر عشيرتك الأقربين» وهم بنو عبد المطّلب أنفسهم الذكر منهم والأنثى ليس فيهم من أهل بيوتات قريش ولا من العرب أحد، ولا فيهم ولا منهم في هذا الخمس من مواليهم، وقد تحلّ صدقات الناس لمواليهم، وهم والناس سواء.

ومن كانت اُمّه من بني هاشم وأبوه من سائر قريش فإنّ الصدقات تحلّ له، وليس له من الخمس شيء لأنّ الله يقول، «ادعوهم لآبائهم».

وفي التهذيب بإسناده عن عليّ بن مهزيار قال: قال لي عليّ بن راشد: قلت له: أمرتني بالقيام بأمرك وأخذ حقّك فأعلمت مواليك بذلك فقال لي بعضهم: وأيّ شيء حقّه؟ فلم أدر ما اُجيبه! فقال: يجب عليهم الخمس فقلت: ففي أيّ شيء؟ فقال: في أمتعتهم و ضياعهم قلت: والتاجر عليه والصانع بيده؟ فقال: ذلك إذا أمكنهم بعد مؤنتهم.

و فيه بإسناده عن زكريّا بن مالك الجعفيّ عن أبي عبدالله عليه السلام أنّه سئل عن قول الله: «واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل» فقال: خمس الله عزّ وجلّ للإمام، وخمس الرسول للإمام، وخمس ذي القربى لقرابة الرسول للإمام، واليتامى يتامى آل الرسول، والمساكين منهم، وأبناء السبيل منهم فلا يخرج منهم إلى غيرهم.

وفيه بإسناده عن أحمد بن محمّد بن أبي نصر عن أبي عبدالله عليه السلام قال: قال له إبراهيم ابن أبي البلاد: وجب عليك زكاة؟ قال: لا ولكن يفضل ونعطي هكذا، وسئل عن قول الله عزّ وجلّ: «واعلموا أنّ ما غنمتم من شيء فأنّ لله خمسه وللرسول ولذي القربى» فقيل له: فما كان لله فلمن هو؟ قال للرسول، وما كان للرسول فهو للإمام. قيل: أفرأيت إن كان صنف أكثر من صنف، وصنف أقلّ من صنف؟ فقال: ذلك للإمام. قيل: أفرأيت رسول الله صلّى الله عليه و آله كيف يصنع؟ قال: إنّما كان يعطي على ما يرى هو، و كذلك الإمام.

أقول: والأخبار عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام متواترة في اختصاص الخمس بالله ورسوله والإمام من أهل بيته و يتامى قرابته ومساكينهم وأبناء سبيلهم لا يتعدّاهم إلى غيرهم، وأنّه يقسّم ستّة أسهم على ما مرّ في الروايات، و أنّه لا يختصّ بغنائم الحرب بل يعمّ

كل ما يسمّى غنيمة لغة من أرباح المكاسب والكنوز والغوص والمعادن والملاحة ، و في رواياتهم ـ كما تقدّم ـ أنّ ذلك موهبة من الله لأهل البيت بما حرّم عليهم الزكوات والصدقات .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة وابن المنذر من وجه آخر عن ابن عبّاس رضي الله عنهما : أنّ نجدة الحروري أرسل إليه يسأله عن سهم ذي القربى الّذين ذكر الله فكتب إليه : إنّا كنّا نرى أنّاهم فأبى ذلك علينا قومنا ، و قالوا : ويقول لمن تراه ؟ فقال ابن عبّاس رضي الله عنهما : هو لقربى رسول الله صلى الله عليه وسلم قسّمه لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وقد كان عمر رضي الله عنه عرض علينا من ذلك عرضاً رأيناه دون حقّنا فرددناه عليه وأبينا أن نقبله . وكان عرض عليهم أن يعين ناكحهم ، وأن يقضي عن غارمهم ، وأن يعطي فقيرهم ، وأبى أن يزيدهم على ذلك .

أقول وقوله : في الرواية : «قالوا ويقول لمن تراه » معناه : قال الّذين أرسلهم نجدة الحروري لابن عبّاس : و يقول نجدة لمن ترى الخمس أي يسألك عن فتواك فيمن يصرف إليه الخمس .

و قوله : هو لقربى رسول الله قسّمها لهم الخ ظاهره أنّه فسّر ذي القربى بأقرباء النبيّ صلى الله عليه وآله ، وظاهر الروايات السابقة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّهم فسّروا ذي القربى بالإمام من أهل البيت ، وظاهر الآية يؤيّد ذلك حيث عبّر بلفظ المفرد !

وفيه أخرج ابن المنذر عن عبدالرحمان بن أبي ليلى قال : سألت عليّاً رضي الله عنه فقلت : يا أمير المؤمنين أخبرني : كيف كان صنع أبي بكر وعمر رضي الله عنهما في الخمس نصيبكم؟ فقال : أمّا أبو بكر رضي الله عنه فلم يكن في ولايته أخماس، وأمّا عمر رضي الله عنه فلم يزل يدفعه إليّ في كلّ خمس حتّى كان خمس السوس وجند نيسابور فقال وأنا عنده : هذا نصيبكم أهل البيت من الخمس وقد اُحلّ ببعض المسلمين واشتدّت حاجتهم . فقلت : نعم ، فوثب العبّاس بن عبدالمطّلب فقال : لا تعرض في الّذي لنا . فقلت : ألسنا من أرفق المسلمين، و شفع أمير المؤمنين ، فقبضه فوالله ما قبضناه ولا قدرت عليه في ولاية عثمان رضي الله عنه .

ثمّ أنشأ عليّ رضي الله عنه يحدّث فقال : إنّ الله حرّم الصدقة على رسوله صلى الله عليه وآله وسلم فعوّضه سهماً من الخمس عوضاً ممّا حرّم عليه ، وحرّمها على أهل بيته خاصّة دون اُمّته فضرب لهم مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهماً عوضاً ممّا حرّم عليهم .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم عن ابن عبّاس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : رغبت لكم عن غسالة الأيدي لأنّ لكم في خمس الخمس مايغنيكم أو يكفيكم .

أقول : وهو مبنيّ على كون سهم أهل البيت هو مالذي القربى فحسب .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : قسّم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم سهم ذي القربى على بني هاشم وبني المطّلب . قال : فمشيت أنا وعثمان بن عفّان حتّى دخلنا عليه فقلنا : يا رسول الله هؤلاء إخوانك من بني هاشم لاينكر فضلهم لمكانك الّذي وضعك الله به منهم . أرأيت إخواننا من بني المطّلب أعطيتهم دوننا ، و إنّما نحن وهم بمنزلة واحدة في النسب ؟ فقال : إنّهم لم يفارقونا في الجاهليّة والإسلام .

و فيه أخرج ابن مردويه عن زيد بن أرقم رضي الله عنه قال : آل محمّد الّذين اُعطوا الخمس : آل عليّ وآل عبّاس وآل جعفر وآل عقيل .

أقول : والروايات في هذا الباب كثيرة من طرق أهل السنّة وقد اختلفت الروايات الحاكية لعمل النبيّ صلى الله عليه وآله من طرقهم بين مامضمونه أنّه صلى الله عليه وآله كان يقسّم الخمس على أربعة أسهم و بين مامضمونه التقسيم على خمسة أسهم .

غير أنّه يقرب من المسلّم فيها أنّ من سهام الخمس مايختصّ بقرابة النبيّ صلى الله عليه وآله وهم المعنيّون بذي القربى في آية الخمس على خلاف ما في الروايات المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

و ممّا يقرب من المسلّم فيها أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يقسّمه بين المطّلبيّين مادام حيّاً ، و أنّه انقطع عنهم على هذا الوصف في زمن الخلفاء الثلاث ثمّ جرى على ذلك الأمر بعدهم .

و من المسلّم فيها أيضاً أنّ الخمس يختصّ بغنائم الحرب ـ على خلاف ما عليه

الروايات من طرق أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام ـ ولايتعدّاها إلى كلّ مايصدق عليه اسم الغنيمة لغة .

وما يتعلّق بالآية من محصّل البحث التفسيريّ هو الّذي قدّمناه وهناك أبحاث اُخر كلاميّة أوفقهيّة خارجة عن غرضنا . وهناك بحث حقوقيّ اجتماعيّ في مايؤثّره الخمس من الأثر في المجتمع الإسلاميّ سيوافيك في ضمن الكلام على الزكاة .

بقي الكلام فيما تتضمّنه الروايات أنّ الله سبحانه أراد بتشريع الخمس إكرام أهل بيت النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله واُسرته و ترفيعهم من أن يأخذوا أوساخ الناس في أموالهم ، والظاهر أنّ ذلك مأخوذ من قوله تعالى في آية الزكاة خطاباً لنبيّه صلى‌الله‌عليه‌وآله : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّيهم بها و صلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم » التوبة : ١٠٣ فإنّ التطهير والتزكية إنّما يتعلّق بما لايخلو من دنس ووسخ ونحوهما ولم يقع في آية الخمس مايشعر بذلك .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق و ابن جرير عن عروة بن الزبير رضي الله عنه قال : اُمر رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بالقتل في آي من القرآن فكان أوّل مشهد شهده رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم بدراً ، و كان رئيس المشركين يومئذ عتبة بن ربيعة بن عبد شمس فالتقوا يوم الجمعة ببدر لسبع أوست عشرة ليلة مضت من رمضان ، و أصحاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم ثلاث مأة و بضعة عشر رجلاً ، والمشركون بين الألف و التسعمأة ، وكان ذلك يوم الفرقان يوم فرّق الله بين الحقّ والباطل فكان أوّل قتيل قتل يومئذ مهجع مولى عمر و رجل من الأنصار ، و هزم الله يومئذ المشركين فقتل منهم زيادة على سبعين رجلاً ، وأسر منهم مثل ذلك .

و فيه أخرج ابن مردويه عن عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه قال : كانت ليلة الفرقان يوم التقى الجمعان في صبيحتها ليلة الجمعة لسبع عشرة مضت من رمضان .

أقول : و روى مثل ذلك عن ابن جرير عن الحسن بن عليّ و عن ابن أبي شيبة عن جعفر عن أبيه ، و أيضاً عنه عن أبي بكر بن عبدالرحمان بن هشام ، و عنه عن عامر بن ربيعة البدريّ مثله لكن فيه : كان يوم بدر يوم الاثنين لسبع عشرة من رمضان .

و ربّما اُطلق في بعض أخبار أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام على التسعة عشر من رمضان

يوم يلتقي الجمعان لماعدّ ليلته في أخبارهم من ليلة القدر ، و هذا معنى آخر غير ما اُريد في الآية من « يوم الفرقان يوم التقى الجمعان» ففي تفسير العيّاشيّ عن إسحاق بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام قال : في تسعة عشر من شهر رمضان يلتقي الجمعان . قلت : مامعنى قوله : يلتقي الجمعان ؟ قال : يجتمع فيها مايريد من تقديمه وتأخيره وإرادته و قضائه .

و في تفسير العيّاشيّ عن محمّد بن يحيى عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله : « و الركب أسفل منكم » قال : أبوسفيان و أصحابه .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ليهلك من هلك عن بيّنة و يحيى من حيّ عن بيّنة » الآية قال : قال : يعلم من بقي أنّ الله نصره .

و في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « وإذ يريكموهم إذ التقيتم » الآية أخرج ابن أبي شيبة و ابن جرير و أبوالشيخ و ابن مردويه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال : لقد قلّلوا في أعيننا يوم بدر حتّى قلت لرجل إلى جنبي : تراهم سبعين ؟ قال : لابل مأة .

وفيه في قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم » الخ أخرج الحاكم وصحّحه عن أبي موسى رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم كان يكره الصوت عندالقتال .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة عن النعمان بن مقرن رضي الله عنه قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إذا كان عند القتال لم يقاتل أوّل النهار ، وأخّره إلى أن تزول الشمس و تهبّ الرياح وتنزل النصر .

وفي تفسير البرهان في قوله تعالى : « وإذ زيّن لهم الشيطان أعمالهم» الآية بإسناده عن يحيى بن الحسن بن فرات قال : حدّثنا أبوالمقدم ثعلبة بن زيد الأنصاريّ قال : سمعت جابر بن عبدالله بن حرام الأنصاريّ رحمه الله يقول : تمثّل إبليس في أربع صور :

تمثّل يوم بدر في صورة سراقة بن مالك بن جعشم المدلجيّ فقال لقريش : لا غالب لكم اليوم من الناس وإنّي جار لكم فلمّا تراءت الفئتان نكص على عقبيه وقال إنّي بريء منكم .

وتصوّر يوم العقبة في صورة منبّه بن الحجّاج فنادى : إنّ محمّداً والصباة معه عند العقبة فأدركوهم . قال رسول الله صلّى الله عليه وآله للأنصار : لا تخافوا فإنّ صوته لن يعدوه .

وتصوّر في يوم اجتماع قريش في دار الندوة في صورة شيخ من أهل نجد وأشار عليهم في أمرهم فأنزل الله تعالى : « وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » .

وتصوّر في يوم قبض رسول الله صلى الله عليه وآله في صورة المغيرة بن شعبة فقال : أيّها الناس لا تجعلوا كسروانيّة ولا قيصرانيّة . وسّعوها تتّسع فلا تردّوا إلى بني هاشم فينظر بها الحبالى .

وفي المجمع قيل : إنّهم لمّا التقوا كان إبليس في صفّ المشركين أخذ بيده الحارث ابن هشام فنكص على عقبيه فقال له الحارث بن هشام : يا سراقة إلى أين ؟ أتخذلنا في هذه الحالة ؟ فقال : إنّي أرى ما لا ترون ؛ فقال : والله ما نرى إلّا جعاميس يثرب فدفع في صدر الحارث وانطلق وانهزم الناس .

فلمّا قدموا مكّة قالوا : هزم الناس سراقة فبلغ ذلك سراقة فقال : و الله ما شعرت بمسيركم حتّى بلغني هزيمتكم فقالوا : إنّك أتيتنا يوم كذا فحلف لهم فلمّا أسلموا علموا أنّ ذلك كان الشيطان . قال : وروي ذلك عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

أقول : وروى مثله ابن شهرآشوب عنهما عليهما السلام ، وفي معنى هاتين الروايتين روايات كثيرة من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس وغيره .

وقد مرّ في البيان المتقدّم استبعاد بعض المفسّرين ذلك وتضعيفه ما ورد فيه من الروايات ، وهي إنّما تثبت أمراً ممكناً غير مستحيل ، والاستبعاد الخالي لا يبنى عليه في الأبحاث العلميّة ، والتمثّلات البرزخيّة ليست بشاذّة نادرة فلا موجب للإصرار على النفي كما أنّ الإثبات كذلك غير أنّ ظاهر الآية أوفق للإثبات .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « و إذ زيّن لهم الشيطان » الآيتين أخرج ابن أبي حاتم عن ابن إسحاق في قوله : « إذ يقول المنافقون والّذين في قلوبهم مرض » قال : هم الفئة الّذين خرجوا مع قريش احتبسهم آباؤهم فخرجوا وهم على الارتياب فلمّا رأوا قلّة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قالوا : غرّ هؤلاء دينهم حين قدموا على ما قدموا عليه من قلّة عددهم و كثرة عدوّهم .

وهم فئة من قريش مسمّون خمسة : قيس بن الوليد بن المغيرة ، وأبوقيس بن الفاكه ابن المغيرة المخزوميّان ، والحارث بن زمعة ، وعليّ بن اُميّة بن خلف ، والعاصي بن منبّه .

أقول : وهذا يقبل الانطباق بوجه على قوله تعالى : « والّذين في قلوبهم مرض» فحسب ، وفي بعض التفاسير أنّ القائل : « غرّ هؤلاء دينهم » هم المنافقون والّذين في قلوبهم مرض من أهل المدينة ، ولم يخرجوا مع النبيّ ﷺ ، وسياق الآية الظاهر في حضورهم وقولهم ذلك عند التقاء الفئتين يأبى ذلك .

وفي رواية أبي هريرة ـ على ما رواه في الدرّ المنثور عن الطبرانيّ في الأوسط عنه ـ ما لفظه : وقال عتبة بن ربيعة وناس معه من المشركين يوم بدر : « غرّ هؤلاء دينهم » فأنزل الله : « إذ يقول المنافقون و الّذين في قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم » . و الّذي ذكره لا ينطبق على الآية البتّة فالقرآن الكريم لا يسمّي المشركين منافقين ولا ، الّذين في قلوبهم مرض .

و في تفسير العيّاشيّ عن أبي عليّ المحموديّ عن أبيه رفعه في قول الله : يضربون وجوههم وأدبارهم » قال : إنّما أراد أستاههم . إنّ الله كريم يكنّي .

و في تفسير الصافي عن الكافي عن الصادق عليه السلام : أنّ الله بعث نبيّاً من أنبيائه إلى قومه ، وأوحى إليه : أن قل لقومك : إنّه ليس من أهل قرية ولا ناس كانوا على طاعتي فأصابهم فيها سرّاء فتحوّلوا عمّا اُحبّ إلى ما أكره إلّا تحوّلت لهم عمّا يحبّون إلى ما يكرهون ، وإنّه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على معصيتي فأصابهم فيها ضرّاء فتحوّلوا عمّا أكره إلى ما اُحبّ إلّا تحوّلت لهم عمّا يكرهون إلى ما يحبّون .

و فيه أيضاً عنه عليه السلام أنّه قال : كان أبي يقول : إنّ الله عزّ و جلّ قضى قضاءً حتماً : لا ينعم على العبد بنعمة فيسلبها إيّاه حتّى يحدث العبد ذنباً يستحقّ بذلك النقمة .

***

إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ (٥٥) الَّذِينَ عَاهَدْتَ مِنْهُمْ ثُمَّ يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فِي كُلِّ مَرَّةٍ وَهُمْ لَا يَتَّقُونَ (٥٦) فَإِمَّا تَثْقَفَنَّهُمْ فِي الْحَرْبِ فَشَرِّدْ بِهِمْ مَنْ خَلْفَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ (٥٧) وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِنْ قَوْمٍ خِيَانَةً فَانْبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْخَائِنِينَ (٥٨) وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا سَبَقُوا إِنَّهُمْ لَا يُعْجِزُونَ (٥٩) وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ. اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ (٦٠) وَإِنْ جَنَحُوا لِلسَّلْمِ فَاجْنَحْ لَهَا وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (٦١) وَإِنْ يُرِيدُوا أَنْ يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعاً مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٣) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (٦٤) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفاً مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (٦٥) الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنْكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفاً فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٦٦) .

﴿بيان﴾

أحكام ودستورات في الحرب والسلم والمعاهدات ونقضها وغير ذلك ، وصدر الآيات يقبل الانطباق على طوائف اليهود الّتي كانت في المدينة وحولها و قد كان النبيّ صلّى الله عليه وآله عاهدهم بعد هجرته إلى المدينة أن لا يضرّوه ولا يغدروا به ولا يعينوا عليه عدوّاً ويقرّوا على دينهم ويأمنوا في أنفسهم فنقضوا العهد نقضاً بعد نقض حتّى أمر الله سبحانه بقتالهم فآل أمرهم إلى ما آل إليه ، وسيجيء بعض أخبارهم في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى .

و على هذا فالآيات الأربع الاُول غير نازلة معما سبقها من الآيات ولا متّصلة بها كما يعطيه سياقها وأمّا السبع الباقية فليست بواضحة الاتّصال بما قبلها من الآيات الأربع ولا بما قبل ما قبلها .

قوله تعالى : «إنّ شرّ الدوابّ عندالله الّذين كفروا فهم لايؤمنون» الكلام مسوق لبيان كون هؤلاء شرّ جميع الموجودات الحيّة من غير شكّ في ذلك لما في تقييد الحكم بقوله : «عندالله» من الدلالة عليه فإنّ معناه الحكم ؛ ومايحكم و يقضي به الله سبحانه لا يتطرّق إليه خطأ وقد قال تعالى : «لايضلّ ربّي ولاينسى» طه : ٥٢ .

وقد افتتح هذه القطعة من الكلام المتعلّق بهم بكونهم شرّ الدوابّ عنده لأنّ مغزى الكلام التحرّز منهم ودفعهم ، ومن المغروز في الطباع أنّ الشرّ الّذي لايرجى معه خير يجب دفعه بأيّ وسيلة صحّت وأمكنت فناسب ماسيأمره في حقّهم بقوله : «فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» الخ الافتتاح ببيان كونهم شرّ الدوابّ .

وعقّب قوله : «الّذين كفروا» بقوله : «فهم لا يؤمنون» مبتدأ بفاء التفريع أي إنّ من وصفهم الّذي يتفرّع على كفرهم أنّهم لايؤمنون ، ولايتفرّع عدم الإيمان على الكفر إلّا إذا رسخ في النفس رسوخاً لايرجى معه زواله فلامطمع حينئذ في دخول الإيمان في قلب هذا شأنه لمكان المضادّة الّتي بين الكفر والإيمان .

ومن هنا يظهر أنّ المراد بقوله : «الّذين كفروا» الّذين ثبتوا على الكفر ، وعندهذا

يرجع معنى هذه الآية إلى نظيرتها السابقة : « إنّ شرّ الدوابّ عند الله الصمّ البكم الّذين لا يعقلون و لو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم و لو أسمعهم لتولّوا و هم معرضون » الأنفال : ٢٣ .

على أنّ الآيتين لمّا دلّتا على حصر الشرّ عندالله في طائفة معيّنة من الدوابّ كانت الآية الأولى مع دلالتها على كون أهلها ممّن لا يؤمنون البتّة دالّة على أنّ المراد بقوله في الآية الثانية : « الّذين كفروا فهم لا يؤمنون » كونهم ثابتين على كفرهم لا يزولون عنه البتّة .

قوله تعالى : «الّذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم في كلّ مرّة وهم لا يتّقون» بيان للّذين كفروا في الآية السابقة أو بدل منهم بدل البعض من الكلّ ، و يتفرّع عليه أنّ «من» في قوله : «منهم» تبعيضيّة والمعنى: الّذين عاهدتهم من بين الّذين كفروا ، وأمّا احتمال أن يكون من زائدة والمعنى : الّذين عاهدتهم ، أو بمعنى مع والمعنى : الّذين عاهدت معهم : فليس بشيء .

والمراد بكلّ مرّة مرّات المعاهدة أي ينقضون عهدهم في كلّ مرّة عاهدتهم و هم لا يتّقون الله في نقض العهد أو لا يتّقونكم ولا يخافون نقض عهدكم ، وفيه دلالة على تكرّر النقض منهم .

قوله تعالى : «فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم لعلّهم يذّكّرون» قال في المجمع الثقف الظفر والإدراك بسرعة ، و التشريد التفريق على اضطراب . انتهى ، وقوله : «فإمّا تثقفنّهم» أصله إن تثقفهم دخل «ما» التأكيد على إن الشرطيّة ليصحّ دخول نون التأكيد على الشرط والكلام مسوق للتأكيد في ضمن الشرط .

والمراد بتشريد من خلفهم بهم أن يفعل بهم من التنكيل والتشديد ما يعتبر به من خلفهم، ويستولي الرعب والخوف على قلوبهم فيتفرّقوا وينحلّ عقد عزيمتهم واتّحاد إرادتهم على قتال المؤمنين وإبطال كلمة الحقّ .

وعلى هذا فالمراد بقوله : « لعلّهم يذّكّرون» رجاء أن يتذكّروا ما لنقض العهد و الإفساد في الأرض و المحادّة مع كلمة الحقّ من التبعة السيّئة والعاقبة المشؤومة فإنّ الله

لايهدي القوم الفاسقين وإنّ الله لايهدي كيد الخائنين .

ففي الآية إيماء إلى الأمر بقتالهم ثمّ التشديد عليهم والتنكيل بهم عند الظفر بهم وثقفهم ، وإيماء إلى أنّ وراءهم من حاله حالهم في نقض العهد وتربّص الدوائر على الحقّ وأهله .

قوله تعالى : «وإمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لايحبّ الخائنين» الخيانة ـ على مافي المجمع ـ نقض العهد فيما يؤتمن عليه ، وهذا معنى الخيانة في العهود والمواثيق ، وأمّا الخيانة بمعناها العامّ فهي نقض ما اُبرم من الحقّ في عهد أو أمانة ، والنبذ هو الإلقاء و منه قوله : « فنبذوه وراء ظهورهم » آل عمران : ١٨٧ و السواء بمعنى الاستواء والعدل .

وقوله : «وإمّا تخافنّ» كقوله في الآية السابقة : «فإمّا تثقفنّهم» و معنى الخوف ظهور أمارات تدلّ على وقوع مايجب التحرّز منه والحذر عنه و قوله : «إنّ الله لا يحبّ الخائنين» تعليل لقوله : « فانبذ إليهم على سواء » .

ومعنى الآية : وإن خفت من قوم بينك و بينهم عهد أن يخونوك و ينقضوا عهدهم ولاحت آثار دالّة على ذلك فانبذ وألق إليهم عهدهم وأعلمهم إلغاء العهد ليكونوا أنتم وهم على استواء من نقض العهد أوتكون مستوياً على عدل فإنّ من العدل المعاملة بالمثل والسواء لأنّك إن قاتلتهم بغير إعلام إلغاء العهد كان ذلك منك خيانة والله لا يحبّ الخائنين .

وملخّص الآيتين دستوران إلهيّان في قتال الّذين لاعهد لهم بالنقض أوبخوفه فإن كان أهل العهد من الكفّار لا يثبتون على عهدهم بنقضه في كلّ مرّة فعلى وليّ الأمر أن يقاتلهم ويشدّد عليهم ، وإن كانوا بحيث يخاف من خيانتهم ولاوثوق بعهدهم فيُعلمون إلغاء عهدهم ثمّ يقاتلون ولايبدء بقتالهم قبل الإعلام فإنّما ذلك خيانة ، وأمّا إن كانوا عاهدوا ولم ينقضوا ولم يخف خيانتهم فمن الواجب حفظ عهدهم واحترام عقدهم وقد قال تعالى : «فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم » التوبة : ٤. وقال : «أوفوا بالعقود» المائدة : ١ .

قوله تعالى : «ولاتحسبنّ الّذين كفروا سبقوا إنّهم لا يعجزون» القراءة المشهورة «تحسبنّ» بتاء الخطاب ، و هو خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله تطييباً لنفسه وتقوية لقلبه كالخطاب

الآتي بعد عدّة آيات : « يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين » وكالخطاب الملقى بعده لتحريض المؤمنين : « ياأيّها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال » .

والسبق تقدّم الشيء على طالب اللحوق به ، والإعجاز إيجاد العجز ، وقوله : « إنّهم لايعجزون » تعليل لقوله : « ولاتحسبنّ » الخ والمعنى : ياأيّها النبيّ لاتحسبنّ أنّ الّذين كفروا سبقونا فلاندركهم ، لأنّهم لايعجزون الله وله القدرة على كلّ شيء .

قوله تعالى : « وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة ومن رباط الخيل » . إلى آخر الآية الإعداد تهيئة الشيء للظفر بشيء آخر وإيجاد ما يحتاج إليه الشيء المطلوب في تحقّقه كإعداد الحطب والوَقود للإيقاد وإعداد الإيقاد للطبخ ، والقوّة كلّ ما يمكن معه عمل من الأعمال ، وهي في الحرب كلّ ما يتمشّى به الحرب والدفاع من أنواع الأسلحة ، والرجال المدرّبين والمعاهد الحربيّة الّتي تقوم بمصلحة ذلك كلّه ، والرباط مبالغة في الربط وهو أيسر من العقد يقال : ربطه يربطه ربطاً ورابطه يرابطه مرابطة ورباطاً فالكلّ بمعنى غير أنّ الرباط أبلغ من الربط ، والخيل هو الفرس ، والإرهاب قريب المعنى من التخويف .

وقوله : « وأعدّوا لهم مااستطعتم من قوّة ومن رباط الخيل » أمر عامّ بتهيئة المؤمنين مبلغ استطاعتهم من القوى الحربيّة ما يحتاجون إليه قبال ما لهم من الأعداء في الوجود أو في الفرض والاعتبار فإنّ المجتمع الإنسانيّ لايخلو من التألّف من أفراد أو أقوام مختلفي الطباع ومتضادّي الأفكار لاينعقد بينهم مجتمع على سنّة قيّمة بمنافعهم إلّا وهناك مجتمع آخر يضادّه في منافعه ، ويخالفه في سنّته ، ولايعيشان معاً برهة من الدهر إلّا وينشب بينهما الخلاف ويؤدّي ذلك إلى التغلّب والقهر .

فالحروب المبيدة والاختلافات الداعية إليها ممّا لامناص عنها في المجتمعات الإنسانيّة والمجتمعات هي هذه المجتمعات ، ويدلّ على ذلك ما نشاهده من تجهّز الإنسان في خلقه بقوى لايستفاد منها إلّا للدفاع كالغضب والشدّة في الأبدان ، والفكر العامل في القهر والغلبة ، فمن الواجب الفطريّ على المجتمع الإسلاميّ أن يتجهّز دائماً بإعداد ما استطاع من قوّة ومن رباط الخيل بحسب ما يفترضه من عدوّ لمجتمعه الصالح .

والّذي اختاره الله للمجتمع الإسلاميّ بما أنزل عليهم من الدين الفطريّ الّذي

هو الدين القيّم هي الحكومة الإنسانيّة الّتي يحفظ فيها حقوق كلّ فرد من أفراد مجتمعها، ويراعى فيها مصلحة الضعيف والقويّ والغنيّ والفقير والحرّ والعبد والرجل والمرأة والفرد والجماعة والبعض والكلّ على حدّ سواء دون الحكومة الفرديّة الاستبداديّة الّتي لاتسير إلّا على ما تهواه نفس الفرد المتولّي لها الحاكم في دماء الناس وأعراضهم وأموالهم بما شاء وأراد ، ولاالحكومة الأكثريّة الّتي تطابق أهواء الجمهور من الناس وتبطل منافع آخرين وترضي الأكثرين (النصف + واحد) وتضطهد وتسخط الأقلّين (النصف ـ واحد) .

ولعلّ هذا هو السرّ في قوله تعالى : «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة» حيث وجّه الخطاب إلى الناس بعدما كان الخطاب في الآيات السابقة موجّهاً إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله كقوله: «فإمّا تثقفنّهم في الحرب فشرّد بهم من خلفهم» وقوله : «فانبذ إليهم على سواء» وقوله : «ولا تحسبنّ الّذين كفروا سبقوا» وكذا في الآيات التالية كقوله : «و إن جنحوا للسلم فاجنح لها» إلى غير ذلك .

و ذلك أنّ الحكومة الإسلاميّة حكومة إنسانيّة بمعنى مراعاة حقوق كلّ فرد وتعظيم إرادة البعض واحترام جانبه أيّ من كان من غير اختصاص الإرادة المؤثّرة بفرد واحد أو بأكثر الأفراد .

فالمنافع الّتي يهدّدها عدوّهم هي منافع كلّ فرد فعلى كلّ فرد أن يقوم بالذبّ عنها ، ويعدّ مااستطاع من قوّة لحفظها من الضيعة ، و الإعداد وإن كان منهما لا يقوم بأمره إلّا الحكومات بما لها من الاستطاعة القويّة والإمكانات البالغة لكن منها مايقوم بالأفراد بفرديّتهم كتعلّم العلوم الحربيّة و التدرّب بفنونها فالتكليف تكليف الجميع .

و قوله تعالى : «ترهبون به عدوّ الله و عدوّكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم» في مقام التعليل لقوله : «وأعدّوا لهم» أي وأعدّوا لهم ذلك لترهبوا و تخوّفوا به عدوّ الله وعدوّكم ، وفي عدّهم عدوّاً لله ولهم جميعاً بيان للواقع و تأكيد في التحريض .

وفي قوله : «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم» دلالة على أنّ المراد بالأوّلين هم الّذين يعرفهم المؤمنون بالعداوة لله ولهم ، والمراد بهؤلاء الّذين لايعلمهم المؤمنون ـ على مايعطيه إطلاق اللفظ ـ كلّ من لاخبرة للمؤمنين بتهديده إيّاهم بالعداوة من المنافقين الّذين هم

في كسوة المؤمنين وصورتهم يصلّون ويصومون ويحجّون ويجاهدون ظاهراً ، ومن غير المنافقين من الكفّار الّذين لم يبتل بهم المؤمنون بعد .

والإرهاب بإعداد القوّة ، وإن كان في نفسه من الأغراض الصحيحة الّتي تتفرّع عليها فوائد عظيمة ظاهرة غير أنّه ليس تمام الغرض المقصود من إعداد القوّة ، ولذلك أردفه بقوله : «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله يوفّ إليكم و أنتم لا تظلمون» ليدلّ على تمام الغرض .

وذلك أنّ الغرض الحقيقيّ من إعداد القوى هو التمكّن من الدفع مبلغ الاستطاعة، وحفظ المجتمع من العدوّ الّذي يهدّده في نفوسه وأعراضه وأمواله ، وباللفظ المناسب لغرض الدين إطفاء نائرة الفساد الّذي يبطل كلمة الحقّ ويهدم بنيان دين الفطرة الّذي به يعبد الله في أرضه ويقوم ملاك العدل في عباده .

وهذا أمر ينتفع به كلّ فرد من أفراد المجتمع الدينيّ فما أنفقه فرد أو جماعة في سبيل الله ، و هو الجهاد لإحياء أمره فهو بعينه يرجع إلى نفسه وإن كان في صورة اُخرى فإن أنفق في سبيله مالاً أوجاهاً أو أيّ نعمة من هذا القبيل فهو من الإنفاق في سبيل الضروريّات الّذي لايلبث دون أن يرجع إليه نفسه نفعه وما استعقبه من نماء في الدنيا و الآخرة ، وإن أنفق في سبيله نفساً فهو الشهادة في سبيل الله الّتي تستتبع حياة باقية خالدة حقّة لمثلها فليعمل العاملون لا كما يغترّ به آحاد الفادين في سبيل المقاصد الدنيويّة ببقاء الاسم وخلود الذكر وتمام الفخر فهؤلاء وإن تنبّهوا اليوم لهذا التعليم الإسلاميّ ، وأنّ المجتمع كنفس واحدة تشترك أعضاؤها فيما يعود إليها من نفع و ضرر لكنّهم خبطوا في مسيرهم و اشتبه عليهم الأمر في تشخيص الكمال الإنسانيّ الّذي لأجله تندبه الفطرة و تدعوه إلى الاجتماع ، وهو التمتّع من الحياة الدائمة ، فحسبوه الحياة الدنيا الدائرة فضاق عليهم المسلك في أمثال التفدية بالنفس لأجل تمتّع الغير بلذائذ المادّة .

و بالجملة فإعداد القوّة إنّما هو لغرض الدفاع عن حقوق المجتمع الإسلاميّ ومنافعه الحيويّة ، والتظاهر بالقوّة المعدّة ينتج إرهاب العدوّ ، وهو أيضاً من شعب الدفع ونوع معه ، فقوله تعالى : «ترهبون به عدوّ الله» الخ يذكر فائدة من فوائد الإعداد الراجعة

إلى أفراد المجتمع ، وقوله : «وماتنفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم وأنتم لاتظلمون» يذكر أن ما أنفقوه في سبيله لايبطل ولايفوت بل يرجع إليهم من غير أن يفوت عن ذي حق حقه .

وهذا أعني قوله : «وما تنفقوا من شيء في سبيل الله» الخ أعم فائدة من مثل قوله : «وما تنفقوا من خير يوف إليكم» البقرة : ٢٧٢ فإن الخير منصرف إلى المال فلايشمل النفس بخلاف قوله ههنا : «وما تنفقوا من شيء» .

قوله تعالى : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم» في المجمع : الجنوح الميل ، ومنه جناح الطائر لأنه يميل به في أحد شقيه ، ولا جناح عليه أي لاميل إلى مأثم . انتهى ، والسلم بفتح السين وكسرها الصلح .

وقوله : «وتوكل على الله» من تتمة الأمر بالجنوح فالجميع في معنى أمر واحد ، والمعنى : وإن مالوا إلى الصلح والمسالمة فمل إليها وتوكل في ذلك على الله ولاتخف من أن يضطهدك أسباب خفية عنك على غفلة منك وعدم تهيؤ لها فإن الله هو السميع العليم لايغفله سبب ولايعجزه مكر بل ينصرك ويكفيك وهذا هو الذي يثبته قوله في الآية التالية «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله» .

وقد تقدم فيما أسلفناه من معنى التوكل على الله أنه ليس اعتماداً عليه سبحانه بإلقاء الأسباب الظاهرية بل سلب الاعتماد القطعي على الأسباب الظاهرية لأن الذي يبدو للإنسان منها بعض يسير منها دون جميعها ، والسبب التام الذي لايتخلف عن مسببه هو الجميع الذي يحمل إرادته سبحانه .

فالتوكل هو توجيه الثقة والاعتماد إلى الله سبحانه الذي بمشيته يدور رحى الأسباب عامة ، ولا ينافيه أن يتوسل المتوكل بما يمكنه التوسل به من الأسباب اللائحة عليه من غير أن يلغي شيئاً منها فيركب مطية الجهل .

قوله تعالى : «وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين» الآية متصلة بما قبلها وهي بمنزلة دفع الدخل ، وذلك أن الله سبحانه لما أمر نبيه صلى الله عليه وآله بالجنوح للسلم إن جنحوا له ولم يرض بالخديعة لأنها من الخيانة في

حقوق المعاشرة والمواصلة المعامة والله لا يحب الخائنين كان أمره بالجنوح المذكور مظنة سؤال وهو أن من الجائز أن يكون جنوحهم للسلم خديعة منهم يضلون بها المؤمنين ليغيروا عليهم في شرائط وأحوال مناسبة فأجاب سبحانه بأنا أمرناك بالتوكل فإن أرادوا بذلك أن يخدعوك فإن حسبك الله وقد قال تعالى : « ومن يتوكل على الله فهو حسبه إن الله بالغ أمره ».

وهذا مما يدل على أن هناك أسباباً وراء ما ينكشف لنا من الأسباب الطبيعية العادية تجري على ما يوافق صلاح العبد المتوكل إذا خانته الأسباب الطبيعية العادية ولم تساعده على مطلوبه الحق.

وقوله : « هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين » بمنزلة الاحتجاج على قوله : « فإن حسبك الله » بذكر شواهد تدل على كفايته تعالى وهي أنه أيده بنصره وأيده بالمؤمنين وألف بين قلوبهم وهي شيء متباغضة .

قوله تعالى : « وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم » الخ قال الراغب : الإلف اجتماع مع التيام يقال : ألفت بينهم ، ومنه الألفة ، ويقال : للمألوف إلف وآلف قال تعالى : « إذ كنتم أعداءً فألف بين قلوبكم » انتهى .

أورد سبحانه في جملة ما استشهد على كفايته لمن توكل عليه أنه كفى نبيه ﷺ بتأليف قلوب المؤمنين بعد ذكر تأييده بهم ، والكلام مطلق والملاك المذكور فيه عام يشمل جميع المؤمنين وإن كانت الآية أظهر انطباقاً على الأنصار حيث أيد الله بهم نبيه ﷺ فآووه ونصروه وألف الله سبحانه بدينه بينهم أنفسهم وقد نشبت فيهم الحروب المبيدة وكانت قائمة على ساقها دهراً طويلاً وهي حرب « بغاث » بين الأوس والخزرج حتى اصطلحوا بنزول الإسلام في دارهم وأصبحوا بنعمته إخواناً .

وقد امتن الله بتأليفه بين قلوب المسلمين في مواضع من كلامه وبين أهمية موقعه بمثل قوله : « لو أنفقت ما في الأرض جميعاً ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

وذلك أنّ الإنسان مفطور على حبّ النعم الحيويّة الّتى تتمّ بها حياته لا بغية له دونها ولا يريد في الحقيقة شيئاً ولا يقصده إلّا لينتفع به في نفسه وما ربّما يلوح أنّه يريد نفعاً عائداً إلى غيره فالتأمّل الدقيق يكشف عن اشتماله على نفع عائد إليه نفسه ، وإذكان يحبّ الوجدان فهو يبغض الفقدان .

وبهذين الوصفين الغريزيّين أعنى الحبّ والبغض يتمّ له أمر الحياة ولو أنّه أحبّ كلّ شيء و منها الأضداد و المتناقضات لبطلت الحياة ولو أنّه أبغض كلّ شيء حتّى المتنافيات لبطلت الحياة ، وقد فطره الله سبحانه على الحياة الاجتماعيّة ؛ لقصور ما عنده من القوى والأدوات عن القيام بجميع ما يحتاج إليه من ضروريّات حياته و من الضروريّ أنّ الاجتماع لا يتمّ إلّا باختصاص كلّ فرد بما يحرم عنه آخرون من مال أو جاه أو زينة أو جمال أو كلّ ما يتنافس فيه الطباع الإنساني أو يتعلّق به الهوى النفساني على اختلاف فيه بالزيادة والنقيصة .

وهذا أوّل ما يودع أنواع العداوة والبغضاء في القلوب والشحّ في النفوس ثمّ ما ينبسط بينهم من وجوه الحرمان بالظلم والعدوان وبغي البعض على البعض في دم أو عرض أو مال أو غير ذلك ممّا يتنعّمون به ويتنافسون فيه ويعملون لأجله ، تثير في داخل نفوسهم كلّ بغضاء وشنآن .

وهذا كلّه أوصاف وغرائز باطنيّة في الجماعة لا تلبث دون أن تظهر في أعمالهم و تتلاقى في أفعالهم ويتماسّ بعضها بعضاً بينهم في مسير حياتهم و فيه البلوى الّتي تتعقّب الفتن والمصائب الاجتماعيّة الّتى تبيد النفوس وتهلك الحرث والنسل ، و قد شهدت بذلك الحوادث الجارية على توالي القرون والأجيال .

ومهما ظنّت الاُمم المجتمعة أنّ بغيتها في اجتماعها هي التمتّع من العيشة المادّيّة المحدودة بالحياة الدنيويّة فلا سبيل إلى قلع مادّة هذا الفساد من أصلها وقطع منابته فإنّ الدار دار التزاحم ، والمجتمع قائم على قاعدة الاختصاص ، والنفوس مختلفة في الاستعداد ، والحوادث الواقعة والعوامل المؤثّرة والأحوال الخارجة دخيلة في معايشهم وحياتهم .

قال تعالى : إنّ الإنسان خلق هلوعاً إذا مسّه الشرّ جزوعاً و إذا مسّه الخير

منوعاً » المعارج : ٢١ ، و قال : « إنّ النفس لأمّارة بالسوء » يوسف : ٥٣ ، و قال : « ولا يزالون مختلفين إلّا من رحم ربّك و لذلك خلقهم » هود : ١١٩ ، إلى غير ذلك من الآيات .

وغاية ما يمكن الإنسان في بسط الاُلفة وإرضاء القلوب المشحونة بالعداوة والبغضاء أن يقنعهم أو يسكتهم ببذل ما يحبّون من مال أو جاه أو سائر النعم الدنيويّة المحبوبة عندهم غير أنّه إنّما ينفع في موارد جزئيّة خاصّة ، وأمّا العداوة و البغضاء العامّتان فلا سبيل إلى إزالتهما عن القلوب ببذل النعمة فإنّه لا يبطل غريزة الاستزادة والشحّ الملتهب في كلّ نفس بما يشاهد من المزايا الحيويّة عند غيره .

على أنّ من النعم مالا يقبل إلّاالاختصاص والانفراد كالملك والرئاسة العالية واُمور اُخرى تجري مجراهما حتّى أنّ الاُمم الراقية ذوي المدنيّة والحضارة لم يتمكّنوا من معالجة هذا الداء إلّا بما يزول به بعض شدّته ، ويستريح جثمان المجتمع من بعض عذابه ، وأمّا البغضاءات المتعلّقة بالاُمور الّتي تختصّ به بعض مجتمعهم كالرئاسة والملك فهي على حالها تتّقد بشررها القلوب ولا يزال يأكل بعضها بعضاً .

على أنّ ذلك ينحصر فيما بينهم وأمّا المجتمعات الخارجة من مجتمعهم فلا يعبأ بحالهم ولا يعتنى من منافعهم الحيويّة إلّا بما يوافق منافع اُولئك و إن أعيتهم طوارق البلاء وعفاهم الدهر بالعناء .

وقد منّ الله على الاُمّة الإسلاميّة إذ أزال الشحّ عن نفوسهم وألّف بين قلوبهم بمعرفة إلهيّة علّمه إيّاهم وبثّه فيما بينهم ببيان أنّ الحياة الإنسانيّة حياة خالدة غير محصورة في هذه الأيّام القلائل الّتي سيفنى ويبقى الإنسان ولا خبر عنها ، وأنّ سعادة هذه الحياة الدائمة غير التمتّع بلذائذ المادّة والرعي في كلإ الخسّة بل هي حياة واقعيّة و عيشة حقيقيّة يحيى ويعيش بها الإنسان في كرامة عبوديّة الله سبحانه ، و يتنعّم بنعم القرب والزلفى ثمّ يتمتّع بما تيسّر له من متاع الحياة الدنيا ممّا ساقه إليه الحظّ أو الاكتساب عارفاً بحقوق النعمة ثمّ ينتقل إلى جوار الله ويدخل دار رضوانه و يخالط هناك الصالحين من عباده ، و يحيى حقّ الحياة قال تعالى : « وما الحياة الدنيا في الآخرة إلّا متاع »

الرعد : ٢٦ ، وقال تعالى : « وما هذه الحياة الدنيا إلّا لهو ولعب وإنّ الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » العنكبوت : ٦٤ وقال : « فأعرض عمّن تولّى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم إنّ ربّك هو أعلم بمن ضلّ عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى » النجم : ٣٠ .

فعلى المسلم أن يؤمن بربّه ويتربّى بتربيته ، ويعزم عزمه ويجمع بغيته على ما عند ربّه فإنّما هو عبد مدبّر لا يملك ضرّاً ولا نفعاً ولا موتاً ولا حياة ولا نشوراً ومن كان هذا وصفه لم يكن له شغل إلّا بربّه الّذي بيده الخير والشرّ والنفع والضرّ والغنى والفقر والموت والحياة ، وكان عليه أن يسير مسير الحياة بالعلم النافع و العمل الصالح فما سعد به من مزايا الحياة الدنيا فموهبة من عند ربّه ، وما حرم منه احتسب عند ربّه أجره ، وما عند الله خير وأبقى .

وليس هذا من إلقاء الأسباب في شيء ولا إبطالاً للفطرة الإنسانيّة الداعية إلى العمل والاكتساب ، المتأدية إلى التوسّل بالفكر والإرادة ، المحرّضة إلى الاجتهاد في تنظيم العوامل والعلل ، الموصلة إلى المقاصد الإنسانيّة والأغراض الصحيحة الحيويّة فقد فصّلنا القول في توضيح ذلك في موارد متفرّقة من هذا الكتاب .

وإذا تسنّن المسلمون بهذه السنّة الإلهيّة ، وحوّلوا هوى قلوبهم عن ذلك التمتّع المادّيّ الّذي ليس إلّا بغية حيوانيّة وغرضاً مادّيّاً إلى هذا التمتّع المعنويّ الّذي لا تزاحم فيه ولا حرمان عنده ، ارتفعت عن قلوبهم العداوة والبغضاء ، وخلصت نفوسهم من الشحّ والرين ، وأصبحوا بنعمة الله إخواناً ، وأفلحوا حقّ الفلاح قال : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله حقّ تقاته ولا تموتنّ إلّا وأنتم مسلمون واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً » آل عمران : ١٠٣ وقال : « ومن يوق شحّ نفسه فأُولئك هم المفلحون » الحشر : ٩ .

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين » تطييب لنفس النبيّ ﷺ ، وقد قال تعالى قبله : « فإنّ حسبك الله هو الّذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين » فالمراد ـ والله أعلم ـ يكفيك الله بنصره وبمن اتّبعك من المؤمنين ، وليس المراد أنّ هناك

سببين كافيين أو سبباً كافياً ذا جزئين يتألّف منهما سبب واحد كاف فالتوحيد القرآنيّ يأبى ذلك .

وربّما قيل : إنّ المعنى حسبك الله وحسب من اتّبعك من المؤمنين بعطف قوله : « من اتّبعك » على موضع الكاف من حسبك » .

والكلام على أيّ حال مسوق للتحريض على القتال على ما يفيده السياق والقرائن الخارجة فإنّ تأثير المؤمنين في كفايتهم له صلى الله عليه وآله وسلم إنّما هو في القتال على ما يسبق إلى الذهن .

وذكر بعضهم : أنّ الآية نزلت بالبيداء قبل غزوة بدر ، وعلى هذا لا اتّصال لها بما بعدها ، وأمّا اتّصالها بما قبلها فغير مقطوع به .

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ حرّض المؤمنين على القتال » إلى آخر الآية . التحريض والتحضيض والترغيب والحضّ والحثّ بمعنى والفقه أبلغ وأغزر من الفهم ، وقوله : « إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مأتين » أي من الّذين كفروا كما قيّد به الألف بعداً ، وكذلك قوله : « وإن يكن منكم مأة » أي مأة صابرة كما قيّد بها « عشرون » قبلاً .

وقوله : « بأنّهم قوم لا يفقهون » الباء للسببيّة أو الآلة ، والجملة تعليليّة متعلّقة بقوله : « يغلبوا » أي عشرون صابرون منكم يغلبون مأتين من الّذين كفروا ؛ ومأة صابرة منكم يغلبون ألفاً من الّذين كفروا كلّ ذلك بسبب أنّ الكفّار قوم لا يفقهون .

وفقدان الفقه في الكفّار وبالمقابلة ثبوته في المؤمنين هوالّذي أوجب أن يعدل الواحد من العشرين من المؤمنين أكثر من العشرة من المأتين من الّذين كفروا حتّى يغلب العشرون من هؤلاء المأتين من اُولئك على ما بني عليه الحكم في الآية فإنّ المؤمنين إنّما يقدمون فيما يقدمون عن إيمان بالله وهوالقوّة الّتي لا يعادله ولا يقاومه أيّ قوّة اُخرى لابتنائه على الفقه الصحيح الّذي يوصفهم بكلّ سجيّة نفسانيّة فاضلة كالشجاعة والشهامة والجرأة والاستقامة والوقار والطمأنينة والثقة بالله واليقين بأنّه على إحدى الحسنيين إن قتل ففي

الجنّة و إن قتل ففي الجنّة ، و أنّ الموت بالمعنى الّذي يراه الكفّار و هو الفناء لا مصداق له .

و أمّا الكفّار فإنّما اتّكاؤهم على هوى النفس ، واعتمادهم على ظاهر ما يسوّله لهم الشيطان ، والنفوس المعتمدة على أهوائها لا تتّفق للغاية و إن اتّفقت أحياناً فإنّما تدوم عليه ما لم يلح لائح الموت الّذي يراه فناء ، وما أندر ما تثبت النفس على هواها حتّى حال ماتهدّد بالموت وهي على استقامة من الفكر بل تميل بأدنى ريح مخالف ، وخاصّة في المخاوف العامّة والمهاول الشاملة كما أثبته التاريخ من انهزام المشركين يوم بدر وهم ألف بقتل سبعين منهم ، ونسبة السبعين إلى الألف قريبة من نسبة الواحد إلى أربعة عشر فكان انهزامهم في معنى انهزام الأربعة عشر مقاتلاً من مقاتل واحد ، وليس ذلك إلّا لفقه المؤمنين الّذي يستصحب العلم والإيمان ، وجهل الكفّار الّذي يلازمه الكفر والهوى .

قوله تعالى : « الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن » الخ أي إن يكن منكم مأة صابرة يغلبوا مأتين من الّذين كفروا و إن يكن منكم ألف صابر يغلبوا ألفين من الّذين كفروا على وزان ما مرّ في الآية السابقة .

وقوله : « وعلم أنّ فيكم ضعفاً » المراد به الضعف في الصفات الروحيّة ولا محالة ينتهي إلى الإيمان فإنّ الإيقان بالحقّ هو الّذي ينبعث عنه جميع السجايا الحسنة الموجبة للفتح والظفر كالشجاعة والصبر والرأي المصيب وأمّا الضعف من حيث العدّة والقوّة فمن الضروريّ أنّ المؤمنين لم يزالوا يزيدون عدّة وقوّة في زمن النبيّ صلّى الله عليه وآله .

وقوله : « بإذن الله » تقييد لقوله : « يغلبوا » أي إنّ الله لا يشاء خلافه والحال أنّكم مؤمنون صابرون ، وبذلك يظهر أنّ قوله : « والله مع الصابرين » يفيد فائدة التعليل بالنسبة إلى الإذن .

وقوله تعالى في الآية السابقة تعليلاً للحكم : « بأنّهم قوم لا يفقهون » وكذا في هذه الآية : « وعلم أنّ فيكم ضعفاً » « والله مع الصابرين » وعدم الفقه والضعف الروحي والصبر من العلل والأسباب الخارجيّة المؤثّرة في الغلبة والظفر والفوز بلا شكّ يدلّ على أنّ الحكم في الآيتين مبنيّ على ما اعتبر من الأوصاف الروحيّة في الفئتين : المؤمنين والكفّار ،

و أنّ القوى الداخلة الروحيّة الّتي اعتبرت في الآية الأولى ما في المؤمن الواحد منها غالبة على القوى الداخلة الروحيّة في عشر من الكفّار عادت بعد زمان يسير يشير إليه بقوله : « الآن خفّف الله عنكم » لا يربو مافي المؤمن الواحد منها ـ من متوسّطي المؤمنين ـ إلّا على اثنين من الكفّار فقد فقدت القوّة من أثرها بنسبة الثمانين في المأة ، وتبدّلت العشرون والمأتان في الآية الأولى إلى المأة و المأتين في الآية الثانية ، و المأة والألف في الأولى إلى الألف والألفين في الثانية .

والبحث الدقيق في العوامل المولّدة للسجايا النفسانيّة بحسب الأحوال الطارئة على الإنسان في المجتمعات يهدي إلى ذلك فإنّ المجتمعات المنزليّة والأحزاب المنعقدة في سبيل غرض من الأغراض الحيويّة دنيويّة أو دينيّة في أوّل تكوّنها و نشأتها تحسّ بالموانع المضادّة والمحن الهادمة لبنيانها من كلّ جانب فتتنبّه قواها الدافعة للجهاد في سبيل هدفها المشروع عندها ، ويستيقظ مانامت من نفسانيّاتها للتحذّر من المكاره والتفدية في طريق مطلوبها بالمال والنفس .

ولاتزال تجاهد وتفدي ليلها ونهارها ، وتتقوّى وتتقدّم حتّى تمهّد لنفسها حياة فيها بعض الاستقلال ، و يصفولها الجوّ بعض الصفاء ويكثر جمعها ويضرب بجرّانها الأرض أخذت بالاستفادة عن فوائد جهدها و التنعّم بنعمة الراحة ، والتوسّع في متّسع الأمن ، وشرعت القوى الروحيّة الباسطة الباعثة للعمل في الخمود .

على أنّ المجتمع وإن قلّت أفراده لايخلو من اختلاف في الإيمان ، والسجايا الروحيّة الجميلة من قوىّ فيها وضعيف ، و كلّما كثرت الأفراد ازداد ضعفاء الإيمان والّذين في قلوبهم مرض والمنافقون فتنزّلت القوى الروحيّة في الفرد المتوسّط وارتفعت كفّة الميزان عمّا كانت عليه من الثقل .

والجماعات الدينيّة والأحزاب الدنيويّة في ذلك على السواء والسنّة الطبيعيّة الجارية في النظام الإنسانيّ تجري على الجميع على نسق واحد ، وقد أثبتت التجربة القطعيّة أنّ المجتمعات المؤتلفة لغرض هامّ كلّما قلّت أفرادها وقويت رقباؤها و مزاحموها ، و أحاطت بها المحن والفتن كانت أكثر نشاطاً للعمل وأحدّ في الأثر و كلّما كثرت أفرادها وقلّت مزاحماتها

والموانع الحائلة بينها وبين مقاصدها ومطالبها كانت أكثر خموداً وأقل تيقظاً وأسفه حلماً .

والتدبر الكافي في مغازي النبي صلى الله عليه وآله وسلم ينور ذلك فهذه غزوة بدر غلب فيها المسلمون وهم ثلاثمأة وبضعة عشر رجلاً على ما بهم من رثاثة الحال وقلة العدة وفقد السلاح والقوة كفار قريش وهم يعدلون ثلاثة أمثال المسلمين أو يزيدون على ما لهم من العزة والشوكة والقوة ثم ما جرى على المسلمين في غزوة أحد ثم في غزوة الخندق ثم في غزوة خيبر ثم في غزوة حنين وهي أعجبها وقد ذكرها الله سبحانه بما لا يبقي لباحث ريباً في ذلك إذ قال : « و يوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً و ضاقت الأرض بما رحبت ثم و ليتم مدبرين» إلى آخر الآيات .

فالآية تدل أولاً على أن الإسلام كان كلما زاد في زمن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عزة وشوكة ظاهراً زادت نقصاً وخموداً في قوى المسلمين الروحية العامة و درجة إيمانهم و سجاياهم الجميلة النفسانية المعنوية باطناً حتى استقرت بعد غزوة بدر بقليل أو كثير على خمس ما كانت عليه قبلها كما يشير إليه بعض الإشارة قوله تعالى في الآيات التالية : «ما كان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم» الآيات

و ثانياً : أن الظاهر أن الآيتين نزلتا دفعة واحدة فإنهما و إن كانتا تخبران عن حال المؤمنين في زمانين مختلفين كما يشير إليه قوله في الآية الثانية : «الآن خفف الله عنكم» لكن الآيتين تقيسان كمال طبع قوى المؤمنين الروحية في زمانين مختلفين ، وسياق الثانية بالنظر إلى هذا القياس بحيث لا يستقل عن الأولى ، ووجود حكمين مختلفين في زمانين لا يوجب أن ينزل الآية المتضمنة لأحدهما في زمان غير زمان نزول الأخرى المتضمنة للآخر .

نعم لو كانت الآيتان مقصورتين في بيان الحكم التكليفي فحسب كان الظاهر نزول الثانية بعد زمان نزلت فيه الأولى .

وثالثاً : أن ظاهر قوله تعالى : «الآن خفف الله عنكم» كما قيل كون الآيتين مسوقتين لبيان الحكم التكليفي لأن التخفيف لا يكون إلا بعد التكليف فاللفظ لفظ الخبر

والمراد به الأمر ومحصّل المراد في الآية الاُولى : ليثبت الواحد منكم للعشرة من الكفّار وفي الآية الثانية : الآن خفّف الله في أمره فليثبت الواحد منكم للاثنين من الكفّار .

واختصاص التخفيف بباب التكاليف ـ كما قيل ـ وإن أمكنت المناقشة فيه لكن ظهور الآيتين في وجود حكمين مختلفين مترتّبين بحسب الزمان أحدهما أخفّ من الآخر لا ينبغي الارتياب فيه .

ورابعاً : أنّ ظاهر التعليل في الآية الاُولى بالفقه ، وفي الآية الثانية بالصبر مع تقييد المقاتل من المؤمنين في الآيتين جميعاً بالصبر يدلّ على أنّ الصبر يرجّح الواحد في قوّة الروح على مثليه ، والفقه يرجّحه فيها على خمسة أمثاله فإذا اجتمعا في واحد يرجّح على عشرة أمثال نفسه ، والصبر لا يفارق الفقه وإن جاز العكس .

وخامساً : أنّ الصبر واجب في القتال على أيّ حال .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير البيضاوىّ في قوله تعالى : « الّذين عاهدت منهم ثمّ ينقضون عهدهم في كلّ مرّة » هم يهود بني قريظة عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن لا يمالؤوا عليه فأعانوا المشركين بالسلاح وقالوا : نسينا ، ثم عاهدهم فنكثوا ومالؤوهم عليه يوم الخندق ، وركب كعب بن الأشرف إلى مكّة فحالفهم .

أقول : وروي ذلك عن ابن عبّاس ومجاهد ، وروي عن سعيد بن جبير أنّ الآية نزلت في ستّة رهط من اليهود منهم ابن تابوت . وإيضاح ماتشير إليه الآية من نقض اليهود ميثاق النبيّ صلى الله عليه وآله مرّة بعد مرّة وماقاساه من المحن من ناحيتهم يحتاج إلى سير إجماليّ فيما جرى بينه صلى الله عليه وآله وبينهم من الأمر بعد هجرته صلى الله عليه وآله إلى المدينة إلى سبع سنين من الهجرة .

وقد كانت طوائف من اليهود هاجرت من بلادها إلى الحجاز و توطّنوا بها وبنوا فيها الحصون والقلاع ، وزادت نفوسهم و كثرت أموالهم وعظم أمرهم وقد مرّت في ذيل قوله

تعالى : «ولمّا جاءهم كتاب من عندالله مصدّق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الّذين كفروا فلمّا جاءهم ماعرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين» البقرة : ٨٩ في الجزء الاوّل من الكتاب روايات في بدء مهاجرتهم إلى الحجاز وكيفيّة نزولهم حول المدينة وبشارتهم الناس بالنبيّ ﷺ .

ولمّا هاجر النبيّ ﷺ إلى المدينة ودعاهم إلى الإسلام استنكفوا عن الإيمان به فصالح يهود المدينة وعاهدهم بكتاب كتب بينه و بينهم وهم ثلاثة رهط حول المدينة : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة أمّا بنو قينقاع فنكثوا العهد في غزوة بدر فسار إليهم النبيّ ﷺ في منتصف شوّال في السنة الثانية من الهجرة بعد بضعة و عشرين يوماً من وقعة بدر فتحصّنوا في حصونهم فحاصرهم أشدّ الحصار ، وبقوا على ذلك خمسة عشر يوماً .

ثمّ نزلوا على حكم النبيّ ﷺ في نفوسهم و أموالهم و نسائهم و ذراريهم فأمر بهم فكتّفوا ، و كلّم عبدالله بن اُبيّ بن سلول النبيّ ﷺ فيهم وألحّ عليه وكانوا حلفاءه فوهبهم له ، وأمرهم أن يخرجوا من المدينة ولايجاوروه بها فخرجوا إلى أذرعات الشام و معهم نسائهم وذراريهم ، وقبض منهم أموالهم غنيمة الحرب ، وكانوا استمّأة مقاتل من أشجع اليهود .

وأمّا بنو النضير فإنّهم كادوا النبيّ ﷺ إذخرج إليهم في نفر من أصحابه بعد أشهر من غزوة بدر ،و كلّمهم أن يعينوه في دية نفر أورجلين من الكلابيّين قتلهم عمرو بن اُميّة الضمري فقالوا : نفعل ياأبا القاسم اجلس هنا حتّى نقضي حاجتك ، و خلا بعضهم ببعض فتآمروا بقتله واختاروا من بينهم عمرو بن جحاش أن يأخذ حجر رحى فيصعد فيلقيه على رأسه ويشدخه به وحذّرهم سلاّم بن مشكم وقال لهم : لاتفعلوا ذلك فوالله ليخبرنّ بما هممتم به ، وإنّه لنقض العهد الّذي بيننا وبينه .

فجاءه الوحي وأخبره ربّه بما همّوا به فقام ﷺ من مجلسه مسرعاً وتوجّه إلى المدينة ، ولحقه أصحابه واستفسروه عن قيامه وتوجّهه فأخبرهم بما همّت به بنو النضير ، وبعث إليهم من المدينة أن اخرجوا من المدينة ولاتساكنوني بها ، وقد أجّلتكم فمن وجدته بعد ذلك بها منكم ضربت عنقه فأقاموا أيّاماً يتجهّزون للخروج .

وأرسل إليهم المنافق عبدالله بن اُبيّ أن لاتخرجوا من دياركم فإنّ معي ألفين يدخلون

معكم حصنكم ويموتون دونكم ، وينصركم بنو قريظة وحلفاؤكم من غطفان ، وأرضاهم بذلك .

فبعث رئيسهم حُيي بن أخطب إلى النبي ﷺ يقول : إنّا لانخرج من ديارنا فاصنع مابدالك فكبّر رسول الله ﷺ وكبّر أصحابه ، وأمر عليّاً عليه السلام بحمل الراية والسير إليهم فساروا وأحاطوا بديارهم ، وغدربهم عبدالله بن اُبيّ ، ولم ينصرهم بنوقريظة و لاحلفاؤهم من غطفان .

وقدكان النبيّ ﷺ أمر بقطع نخيلهم وإحراقها فجزعوا من ذلك و قالوا : يامحمّد لاتقطع فإن كان لك فخذه ، وإن كان لنافاتركه لنا . ثمّ قالوا له بعد أيّام : يامحمّد نخرج من بلادك فأعطنا أموالنا قال : لاولكن تخرجون ولكم ما حملت الإبل فلم يقبلوا ذلك و بقوا أيّاماً على ذلك ثمّ رضوا وسألوه ذلك قال : لاولكن تخرجون ولايحمل أحدمنكم شيئاً ، ومن وجدنا معه شيئاً من ذلك قتلناه فخرجوا فوقع قوم منهم إلى فدك ووادي القرى ، وقوم إلى أرض الشام ، وكان مالهم فيئاًلله ورسوله من غير أن ينال شيئاً من ذلك جيش الإسلام ، وقصّتهم مذكورة في سورة الحشر ، ومن كيدبني النضير للنبيّ ﷺ تحزيب الأحزاب من قريش و غطفان وغيرهم عليه ﷺ .

وأمّا بنوقريظة فقدكانوا على الصلح والسلم حتّى وقعت غزوة الخندق وقدكان حُييّ بن أخطب رئيس بني النضير ركب إلى مكّة وحثّ قريشاً على النبيّ ﷺ وحزّب الأحزاب ، وفي ذلك ركب إلى بني قريظة وجاءهم في ديارهم فلم يزل يوسوس إليهم و يعزّهم و يلحّ عليهم ويكلّم رئيسهم كعب بن أسد في ذلك ونقض العهد ومناجزة النبيّ ﷺ حتّى أرضاهم بذلك واشترطوا عليه أن يدخل في حصنهم فيصيبه ماأصابهم فقبل ودخل .

فنقضوا العهدومالوا إلى الأحزاب الّذين حاصروا المدينة وأظهروا سبّ النبيّ ﷺ وأحدثوا ثلمة اُخرى

فلمّا فرغ النبيّ ﷺ من أمر الأحزاب أتاه جبرئيل بوحي من الله يأمره بالمسير إليهم فسار إليهم ويحمل رايته عليّ عليه السلام ونازل حصون بني قريظة ، و حصرهم خمسة و عشرين يوماً .

فلمّا اشتدّ عليهم الحصار عرض عليهم رئيسهم كعب بن أسد أن يختاروا أحد ثلاث خصال : إمّا أن يسلموا و يدخلوا في دين محمّد ، وإمّا أن يقتلوا ذراريهم و يخرجوا إليه بسيوفهم مصلتة يناجزونه حتّى يظفروا به أو يقتلوا عن آخرهم ، وإمّا أن يهجموا عليه و يكبسوه يوم السبت لأنّهم ـ يعني المسلمين ـ قد أمنوا أن يقاتلوهم فيه !

فأبوا عليه أن يجيبوه إلى واحدة منهنّ فبعثوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله أن أرسل إلينا أبا لبابة بن عبد المنذر نستشيره في الأمر ؛ وكان أبو لبابة مناصحاً لهم لأنّ عياله وذرّيّته وماله كانت عندهم .

فأرسله إليهم فلمّا رأوه قاموا إليه يبكون ، وقالوا له : كيف ترى أن ننزل على حكم محمّد ؟ قال : نعم وأشار بيده إلى حلقه : أنّه الذبح، قال أبو لبابة : فوالله مازلّت قدماي حتّى علمت أنّي خنت الله ورسوله ، وأوحى الله إلى نبيّه صلى الله عليه وآله في أمر أبي لبابة .

فندم أبو لبابة ومضى على وجهه حتّى أتى المسجد و ربط نفسه على سارية من سواري المسجد تائباً لله ، وحلف ألّا يحلّه إلّا النبيّ صلى الله عليه وآله أو يموت فبلغ ذلك النبيّ صلى الله عليه وآله فقال : دعوه حتّى يتوب الله عليه ثمّ إنّ الله تاب عليه وأنزل توبته وحلّه النبيّ صلى الله عليه وآله

ثمّ إنّ بني قريظة نزلوا على حكم النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكانوا موالي أوس فكلّمته أوس في أمرهم مستشفعين و آل الأمر إلى تحكيم سعد بن معاذ الأوسيّ في أمرهم ورضوا و رضي به النبيّ صلى الله عليه وآله فاُحضر سعد وكان جريحاً .

ولمّا كلّم سعد رحمه الله في أمرهم قال : لقد آن لسعد أن لا يأخذه في الله لومة لائم ثمّ حكم فيهم بقتل الرجال وسبي النساء والذراري وأخذ الأموال فاُجري عليهم ما حكم به سعد فضربت أعناقهم عن آخرهم ، و كانوا ستّمأة مقاتل أو سبعمأة ، و قيل أكثر ، ولم ينج منهم إلّا نفر يسير آمنوا قبل تقتيلهم ، وهرب عمرو بن سُعدى منهم ولم يكن داخلاً معهم في نقض العهد ، و سبيت النساء إلّا امرأة واحدة ضربت عنقها وهي الّتي طرحت على رأس خلّاد بن السويد بن الصامت رحى فقتلته .

ثم أجلى النبيّ صلى الله عليه وآله من كان بالمدينة من اليهود ثمّ سار صلى الله عليه وآله إلى يهود خيبر لما كان من كيدهم وسعيهم في حثّ الأحزاب عليه وتأليفهم من جميع القبائل العربيّة لحربه فنازل

حصونهم وحصرهم أيّاماً ، وأرسل النبيّ صلى الله عليه وآله إلى قتالهم أبابكر في جمع يوماً فانهزم ثمّ عمر بن الخطّاب في جمع يوماً فانهزم

وعند ذلك قال النبيّ صلى الله عليه وآله : «لأعطينّ الراية غداً رجلاً يحبّ الله ورسوله ويحبّه الله ورسوله كرّار غير فرّار لا يرجع حتّى يفتح الله على يديه» ولمّا كان من غد أعطى الراية عليّاً عليه السلام وأرسله إلى قتال القوم فتقدّم إليهم وقتل مرحباً الفارس المعروف منهم ، وهزمهم وقلع بيده باب حصنهم و فتح الله على يده الحصن ، و كان ذلك بعد صلح الحديبيّة في المحرّم سنة سبع من الهجرة .

ثمّ أجلى النبيّ صلى الله عليه وآله من بقي من اليهود وقد نصح لهم قبل ذلك أن يبيعوا أموالهم ويأخذوا أثمانها . انتهى ما أردنا تلخيصه من قصّة اليهود مع النبيّ صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير العيّاشيّ عن جابر في قوله تعالى : « إنّ شرّ الدوابّ عند الله» الآية نزلت في بني اُميّة هم شرّ خلق الله هم «الّذين كفروا» في باطن القرآن ، وهم «الّذين لا يؤمنون» .

أقول : وروى مثله القمّيّ عن أبي حمزة عنه عليه السلام ، وهو من باطن القرآن كما صرّح به في الرواية ليس بالظاهر .

وفي الكافي بإسناده عن سهل بن زياد عن بعض أصحابه عن عبدالله بن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال قال : رسول الله صلى الله عليه وآله : ثلاث من كنّ فيه كان منافقاً وإن صام وصلّى وزعم أنّه مسلم : من إذا ائتمن خان ، وإن حدّث كذب ، وإذا وعد أخلف إنّ الله عزّ وجلّ قال في كتابه :«إنّ الله لا يحبّ الخائنين» و قال : « أن لعنة الله على الكاذبين » وفي قوله عزّ وجلّ : «و اذكر في الكتاب إسماعيل إنّه كان صادق الوعد وكان رسولاً نبيّاً»

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « و أعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة» الآية قال : قال : السلاح .

وفي تفسير العيّاشيّ عن محمّد بن عيسى عمّن ذكره عن أبي عبدالله عليه السلام في الآية قال سيف وترس .

وفي الفقيه عن الصادق عليه السلام مرسلاً في الآية قال : منه الخضاب بالسواد .

وفي الكافي بإسناده عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام :دخل قوم على الحسين بن عليّ عليه السلام

فرأوه مختضباً بالسواد فسألوه عن ذلك فمدّ يده إلى لحيته ثمّ قال : أمر رسول الله صلى الله عليه وآله في غزاة غزاها أن يختضبوا بالسواد ليقووا به على المشركين .

وفي تفسير العيّاشي عن جابر الأنصاري قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله : «وأعدّوا لهم ما استطعتم من قوّة» قال : الرمي .

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن عبدالله بن المغيرة رفعه عنه صلى الله عليه وآله ، و الزمخشري في ربيع الأبرار عن عقبة بن عامر عنه ، و السيوطي في الدرّ المنثور عن أحمد و مسلم و أبي داود وابن ماجه وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبي الشيخ وأبي يعقوب إسحاق بن إبراهيم والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني عنه صلى الله عليه وآله .

وفي الدرّ المنثور أخرج أبوداود والترمذي وابن ماجه والحاكم وصحّحه والبيهقي عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : إنّ الله يدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنّة : صانعه الّذي يحتسب في صنعته الخير والّذي يجهّز به في سبيل الله ، والّذي يرمي به في سبيل الله .

وقال : ارموا واركبوا ، وأن ترموا خير من أن تركبوا ، وقال : كلّ شيء يلهو به ابن آدم فهو باطل إلّا ثلاثة : رميه عن قوسه ، و تأديبه فرسه ، و ملاعبته أهله فإنّهنّ من الحقّ ، ومن علّم الرمي ثمّ تركه فهي نعمة كفرها .

أقول : وفي هذه المعاني روايات اُخر ، وخاصّة في الخيل و الرمي و الروايات على أيّ حال من باب عدّ المصاديق .

وفي الدرّ المنثور أخرج سعد والحارث بن أبي اُسامة وأبو يعلى وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن قانع في معجمه والطبراني وأبو الشيخ وابن منده والروياني في مسنده وابن مردويه وابن عساكر عن يزيد بن عبدالله بن غريب عن أبيه عن جدّه عن النبي صلى الله عليه وآله قال : في قوله : «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم. الله يعلمهم» قال : هم الجنّ ، ولاتخبل الشيطان إنساناً في داره فرس عتيق .

أقول : وفي معناها روايات اُخر ، ومحصّل الروايات ربط قوله : «وآخرين من دونهم لاتعلمونهم الله يعلمهم» بقوله : «ومن رباط الخيل» وهي من قبيل الجري وليس من التفسير في

شيء ، والمراد من الآية بظاهرها العدوّ من الإنسان كالكفّار والمنافقين .

وفيه أخرج ابن مردويه عن عبدالرحمان بن أبزى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم كان يقرء : و إن جنحوا للسّلم .

وفيه أخرج أبوعبيد وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» قال : نسختها هذه الآية : «قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ـ إلى قوله ـ صاغرون » .

أقول : وروي نسخها بآية البراءة : «اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم» والآية لا تخلو عن إيماء إلى كون الحكم مؤجّلاً حيث قال : « وإن جنحوا للسلم فاجنح لها و توكّل على الله إنّه هو السميع العليم» .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : «وإن جنحوا للسلم فاجنح لها» قلت : ما السلم ؟ قال : الدخول في أمرنا ، وفي رواية اُخرى : الدخول في أمرك .

أقول : وهو من الجري .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن عساكر عن أبي هريرة قال : مكتوب على العرش : لا إله إلّا أنا وحدي لا شريك لي محمّد عبدي ورسولي أيّدته بعليّ ؛ وذلك قوله : «هو الّذي أيّدك بنصره وبالمؤمنين» .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي هريرة ، وأبو نعيم في حلية الأولياء بإسناده عنه ، وكذا ابن شهرآشوب مسنداً عن أنس عن النبيّ صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير البرهان عن شرف الدين النجفيّ قال : تأويله ذكره أبو نعيم في حلية الأولياء بطريقه عن أبي هريرة قال : نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب ، و هو المعنيّ بقوله : المؤمنين .

أقول : ولفظ الآية لا يساعد على ذلك اللّهمّ إلّا أن يكون المراد بالاتّباع تمام الاتّباع الّذي لا يشذّ عنه شأن من الشؤون ، و من للتبعيض دون البيان إن ساعد عليه السياق .

وفي الدرّ المنثور أخرج البزّار عن ابن عبّاس قال : لمّا أسلم عمر قال المشركون :

قد انتصف القوم منّا اليوم ، وأنزل الله : « يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين » .

أقول : وروي هذا المعنى في روايات اُخر ، و الاعتبار لا يساعد عليه فإنّ الزمان الّذي أسلم فيه لم يكن على نعت يصحّح الخطاب بمثل قوله : « يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين » واليوم يوم الفتنة والعسرة ، وقد دام الحال على ذلك بعده سنين متمادية ، وما كان النبيّ صلّى الله عليه وآله يومئذ يحتاج إلى شيء يعينه العدّة ، وفي هذه الروايات أنّه كان تمام الأربعين أو رابع أربعين . على أنّ الظاهر أنّ الآية مدنيّة من جملة آيات سورة الأنفال .

وفيه أخرج ابن إسحاق وابن أبي حاتم عن الزهريّ في قوله : « يا أيّها النبيّ حسبك الله ومن اتّبعك من المؤمنين » قال : نزلت في الأنصار .

أقول : وسياق الآية في عدم المساعدة عليه كالروايتين السابقتين اللهمّ إلّا أن يكون المراد نزولها يوم آمن به الأنصار أو يوم تابعوه ، والظاهر أنّ الآية نزلت في تطييب نفس النبيّ صلّى الله عليه وآله بجميع من كان معه من المؤمنين : مهاجريهم و أنصارهم ، وهي توطئة وتمهيد لما في الآية التالية من الأمر بتحريض المؤمنين على القتال .

وفي تفسير القمّيّ قال : قال : كان الحكم في أوّل النبوّة في أصحاب رسول الله صلّى الله عليه وآله أنّ الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفّار فإن هرب منهم فهو الفارّ من الزحف ، والمأة يقاتلون ألفاً .

ثم علم الله أنّ فيهم ضعفاً لا يقدرون على ذلك فأنزل الله : « الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضعفاً فإن يكن منكم مأة صابرة يغلبوا مأتين » ففرض عليهم أن يقاتل أقلّ رجل من المؤمنين رجلين من الكفّار فإن فرّ منهما فهو الفارّ من الزحف فإن كانوا ثلاثة من الكفّار وواحداً من المسلمين ففرّ المسلم منهم فليس هو الفارّ من الزحف .

أقول : وفي تفسير العيّاشيّ عن الحسين بن صالح عن الصادق عن عليّ عليهما السلام ما يقرب منه ، وروى ما في معناها في الدرّ المنثور بطرق عديدة عن ابن عبّاس وغيره .

وفي الدرّ المنثور أخرج الشيرازيّ في الألقاب وابن عديّ والحاكم وصحّحه عن ابن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله قرء : « الآن خفّف الله عنكم وعلم أنّ فيكم ضُعفاً » رفع

* * *

مَاكَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّى يُثْخِنَ فِي الْأَرْضِ تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا وَاللَّهُ يُرِيدُ الْآخِرَةَ وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٦٧) لَوْلَا كِتَابٌ مِنَ اللَّهِ سَبَقَ لَمَسَّكُمْ فِيمَا أَخَذْتُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (٦٨) فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلَالًا طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٦٩) يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِمَنْ فِي أَيْدِيكُمْ مِنَ الْأَسْرَى إِنْ يَعْلَمِ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمْ خَيْرًا يُؤْتِكُمْ خَيْرًا مِمَّا أُخِذَ مِنْكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٧٠) وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٧١)

﴿بيان﴾

عتاب من الله سبحانه لأهل بدر حين أخذوا الأسرى من المشركين ثمّ اقترحوا على رسول الله صلى الله عليه وآله أن لا يقتلهم و يأخذ منهم الفداء ليصلح به حالهم ويتقوّوا بذلك على أعداء الدين، و قد شدّد سبحانه في العقاب إلّا أنّه أجابهم إلى مقترحهم وأباح لهم التصرّف من الغنائم. وهي تشمل الفداء

وفي آخر الآيات ما هو بمنزلة التطميع و الوعد الجميل للأسرى إن أسلموا و الاستغناء عنهم إن أرادوا خيانة النبيّ صلى الله عليه وآله.

قوله تعالى: «و ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض» إلى آخر الآيات الثلاث، الأسر: الشدّ على المحارب بما يصير به في قبضة الآخذ له كما قيل، و الأسير هو المشدود عليه، وجمعه الأسرى و الأسراء والاُسارى والأسارى، وقيل الأسارى جمع جمع وعلى هذا فالسبي أعمّ مورداً من الأسر لصدقه على أخذ من لا يحتاج إلى شدّ كالذراري.

و الثخن بالكسر فالفتح الغلظ، و منه قولهم: أثخنته الجراح وأثخنه المرض قال

الراغب في المفردات : يقال : ثخن الشيء فهو ثخين إذا غلظ فلم يسل ولم يستمرّ في ذهابه ، و منه استعير قولهم : أثخنته ضرباً و استخفافاً قال الله تعالى : « ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض » « حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق » فالمراد بإثخان النبيّ في الأرض استقرار دينه بين الناس كأنّه شيء غليظ انجمد فثبت ، بعد ما كان رقيقاً سائلاً مخشيّ الزوال بالسيلان .

والعرض مايطرء على الشيء و يسرع فيه الزوال ، و لذلك سمّي به متاع الدنيا لدثوره و زواله عمّا قليل ، والحلال وصف من الحلّ مقابل العقد والحرمة كأنّ الشيء الحلال كان معقوداً عليه محروماً منه فحلّ بعد ذلك ؛ وقد مرّ معنى الطيب وهو الملائمة للطبع .

وقد اختلف المفسّرون في تفسير الآيات بعد اتّفاقهم على أنّها إنّما نزلت بعد وقعة بدر تعاتب أهل بدر و تبيح لهم الغنائم .

والسبب في اختلافهم ماورد في سبب نزولها ومعاني جملها من الأخبار المختلفة ، ولو صحّت الروايات لكان التأمّل فيها قاضياً بتوسّع عجيب في نقل الحديث بالمعنى حتّى ربّما اختلفت الروايات كالأخبار المتعارضة .

فاختلفت التفاسير بحسب اختلافها فمن ظاهر في أنّ العتاب والتهديد متوجّه إلى النبيّ صلى الله عليه وآله والمؤمنين جميعاً ، أو إلى النبيّ و المؤمنين ماعدا عمر ، أوماعدا عمر وسعدبن معاذ ، أو إلى المؤمنين دون النبيّ أو إلى شخص أو أشخاص أشاروا إليه بالفداء بعد ما استشارهم .

ومن قائل : إنّ العتاب إنّما هو على أخذهم الفداء ، أوعلى استحلالهم الغنيمة قبل الإباحة من جانب الله ، و النبيّ صلى الله عليه وآله يشاركهم في ذلك لما أنّه بدء باستشارتهم مع أنّ القوم إنّما أخذوا الفداء بعد نزول الآيات لاقبله حتّى يعاتبوا عليه ، و النبيّ صلى الله عليه وآله أجلّ من أن يجوز في حقّه استحلال شيء قبل أن يأذن الله له فيه و يوحي بذلك إليه ، وحاشا ساحة الحقّ سبحانه أن يهدّد نبيّه بعذاب عظيم ليس من شأنه أن ينزل عليه من غير جرم أجرمه وقد عصمه من المعاصي ، والعذاب العظيم ليس ينزل إلّا على جرم عظيم لا كما

قيل : إنّ المراد به الصغائر .

فالّذي ينبغي أن يقال : إنّ قوله تعالى : « ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الارض » أنّ السنّة الجارية في الأنبياء الماضين عليهم السلام أنّهم كانوا إذا حاربوا أعداءهم و ظفروا بهم ينكلونهم بالقتل ليعتبر به من وراءهم فيكفّوا عن محادّة الله و رسوله ، و كانوا لايأخذون أسرى حتّى يثخنوا في الأرض، ويستقرّ دينهم بين الناس فلامانع بعد ذلك من الأسر ثمّ المنّ أو الفداء كما قال تعالى فيما يوحي إلى نبيّه صلى الله عليه وآله بعد ماعلا أمر الإسلام و استقرّ في الحجاز و اليمن : « فإذا لقيتم الّذين كفروا فضرب الرقاب حتّى إذا أثخنتموهم فشدّوا الوثاق فإمّا منّاً بعدُ وإمّا فداء» سورة محمّد : ٤ .

و العتاب على مايهدي إليه سياق الكلام في الآية الاُولى إنّما هو على أخذهم الأسرى كما يشهد به أيضاً قوله في الآية الثانية : «لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » أي في أخذكم و إنّما كانوا أخذوا عند نزول الآيات الأسرى دون الفداء و ليس العتاب على استباحة الفداء أو أخذه كما احتمل .

بل يشهد قوله في الآية التالية : « فكلوا ممّا غنمتم حلالاً طيّباً و اتّقوا الله إنّ الله غفور رحيم » -حيث افتتحت بفاء التفريع الّتي تفرّع معناها على ماتقدّمها- : على أنّ المراد بالغنيمة مايعمّ الفداء ، و أنّهم اقترحوا على النبيّ صلى الله عليه وآله أن لايقتل الأسرى و يأخذ منهم الفداء كماسألوه عن الأنفال أوسألوه أن يعطيهموها كما في آية صدر السورة و كيف يتصوّر أن يسألوه الأنفال ، ولا يسألوه أن يأخذ الفداء وقدكان الفداء المأخوذ - على مافي الروايات - يقرب من مأتين وثمانين ألف درهم ؟

فقدكانوا سألوا النبيّ صلى الله عليه وآله أن يعطيهم الغنائم ، ويأخذ لهم منهم الفداء فعاتبهم الله من رأس على أخذهم الأسرى ثمّ أباح لهم ما أخذوا الأسرى لاجله وهو الفداء لالأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله شاركهم في استباحة الفداء و استشارهم في الفداء والقتل حتّى يشاركهم في العتاب المتوجّه إليهم .

ومن الدليل من لفظ الآية على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لايشاركهم في العتاب أنّ العتاب

في الآية متعلّق بأخذ الأسرى وليس فيها ما يشعر بأنّه استشارهم فيه أو رضي بذلك ولم يرد في شيء من الآثار أنّه صلى الله عليه وآله وصّاهم بأخذ الأسرى ولا قال قولاً يشعر بالرضا بذلك بل كان ذلك ممّا أقدمت عليه عامّة المهاجرين والأنصار على قاعدتهم في الحروب : إذا ظفروا بعدوّهم أخذوا الأسرى للاسترقاق أو الفداء فقد ورد في الآثار أنّهم بالغوا في الأسر وكان الرجل يقي أسيره أن يناله الناس بسوء إلّا عليّ عليه السلام فقد أكثر من قتل الرجال و لم يأخذ أسيراً .

فمعنى الآيات : «ماكان لنبيّ» ولم يعهد في سنّة الله في أنبيائه «أن يكون له أسرى» ويحقّ له أن يأخذهم ويستدرّ على ذلك شيئاً «حتّى يثخن» ويغلظ «في الأرض» ويستقرّ دينه بين الناس «تريدون» أنتم معاشر أهل بدر ـ وخطاب الجميع بهذا العموم المشتمل على عتاب الجميع لكون أكثرهم متلبّسين باقتراح الفداء على النبيّ صلى الله عليه وآله ـ «عرض الدنيا» ومتاعها السريع الزوال «والله يريد الآخرة» بتشريع الدين والأمر بقتال الكفّار ، ثمّ في هذه السنّة الّتي أخبر بها في كلامه ؛ «و الله عزيز» لا يغلب «حكيم» لايلغو في أحكامه المتقنة .

«ولولا كتاب من الله سبق» يقتضي أن لا يعذّبكم ولا يهلككم ، و إنّما أبهم لأنّ الإبهام أنسب في مقام المعاتبة ليذهب ذهن السامع كلّ مذهب ممكن ، ولا يتعيّن له فيهون عنده أمره «لمسّكم فيما أخذتم» أي في أخذكم الأسرى فإنّ الفداء والغنيمة لم يؤخذا قبل نزول الآيات وإخبارهم بحلّيّتها وطيبها «عذاب عظيم» وهو كما تقدّم يدلّ على عظم المعصية لأنّ العذاب العظيم إنّما يستحقّ بالمعصية العظيمة «فكلوا ممّا غنمتم» وتصرّفوا فيما أحرزتم من الفائدة سواء كان ممّا تسلّطتم عليه من أموال المشركين أو ممّا أخذتم منهم من الفداء «حلالاً طيّباً» أي حال كونه حلالاً طيّباً بإباحة الله سبحانه «واتّقوا الله إنّ الله غفور رحيم» وهو تعليل لقوله : «فكلوا ممّا غنمتم» الخ أي غفرنا لكم ورحمناكم فكلوا ممّا غنمتم أو تعليل لجميع ما تقدّم أي لم يعذّبكم الله بل أباحه لكم لأنّه غفور رحيم .

قوله تعالى : «يا أيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى» إلى آخر الآية

كون الأسرى بأيديهم استعارة لتسلّطهم عليهم تمام التسلّط كالشيء يكون في يد الإنسان يقلّبه كيف يشاء .

وقوله : «إن يعلم الله في قلوبكم خيراً» كناية عن الإيمان أو اتّباع الحقّ الّذي يلازمه الإيمان فإنّه تعالى يعدهم في آخر الآية بالمغفرة ، ولامغفرة مع شرك قال تعالى : «إنّ الله لايغفر أن يشرك به ويغفر مادون ذلك لمن يشاء» النساء : ٤٧ .

ومعنى الآية : ياأيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى الّذين تسلّطتم عليهم وأخذت منهم الفداء : إن ثبت في قلوبكم الإيمان وعلم الله منكم ذلك ـ ولايعلم إلّا ماثبت وتحقّق ـ يؤتكم خيراً ممّا اُخذ منكم من الفداء ويغفر لكم والله غفور رحيم .

قوله تعالى : «وإن يريدوا خيانتك فقد خانوا الله من قبل فأمكن منهم» الخ أمكنه منه أي أقدره عليه ، وإنّما قال أوّلاً : «خيانتك» ثمّ قال : «خانوا الله» لأنّهم أرادوا بالفدية أن يجمعوا الشمل ثانياً ويعودوا إلى محاربته صلى الله عليه وآله ، وأمّا خيانتهم لله من قبل فهي كفرهم وإصرارهم على أن يطفؤوا نور الله و كيدهم ومكرهم .

ومعنى الآية : إن آمنوا بالله وثبت الإيمان في قلوبهم آتاهم الله خيراً ممّا اُخذ منهم وغفر لهم ، وإن أرادوا خيانتك والعود إلى ماكانوا عليه من العناد والفساد فإنّهم خانوا الله من قبل فأمكنك منهم وأقدرك عليهم وهو قادر على أن يفعل بهم ذلك ثانياً ، والله عليم بخيانتهم لو خانوا حكيم في إمكانك منهم .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع في قوله تعالى : «ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى» الخ قال : كان القتلى من المشركين يوم بدر سبعين قتل منهم عليّ بن أبيطالب عليه السلام سبعة وعشرين (١) ، وكان الأسرى أيضا سبعين ، ولم يؤسر أحد من أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله فجمعوا الاُسارى ، وقرنوهم في الحبال ، وساقوهم على أقدامهم ، و قتل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله تسعة رجال منهم

(١) ولم يأسر أحداً على ما في الروايات .

سعدبن خيثمة وكان من النقباء من الأوس .

قال : وعن محمدبن إسحاق قال : استشهد من المسلمين يوم بدرأحد عشر رجلاً : أربعة من قريش ، و سبعة من الأنصار ، و قيل : ثمانية ، و قتل من المشركين بضعة و أربعون رجلاً(١) .

قال : وعن ابن عبّاس : قال : لمّا أمسى رسول الله ﷺ يوم بدر و الناس محبوسون بالوثاق بات ساهراً أوّل الليلة فقال له أصحابه : مالك لا تنام ؟ فقال ﷺ : سمعت أنين عمّي العبّاس في وثاقه ، فأطلقوه فسكت فنام رسول الله ﷺ .

قال : و روى عبيدة السلمانيّ عن رسول الله ﷺ أنّه قال لأصحابه يوم بدر في الأُسارى : إن شئتم قتلتموهم ، وإن شئتم فاديتموهم واستشهد منكم بعدّتهم ، وكانت الأُسارى سبعين فقالوا : بل نأخذ الفداء فنستمتع به ونتقوّى به على عدوّنا ، وليستشهد منّا بعدّتهم قال عبيدة طلبوا الخيرتين كلتيهما(٢) فقتل منهم يوم اُحد سبعون :

وفي كتاب عليّ بن إبراهيم : لمّا قتل رسول الله ﷺ النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط خافت الأنصار أن يقتل الأُسارى فقالوا : يارسول الله قتلنا سبعين وهم قومك واُسرتك أتجذّ أصلهم فخذ يارسول الله منهم الفداء ، وقد كانوا أخذوا ماوجدوه من الغنائم في عسكر قريش فلمّا طلبوا إليه و سألوه نزلت الآية : «ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى» الآيات فأطلق لهم ذلك .

و كان أكثر الفداء أربعة آلاف درهم و أقلّه ألف درهم فبعثت قريش بالفداء أوّلاً فأوّلاً فبعثت زينب بنت رسول الله ﷺ من فداء زوجها أبي العاص بن الربيع ، و بعثت قلائد لها كانت خديجة جهّزتها بها ، وكان أبوالعاص ابن اُخت خديجة ، فلمّا رأى رسول الله ﷺ تلك القلائد قال : رحم الله خديجة هذه قلائد هي جهّزتها بها فأطلقه رسول الله ﷺ بشرط أن يبعث إليه زينب ، و لا يمنعها من اللحوق به فعاهده على ذلك و وفى له .

---

(١) وهؤلاء هم الذين ضبط علماء الاثار أسماءهم غير من لم يضبط اسمه .

(٢) لكن قوله تعالى في عتابهم «تريدون عرض الدنيا» يخطّىء عبيدة في قوله .

قال : وروي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كره أخذ الفداء حتّى رأى سعدبن معاذ كراهيةذلك في وجهه فقال : يارسول‌الله هذا أوّل حرب لقينا فئةالمشركين ، والإثخان في القتل أحبّ إليّ من استبقاء الرجال ، وقال عمربن الخطّاب : يارسول‌الله كذّبوك و أخرجوك فقدّمهم واضرب أعناقهم ، ومكّن‌عليّاً من عقيل فيضرب‌عنقه ، ومكّنّي من فلان أضرب عنقه فإنّ هؤلاء أئمّة الكفر ، وقال أبوبكر : أهلك و قومك استأن بهم و استبقهم و خذ منهم فدية فيكون لنا قوّة على الكفّار قال ابن زيد فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : لونزل عذاب من السماء ما نجا منكم أحد غير عمر وسعدبن معاذ .

وقال أبو جعفر الباقر عليه السلام : كان الفداء يوم بدر كلّ رجل من المشركين بأربعين اُوقيّة ، والاُوقيّة أربعون مثقالاً إلّا العبّاس فإنّ فداءه كان مأة اُوقيّة ، وكان اُخذمنه حين اُسر عشرون اُوقيّة ذهباً فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : ذلك غنيمة ففاد نفسك و ابني أخيك نوفلاً وعقيلاً فقال : ليس‌معي شيء . فقال : أين‌الذهب الّذي سلّمته إلى اُمّ الفضل وقلت: إن حدث بي حدث فهو لك وللفضل وعبدالله وقثم . فقال : من‌أخبرك بهذا ؟ قال : الله‌تعالى فقال : أشهد أنّك رسول‌الله والله ما اطّلع على هذا أحد إلّاالله تعالى .

أقول : و الروايات في هذه المعاني كثيرة من طرق الفريقين تركنا إيرادها إيثاراً للاختصار .

وفي قرب الإسناد للحميريّ عن عبد الله بن ميمون عن جعفر عن أبيه عليهما السلام قال : اُوتي النبيّ صلى الله عليه وآله بمال دراهم فقال النبيّ صلى الله عليه وآله للعبّاس : يا عبّاس ابسط رداءً وخذمن هذا المال طرفاً فبسط رداءً وأخذ منه طائفة ثمّ قال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : ياعبّاس هذا من‌الّذي قال‌الله تبارك و تعالى : « يا أيّها النبيّ قل لمن في أيديكم من الأسرى إن يعلم الله في قلوبكم خيراً يؤتكم خيراً ممّا اُخذ منكم» قال : نزلت في العبّاس ونوفل وعقيل .

وقال : إنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله نهى يوم بدر أن يقتل أحد من بني‌هاشم وأبوالبختريّ فاُسروا فأرسل عليّاً فقال : انظر من ههنا من بني‌هاشم ؟ قال : فمرّ على عقيل‌بن أبيطالب فحاد عنه قال فقال‌له : يابن اُمّ‌عليّ أما و الله لقد رأيت مكاني .

قال : فرجع إلي رسول‌الله صلى الله عليه وآله فقال : هذا أبو الفضل في يد فلان ، وهذا عقيل في

يد فلان ، وهذا نوفل في يد فلان يعني نوفل بن الحارث فقام رسول الله صلى الله عليه وآله حتّى انتهى إلى عقيل فقال : يا أبا يزيد قتل أبوجهل ! فقال : إذاً لاتنازعوا في تهامة . قال : إن كنتم أثخنتم القوم وإلّا فاركبوا أكتافهم .

قال : فجيء بالعبّاس فقيل له : افد نفسك وافد ابن [ابني ظ] أخيك فقال : يا محمّد تتركني أسأل قريشاً في كفّي ؟ فقال صلى الله عليه وآله له : أعط ممّا خلّفت عند أُمّ الفضل و قلت لها إن أصابني شيء في وجهي فأنفقيه على ولدك ونفسك . قال : يا ابن أخي من أخبرك بهذا ؟ قال : أتاني به جبرئيل . فقال : ومحلوفة ماعلم بهذا إلّا أنا و هي . أشهد أنّك رسول الله .

قال : فرجع الأُسارى كلّهم مشركين إلّا العبّاس وعقيل ونوفل بن الحارث ، و فيهم نزلت هذه الآية : «قل لمن في أيديكم من الأسرى» . الآية .

أقول : وروى في الدرّ المنثور هذه المعاني بطرق مختلفة عن الصحابة و روى نزول الآية في العبّاس و ابني أخيه عن ابن سعد و ابن عساكر عن ابن عبّاس ، و روى مقدار الفدية الّتي فدي بها عن كلّ رجل من الأُسارى ، وقصّة فدية العبّاس عنه وعن ابني أخيه الطبرسيّ في مجمع البيان عن الباقر عليه السلام كما في الحديث .



* * *

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا وَإِنِ اسْتَنْصَرُوكُمْ فِي الدِّينِ فَعَلَيْكُمُ النَّصْرُ إِلَّا عَلَى قَوْمٍ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ مِيثَاقٌ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ (٧٢) وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ إِلَّا تَفْعَلُوهُ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ كَبِيرٌ (٧٣) وَالَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ (٧٤) وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ وَأُولُوا الْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَى بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ (٧٥) .

﴿بيان﴾

الآيات تختتم السورة ، و يرجع معناها نوع رجوع إلى ما افتتحت به السورة وفيها إيجاب الموالاة بين المؤمنين إلّا إذا اختلفوا بالمهاجرة وعدمها وقطع موالاة الكافرين.

قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا ـ إلى قوله ـ أولياء بعض » المراد بالّذين آمنوا وهاجروا : الطائفة الاُولى من المهاجرين قبل نزول السورة بدليل ما سيذكر من المهاجرين في آخر الآيات ، والمراد بالّذين آووا ونصروا : هم الأنصار الّذين آووا النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين المهاجرين ونصروا الله ورسوله ، وكان ينحصر المسلمون يومئذ في هاتين الطائفتين إلّا قليل ممّن آمن بمكّة ولم يهاجر .

وقد جعل الله بينهم ولاية بقوله : « اُولئك بعضهم أولياء بعض » والولاية أعمّ من

ولاية الميراث و ولاية النصرة و ولاية الأمن،فمن آمن منهم كافراً كان نافذاً عند الجميع ؛ فالبعض من الجميع وليّ البعض من الجميع كالمهاجر هو وليّ كلّ مهاجر وأنصاريّ،والأنصاري وليّ كلّ أنصاريّ ومهاجر ، كلّ ذلك بدليل إطلاق الولاية في الآية .

فلا شاهد على صرف الآية إلى ولاية الإرث بالمواخاة الّتي كان النبيّ ﷺ جعلها في بدء الهجرة بين المهاجرين والأنصار وكانوا يتوارثون بها زماناً حتّى نسخت .

قوله تعالى : « والّذين آمنوا ولم يهاجروا » إلى آخر الآية ، معناه واضح وقد نفيت فيها الولاية بين المؤمنين المهاجرين والأنصار و بين المؤمنين غير المهاجرين إلّا ولاية النصرة إذا استنصروهم بشرط أن يكون الاستنصار على قوم ليس بينهم وبين المؤمنين ميثاق .

قوله تعالى : « والّذين كفروا بعضهم أولياء بعض » أي إنّ ولايتهم بينهم لا تتعدّاهم إلى المؤمنين فليس للمؤمنين أن يتولّوهم ، وذلك أنّ قوله ههنا في الكفّار : « بعضهم أولياء بعض » كقوله في المؤمنين : « اُولئك بعضهم أولياء بعض » إنشاء و تشريع في صورة الإخبار ، وجعل الولاية بين الكفّار أنفسهم لا يحتمل بحسب الاعتبار إلّا ما ذكرناه من نفي تعدّيه عنهم إلى المؤمنين .

قوله تعالى : « إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفسادٌ كبيرٌ » إشارة إلى مصلحة جعل الولاية على النحو الّذي جعلت ، فإنّ الولاية ممّا لا غنى عنها في مجتمع من المجتمعات البشريّة سيّما المجتمع الإسلاميّ الّذي اُسّس على اتّباع الحقّ و بسط العدل الإلهيّ كما أنّ تولّي الكفّار وهم أعداء هذا المجتمع يوجب الاختلاط بينهم فيسري فيه عقائدهم وأخلاقهم ، و تفسد سيرة الإسلام المبنيّة على الحقّ بسيرهم المبنيّة على اتّباع الهوى وعبادة الشيطان ، وقد صدّق جريان الحوادث في هذه الآونة ما أشارت إليه هذه الآية .

قوله تعالى : « والّذين آمنوا وهاجروا » إلى آخر الآية إثبات لحقّ الإيمان على من اتّصف بآثاره اتّصافاً حقّاً ، ووعد لهم بالمغفرة والرزق الكريم .

قوله تعالى : « والّذين آمنوا من بعد و هاجروا وجاهدوا معكم فاُولئك منكم » خطاب للمهاجرين الأوّلين والأنصار وإلحاق من آمن وهاجر وجاهد معهم بهم فيشار كونهم في الولاية .

قوله تعالى : « واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » إلى آخر الآية . جعل للولاية بين اُولي الأرحام والقرابات ، وهي ولاية الإرث فإنّ سائر أقسام الولاية لا ينحصر فيما بينهم .

والآية تنسخ ولاية الإرث بالمواخاة الّتي أجراها النبيّ صلّى الله عليه وآله بين المسلمين في أوّل الهجرة ، وتثبت الإرث بالقرابة سواء كان هناك ذو سهم أو لم يكن أو كان عصبة أو لم يكن فالآية مطلقة كما هو ظاهر .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع عن الباقر عليه السلام أنّهم كانوا يتوارثون بالمواخاة .

أقول : ولا دلالة فيه على أنّ الآية نزلت في ولاية الاُخوّة .

في الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : الخال والخالة يرثان إذا لم يكن معهما أحد إنّ الله يقول : « واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » .

أقول : ورواه العيّاشيّ عن أبي بصير عنه مرسلاً .

و **في تفسير العيّاشيّ** عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : « واُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » أنّ بعضهم أولى بالميراث من بعض لأنّ أقربهم إليه أولى به . ثمّ قال أبو جعفر عليه السلام ، إنّهم أولى بالميّت ، وأقربهم إليه اُمّه وأخوه واُخته لاُمّه وابنه أليس الاُمّ أقرب إلى الميّت من إخوانه وأخواته ؟

وفيه عن ابن سنان عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لمّا اختلف عليّ بن أبي طالب عليه السلام وعثمان بن عفّان في الرجل يموت وليس له عصبة يرثونه وله ذوو قرابة لا يرثونه : ليس له بينهم مفروض ، فقال عليّ عليه السلام ميراثه لذوي قرابته لأنّ الله تعالى يقول : « واُولو الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » وقال عثمان أجعل ميراثه في بيت مال المسلمين ولا يرثه أحد من قرابته .

أقول : والروايات في نفي القول بالعصبة والاستناد في ذلك إلى الآية كثيرة من أئمّة أهل البيت عليهم السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج الطيالسيّ والطبرانيّ وأبوالشيخ وابن مردويه عن ابن عبّاس قال : آخى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أصحابه وورّث بعضهم من بعض حتّى نزلت هذه الآية « واُولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله » فتركوا ذلك وتوارثوا بالنسب .

وفي المعاني بإسناد فيه رفع عن موسى بن جعفر عليهما السلام فيما جرى بينه وبين هارون وفيه : قال هارون : فلم ادّعيتم أنّكم ورثتم رسول الله والعمّ يحجب ابن العمّ ، وقبض رسول الله وقد توفّي أبوطالب قبله والعبّاس عمّه حيّ ـ إلى أن قال ـ فقلت : إنّ النبيّ لم يورّث من لم يهاجر ولا أثبت له ولاية حتّى يهاجر فقال : ما حجّتك فيه ؟ قلت : قول الله تبارك وتعالى : « والّذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتّى يهاجروا » وإنّ عمّي العبّاس لم يهاجر فقال : إنّي سائلك يا موسى هل أفتيت بذلك أحداً من أعدائنا أم أخبرت أحداً من الفقهاء في هذه المسألة بشيء ؟ فقلت . اللّهمّ لا وما سألني عنها إلّا أمير المؤمنين . الحديث .

أقول : ورواه المفيد في الاختصاص .

سورة التوبة مدنية وهي مائة وتسع وعشرون آية

***

بَرَاءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١) فَسِيحُوا
فِي الْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَأَنَّ اللَّهَ مُخْزِي
الْكَافِرِينَ (٢) وَأَذَانٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الْحَجِّ الْأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ
مِنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِنْ تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ
مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣) إِلَّا الَّذِينَ عَاهَدْتُمْ مِنَ الْمُشْرِكِينَ
ثُمَّ لَمْ يَنْقُصُوكُمْ شَيْئًا وَلَمْ يُظَاهِرُوا عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوا إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَى مُدَّتِهِمْ
إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ (٤) فَإِذَا انْسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ
وَجَدْتُمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا
الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٥) وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ
الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ
قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ (٦) كَيْفَ يَكُونُ لِلْمُشْرِكِينَ عَهْدٌ عِنْدَ اللَّهِ وَعِنْدَ رَسُولِهِ إِلَّا الَّذِينَ
عَاهَدْتُمْ عِنْدَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ فَمَا اسْتَقَامُوا لَكُمْ فَاسْتَقِيمُوا لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ
الْمُتَّقِينَ (٧) كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ
بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ (٨) اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا فَصَدُّوا
عَنْ سَبِيلِهِ إِنَّهُمْ سَاءَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٩) لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً
وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ (١٠) فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ
فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ وَنُفَصِّلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ (١١) وَإِنْ نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ

مِنْ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا فِي دِينِكُمْ فَقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَا أَيْمَانَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنْتَهُونَ (١٢) أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْماً نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَؤُكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ (١٣) قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنْصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ (١٤) وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٥) أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ (١٦) .

﴿ بيان ﴾

الآيات مفتتح قبيل من الآيات سمّوها سورة التوبة أوسورة البراءة ، وقد اختلفوا في كونها سورة مستقلّة أو جزءً من سورة الأنفال ، واختلاف المفسّرين في ذلك ينتهي إلى اختلاف الصحابة ثمّ التابعين فيه ، وقد اختلف في ذلك الحديث عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام غير أنّ الأرجح بحسب الصناعة ما يدلّ من حديثهم على أنّها ملحقة بسورة الأنفال .

والبحث عن معاني آياتها وما اشتملت عليه من المضامين لا يهدي إلى غرض واحد متعيّن على حدّ سائر السور المشتملة على أغراض مشخّصة تؤمّها أوائلها و تنعطف إليها أواخرها ، فأوّلها آيات تؤذن بالبراءة وفيها آيات القتال مع المشركين ، والقتال مع أهل الكتاب ، وشطر عظيم منها يتكلّم في أمر المنافقين ، وآيات في الاستنهاض على القتال وما يتعرّض لحال المخلّفين ، وآيات ولاية الكفّار ، وآيات الزكاة وغيرذلك ، ومعظمها ما يرجع إلى قتال الكفّار وما يرجع إلى المنافقين .

وعلى أيّ حال لا يترتّب من جهة التفسير على هذا البحث فائدة مهمّة وإن أمكن ذلك من جهة البحث الفقهيّ الخارج عن غرضنا .

قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين » قال الراغب : أصل البرء والبراء والتبرّي : التفصّي ممّا يكره مجاورته ، ولذلك قيل : برأت من المرض وبرأت من فلان وتبرّأت ، وأبرأته من كذا و برّأته ، ورجل بريء وقوم برآء و بريؤون قال تعالى : براءة من الله و رسوله . انتهى .

والآية بالنسبة إلى الآيات التالية كالعنوان المصدّر به الكلام المشير إلى خلاصة القول على نهج سائر السور المفصّلة الّتي تشير الآية والآيتان من أوّلها على إجمال الغرض المسرود لأجل بيانه آياتها .

والخطاب في الآية للمؤمنين أو للنبيّ صلى الله عليه وآله ولهم على ما يدلّ عليه قوله : « عاهدتم » وقد اُخذ الله تعالى ومنه الخطاب، ورسوله صلى الله عليه وآله وهو الواسطة، والمشركون وهم الّذين اُريدت البراءة منهم ، ووجّه الخطاب ليبلغ إليهم جميعاً في الغيبة ، وهذه الطريقة في الأحكام والفرامين المراد إيصالها إلى الناس نوع تعظيم لصاحب الحكم والأمر .

والآية تتضمّن إنشاء الحكم والقضاء بالبراءة من هؤلاء المشركين و ليس بتشريع محض بدليل تشريكه النبيّ صلى الله عليه وآله في البراءة فإنّ دأب القرآن أن ينسب الحكم التشريعيّ المحض إلى الله سبحانه وحده ، وقد قال تعالى: « ولا يشرك في حكمه أحداً » الكهف :٢٦، ولا ينسب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله إلّا الحكم بالمعنى الّذي في الولاية والسياسة و قطع الخصومة .

فالمراد بالآية القضاء برفع الأمان عن الّذين عاهدوهم من المشركين و ليس رفعاً جزافيّاً وإبطالاً للعهد من غير سبب يبيح ذلك فإنّ الله تعالى سيذكر بعد عدّة آيات أنّهم لا وثوق بعهدهم الّذي عاهدوه وقد فسق أكثرهم ولم يراعوا حرمة العهد و نقضوا ميثاقهم ، وقد أباح تعالى عند ذلك إبطال العهد بالمقابلة نقضاً بنقض حيث قال : « و إمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين » الأنفال:٥٨ فأباح إبطال العهد عند مخافة الخيانة ولم يرض مع ذلك إلّا بإبلاغ النقض إليهم لئلّا يؤخذوا على الغفلة

فيكون ذلك من الخيانة المحظورة .

ولو كان إبطالاً لعهدهم من غير سبب مبيح لذلك من قبل المشركين لم يفرّق بين من دام على عهده منهم وبين من لم يدم عليه وقد قال تعالى مستثنياً : «إلّا الّذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إنّ الله يحبّ المتّقين » .

ولم يرض تعالى بنقض عهد هؤلاء المعاهدين الناقضين لعهدهم دون أن ضرب لهم أجلاً ليفكّروا في أمرهم ويرتاؤا رأيهم ولا يكونوا مأخوذين بالمباغتة والمفاجأة .

فمحصّل الآية الحكم ببطلان العهد ورفع الأمان عن جماعة من المشركين كانوا قد عاهدوا المسلمين ثمّ نقضه أكثرهم ولم يبق إلى من بقي منهم وثوق تطمئنّ به النفس إلى عهدهم وتعتمد على يمينهم وتأمن شرّهم وأنواع مكرهم .

قوله تعالى : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر واعلموا أنّكم غير معجزي الله وأنّ الله مخزي الكافرين» السياحة هي السير في الأرض والجري ولذلك يقال للماء الدائم الجرية في ساحة : السائح .

وأمرهم بالسياحة أربعة أشهر كناية عن جعلهم في مأمن في هذه البرهة من الزمان وتركهم بحيث لا يتعرّض لهم بشرّ حتّى يختاروا ما يرونه أنفع بحالهم من البقاء أو الفناء مع ما في قوله : « واعلموا أنّكم غير معجزي الله وأنّ الله مخزي الكافرين » من إعلامهم أنّ الأصلح بحالهم رفض الشرك ، والإقبال إلى دين التوحيد ، وموعظتهم أن لا يهلكوا أنفسهم بالاستكبار والتعرّض للمخزي الإلهيّ .

وقد وجّه في الآية الخطاب إليهم بالالتفات من الغيبة إلى الخطاب لما في توجيه الخطاب القاطع والإرادة الجازمة إلى الخصم من الدلالة على بسط الاستيلاء والظهور عليه واستذلاله و استحقار ما عنده من قوّة وشدّة .

وقد اختلفت أقوال المفسّرين في المراد بقوله : « أربعة أشهر » والّذي يدلّ عليه السياق ويؤيّده اعتبار إصدار الحكم وضرب الأجل ليكونوا في فسحة لاختيار ما وجدوه من الحياة أو الموت أنفع بحالهم : أن تبتدىء الأربعة الأشهر من يوم الحجّ الأكبر الّذي

يذكره الله تعالى في الآية التالية فإنّ يوم الحجّ الأكبر هو يوم الإبلاغ و الإيذان والأنسب بضرب الأجل الّذي فيه نوع من التوسعة للمحكوم عليهم وإتمام الحجّة، أن تبتدىء من حين الإعلام والإيذان .

وقد اتّفقت كلمة أهل النقل أنّ الآيات نزلت سنة تسع من الهجرة فإذا فرض أنّ يوم الحجّ الأكبر هو يوم النحر العاشر من ذي الحجّة كانت الأربعة الأشهر هي عشرون من ذي الحجّة والمحرّم وصفر وربيع الأوّل وعشرة أيّام من ربيع الآخر .

و عند قوم أنّ الأربعة الأشهر تبتدء من يوم العشرين من ذي القعدة و هو يوم الحجّ الأكبر عندهم فالأربعة الأشهر هي عشرة أيّام من ذي القعدة وذو الحجّة والمحرّم وصفر وعشرون من ربيع الأوّل ، وسيأتي ما فيه .

و ذكر آخرون : أنّ الآيات نزلت أوّل شوّال سنة تسع من الهجرة فتكون الأربعة الأشهر هي شوّال وذو القعدة وذوالحجّة والمحرّم فتنقضي بانقضاء الأشهر الحرم ، وقد حداهم إلى ذلك القول بأنّ المراد بقوله تعالى فيما سيأتي : «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا » الأشهر الحرم المعروفة : ذوالقعدة و ذوالحجّة والمحرّم فيوافي انسلاخ الأشهر الحرم انقضاء الأربعة الأشهر ، وهذا قول بعيد عن الصواب لا يساعد عليه السياق وقرينة المقام كما عرفت .

قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر أنّ الله بريء من المشركين ورسوله » الأذان هو الإعلام ، وليست الآية تكراراً لقوله تعالى السابق «براءة من الله ورسوله » فإنّ الجملتين وإن رجعتا إلى معنى واحد وهو البراءة من المشركين إلّا أنّ الآية الاُولى إعلام البراءة و إبلاغه إلى المشركين بدليل قوله في ذيل الآية : « إلى الّذين عاهدتم من المشركين» بخلاف الآية الثانية فإنّ وجه الخطاب فيه إلى الناس ليعلموا براءة الله ورسوله من المشركين، ويستعدّوا ويتهيّؤوا لإنفاذ أمر الله فيهم بعد انسلاخ الأشهر الحرم بدليل قوله : «إلى الناس » وقوله تفريعاً : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » إلى آخر الآية .

وقد اختلفوا في تعيين المراد بيوم الحجّ الأكبر على أقوال :

منها : أنّه يوم النحر من سنة التسع من الهجرة لأنّه كان يوماً اجتمع فيه المسلمون والمشركون ولم يحجّ بعد ذلك العام مشرك ، وهو المؤيّد بالأحاديث المرويّة عن أئمّة أهل البيت عليهم‌السلام والأنسب بأذان البراءة، والاعتبار يساعد عليه لأنّه كان أكبر يوم اجتمع فيه المسلمون والمشركون من أهل الحجّ عامّة بمنى وقد ورد من طرق أهل السنّة روايات في هذا المعنى غير أنّ مدلول جلّها أنّ الحجّ الأكبر اسم يوم النحر فيتكرّر على هذا كلّ سنة ولم يثبت من طريق النقل تسمية على هذا النحو .

ومنها : أنّه يوم عرفة لأنّ فيه الوقوف ، والحجّ الأصغر هو الّذي ليس فيه وقوف وهو العمرة ، وهو استحسان لا دليل عليه ، ولا سبيل إلى تشخيص صحّته .

و منها : أنّه اليوم الثاني ليوم النحر لأنّ الإمام يخطب فيه وسقم هذا الوجه ظاهر .

ومنها : أنّه جميع أيّام الحجّ كما يقال : يوم الجمل ويوم صفّين ويوم بغاث ، ويراد به الحين والزمان ، وهذا القول لا يقابل سائر الأقوال كلّ المقابلة فإنّه إنّما يبيّن أنّ المراد باليوم جميع أيّام الحجّ ، وأمّا وجه تسمية هذا الحجّ بالحجّ الأكبر فيمكن أن يوجّه ببعض ما في الأقوال السابقة كما في القول الأوّل .

و كيف كان فالاعتبار لا يساعد على هذا القول لأنّ وجود يوم بين أيّام الحجّ يجتمع فيه عامّة أهل الحجّ يتمكّن فيه من أذان براءة كلّ التمكّن كيوم النحر يصرف قوله : « يوم الحجّ الأكبر » إلى نفسه ، ويمنع شموله لسائر أيّام الحجّ الّتي لا يجتمع فيها الناس ذاك الإجتماع .

ثمّ التفت سبحانه إلى المشركين ثانياً وذكّرهم أنّهم غير معجزين لله ليكونوا على بصيرة من أمرهم كما ذكّرهم بذلك في الآية السابقة بقوله : « واعلموا أنّكم غير معجزي الله وأنّ الله مخزي الكافرين » غير أنّه زاد عليه في هذه الآية قوله : « فإن تبتم فهو خير لكم » ليكون تصريحاً بما لوّح إليه في الآية السابقة فإنّ التذكير بأنّهم غير معجزي الله إنّما كان بمنزلة العظة وبذل النصح لهم لئلّا يلقوا بأيديهم إلى التهلكة باختيار البقاء على الشرك والتولّي عن الدخول في دين التوحيد ففي الترديد تهديد ونصيحة وعظة .

ثمّ التفت سبحانه إلى رسوله فخاطبه أن يبشّر الّذين كفروا بعذاب أليم فقال : « وبشّر الّذين كفروا بعذاب أليم » والوجه في الالتفات الّذي في قوله : « فإن تبتم فهو خير لكم» الخ ما تقدّم في قوله : « فسيحوا في الأرض » الخ ، و في الالتفات الّذي في قوله : « وبشّر الّذين كفروا » الخ أنّه رسالة لا تتمّ إلّا من جهة مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « إلّا الّذين عاهدتم من المشركين ثمّ لم ينقصوكم شيئاً ولم يظاهروا عليكم أحداً » الخ استثناء من عموم البراءة من المشركين والمستثنون هم المشركون الّذين لهم عهد لم ينقضوه لا مستقيماً ولا غير مستقيم فمن الواجب الوفاء بميثاقهم و إتمام عهدهم إلى مدّتهم .

وقد ظهر بذلك أنّ المراد من إضافة قوله : « ولم يظاهروا عليكم أحداً » إلى قوله : « لم ينقصوكم شيئاً » استيفاء قسمي النقض وهما النقض المستقيم كقتلهم بعض المسلمين ، والنقض غير المستقيم نظير مظاهرتهم بعض أعداء المسلمين عليهم كإمداد مشركي مكّة بني بكر على خزاعة بالسلاح ، وكانت بنو بكر في عهد قريش وخزاعة في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله فحاربوا فأعانت قريش بني بكر على خزاعة ونقضت بذلك عهد حديبيّة الّذي عقدوه بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله ، وكان ذلك من أسباب فتح مكّة سنة ثمان .

وقوله تعالى : « إنّ الله يحبّ المتّقين » في مقام التعليل لوجوب الوفاء بالعهد مالم ينقضه المعاهد المشرك ، وذلك يجعل احترام العهد وحفظ الميثاق أحد مصاديق التقوى المطلق الّذي لا يزال يأمر به القرآن وقد صرّح به في نظائر هذا المورد كقوله تعالى : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم على أن لا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى » المائدة : ٩ وقوله : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا ، و تعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان واتّقوا الله » المائدة : ٣ .

وبذلك يظهر ما في قول بعضهم : إنّ المراد بالمتّقين الّذين يتّقون نقض العهد من غير سبب ، وذلك أنّ التقوى بمعنى الورع عن محارم الله عامّة كالحقيقة الثانية في القرآن فيحتاج إرادة خلافه إلى قرينة صارفة .

قوله تعالى : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم

وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كلّ مرصد » أصل الانسلاخ من سلخ الشاة وهو نزع جلدها عنها ، وانسلاخ الشهر نوع كناية عن خروجه ، والحصر هو المنع من الخروج عن محيط ، والمرصداسم مكان من الرصد بمعنى الاستعداد للرقوب .

قال الراغب : الرصد الاستعداد للترقّب يقال : رصد له وترصّدوأرصدته له قال عزّ وجلّ : «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل» ، وقوله عزّوجلّ : «إنّ ربّك لبا المرصاد» تنبيهاً أنّه لاملجأ ولا مهرب ، والرصد يقال للراصد الواحد والجماعة الراصدين وللمرصود واحداً كان أوجمعاً ، وقوله تعالى : « يسلك من بين يديه ومن خلفه رصداً » يحتمل كلّ ذلك ، والمرصد موضع الرصد . انتهى .

والمراد بالأشهر الحرم هي الأربعة الأشهر : أشهر السياحة الّتي ذكرها الله سبحانه في قوله : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» وجعلها أجلاً مضروباً للمشركين لايتعرّض فيها لحالهم و أمّا الأشهر الحرم المعروفة أعني ذاالقعدة وذاالحجّة و المحرّم فإنها لاتنطبق على أذان براءة الواقع في يوم النحر عاشرذي الحجّة بوجه كما تقدّمت الإشارةإليه .

و على هذا فاللاّم في الأشهر الحرم للعهد الذكريّ أي إذا انسلخ هذه الأشهر الّتي ذكرناها وحرّمناها للمشركين لايتعرّض لحالهم فيها فاقتلوا المشركين الخ .

ويظهر بذلك أن لاوجه لحمل قوله : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم » على انسلاخ ذي القعدة و ذي الحجّة و المحرّم بأن يكون انسلاخ الأربعة الأشهر بانسلاخ الأشهر الثلاثة منطبقاً عليه أويكون انسلاخ الأشهر الحرم مأخوذاً على نحو الإشارة إلى انقضاء الأربعة الأشهر وإن لم ينطبق الأشهر على الأشهر فإنّ ذلك كلّه ممّا لاسبيل إليه بحسب السياق وإن كان لفظ الأشهر الحرم في نفسه ظاهراً في شهوررجب وذي القعدة وذي الحجّة والمحرّم .

وقوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » محقّق للبراءة منهم ورفع الاحترام عن نفوسهم بإهدار الدماء فلا مانع من أيّ نازلة نزلت بهم ، وفي قوله : « حيث وجدتموهم» تعميمٌ للحكم فلامانع حاجب عن وجوب قتلهم حيثما وجدوا في حلّ أو حرم بل ولو ظفر بهم في الشهر الحرام ـ بناء على تعميم « حيث » للزمان والمكان كليهما فيجب على

المسلمين كائنين من كانوا إذا ظفروا بهم أن يقتلوهم،كان ذلك في الحلّ أوالحرم و في الشهر الحرام أو غيره .

وإنّما أمر بقتلهم حيث وجدوا للتوسّل بذلك إلى إيرادهم مورد الفناء والانقراض، وتطييب الأرض منهم ، وإنجاء الناس من مخالطتهم ومعاشرتهم بعد ماسمح واُبيح لهم ذلك في قوله : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » .

و لازم ذلك أن يكون كلّ من قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » وقوله : « وخذوهم » وقوله : « واحصروهم » و قوله : « واقعدوا لهم كلّ مرصد » بياناً لنوع من الوسيلة إلى إفناء جمعهم و إنفاد عددهم ، ليتقصّى المجتمع من شرّهم .

فإن ظفر بهم وأمكن قتلهم قتلوا ، وإن لم يمكن ذلك قبض عليهم واُخذوا ، وإن لم يمكن أخذهم حصروا وحبسوا في كهفهم ومنعوا من الخروج إلى الناس و مخالطتهم ، وإن لم يعلم محلّهم قعد لهم في كلّ مرصد ليظفر بهم فيقتلوا أو يؤخذوا .

ولعلّ هذا المعنى هو مراد من قال : إنّ المراد : فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم أوخذوهم واحصروهم على وجه التخيير في اعتبار الأصلح من الأمرين ، وإن كان لايخلو عن تكلّف من جهة اعتبار الأخذ و الحصر والقعود في كلّ مرصد أمراً واحداً في قبال القتل ، و كيف كان فالسياق إنّما يلائم ما قدّمناه من المعنى .

وأمّا قول من قال : إنّ في قوله : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم » تقديماً وتأخيراً ، والتقدير : فخذوا المشركين حيث وجدتموهم واقتلوهم فهو من التصرّف في معنى الآية من غيردليل مجوّز ، والآية وخاصّة ذيلها يدفع ذلك سياقاً .

ومعنى الآية : فإذا انسلخ الأشهر الحرم وانقضى الأربعة الأشهر الّتي أمهلناهم بها بقولنا : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » فأفنوا المشركين بأيّ وسيلة ممكنة رأيتموها أقرب وأوصل إلى إفناء جمعهم وإمحاء رسمهم من قتلهم أينما وجدتموهم من حلّ أو حرم و متى ماظفرتم بهم في شهرحرام أوغيره ، ومن أخذهم أوحصرهم أوالقعود لهم في كلّ مرصد حتّى يفنوا عن آخرهم .

قوله تعالى : « فإن تابوا و أقاموا الصلاة و آتوا الزكاة فخلّوا سبيلهم إنّ الله

غفور رحيم » اشتراط في معنى الغاية للحكم السابق ، والمراد بالتوبة معناها اللغوي وهو الرجوع أي إن رجعوا من الشرك إلى التوحيد بالإيمان ونصبوا لذلك حجّة من أعمالهم وهي الصلاة والزكاة والتزموا أحكام دينكم الراجعة إلى الخالق والخلق جميعاً فخلّوا سبيلهم .

وتخلية السبيل كناية عن عدم التعرّض لسالكيه وإن عادت مبتذلة بكثرة التداول كأنّ سبيلهم مسدودة مشغولة بتعرّض المتعرّضين فإذا خلّي عنها كان ذلك ملازماً أو منطبقاً على عدم التعرّض لهم .

وقوله : « إنّ الله غفور رحيم » تعليل لقوله : « فخلّوا سبيلهم » إمّا من جهة الأمر الّذي يدلّ عليه بصورته أو من جهة المأمور به الّذي يدلّ عليه بمادّته أعني تخلية سبيلهم :

والمعنى على الأوّل : وإنّما أمر الله بتخلية سبيلهم لأنّه غفور رحيم يغفر لمن تاب إليه ويرحمه .

وعلى الثاني : خلّوا سبيلهم لأنّ تخليتكم سبيلهم من المغفرة والرحمة ، وهما من صفات الله العليا فتتّصفون بذلك بصفة ربّكم ، وأظهر الوجهين هو الأوّل .

قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله » إلى آخر الآية ، الآية تتضمّن حكم الإجارة لمن استجار من المشركين لأن يسمع كلام الله ، وهي بما تشتمل عليه من الحكم وإن كانت معترضة أو كالمعترضة بين ما يدلّ على البراءة ورفع الأمان عن المشركين إلّا أنّها بمنزلة دفع الدخل الواجب الّذي لا يجوز إهماله فإنّ أساس هذه الدعوة الحقّة وما يصاحبها من الوعد والوعيد والتبشير والإنذار ، وما يترتّب عليه من عقد العقود وإبرام العهود أو النقض والبراءة وأحكام القتال كلّ ذلك إنّما هو لصرف الناس عن سبيل الغيّ والضلال إلى صراط الرشد والهدى ، وإنجائهم من شقاء الشرك إلى سعادة التوحيد .

ولازم ذلك الاعتناء التامّ بكلّ طريق يرجى فيه الوصول إلى هداية ضالّ والفوز بإحياء حقّ وإن كان يسيراً قليلاً فإنّ الحقّ حقّ وإن كان يسيراً ، والمشرك غير المعاهد وإن أبرء الله منه الذمّة وأهدر دمه ورفع الحرمة عن كلّ ما يعود إليه من مال وعرض لكنّه تعالى إنّما فعل به ذلك ليحيى حقّ ويبطل باطل فإذا رجي منه الخير منع ذلك من أيّ

قصد سيّىء يقصد به حتّى يحصل اليأس من هدايته وإنجائه .

فإذا استجار المشرك لينظر فيما تندب إليه الدعوة الحقّة ويتّبعها إن اتّضحت له كان من الواجب إجارته حتّى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل وتتمّ عليه الحجّة فإذا تمادى بعد ذلك في ضلاله وأصرّ في استكباره صار ممّن ارتفع عنه الأمان و برأت منه الذمّة ووجب تطييب الأرض من قذارة وجوده بأيّة وسيلة أمكنت وأيّ طريق كان أقرب وأسهل وهذا هو الّذي يفيده قوله تعالى : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنّهم قوم لا يعلمون » الآية بما يكتنف به من الآيات .

فمعنى الآية : إن طلب منك بعض هؤلاء المشركين الّذين رفع عنهم الأمان أن تأمنه في جوارك ليحضر عندك ويكلّمك فيما تدعو إليه من الحقّ الّذي يتضمّنه كلام الله فأجره حتّى يسمع كلام الله ويرتفع عنه غشاوة الجهل ثمّ أبلغه مأمنه حتّى يملك منك أمناً تامّاً كاملاً ، و إنّما شرع الله هذا الحكم وبذل لهم هذا الأمن التامّ لأنّهم قوم جاهلون ولا بأس على جاهل إذا رجي منه الخير بقبول الحقّ لو وضح له .

وهذا غاية ما يمكن مراعاته من اُصول الفضيلة وحفظ الكرامة ونشر الرحمة والرأفة وشرافة الإنسانيّة اعتبره القرآن الكريم ، وندب إليه الدين القويم .

وقد بان بما قدّمناه أوّلاً : أنّ الآية مخصّصة لعموم قوله في الآية السابقة : «فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

وثانياً : أنّ قوله : « حتّى يسمع كلام الله » غاية للاستجارة والإجارة فيتغيّا به الحكم ، فالاستئمان إنّما كان لسمع كلام الله و استفسارما عند الرسول من موادّ الرسالة فيتقدّر الأمان الّذي يعطاه المستجير المستأمن بقدره فإذا سمع من كلام الله ما يتبيّن به الرشد من الغيّ و يتميّز به الهدى من الضلال انتهت مدّة الإستجارة وحان أن يردّ المستجير إلى مأمنه والمكان الخاصّ به الّذي هو في أمن فيه ، لا يهدّده فيه سيوف المسلمين ليرجع إلى حاله الّذي فارقه ، ويختار لنفسه ما يشاء على حرّيّة من المشيّة والإرادة .

وثالثاً : أنّ المراد بكلام الله مطلق آيات القرآن الكريم ، نعم يتقيّد بما ينفع

المستجيرمن الآيات الّتي توضح له اُصول المعارف الإلهيّة ومعالم الدين و الجواب عمّا يختلج في صدره من الشبهات كلّ ذلك بدلالة المقام و السياق .

وبذلك يظهر فساد ماقيل : إنّ المراد بكلام الله آيات التوحيد من القرآن ، و كذا ماقيل : إنّ المراد به سورة براءة أوخصوص مابلّغوه في الموسم من آيات صدر السورة فإنّ ذلك كلّه تخصيص من غير مخصّص .

ورابعاً : أنّ المراد بسمع كلام الله الوقوف على اُصول الدين ومعالمه و إن أمكن أن يقال : إنّ لاستماع نفس كلام الله فيما إذا كان المستجير عربيّاً يفهم الكلام الإلهيّ دخلاً في ذلك أمّا إذا كان غير عربيّ ولايفهم الكلام العربيّ فالمستفاد من السياق أنّ الغاية في حقّه مجرّد تفقّه اُصول الدين ومعالمه

وخامساً : أنّ الآية محكمة غير منسوخة ولاقابلة له لأنّ من الضروريّ البيّن من مذاق الدين ، وظواهر الكتاب و السنّة أن لامؤاخذة قبل تمام الحجّة ، ولا تشديد أيّ تشديد كان إلّا بعدالبيان فالجاهل السالك في سبيل الفحص أو المستعلم للحقّ المستفهم للحقيقة لايردّ خائباً ولا يؤخذ غافلاً فعلى الإسلام والمسلمين أن يعطوا كلّ الأمان لمن استأمنهم ليستحضر معارف الدين ويستعلم اُصول الدعوة حتّى يتّبعها إن لاحت له فيها لوائح الصدق ، وهذا أصل لايقبل بطلاناً ولا تغييراً مادام الإسلام إسلاماً فالآية محكمة غير قابلة للنسخ إلى يوم القيامة .

ومن هنا يظهر فساد قول من قال : إنّ قوله : « وإن أحد من المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله» الآية منسوخة بالآية الآتية : « وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة » الآية .

وسادساً : أنّ الآية إنّما توجب إجارة المستجير إذا استجار لامردينيّ يرجى فيه خير الدين ، وأمّا مطلق الاستجارة لالغرض دينيّ ولا نفع عائد إليه فلادلالة لها عليه أصلاً بل الآيات السابقة الآمرة بالتشديد عليهم في محلّها .

وسابعاً : أنّ قوله في تتميم الأمر بالإجارة : « ثمّ أبلغه مأمنه » مع تمام قوله : « فأجره حتّى يسمع » بدونه في الدلالة على المقصد يدلّ على كمال العناية بفتح باب

الهداية على وجوه الناس ، والتحفّظ على حرّيّة الناس في حياتهم و أعمالهم الحيويّة ، و الإغماض في طريقه عن كلّ حكم حتميّ وعزيمة قاطعة ليهلك من هلك عن بيّنة ويحيى من حيّ عن بيّنة ، ولايكون للناس على الله حجّة بعدالرسل .

وثامناً : أنّ الآية ـ كما قيل ـ تدلّ على أنّ الاعتقاد بأصل الدين يجب أن يكون عن علم يقينيّ لايداخله شكّ ولا يمازجه ريب ولايكفي فيه غيره ولو كان الظنّ الراجح ، وقد ذمّ الله تعالى اتّباع الظنّ ، و ندب إلى اتّباع العلم في آيات كثيرة كقوله تعالى : «ولا تقف ماليس لك به علم » أسرى : ٣٦ وقوله : «إن يتّبعون إلّا الظنّ و إنّ الظنّ لا يغني من الحقّ شيئاً » النجم : ٢٨ وقوله : « و مالهم بذلك من علم إن هم إلّا يخرصون » الزخرف : ٢٠ .

ولو كفى في أصل الدين الاعتقاد التقليديّ لم يستقم الحكم بإجارة من استجار لتفهّم اُصول الدين ومعارفه لجواز أن يكلّف بالتقليد و الكفّ عن البحث عن أنّه حقّ أو باطل هذا .

ولكنّ المقدار الواجب في ذلك أن يكون عن علم قطعيّ سواء كان حاصلاً عن الاستدلال بطرق فنّيّة أو بغير ذلك من الوجوه المفيدة للعلم ولو على سبيل الاتّفاق ، و هذا غير القول بأنّ الاستدلال على اُصول المعارف لايصحّ إلّا من طريق العقل فإنّ صحّة الاستدلال أمر ، وجواز الاعتماد على العلم بأيّ طريق حصل أمر آخر .

قوله تعالى : « كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله» الآية ، تبيين و توضيح لما مرّ إجمالاً من الحكم بنقض عهد المشركين ممّن لاوثوق بوفائه بعهده ، وقتلهم إلى أن يؤمنوا بالله ويخضعوا لدين التوحيد ، واستثناء من لم ينقض العهد و بقي على الميثاق حتّى ينقضي مدّة عهدهم .

فالآية ومايتلوها إلى تمام ستّ آيات تبيّن ذلك و توضح الحكم و استثناء ما استثني منه والغاية والمغيّى جميعاً .

فقوله : « كيف يكون للمشركين عهد عندالله و عند رسوله » استفهام في مقام الإنكار ، وقد بادرت الآية إلى استثناء الّذين عاهدوهم من المشركين عند المسجد الحرام

لكونهم لم ينقضوا عهداً ولم يساهلوا فيما واثقوا به بدليل قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » و ذلك أنّ الاستقامة لمن استقام والسلم لمن يسالم من لوازم التقوى الدينيّ ، و لذلك علّل قوله ذلك بقوله : « إنّ الله يحبّ المتّقين » كما جاء مثله بعينه في الآية السابقة : «فأتمّوا إليهم عهدهم إلى مدّتهم إنّ الله يحبّ المتّقين » .

قوله تعالى : « كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّاً ولا ذمّة » إلى آخر الآية قال الراغب في المفردات : الإلّ كلّ حالة ظاهرة من عهد حلف،وقرابة تئلّ:تلمع فلايمكن إنكاره قال تعالى : لا يرقبون في مؤمن إلّا ولاذمّة ، و ألّ الفرس : أسرع ، حقيقته لمع ، وذلك استعارة في باب الإسراع نحو برق وطار . انتهى .

وقال أيضاً : الذمام ـ بكسر الذال ـ مايذمّ الرجل على إضاعته منعهد ، و كذلك الذمّة والمذمّة ، وقيل : لي مذمّة فلاتهتكها ، وأذهب مذمّتهم بشيء : أي أعطهم شيئاً لمالهم من الذمام . انتهى وهو ظاهر في أنّ الذمّة مأخوذة من الذمّ بالمعنى الّذي يقابل المدح .

ولعلّ إلقاء المقابلة في الآية بين الإلّ و الذمّة للدلالة على أنّهم لا يحفظون في المؤمنين شيئاً من المواثيق الّتي يجب رقوبها وحفظها سواء كانت مبنيّة على اُصول واقعيّة تكوينيّة كالقرابة الّتي توجب بوجه على القريب رعاية حال قريبه ، أو على الجعل و الاصطلاح كالعهود والمواثيق المعقودة بحلف ونحوه .

وقد كرّرت لفظة « كيف» للتأكيد و لرفع الإبهام في البيان الناشي من تخلّل قوله : « إلّا الّذين عاهدتم » الآية بطولها بين قوله : « كيف يكون للمشركين » الآية وقوله : « وإن يظهروا عليكم » الآية .

فمعنى الآية : كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله والحال أنّهم إن يظهروا عليكم ويغلبوكم على الأمر لا يحفظوا ولا يراعوا فيكم قرابة ولاعهداً من العهود يرضونكم بالكلام المدلّس والقول المزوّق ، ويأبى ذلك قلوبهم ، وأكثرهم فاسقون .

و من هنا ظهر أنّ قوله : « يرضونكم بأفواههم » من المجاز العقليّ نسب فيه الإرضاء إلى الأفواه و هو في الحقيقة منسوب إلى القول و الكلام الخارج من الأفواه المكوّن فيها .

وقوله : « يرضونكم » الآية تعليل لإنكار وجود العهد للمشركين و لذلك جيىء به بالفصل ، والتقدير : كيف يكون لهم عهد وهم يرضونكم بأفواههم و تأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون .

وأمّا قوله : « وأكثرهم فاسقون » ففيه بيان أنّ أكثرهم ناقضون للعهد و الميثاق بالفعل من غير أن ينتظروا ظهورهم جميعاً عليكم فالآية توضح حال آحادهم وجميعهم بأنّ أكثرهم فاسقون بنقض العهد من غير أن يرقبوا في مؤمن إلّاً ولا ذمّة ، ولو أنّهم ظهروا عليكم جميعاً لم يرقبوا فيكم الإلّ والذمّة .

قوله تعالى : « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » إلى آخر الآيتين، بيان وتفسير لقوله في الآية السابقة : « وأكثرهم فاسقون » وكأنّ قوله : « اشتروا بآيات الله ثمناً قليلاً » إلى آخر الآية توطئة وتمهيد لقوله في الآية الثانية : « لا يرقبون في مؤمن إلّا ولا ذمّة » .

وبذلك يظهر أنّ الأقرب أنّ المراد بالفسق الخروج عن العهد والذمّة دون الفسق بمعنى الخروج عن زيّ عبوديّة الله سبحانه وإن كان الأمر كذلك .

وقوله : « واُولئك هم المعتدون » كالتفسير لجميع ما مرّ من أحوالهم الروحيّة و أعمالهم الجسميّة ، وتفيد الجملة مع ذلك جواباً عن سؤال مقدّر أو ما يجري مجراه والمعنى إذا كان هذا حالهم وهذه أفعالهم فلا تحسبوا أن لو نقضتم عهدهم اعتديتم عليهم فاُولئك هم المعتدون عليكم لما أضمروه من العداوة والبغضاء ولما أظهره أكثرهم في مقام العمل من الصدّ عن سبيل الله ، وعدم رعاية قرابة ولا عهد في المؤمنين .

قوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة » إلى آخر الآيتين، الآيتان بيان تفصيليّ لقوله فيما تقدّم : « فإن تبتم فهو خير لكم وإن تولّيتم فاعلموا أنّكم غير معجزي الله » .

والمراد بالتوبة بدلالة السياق الرجوع إلى الإيمان بالله وآياته ، ولذلك لم يقتصر على التوبة فقط بل عطف عليها إقامة الصلاة الّتي هي أظهر مظاهر عبادة الله ، وإيتاء الزكاة الّذي هو أقوى أركان المجتمع الدينيّ ، وقد اُشير بهما إلى نوع الوظائف الدينيّة الّتي بإتيانها يتمّ الإيمان بآيات الله بعد الإيمان بالله عزّ اسمه فهذا معنى قوله : « تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » .

وأمّا قوله : « فإخوانكم في الدين » فالمراد به بيان التساوي بينهم و بين سائر المؤمنين في الحقوق الّتي يعتبرها الإسلام في المجتمع الإسلاميّ : لهم ما للمسلمين و عليهم ما على المسلمين .

وقد عبّر في الآية عن ذلك بالاُخوّة في الدين وقال في موضع آخر : « إنّما المؤمنون إخوة » الحجرات : ١٠ اعتباراً بما بينهم من التساوي في الحقوق الدينيّة فإنّ الأخوين شقيقان اشتقّا من مادّة واحدة وهما لذلك متساويان في الشؤون الراجعة إلى ذلك في مجتمع المنزل عند و الدهما الّذي هو ربّ البيت ، و في مجتمع القرابة عند الأقرباء و العشيرة .

و إذ كان لهذا المعنى المسمّى بلسان الدين أحكام و آثار شرعيّة اعتنى بها قانون الإسلام فهو اعتبار حقيقة لنوع من الاُخوّة بين أفراد المجتمع الإسلاميّ لها آثار مترتّبة كما أنّ الاُخوّة الطبيعيّة فيما اعتبرها الإسلام لها آثار مترتّبة عقلائيّة ودينيّة وليست تسمية ذلك اُخوّة مجرّد استعارة لفظيّة عن عناية مجازيّة ، وفيما نقل عن النبيّ صلّى الله عليه وآله : قوله « المؤمنون إخوة يسعى بذمّتهم أدناهم ، وهم يد واحدة على من سواهم .

وقوله : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم » الآية ، يدلّ السياق أنّهم غير المشركين الّذين أمر الله سبحانه في الآية السابقة بنقض عهدهم و ذكر أنّهم هم المعتدون لا يرقبون في مؤمن إلاًّ ولا ذمّة فإنّهم ناكثون للأيمان ناقضون للعهد ، فلا يستقيم فيهم الاشتراط الّذي ذكره الله سبحانه بقوله : « وإن نكثوا أيمانهم » الآية .

فهؤلاء قوم آخرون لهم مع وليّ الأمر من المسلمين عهود وأيمان ينكثون أيمانهم من بعد عهدهم ، أي ينقضون عهودهم من بعد عقدها فأمر الله سبحانه بقتالهم و ألغى أيمانهم و سمّاهم أئمّة الكفر لأنّهم السابقون في الكفر بآيات الله يتّبعهم غيرهم ممّن يليهم ، يقاتلون جميعاً لعلّهم ينتهون عن نكث الأيمان ونقض العهود .

قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم وهمّوا بإخراج الرسول » الآية ومابعدها إلى تمام أربع آيات تحريض للمؤمنين وتهييج لهم على قتال المشركين ببيان ما

أجرموا به في جنب الله وخانوا به الحقّ والحقيقة ، وعدّ خطاياهم و طغياناتهم من نكث الأيمان والهمّ بإخراج الرسول والبدء بالقتال أوّل مرّة .

ثمّ بتعريف المؤمنين أنّ لازم إيمانهم بالله الّذي يملك كلّ خير و شرّ ونفع وضرّ أن لايخشوا إلّا إيّاه إن كانوا مؤمنين به ففي ذلك تقوية لقلوبهم و تشجيعهم عليهم ، و ينتهي إلى بيان أنّهم ممتحنون من عندالله بإخلاص الإيمان له و القطع من المشركين حتّى يؤجروا بما يؤجر به المؤمن المتحقّق في إيمانه .

قوله تعالى : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » إلى آخر الآيتين . أعاد الأمر بالقتال لأنّه صار من جهة ماتقدّم من التحريض والتحضيض أوقع في القبول فإنّ الأمر الأوّل كان ابتدائيّاً غير مسبوق بتمهيد وتوطئة بخلاف الأمر الثاني الوارد بعد اشتداد الاستعداد و كمال التهيّؤ من المأمورين .

على أنّ ما اُتبع به الأمر من قوله : «يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم ـ إلى قوله ـ ويذهب غيظ قلوبهم » يؤكّد الأمر ويغري المأمورين على امتثاله و إجرائه على المشركين فإنّ تذكّرهم أنّ قتل المشركين عذاب إلهيّ لهم بأيدي المؤمنين، وأنّ المؤمنين أيادمجرية لله سبحانه وأنّ في ذلك خزياً للمشركين ونصرة من الله للمؤمنين عليهم وشفاء لصدور قوم مؤمنين وإذهاباً لغيظ قلوبهم ، يجرّئهم للعمل و ينشّطهم ويصفّي إرادتهم .

وقوله : «ويتوب الله على من يشاء » الآية بمنزلة الاستثناء لئلّا يجري حكم القتال على إطلاقه .

قوله تعالى : « أم حسبتم أن تتركوا ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم » إلى آخر الآية بمنزلة تعليل آخر لوجوب قتالهم لينتج تحريضهم على القتال و فيه بيان حقيقة الأمر ، ومحصّله أنّ الدار دار الامتحان والابتلاء فإنّ نفوس الآدميّين تقبل الخير والشرّ والسعادة والشقاوة فهي في أوّل كينونتها ساذجة مبهمة ، ومراتب القرب و الزلفى إنّما تبذل بإزاء الإيمان الخالص بالله و آياته ، ولا يظهر صفاء الإيمان إلّا بالامتحان الّذي يورد المؤمن مقام العمل، ليميز الله بذلك الطيّب من الخبيث ، والصافي الإيمان ممّن ليس عنده إلّا مجرّد الدعوى أو المزعمة .

فمن الواجب أن يمتحن هؤلاء المدّعون أنّهم باعوا أنفسهم و أموالهم لله بأنّ لهم الجنّة ، ويبتلوا بمثل القتال الّذي يميّز به الصادق من الكاذب و يفصل الّذي قطع روابط المحبّة و الصلة من أعداء الله سبحانه ممّن في قلبه بقايا من ولايتهم ومودّتهم حتّى يحيى هؤلاء ويهلك اُولئك .

فعلى المؤمنين أن يمتثلوا أمر القتال بل يتسارعوا إليه ويتسابقوا فيه ليظهروا بذلك صفاء جوهرهم و حقيقة إيمانهم ويحتجّوا به على ربّهم يوم لانجاح فيه إلّا بحجّة الحقّ .

فقوله : « أم حسبتم أن تتركوا » أي بل أظننتم أن تتركوا على ماأنتم عليه من الحال ولمّا تظهر حقيقة صدقكم في دعوى الإيمان بالله وبآياته .

وقوله : « ولمّا يعلم الله » الآية أي ولمّا يظهر في الخارج جهادكم وعدم اتّخاذكم من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة فإنّ تحقّق الأشياء علم منه تعالى بها وقد مرّ نظير الكلام مع بسط مّا في تفسير قوله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الّذين جاهدوا منكم » الآية آل عمران : ١٤٢ في الجزء الرابع من الكتاب . ومن الدليل على هذا الّذي ذكرنا في معنى العلم قوله في ذيل الآية : « والله خبير بما تعملون » .

والوليجة على ما في مفردات الراغب كلّ ما يتّخذه الإنسان معتمداً عليه وليس من أهله

﴿بحث روائى﴾

في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « براءة من الله و رسوله » حدّثني أبي عن محمّد بن الفضل عن ابن أبي عمير عن أبي الصباح الكنانيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : نزلت هذه الآية بعد مارجع رسول الله صلى الله عليه وآله من غزوة تبوك في سنة تسع من الهجرة .

قال : وكان رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا فتح مكّة لم يمنع المشركين الحجّ في تلك السنة ، وكان سنّة من العرب في الحجّ أنّه من دخل مكّة و طاف البيت في ثيابه لم يحلّ له إمساكها ، وكانوا يتصدّقون بها ولا يلبسونها بعد الطواف فكان من وافى مكّة يستعير ثوباً و يطوف فيه ثمّ يردّه ، ومن لم يجده عارية ولا كرى ولم يكن له إلّا ثوب واحد طاف بالبيت عرياناً .

فجاءت امرأة من العرب وسيمة جميلة فطلبت ثوباً عارية أو كرى فلم تجده فقالوا لها : إن طفت في ثيابك احتجت أن تتصدّقي بها فقالت : كيف أتصدّق وليس لي غيرها ؟ فطافت بالبيت عريانة و أشرف لها الناس فوضعت إحدى يديها على قبلها و الاُخرى على دبرها وقالت شعراً :

اليوم يبدو بعضه أو كلّه فما بدا منه فلا اُحلّه

فلمّا فرغت من الطواف خطبها جماعة فقالت : إنّ لي زوجاً .

وكانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وآله قبل نزول سورة براءة أن لا يقاتل إلّا من قاتله ولا يحارب إلّا من حاربه وأراده ، وقد كان اُنزل عليه [في] ذلك «فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلاً» فكان رسول الله صلى الله عليه وآله لا يقاتل أحداً قد تنحّى عنه واعتزله حتّى نزلت عليه سورة براءة وأمره بقتل المشركين من اعتزله و من لم يعتزله إلّا الّذين قد عاهدهم رسول الله صلى الله عليه وآله يوم فتح مكّة إلى مدّة : منهم صفوان بن اُميّة وسهيل بن عمرو فقال الله عزّ وجلّ : «براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر» ثمّ يقتلون حيثما وجدوا بعدُ . هذه أشهر السياحة : عشرين من ذي الحجّة والمحرّم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشراً من ربيع الآخر .

فلمّا نزلت الآيات من سورة براءة دفعها رسول الله صلى الله عليه وآله إلى أبي بكر و أمره أن يخرج إلى مكّة ويقرأها على الناس بمنى يوم النحر فلمّا خرج أبو بكر نزل جبرئيل على رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يا محمّد لا يؤدّي عنك إلّا رجل منك .

فبعث رسول الله صلى الله عليه وآله أمير المؤمنين عليه السلام في طلب أبي بكر فلحقه بالروحاء و أخذ منه الآيات فرجع أبو بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : يارسول الله ، أنزل الله فيّ شيئاً ؟ فقال: لا إنّ الله أمرني أن لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي .

وفي تفسير العيّاشيّ عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام أنّ رسول الله بعث أبا بكر مع براءة إلى الموسم ليقرأها على الناس فنزل جبرئيل فقال : لا يبلّغ عنك إلّا عليّ فدعا رسول الله صلى الله عليه وآله عليّاً وأمر أن يركب ناقته العضباء ، وأمره أن يلحق أبا بكر فيأخذ منه براءة ويقرأها على الناس بمكّة فقال أبو بكر : أسخط ؟ فقال : لا إلّا أنّه اُنزل عليه أنّه لا

يبلّغ إلّا رجل منك .

فلمّا قدم على مكّة و كان يوم النحر بعد الظهر وهو يوم الحجّ الأكبر قام ثمّ قال : إنّي رسول رسول الله إليكم فقرأها عليهم : « براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » عشرين من ذي الحجّة و المحرّم و صفر و شهر ربيع الأوّل وعشراً من شهر ربيع الآخر ، وقال : لا يطوف بالبيت عريان ولا عريانة ولا مشرك بعد هذا العام ، ومن كان له عهد عند رسول الله صلّى الله عليه وآله فمدّته إلى هذه الأربعة أشهر .

أقول : المراد تعيين المدّة للعهود الّتي لا مدّة لها بقرينة ما سيأتي من الرواية ، وأمّا العهود الّتي لها مدّة فاعتبارها إلى مدّتها مدلول لنفس الآيات الكريمة .

وفي تفسيري العيّاشيّ والمجمع عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : خطب عليّ عليه السلام بالناس واخترط سيفه وقال : لا يطوفنّ بالبيت عريان ، ولا يحجّنّ بالبيت مشرك، ومن كانت له مدّة فهو إلى مدّته ، ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر ، وكان خطب يوم النحر ، و كانت عشرون من ذي الحجّة و المحرّم وصفر و شهر ربيع الأوّل و عشر من شهر ربيع الآخر ، وقال : يوم النحر يوم الحجّ الأكبر .

أقول : والروايات من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام في هذه المعاني فوق حدّ الإحصاء .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند وأبو الشيخ وابن مردويه عن عليّ رضي الله عنه قال : لمّا نزلت عشر آيات من براءة على النبيّ صلّى الله عليه وآله دعا أبابكر رضي الله عنه ليقرأها على أهل مكّة ثمّ دعاني فقال لي : أدرك أبابكر فحيثما لقيته فخذ الكتاب منه .

ورجع أبو بكر رضي الله عنه فقال : يارسول الله نزل فيّ شيء ؟ قال : لا ولكن جبريل جاءني فقال : لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك .

وفيه أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه أنّ رسول الله صلّى الله عليه وآله بعث أبابكر رضي الله عنه ببراءة إلى أهل مكّة ثمّ بعث عليّاً رضي الله عنه على أثره فأخذها منه فكأنّ أبابكر وجد في نفسه فقال النبيّ صلّى الله عليه وآله : يا أبا بكر إنّه لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي .

وفيه أخرج ابن مردويه عن أبي رافع رضي الله عنه قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبابكر رضي الله عنه ببراءة إلى الموسم فأتى جبرئيل عليه السلام فقال : إنّه لا يؤدّيها إلّا أنت أو رجل منك فبعث عليّاً رضي الله عنه على أثره حتّى لحقه بين مكّة والمدينة فأخذها فقرأها على الناس في الموسم .

وفيه أخرج ابن حبّان وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : بعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أبابكر رضي الله عنه يؤدّي عنه براءة فلمّا أرسله بعث إلى عليّ رضي الله عنه فقال : يا عليّ لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو أنت فحمله على ناقته العضباء فسار حتّى لحق بأبي بكر رضي الله عنه فأخذ منه براءة .

فأتى أبوبكر النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد دخله من ذلك مخافة أن يكون قد اُنزلت فيه شيء فلمّا أتاه قال : ما لي يا رسول الله ؟ قال : خيرٌ أنت أخي وصاحبي في الغار وأنت معي على الحوض غير أنّه لا يبلغ عنّي إلّا رجل منّي .

أقول : وهناك روايات اُخرى في معنى ما تقدّم ، وقد نقل في تفسير البرهان عن ابن شهر آشوب أنّه رواه الطبرسيّ ، والبلاذريّ ، والترمذيّ ، والواقديّ ، والشعبيّ ، والسدّيّ ، والثعلبيّ ، والواحديّ ، والقرطبيّ ، والقشيريّ ، والسمعانيّ ، وأحمد بن حنبل ، و ابن بطّة ، ومحمّد بن إسحاق ، وأبو يعلى الموصلي ، والأعمش ، وسماك بن حرب في كتبهم عن عروة بن الزبير ، و أبي هريرة ، و أنس ، و أبي رافع ، و زيد بن نفيع ، و ابن عمر ، وابن عبّاس ، واللّفظ له : إنّه لمّا نزل : «براءة من الله ورسوله» إلى تسع آيات أنفذ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أبا بكر إلى مكّة لأدائها فنزل جبرئيل و قال : إنّه لا يؤدّيها إلّا أنت أو رجل منك فقال النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لأمير المؤمنين : اركب ناقتي العضباء و الحق أبابكر و خذ براءة من يده .

قال : ولمّا رجع أبوبكر إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم جزع وقال : يا رسول الله إنّك أهّلتني لأمر طالت الأعناق فيه فلمّا توجّهت إليه رددتني منه؟ فقال صلى الله عليه وآله وسلم : الأمين هبط إليّ عن الله تعالى : أنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك ؛ وعليّ منّي ولا يؤدّي عنّي إلّا عليّ .

وفيما نقلناه من الروايات وما تركناه منها وهو أكثر وفيما سيجيء في هذا الباب نكتتان أصليّتان.

إحداهما : أنّ بعث النبيّ صلّى الله عليه وآله عليّاً ببراءة وعزله أبا بكر إنّما كان بأمر من ربّه بنزول جبرئيل: «إنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك» ولم يقيّد الحكم في شيء من الروايات ببراءة أو نقض العهد فلم يرد في شيء منها : لا يؤدّي براءة أو لا ينقض العهد إلّا أنت أو رجل منك فلا دليل على تقييده ببراءة على ما وقع في كثير من التفاسير ؛ ويؤيّد الإطلاق ما سيأتي .

وثانيتهما : أنّ عليّاً عليه السلام كما كان ينادي ببراءة ، كذلك كان ينادي بحكم آخر وهو أنّ من كان له مدّة فهو إلى مدّته ومن لم يكن له مدّة فمدّته أربعة أشهر : و هذا أيضاً ممّا يدلّ عليه آيات براءة .

وبحكم آخر وهو أنّه لا يطوفنّ بالبيت عريان ، وهو أيضاً حكم إلهيّ مدلول عليه بقوله تعالى: « يا بني آدم خذوا زينتكم عند كلّ مسجد » الأعراف : ٣١ وقد ورد في بعض الروايات ذكر الآية مع الحكم كما سيجيء .

وحكم آخر أنّه لا يطوف أو لا يحجّ البيت مشرك بعد هذا العام وهو مدلول قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » التوبة : ٢٨ .

وهناك أمر خامس ذكر في بعض روايات الباب أنّه عليه السلام كان ينادي به وهو أنّه لا يدخل الجنّة إلّا مؤمن و هذا وإن لم يذكر في سائر الروايات ، والاعتبار لا يساعد على ذلك لنزول آيات كثيرة مكّيّة و مدنيّة في ذلك وخفاء الأمر في ذلك على المشركين إلى سنة تسع من الهجرة كالمحال عادة لكن ذلك أيضاً مدلول للآيات الكريمة[1] ، وعلى أيّ حال لم تكن رسالة عليّ عليه السلام مقصوراً على تأدية آيات براءة بل لها و لتبليغ ثلاثة أو أربعة أحكام قرآنيّة اُخرى ، و الجميع مشمول لما اُنزل به جبرئيل عن الله سبحانه على رسوله صلّى الله عليه وآله : أنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك ، إذ لا دليل على تقييد الكلام

(١) وأما على ما في بعضها بدلا من ذلك : « لا يدخل الكعبة ـ أو البيت ـ إلا مؤمن » فالحكم المستفاد منه نظير الحكم بأنه لا يطوفن بالبيت مشرك حكم ابتدائي .

على إطلاقه أصلاً .

وفي الدرّ المنثور أخرج الترمذيّ و حسّنه و ابن أبي‌حاتم والحاكم و صحّحه و ابن مردويه و البيهقيّ في الدلائل عن ابن عبّاس رضي‌الله عنهما أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم بعث أبابكر رضي‌الله عنه وأمره أن ينادي بهؤلاء الكلمات ثمّ أتبعه عليّاً رضي الله عنه وأمره أن ينادي بها فانطلقا فحجّا فقام عليّ رضي‌الله عنه في أيّام التشريق فنادى: أنّ الله بريء من المشركين ورسوله فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ولا يحجّنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ، ولا يدخل الجنّة إلّا مؤمن فكان عليّ رضي الله عنه ينادي بها .

أقول : والخبر قريب المضمون ممّا استفدناه من الروايات .

وفيه أخرج عبدالرزّاق وابن المنذر وابن أبي‌حاتم من طريق سعيد بن المسيّب عن أبي‌هريرة أنّ أبا بكر رضي‌الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة في حجّة أبي‌بكر .

قال أبوهريرة : ثمّ أتبعنا النبيّ ﷺ عليّاً رضي الله عنه أمره أن يؤذن ببراءة وأبوبكر رضي‌الله عنه على‌الموسم كما هو - أو قال : على‌هيئته - .

أقول : وقد ورد من عدّة من طرق أهل السنّة : أنّ النبيّ استعمل أبا بكر على الحجّ عامه ذلك فكان هو أميرالحاجّ وعليّ ينادي ببراءة وقد روت‌الشيعة أنّه صلى الله عليه وآله استعمل للإمارة عليّاً كما أنّه حمله تأدية آيات براءة وقد ذكرذلك الطبرسيّ في مجمع‌البيان ورواه العيّاشيّ عن زرارة عن أبي‌جعفر عليه السلام ، وربّما تأيّد ذلك بما ورد أنّ عليّاً كان يقضي في سفره ذلك ، و أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله دعا له في ذلك إذ من المعلوم أنّ مجرّد الرسالة بتأدية براءة لا تتضمّن الحكم بالقضاء بين‌الناس ، وأوفق ما يكون‌ذلك في‌تلك الأيّام بالإمارة ، والرواية ما سيأتي :

في تفسير‌العيّاشيّ عن الحسن عن عليّ عليه السلام أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله حين بعثه ببراءة قال : يا نبيّ الله إنّي‌لست بلسن ولا بخطيب قال صلى الله عليه وآله : يأبى الله ما بي إلّا أن أذهب بها أو تذهب أنت قال : فإن‌كان لابدّ فسأذهب أنا قال : فانطلق فإنّ‌الله يثبّت‌لسانك ويهدي قلبك ثمّ وضع يده على فمه فقال : انطلق واقرءها على الناس ، و قال صلى الله عليه وآله : الناس

سيتقاوضون إليك فإذا أتاك الخصمان فلا تقض لواحد حتّى تسمع الآخر فإنّه أجدر أن تعلم الحق .

أقول : وهذا المعنى مرويّ من طرق أهل السنّة كما في الدرّ المنثور عن أبي الشيخ عن عليّ رضي الله عنه قال : بعثني رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم إلى اليمن ببراءة فقلت : يا رسول الله تبعثني وأنا غلام حديث السنّ وأُسأل عن القضاء ولا أدري ما اُجيب ؟ قال : ما بدّ من أن تذهب بها أو أذهب بها قلت : إن كان لابدّ أنا أذهب ، قال : انطلق فإنّ الله يثبّت لسانك و يهدي قلبك ثمّ قال : انطلق واقرءها على الناس .

إلّا أنّ اشتمال الرواية على لفظ اليمن يسيء الظنّ بها إذ من البيّن من لفظ آيات براءة أنّها مقرّرة على أهل مكّة يوم الحجّ الأكبر بمكّة وأين ذلك من اليمن و أهلها و كأنّ لفظ الرواية كان : « إلى مكّة » فوضع موضعه « إلى اليمن » تصحيحاً لما اشتملت عليه من حديث القضاء .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والنسائيّ وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع عليّ رضي الله عنه حين بعثه رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم ، بعث عليّاً بأربع : لا يطوف بالبيت عريان ، ولا يجتمع المسلمون والمشركون بعد عامهم ، ومن كان بينه و بين رسول الله صلّى الله عليه وآله عهد فهو إلى عهده ، وأنّ الله و رسوله بريء من المشركين .

أقول : وهذا المعنى مرويّ عن أبي هريرة بعدّة طرق بألفاظ مختلفة لا تخلو من شيء في متنها ـ على ما سيجيء ـ وأمتن الروايات متناً هذه الّتي أوردناها .

وفيه أخرج أحمد والنسائيّ وابن المنذر وابن مردويه عن أبي هريرة قال : كنت مع عليّ حين بعثه رسول الله إلى أهل مكّة ببراءة فكنّا ننادي أنّه لا يدخل الجنّة إلّا مؤمن ، ولا يطوف بالبيت عريان ومن كان بينه وبين رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم عهد فإنّ أمره أو أجله إلى أربعة أشهر فإذا مضت الأربعة أشهر فإنّ الله بريء من المشركين و رسوله ولا يحجّ هذا البيت بعد العام مشرك .

أقول : وفي متن الرواية اضطراب بيّن ، أمّا أوّلاً : فلاشتمالها على النداء بأنّه لا يدخل الجنّة إلّا مؤمن ، وقد سبق أنّه نزلت في معناه آيات كثيرة مكّيّة ومدنيّة منذ سنين

وقد سمعها الحضريّ والبدويّ والمشرك والمؤمن فأيّ حاجة متصوّرة إلى إبلاغها أهل الجمع.

وأمّا ثانياً : فلأنّ النداء الثاني أعني قوله : ومن كان بينه و بين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد الخ لا ينطبق لا على مضامين الآيات ولا على مضامين الروايات المتظافرة السابقة،على أنّه قد جعل فيه البراءة بعد مضيّ أربعة أشهر .

وأمّا ثالثاً : فلما سنذكره ذيلاً .

وفيه أخرج البخاريّ ومسلم وابن المنذر وابن مردويه و البيهقيّ في الدلائل عن أبي هريرة قال : بعثني أبو بكر رضي الله عنه في تلك الحجّة في مؤذنين بعثهم يوم النحر يؤذنون بمنى أن لا يحجّ بعد هذا العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان ثمّ أردف النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعليّ بن أبي طالب رضي الله عنه فأمره أن يؤذن ببراءة فأذن معنا عليّ في أهل منى يوم النحر ببراءة ، وأن لا يحجّ بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان .

وفي تفسير المنار عن الترمذيّ عن ابن عبّاس أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم بعث أبابكر ـ إلى أن قال ـ فقام عليّ أيّام التشريق فنادى : ذمّة الله وذمّة رسوله بريئة من كلّ مشرك فسيحوا في الأرض أربعة أشهر ، ولا يحجّنّ بعد العام مشرك ، ولا يطوفنّ بالبيت عريان ولا يدخل الجنّة إلّا كلّ مؤمن فكان عليّ ينادي بها فإذا بحّ قام أبو هريرة فنادى بها .

وفيه أيضا عن أحمد والنسائيّ ـ من طريق محرز بن أبي هريرة عن أبيه قال : كنت مع عليّ حين بعثه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى مكّة ببراءة فكنّا ننادي أن لا يدخل الجنّة إلّا كلّ نفس مسلمة ، ولا يطوف بالبيت عريان ، ومن كان بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عهد فعهده إلى مدّته ، ولا يحجّ بعد العام مشرك فكنت أُنادي حتّى صحل صوتي .

أقول : قد عرفت أنّ الّذي وقع في الروايات على كثرتها في قصّة بعث عليّ و عزل أبي بكر من كلمة الوحي الّذي نزل به جبرئيل على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم هو قوله : « لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك » و كذا ما ذكره النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حين أجاب أبابكر لمّا سأله عن سبب عزله ، إنّما هو متن ما أوحى إليه الله سبحانه أو قوله ـ وهو في معناه ـ : « لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي » .

و كيفما كان فهو كلام مطلق يشمل تأدية براءة و كلّ حكم إلهيّ احتاج النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى أن يؤدّيه عنه مؤدّ غيره ، ولا دليل لامن متون الروايات ولا غيرها يدلّ على اختصاص ذلك ببراءة ، وقد اتّضح أنّ المنع عن طواف البيت عرياناً والمنع عن حجّ المشركين بعد ذلك العام و كذا تأجيل من له عهد إلى مدّة أو من غير مدّة كلّ ذلك أحكام إلهيّة نزل بها القرآن فمامعنى إرجاع أمرها إلى أبي بكر أو نداء أبي هريرة بها وحده أو ندائه ببراءة و سائر الأحكام المذكورة في الجمع إذا بحّ عليّ عليه السلام حتّى يصحل صوته من كثرة النداء ؟ ولوجاز لأبي هريرة أن يقوم بها و الحال هذه فلم لم يجز لأبي بكر ذلك ؟

نعم أبدع بعض المفسّرين كابن كثير و أترابه ههنا وجهاً وجّهوا به ماتتضمّنه هذه الروايات انتصاراً لها وهو أنّ قوله : « لايؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي » مخصوص بتأدية براءة فقط من غير أن يشمل سائر الأحكام الّتي كان ينادي بها عليّ عليه السلام ، و أنّ تعيينه صلّى الله عليه وآله عليّاً بتبليغ آيات براءة أهل الجمع إنّما هو لما كان من عادة العرب أن لاينقض العهد إلّا عاقده أو رجل من أهل بيته ومراعاة هذه العادة الجارية هي الّتي دعت النبيّ صلّى الله عليه وآله أن يأخذ براءة ـ وفيها نقض ماللمشركين من عهد ـ من أبي بكر و يسلّمها إلى عليّ ليستحفظ بذلك السنّة العربيّة فيؤدّيها عنه بعض أهل بيته .

قالوا : وهذا معنى قوله صلّى الله عليه وآله وسلّم لمّا سأله أبوبكر قائلاً : يا رسول الله هل نزل فيّ شيء ؟ قال : « لاولكن لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أورجل منّي » ومعناه أنّي إنّما عزلتك و نصبت عليّاً لذلك لئلّا أنقض هذه السنّة العربيّة الجارية .

ولذلك لم ينفصل أبوبكر من شأنه فقد كان قلّده إمارة الحاجّ و كان لأبي بكر مؤذنون يؤذنون بهذه الأحكام كأبي هريرة و غيره من الرجال الّذين لم يذكر أسماؤهم في الروايات ، وكان عليّ أحد من عنده لهذا الشأن ، ولذا ورد في بعضها : أنّه خطب بمنى ولمّا فرغ من خطبته التفت إلى عليّ وقال : قم ياعليّ وأدّ رسالة رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم . وهذا ماذكروه و وجّهوا به الروايات .

والباحث الناقد إذا راجع هذه الآيات والروايات ثمّ تأمّل ماجرت من المشاجرات الكلاميّة بين الفريقين: أهل السنّة والشيعة في باب الأفضليّة لم يرتب في أنّهم خلطوا بين

البحث التفسيري الّذي شأنه تحصيل مداليل الآيات القرآنيّة ، والبحث الروائي الّذي شأنه نقد معاني الأحاديث وتمييز غثّها من سمينها ، وبين البحث الكلامي الناظر في أنّ أبابكر أفضل من علي أوعليّاً أفضل من أبي بكر ؟ وفي أنّ إمارة الحاجّ أفضل أوالرسالة في تبليغ آيات براءة ؟ و لمن كان إمارة الحجّ إذ ذاك لأبي بكر أو لعلي ؟ أمّا البحث الكلامي فلسنا نشتغل به في هذا المقام فهو خارج عن غرضنا ، و أمّا البحث الروائي أو التفسيري فيما يرتبط به الآيات إلى أسباب نزولها ممّا يتعلّق بمعاني الآيات فالّذي ينبغي أن يقال بالنظر إليه أنّهم أخطؤوا في هذا التوجيه .

فليت شعري من أين تسلّموا أنّ هذه الجملة الّتي نزل بها جبرئيل : « إنّه لا يؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك » مقيّدة بنقض العهد لايدلّ على أزيد من ذلك،ولادليل عليه من نقل أوعقل فالجملة ظاهرة أتمّ ظهور في أنّ ماكان على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يؤدّيه لا يجوز أن يؤدّيه إلّا هو أو رجل منه سواء ، كان نقض عهد من جانب الله كما في مورد براءة أوحكماً آخر إلهيّاً على رسول الله صلى الله عليه وآله أن يؤدّيه ويبلّغه .

وهذا غير ماكان من أقسام الرسالة منه صلى الله عليه وآله ممّا ليس عليه أن يؤدّيه بنفسه الشريفة كالكتب الّتي أرسل بها إلى الملوك والاُمم والأقوام في الدعوة إلى الإسلام و كذا سائر الرسالات الّتي كان يبعث بها رجالاً من المؤمنين إلى الناس في اُمور يرجع إلى دينهم والإمارات والولايات ونحو ذلك .

ففرق جليّ بين هذه الاُمور وبين براءة ونظائرها فإنّ ما تتضمّنه آيات براءة و أمثال النهي عن الطواف عرياناً ، والنهي عن حجّ المشركين بعد العام أحكام إلهيّة ابتدائيّة لم تبلّغ بعد ولم تؤدّ إلى من يجب أن تبلّغه ، وهم المشركون بمكّة والحجّاج منهم ، ولا رسالة عن الله في ذلك إلّا لرسوله ، وأمّا سائر الموارد الّتي كان يكتفي النبيّ صلى الله عليه وآله ببعث الرسل للتبليغ فقد كانت ممّا فرغ صلى الله عليه وآله فيها من أصل التبليغ و التأدية ، بتبليغه من وسعه تبليغه ممّن حضر كالدعوة إلى الإسلام وسائر شرائع الدين ، و كان يقول : « ليبلّغ الشاهد منكم الغائب » ثمّ إذا مسّت الحاجة إلى تبليغه بعض من لاوثوق عادة ببلوغ الحكم إليه

أولا أثر لمجرّد البلوغ إلّا أن يعتني لشأنه بكتاب أورسول توسّل عند ذلك إلى رسالة أو كتاب كما في دعوة الملوك .

وليتأمّل الباحث المنصف قوله : « لا يؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك » فقد قيل: «لايؤدّي عنك إلّا أنت » ولم يقل : « لا يؤدّي إلّا أنت أو رجل منك» حتّى يفيد اشتراك الرسالة ، ولم يقل : «لايؤدّي منك إلّا رجل منك» حتّى يشمل سائر الرسالات الّتي كان ﷺ يقلّدها كلّ من كان من صالحي المؤمنين فإنّما مفاد قوله : « لايؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك» أنّ الاُمور الرساليّة الّتي يجب عليك نفسك أن تقوم بها لايقوم بها غيرك عوضاً عنك إلّا رجل منك أي لايخلفك فيما عليك كالتأدية الابتدائيّة إلّا رجل منك .

ثمّ ليت شعري ما الّذي دعاهم إلى أن أهملوا كلمة الوحي الّتي هي قول الله نزل به جبرئيل على النبيّ ﷺ: «لايؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك » وذكروا مكانها أنّه «كانت السنّة الجارية عند العرب أن لاينقض العهد إلّا عاقده أورجل من أهل بيته » تلك السنّة العربيّة الّتي لاخبر عنها في أيّامهم ومغازيهم ولا أثر إلّا ما ذكره ابن كثير و نسبه إلى العلماء عندالبحث عن آيات براءة !

ثمّ لوكانت سنّة عربيّة جاهليّة على هذا النعت فما وزنها في الإسلام وماهي قيمتها عندالنبيّ ﷺ وقدكان ينسخ كلّ يوم سنّة جاهليّة وينقض كلّ حين عادة قوميّة ، ولم تكن من جملة الأخلاق الكريمة أوالسنن والعادات النافعة بل سليقة قبائليّة تشبه سلائق الأشراف وقد قال ﷺ يوم فتح مكّة عندالكعبة على مارواه أصحاب السير « ألا كلّ مأثرة أودم أومال يدّعى فهو تحت قدميّ هاتين إلّا سدانة البيت وسقاية الحاجّ » .

ثمّ لوكانت سنّة عربيّة غير مذمومة فهل كان رسول الله ﷺ ذهل عنها و نسيها حين أسلم الآيات إلى أبي بكر وأرسله ، وخرج هو إلى مكّة حتّى إذا كان في بعض الطريق ذكر ﷺ مانسيه أو ذكّره بعض من عنده بما أهمله و ذهل عنه من أمر كان من الواجب مراعاته ؟ وهو ﷺ المثل الأعلى في مكارم الأخلاق واعتبار مايجب أن يعتبر من الحزم و حسن التدبير ، و كيف جاز لهؤلاء المذكّرين أن يغفلوا عن ذلك و ليس من الاُمور الّتي يغفل عنها وتخفى عادة فإنّما الذهول عنه كغفلة المقاتل عن سلاحه ؟

وهل كان ذلك بوحي من الله إليه أنّه يجب له أن لا يلغي هذه السنّة العربيّة الكريمة ، وأنّ ذلك أحد الأحكام الشرعيّة في الباب وأنّه يحرم على وليّ أمر المسلمين أن ينقض عهداً إلّا بنفسه أو بيد أحد من أهل بيته ؟ وما معنى هذا الحكم ؟

أو أنّه حكم أخلاقيّ اضطرّ إلى اعتباره لما أنّ المشركين ماكانوا يقبلون هذا النقض إلّا بأن يسمعوه من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم نفسه أو من أحد من أهل بيته ؟ وقد كانت السيطرة يومئذ له صلى الله عليه وآله وسلم عليهم ، والزمام بيده دونهم ، والا بلاغ إبلاغ .

أو أنّ المؤمنين المخاطبين بقوله : «عاهدتم» وقوله : « و أذان من الله و رسوله إلى الناس » وقوله : « فاقتلوا المشركين » ماكانوا يعتبرون هذا النقض نقضاً دون أن يسمعوه منه صلّى الله عليه وآله أو من واحد من أهل بيته وإن علموا بالنقض إذا سمعوا الآيات من أبي بكر ؟

ولو كان كذلك فكيف قبله واعتبره نقضاً من سمعه من أبي هريرة الّذي كان ينادي به حتّى صحل صوته ؟ وهل كان أبوهريرة أقرب إلى عليّ وأمسّ به من أبي بكر إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فالحقّ أنّ هذه الروايات الحاكية لنداء أبي هريرة و غيره غير سديدة لاينبغي الركون إليها .

قال صاحب المنار في تفسيره : جملة الروايات تدلّ على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم جعل أبابكر أميراً على الحجّ سنة تسع ، وأمره أن يبلّغ المشركين الّذين يحضرون الحجّ أنّهم يمنعون منه بعد ذلك العام ثمّ أردفه بعليّ ليبلّغهم عنه نبذ عهودهم المطلقة وإعطاءهم مهلة أربعة أشهر لينظروا في أمرهم ، و أنّ العهود الموقّتة أجلها نهاية وقتها ، و يتلو عليهم الآيات المتضمّنة لمسألة نبذ العهود و ما يتعلّق بها من أوّل سورة براءة .

وهي أربعون أو ثلاث و ثلاثون آية ، و ما ذكر في بعض الروايات من التردّد بين ثلاثين و أربعين فتعبير بالأعشار مع إلغاء كسرها من زيادة و نقصان .

و ذلك لأنّ من عادة العرب أنّ العهود و نبذها إنّما تكون من عاقدها أو أحد عصبته القريبة ، و أنّ عليّاً كان مختصّاً بذلك مع بقاء إمارة الحجّ لأبي بكر الّذي كان يساعده على ذلك و يأمر بعض الصحابة كأبي هريرة بمساعدته . انتهى .

وقال أيضا : إنّ بعض الشيعة يكبّرون هذه المزيّة لعليّ عليه السلام كعادتهم ويضيفون إليها مالا تصحّ به رواية ، ولا تؤيّده دراية فيستدلّون بها على تفضيله على أبي بكر رضي الله عنهما و كونه أحقّ بالخلافة منه ، ويزعمون أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عزل أبابكر من تبليغ سورة براءة لأنّ جبرئيل أمره بذلك ، و أنّه لا يبلّغ عنه إلّا هو أو رجل منه ولا يخصّون هذا النفي بتبليغ نبذ العهود وما يتعلّق به بل يجعلونه عامّاً لأمر الدّين كلّه .

مع استفاضة الأخبار الصحيحة بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافّة كالجهاد في حمايته والدفاع عنه ، و كونه فريضة لافضيلة فقط ومنها قوله صلّى الله عليه وسلّم في حجّة الوداع على مسمع الاُلوف من الناس : « ألا فليبلّغ الشاهد الغائب » و هو مكرّر في الصحيحين وغيرهما ، وفي بعض الروايات عن ابن عبّاس : فو الّذي نفسي بيده إنّها لوصيّته إلى اُمّته « فليبلّغ الشاهد الغائب » الخ و حديث : « بلّغوا عنّي و لو آية » رواه البخاري في صحيحه والترمذيّ ، ولولا ذلك لما انتشر الإسلام ذلك الانتشار السريع في العالم .

بل زعم بعضهم ـ كما قيل ـ أنّه صلّى الله عليه وسلّم عزل أبابكر من إمارة الحجّ وولّاها عليّاً ، وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عمليّة عرفها الخاصّ و العامّ .

و الحقّ أنّ عليّاً كرّم الله وجهه كان مكلّفاً بتبليغ أمر خاصّ ، و كان في تلك الحجّة تابعاً لأبي بكر في إمارته العامّة في إقامة ركن الإسلام الإجتماعيّ العامّ حتّى كان أبو بكر يعيّن له الوقت الّذي يبلّغ ذلك فيه فيقول : ياعليّ قم فبلّغ رسالة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم كما تقدّم التصريح به في الروايات الصحيحة كما أمر بعض الصحابة بمساعدته على هذا التبليغ كما تقدّم في حديث أبي هريرة في الصحيحين و غيرهما .

ثمّ ساق الكلام و استدلّ بإمارة أبي بكر في تلك الحجّة ـ و ضمّ إليها صلاته موضع النبيّ صلّى الله عليه وآله قبيل وفاته ـ على تقدّمه و أفضليّته من جميع الصحابة على من سواه انتهى .

أمّا قوله : مع استفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافّة إلى آخر

ما قال فيكشف عن أنّه لم يحصّل معنى كلمة الوحي : « لايؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك » حقّ التحصيل ، ولم يفرّق بين قولنا : «لايؤدّي منك إلّا رجل منك »و بين قوله : «لايؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك »فزعم أنّ الكلام بإطلاقه يمنع عن كلّ تبليغ دينيّ يتصدّاه غير النبيّ ﷺ أو رجل منه فدفع ذلك باستفاضة الأخبار بوجوب تبليغ الدين على المسلمين كافّة و قيّد به إطلاق قوله : « لايؤدّي عنك » الخ فجعله خاصّاً بتبليغ نبذ العهد بعد تحويل الحكم الإلهيّ إلى سنّة عربيّة جاهليّة .

وقد ساقه اشتباه معنى الكلمة إلى أن زعم أنّ إبقاء الكلام على إطلاقه منشاؤه الغفلة عن أمر هو كالضروريّ عند عامّة المسلمين أعني وجوب التبليغ العامّ حتّى استدلّ على ذلك بما في الصحيحين وغيرهما من قوله ﷺ : « فليبلّغ الشاهد الغائب » ، وقدعرفت ما هو حقّ المعنى لكلمة الوحي .

وأمّا قوله : «بل زعم بعضهم كما قيل أنّه عزل أبابكر من إمارة الحجّ وولّاها عليّاً وهذا بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عمليّة عرفها العامّ والخاصّ» فليس ذلك زعماً من البعض ولا بهتاناً كما بهته بل رواية روتها الشيعة وقدأوردناها في ضمن الروايات المتقدّمة .

وليس التوغّل في مسألة الإمارة ممّا يهمّنا في تفهّم معنى قوله : « لا يؤدّي عنك إلّا أنت أورجل منك» فإمارة الحاجّ سواء صحّت لأبي بكر أو لعليّ ، دلّت على فضل أولم تدلّ إنّما هي من شعب الولاية الإسلاميّة العامّة الّتي شأنها التصرّف في اُمور المجتمع الإسلاميّ الحيويّة ، وإجراء الأحكام و الشرائع الدينيّة ، ولا حكومة لها على المعارف الإلهيّة ومواد الوحي النازلة من السماء في أمر الدين .

إنّما هي ولاية رسول الله ﷺ ينصب يوماً أبابكر أو عليّاً لإمارة الحاجّ ، ويؤمّر يوماً اُسامة على أبي بكر و عامّة الصحابة في جيشه ، و يولّي يوماً ابن اُمّ مكتوم على المدينة وفيها من هو أفضل منه ، ويولّي هذا مكّة بعد فتحها ، و ذاك اليمن ، و ذلك أمر الصدقات ، وقد استعمل ﷺ أبا دجانة الساعديّ أوسباع بن عرفطة الغفاريّ على ما في سيرة ابن هشام على المدينة عام حجّة الوداع ، وفيها أبوبكر لم يخرج إلى الحجّ على ما

رواه البخاريّ ومسلم وأبوداود والنسائيّ وغيرهم وإنّما تدلّ على إذعانه صلى الله عليه وآله بصلاحيّة من نصبه لأمر لتصدّيه وإدارة رحاه .

وأمّا الوحي السماويّ بما يشتمل عليه من المعارف والشرائع فليس للنبيّ صلى الله عليه وآله ولا لمن دونه صنع فيه ، ولاتأثير فيه ممّا له من الولاية العامّة على اُمور المجتمع الإسلاميّ بإطلاق أو تقييد أو إمضاء أونسخ أوغير ذلك ، ولا تحكم عليه سنّة قوميّة أو عادة جارية حتّى توجب تطبيقه على ما يوافقها أو قيام العصبة مقام الإنسان فيما يهمّه من أمر .

والخلط بين البابين يوجب نزول المعارف الإلهيّة من أوج علوّها و كرامتها إلى حضيض الأفكار الاجتماعيّة الّتي لا حكومة فيها إلّا للرسوم والعادات والاصطلاحات،فيعود الإنسان يفسّر حقائق المعارف بما يسعه الأفكار العامّيّة و يستعظم ما استعظمه المجتمع دون ماعظّمه الله ، و يستصغر ما استصغره الناس حتّى يقول القائل في معنى كلمة الوحي إنّه عادة عربيّة محترمة .

وأنت إذا تأمّلت هذه القصّة ـ أخذ آيات براءة من أبي بكر و إعطاءها عليّاً على ما تقصّها الروايات ـ وجدت فيهامن مساهلة الرواة و توسّعهم في حفظ القصّة بما لها من الخصوصيّات ـ إن لم يستند إلى غرض آخر ـ أمراً عجيباً ففي بعضها ـ و هو الأكثر ـ أنّه صلى الله عليه وآله بعث أبابكر بالآيات ثمّ بعث عليّاً وأمره أن يأخذها منه ويتلوها على الناس فرجع أبوبكر الخ ، و في بعضها أنّه بعث أبابكر بإمارة الحجّ ثمّ بعث عليّاً بعده بآيات براءة ، وفي بعضها : أنّ أبابكر أمره بالتبليغ وأمر بعض الصحابة أن يشاركه في النداء حتّى آل الأمر إلى مثل مارواه الطبريّ وغيره عن مجاهد في قوله تعالى : « براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين » إلى أهل العهد خزاعة ومدلج ومن كان له عهد وغيرهم . أقبل رسول الله صلّى الله عليه وسلّم من تبوك حين فرغ منها فأراد الحجّ ثمّ قال: إنّه يحضر البيت مشركون يطوفون عراة فلا اُحبّ أن أحجّ حتّى لايكون ذلك فأرسل أبابكر وعليّاً فطافا في الناس بذي المجاز وبأمكنتهم الّتي كانوا يبيعون بها و بالموسم كلّه فآذنوا أصحاب العهد أن يأمنوا أربعة أشهر وهي الأشهر الحرم المنسلخات المتواليات:عشرون

من آخر ذي الحجّة إلى عشر تخلو من ربيع الأوّل [١] ثمّ عهد لهم و آذن الناس كلّهم بالقتال إلى أن يموتوا .

وإذا كان هذا هو الحال فما معنى قوله : « بهتان صريح مخالف لجميع الروايات في مسألة عمليّة عرفها العامّ و الخاصّ » ؟ فإن كان يعني : عرفها العامّ والخاصّ في عصر النبيّ ﷺ ممّن شاهد الأمر أو سمع ذلك ممّن شاهده و وصفه فما ذا ينفعنا ذلك ؟

وإن كان يعني : أنّ العامّ و الخاصّ ممّن يلي عهد النبيّ ﷺ أو يلي من يليه عرفا ذلك ولم يشكّ أحد في ذلك فهذا حال الروايات المنقولة عنهم لا يجتمع على كلمة .

منها ما يحكي أنّ عليّاً اختصّ بتأدية براءة و اُخرى تدلّ على أنّ أبا بكر شاركه فيه ، واُخرى تدلّ على أنّ أباهريرة شاركه في التأدية ورجال آخرون لم يسمّوا في الروايات .

ومنها ما يدلّ على أنّ الآيات كانت تسع آيات ، واُخرى عشراً ، و اُخرى ستّ عشرة ، و اُخرى ثلاثين ، واُخرى ثلاثاً وثلاثين ، واُخرى سبعاً وثلاثين ، واُخرى أربعين ، واُخرى سورة براءة .

و منها ما يدلّ على أنّ أبابكر ذهب لوجهه أميراً على الحاجّ ، و اُخرى على أنّه رجع حتّى أوّله بعضهم كابن كثير أنّه رجع بعد إتمام الحجّ ، وآخرون أنّه رجع ليسأل النبيّ ﷺ عن سبب عزله ، و في رواية أنس الآتية أنّه صلّى الله عليه وآله بعث أبابكر ببراءة ثمّ دعاه فأخذها منه .

و منها ما يدلّ على أنّ الحجّة وقعت في ذي الحجّة وأنّ يوم الحجّ الأكبر تمام أيّام تلك الحجّة أو يوم عرفة أو يوم النحر أو اليوم التالي ليوم النحر أو غير ذلك و اُخرى أنّ أبا بكر حجّ في تلك السنة في ذي القعدة .

و منها ما يدلّ على أنّ أشهر السياحة تأخذ من شوّال ، و اُخرى من ذي القعدة ، و اُخرى من عاشر ذي الحجّة ، و اُخرى من الحادي عشر من ذي الحجّة و غير ذلك .

و منها ما يدلّ على أنّ الأشهر الحرم هي ذو القعدة و ذو الحجّة و المحرّم من

---

(١) كذا.

تلك السنة ، و اُخرى على أنّها أشهر السياحة تبتدىء من يوم التبليغ أو يوم النزول .

فهذا حال اختلاف الروايات ، و مع ذلك كيف يستقيم دعوى أنّه أمر عرفه العامّ و الخاصّ ، و بعض المحتملات السابقة و إن كان قولاً من مفسّري السلف إلّا أنّ المفسّرين يعاملون أقوالهم معاملة الروايات الموقوفة .

و أمّا قوله : و الحقّ أنّ عليّاً كان مكلّفاً بتبليغ أمر خاصّ وكان في تلك الحجّة تابعاً لأبي بكر في إمارته إلى آخر ما قال فلاريب أنّ الّذي بعث به النبيّ ﷺ عليّاً من الأحكام كان أمراً خاصّاً و هو تلاوة آيات براءة و سائر ما يلحق بها من الاُمور الأربعة المتقدّمة غير أنّ الكلام في أنّ كلمة الوحي : « لا يؤدّي عنك إلّا أنت أو رجل منك » لا تختصّ في دلالتها بتأدية آيات براءة على ما تقدّم بيانه فلا ينبغي الخلط بين ما يدلّ عليه الكلمة و بين ما اُمر به عليّ في خصوص تلك السفرة .

و أمّا قوله : و كان في تلك الحجّة تابعاً الخ فأمر استفاده من كلام أبي هريرة و ما يشبهه ، و قد عرفت الكلام فيه .

و في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي شيبة و أحمد و الترمذيّ و حسّنه و أبو الشيخ و ابن مردويه عن أنس رضي الله عنه قال : بعث النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ببراءة مع أبي بكر رضي الله عنه ثمّ دعاه فقال : لاينبغي لأحد أن يبلّغ هذا إلّا رجلٌ من أهلي فدعا عليّاً فأعطاه إيّاه .

أقول : ذكر صاحب المنار في بعض كلامه : أنّ قوله ﷺ : « أو رجل منّي » في رواية السدّي قد فسّرتها الروايات الاُخرى عند الطبريّ و غيره بقوله صلّى الله عليه وسلّم : « أو رجل من أهل بيتي » و هذا النصّ الصريح يبطل تأويل كلمة « منّي » بأنّ معناها أنّ نفس عليٍ كنفس رسول الله صلّى الله عليه وسلّم و أنّه مثله و أنّه أفضل من كلّ أصحابه ـ انتهى ـ .

والّذي أشار إليه من الروايات هو ما رواه قبلاً بقوله : و أخرج أحمد بسند حسن عن أنس أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بعث ببراءة مع أبي بكر فلمّا بلغ ذا الحليفة قال : لايبلغها إلّا أنا أو رجل من أهل بيتي فبعث بها مع عليّ .

و هذه بعينها ـ على مالا يخفى ـ هي الرواية السابقة الّتي أوردناها عن أنس ، و قد وقع فيها « أو رجل من أهلي » و إن اختلف لفظا الروايتين بما عملت فيهما يد النقل بالمعنى .

و أوّل ما في كلامه : أنّ اللفظ : « أو رجل منّي » لم يقع في رواية واحدة موقوفة هي رواية السدّي الّتي استضعفها قبيل ذلك بل الأصل في ذلك كلمة الوحي الّتي أثبتتها معظم الروايات الصحيحة على بلوغ كثرتها ، والروايات الاُخر المشتملة على قوله : « من أهل بيتي » وهو يستكثرها إنّما هي رواية أنس ـ على ماعثرنا عليها ـ وقد وقع في بعض ألفاظها قوله « من أهلي » مكان « من أهل بيتي » .

والثاني : أنّ الرواية ـ كما اتّضح لك ـ منقولة بالمعنى ، و مع ذلك لايصلح ما وقع فيها من بعض الألفاظ لتفسير ما اتّفقت عليه معظم الروايات الصحيحة الواردة من طرق الفريقين من لفظ الوحي المنقول فيها .

على أنّ قوله : « من أهل بيتي » في هذه لوصلح لتفسير ماوقع في سائر الروايات من لفظ « رجل منك » أو « رجل منّي » لكان الواقع في رواية أبي سعيد الخدريّ السابقة من قوله صلى الله عليه وآله : « ياعليّ إنّه لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أوأنت » مفسّراً لما في رواية أنس : « إلّا رجل من أهل بيتي » أو « إلّا رجل من أهلي » وما في سائر الروايات : « إلّا رجل منك » أو « إلّا رجل منّي » .

فيعود هذه الألفاظ كناية عن شخص عليّ عليه السلام ، بل الكناية بما لها من المعنى مشيرة إلى أنّه من نفس النبيّ صلى الله عليه وآله ، و من أهله و من أهل بيته جميعاً ، و هذا عين ما فرّ منه وزيادة .

والثالث : أنّ استفادة كونه عليه السلام بمنزلة نفسه صلى الله عليه وآله ليست بمستندة إلى مجرّد قوله صلى الله عليه وآله : « رجل منّي » كما حسبه فإنّ مجرّد قول القائل : فلان منّي لايدلّ على تنزيله منزلته في جميع شؤون وجوده و مما ثلته إيّاه ، وإنّمايدلّ على نوع من الاتّصال والاتّباع كمافي قول إبراهيم عليه السلام : « فمن تبعني فإنّه منّي » إبراهيم : ٣٦ إلّا بنوع من القرينة الدالّة على عناية كلاميّة كقوله تعالى : « ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم » .

بل إنّما استفيد ذلك من قوله : « رجل منّي » أو « رجل منك » بمعونة قوله : « لا يؤدّي عنك إلّا أنت » على البيان الّذي تقدّم وعلى هذا فلو كان هناك قوله : «لايؤدّي عنّي إلّا رجل من أهلي أو رجل من أهل بيتي » لاستفيد منه عين ما استفيد من قوله : « لا يؤدّي عنك إلا أنت أورجل منك » وقوله : « لا يؤدّي عنّي إلّا أنا أو رجل منّي » مضافاً (١) إلى أنّه صلى الله عليه وآله عدّه منه في خطابه أبابكر وهوأيضاً منه بالاتّباع .

والرابع : أنّه أهمل في البحث الروايات الصحيحة المستفيضة أوالمتواترة الّتي تدلّ على أنّ أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله هم عليّ وفاطمة والحسنان على ماتقدّم في أخبار آية المباهلة وسيجيىء معظمها في أخبار آية التطهير إن شاء الله تعالى .

ولا رجل في أهل بيته صلى الله عليه وآله إلّا عليّ عليه السلام فيؤول الأمر إلى كون اللفظ كناية عن عليّ عليه السلام فيرجع إلى ماتقدّم من الوجه .

وأمّا مااحتمله من المعنى فهو أنّ المراد بأهل بيته عامّة أقربائه من بني هاشم أو بنوهاشم ونساؤه فينزّل اللفظ منزلة عاديّة من غير أن يحمل شيئاً من المزيّة ، والمعنى لا يؤدّي نبذ العهد عنّي إلّا رجل من بني هاشم ، والقوم يرجعون غالباً في مفاهيم أمثال هذه الألفاظ إلى مايعطيه العرف اللغويّ في ذلك من غير توجّه إلى ما اعتبره الشرع ، وقد تقدّم نظير ذلك في معنى الابن والبنت حيث حسبوا أنّ كون ابن البنت ابناً للرجل وعدمه مرجعه إلى بحث لغويّ يعيّن كون الابن يصدق بحسب الوضع اللغويّ على ابن البنت مثلاً أولا يصدق عليه ، وجميع ذلك يرجع إلى الخلط بين الأبحاث اللفظيّة و الأبحاث المعنويّة ، و كذا الخلط بين الأنظار الاجتماعيّة والأنظار الدينيّة السماويّة على ماتقدّمت الإشارة إليه .

وأعجب من الجميع قوله : وهذا النصّ الصريح يبطل تأويل كلمة « منّي » فإنّ مراده بدلالة السياق أنّ كلمة « من أهل بيتي » نصّ صريح في أنّ المراد برجل منّي

(١) وفى رواية الحاكم الاتية عن مصعب بن عبدالرحمان عن أبيه عنه صلى الله عليه وآله فيما قاله لاهل الطائف : « والذى نفسى بيده لتقيمن الصلاة و لتؤتن الزكاة أولابعثن عليكم رجلا منى أو كنفسى فرأى الناس أنه يعنى أبابكر أوعمرفأخذ بيدعلى فقال : «هذا » دلالةعلى هذا الفهم من جهة مافيها من الترديد .

رجل من بني هاشم ، ولا ندري أيّ نصوصيّة أوصراحة لكلمة « أهل البيت » في بني هاشم بعد ماتكاثرت الروايات أنّ أهل بيت النبيّ صلى الله عليه وآله هم عليّ وفاطمة والحسنان عليهم السلام ثمّ في قوله : « أهل بيتي » بمعنى بني هاشم أنّ المراد بكلمة « منّي » هو ذلك!!

وفي تفسير العيّاشيّ عن زرارة وحمران ومحمّد بن مسلم عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام «فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » قال : عشرين من ذي الحجّة والمحرّم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشراً من ربيع الآخر .

أقول : وقد استفاضت الروايات من طرق الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّ المراد من الأربعة الأشهر هوذلك روى ذلك الكلينيّ والصدوق والعيّاشيّ والقمّيّ وغيرهم في كتبهم وروي ذلك من طرق أهل السنّة ، وهناك روايات أُخرى من طرقهم في غيرهذا المعنى حتّى وقع في بعضها أنّ أبابكر حجّ بالناس عام تسع في شهر ذي القعدة ، وهي غير متأيّدة ولذلك أغمضنا عنها .

وفي تفسير العيّاشيّ عن حكيم بن جبير عن عليّ بن الحسين عليه السلام في قوله تعالى : « وأذان من الله ورسوله » قال : الأذان أمير المؤمنين عليه السلام .

أقول : و روي هذا المعنى أيضاً عن حريز عن أبي عبدالله عليه السلام ، و عن جابر عن جعفر بن محمّد وأبي جعفر عليهما السلام ، و رواه القمّيّ عن أبيه عن فضالة عن أبان بن عثمان عن حكيم بن جبير عن عليّ بن الحسين عليه السلام قال : وفي حديث آخر قال : كنت أنا الأذان في الناس ، ورواه الصدوق أيضاً بإسناده عن حكيم عنه عليه السلام ، و رواه في الدرّ المنثور عن ابن أبي حاتم عن حكيم بن حميد عن عليّ بن الحسين عليه السلام ، و قال في تفسير البرهان : قال السدّيّ و أبو مالك و ابن عبّاس و زين العابدين : الأذان هو عليّ بن أبي طالب فأُدّيّ به .

و في تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن الفضيل بن عياض عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن الحجّ الأكبر فقال : عندك فيه شيء ؟ فقلت : نعم كان ابن عبّاس يقول : الحجّ الأكبر يوم عرفة يعني أنّه من أدرك يوم عرفة إلى طلوع الشمس من يوم النحر فقد أدرك الحجّ ، ومن فاته ذلك فاته الحجّ فجعل ليلة عرفة لما قبلها ولما بعدها ، والدليل

على ذلك أنّه من أدرك ليلة النحر إلى طلوع الفجر فقد أدرك الحجّ و أجزى عنه من عرفة .

فقال أبوعبدالله عليه السلام : قال أميرالمؤمنين عليه السلام الحجّ الأكبر يوم النحر و احتجّ بقول الله عزّ و جلّ : « فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » فهي عشرون من ذي الحجّة و المحرّم وصفر وشهر ربيع الأوّل وعشر من شهر ربيع الآخر ، ولوكان الحجّ الأكبر يوم عرفة لكان السيح أربعة أشهر ويوماً ، واحتجّ بقوله عزّ وجلّ : « وأذان من الله و رسوله إلى الناس يوم الحجّ الأكبر » وكنت أنا الأذان في الناس .

قلت : فما معنى هذه اللفظة : الحجّ الأكبر ؟ فقال : إنّما سمّي الأكبر لأنّها كانت سنة حجّ فيها المسلمون والمشركون ، ولم يحجّ المشركون بعدتلك السنة .

وفيه عنه بإسناده عن معاوية بن عمّار قال : سألت أباعبدالله عليه السلام عن يوم الحجّ الأكبر فقال : يوم النحر والأصغر العمرة .

أقول : وفي الرواية مضافاً إلى تفسير اليوم بيوم النحر إشارة إلى وجه تسمية الحجّ بالأكبر ، وقد أطبقت الروايات عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام إلّا ماشذّ على أنّ المراد بيوم الحجّ الأكبر في الآية هو يوم الأضحى عاشر ذي الحجّة وهو يوم النحر ، و رووا ذلك عن عليّ عليه السلام .

وروى هذه الرواية الكليني في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن أبيه عن ابن أبي عمير عن معاوية بن عمّار عن أبي عبدالله عليه السلام ، وروى ذلك ايضاً بإسناده عن ذريح عنه عليه السلام ، و كذا الصدوق بإسناده إلى ذريح عنه عليه السلام ، ورواه العيّاشي عن عبدالرحمان وابن اُذينة و الفضيل بن عياض عنه عليه السلام .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن أبي أوفى عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال يوم الأضحى : هذا يوم الحجّ الأكبر .

وفيه أيضاً أخرج البخاريّ تعليقاً وأبو داود وابن ماجه و ابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي حاتم و أبو الشيخ وابن مردويه و أبو نعيم في الحلية عن ابن عمر أنّ رسول الله صلّى الله عليه و سلّم وقف يوم النحر بين الجمرات في الحجّة الّتي حجّ فقال : أيّ يوم هذا ؟

قالوا : يوم النحر قال : هذا يوم الحجّ الأكبر .

أقول : وروي ذلك بطرق مختلفة عن عليّ عليه السلام و ابن عبّاس و مغيرة بن شعبة و أبي جحيفة وعبدالله بن أبي أوفى ، وقد روي بطرق مختلفة اُخرى عن النبيّ صلّى الله عليه و سلّم أنّه يوم عرفة ، و كذا روي ذلك عن عليّ وابن عبّاس وابن الزبير ، وروي عن سعيد ابن المسيّب أنّه اليوم التالي ليوم النحر ، وروي أنّه أيّام الحجّ كلّها ، وروي أنّه الحجّ في العام الّذي حجّ فيها أبوبكر ، و هذا الوجه الأخير لا يأبى الانطباق على ما تقدّم من الحديث عن الصادق عليه السلام أنّه سمّي الحجّ الأكبر لما حجّ في تلك السنة المسلمون و المشركون جميعاً .

وفي تفسير العيّاشيّ ، عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله : «فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » قال : هي يوم النحر إلى عشر مضين من شهر ربيع الآخر .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة » أخرج الحاكم وصحّحه عن مصعب بن عبدالرحمان عن أبيه رضي الله عنه قال : افتتح رسول الله صلّى الله عليه وسلّم مكّة ثمّ انصرف إلى الطائف فحاصرهم ثمانية أو سبعة ثمّ ارتحل غدوة و روحة ثمّ نزل ثمّ هجر .

ثمّ قال : أيّها الناس إنّي لكم فرط ، و إنّي اُوصيكم بعترتي خيراً موعدكم الحوض ، والّذي نفسي بيده لتقيمنّ الصلاة ولتؤتنّ الزكاة أو لأبعثنّ عليكم رجلاً منّي أو كنفسي فليضربنّ أعناق مقاتلهم وليسبينّ ذراريهم . فرأى الناس أنّه يعني أبابكر أو عمر رضي الله عنهما فأخذ بيد عليّ رضي الله عنه فقال : هذا .

أقول : يعني صلّى الله عليه وآله به الكفر .

و في تفسير العيّاشيّ في حديث جابر عن أبي جعفر عليه السلام « فإن تابوا » يعني فإن آمنوا فإخوانكم في الدين .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « و إن أحد من المشركين استجارك فأجره » الآية قال : قال : إقرء عليه وعرّفه ثمّ لا تتعرّض له حتّى ترجع إلى مأمنه .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب عن تفسير القشيري: إنّ رجلاً قال لعليّ يابن أبي طالب فمن أراد منّا أن يلقى رسول الله في بعض الأمر من بعد انقضاء الأربعة فليس له عهد ؟ قال عليّ : بلى لأنّ الله قال : « و إن أحد من المشركين استجارك فأجره» الآية .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم » الآية أخرج ابن أبي شيبة وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن حذيفة رضي الله عنه أنّهم ذكروا عنده هذه الآية فقال : ماقوتل أهل هذه الآية بعد .

و فيه أخرج ابن أبي شيبة و البخاريّ و ابن مردويه عن زيد بن وهب في قوله : « فقاتلوا أئمّة الكفر » قال : كنّا عند حذيفة رضي الله عنه فقال : مابقي من أصحاب هذه الآية إلّا ثلاثة ولا من المنافقين إلّا أربعة . فقال أعرابيّ : إنّكم أصحاب محمّد تخبروننا بأُمور لاندري ماهي ؟ فمابال هؤلاء الّذين يبقرون بيوتنا ويسرقون أعلاقنا؟ قال : اُولئك الفسّاق، أجل لم يبق منهم إلّا أربعة أحدهم شيخ كبير لو شرب الماء البارد لما وجد برده .

وفي قرب الإسناد للحميريّ: حدّثني عبدالحميد وعبدالصمد بن محمّد جميعاً عن حنّان ابن سدير قال : سمعت أباعبدالله عليه السلام يقول : دخل عليّ اُناس من أهل البصرة فسألوني عن طلحة والزبير فقلت لهم : كانوا [۱] من أئمّة الكفر إنّ عليّاً يوم البصرة لمّا صفّ الخيل قال لأصحابه لاتعجلوا على القوم حتّى أعذر فيما بيني و بين الله وبينهم .

فقام إليهم فقال : يا أهل البصرة هل تجدون عليّ جوراً في حكم ؟ قالوا : لا . قال : فحيفاً في قسم ؟ قالوا : لا . قال : فرغبة في دنيا أخذتها لي و لأهل بيتي دونكم فنقمتم عليّ فنكثتم بيعتي ؟ قالوا : لا. قال فأقمت فيكم الحدود وعطّلتها في غيركم ؟ قالوا: لا . قال : فما بال بيعتي تنكث و بيعة غيري لا تنكث إنّي ضربت الأمر أنفه و عينه فلم أجد إلّا الكفر أوالسيف .

ثمّ ثنّى إلى أصحابه فقال إنّ الله تبارك وتعالى يقول في كتابه :« و إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون »

(۱) كانا ظ

فقال أمير المؤمنين عليه السلام : و الّذي فلق الحبّة و برء النسمة و اصطفى محمّداً بالنبوّة إنّهم لأصحاب هذه الآية وما قوتلوا مذنزلت .

أقول : ورواه العيّاشيّ عن حنّان بن سدير عنه عليه السلام .

وفي أمالي المفيد بإسناده عن أبي عثمان مؤذّن بني قصيّ قال : سمعت عليّ بن أبي طالب عليه السلام حين خرج طلحة والزبير على قتاله : عذرني الله من طلحة والزبير ، بايعاني طائعين غير مكرهين ثمّ نكثا بيعتي من غير حدث أحدثته ثمّ تلا هذه الآية : « و إن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم و طعنوا في دينكم فقاتلوا أئمّة الكفر إنّهم لا أيمان لهم لعلّهم ينتهون » .

أقول : ورواه العيّاشيّ في تفسيره عن أبي عثمان المؤذّن وأبي الطفيل و الحسن البصريّ مثله ، و رواه الشيخ في أماليه عن أبي عثمان المؤذّن . وفي حديثه قال بكير : فسألت عنها أباجعفر عليه السلام فقال : صدق الشيخ هكذا قال عليّ . هكذا كان .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن اسحاق والبيهقيّ في الدلائل عن مروان بن الحكم و المسوّر بن مخرمة قالا : كان في صلح رسول الله صلى الله عليه وآله يوم الحديبيّة بينه وبين قريش أنّ من شاء أن يدخل في عقد النبيّ صلى الله عليه وآله وعهده دخل فيه ، ومن شاء أن يدخل في عهد قريش وعقدهم دخل فيه فتواثبت خزاعة فقالوا : ندخل في عهد محمّد و عقده ، و تواثبت بنو بكر فقالوا : ندخل في عقد قريش وعهدهم فمكثوا في تلك الهدنة نحو السبعة عشر أو الثمانية عشر شهراً .

ثمّ إنّ بني بكر الّذين كانوا دخلوا في عقد قريش و عهدهم و ثبوا على خزاعة الّذين دخلوا في عقد رسول الله صلى الله عليه وآله و عهده ليلاً بماء لهم يقال له : الوتير قريب من مكّة فقالت قريش ما يعلم بنا محمّد وهذا الليل وما يرانا أحد فأعانوهم عليهم بالكراع والسلاح فقاتلوهم معهم للضغن على رسول الله صلى الله عليه وآله .

وركب عمرو بن سالم عند ما كان من أمر خزاعة وبني بكر بالوتير حتّى قدم المدينة على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأبيات أنشده إيّاها :

يارب (١) إنّي ناشدٌ محمّدا * حلف أبينا و أبيه الأتلدا
قد كنتم ولدا و كنّا والدا * ثمّت أسلمنا فلم ننزع يدا
فانصر هداك الله نصراً أعتدا * و ادع عباد الله يأتوا مددا
فيهم رسول الله قد تجرّدا * إن سيم خسفاً وجهه تربّدا
في فيلق كالبحر يجري مزبدا * إنّ قريشاً أخلفوك الموعدا
و نقضوا ميثاقك المؤكّدا * و جعلوا لي في كداء رُصّدا
وزعموا أن لست أدعوا أحدا * وهم أذلّ و أقلّ عددا
هم بيّتونا بالوتير هجّدا * و قتّلونا رُكّعا و سجّدا (٢)

فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : نصرت يا عمرو بن سالم فما برح حتّى مرّت غمامة في السماء فقال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : إنّ هذه السحابة لتشهد (٣) بنصر بني كعب ، وأمر رسول الله صلّى الله عليه وآله الناس بالجهاد و كتمهم مخرجه ، و سأل الله أن يعمي على قريش خبره حتّى يبغتهم في بلادهم .

أقول : أورد الرواية في الدرّ المنثور بعد ما روى بطرق عن مجاهد و عكرمة أنّ قصّة نقض قريش عهد الحديبيّة وإعانتهم بني بكر على خزاعة حلفاء رسول الله صلّى الله عليه وآله كان هو السبب لنزول قوله تعالى : « ألا تقاتلون قوماً ـ إلى قوله ـ ويشف صدور قوم مؤمنين» وهم خزاعة .

ولو كان الأمر على ما ذكروا كانت الآية : « ألا تقاتلون قوماً نكثوا أيمانهم » ـ إلى تمام ثلاث آيات بل أربع ـ على ما يعطيه السياق ممّا نزل قبل فتح مكّة فتكون نازلة قبل آيات براءة لامحالة .

لكن القصّة الّتي رواها ابن اسحاق و البيهقيّ على اعتبارها لمكان المسور بن مخرمة لاتصرّح بنزول الآيات في ذلك ، ومارواها مجاهد وعكرمة لا اعتماد عليه لمكان الوقف والانقطاع ، وسياق الآيات لا يأبى نزولها مع ما تقدّم عليها واتّصالها بها على مالايخفى.

(١) فى الدر المنثور : لاهم .
(٢) الابيات منقولة على مايطابق نسخة السيرة لابن هشام لكثرة الغلط فى نسخة الدرالمنثور.
(٣) لتستهل . نسخة سيرة النبى .

و الّذي ذكر فيها من قوله : « و نكثوا أيمانهم و همّوا بإخراج الرسول وهم بدؤوكم أوّل مرّة » وإن كان يشير إلى صفات قريش الخاصّة بهم لكن من الجائز أن تكون الآية مشيرة إلى حلفاء قريش وجيرانهم ممّن لم يؤمنوا بعد فتح مكّة وهم لاتّحادهم مع قريش واتّصالهم بهم وصفوا بما يوصف به قريش بالأصالة .

واعلم أنّ هناك روايات متفرّقة من طرق أهل البيت عليهم السلام تطبّق الآيات على ظهور المهديّ عليه السلام ، وهي من الجري .

﴿ كلام في معنى العهد وأقسامه وأحكامه ﴾

قدّمنا في أوائل الجزء السادس من الكتاب كلاماً في معنى العقد والعهد ونستأنف البيان ههنا في معنى ما تقدّم و ما يستتبعه من الأقسام و الأحكام بتقرير آخر في فصول :

١ـ قد لاح لك من تضاعيف الأبحاث المتقدّمة في هذا الكتاب أنّ الإنسان في مسير حياته لا يزال يصوّر أعماله وما يتعلّق به أعماله من المادّة تصوّر الأمور الكونيّة ويمثّلها بها ويجري بينها أحكام الأمور الكونيّة وآثارها من القوانين العامّة الجارية في الكون بحسب ما يناسب أغراضه الحيويّة كما أنّه يأخذ مثلاً أصواتاً متفرّقة هي الزاي و الياء والدال ، و يؤلّفها بشكل مخصوص و يعمل لفظ « زيد » ثمّ يفترض أنّه زيد الإنسان الخارجيّ فيسمّيه به ثمّ كلّما أراد أن يحضر زيداً في ذهن مخاطبه ألقى إليه لفظ «زيد» فكان ممثّلاً لعين زيد عنده ، وحصل بذلك غرضه .

و إذا أراد أن يدير أمراً لا يدور إلّا بعمل عدّة مؤتلفة من الناس اختار جماعة وافترضهم واحداً كالإنسان الواحد ، وفرض واحداً منهم للباقين كما يفرض الرأس لبدن الإنسان ويسمّيه رئيساً ، وفرض كلّاً من الباقين كما يفرض العضو من البدن ذي الأعضاء و يسمّيه عضواً ثمّ يرتّب على الرأس أحكام الرأس الخارجيّ ، و على العضو آثار العضو الخارجيّ وعلى هذا القياس .

و إلى هذا يؤول جميع أفكار الإنسان الاجتماعيّة بلا واسطة أو بواسطة أو وسائط من التصوّرات والتصديقات إذا حلّلت تحليلاً صحيحاً كما تؤول إليه أنظاره الفرديّه فيما يرتبط بأعماله وأفعاله .

الإنسان شديد الاهتمام بعقد العقود و تمثيل العهود وما يرتبط بها من الحلف واليمين والبيعة ونحو ذلك ، والعامل الأوّلي في ذلك أنّ الإنسان لا همّ له إلّا التحفّظ على حياته والوصول إلى مزاياها والتمتّع بالسعادة الّتي تستعقبها لو جرت على حقيقة مجراها .

فأيّ بغية من مبتغياته وجدها و سلّط عليها أخذ في التمتّع منها بما يناسبها من التمتّع كالأكل والشرب وغيرهما بما جهّز به من أدوات التمتّع ، ودفع كلّ ما يمنعه من التمتّع لو عرض هناك مانع عارض و رأى أنّه إنّما وفّق لذلك في ضوء ما اُوتيه من السلطة :

وقد اُوتي الإنسان سلطة الفكر وبذلك يدبّر أمرحياته ويصلح شأن معاشه فيعمل ليومه ويمهّد لغده ، و أعماله الّتي هي تصرّفات منه في المادّة أو عائدة إلى ذلك في عين أنّها جميعاً متوقّفة على انبساط سلطته على الفعل وإحاطته بكلّ ما يتعلّق به عمله،مختلفة في أنّ بعضها يتمّ بالسلطة المقصورة على الفعل مقدار زمانه كمن صادف غذاء وهو جوعان فتناوله فأكله ، فإنّه لا يتوقّف على سلطة أوسع من زمان العمل ، و لا على تمهيد و تقدمة .

و بعضها ـ وهو جلّ الأعمال الإنسانيّة الاجتماعيّة ـ يتوقّف على سلطة وسيعة تنبسط على العمل في وقته وعلى زمان قبله فقط أوعلى زمان قبله و بعده،لحاجته إلى مقدّمات يمهّدها له ، وتدبير سابق يقدّمه لوجوده،فما كلّ عمل يعمله الإنسان بصدفة،بل جلّ الاُمور الحيويّة من شأنها أن يتهيّأ الإنسان له قبل أوانه .

ومن التهيّؤ له أن يتهيّأ لجمع أسبابه ونظم الوسائل الّتي يتوسّل بها إليه وأن يتهيّأ لرفع موانعه الّتي من شأنها أن تزاحمه في وجوده و عند حصوله ، فالإنسان لا يوفّق

لعمل ولا ينجح في مسعاه إلاّ إذا كان في أمن من أن تفوته الأسباب أو تعارضه الموانع والمزاحمات .

والتنبّه لهذه الحقيقة هو الّذي بعث الإنسان إلى أن يأخذ أمناً من رقبائه في الحياة : أن يعينوه فيما يحتاج من الأمور إلى معين مشارك ، أو أن لا يمانعوه من العمل فيما يتوقّف إلى ارتفاع الموانع وزوالها .

فالإنسان وهو يريد أن يتّخذ لباساً يلبسه من مادّة بسيطة كالقطن أو الصوف ، والأمر متوقّف على أعمال كثيرة يعملها الغزّال والنسّاج والخيّاط ومن يصنع لهم أدوات الغزل والنسج و الخياطة ، لا يتمّ له ما يريده من اتّخاذ اللّباس ولا ينجح سعيه إلّا إذا كان في أمن من ناحية هؤلاء الرقباء : أن يعملوا على ما يريده ولا يخلّوه وحده فيخيب سعيه ويخسر في عمله .

و كذا الإنسان القاطن في أرض أو الساكن في دار لا يتمّ له سكناه إلّا مع الأمن من ممانعة الناس ومزاحمتهم له في سكناه والتصرّف فيه بما يصلح به لذلك .

وهذا هو الّذي هدى الإنسان إلى اعتبار العقد و إبرام العهد ، فهو يأخذ ما يريده من العمل ويربطه بما يعينه عليه من عمل غيره ويعقدهما: يمثّل به عقد الحبال الّذي يفيد اتّصال بعض أجزائها ببعض وعدم تخلّف بعضها عن بعض ، ومثله العهد الّذي يعهده إليه غيره أن يساعده في ما يريده من الأمر أو أن لا يمانعه في ذلك .

وإلى ذلك يؤول أمر عامّة العقود لعقد النكاح وعقد البيع والشرى وعقد الإجارة ، ويصدق عليها العهد بمعناها العامّ وهو أن يعطي الإنسان لغيره قولاً أو كتاباً أن يعينه على كذا أو أن لا يمنعه من كذا إلى أجل مضروب أولا إلى أجل .

والكلام في المقام في العهد الّذي لم يختصّ باسم خاصّ كعقد البيع والنكاح و غيرهما من عقود المعاملات فهي خارجة من غرضنا ولها في المجتمعات الإنسانيّة أحكام خاصّة وآثار و خواصّ مخصوصة بل الكلام في العهد بمعنى ما يعقده الإنسان لغيره من الإعانة أو عدم الممانعة في متفرّقات المقاصد الإجتماعيّة ، وما يجعله لذلك من الآثار لمن يعاهد غيره أن يعطيه كلّ سنة كذا مالاً ليستعين به على حوائجه ، ويأخذ منه كذا مالاً

أو نفعاً ، أو يعاهده أن لا يزاحمه في عمله أو لا يمانعه في مسيره إلى أجل كذا أو لا إلى أجل ، وهو نوع إحكام و إبرام لا ينتقض إلّا بنقض أحد الطرفين أو بنقضهما معاً .

وربّما زيد على إحكام العهد بالحلف وهو أن يقيّد المعاهد ما يعطيه من العهد و يربطه بأمر عظيم شأنه يقدّسه ويحترمه كأنّه يجعل ما له من الحرمة والعزّة رهناً يرهن به عهده يمثّل به أنّه لو نقضه فقد أذهب حرمته يقول المعاهد : والله لا أخوننّك ، و لعمري لأساعدنّك ، وأُقسم لأنصرنّك ، يمثّل به أنّه لو أخلف وعده ونقض عهده فقد أبطل حرمة ربّه ، أو حرمة عمره أو حرمة قسمه فلا مروّة له .

و ربّما اُبرم العهد والميثاق بالبيعة والصفقة : يضع المعاهد يده في يد معاهده يمثّل به أنّه أعطاه يده الّتي بها يفعل ما يفعل فلا يفعل ما يكره معاهده لأنّ يده قبضة يده .

٢ ـ العهود والمواثيق كما تمسّها حياة الإنسان الّذي هو فرد المجتمع كذلك تمسّها حياة المجتمع فليس المجتمع إلّا المجتمع من أفراد الإنسان ، حياته مجموع حياة أجزائه ، وأعماله الحيويّة مجموع أعمال أجزائه وله من الخير والشرّ والنفع والضرّ والصحّة والسقم والنشوء والرشد والاستقامة والانحراف والسعادة والشقاوة والبقاء والزوال مجموع ما لأجزائه من ذلك .

فالمجتمع إنسان كبير لها من مقاصد الحياة ما للإنسان الصغير ، ونسبة المجتمع إلى المجتمع تقرب من نسبة الإنسان الفرد إلى الإنسان الفرد فهو يحتاج في ركوب مقاصده وإتيان أعماله من الأمن والسلامة إلى مثل ما يحتاج إليه الإنسان الفرد بل الحاجة فيه أشدّ وأقوى لأنّ العمل يعظم بعظمة فاعله وعظمة غرضه ، والمجتمع في حاجة إلى الأمن والسلام من قبل أجزائه لئلّا يتلاشى و يتفرّق ، وإلى الأمن والسلام من قبل رقبائه من سائر المجتمعات .

وعلى هذا جرى ديدن المجتمعات الإنسانيّة على ما بأيدينا من تاريخ الأُمم والأقوام الماضية ، وما نسمعه أو نشاهده من الملل الحاضرة فلم يزل ولا يزال المجتمع من المجتمعات الإنسانيّة في حاجة قائمة إلى أن يعاهد غيره في بعض شؤون حياته السياسيّة أو الاقتصاديّة

أو الثقافيّة أو غيرها ، فلا يصفو الجوّ للإقدام على شيء من مقاصد الحياة أو التقدّم في شيء من مآربها إلّا بالاعتضاد بالأعضاد و الأمن من معارضة الموانع .

٣ـ : الإسلام بما أنّه متعرّض لأمر المجتمع كالفرد ، ويهتمّ بإصلاح حياة الناس العامّة كاهتمامه بإصلاح حياة الفرد الخاصّة قنّن فيه كلّيات ما يرجع إلى شؤون الحياة الاجتماعيّة كالجهاد والدفاع و مقاتلة أهل البغي والنكث، والصلح والسلم والعهود والمواثيق وغير ذلك .

والعهد الّذي نتكلّم فيه قد اعتبره اعتباراً تامّاً وأحكمه إحكاماً يعدّ نقضه من طرف أهله من أكبر الإثم إلّا أن ينقضه المعاهد الآخر فيقابل بالمثل فإنّ الله سبحانه أمر بالوفاء بالعهود والعقود ، وذمّ نقض العهود والمواثيق ذمّاً بالغاً في آيات كثيرة جدّاً قال تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا أوفوا بالعقود » المائدة : ١ ، وقال : « والّذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ـ إلى أن قال ـ اُولئك لهم اللّعنة ولهم سوء الدار » الرعد : ٢٥ ، وقال : « وأوفوا بالعهد إنّ العهد كان مسؤولاً » أسرى : ٣٤ إلى غير لك .

ولم يبح نقض العهود والمواثيق إلّا فيما يبيحه حقّ العدل وهو أن ينقضه المعاهد المقابل نقضاً بالبغي والعتوّ أو لا يؤمَن نقضه لسقوطه عن درجة الاعتبار ، وهذا ممّا لا اعتراض فيه لمعترض ولا لوم للائم قال تعالى: « و إمّا تخافنّ من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إنّ الله لا يحبّ الخائنين » الأنفال :٥٨ فأجاز نقض العهد عند خوف الخيانة ولم يرض بالنقض من غير إخبارهم به واغتيالهم وهم غافلون دون أن قال : « فانبذ إليهم على سواء » فأوجب أن يخبروهم بالنقض المتقابل احترازاً من رذيلة الخيانة .

وقال : « براءة من الله ورسوله إلى الّذين عاهدتم من المشركين فسيحوا في الأرض أربعة أشهر » براءة : ٢ فلم يرض بالبراءة دون أن وسّع عليهم أربعة أشهر حتّى يكونوا على مهل من التفكّر في أمرهم والتردّي في شأنهم فيروا رأيهم على حرّيّة من الفكر فإن شاؤا آمنوا ونجوا وإن لم يشاؤا قتلوا وفنوا ، وقد كان من حسن أثر هذا التأجيل أن آمنوا فلم يفنوا .

وقد تمّم سبحانه هذه الفائدة أحسن إتمام بقوله بعد إعلام البراءة : « وإن أحد من

المشركين استجارك فأجره حتّى يسمع كلام الله ثمّ أبلغه مأمنه ذلك بأنّهم قوم لا يعلمون » التوبة : ٦ .

وقال مستثنياً الموفين بعهدهم من المشركين : « كيف يكون للمشركين عهد عندالله وعند رسوله إلّا الّذين عاهدتم عند المسجد الحرام فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إنّ الله يحبّ المتّقين، كيف وإن يظهروا عليكم لا يرقبوا فيكم إلّا ولا ذمّة يرضونكم بأفواههم وتأبى قلوبهم وأكثرهم فاسقون » التوبة : ٨ وقد علّل الاستقامة لمن استقام بأنّه من التقوى ـ ذاك التقوى لا دعوة في الدين إلّا إليه ـ وأنّ الله يحبّ المتّقين ، وهذا تعليل حيّ إلى يوم القيامة .

وقال تعالى: « فمن اعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم» البقرة :١٩٤ وقال : « ولا يجرمنّكم شنآن قوم أن صدّوكم عن المسجد الحرام أن تعتدوا وتعاونوا على البرّ والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان » المائدة : ٢ .

وأمّا النقض الابتدائيّ من غير نقض من العدوّ المعاهد فلا مجوّز له في هذا الدين الحنيف أصلاً ، وقد تقدّم قوله تعالى : « فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم » الآية و قال : « ولا تعتدوا إنّ الله لا يحبّ المعتدين » البقرة : ١٩٠ .

وعلى ذلك جرى عمل النبيّ صلى الله عليه وآله أيّام حياته فقد عاهد بني قينقاع و بني قريظة و غيرهم من اليهود ولم ينقض إلّا بعد ما نقضوا ، وعاهد قريشاً في الحديبيّة ولم ينقض حتّى نقضوا بإظهار بني بكر على خزاعة وقد كانت خزاعة في عهد النبيّ صلى الله عليه وآله ، و بنو بكر في عهد قريش.

وأمّا النقض من غير نقض فلا مبيح له في الإسلام وإن كان الوفاء ممّا يفوت على المسلمين بعض منافعهم ، ويجلب إليهم بعض الضرر وهم على قدرة من حفظ منافعهم بالبأس والقوّة أو أمكنهم الاعتذار ببعض ماتصوّر لهم الحجّة ظاهراً وتصرف عنهم اللّوم والعذل فإنّ مدار الأمر على الحقّ ، والحقّ لا يستعقب شرّاً ولا ضرّاً إلّا على من انحرف عنه وآوى إلى غيره .

٣ـ المجتمعات الإنسانيّة سيّما الراقية المتمدّنة منها غير المجتمع الدينيّ لا هدف

لاجتماعهم ولا غرض لسننهم الجارية إلّاالتمتّع من مزايا الحياة المادّيّة ما قدروا عليه فلا موجب لهم للتحفّظ على شيء أزيد ممّا بأيديهم من القوانين العمليّة الناظمة لشتات مقاصدهم الحيويّة .

ومن الضروريّ أنّ الظرف الّذي هذا شأنه لا قيمة فيها للمعنويّات إلّا بمقدار ما يوافق المقاصد الحيويّة المادّيّة فالفضائل والرذائل المعنويّة كالصدق والفتوّة والمروّة ونشر الرحمة والرأفة والإحسان و أمثال ذلك لا اعتبار لها إلّا بمقدار ما درّت بها منافع المجتمع ، ولم يتضرّروا بها لولم تعتبر، وأمّا فيما ينافي منافع القوم فلا موجب للعمل بها بل الموجب لخلافها .

ولذلك ترى المؤتمرات الرسميّة و أولياء الاُمور في المجتمعات لا يرون لأنفسهم وظيفة إلّا التحفّظ على منافع المجتمع الحيويّة ، وما يعقد فيها من العهود والمواثيق إنّما يعقد على حسب مصلحة الوقت ، ويوزن بزنة ما عليه الدولة المعاهدة من القوّة والعدّة ، وما عليه المعاهد المقابل من القوّة والعدّة في نفسه و بما يضاف إليه من سائر المقتضيات المنضمّة إليه المعينة له .

فما كان التوازن على حالة التعادل كان العهد على حاله ، وإذا مالت كفّة الميزان للدولة المعاهدة على خصمه أبطلت اعتبار العهد بأعذار مصطنعة واتّهامات مفتعلة للتوسّل إلى نقضه ، وإنّما يراد بتقديم الأعذار أن يتحفّظ على ظاهر القوانين العالميّة الّتي لا عقبى لنقضها والتخلّف عنها إلّا مايهدّد حياة المجتمع أو بعض منافع حياتهم ، ولولا ذلك لم يكن ما يمنع النقض ولو من غير عذر إذا اقتضته منافع المجتمع القويّ الحيويّة .

وأمّا الكذب أو الخيانة أو التعدّي لما يتّخذه الغير منافع لنفسه فليس ممّا يمنع مجتمعاً من المجتمعات من حيازة ما يراه نافعاً لشأنه إذ الأخلاق والمعنويّات لا أصالة لها عندهم وإنّما تعتبر على حسب ما تقدّره غاية المجتمع و غرضه الحيويّ وهو التمتّع من الحياة .

وأنت إذا تتبّعت الحوادث العامّة بين المجتمعات سابقها ولاحقها وخاصّة الحوادث

العالميّة الجارية في هذا العصر الأخير عثرت على شيء كثير من العهود الموثّقة و نقوضها على ماوصفناه.

وأمّا الإسلام فلم يعدّ حياة الإنسان المادّيّة حياة له حقيقيّة ، ولا التمتّع من مزاياهاسعادة له واقعيّة ، وإنّما يرى حياته الحقيقيّة حياته الجامعة بين المادّة والمعنى ، وسعادته الحقيقيّة اللاّزم إحرازها ما يسعده في دنياه واُخراه .

ويستوجب ذلك أن يبنى قوانين الحياة على الفطرة والخلقة دون ما يعدّه الإنسان صالحاً لحال نفسه ، و يؤسّس دعوته الحقّة على اتّباع الحقّ والاهتداء به دون اتّباع الهوى والاقتداء بما يميل إليه الأكثريّة بعواطفهم وإحساساتهم الباطنة قال تعالى: « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم» الروم : ٣٠ وقال : « هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين[1] الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون » التوبة : ٣٣ ، وقال : « بل أتيناهم بالحقّ » المؤمنون : ٩٠ ، وقال : « ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض ومن فيهنّ » المؤمنون : ٧١ .

ومن لوازم ذلك أن يراعي حقّ الاعتقاد وفضيلة الخلق وصالح العمل جميعاً فلا غنى للمادّة عن المعنى ولا غنى للمعنى عن المادّة فمن الواجب رعاية جانب الفضائل الإنسانيّة نفعت أو ضرّت والتجنّب عن الرذائل نفعت أو ضرّت لأنّ ذلك من اتّباع الحقّ ، وحاشا أن يضرّ إلّا من انحرف عن ميزانه وتخطّى ما يخطّ له الحقّ .

و من هنا ما نرى أنّ الله سبحانه ينقض عهد المشركين لنقضهم عهدهم و يستعمل الرحمة بإمهالهم أربعة أشهر ، و يأمر بالاستقامة لمن استقام في عهده من المشركين وقد استذلّهم الحوادث يومئذ وضعفوا دون شوكة الإسلام ، و كذا يأمر نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم إن خاف من قوم خيانة أن ينقض عهدهم لكن يأمره بإعلامهم ذلك ويعلّله بأنّه لا يحبّ الخيانة .

---

(١) ظاهر الاية كون الاضافة حقيقية لا من اضافة الموصوف الى صفته .

﴿كلام في نسبة الاعمال الى الاسباب طولا﴾

تقدّم في مواضع من هذا الكتاب أنّ الّذي تنتجه الأبحاث العقليّة أنّ الحوادث كما أنّ لها نسبة إلى أسبابها القريبة المتّصلة بها كذلك لها نسبة إلى أسبابها القصوى الّتي هي أسباب لهذه الأسباب فالحوادث أفعال لها في عين أنّها من أفعال أسبابها القريبة المباشرة للعمل فإنّ الفعل كالحركة مثلاً يتوقّف على فاعله المحرّك ويتوقّف على محرّك محرّكه بعين ما يتوقّف على محرّكه ، نظير العجلة المحرّكة للأُخرى المحرّكة لثالثة وليست من الحركة بالعرض .

فللفعل نسبة إلى فاعله ، وله انتساب إلى فاعل فاعله بعين هذه النسبة الّتي إلى فاعله لا بنسبة اُخرى منفصلة عنها مستقلّة بنفسها غير أنّه إذا انتسب إلى فاعل الفاعل عاد الفاعل القريب بمنزلة الآلة بالنسبة إلى فاعل الفاعل أي واسطة محضة لا استقلال لها في العمل بمعنى أنّه لا يستغني في تأثيره عن فاعل الفاعل إذ فرض عدمه يساوق انعدام الفاعل وانعدام أثره .

وليس من شرط الواسطة أن تكون غير ذات شعور بفعلها أو غير مختارة فإنّ الشعور الّذي يؤثّر به الفاعل الشاعر في فعله لم يوجده هو لنفسه وإنّما أوجده فيه فاعله الّذي أوجد الفاعل وشعوره ، وكذلك الاختيار لم يوجده الفاعل المختار لنفسه وإنّما أوجده الفاعل الّذي أوجد الفاعل المختار ، وكما يتوقّف الفعل في غير موارد الشعور والاختيار إلى فاعله ، ويتوقّف بعين هذا التوقّف إلى فاعل فاعله ، كذلك يتوقّف الفعل الشعوريّ والفعل الاختياريّ إلى فاعله ويتوقّف بعين هذا التوقّف إلى فاعل فاعله الّذي أوجد لفاعله الشعور والاختيار .

ففاعل الفاعل الشاعر أو المختار أراد من الفاعل الشاعر أو المختار أن يفعل من طريق شعوره فعلاً كذا أو يفعل باختياره فعلاً اختياريّاً كذا فقد اُريد الفعل من طريق الاختيار لا أنّه اُريد الفعل واُهمل الاختيار الّذي ظهر به فاعله فافهم ذلك فلا تزلّ قدم بعد ثبوتها .

وعلى هذه الحقيقة يجري الناس بحسب فهمهم الغريزيّ فينسبون الفعل إلى السبب البعيد كما ينسبونه إلى السبب القريب المباشر بما أنّه أثر مترشّح منه يقال : بنى فلان داراً ، وحفر بئراً و إنّما باشر ذلك البنّاء والحفّار ، ويقال : جلد الأمير فلاناً ، وقتل فلاناً ، وأسر فلاناً ، وحارب قوماً كذا ، و إنّما باشر الجلد جلّاده ، و القتل سيّافه ، و الأسر جلاوزته ، والمحاربة جنده ، ويقال ، أحرق فلان ثوب فلان ، و إنّما أحرقه النار ، وشفى فلان مريضاً كذا وإنّما شفاه الدواء الّذي ناوله وأمره بشربه و استعماله .

ففي جميع ذلك يعتبر أمر الآمر أوتوسّل المتوسّل تأثيراً منه في الفاعل القريب ثمّ ينسب الفعل المنسوب إلى الفاعل القريب إلى الفاعل البعيد ، وليس أصل النسبة إلّا نسبة حقيقيّة من غير مجاز قطعاً .

ومن قال من علماء الأدب وغيرهم أنّ ذلك كلّه من المجاز في الكلمة لصحّة سلب الفعل عن الفاعل البعيد فإنّ مالك البناء لم يضع لبنة على لبنة و إنّما هو شأن البنّاء الّذي باشر العمل ! إنّما أراد الفعل بخصوصيّة صدوره عن الفاعل المباشر و من المسلّم أنّ المباشرة إنّما هو شأن الفاعل القريب ، ولا كلام لنا فيه ، وإنّما الكلام فيما يتصوّر له من الوجود المتوقّف إلى فاعل موجد ، و هذا المعنى كما يقوم بالفاعل المباشر لذلك يقوم بعين هذا القيام بفاعل الفاعل .

واعتبار هذه النكتة هو الّذي أوجب لهم أن يميّزوا بين الأعمال وينسبوا بعضها إلى الفاعل القريب والبعيد معاً ، ولا ينسبوا بعضها إلّا إلى الفاعل القريب المباشر للعمل فما كان منها يكشف بمفهومه عن خصوصيّات المباشرة و الاتّصال بالعمل كالأكل بمعنى الالتقام والبلع والشرب بمعنى المصّ والتجرّع و القعود بمعنى الجلوس و نحو ذلك لم ينسب إلّا إلى الفاعل المباشر فإذا أمر السيّد خادمه أن يأكل غذاء كذا و يشرب شراباً كذا و يقعد على كرسيّ كذا قيل : أكل الخادم وشرب وقعد ولا يقال : أكله سيّده و شربه وقعد عليه ، وإنّما يقال : تصرّف في كذا إذا استعمل كذا أو أنفق كذا و نحو ذلك لما ذكرناه ،

و أمّا الأعمال الّتي لا تعتبر فيها خصوصيّات المباشرة و الحركات المادّيّة الّتي

تقوم بالفاعل المباشر للحركة كالقتل والأسر والإحياء و الإماتة و الإعطاء و الإحسان و الإكرام و نظائر ذلك فإنّها تنسب إلى الفاعل القريب و البعيد على السويّة بل ربّما كانت نسبتها إلى الفاعل البعيد أقوى منها إلى الفاعل القريب كما إذا كان الفاعل البعيد أقوى وجوداً وأشدّ سلطة و إحاطة .

فهذا ما ينتجه البحث العقليّ و يجري عليه الإنسان بفهمه الغريزيّ، و القرآن الكريم يصدّق ذلك أوضح تصديق كقوله تعالى في الآيات السابقة : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم » الآيتان . حيث نسب التعذيب الّذي تباشره أيدي المؤمنين إلى نفسه بجعل أيديهم بمنزلة الآلة .

ونظيره قوله تعالى : « والله خلقكم وما تعملون » الصافّات : ٩٦ فإنّ المراد بما تعملون إمّا الأصنام الّتي كانوا يعملونها من الحجارة أو الأخشاب أو الفلزّات فإنّما اُريد به المادّة بما عليها من عمل الإنسان ففيه نسبة الخلق إلى الأعمال كنسبته إلى فواعلها ، و إمّا نفس الأعمال فالأمر أوضح .

ويقرب من ذلك قوله تعالى : « وجعل لكم من الفلك والأنعام ما تركبون » الزخرف ١٢ ففيه نسبة الخلق إلى الفلك والفلك بما هي من عمل الإنسان .

هذا فيما نسب فيه الخلق إلى الأعمال الصادرة عن الشعور والإرادة ، وأمّا الأفعال الّتي لا تتوقّف في صدورها على شعور وإرادة كالأفعال الطبيعيّة فقد ورد نسبتها إلى الله سبحانه في آيات كثيرة جداً لا حاجة إلى إحصائها كإحياء الأرض و إنبات النبات و إخراج الحبّ وإمطار السماء وإجراء الأنهار وتسيير الفلك الّتي تجري في البحر بأمره إلى غير ذلك .

ولا منافاة في جميع هذه الموارد بين انتساب الأمر إليه تعالى و انتسابه إلى غيره من الأسباب والعلل الطبيعيّة وغيرها إذ ليست النسبة عرضيّة تزاحم إحدى النسبتين الاُخرى بل هي طوليّة لا محذور في تعلّقها بأزيد من طرف واحد .

وقد تقدّم في مطاوي أبحاثنا السابقة دفع ما اشتبه على المادّيّين من إسناد الحوادث العامّة كالسيول والزلازل والجدب و الوباء و الطاعون إلى الله سبحانه مع الحصول على

أسبابها الطبيعيّة اليوم حيث خلطوا بين العلل والأسباب العرضيّة والطوليّة ، و حسبوا أنّ استنادها إلى عللها الطبيعيّة يبطل ما أثبته الكتاب العزيز و أذعن به الإلهيّون من استنادها إلى مسبّب الأسباب الّذي إليه يرجع الأمر كلّه .

وللأشاعرة والمعتزلة بحث غريب في الآية السابقة : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » وما يناظرها من الآيات ، أورده الرازيّ في تفسيره نورده ملخّصاً .

قال : استدلّت الأشاعرة بقوله تعالى : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » الآية على أنّ أفعال العباد مخلوقة لله ، وأنّ الناس مجبرون في أفعالهم غير مختارين فإنّ الله سبحانه يخبر فيها أنّه هو الّذي يعذّب المشركين بقتل بعضهم و جرح آخرين بأيدي المؤمنين ويدلّ ذلك على أنّ أيدي المؤمنين كسيوفهم ورماحهم آلات محضة لا تأثير لها أصلاً وإنّما الفعل لله سبحانه ، وأنّ الكسب الّذي يعدّ مناطاً للتكليف اسم لا مسمّى له .

وهذه الآية أقوى دلالة على المطلوب من دلالة مثل قوله تعالى : « وما رميت إذ رميت ولكنّ الله رمى » إذ فيه إثبات الرمي على النبيّ ﷺ ـ وإن كان مع ذلك نفي عنه ـ وإثبات لإسناده إلى الله سبحانه لكنّ الآية أعني قوله : « قاتلوهم يعذّبهم الله بأيديكم » إثبات للتعذيب على الله سبحانه وجعل أيدي المؤمنين الّتي لهم آلات في الفعل لا تأثير لها وفيها أصلاً .

وأجاب عنه الجبّائيّ من المعتزلة : بأنّه لو جاز أن يقال : إنّ الله يعذّب الكافرين بأيدي المؤمنين بحقيقة ما ادّعي له من المعنى لجاز أن يقال : إنّه يعذّب المؤمنين بأيدي الكافرين ، وإنّه تعالى يكذّب أنبياءه بألسنتهم ، ويلعن المؤمنين و يسبّهم بأفواههم لأنّه تعالى خالق لذلك كلّه ، وإذ لم يجز ذلك علمنا أنّه تعالى لم يخلق أعمال العباد ، و إنّما أعمالهم خلق أنفسهم .

وبذلك يعلم أنّ إسناد التعذيب في الآية إليه تعالى بنوع من التوسّع لأنّه إنّما تحقّق عن أمره ولطفه كما أنّه تعالى ينسب جميع الطاعات والحسنات إلى نفسه لتحقّقها عن أمره وتوفيقه .

وأجاب عنه الرازيّ بأنّ أصحابنا يلتزمون جميع ما ألزم به الجبّائيّ وأصحابه

من لزوم إسناد القبائح إليه تعالى ويعتقدون به لبّاً وإن كانوا لا ينطقون به لساناً أدباً مع الله سبحانه انتهى ملخّصاً .

والأبحاث الّتي قدّمناها في هذا الكتاب حول هذه المعاني تكفي لإيضاح الحقّ وإنارته في هذا المقام، والكشف عمّا وقع فيه الفريقان جميعاً .

أمّا ما ذكرته الأشاعرة والتزموا به فإنّما أوقعهم في ذلك ما ذهبوا إليه من نفي رابطة العلّيّة والمعلوليّة من بين الأشياء وقصرها فيما بينه تعالى وبين خلقه عامّة فلا سبب في الوجود لا استقلالاً ولا بالوساطة غيره تعالى، وأمّا رابطة السببيّة الّتي بين الأشياء أنفسها فإنّما هي سببيّة بالاسم فقط لا بالحقيقة، وإنّما هي العادة الإلهيّة جرت بايجاد ما نسمّيها مسبّبات عقيب ما نسمّيها أسباباً فما بينها وبينه تعالى سببيّة حقيقيّة، وما بينها أنفسها يعود إلى الاتّفاق الدائم أو الأكثريّ .

ولازم ذلك إبطال العلّيّة والسببيّة من أصلها، وببطلانها يبطل ما أثبتوه من انحصار السببيّة فيه تعالى إذ لو جاز أن يكون نسبة كلّ شيء إلى كلّ شيء نسبة واحدة من غير اختلاف بالتأثير والتأثّر لم يبق للإنسان ما يتنبّه به لأصل معنى السببيّة فلا سبيل له إلى إثبات سببيّته تعالى لكلّ شيء .

على أنّ الإنسان يترقّب حوادث من حوادث اُخرى، ويقطع بالنتائج عن مقدّماتها ويبني حياته على التعليم والتربية، وعلى تقديم الأسباب طمعاً في مسبّباتها سواء اعترف بالصانع أو لم يعترف، ولا يتمّ له شيء من ذلك إلّا عن إذعان فطريّ بأصل العلّيّة والمعلوليّة، ولو أجازت الفطرة الإنسانيّة بطلان ذلك وجريان الحوادث على مجرّد الاتّفاق اختلّ نظام حياته ببطلان سعيه الفكريّ والعمليّ، وانسدّ طريق إثبات سببٍ ما فوق طبيعة الحوادث .

على أنّ الكتاب العزيز يجري في بياناته على تصديق أصل العلّيّة والمعلوليّة، و ينسب كلّ حسنة إليه تعالى و ينفي استناد السيّآت والمعاصي إليه و يسمّيه بكلّ اسم أحسن ويصفه بكلّ وصف جميل، وينفي عنه كلّ هزل وعبث ولغو ولهو وجزاف، ولا يتمّ

شيء من ذلك إلّا على أصل العلّيّة والمعلوليّة ، وقد تقدّم في الأبحاث السابقة ما يتبيّن به ذلك كلّه .

وقد ذهب طائفة من المادّيّين وخاصّة أصحاب المادّيّة المتحوّلة إلى عين ما ذهب إليه الأشاعرة من ثبوت الجبر و نفي الاختيار عن الأفعال الإنسانيّة ، وإنّما الفارق بين قولي الطائفتين هو أنّ الأشاعرة بنوا ذلك على سببيّة الواجب تعالى المنحصرة واستنتجوا من ذلك بطلان السببيّة الاختياريّة وانتفاءها عن الإنسان ، والمادّيّون بنوه على معلوليّة الأفعال الإنسانيّة لمجموع الحوادث المحتفّة بالفعل الّتي هي علّة حدوثه ، ولا معنى للعلّيّة إلّا بالإيجاب ، فالإنسان موجب في فعله مجبر عليه

وقد فات منهم أنّ الّذي نسبة المعلول إليه بالإيجاب إنّما هو العلّة التامّة ، وهي مجموع الحوادث المتقدّمة على المعلول الّتي لا يتوقّف هو في وجوده على شيء وراءها ، وبوجودها جميعاً لا يبقى له إلّا أن يوجد ، وأمّا بعض أجزاء العلّة التامّة فإنّما نسبة المعلول إليه بالإمكان لا بالوجوب لتوقّف وجوده على أشياء اُخر وراءه فلا يتحقّق بوجود الجزء المفروض جميع ما يتوقّف عليه وجوده حتّى يعود واجباً وجوده .

والأفعال الإنسانيّة يتوقّف في وجودها على الإنسان وإرادته وعلى اُمور غير محصورة اُخرى من المادّة والشرائط الزمانيّة والمكانيّة فهي إذا نسبت إليها جميعاً كانت النسبة الحاصلة نسبة الوجوب والضرورة ، وأمّا إذا نسبت إلى الإنسان وحده أو إلى الإنسان المريد فقد نسبت إلى جزء العلّة التامّة و عادت النسبة إلى الإمكان دون الوجوب ، فالأفعال الإراديّة الإنسانيّة اختياريّة أي إنّه يمكنه أن يفعل وأن لا يفعل فإن فعل فبمشيّته وإرادته ، وإن لم يفعل فلم يختره ولم يرده وإنّما اختار وأراد شيئاً آخر ، لكنّها لا تقع في الخارج إلّا واجبة لاستنادها حينئذ إلى جميع أجزاء عللها .

فهؤلاء خلطوا في كلامهم بين النسبتين فوضعوا النسبة الوجوبيّة الّتي للفعل إلى مجموع أجزاء علّتها التامّة موضع النسبة الإمكانية الّتي للفعل إلى بعض أجزاء علّته التامّة وهي الّتي تسمّى في الإنسان بالاختيار على نحو من العناية .

وأمّا ما ذكره المعتزلة أنّه لو جاز كونه تعالى هو الفاعل للفعل الّذي أتى به المؤمنون

وهو التعذيب ، وليس لهم إلّا مقام الآليّة المحضة من غير تأثير لجاز إسناد تعذيب الكفّار للمؤمنين وتكذيبهم للأنبياء ولعنهم المؤمنين أيضاً إليه ، وهو باطل قطعاً فأفعال العباد مخلوقة لهم لا صنع لله تعالى فيها .

ففيه أنّ الملازمة حقّة لكن بطلان التالي لا يستلزم كون الأفعال مخلوقة لهم لا نسبة لها إلى الله سبحانه أصلاً لجواز كونها منسوبة إليه تعالى بعين ما ينتسب به إليهم فإنّهم فاعلون لها و هو فاعل الفاعلين فينتسب إليهم بالصدور عن الفاعل المباشر ، و ينتسب إليه بالصدور عن الفاعل الّذي هو فاعله والنسبتان في الحقيقة نسبة واحدة مختلفة بالقرب والبعد وانتفاء الواسطة وثبوتها ، ولا يستلزم ذلك اجتماع فاعلين مستقلّين على فعل واحد لكونهما طوليّين لا عرضيّين .

فان قلت : فيبقى محذور استناد الحسنات والسيّآت والإيمان والكفر إليه تعالى في محلّه .

قلت: كلاّ وإنّما ينتسب إليه أصل وجودها ، وأمّا عنوان الفعل الّذي يشير إلى جهة قيام الحركة والسكون بالموضوع المتحرّك كالنكاح والزنا والأكل المحرّم والمحلّل فإنّما ينسب إلى الإنسان لكونه هو الموضوع المادّيّ الّذي يتحرّك بهذه الحركات : وأمّا الّذي يوجد هذا المتحرّك الّذي من جملة آثاره حركته وليس بنفسه متحرّكاً بها وإنّما يوجدها إيجاداً إذا تمّت شرائطها وأسبابها فلا يتّصف بأنواع هذه الحركات حتّى يتّصف بفعل النكاح أو الزنا أو أيّ فعل قائم بالإنسان .

نعم هناك عناوين عامّة لا تستتبع معنى الحركة والمادّة ، لا مانع من إسنادها إلى الإنسان و إليه سبحانه إذا لم يستلزم محذوراً كالهداية والإضلال إذا لم يكن إضلالاً ابتدائيّاً ، وكالتعذيب والابتلاء ، فقتل المؤمن للكافر تعذيب إلهيّ للكافر ، وقتل الكافر للمؤمن بلاء حسن للمؤمن يستوجب به أجراً حسناً عند الله ، وعلى هذا القياس .

على أنّ الّذي ذهب إليه المعتزلة يوقعهم فيما وقعت فيه الأشاعرة وهو انسداد طريق إثبات الصانع عليهم فإنّه لو جاز أن يوجد في العالم حادث من الحوادث عن سبب له وينقطع عمّا وراء سببه ذلك انقطاعاً تامّاً لا تأثير له فيه جاز في كلّ ما فرض من الحوادث

أن يستند إلى ما يليه من غير أن يرتبط بشيء آخر وراءه ، ومن الجائز أن يفنى الفاعل ويبقى أثره فمن الجائز أن يستند كلّ ما فرض معلولاً إلى فاعل له غير واجب الوجود ومن الجائز أن يستند كلّ عالم مفروض إلى عالم قبله هو فاعله وقد فنى قبله على ما هو المشهود من حوادث هذا العالم المولّد بعضها بعضاً : والمتولّد بعضها عن بعض ، ولا يلزم محذور التسلسل لعدم تحقّق سلسلة ذات أجزاء في وقت من الأوقات إلّا في الذهن .

وفي كلامهم مفاسد كثيرة اُخرى مبيّنة في المحلّ المربوط به ، وقد تقدّم في الكلام على نسبة الخلق إليه تعالى في الجزء السابع من الكتاب ما ينفع في هذا المقام .

وكيف يسع لمسلم موحّد أن يثبت مع الله سبحانه خالقاً آخر بحقيقة معنى الخلق والإيجاد وقد قال الله سبحانه : « ذلكم الله ربّكم خالق كلّ شيء لاإله إلّاهو » المؤمن : ٦٢ وقد كرّر ذلك في كلامه ، وليس في تجاهه إلّا نسبة أفعال الإنسان إليه من غير قطع رابطتها إليه تعالى بل مع إثبات النسبة بدليل آيات القدر و دلالة العقل على أنّ لفعل الفاعل نسبة إلى فاعل فاعله بحسب ما يليق بساحته .

فالحقّ أنّ للأفعال الإنسانيّة نسبة إلى فواعلها بالمباشرة ، و نسبة إليه تعالى بما يليق بساحة قدسه قال تعالى : « كلاًّ نمدّ هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربّك وماكان عطاء ربّك محظوراً » أسرى : ٢٠ .

***

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَنْ يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنْفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُولَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَ فِي النَّارِهُمْ خَالِدُونَ (١٧) إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَوٰةَ وَآتَى الزَّكَوٰةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ (١٨) أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا يَسْتَوُونَ عِنْدَ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِنْدَ اللَّهِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ (٢٠) يُبَشِّرُهُمْ رَبُّهُمْ بِرَحْمَةٍ مِنْهُ وَرِضْوَانٍ وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ (٢١) خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ (٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٣) قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٢٤) .

﴿ بيان ﴾

آيات تبيّن أنّ الأعمال إنّما تكون حيّة مرضيّة إذا صدرت عن حقيقة الايمان بالله ورسوله واليوم الآخر وإلّا فإنّما هي حبط لاتهدي صاحبها إلى سعادة ، وأنّ من لوازم

الإيمان بحقيقته قصر الولاية والحبّ والوداد في الله ورسوله .

وهي ظاهرة الاتّصال والارتباط فيما بينها أنفسها ، وأمّا اتّصالها بما تقدّمها من الآيات فليس بذاك الوضوح ، وما ذكره بعض المفسّرين في وجه اتّصالها بما قبلها لا لايخلو من تكلّف .

قوله تعالى: « ما كان للمشركين أن يعمروا مساجدالله شاهدين على أنفسهم بالكفر » العمارة ضدّ الخراب يقال : عمرالأرض إذا بنى بها بناء ، وعمرالبيت إذا أصلح ماأشرف منها على الفساد ، و التعمير بمعناه ومنه العمر لأنّه عمارة البدن بالروح ، و العمرة بمعنى زيارة البيتالحرام لأنّ فيها تعميره .

و المسجد اسممكان بمعنى المحلّ الّذي يتعلّق به السجدةكالبيتالّذي يبنى ليسجد فيه الله تعالى ، و أعضاء السجدة الّتي تتعلّق بهاالسجدة نوع تعلّق وهي الجبهة و الكفّان و الركبتان ورؤوس إبهامي القدمين .

و قوله : « ماكانللمشركين » الآية لنفي الحقّ و الملك فإنّ اللام للملك والحقّ ، و النفي الحاليّ للكونالسابق يفيدأنّه لميتحقّق منهم سبب سابق يوجب لهم أن يملكوا هذا الحقّ وهو حقّ أن يعمروا مساجد الله و يرمّوا ما استرمّ منها أو يزوروها كقوله تعالى : « ما كان لنبيّ أن يكون له أسرى » الأنفال : ٦٧ و قوله : « و ما كانلنبيّ أن يغلّ » آل عمران : ١٦١ ـ .

و المراد بالعمارة في قوله : « أن يعمروا » إصلاح ما أشرف على الخراب من البناء ورمّ مااسترّم منه دون عمارة المسجدبالزيارة فإنّ المراد بمساجد الله هيالمسجد الحرام و كلّ مسجد لله ولا عمرة في غير المسجد الحرام ، و الدخول في المساجد للعبادة فيها و إن أمكن أن يسمّى عمارة و زيارة لكنّ التعبير المعهود عن القرآن فيه الدخول .

على أنّ في قوله فيالآية الآتية : « أ جعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام » تأييداًمّا لكون المراد بالعمارة هو إصلاح البناء دون زيارة البيت الحرام .

و المراد بمساجد الله بيوت العبادة المبنيّة لله لكنّ السياق يدلّ على أنّ المراد نفي جواز عمارتهم للمسجدالحرام ، ويؤيّده قراءة من قرء« أن يعمروا مسجد الله » بالإفراد .

ولاضير في التعبير بالجمع و المقصود الأصيل بيان حكم فرد خاص من أفراده لأن الملاك عام ، والتعليل الوارد في الآية غير مقيد بخصوص المسجد الحرام فالكلام في معنى : ما كان لهم أن يعمروا المسجد الحرام لأنه مسجد و المساجد من شأنها ذلك .

و قوله : « شاهدين على أنفسهم بالكفر » المراد بالشهادة أداؤها وهو الاعتراف إما قولاً كمن يعترف بالكفر لفظاً ، و إما فعلاً كمن يعبد الأصنام و يتظاهر بكفره فكل ذلك من الشهادة و الملاك واحد .

فمعنى الآية : لايحق ولا يجوز للمشركين أن يرموا ما استرم من المسجد الحرام كسائر مساجد الله و الحال أنهم معترفون بالكفر بدلالة قولهم أو فعلهم .

قوله تعالى : « أولئك حبطت أعمالهم و في النار هم خالدون » في مقام التعليل لما أفيد من الحكم في قوله : « ماكان » الخ ولذلك جيء به بالفصل دون الوصل .

و المراد بالجملة الأولى بيان بطلان الأثر و ارتفاعه عن أعمالهم ، و العمل إنما يؤتى به للتوسل به إلى أثر مطلوب ، و إذ كانت أعمالهم حابطة لا أثر لها لم يكن مايجوز لهم الإتيان بها ، والأعمال العبادية كعمارة مساجد الله إنما تقصد لما يطمع فيه و يرجى من أثرها وهو السعادة و الجنة ، والعمل الحابط لايتعقب سعادة ولا جنة البتة .

و المراد بالجملة الثانية بيان ظرفهم الذي يستقرون فيه لولا السعادة و الجنة و هو النار فكأنه قيل : أولئك لايهديهم أعمالهم العبادية إلى الجنة بل هم في النار الخالدة ، ولا تفيد لهم سعادة بل هم في الشقاوة المؤبدة .

و في الآية دلالة على أصلين لطيفين من أصول التشريع :

أحدهما : أن تشريع الجواز بالمعنى الأعم الشامل للواجبات والمستحبات و المباحات يتوقف على أثر في الفعل ينتفع به فاعله فلا لغو مشروعاً في الدين ، و هذا أصل يؤيده العقل ، وهو منطبق على الناموس الجاري في الكون : أن لا فعل إلا لنفع عائد إلى فاعله .

و ثانيهما : أن الجواز في جميع موارده مسبوق بحق مجعول من الله لفاعله في أن يأتي بالفعل من غير مانع .

قوله تعالى : « إنّما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر » الآية السياق كاشف عن أنّ الحصر من قبيل قصر الإفراد كأنّ متوهّماً يتوهّم أنّ للمشركين والمؤمنين جميعاً أن يعمروا مساجد الله فاُفرد و قصر ذلك في المؤمنين ، و لازم ذلك أن يكون المراد بقوله :« يعمر » إنشاء الحقّ و الجواز في صورة الإخبار دون الإخبار ، و هو ظاهر .

و قد اشترط سبحانه في ثبوت حقّ العمارة و جوازها أن يتّصف العامر بالإيمان بالله واليوم الآخر قبال ما نفى عن المشركين أن يكون لهم ذلك ولم يقنع بالإيمان بالله وحده لأنّ المشركين يذعنون به تعالى بل شفّع ذلك بالإيمان باليوم الآخر لأنّ المشركين ما كانوا مؤمنين به ، و بذلك يختصّ حقّ العمارة و جوازها بأهل الدين السماويّ من المؤمنين .

ولم يقنع بذلك أيضاً بل اُلحق به قوله : « و أقام الصلاة و آتى الزكاة ولم يخش إلّا الله » لأنّ المقام مقام بيان من ينتفع بعمله فيحقّ له بذلك أن يقترفه ، ومن كان تاركاً للفروع المشروعة في الدين و خاصّة الركنين : الصلاة و الزكاة فهو كافر بآيات الله لا ينفعه مجرّد الإيمان بالله و اليوم الآخر وإن كان مسلماً ، إذا لم ينكرها بلسانه ، ولو أنكرها بلسانه أيضاً كان كافراً غير مسلم .

وقد خصّ من بينها الصلاة و الزكاة بالذكر لكونهما الركنين الّذين لا غنى عنهما في حال من الأحوال .

وبما ذكرنا من اقتضاء المقام يظهر أنّ المراد بقوله : « ولم يخش إلّا الله » الخشية الدينيّة وهي العبادة دون الخشية الغريزيّة الّتي لا يسلم منها إلّا المقرّبون من أولياء الله كالأنبياء قال تعالى : « الّذين يبلّغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلّا الله » الأحزاب : ٣٩ .

و الوجه في التكنية عن العبادة بالخشية أنّ الأعرف عند الإنسان من علل اتّخاذ الإله للعبادة الخوف من سخطه أو الرجاء لرحمته ، و رجاء الرحمة أيضاً يعود بوجه إلى الخوف من انقطاعها وهو السخط فمن عبدالله سبحانه أو عبد شيئاً من الأصنام فقد دعاه إلى ذلك إمّا الخوف من شمول سخطه أو الخوف من انقطاع نعمته ورحمته فالعبادة ممثّلة

للخوف و الخشية مصداق لها لتمثليها إيّاها ، و بينهما حالة الاستلزام ، و لذلك كنّي بها عنها ، فالمعنى ـ و الله أعلم ـ ولم يعبد أحداً من دون الله من الآلهة .

و قوله : « فعسى اُولئك أن يكونوا من المهتدين » أي اُولئك الّذين آمنوا بالله و اليوم الآخر ولم يعبدوا أحداً غير الله سبحانه يرجى في حقّهم أن يكونوا من المهتدين ، وهذا الرجاء قائم بأنفسهم أوبأنفس المخاطبين بالآية ، وأمّاهوتعالى فمن المستحيل أن يقوم به الرجاء الّذي لايتمّ إلّا مع الجهل بتحقق الأمر المرجوّ الحصول .

و إنّما اُخذ الاهتداء مرجوّ الحصول لامحقّق الوقوع مع أنّ من آمن بالله واليوم الآخرحقيقةً وحقّقه أعماله العباديّة فقداهتدى حقيقةً لأنّ حصول الاهتداء مرّة أومرّات لايستوجب كون العامل من المهتدين ، واستقرار صفة الاهتداء ولزومها له،فالتلبّس بالفعل الواقع مرّة أو مرّات غير التلبّس بالصفة اللازمة فاُولئك حصول الاهتداء لهم محقّق و أمّا حصول صفة المهتدين فهو مرجوّ التحقّق لامحقّق .

وقد تحصّل من الآية أنّ عمارة المساجد لاتحقّ ولاتجوز لغير المسلم أمّا المشركون فلعدم إيمانهم بالله و اليوم الآخر ، و أمّا أهل الكتاب فلأنّ القرآن لايعدّ إيمانهم بالله إيماناً قال تعالى «إنّ الّذين يكفرون باللهورسلهويريدون أن يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض و نكفر ببعض ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلاً اُولئك هم الكافرون حقّاً » النساء : ١٥١ ، و قال أيضا في آية٢٩ من السورة : « قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر ولايحرّمون ماحرّم اللهورسولهولايدينون دين الحقّ من الّذين اُوتوا الكتاب» الآية .

قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر و جاهد في سبيل الله » الآية السقاية كالحكاية والجناية و النكاية مصدر يقال : سقى يسقي سقاية .

و السقاية أيضا الموضع الّذي يسقى فيه الماء ، والإناء الّذي يسقى به قال تعالى : « جعل السقاية في رحل أخيه » يوسف : ٧٠ ، وقد رووا في الآثار أنّ سقاية الحاجّ كانت إحدى الشؤونات الفاخرة و المآثر الّتي يباهى بها في الجاهليّة ، و أنّ السقاية كانت حياضاً من أدم على عهد قصّي بن كلاب أحد أجداد النبيّ صلّى الله عليه وآله توضع بفناء الكعبة ، ويستقى فيها

الماء العذب من الآبار على الإبل ، ويسقى الحاجّ فجعل قصّي أمر السقاية عند وفاته لابنه عبد مناف ولم يزل في ولده حتّى ورثه العبّاس بن عبد المطّلب .

و سقاية العبّاس هو الموضع الّذي كان يسقى فيه الماء في الجاهليّة والإسلام وهو في جهة الجنوب من زمزم بينهما أربعون ذراعاً ، وقد بني عليه بناء هو المعروف اليوم بسقاية العبّاس .

والمراد بالسقاية في الآية ـ على أيّ حال ـ معناها المصدريّ وهو السقي ، ويؤيّده مقابلتها في الآية عمارة المسجد الحرام والمراد بها المعنى المصدريّ قطعاً بمعنى الشغل .

وقد قوبل في الآية سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام بمن آمن بالله و اليوم الآخر وجاهد في سبيل الله ، ولا معنى لدعوى المساواة بين الإنسان و بين عمل من الأعمال كالسقاية و العمارة أو نفيها فالمعادلة و المساواة إمّا بين عمل وعمل ، أو بين إنسان ذي عمل و إنسان ذي عمل .

ولذلك اضطرّ المفسّرون إلى القول بأنّ تقدير الكلام : أجعلتم أهل سقاية الحاجّ وأهل عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله و اليوم الآخر حتّى يستقيم السياق .

وأوجب منه النظر في قيود الكلام المأخوذة في الآية الكريمة فقد اُخذ في أحد الجانبين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام وحدهما من غير أيّ قيد زائد ، وفي الجانب الآخر الإيمان بالله و اليوم الآخر و الجهاد في سبيل الله و إن شئت فقل : الجهاد في سبيل الله مع اعتبار الإيمان معه .

وهو يدلّ على أنّ المراد : السقاية و العمارة خاليتين من الإيمان ، و يؤيّده قوله تعالى في ذيل الآية : «و الله لا يهدي القوم الظالمين» على تقدير كونه تعريضاً لأهل السقاية و العمارة لا تعريضاً لمن يسوّي بينهما كما يتبادر من السياق .

وهذا يكشف أوّلاً عن أنّ هؤلاء الّذين كانوا يسوّون بين كذا و كذا و بين كذا إنّما كانوا يسوّون بين عمل جاهليّ خال عن الإيمان بالله واليوم الآخر كالسقاية والعمارة من غير أن يكون عن إيمان ، و بين عمل دينيّ عن إيمان بالله و اليوم الآخر كالجهاد في سبيل الله عن إيمان ، أي كانوا يسوّون بين جسد عمل لا حياة فيه وبين عمل حيّ طيّب

نفعه فأنكره الله عليهم .

وثانياً : أنّ هؤلاء المسوّين كانوا من المؤمنين يسوّون بين عمل من غير إيمان، كان صدر عنهم قبل الإيمان أوصدر عن مشرك غيرهم ، و بين عمل صدر عن مؤمن بالله عن محض الإيمان حال إيمانه كما يشهد به سياق الإنكار وبيان الدرجات في الآيات .

بل يشعر بل يدلّ ذكر نفس السقاية و العمارة من غير ذكر صاحبهما على أنّ صاحبيهما كانا من أهل الإيمان عندالتسوية فلم يذكرا حفظاً لكرامتهما وهما مؤمنان حين الخطاب ووقاية لهما بالنظر إلى التعريض الظاهر الّذي في آخر الآية من أن يسمّيا ظالمين .

بل يدلّ قوله تعالى في الآية التالية في مقام بيان أجر هؤلاء المجاهدين في سبيل الله عن إيمان : « الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله » على أنّ طرفي التسوية في قوله : « أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كمن آمن » الآية كانا من أهل مكّة ، وأنّ أهل أحد الطرفين وهو الّذي آمن و جاهد كان ممّن أسلم و هاجر ، و أهل الطرف الآخر أسلم ولم يهاجر فإنّ هذا هو الوجه في ذكره تعالى أوّلاً الإيمان والجهاد في أحد الطرفين ثم إضافة الهجرة إلى ذلك عند ما اُعيد ثانياً ، وقد ذكر تعالى السقاية و العمارة في الجانب الآخر ولم يزد على ذلك شيئاً لا أوّلاً ولا ثانياً فما هذه القيود بلاغية في قوله الفصل .

و هذا كلّه يؤيّد ما ورد في سبب نزول الآية أنّ الآيات نزلت في العبّاس وشيبة و عليّ عليه السلام حين تفاخروا فذكر العبّاس سقاية الحاجّ ، وشيبة عمارة المسجد الحرام ، و عليّ الإيمان و الجهاد في سبيل الله فنزلت الآيات و سيجيء الرواية في البحث الروائيّ المتعلّق بالآيات .

و كيف كان فالآية وما يتلوها من الآيات تبيّن أنّ الزنة و القيمة إنّما هو للعمل إذا كان حيّاً بولوج روح الايمان فيه وأمّا الجسد الخالي الّذي لا روح فيه ولا حياة له فلا وزن له في ميزان الدين ولا قيمة له في سوق الحقائق فليس للمؤمنين أن يعتبروا مجرّد هيا كل

الأعمال ، ويجعلوها ملاكات للفضل وأسباباً للقرب منه تعالى إلّا بعد اعتبار حياتها بالإيمان و الخلوص .

ومن هذه الجهة ترتبط الآية : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام » وما بعدها من الآيات بالآيتين اللّتين قبلها : «ماكان للمشركين أن يعمروا مساجدالله شاهدين على أنفسهم بالكفر » إلى آخر الآيتين .

وبذلك كلّه يظهر أوّلاً أنّ قوله : « والله لا يهدي القوم الظالمين » جملة حاليّة تبيّن وجه الإنكار لحكمهم بالمساواة في قوله : « أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كمن آمن » الآية .

وثانياً أنّ المراد بالظلم هو ماكانوا عليه من الشرك في حال السقاية والعمارة لاحكمهم بالمساواة بين السقاية والعمارة وبين الجهاد عن إيمان .

و ثالثاً : أنّ المراد نفي أن ينفعهم العمل و يهديهم إلى السعادة الّتي هي عظم الدرجة والفوز والرحمة والرضوان والجنّة الخالدة .

قوله تعالى : « الّذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم» إلى آخر الآية بيان لحقّ الحكم الّذي عند الله في المسألة بعد إنكار المساواة ، وهو أنّ الّذي آمن وهاجر و جاهد في سبيل الله ما استطاع ببذل ماعنده من مال و نفس ،أعظم درجة عند الله و إنّما عبّر في صورة الجمع ـ الّذين آمنوا الخ ـ إشارة إلى أنّ ملاك الفضل هو الوصف دون الشخص .

وما تقدّم من دلالة الكلام على أنّ الأعمال من غير إيمان بالله لا فضل لها ولا درجة لصاحبها عند الله ، قرينة على أن ليس المراد بالقياس الّذي يدلّ عليه أفعل التفضيل في قوله : « اُولئك أعظم درجة » الخ هو أنّ بين الفريقين اشتراكاً في الدرجات غير أنّ درجة من جاهد عن إيمان أعظم ممّن سقى وعمر .

بل المراد بيان أنّ النسبة بينهما نسبة الأفضل إلى من لافضل له كالمقايسة المأخوذة بين الأكثر والأقلّ فإنّها تستدعي وجود حدّ متوسّط بينهما يقاسان إليه فهناك ثلاثة اُمور أمر متوسّط يؤخذ مقياساً معدّلاً وآخر يكون أكثر منه ، وآخر يكون أقلّ منه فإذا قيس الأكثر من الأقلّ كان الأكثر مقيساً إلى ما لا كثرة فيه أصلاً .

فقوله : « أُولئك أعظم درجة عند الله » أي بالقياس إلى هؤلاء الّذين لا درجة لهم أصلاً ، وهذا نوع من الكناية عن أن لا نسبة حقيقة بين الفريقين لأنّ أحدهما ذو قدم رفيع فيما لاقدم للآخر فيه أصلاً .

ويدلّ على ذلك أيضاً قوله : « وأُولئك هم الفائزون » بما يدلّ على انحصار الفوز فيهم وثبوتها لهم على نهج الاستقرار .

قوله تعالى : « يبشّرهم ربّهم برحمة منة و رضوان وجنّات » إلى آخر الآيتين ظاهر السياق أنّ ما يعدّه من الفضل في حقّهم بيان و تفصيل لما ذكر في الآية السابقة من فوزهم جيء به بلسان التبشير .

فالمعنى « يبشّرهم » أي هؤلاء المؤمنين « ربّهم برحمة منه » عظيمة لا يقدّر قدرها « ورضوان » كذلك « وجنّات لهم فيها » في تلك الجنّات « نعيم مقيم » لا يزول ولا ينفد حالكونهم « خالدين فيها أبداً » لا ينقطع خلودهم بأجل ولا أمد .

ثمّ لمّا كان المقام مقام التعجّب والاستبعاد لكونها بشارة بأمر عظيم لم يعهد في ما نشاهده من أنواع النعيم الّذي في الدنيا ، رفع الاستبعاد بقوله : « إنّ الله عنده أجر عظيم » .

وسيوافيك الكلام في توضيح معنى رحمته تعالى ورضوانه فيما سيمرّ من موضع مناسب وقد تقدّم بعض الكلام فيهما .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم و إخوانكم أولياء » إلى آخر الآية نهي عن تولّي الكفّار و لو كانوا آباءً و إخواناً فإنّ الملاك عامّ ، والآية التالية تنهى عن تولّي الجميع غير أنّ ظاهر لفظ الآية النهي عن اتّخاذ الآباء والإخوان أولياء إن استحبّوا الكفر ورجّحوه على الإيمان .

وإنّما ذكر الآباء والإخوان دون الأبناء والأزواج مع كون القبيلين و خاصّة الأبناء محبوبين عندهم كالآباء والإخوان لأنّ التولّي يعطي للوليّ أن يداخل اُمور وليّه ويتصرّف في بعض شؤون حياته ، وهذا هو المحذور الّذي يستدعي النهي عن تولّي الكفّار حتّى لا يداخلوا في اُمورهم الداخليّة ولا يأخذوا بمجامع قلوبهم ، ولا يكفّ المؤمنون

ولا يستنكفوا عن الإقدام فيما يسوؤهم و يضرّهم ، ومن المعلوم أنّ النساء والذراري لا يترقّب منهم هذا الأثر السيّىء إلّا بواسطة ، فلذلك خصّ النهي عن التولّي بالآباء والإخوان فهم الّذين يخاف نفوذهم في قلوب المؤمنين وتصرّفهم في شؤونهم .

وقد ورد النهي عن اتّخاذ الكفّار أولياء في مواضع من كلامه تقدّم بعضها في سورة المائدة وآل عمران والنساء والأعراف وفيها إنذار شديد و تهديدات بالغة كقوله تعالى : « ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم» المائدة :٥١ ، وقوله : « ويحذّركم الله نفسه »آل عمران :٢٨ وقوله : « ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء »آل عمران : ٢٨ و قوله : « أتريدون أن تجعلوا لله عليكم سلطاناً مبيناً » النساء : ١٤٤ .

وأنذرهم في الآية الّتي نحن فيها بقوله : « ومن يتولّهم منكم فاُولئك هم الظالمون» ولم يقل : « ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم » إذ من الجائز أن يتوهّم بعض هؤلاء أنّه منهم لأنّهم آباؤه وإخوانه فلا يؤثّر فيه التهديد أثراً جديداً يبعثه نحو رفض الولاية .

و كيف كان فقوله : « ومن يتولّهم منكم فاُولئك هم الظالمون» بما في الجملة من المؤكّدات كاسميّة الجملة ، ودخول اللام على الخبر وضمير الفصل يفيد تحقّق الظلم منهم واستقراره فيهم ، وقد كرّر الله في كلامه أنّ الله لا يهدي القوم الظالمين ، و قال في نظير الآية من سورة المائدة : « ومن يتولّهم منكم فإنّه منهم إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين » فهؤلاء محرومون من الهداية الإلهيّة لا ينفعهم شيء من أعمالهم الحسنة في جلب السعادة إليهم ، والسماحة بالفوز والفلاح عليهم .

قوله تعالى : « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم » إلى آخر الآية التفت من مخاطبتهم إلى مخاطبة النبيّ صلى الله عليه وآله إيماءً إلى الإعراض عنهم لما يستشعر من حالهم أنّ قلوبهم مائلة إلى الاشتغال بما لا ينفع معه النهي عن تولّي آبائهم و إخوانهم الكافرين ، وإيجاد الداعي في نفوسهم إلى الصدور عن أمر الله ورسوله ، وقتال الكافرين جهاداً في سبيل الله وإن كانوا آباءهم وإخوانهم .

والّذي يمنعهم من ذلك هو الحبّ المتعلّق بغير الله ورسوله والجهاد في سبيل الله ، وقد عدّ الله سبحانه اُصول ما يتعلّق به الحبّ النفسانيّ من زينة الحياة الدنيا ، وهي الآباء

والأبناء والإخوان والأزواج والعشيرة ـ وهؤلاء هم الّذين يجمعهم المجتمع الطبيعيّ بقرابة نسبيّة قريبة أو بعيدة أو سببيّة ـ والأموال الّتي اكتسبوها وجمعوها ، والتجارة الّتي يخشون كسادها والمساكن الّتي يرضونها ـ وهذه اُصول مايقوم به المجتمع في المرتبة الثانية ـ .

وذكر تعالى أنّهم إن تولّوا أعداء الدين ، وقدّموا حكم هؤلاء الاُمور على حبّ الله ورسوله والجهاد في سبيله فليتربّصوا ولينتظروا حتّى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين .

ومن المعلوم أنّ الشرط أعني قوله : « إن كان آباؤكم ـ إلى قوله ـ في سبيله » في معنى أن يقال : إن لم تنتهوا عمّا ينهاكم عنه من اتّخاذ الآباء والإخوان الكافرين أولياء باتّخاذكم سبباً يؤدّي إلى خلاف ما يدعوكم إليه ، وإهمالكم في أمر غرض الدين وهو الجهاد في سبيل الله .

فقوله في الجزاء : « فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره » لا محالة إمّا أمر يتدارك به ما عرض على الدين من ثلمة وسقوط غرض في ظرف مخالفتهم، وإمّا عذاب يأتيهم عن مخالفة أمر الله ورسوله والإعراض عن الجهاد في سبيله .

غير أنّ قوله تعالى في ذيل الآية : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » يعرّض لهم أنّهم خارجون حينئذ عن زيّ العبوديّة ، فاسقون عن أمر الله ورسوله فهم بمعزل من أن يهديهم الله بأعمالهم و يوفّقهم لنصرة الله و رسوله ، و إعلاء كلمة الدين و إمحاء آثار الشرك .

فذيل الآية يهدي إلى أنّ المراد بهذا الأمر الّذي يأمرهم الله أن يتربّصوله حتّى يأتي به أمر منه تعالى، متعلّق بنصرة دينه و إعلاء كلمته فينطبق على مثل قوله تعالى في سورة المائدة بعد آيات ينهى فيها عن تولّي الكافرين : «ياأيّها الّذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبّهم ويحبّونه أذلّة على المؤمنين أعزّة على الكافرين يجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم» المائدة :٥٤

و الآية بقيودها و خصوصيّاتها ـ كما ترى ـ تنطبق على ما تفيده الآية الّتي نحن فيها .

فالمراد ـ والله أعلم ـ إن اتّخذتم هؤلاء أولياء ، واستنكفتم عن إطاعة الله و رسوله والجهاد في سبيل الله فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره ، ويبعث قوماً لا يحبّون إلّا الله ، ولا يوالون أعداءه ويقومون بنصرة الدين والجهاد في سبيل الله أفضل قيام فإنّكم إذاً فاسقون لا ينتفع بكم الدين ، ولا يهدي الله شيئاً من أعمالكم إلى غرض حقّ و سعادة مطلوبة .

وربّما قيل : إنّ المراد بقوله : «فتربّصوا حتّى يأتي الله بأمره» الإشارة إلى فتح مكّة ، وليس بسديد فإنّ الخطاب في الآية للمؤمنين من المهاجرين والأنصار و خاصّة المهاجرين ، وهؤلاء هم الّذين فتح الله مكّة بأيديهم ، ولا معنى لأن يخاطبوا و يقال لهم : إن كان آباؤكم وأبناؤكم الخ أحبّ إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فواليتموهم واستنكفتم عن إطاعة الله ورسوله والجهاد في سبيله فتربّصوا حتّى يفتح الله مكّة بأيديكم والله لا يهدي القوم الفاسقين ، أوفتربّصوا حتّى يفتح الله مكّة والله لا يهديكم لمكان فسقكم فتأمّل .

(بحث روائي)

في تفسير البرهان في قوله تعالى : « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية عن أمالي الشيخ بإسناده عن الأعمش عن سالم بن أبي الجعد يرفعه إلى أبي ذرّ ـ في حديث الشورى ـ فيما احتجّ به عليّ عليه السلام على القوم : وقال لهم في ذلك : فهل فيكم أحد نزلت فيه هذه الآية « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر وجاهد في سبيل الله» غيري ؟ قالوا : لا .

و في تفسير القمّيّ قال : و في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : « نزلت هذه الآية في عليّ بن أبي طالب عليه السلام : « الّذين آمنوا وهاجروا ـ إلى قوله ـ

الفائزون» ثمّ وصف ما لعليّ عليه السلام عنده فقال : يبشّرهم ربّهم برحمة منه ورضوان وجنّات لهم فيها نعيم مقيم » .

وفي المجمع روى الحاكم أبو القاسم الحسكانيّ بإسناده عن أبي بريدة عن أبيه قال : بينا شيبة والعبّاس يتفاخران إذ مرّ عليهما عليّ بن أبي طالب قال : بما تفتخران ؟ قال العبّاس : لقد اُوتيت من الفضل ما لم يؤت أحد سقاية الحاجّ ، وقال شيبة : اُوتيت عمارة المسجد الحرام ، و قال عليّ : و أنا أقول لكما لقد اُوتيت على صغري ما لم تؤتيا فقالا : و ما اُوتيت يا عليّ ؟ قال : ضربت خراطيمكما بالسيف حتّى آمنتما بالله تبارك و تعالى ورسوله .

فقام العبّاس مغضباً يجرّ ذيله حتّى دخل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : أما ترى ما استقبلني به عليّ ؟ فقال : اُدعوا لي عليّاً فدعي له فقال : ما حملك يا عليّ على ما استقبلت به عمّك ؟ فقال : يا رسول الله صدقته الحقّ فإن شاء فليغضب ، وإن شاء فليرض .

فنزل جبرئيل عليه السلام و قال : يا محمّد ربّك يقرء عليك السلام و يقول : اتل عليهم : «أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - إنّ الله عنده أجر عظيم » .

و في تفسير الطبريّ بإسناده عن محمّد بن كعب القرظيّ قال : افتخر طلحة بن شيبة والعبّاس وعليّ بن أبي طالب فقال طلحة : أنا صاحب البيت معي مفتاحه ، وقال العبّاس : و أنا صاحب السقاية والقائم عليها فقال عليّ : ما أدري ما تقولان لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس ، و أنا صاحب الجهاد فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية كلّها .

وفي الدرّ المنثور أخرج الفاريابيّ عن ابن سيرين قال : قدم عليّ بن أبي طالب مكّة فقال للعبّاس : أي عمّ ألا تهاجر؟ ألا تلحق برسول الله صلّى الله عليه وآله ؟ فقال : أعمر المسجد الحرام و أحجب البيت فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية ، و قال لقوم قد سمّاهم : ألا تهاجرون ؟ ألا تلحقون برسول الله صلّى الله عليه وآله ؟ فقالوا : نقيم مع إخواننا و عشائرنا ومساكننا فأنزل الله تعالى : « قل إن كان آباؤكم » الآية كلّها .

و فيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال : قال العبّاس حين اُسر يوم بدر : إن كنتم سبقتمونا بالإسلام والهجرة والجهاد لقد كنّا نعمر المسجد الحرام ونسقي الحاجّ ونفكّ العاني (١) فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية يعني أنّ ذلك كان في الشرك فلا أقبل ما كان في الشرك .

وفيه أخرج مسلم و أبو داود وابن جرير وابن المنذر و ابن أبي حاتم و ابن حبّان والطبرانيّ وأبو الشيخ و ابن مردويه عن النعمان بن بشير قال : كنت عند منبر رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في نفر من أصحابه فقال رجل منهم : ما اُبالي أن لا أعمل لله عملاً بعد الإسلام إلّا أن أسقي الحاجّ ، وقال آخر : بل عمارة المسجد الحرام ، و قال آخر : بل الجهاد في سبيل الله خير ممّا قلتم .

فزجرهم عمر و قال : لا ترفعوا أصواتكم عند منبر رسول الله صلّى الله عليه و سلّم ، و ذلك يوم الجمعة ، ولكن إذا صلّيتم الجمعة دخلت على رسول الله صلّى الله عليه و سلّم فاستفتيته فيما اختلفتم فيه فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ ـ إلى قوله ـ والله لا يهدي القوم الظالمين » .

أقول : قال صاحب المنار في تفسيره بعد إيراد هذه الروايات الأربع الأخيرة : والمعتمد من هذه الروايات حديث النعمان لصحّة سنده وموافقة متنه لما دلّت عليه الآيات من كون موضوعها في المفاضلة أو المساواة بين خدمة البيت وحجابته ـ من أعمال البرّ البدنيّة الهيّنة المستلذّة ـ وبين الإيمان والجهاد بالمال والنفس والهجرة ، و هي أشقّ العبادات النفسيّة البدنيّة الماليّة ، والآيات تتضمّن الردّ عليها كلّها . انتهى .

أمّا ما ذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها بصحّة السند ففيه أوّلاً أنّ رواية القرظيّ أيضاً في مضمونها موافقة لرواية الحاكم في المستدرك وقد صحّحها . وثانياً : أنّ روايات التفسير إذا كانت آحاداً لا حجّيّة لها إلّا ما وافق مضامين الآيات بقدر ما يوافقها على ما بيّن في فنّ الاُصول فإنّ الحجّيّة الشرعيّة تدور مدار الآثار الشرعيّة المترتّبة فتنحصر في الأحكام الشرعيّة وأمّا ما وراءها كالروايات الواردة في القصص والتفسير الخالي

(١) العانى : الاسير

عن الحكم الشرعيّ فلاحجيّة شرعيّة فيها .

وأمّا الحجيّةالعقليّة أعني العقلائيّة فلا مسرح لها بعد توافر الدسّ والجعل في الأخبار سيّما أخبار[1] التفسير والقصص إلّا ما تقوم قرائن قطعيّة يجوز التعويل عليها على صحّة متنه ، ومن ذلك موافقة متنه لظواهر الآيات الكريمة .

فالّذي يهمّ الباحث عن الروايات غير الفقهيّة أن يبحث عن موافقتها للكتاب فإن وافقتها فهي الملاك لاعتبارها ولوكانت مع ذلك صحيحة السند فإنّما هي زينة زيّنت بها وإن لم توافق فلا قيمة لها في سوق الاعتبار .

وأمّا ترك البحث عن موافقة الكتاب ، والتوغّل في البحث عن حال السند ـ إلّا ما كان للتوسّل إلى تحصيل القرائن ـ ثمّ الحكم باعتبار الرواية بصحّة سندها ثمّ تحميل ما يدلّ عليه متن الرواية على الكتاب ، واتّخاذه تبعاً لذلك كما هو دأب كثير منهم فممّا لا سبيل إليه من جهة الدليل .

وأمّا ماذكره من رجحان رواية النعمان على غيرها من جهة المتن مبيّناً ذلك بأنّ الآيات تدلّ على أنّ موضوع المساواة أو المفاضلة كان بين خدمة البيت أوحجابته وهي من أعمال البرّ البدنيّة الهيّنة المستلذّة ، وبين الإيمان والجهاد والهجرة وهي من أعمال البرّ النفسيّة و البدنيّة الشاقّة ، و الآيات تتضمّن الردّ عليها كلّها . انتهى .

ففيه أوّلاً : أنّ الّذي ذكره من مدلول الآيات مشترك بين جميع ما أورده من الروايات :

أمّا رواية ابن عبّاس الّتي مضمونها وقوع الكلام في المساواة أو المفاضلة حين اُسر العبّاس يوم بدر بين العبّاس و بين المسلمين حيث عيّروه فقد ذكر فيها صريحاً المقايسة بين الإسلام والهجرة والجهاد وبين سقاية الحاجّ وعمارة المسجد و فكّ العاني ، و هناك روايات اُخر في معناها .

وأمّا رواية ابن سيرين الدالّة على وقوع النزاع بين عليّ و العبّاس بمكّة حين دعاه إلى الهجرة و اللحوق بالنبيّ ﷺ فأجابه بأنّ له عمارة المسجد الحرام و حجابة

(١) وقد اعترف في مواضع من كلامه ونقل عن احمد انه قال : لا أصل لها .

البيت وقد روى هذا المعنى ابن مردويه عن الشعبي وفيها : أن العبّاس قال لعلي : أنا عم النبي ﷺ ، وأنت ابن عمّه ، وإلي سقاية الحاج وعمارة المسجد الحرام فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاج » الآية .

ورواه أيضاً ابن أبي شيبة وأبو الشيخ وابن مردويه عن عبدالله بن عبيدة و فيها : أن العبّاس قال لعلي : أولست في أفضل من الهجرة ؟ ألست أسقي الحاج و أعمر المسجد الحرام فنزلت هذه الآية .

وعلى أي حال فالواقع في هذه الرواية أيضاً المقايسة بين السقاية و العمارة و بين الهجرة وما يترتّب عليها ممّا يستلزمه اللحوق بالنبي ﷺ كالجهاد و غيره من الأعمال الشريفة الدينيّة .

وأمّا رواية القرظي وما في معناها كالّذي رواه الحاكم و صحّحه ، وما رواه عبد الرزّاق عن الحسن قال : نزلت في علي والعبّاس وعثمان وشيبة [1] تكلّموا في ذلك ، و كذا رواية النعمان الّتي تقدّمت فكون المنازعة فيها في السقاية و العمارة و الإيمان و الجهاد ظاهر فإذا كان الحال هذا الحال فأي مزيّة في رواية النعمان بن بشير توجب اختصاصها بموافقة الكتاب من بين سائر الروايات .

وثانياً : أن قوله : إن موضوع المفاضلة هي أعمال البر الهيّنة المستلذّة كالسقاية و الحجابة وأعمال البر الشاقّة كالإيمان والهجرة و الجهاد لا يوافق مايدل عليه الآيات فإنّها كما تقدّم ظاهرة الدلالة على أن المقايسة كانت بينهم بين أجساد الأعمال الخالية عن روح الإيمان وليست من البر حينئذ و بين أعمال حيّة بولوج روح الإيمان فيها كالهجرة والجهاد عن إيمان بالله واليوم الآخر .

فالآيات تدل على أنّهم كانوا يسوّون أو يفضّلون غير أعمال البر كالسقاية و العمارة من غير إيمان على أعمال البر كالجهاد عن إيمان وهجرة والهجرة عن إيمان فأين ما ذكره من أعمال البر الهيّنة قبال أعمال البر الشاقّة ؟ [2] .

---

(١) ابن شيبة ظ .

(٢) نعم زعم هو أن السقاية و العمارة من العباس في حال شركه من أعمال البر كما زعمه العباس غير أن الايات بنزولها نبهت العباس أنه كان قد أخطأ في مزعمته كمايشعربه ذيل رواية ابن عباس ولم يتنبه هو لما تنبه له العباس رضى الله عنه .

ودلالة الآيات ـ بما فيها من القيود المأخوذة ـ على ذلك بمكان من الظهور والجلاء فقد قيّد الجهاد فيها بالإيمان بالله واليوم الآخر ، وأطلق السقاية والعمارة من غير تقييد بالإيمان ثمّ قال تعالى : « لايستوون عندالله » ثمّ زاد : « والله لايهدي القوم الظالمين » و حاشا أن يكون الآتي بأعمال البرّ عندالله من القوم الظالمين المحرومين عن نعمة الهداية الإلهيّة .

حتّى لوفرض أنّ المراد بالظالمين اُولئك المسوّون أوالمفضّلون من المؤمنين للسقاية والعمارة على الجهاد فإنّ المؤمن على إيمانه إذا حكم بمثل هذا الحكم فإنّما هو خاط يهتدي إذا دُلّ على الصواب لاظالم محروم من الهداية فافهم ذلك .

وثالثاً : ماتقدّم من أنّ قوله : « كمن آمن بالله » الآية وقوله : « لايستوون » الآية دليل على أنّ للشخص دخلاً فيما تتضمّن الآيات من الحكم .

والتدبّر في الآيات الكريمة والتأمّل فيما ذكرناه هنا وهناك يوضح للباحث الناقد أنّ أضعف الروايات و أبعدها من الانطباق على مضمون الآيات هي رواية النعمان بن بشير فإنّها لا تقبل الانطباق على الآيات الكريمة بما فيها من القيود المأخوذة .

ويليها في الضعف رواية ابن سيرين وما في معناها من الروايات فإنّ ظاهرها أنّ العبّاس إنّما دعي إلى الهجرة وهو مسلم فافتخر بالسقاية و الحجابة و الآيات لا تساعد على ذلك كمامرّ .

على أنّ الواقع في رواية ابن سيرين ذكر العبّاس للسقاية وحجابة البيت ولم يكن له حجابة إنّما هي السقاية .

ويليها في الضعف رواية ابن عبّاس فظاهرها أنّ المقايسة إنّما كانت بين الأعمال فقط والآية لاتساعد على ذلك .

على أنّ فيها أنّ العبّاس ذكر فيما ذكر سقاية الحاجّ وعمارة المسجد وفكّ العاني وهو الأسير . ولوكان لذكر في الآية ، وقد وقع في رواية ابن جرير وأبي الشيخ عن الضحّاك في هذا المعنى قال : أقبل المسلمون على العبّاس وأصحابه الّذين اُسروا يوم بدر يعيّرونهم بالشرك . فقال العبّاس : أما والله لقد كنّا نعمر المسجد الحرام ، ونفكّ العاني ، ونحجب

البيت ونسقي الحاجّ فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ » الآية ، والكلام في فكّ العاني وحجابة البيت الواقعين فيها كالكلام في سابقها .

فأسلم الروايات في الباب وأقربها إلى الانطباق على الآيات مضموناً رواية القرظيّ وما في معناها كرواية الحاكم في المستدرك ورواية عبدالرزّاق عن الحسن و رواية أبي نعيم وابن عساكر عن أنس الآتية ، وقد تقدّم توضيح ذلك .

وفي الدرّ المنثور أخرج أبونعيم في فضائل الصحابة و ابن عساكر عن أنس قال : قعد العبّاس و شيبة صاحب البيت يفتخران فقال العبّاس : أنا أشرف منك أنا عمّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، ووصيّ أبيه ، و ساقي الحجيج ، فقال شيبة : أنا أشرف منك أنا أمين الله على بيته وخازنه أفلا ائتمنك كما ائتمنني ؟

فاطّلع عليهما عليّ فأخبراه بما قالا فقال عليّ : أنا أشرف منكما أنا أوّل من آمن وهاجر فانطلق ثلاثتهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله فأخبروه فما أجابهم بشيء فانصرفوا فنزل عليه الوحي بعد أيّام فأرسل إليهم فقرأ عليهم : « أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام » إلى آخر العشر .

وفي تفسير القمّي عن أبيه عن صفوان عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام : قال : نزلت في عليّ والعبّاس وشيبة . قال العبّاس : أنا أفضل لأنّ سقاية الحاجّ بيدي ، وقال شيبة : أنا أفضل لأنّ حجابة البيت بيدي ، و قال عليّ : أنا أفضل فإنّي آمنت قبلكما ثمّ هاجرت وجاهدت فرضوا برسول الله صلى الله عليه وآله فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ ـ إلى قوله ـ إنّ الله عنده أجر عظيم » .

أقول : ورواه العيّاشيّ عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام مثله ، وفيه عثمان بن أبي شيبة مكان شيبة .

وفي الكافي عن أبي عليّ الأشعريّ عن محمّد بن عبدالجبّار عن صفوان بن يحيى عن ابن مسكان عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام في قول الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ و عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » نزلت في حمزة وعليّ و جعفر و العبّاس و شيبة . إنّهم فخروا بالسقاية والحجابة فأنزل الله عزّ ذكره : « أجعلتم سقاية الحاجّ و

عمارة المسجد الحرام كمن آمن بالله واليوم الآخر » وكان عليّ وحمزة و جعفرهم الّذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله . لايستوون عندالله .

أقول : ورواه أيضاً العيّاشي في تفسيره عن أبي بصير عن أحدهما عليهما السلام مثله .

والرواية لاتلائم مايثبته النقل القطعيّ فقد كان حمزة من المهاجرين الأوّلين لحق برسول الله صلى الله عليه وآله ثمّ استشهد في غزوة أحد في السنة الثالثة من الهجرة ، وقد كان جعفر هاجر إلى الحبشة قبل هجرة النبيّ صلى الله عليه وآله ثمّ رجع إلى المدينة أيّام فتح خيبر وقد استشهد حمزة قبل ذلك بمدّة فلوكان من الخمسة اجتماع على التفاخر فقد كان قبل الهجرة النبويّة و حينئذ فما معنى ماوقع في الرواية : « وكان عليّ وحمزة وجعفر هم الّذين آمنوا بالله واليوم الآخر وجاهدوا في سبيل الله » ؟

وإن كان المراد بالنزول فيهم انطباق الآية عليهم على سبيل الجري فقد كان العبّاس مثلهم فإنّه آمن يوم اُسر ببدر ثمّ حضر بعض غزوات النبيّ صلى الله عليه وآله .

و في تفسير البرهان عن الجمع بين الصحاح الستّة للعبدي في الجزء الثاني من صحيح النسائيّ بإسناده قال : افتخر طلحة بن شيبة من بني عبدالدار والعبّاس بن المطّلب وعليّ بن أبي طالب فقال طلحة : بيدي مفتاح البيت ولو أشاء بتّ فيه ، و قال العبّاس : أنا صاحب السقاية والقائم عليها ولو أشاء بتّ في المسجد ، وقال عليّ : ما أدري ما تقولان ؟ لقد صلّيت إلى القبلة ستّة أشهر قبل الناس وأنا صاحب الجهاد فأنزل الله : « أجعلتم سقاية الحاجّ وعمارة المسجد الحرام » الآية .

أقول : المراد بالصلاة ستّة أشهر قبل الناس التقدّم في الإيمان بالله على ما تعرّضت له الآية وإلّا كان من الواجب أن تذكر في الآية ، وقد ذكر ثالث القوم طلحة بن شيبة ، وقد تقدّم في بعضها أنّه شيبة ، وفي بعضها أنّه عثمان بن أبي شيبة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه السلام في قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا لا تتّخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبّوا الكفر على الإيمان » قال : الإيمان ولاية عليّ بن أبي طالب .

أقول : هو من باطن القرآن مبنيّ على تحليل معنى الإيمان إلى مراتب كماله.

و في تفسير القمّيّ : لمّا أذن أميرالمؤمنين أن لا يدخل المسجد الحرام مشرك بعد ذلك جزعت قريش جزعاً شديداً ، و قالوا : ذهبت تجارتنا و ضاعت عيالنا و خربت دورنا فأنزل الله في ذلك : «قل ـ يامحمّد ـ إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ـ إلى قوله ـ والله لايهدي القوم الفاسقين » .

أقول : و على هذا كان من الحريّ أن يفسّر قوله في الآية : « حتّى يأتي الله بأمره » بتدارك ما ينزل بهم من الكساد وفتح باب الرزق عليهم من وجه آخر كما وقع مثله في قوله تعالى في ضمن الآيات التالية : «يا أيّها الّذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلا يدخلوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا وإن خفتم عيلة فسوف يغنيكم الله من فضله إن شاء إنّ الله عليم حكيم » التوبة : ٢٨ .

بل اتّحد حينئذ موردا الآيتين ، و لسان الرفق و كرامة الخطاب بمثل قوله : «ياأيّها الّذين آمنوا » يأبى أن يكون الخطاب بقوله : « إن كان آباؤكم و أبناؤكم » الآية متوجهاً إليهم بأعيانهم على ما في آخرها من الخشونة في قوله : « والله لايهدي القوم الفاسقين» .

على أنّ الآية تذكر حبّ الآباء والإخوان و العشيرة و الأموال الّتي اقترفوها ، ولم يذكر شيء منها في الرواية ، ولا حسبت قريش ضيعة بالنسبة إليها فما معنى ذكرها في الآية والتهديد على اختيار حبّها على حبّ الله ورسوله ؟ ومامعنى ذكر الجهاد في سبيله في الآية ؟ فافهم ذلك .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والبخاريّ عن عبدالله بن هشام قال : كنّا مع رسول الله ﷺ وهو آخذ بيد عمر بن الخطّاب فقال : والله لأنت يا رسول الله أحبّ إليّ من كلّ شيء إلّا من نفسي . فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : لا يؤمن أحدكم حتّى أكون أحبّ إليه من نفسه .

***

لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ (٢٥) ثُمَّ أَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَنْزَلَ جُنُودًا لَمْ تَرَوْهَا وَعَذَّبَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (٢٦) ثُمَّ يَتُوبُ اللَّهُ مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَلَى مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٢٧) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ إِنْ شَاءَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٨) .

﴿ بيان ﴾

تشير الآيات إلى قصّة غزوة حنين وتمتنّ بما نصر الله فيه المؤمنين كسائر المواطن من الغزوات الّتي نصرهم الله بعجيب نصرته على ضعفهم وقلّتهم ، وأظهر أعاجيب آياته بتأييد نبيّه صلى الله عليه وآله وإنزال الجنود لم يروها وإنزال السكينة على رسوله والمؤمنين وتعذيب الكافرين بأيدي المؤمنين .

وفيها الآية الّتي تحرّم على المشركين أن يدخلوا المسجد الحرام بعد عام تسع من الهجرة ، وهي العام الّذي أذن فيه عليّ عليه السلام ببراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، و دخول المشركين في المسجد الحرام .

قوله تعالى : « لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين - إلى قوله - ثمّ ولّيتم مدبرين » المواطن جمع موطن وهو الموضع الّذي يسكنه الإنسان و يتوطّن فيه . و حنين إسم واد بين مكّة والطائف وقع فيه غزوة حنين قاتل فيه النبيّ صلى الله عليه وآله هوازن وثقيف

وكان يوماً شديداً على المسلمين انهزموا أوّلاً ثم أيّدهم الله بنصره فغلبوا .

والإعجاب الإسرار والعجب سرور النفس بما يشاهده نادراً ، و الرحب السعة في المكان وضدّه الضيق .

وقوله : « لقدنصركم اللهفي مواطن كثيرة » ذكرلنصرته تعالى لهم في مواطن كثيرة ومواضعمتعددة يدلّ السياق على أنّها مواطن الحروب كوقائع بدر واُحد والخندق وخيبر وغيرها ، ويدلّ السياق أيضاً أنّ الجملة كالمقدّمة الممهّدة لقوله : « ويومحنينإذ أعجبتكم كثرتكم » الآية فإنّ الآيات الثلاث مسوقة لتذكير قصّة وقعة حنين ، وعجيب ما أفاض الله عليهم من نصرته وخصّهم به من تأييده فيها .

وقد استظهر بعض المفسّرين كون الآية وما يتلوها إلى تمام الآيات الثلاثتتمّة لقول النبيّ ﷺ فيما أمره ربّه أن يواجه به المؤمنين في قوله : « قل إن كان آباؤكم » الآية وتكلّف في توجيه الفصل الّذي في قوله : «لقد نصركمالله فيمواطن كثيرة» .

ولا دليل من جهة اللفظ على ذلك بل الدليل على خلافه فإنّ قصّة حنين وما يشتمل عليه من الامتنان بنصرالله و إنزال السكينة وإنزال الجنود و تعذيب الكافرين و التوبة على من يشاء أمرمستقلّ في نفسه ذوأهمّيّة في ذاته وهو أهمّ هدفاً من قولهتعالى: « قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم » الآية أوهو مثله لايقصر عنه فلا معنى لإتباعه إيّاه وعطفه عليه في المعنى .

وحينئذ لوكان ممّا يجب أن يخاطب به القوم لكان من الواجب أن يقال : « و قل لهم لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » الآية ، على ماجرى عليه القرآن في نظائره كقوله تعالى : « قل إنّما أنابشر مثلكم يوحى إليّ أنّما إلهكم إله واحد ـ إلى أن قال ـ قل أئنّكم لتكفرون بالّذي خلق الأرض في يومين » حم السجدة : ٩ و غيره من الموارد .

على أنّ سياق الآيات ومايجب أن تشتمل عليه من الالتفات وغيره ـ لوكانت الآيات مقولة للقول ـ لاتلائم كونها مقولة للقول السابق .

والخطاب فيقوله : « لقد نصركم الله » ومايتلوه منقوله : « إذ أعجبتكم كثرتكم» الآية للمسلمين وهم الّذين يؤلّفون مجتمعاً إسلاميّاً واحداً حضروا بوحدتهم هذهالوحدة

أمثال وقائع بدر واُحد والخندق وخيبر أوحنيناً وغيرها .

و هؤلاء فيهم المنافقون و الضعفاء في الإيمان و المؤمنون صدقاً على اختلافهم في المنازل إلّا أنّ الخطاب متوجّـه إلى الجميع باعتبار اشتماله على من يصحّ أن يخاطب بمثل قوله : «إن أعجبتكم كثرتكم» إلى آخر الآية .

وقوله : « ويوم حنين » أي و يوماً وقعت فيه القتال بينكم و بين أعدائكم بوادي حنين ، وإضافة اليوم إلى أمكنة الوقائع العظيمة شائع في العرف كما يقال : يوم بدر ويوم اُحد ويوم الخندق نظير إضافته إلى الجماعة المتلبّسين بذلك كيوم الأحزاب ويوم تميم ، وإضافته إلى نفس الحادثة كيوم فتح مكّة .

وقوله : «إن أعجبتكم كثرتكم» أي أسرّتكم الكثرة الّتي شاهدتموها في أنفسكم فانقطعتم عن الاعتماد بالله والثقة بأيده وقوّته واستندتم إلى الكثرة فرجوتم أن ستدفع عنكم كيد العدوّ وتهزم جمعهم ، وإنّما هو سبب من الأسباب الظاهريّة لا أثر فيها إلّا ماشاءالله الّذي إليه تسبيب الأسباب .

وبالنظر إلى هذا المعنى أردف قوله : « إن أعجبتكم كثرتكم » بقوله : « فلم تغن عنكم شيئاً » أي اتّخذتموها سبباً مستقلاً دون الله فأنساكم الاعتماد بالله ، وركنتم إليها فبان لكم ما في وسع هذا السبب الموهوم وهو أن لاغنى عنده حتّى يغنيكم فلم يغن عنكم شيئاً لانصراً ولا شيئاً آخر .

وقوله : « وضاقت عليكم الأرض بما رحبت» أي مع مارحبت ، وهو كناية عن إحاطة العدوّ بهم إحاطة لايجدون مع ذلك مأمناً من الأرض يستقرّون فيه ولا كهفاً يأوون إليه فيقيهم من العدوّ ، أي فررتم فراراً لاتلوون على شيء .

فهو قريب المعنى من قوله تعالى في قصّة الأحزاب : « إن جاؤكم من فوقكم ومن أسفل منكم و إذ زاغت الأبصار و بلغت القلوب الحناجر و تظنّون بالله الظنّونا » الأحزاب : ١٠ .

و قول بعضهم : أي ضاقت عليكم الأرض فلم تجدوا موضعاً تفرّون إليه . غير سديد .

وقوله : « ثمّ ولّيتم مدبرين » أي جعلتم العدوّ يلي أدباركم وهو كناية عن الانهزام و هذا هو الفرار من الزحف ساقهم إليه اطمئنانهم بكثرتهم و الانقطاع من ربّهم قال تعالى: « يا أيّها الّذين آمنوا إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار و من يولّهم يومئذ دبره ـ إلى أن قال ـ فقد باء بغضب من الله و مأواه جهنّم و بئس المصير » الأنفال : ١٦ و قال أيضا : « و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب : ١٥ .

فهذا كلّه أعني ضيق الأرض عليهم بما رحبت ثم انهزامهم و فرارهم من الزحف على ما فيه من كبير الإثم ، و وقوفهم هذا الموقف الّذي يستتبع العتاب من ربّهم إنّما ساقهم إليه اعتمادهم واطمئنانهم إلى هذه الأسباب السرابيّة الّتي لاتغني عنهم شيئاً .

و الله سبحانه بسعة رحمته و عظم منّه امتنّ عليهم بنصره وإنزال سكينته و إنزال جنود لم يروها ، و تعذيب الكافرين ، و وعد مجمل بمغفرته: وعداً ليس بالمقطوع و جوده حتّى تبطل به صفة الخوف من قلوبهم ، ولا بالمقطوع عدمه حتّى تزول صفة الرجاء من نفوسهم بل وعداً يحفظ فيهم الاعتدال و التوسّط بين صفتي الخوف و الرجاء ، و يربّيهم تربية حسنة تعدّهم و تهيّئهم للسعادة الواقعيّة .

و قد أغرب بعض المفسّرين في تفسير الآية مستظهراً بما جمع به بين الروايات على اختلافها فأصرّ على ما ملخّصه أنّ المسلمين لم يفرّوا على جبن ، و إنّما انكشفوا عن موضعهم لما فاجأهم من شدّ كتائب ثقيف و هوازن عليهم شدّ رجل واحد فاضطربوا اضطرابة زلزلتهم و كشفتهم عن موضعهم دفعة واحدة وهذا أمر طبيعيّ في الإنسان إذا فاجأه الخطر و دهمته بليّة دفعة و من غير مهل اضطربت نفسه و خلّى عن موضعه .

و يشهد به نزول السكينة على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم و عليهم جميعاً فقد كان الاضطراب شمله و إيّاهم جميعاً ، غير أنّ النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أصابه ما أصابه من الاضطراب والقلق حزناً و أسفاً ممّا وقع ، و المسلمون شملهم ذلك لما فوجئوا به من حملة الكتائب حملة رجل واحد .

و من الشواهد أنّهم بمجرّد ماسمعوا نداء الرسول صلى الله عليه وآله وسلم و نداء العبّاس بن عبد

المطّلب رجعوا من فورهم و هزموا الكفّار بالسكينة النازلة عليهم من عند الله تعالى .

ثمّ ذكر ما نزل من الآيات في صفة الصحابة كآية بيعة الرضوان ، و قوله تعالى : «محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار» الآية ، و قوله : «إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم و أموالهم بأنّ لهم الجنّة» الآية ، و ماورد من طريق الرواية في مدح صحابة النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم . انتهى .

و الّذي أورده من الخلط بين البحث التفسيريّ الّذي لاهمّ له إلّا الكشف عمّا يدلّ عليه الآيات الكريمة ، و بين البحث الكلاميّ الّذي يرام به إثبات ما يدّعيه المتكلّم في شيء من المذاهب من أيّ طريق أمكن من عقل أو كتاب أو سنّة أو إجماع أو المختلط منها و البحث التفسيريّ لا يبيح لباحثه شيئاً من ذلك ، ولا تحميل أيّ نظر من الأنظار العلميّة على الكتاب الّذي أنزله الله تبياناً .

أمّا قوله : إنّهم لم يفرّوا جبناً ولاخذلاناً للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وإنّما كان انكشافاً لأمر فاجأهم فاضطربوا و زلزلوا ففرّوا ثمّ كرّوا فهذا ممّا لايندفع به صريح قوله تعالى : «ثمّ ولّيتم مدبرين» مع اندراج هذا الفعل منهم تحت كلّيّة قوله تعالى في آية تحريم الفرار من الزحف : «فلا تولّوهم الأدبار و من يولّهم يومئذ دبره - إلى أن قال - فقدباء بغضب من الله» الآية .

ولم يقيّد سبحانه النهي عن تولية الأدبار بأنّه يجب أن يكون عن جبن أولغرض الخذلان ، ولا استثنى من حكم التحريم كون الفرار عن اضطراب مفاجيء ، ولا أورد في استثنائه إلّا ما ذكره بقوله : «إلّا متحرّفاً لقتال أو متحيّزاً إلى فئة» و ليس هذان المستثنيان في الحقيقة من الفرار من الزحف .

ولم يورد تعالى أيضا فيما حكى من عهدهم شيئاًمن الاستثناء إذ قال : «و لقد كانوا عاهدوا الله من قبل لايولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً» الأحزاب : ١٥ .

و أمّا استشهاده على ذلك بأنّ الإضطراب كان مشتركاً بينهم وبين النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، و استدلاله على ذلك بقوله تعالى : «ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين» حيث إنّ نزول السكينة بعد انكشافهم بزمان - على ما تدلّ عليه كلمة ثمّ - يلازم نزول

الاضطراب عند ذلك على النبيّ ﷺ و إن كان عن حزن و أسف إذ لايتصوّر في حقّه ﷺ التزلزل في ثباته و شجاعته .

فلننظر فيما اعتبره للنبيّ ﷺ من الحزن و الأسف هل كان ذلك حزناً و أسفاً على ما وقع من الأمر من انهزام المسلمين و ما ابتلاهم الله به من الفتنة و المحنة جزاءً لما أعجبوا من كثرة عددهم ، و بالجملة حزناً مكروهاً عند الله؟فقد نزّهه الله عن ذلك وأدّبه بمانزّل عليه من كتابه و علّمه من علمه ، وقد اُنزل عليه مثل قوله عزّمن قائل : « ليس لك من الأمر شيء » آل عمران : ١٢٨ ، وقال : « سنقرؤك فلا تنسى » الأعلى : ٦ .

ولم يرد في شيء من روايات القصّة أنّه ﷺ زال عن مكانه يومئذ أو اضطرب اضطراباً ممّا نزل على المسلمين من الوهن و الانهزام .

و إن كان ذلك حزناً وأسفاً على المسلمين لما أصابهم من ناحية خطاءهم في الاعتماد بغير الله و الركون إلى سراب الأسباب الظاهرة ، و الذهول عن الاعتصام بالله سبحانه حتّى أوقعهم في خطيئة الفرار من الزحف لماكان هو ﷺ عليه من الرأفة و الرحمة بالمؤمنين فهذا أمر يحبّه الله سبحانه و قد مدح رسوله ﷺ به إذ قال : « بالمؤمنين رؤوف رحيم » التوبة : ١٢٨ .

و ليس يزول مثل هذا الأسف و الحزن بنزول السكينة عليه ، ولا أنّ السكينة لوفرض نزولها لأجله ممّا حدث بعد وقوع الانهزام حتّى يكون النبيّ ﷺ خالياً عنها قبل ذلك بل كان ﷺ على بيّنة من ربّه منذبعثه الله إلى أن قبضه إليه ، وكانت السكينة بهذا المعنى نازلة عليه حيناً بعد حين .

ثمّ السكينة الّتي نزلت على المؤمنين ماهي ؟ و ماذا يحسبها ؟ أكانت هي الحالة النفسانيّة الّتي تحصل من السكون والطمأنينة كما فسّرها بها واستشهد عليه بقول صاحب المصباح : إنّها تطلق على الرزانة و المهابة و الوقار حتّى كانت ثبات الكفّار و سكونهم في مواقفهم الحربيّة عن سكينة نازلة إليهم؟فإن كانت السكينة هي هذه فقد كانت في أوّل الوقعة عند كفّار هوازن و ثقيف خصماء المسلمين ثمّ تركتهم و نزلت على عامّة جيش المسلمين من مؤمن ثبت مع رسول الله ﷺ ومن مؤمن لم يثبت واختار الفرار على القرار ،

ومن منافق ومن ضعيف الإيمان مريض القلب فإنّهم جميعاً رجعوا ثانياً إلى النبيّ صلّى الله عليه وآله ، و ثبتوا معه حتّى هزموا العدوّ فهم جميعاً أصحاب السكينة أنزلها الله إليهم فما باله تعالى يقصر إنزال السكينة على رسوله و على المؤمنين إذ يقول : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين » ؟

على أنّه إن كانت السكينة هي هذه ، و هي مبتذلة مبذولة لكلّ مؤمن و كافر فما معنى ما امتنّ الله به على المؤمنين بماظاهره أنّها عطيّة خاصّة غير مبتذلة ؟ ولم يذكرها في كلامه إلّا في موارد معدودة ـ بضعة موارد ـ لاتبلغ تمام العشرة .

وبذلك يظهر أنّ السكينة أمروراء السكون والثبات لا أنّ لها معنى في اللغة أو العرف وراء مفهوم الحالة النفسانيّة الحاصلة من السكون والطمأنينة بل بمعنى أنّ الّذي يريده تعالى من السكينة في كلامه له مصداق غير المصداق الّذي نجده عند كلّ شجاع باسل له نفس ساكنة وجاش مربوط ، وإنّما هي نوع خاصّ من الطمأنينة النفسانيّة له نعت خاصّ وصفة مخصوصة .

كيف ؟ و كلّما ذكرها الله سبحانه في كلامه امتناناً بها على رسوله و على المؤمنين خصّها بالإنزال من عنده فهي حالة إلهيّة لاينسى العبد معها مقام ربّه لا كما عليه عامّة الشجعان اُولوا لشدّة والبسالة المعجبون ببسالتهم المعتمدون على أنفسهم .

وقد احتفّت في كلامه بأوصاف و آثار لاتعمّ كلّ وقار وطمأنينة نفسانيّة كما قال في حقّ رسوله : « إذ يقول لصاحبه لاتحزن إنّ الله معنا فأنزل الله سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها » التوبة : ٤٠ وقال تعالى في المؤمنين « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم » الفتح : ١٨ فذكر أنّه إنّما أنزل السكينة عليهم لما علمه من قلوبهم فنزولها يحتاج إلى حالة قلبيّة طاهرة سابقة يدلّ السياق على أنها الصدق ونزاهة القلب عن إبطان نيّة الخلاف .

وقال أيضاً : « هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض » الفتح : ٤ فذكر أنّ من أثرها زيادة الإيمان مع الإيمان وقال أيضاً : « إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته

على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحقّ بها و أهلها » الفتح : ٢٦ ،

والآية ـ كماترى ـ تذكرأنّ نزول السكينةمن عنده تعالىمسبوقباستعدادسابقو أهليّة وأحقيّة قبليّة وهو الّذي اُشير إليه في الآية السابقة بقوله : « فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة » . وتذكر أنّ من آثارها لزوم كلمة التقوى ، وطهارة ساحة الانسان عن مخالفة الله ورسوله باقتراف المحارم وورود المعاصي .

وهذا كالمفسّر يفسّر قوله فيالآية الاُخرى : « ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم فازدياد الإيمان مع الإيمان بنزول السكينة هو أن يكون الإنسانعلى وقاية إلهيّة من اقتراف المعاصي وهتك المحارم مع إيمان صادق بأصل الدعوة الحقّة .

وهذا نعم الشاهد يشهد أوّلاً : أنّ المراد بالمؤمنين في قوله في الآية المبحوث عنها « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » غير المنافقين وغير مرضىالقلوب وضعفاء الإيمان ، ولا يبقى إلّا من ثبت منالمؤمنين مع النبيّ ﷺ ، وهم ثلاثة أو أربعة أو تسعة أو عشرة أو ثمانون أو دون المائة على اختلاف الروايات في إحصائهم ، ومن فرّوا نكشف عن النبيّ ﷺ أوّلاً ثمّ رجع وقاتل ثانياً وفيهم جلّ أصحاب النبيّ ﷺ و عدّة من خواصّهم .

فهل المراد بالمؤمنين الّذين نزلت عليهم، جميع من ثبت مع النبيّ ﷺ و من فرّ أولاً ثمّ رجع ثانياً ، أو أنّهم هما لّذين ثبتوا معه من المؤمنين حتّى نزل النصر ؟

الّذي يستفاد منآيات السكينة أنّ نزولها متوقّفعلى طهارة قلبيّة وصفاء نفسيّ سابق حتّى يقرّها الله تعالى بالسكينة ، وهؤلاء كانوا مقترفين لكبيرة الفرار من الزحف آثمين قلوباً ، ولا محلّ لنزول السكينة على من هذا شأنه فإن كانوا ممّن نزلت عليهم السكينة كان من الواجب أن يندموا علىمافعلوا ، ويتوبوا إلى ربّهم توبة نصوحاً بقلوب صادقة حتّى يعلم الله ما في قلوبهم فينزل السكينة عليهم فيكونون أذنبوا أوّلاً ثمّ تابوا ورجعوا ثانياً فأنزل الله سكينته عليهم ونصرهم على عدوّهم ، ولعلّ هذا هو الّذي يشير إليه التراخي المفهوم من قوله تعالى «ثمّ أنزل اللهسكينته عليهم » حيث عبّر بـ «ثمّ» . هذا

لكن يبقى عليه أوّلاً : أنّهكان من اللّازم على هذا أن يتعرّض في الكلام لتوبتهم

فيختص حينئذ قوله : « ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » على الكفار الّذين أسلموا بعد منهم ، ولا أثر من ذلك في الكلام ولا قرينة تخص قوله : « ثم يتوب الله » الخ بالكافرين الّذين أسلموا بعد ،فافهم ذلك.

وثانياً : أنّ في ذلك غمضاً عن جميل السعي والمحنة الحسنة الّتي امتحن بها أُولئك النفر القليل الّذي ثبتوا مع النبي ﷺ حين تركه جموع المسلمين بين الأعداء وانهزموا فارّين لا يلوون على شيء ، ومن المستبعد من دأب القرآن أن يهمل أمر من تحمّل محنة في ذات الله ، وألقى نفسه في أشقّ المهالك ابتغاء مرضاته - وهو شاكر عليم - فلا يحمده ولا يشكر سعيه .

والمعهود من دأب القرآن أنّه إذا عمّ قوماً بعتاب أو توبيخ و ذمّ ، و فيهم من هو بريء من استحقاق اللوم أو العتاب أو طاهر من دنس الإثم والخطيئة أن يستثنيه منهم و يخصّه بجميل الذكر ، و يحمده على عمله و إحسانه كما نراه كثيراً في الخطابات الّتي تعمّم اليهود أو النصارى عتاباً أو ذمّاً أو توبيخاً فإنّه تعالى يخاطبهم بما يخاطب و يوبّخهم و ينسب إليهم الكفر بآياته و التخلّف عن أوامره ونواهيه ثمّ يمدح منهم الأقلّين الّذين آمنوا به وبآياته و أطاعوه فيما أراد منهم .

وأوضح من ذلك ما يتعرّض من الآيات لوقعة اُحد ، وتمتنّ على المؤمنين بما أنزل الله عليهم من النصرة والكرامة ، ويعاتبهم على ما أظهروه من الوهن والفشل ثمّ يستثني الثابتين منهم على أقدام الصدق ، ويعدهم وعداً حسناً إذ قال مرّة بعد مرّة : « وسيجزي الله الشاكرين » آل عمران : ١٤٤ ، « و سنجزي الشاكرين » آل عمران : ١٤٥ .

ونجد مثله في ما يذكره الله سبحانه من أمر وقعة الأحزاب فإنّ في كلامه عتاباً شديداً لجمع من المؤمنين ، وتوبيخاً وذمّاً للمنافقين و الّذين في قلوبهم مرض حتّى قال فيما قال : « ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولّون الأدبار وكان عهد الله مسؤولاً » الأحزاب:١٥ ثمّ إنّه تعالى ختم القصّة بمثل قوله : « من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدّلوا تبديلاً » الأحزاب : ٢٣ .

فما باله تعالى لم يتعرّض لحالهم في قصّة حنين ، وليست بأهون من غيرها ، ولا

خصّهم بشيء من الشكر ، ولا حمدهم بما يمتنّون به من لطيف حمده تعالى كغيرهم في غيرها .

فهذا الّذي ذكرناه ممّا يقرّب إلى الاعتبار أن يكون المراد بالمؤمنين الّذين ذكر نزول السكينة عليهم هم الّذين ثبتوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وأمّا سائر المؤمنين ممّن رجع بعد الانكشاف فهم تحت شمول قوله : « ثمّ يتوب الله من بعدذلك على من يشاء والله غفور رحيم » يشمل من شملته العناية منهم كما يشمل من شملته العناية و التوفيق من كفّار هوازن وثقيف ومن الطلقاء والّذين في قلوبهم مرض . هذا مايهدي إليه البحث التفسيريّ ، وأمّا الروايات فلها شأنها وسيأتي طرف منها .

وأمّا ماذكره من شهادة رجوعهم من فورهم حين سمعوا نداء النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ونداءالعبّاس فذلك ممّالايبطل ماقدّمناه من ظهور قوله تعالى : « ثمّ ولّيتم مدبرين » إذا انضمّ إلى قوله : « إذا لقيتم الّذين كفروا زحفاً فلا تولّوهم الأدبار » الآية في أنّ ما ظهرمنهم في الوقعة منالفعل كان فراراً من الزحف فعلوه عن جبن أوتعمّد في خذلان أو عن قلق واضطراب وتزلزل .

و أمّا ما ذكره منالآيات الّتي تمدحهم و تذكر رضى الربّ عنهم و استحقاقهم جزيل الأجر من ربّهم . ففيه أنّ هذه المحامد مقيّدة فيها بقيود لايتحتّم معهاليهم الأمر فإنّ الآيات إنّما تحمد من تحمده منهم لما به من نعوت العبوديّةكالإيمان والإخلاص والصدق والنصيحة و المجاهدة الدينيّة فالحمد باق مابقيت الصفات ، و الوعد الحسن على اعتباره مالبثت فيهم النعوت والأحوال الموجبة له فإذا زالت لحادثة أو خطيئة زال بتبعه .

وليس ماعندهم من مبادي الخير والبركات بأعظم ولاأهمّ ممّا عند الأنبياء من صفة العصمة يستحيل معها صدور الذنب منهم وقد قال الله تعالى بعد ثناء طويل عليهم : « ولو أشركوا لحبط عنهم ماكانوايعملون » الأنعام : ٨٨ .

وقدقال تعالى قبال ماظنّوا أنّهم مصونون عنمايكرهونه من أقسام المجازاة كرامة لإسلامهم كما ظنّ نظيره أهلالكتاب : «ليس بأمانيّكم ولاأمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوء يجزبه » النساء : ١٢٣ .

والّذي ورد في بيعة الرضوان من قوله : «لقد رضي الله » فإنّما رضاه تعالى من صفاته الفعليّة الّتي هي عين أفعاله الخارجيّة منتزعة عنها فهو عين ما أفاض عليهم من الحالات الطاهرة النفسيّة الّتي تستعقب بطباعها جزيل الجزاء وخير الثواب إن بقيت أعمالهم على ماهي عليها و إن تغيّرت تغيّر الرضى سخطاً و النعمة نقمة ولم يأخذ أحد عليه تعالى عهداً أن لايخلف عهده فيحمله على السعادة والكرامة أحسن أو أساء ،أطاع أو عصى ، آمن أو كفر .

وليس رضى الربّ من صفاته الذاتيّة الّتي يتّصف بها في ذاته فلا يعرضه تغيّر أو تبدّل ولا يطرء عليه زوال أودثور .

قوله تعالى : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين » إلى آخر الآية السكينة ـ كماتقدّم ـ حالة قلبيّة توجب سكون النفس و ثبات القلب ملازمة لازدياد الإيمان مع الإيمان ولكلمة التقوى الّتي تهدي إلى الورع عن محارم الله على ماتفسّرها الآيات .

وهي غير العدالة الّتي هي ملكة نفسانيّة تردع عن ركوب الكبائر والإصرار على الصغائر فإنّ السكينة تردع عن الصغائر والكبائر جميعاً .

وقد نسب الله السكينة في كتابه إلى نفسه نسبة تشعر بنوع من الاختصاص كما نسب الروح إلى نفسه دون العدالة و وصفها بالإنزال فلها اختصاص عنديّ به تعالى بل ربّما يشعر بعض الآيات بأنّه عدّها من جنوده كقوله تعالى : « هو الّذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ولله جنود السماوات والأرض » الفتح : ٨.

وفي غير واحد من الآيات المشتملة على ذكر السكينة ذكر الجنود كقوله : «فأنزل الله سكينته عليه و أيّده بجنود لم تروها » التوبة: ـ ٤٠ و كما في الآية المبحوث عنها : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها »

والّذي يفهم من السياق أنّ هذه الجنود هي الملائكة النازلة إلى المعركة ، أو أن يقال من جملتها الملائكة النازلة والّذي ينتسب إلى السكينة والملائكة أن يعذّب بهم الكفّار ويسدّد ويسعد بهم المؤمنون كما اشتملت عليه آيات آل عمران القاصّة قصّة اُحد ، و

آيات في أوّل سورة الفتح فراجعها حتّى يتبيّن لك حقيقة الحال إن شاء الله تعالى .

وقد تقدّم في قوله تعالى : « فيه سكينة من ربّكم » البقرة : ٢٤٨ في الجزء الثاني من الكتاب بعض ما يتعلّق بالسكينة الإلهيّة من الكلام ممّا لا يخلو من نفع في هذا المقام .

قوله تعالى : « ثمّ يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء والله غفور رحيم » قد تقدّم مراراً أنّ التوبة من الله سبحانه هي الرجوع إلى عبده بالعناية و التوفيق أوّلاً ثمّ بالعفو والمغفرة ثانياً ، ومن العبد الرجوع إلى ربّه بالندامة والاستغفار ، ولا يتوب الله على من لا يتوب إليه .

والإشارة في قوله : « من بعد ذلك » على ما يعطيه السياق إلى ما ذكره في الآيتين السابقتين من خطيئتهم بالركون إلى غير الله سبحانه ومعصيتهم بالفرار و التولّي ثمّ إنزال السكينة وإنزال الجنود وتعذيب الّذين كفروا .

والملائم لذلك أن يكون الموصول في « من يشاء » شاملاً للمسلمين والكافرين جميعاً فقد ذكر من الفريقين جميعاً ما يصلح لأن يتوب الله عليهم فيه إن تابوا ، وهو من الكفّار كفرهم ومن المسلمين خطيئتهم و معصيتهم ، ولا وجه لتخصيص التوبة على بعضهم مع ما في آيات التوبة من عموم الحكم و سعته ولم يقيّد في هذه الآية المبحوث عنها بما يوجب اختصاصها بأحد الفريقين : المسلمين أو الكافرين مع وجود المقتضي فيهما جميعاً .

وممّا ذكرنا يظهر فساد ما فسّر به بعضهم الآية مع قصر الإشارة على التعذيب إذ قال : إنّ معناها ثمّ يتوب الله تعالى بعد هذا التعذيب الّذي يكون في الدنيا على من يشاء من الكافرين فيهديهم إلى الإسلام وهم الّذين لم يحط بهم خطيئات جهالة الشرك وخرافاته من جميع جوانب أنفسهم ، ولم يختم على نفوسهم بالإصرار على الجحود والتكذيب أو الجمود على ما ألفوا بمحض التقليد . انتهى .

وقد عرفت أنّ تخصيص الآية بما ذكر والتصرّف في سائر قيوده كقصر الإشارة على التعذيب وغير ذلك ممّا لا دليل عليه البتّة .

والوجه في التعبير بالاستقبال في قوله : « ثمّ يتوب الله » الإشارة إلى انفتاح باب التوبة دائماً ، وجريان العناية و فيضان العفو والمغفرة الإلهيّة مستمرّاً بخلاف ما يشير

إليه قوله : « فأنزل الله سكينته » الآية فإن ذلك أُمور محدودة غير جارية .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إنّما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا » قال في المجمع : كلّ مستقذر نجس يقال : رجل نجس وامرأة نجس وقوم نجس لأنّه مصدر ، وإذا استعملت هذه اللفظة مع الرجس قيل : رجس نجس بكسر النون ـ قال : والعيلة الفقر يقال عال يعيل إذا افتقر . انتهى .

و النهي عن دخول المشركين المسجد الحرام بحسب المتفاهم العرفيّ يفيد أمر المؤمنين بمنعهم عن دخول المسجد الحرام ، وفي تعليله تعالى منع دخولهم المسجد بكونهم نجساً اعتبار نوع من القذارة لهم كاعتبار نوع من الطهارة والنزاهة للمسجد الحرام ، وهي كيف كانت أمر آخر وراء الحكم باجتناب ملاقاتهم بالرطوبة وغير ذلك .

والمراد بقوله : «عامهم هذا » سنة تسع من الهجرة ، وهي السنة الّتي أذن فيها عليّ عليه السلام بالبراءة ، ومنع طواف البيت عرياناً ، وحجّ المشركين البيت .

وقوله : « وإن خفتم عيلة » الآية أي وإن خفتم في إجراء هذا الحكم أن ينقطعوا عن الحجّ ، ويتعطّل أسواقكم ، وتذهب تجارتكم فتفتقروا وتعيلوا فلا تخافوا فسوف يغنيكم الله من فضله ، ويؤمنكم من الفقر الّذي تخافونه .

وهذا وعد حسن منه تعالى فيه تطييب نفوس أهل مكّة ومن كان له تجارة هناك بالموسم ، وكان حاضر العالم الإسلاميّ يبشّرهم يومئذ بمضمون هذا الوعد فقد كان الإسلام تعلو كلمته ، وينتشر صيته حالاً بعد حال ، وكانت عامّة المشركين في عتبة الاستئصال بعد إيذان براءة لم يبق لهم إلّا أربعة أشهر إلّا شرذمة قليلة من العرب كان النبيّ صلى الله عليه وآله عاهدهم عند المسجد الحرام إلى أجل ما بعده من مهل فالجميع كانوا في معرض قبول الإسلام .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي عن عليّ بن إبراهيم عن بعض أصحابه ذكره قال : لمّا سمّ المتوكّل نذر إن عوفي أن يتصدّق بمال كثير فلمّا عوفي سأل الفقهاء عن حدّ المال الكثير فاختلفوا عليه فقال بعضهم : مائة ألف ، و قال بعضهم : عشرة آلاف فقالوا فيه أقاويل مختلفة فاشتبه عليه الأمر .

فقال رجل من ندمائه يقال له : صفوان : ألّا تبعث إلى هذا الأسود فاسأله عنه ؟ فقال له المتوكّل : من تعني ويحك ؟ فقال : ابن الرضا . فقال له : وهو يحسن من هذا شيئاً ؟ فقال : إن أخرجك من هذا فلي عليك كذا و كذا و إلّا فاضربني مائة مقرعة فقال المتوكّل رضيت . يا جعفر بن محمود اذهب إلى أبي الحسن عليّ بن محمّد فاسأله عن حدّ المال الكثير فقال له : الكثير ثمانون .

فقال له جعفر بن محمود : يا سيّدي إنّه يسألني عن العلّة فيه فقال له أبو الحسن عليه‌السلام : إنّ الله عزّ وجلّ يقول : لقد نصركم الله في مواطن كثيرة » فعددنا تلك المواطن فكان ثمانين .

أقول : ورواه القمّيّ أيضاً في تفسيره و بعض أصحابه الّذي ذكر في الرواية أنّه سمّاه هو محمّد بن عمرو على ما ذكره في التفسير . و معنى الرواية أنّ الثمانين من مصاديق الكثير بدلالة من الكتاب لاأنّ الكثير معناه الثمانون وهو ظاهر .

وفي المجمع ذكر أهل التفسير و أصحاب السير أنّ رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم لمّا فتح مكّة خرج منها متوجّهاً إلى حنين لقتال هوازن و ثقيف في آخر شهر رمضان أو في شوّال في سنة ثمان من الهجرة ، وقد اجتمع رؤساء هوازن إلى مالك بن عوف النصريّ ، و ساقوا معهم أموالهم ونساءهم وذراريهم ونزلوا بأوطاس .

قال وكان دريد بن الصمة في القوم ، وكان رئيس جشم ، وكان شيخاً كبيراً قد ذهب بصره من الكبر فقال : بأيّ واد أنتم ؟ قالوا : بأوطاس . قال : نعم مجال الخيل ، لاحزن ضرس ، ولا سهل دهس مالي أسمع رغاء البعير ونهيق الحمير وخوار البقر وثغاء الشاة وبكاء

الصبيان ؟ فقالوا : إنّ مالك بن عوف ساق مع الناس أبناءهم وأموالهم ونسائهم ليقاتل كلّ منهم عن أهله وما له فقال دريد : راعي ضأن وربّ الكعبة .

ثمّ قال : ائتوني بما لك فلمّا جاءه قال : يامالك إنّك أصبحت رئيس قومك ، و هذا يوم له ما بعده ، ردّ قومك إلى عليا بلادهم ، و الق الرجال على متون الخيل فإنّه لاينفعك إلّا رجل بسيفه و فرسه فإن كانت لك لحق بك من وراءك ، وإن كانت عليك لاتكون قد فضحت في أهلك و عيالك ؛ فقال له مالك : إنّك قد كبرت و ذهب علمك و عقلك .

و عقد رسول الله صلى الله عليه وآله لواء الأكبر ودفعه إلى عليّ بن أبي طالب عليه السلام ، و كلّ من دخل مكّة براية أمره أن يحملها ، وخرج بعد أن أقام بمكّة خمسة عشر يوماً ، وبعث إلى صفوان بن اُميّة فاستعار منه مائة درع فقال صفوان : عارية أم غصب ؟ فقال صلى الله عليه وآله عارية مضمونة مؤدّاة فأعاره صفوان مائة درع وخرج معه ، وخرج من مسلمة الفتح ألفا رجل ، و كان صلى الله عليه وآله دخل مكّة في عشرة آلاف رجل و خرج منها في اثني عشر ألفاً .

وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله رجلاً من أصحابه فانتهى إلى مالك بن عوف وهو يقول لقومه: ليصيّر كلّ رجل منكم أهله و ماله خلف ظهره ، و اكسروا جفون سيوفكم ، و اكمنوا في شعاب هذا الوادي و في السحر فإذا كان في غبش الصبح فاحملوا حملة رجل واحد فهدّوا القوم فإن محمّداً لم يلق أحداً يحسن الحرب .

و لمّا صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله بأصحابه الغداة انحدر في وادي حنين فخرجت عليهم كتائب هوازن من كلّ ناحية ، وانهزمت بنو سليم وكانوا على المقدّمة وانهزم ما وراءهم ، و خلّى الله تعالى بينهم و بين عدوّهم لإعجابهم بكثرتهم و بقي عليّ عليه السلام و معه الراية يقاتلهم في نفر قليل و مرّ المنهزمون برسول الله صلى الله عليه وآله لايلوون على شيء .

وكان العبّاس بن عبد المطّلب أخذ بلجام بغلة رسول الله صلى الله عليه وآله ، و الفضل عن يمينه ، و أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطّلب عن يساره ، ونوفل بن الحارث وربيعة بن الحارث في تسعة من بني هاشم ؛ و عاشرهم أيمن بن اُمّ أيمن ، و في ذلك يقول العبّاس :

نصرنا رسول الله في الحرب تسعة * و قد فرّ من قد فرّ عنه فأقشعوا
و قولي إذا ما الفضل كرّ بسيفه * على القوم اُخرى يا بنيّ ليرجعوا

و عاشرنا لاقى الحمام بنفسه * لما ناله في الله لا يتوجّع

و لمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله هزيمة القوم عنه قال للعبّاس ـ وكان جهوريّاً صيّتاً ـ اصعد هذا الظرب فناد : يا معشر المهاجرين والأنصار يا أصحاب سورة البقرة يا أهل بيعة الشجرة إلى أين تفرّون ؟ هذا رسول الله .

فلمّا سمع المسلمون صوت العبّاس تراجعوا وقالوا : لبّيك لبّيك ، وتبادر الأنصار خاصّة و قاتلوا المشركين حتّى قال رسول الله صلى الله عليه وآله : الآن حمي الوطيس . أنا النبيّ لا كذب[1] أنا ابن عبد المطّلب ، ونزل النصر من عند الله ، وانهزمت هوازن هزيمة قبيحة ففرّوا في كلّ وجه ، ولم يزل المسلمون في آثارهم .

و فرّ مالك بن عوف فدخل حصن الطائف ، و قتل منهم زهاء مائة رجل ، و أغنم الله المسلمين أموالهم ونساءهم ، وأمر رسول الله بالذراري والأموال أن تحدر إلى الجعرانة ، و ولّى على الغنائم بديل بن ورقاء الخزاعيّ .

و مضى صلى الله عليه وآله في أثر القوم فوافى الطائف في طلب مالك بن عوف فحاصر أهل الطائف بقيّة الشهر فلمّا دخل ذو القعدة انصرف وأتى الجعرانة ، و قسّم بها غنائم حنين و أوطاس .

قال سعيد بن المسيّب : حدّثني رجل كان في المشركين يوم حنين قال : لمّا التقينا نحن و أصحاب رسول الله صلى الله عليه وآله لم يقفوا لنا حلب شاة فلمّا كشفناهم جعلنا نسوقهم حتّى إذ انتهينا إلى صاحب البغلة الشهباء يعني رسول الله صلى الله عليه وآله فتلقّانا رجال بيض الوجوه فقالوا لنا : شاهت الوجوه ارجعوا فرجعنا فركبوا أكتافنا فكانوا إيّاها يعني الملائكة .

قال الزهريّ : و بلغني أنّ شيبة بن عثمان قال : استدبرت رسول الله صلى الله عليه وآله و أنا اُريد أن أقتله بطلحة بن عثمان وعثمان بن طلحة وكانا قدقتلا يوم اُحد فأطلع الله رسوله على ما في نفسي فالتفت إليّ وضرب في صدري ، وقال : اُعيذك بالله ياشيبة فأرعدت فرائصي فنظرت إليه وهو أحبّ إليّ من سمعي وبصري فقلت : أشهد أنّك رسول الله ، و أنّ الله أطلعك على ما في نفسي .

---

(١) غير كذب خ .

وقسم رسول الله ﷺ الغنائم بالجعرانة ، وكان معه من سبي هوازن ستّة آلاف من الذراري والنساء ، ومن الإبل والشاء مالايدرى عدّته .

قال أبوسعيد الخدريّ : قسم رسول الله ﷺ للمتألّفين من قريش ومن سائر العرب ماقسم ، ولم يكن في الأنصار منها شيء قليل ولا كثير فمشى سعدبن عبادة إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله إنّ هذا الحيّ من الأنصار وجدوا عليك في قسمك هذه الغنائم في قومك وفي سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شيء فقال ﷺ : فأين أنت من ذلك ياسعد ؟ فقال : ما أنا إلّا امرؤ من قومي فقال رسول الله ﷺ : فاجمع لي قومك في هذه الحظيرة فجمعهم فخرج رسول الله ﷺ فقام فيهم خطيباً فحمدالله وأثنى عليه ثمّ قال :

يا معشر الأنصار أولم آتكم ضُلّالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله وأعداء فألّف بين قلوبكم ؟ قالوا : بلى يارسول الله .

ثمّ قال : ألا تجيبوني يامعشر الأنصار ؟ فقالوا : ومانقول ؟ وبماذا نجيبك ؟ المنّ لله ولرسوله . فقال رسول الله ﷺ : أما والله لوشئتم لقلتم فصدقتم : جئتنا طريداً فآويناك ، وعائلاً فآسيناك ، وخائفاً فآمنّاك ، ومخذولاً فنصرناك . فقالوا : المنّ لله ولرسوله .

فقال رسول الله ﷺ : وجدتم في أنفسكم يامعشر الأنصار في لعاعة من الدنيا تألّفت بها قوماً ليسلموا ووكلتكم إلى ماقسم الله لكم من الإسلام . أفلا ترضون يامعشر الأنصار أن تذهب الناس إلى رحالهم بالشاء و البعير ، وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فوالّذي نفسي بيده لوأنّ الناس سلكوا شعباً و سلكت الأنصار شعباً لسلكت شعب الأنصار ولولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار . اللّهمّ ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار فبكى القوم حتّى اخضلّت لحاهم ، وقالوا : رضينا بالله ورسوله قسماً ثمّ تفرّقوا .

وقال أنس بن مالك : و كان رسول الله ﷺ أمر منادياً فنادى يوم أوطاس : ألا لاتوطأ الحبالى حتّى يضعن ، ولا غير الحبالى حتّى يستبرأن بحيضة .

ثمّ أقبلت وفود هوازن وقدمت على رسول الله ﷺ بالجعرانة مسلمين فقام خطيبهم وقال : يارسول الله إنّما في الحظائر من السبايا خالاتك و حواضنك اللّاتي كنّ يكفلنك فلو أنّا ملحنا ابن أبي شمر أو النعمان بن المنذر ثمّ أصابنا منهما مثل الّذي أصابنا منك رجونا عائدتهما وعطفهما و أنت خير المكفولين ثمّ أنشد أبياتاً .

فقال صلى الله عليه وآله : أيّ الأمرين أحبّ إليكم : السبي أوالأموال ؟ قالوا : يا رسول الله خيّرتنا بين الحسب و بين الأموال ، والحسب أحبّ إلينا ولا نتكلّم في شاة ولا بعير فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : أمّا الّذي لبني هاشم فهولكم و سأكلّم لكم المسلمين وأشفع لكم فكلّموهم وأظهروا إسلامكم .

فلمّا صلّى رسول الله صلى الله عليه وآله الهاجرة قاموا فتكلّموا فقال النبيّ صلى الله عليه وآله : قد رددت الّذي لبني هاشم والّذي بيدي عليهم فمن أحبّ منكم أن يعطي غير مكره فليفعل ومن كره أن يعطي فليأخذ الفداء وعليّ فداؤهم فأعطى الناس ما كان بأيديهم منهم إلّا قليلاً من الناس سألوا الفداء .

وأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله إلى مالك بن عوف وقال : إن جئتني مسلماً رددت إليك أهلك ومالك ولك عندي مائة ناقة فخرج إليه من الطائف فردّ عليه أهله وماله و أعطاه مائة من الإبل واستعمله على من أسلم من قومه .

أقول : وروى القمّيّ في تفسيره مثله ولم يروما نسب من الرجز إليه صلى الله عليه وآله و كذا ما أسنده إلى راو معيّن كالمسيّب والزهريّ وأنس وأبي سعيد ، و روي هذه المعاني بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة .

وفي رواية عليّ بن إبراهيم القمّيّ زيادة يسيرة هي ما يأتي :

قال عليّ بن إبراهيم : فلمّا رأى رسول الله صلى الله عليه وآله الهزيمة ركض يحوم على بغلته قد شهر سيفه(١) فقال : يا عبّاس اصعد هذا الظرب و ناد : يا أصحاب [سورة] البقرة يا أصحاب الشجرة إلى أين تفرّون ؟ هذا رسول الله .

ثمّ رفع رسول الله صلى الله عليه وآله يده وقال : اللّهمّ لك الحمد ولك الشكر وإليك المشتكى وأنت المستعان فنزل إليه جبرئيل فقال : يارسول الله دعوت بما دعا به موسى بن عمران حين فلق الله له البحر ونجّاه من فرعون .

ثمّ قال رسول الله صلى الله عليه وآله لأبي سفيان بن الحارث : ناولني كفّاً من حصى فناوله فرماه في وجوه المشركين ثمّ قال : شاهت الوجوه . ثمّ رفع رأسه إلى السماء و قال : اللّهمّ إن تهلك هذه العصابة لم تعبد وإن شئت أن لاتعبد لاتعبد .

---

(١) و في نسخة البحار : ركض نحوعلى بغلته فرآه قدشهر سيفه .

فلمّا سمعت الأنصار نداء العبّاس عطفوا و كسروا جفون سيوفهم وهم ينادون : لبّيك ومرّوا برسول الله صلى الله عليه وآله واستحيوا أن يرجعوا إليه ولحقوا بالراية فقال رسول الله صلّى الله عليه و آله للعبّاس : من هؤلاء يا أبا الفضل ؟ فقال : يا رسول الله هؤلاء الأنصار فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الآن حمي الوطيس فنزل النصر من السماء وانهزمت هوازن .

وفي الدرّ المنثور أخرج أبوالشيخ عن محمّد بن عبيدالله بن عمير الليثيّ قال : كان مع النبيّ صلى الله عليه وآله أربعة آلاف من الأنصار و ألف من جهينة ، وألف من مزينة و ألف من أسلم و ألف من غفار وألف من أشجع وألف من المهاجرين و غيرهم فكان معه عشرة آلاف و خرج باثني عشر ألفاً وفيها قال الله تعالى في كتابه : « ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً » .

وفي سيرة ابن هشام عن ابن إسحاق قال : فلمّا انهزم الناس ، و رأى من كان مع رسول الله صلى الله عليه وآله من جفاة أهل مكّة الهزيمة تكلّم رجال منهم بما في أنفسهم من الضغن :

فقال أبوسفيان بن حرب : لاتنتهي هزيمتهم دون البحر . و إنّ الأزلام لمعه في كنانته وصرخ جبلة بن الحنبل قال ابن هشام : كلدة بن الحنبل ـ و هومع أخيه صفوان بن اُميّة مشرك في المدّة الّتي جعل له رسول الله صلى الله عليه وآله ـ : ألا بطل السحر اليوم ، فقال له صفوان اسكت فضّ الله فاك فوالله لأن يربّني رجل من قريش أحبّ إليّ من أن يربّني رجل من هوازن .

قال ابن إسحاق : و قال شيبة بن عثمان بن أبي طلحة أخو بني عبدالدار : قلت : اليوم أدرك ثأري ـ وكان أبوه قتل يوم اُحد ـ اليوم أقتل محمّداً قال : فأدرت برسول الله صلى الله عليه وآله لأقتله فأقبل شيء حتّى تغشّى فؤادي فلم أطق ذاك فعلمت أنّه ممنوع منّي .

﴿فهرس أسامي شهداء حنين﴾

في سيرة ابن هشام قال ابن إسحاق : و هذه تسمية من استشهد يوم حنين من المسلمين :

من قريش ثمّ من بني هاشم أيمن بن عبيد ومن بني أسد بن عبد العزّى يزيد بن زمعة بن الأسود بن المطّلب بن أسد جمح به فرس يقال له الجناح فقتل .

و من الأنصار سراقة بن الحارث بن عديّ من بني العجلان ومن الأشعريّين أبوعامر الأشعريّ .

أقول : وأمّا الثباة مع رسول الله صلى الله عليه وآله فقد عدّوا في بعض الروايات ثلاثة و في بعضها أربعة و في بعضها تسعة عاشرهم أيمن بن عبيد ـ وهو ابن اُمّ أيمن ـ وفي بعضها ثمانين وفي بعضها : دون المائة .

والمعتمد من بينها ما روي عن العبّاس أنّهم كانوا تسعة عاشرهم أيمن وله في ذلك شعر تقدّم نقله وذلك أنّه كان ممّن ثبت مع النبيّ صلى الله عليه وآله طول الوقعة و شاهد ماكان من الأمر وهو الّذي كان ينادي المنهزمين ويستلحقهم بأمر النبيّ صلى الله عليه وآله وقد باهى بما قاله من الشعر .

ومن الممكن أن يثبت جمع بعد انهزام الناس هنيئة ثمّ يلحقوا بالمنهزمين أو يرجع جمع قبل رجوع غيرهم فيلحقوا بالراية فيعدّوا ممّن ثبت وقاتل فالحرب العوان لايجري على ما يجري عليه السلم من النظم .

ومن هنا يعلم ما في قول بعضهم : أنّ الأرجح رواية الثمانين كما عن عبدالله بن مسعود وإليها يرجع مارواه ابن عمر أنّهم كانوا دون المائة فإنّ الحجّة لمن حفظ على من لم يحفظ انتهى ملخّصاً .

وذلك أنّ كون الحجّة لمن حفظ على من لم يحفظ حقّ لكنّ الحفظ في حال الحرب على ما فيه من التحوّل السريع في الأوضاع الحاضرة غير الحفظ في غيره فلا يعتمد إلّا على ماشهدت القرائن لصحّته وأيّد الاعتبار وثاقة حفظه وقد كان العبّاس مأموراً بما من شأنه حفظ هذا الشأن ومايرتبط به .

***

قَاتِلُوا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ (٢٩) وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ (٣٠) اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ (٣١) يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٣٢) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ (٣٣) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ وَلَا يُنْفِقُونَهَا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ (٣٤) يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فِي نَارِ جَهَنَّمَ فَتُكْوَى بِهَا جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُمْ وَظُهُورُهُمْ هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْنِزُونَ (٣٥) .

﴿ بيان ﴾

الآيات تأمر بقتال أهل الكتاب ممّن يمكن تبقيته بالجزية و تذكر اُموراً من وجوه انحرافهم عن الحقّ في الاعتقاد والعمل .

قوله تعالى : « قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ من الّذين اُوتوا الكتاب » أهل الكتاب هم اليهود والنصارى على ما يستفاد من آيات كثيرة من القرآن الكريم و كذا المجوس على

ما يشعر أو يدلّ عليه قوله تعالى : « إنّ الّذين آمنوا والّذين هادوا والصابئين و النصارى و المجوس والّذين أشركوا إنّ الله يفصل بينهم يوم القيامة إنّ الله على كلّ شيء شهيد » الحجّ : ١٧ حيث عدّوا في الآية مع سائر أرباب النحل السماويّة في قبال الّذين أشركوا، و الصابئون كما تقدّم طائفة من المجوس صبوا إلى دين اليهود فاتّخذوا طريقاً بين الطريقين .

والسياق يدلّ على أنّ لفظة « من » في قوله : « من الّذين اُوتوا الكتاب » بيانيّة لا تبعيضيّة فإنّ كلّاً من اليهود و النصارى و المجوس اُمّة واحدة كالمسلمين في إسلامهم و إن تشعّبوا شعباً مختلفة و تفرّقوا فرقاً متشتّتة اختلط بعضهم ببعض ولو كان المراد قتال البعض و إثبات الجزية على الجميع أو على ذلك البعض بعينه لاحتاج المقام في إفادة ذلك إلى بيان غير هذا البيان يحصل به الغرض .

و حيث كان قوله : « من الّذين اُوتوا الكتاب » بياناً لما قبله من قوله : « الّذين لا يؤمنون » الآية فالأوصاف المذكورة أوصاف عامّة لجميعهم وهي ثلاثة أوصاف وصفهم الله سبحانه بها : عدم الإيمان بالله و اليوم الآخر و عدم تحريم ما حرّم الله و رسوله و عدم التديّن بدين الحقّ .

فأوّل ما وصفهم به قوله : « الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » وهو تعالى ينسب إليهم في كلامه أنّهم يثبتون إلهاً و كيف لا ؟ وهو يعدّهم أهل الكتاب ، وما هو إلّا الكتاب السماويّ النازل من عند الله على رسول من رسله ويحكي عنهم القول أو لازم القول بالاُلوهيّة في مئات من آيات كتابه .

و كذا ينسب إليهم القول باليوم الآخر في أمثال قوله : « و قالوا لن تمسّنا النار إلّا أيّاماً معدودة » البقرة : ٨٠ ، و قوله : « وقالوا لن يدخل الجنّة إلّا من كان هوداً أو نصارى » البقرة : ١١١ .

غير أنّه تعالى لم يفرّق في كلامه بين الإيمان به والإيمان باليوم الآخر فالكفر بأحد الأمرين كفر بالله و الكفر بالله كفر بالأمرين جميعاً ، وحكم فيمن فرّق بين الله و رسله فآمن ببعض دون بعض أنّه كافر كما قال : « إنّ الّذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن

يفرّقوا بين الله ورسله ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتّخذوا بين ذلك سبيلاً اُولئك هم الكافرون حقّاً وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً » النساء : ١٥٠ .

فعدّ أهل الكتاب ممّن لم يؤمن بنبوّة محمّد صلى الله عليه وآله كفّاراً حقّاً و إن كان عندهم إيمان بالله واليوم الآخر، لا بلسان أنّهم كفروا بآية من آيات الله و هي آية النبوّة بل بلسان أنّهم كفروا بالإيمان بالله فلم يؤمنوا بالله واليوم الآخر كما أنّ المشركين أرباب الأصنام كافرون بالله إذ لم يوحّدوه وإن أثبتوه إلهاً فوق الآلهة .

على أنّهم يقرّرون أمر المبدء و المعاد تقريراً لا يوافق الحقّ بوجه كقولهم بأنّ المسيح ابن الله وعزيراً ابن الله يضاهؤون في ذلك قول الّذين كفروا من أرباب الأصنام والأوثان إنّ من الآلهة من هو إله أب إله و من هو إله ابن إله ، وقول اليهود في المعاد بالكرامة و قول النصارى بالتفدية .

فالظاهر أنّ نفي الإيمان بالله و اليوم الآخر عن أهل الكتاب إنّما هو لكونهم لايرون ماهو الحقّ من أمر التوحيد و المعاد وإن أثبتوا أصل القول بالاُلوهيّة لا لأنّ منهم من ينكر القول باُلوهيّة الله سبحانه أو ينكر المعاد فإنّهم قائلون بذلك على ما يحكيه عنهم القرآن وإن كانت التوراة الحاضرة اليوم لاخبر فيها عن المعاد أصلاً .

ثمّ وصفهم ثانياً بقوله : « ولا يحرّمون ماحرّم الله ورسوله » وذلك كقول اليهود بإباحة أشياء عدّها وذكّرها لهم القرآن في سورتي البقرة والنساء وغيرهما وقول النصارى بإباحة الخمر و لحم الخنزير ، وقد ثبت تحريمهما في شرائع موسى وعيسى ومحمّد عليهم السلام ، وأكلهم أموال الناس بالباطل كما سينسبه إليهم في الآية الآتية : «إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » .

والمراد بالرسول في قوله : « ماحرّم الله و رسوله » إمّا رسول أنفسهم الّذي قالوا بنبوّته كموسى عليه السلام بالنسبة إلى اليهود ، وعيسى عليه السلام بالنسبة إلى النصارى فالمعنى لا يحرّم كلّ اُمّة منهم ماحرّمه عليهم رسولهم الّذي قالوا بنبوّته ، واعترفوا بحقّانيّته ، وفي ذلك نهاية التجرّي على الله ورسوله واللعب بالحقّ والحقيقة .

و إمّا النبيّ محمّد صلى الله عليه وآله الّذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة و الإنجيل يحلّ

لهم الطيّبات ويحرّم عليهم الخبائث و يضع عنهم إصرهم والأغلال الّتي كانت عليهم .

ويكون حينئذ توصيفهم بعدم تحريمهم ما حرّم اللهورسوله بغرض تأنيبهم والطعن فيهم ولبعث المؤمنين وتهييجهم على قتالهم لعدم اعتنائهم بما حرّمه الله ورسوله في شرعهم و استرسالهم في الوقوع في محارم الله وهتك حرماته .

و ربّما أيّد هذا الاحتمال أن لو كان المراد بقوله : « ورسوله » رسول كلّ اُمّة بالنسبة إليها كموسى بالنسبة إلى اليهود وعيسى بالنسبة إلىالنصارى كان من حقّ الكلام أن يقال : « ولا يحرّمون ما حرّم الله ورسله » على ما هو دأب القرآن في نظائره للدلالة على كثرة الرسل كقوله : « ويريدون أن يفرّقوا بين الله و رسله » النساء : ١٤٩ ، وقوله : « قالت رسلهم أ في الله شكّ » إبراهيم : ١٠ ، و قوله : « و جاءتهم رسلهم بالبيّنات يونس : ١٣ .

على أنّ النصارى رفضوا محرّمات التوراة والإنجيل فلم يحرّموا ما حرّم موسى وعيسى عليهما السلام ، وليس من حقّ الكلام في مورد هذا شأنه : أنّهم لا يحرّمون ما حرّم الله و رسوله .

علىأنّ المتدبّر في المقاصد العامّة الإسلاميّة لا يشكّ في أنّ قتال أهل الكتاب حتّىيعطوا الجزية ليس لغرض تمتّع أولياء الإسلام ولا المسلمين من متاع الحياة الدنيا واسترسالهم وانهماكهم في الشهوات على حدّ المترفين من الملوك والرؤساء المسرفين من أقوياء الاُمم .

وإنّما غرض الدين في ذلك أن يظهر دين الحقّ و سنّة العدل و كلمة التقوى على الباطل والظلم والفسق فلا يعترضها في مسيرها اللّعب والهوى فتسلم التربية الصالحة المصلحة من مزاحمة التربية الفاسدة المفسدة حتّى لاينجرّ إلى أن تجذب هذه إلى جانب ، وتلك إلى جانب،فيتشوّش أمر النظام الإنسانيّ إلّا أن لا يرتضي واحد أو جماعة التربية الإسلاميّة لنفسه أو لأنفسهم فيكونون أحراراً فيما يرتضونه لأنفسهم من تربية دينهم الخاصّة على شرط أن يكونوا على شيء من دين التوحيد ، وهو اليهوديّة أو النصرانيّة أوالمجوسيّة ، وأن لا يتظاهروا بالمزاحمة ، وهذا غاية العدل والنصفة من دينالحقّ الظاهر على غيره .

وأمّا الجزية فهي عطيّة ماليّة مأخوذة منهم مصروفة في حفظ ذمّتهم وحسن إدارتهم ولا غنى عن مثلها لحكومة قائمة على ساقها حقّة أو باطلة .

و من هذا البيان يظهر أنّ المراد بهذه المحرّمات: المحرّمات الإسلاميّة الّتي عزم الله أن لا تشيع في المجتمع الإسلاميّ العالميّ كما أنّ المراد بدين الحقّ هو الّذي يعزم أن يكون هو المتّبع في المجتمع .

ولازم ذلك أن يكون المراد بالمحرّمات : المحرّمات الّتي حرّمها الله ورسوله محمّد صلّى الله عليه وآله الصادع بالدعوة الإسلاميّة ، وأن يكون الأوصاف الثلاثة: «الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر» الآية في معنى التعليل تفيد حكمة الأمر بقتال أهل الكتاب .

و بذلك كلّه يظهر فساد ما اُورد على هذا الوجه أنّه لا يعقل أن يحرّم أهل الكتاب على أنفسهم ما حرّم الله ورسوله علينا إلّا إذا أسلموا ، و إنّما الكلام في أهل الكتاب لا في المسلمين العاصين .

وجه الفساد أنّه ليس من الواجب أن يكون الغرض من قتالهم أن يحرّموا ما حرّم الإسلام وهم أهل الكتاب بل أن لا يظهر في الناس التبرّز بالمحرّمات من غير مانع يمنع شيوعها والاسترسال فيها كشرب الخمر و أكل لحم الخنزير وأكل المال بالباطل على سبيل العلن بل يقاتلون ليدخلوا في الذمّة فلا يتظاهروا بالفساد ، و يحتبس الشرّ فيما بينهم أنفسهم .

و لعلّه إلى ذلك الإشارة بقوله : «وهم صاغرون» على ما سيجيء في الكلام على ذيل الآية .

ثمّ وصفهم ثالثاً بقوله : «ولا يدينون دين الحقّ» أي لا يأخذونه ديناً وسنّة حيويّة لأنفسهم .

و إضافة الدين إلى الحقّ ليست من إضافة الموصوف إلى صفته على أن يكون المراد الدين الّذي هو حقّ بل من الإضافة الحقيقيّة ، و المراد به الدين الّذي هو منسوب إلى الحقّ لكون الحقّ هو الّذي يقتضيه للإنسان و يبعثه إليه ، و كون هذا الدين يهدي إلى الحقّ و يوصل متّبعيه إليه فهو من قبيل قولنا طريق الحقّ و طريق

الضلال بمعنى الطريق الّذي هو للحقّ و الطريق الّذي هو للضلال أي إنّ غايته الحقّ أو غايته الضلال .

وذلك أنّ المستفاد من مثل قوله تعالى : « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم » الروم : ٣٠ و قوله : « إنّ الدين عند الله الإسلام » آل عمران : ١٩ وسائر ما يجري هذا المجرى من الآيات أنّ لهذا الدين أصلاً في الكون والخلقة والواقع الحقّ يدعو إليه النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ، وينّدب الناس إلى الإسلام والخضوع له ويسمّى اتّخاذه سنّة في الحياة إسلاماً لله تعالى فهو يدعو إلى ما لا مناص للإنسان عن استجابته والتسليم له وهو الخضوع للسنّة العمليّة الإعتباريّة الّتي يهدي إليها السنّة الكونيّة الحقيقيّة ، وبعبارة اُخرى التسليم لإرادة الله التشريعيّة المنبعثة عن إرادته التكوينيّة .

وبالجملة للحقّ الّذي هو الواقع الثابت دين وسنّة ينبعث منه كما أنّ للضلال والغيّ ديناً يدعو إليه ، والأوّل اتّباع للحقّ كما أنّ الثاني اتّباع للهوى قال تعالى : « ولو اتّبع الحقّ أهواءهم لفسدت السماوات والأرض » .

والإسلام دين الحقّ بمعنى أنّه سنّة التكوين والطريقة الّتي تنطبق عليها الخلقة وتدعو إليها الفطرة فطرة الله الّتي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيّم .

فتلخّص ممّا تقدّم أوّلاً : أنّ المراد بعدم إيمان أهل الكتاب بالله واليوم الآخر عدم تلبّسهم بالإيمان المقبول عند الله ، وبعدم تحريمهم ما حرّم الله ورسوله عدم مبالاتهم في التظاهر باقتراف المناهي الّتي يفسد التظاهرُ بها المجتمعَ البشريّ ويخيب بها سعي الحكومة الحقّة الجارية فيه ، وبعدم تديّنهم بدين الحقّ عدم استنانهم بسنّة الحقّ المنطبقة على الخلقة والمنطبقة عليها الخلقة والكون .

وثانياً : أنّ قوله : « الّذين لا يؤمنون بالله » إلى آخر الأوصاف الثلاثة مسوق لبيان الحكمة في الأمر بقتالهم ويترتّب عليه فائدة التحريض والتحضيض عليه .

وثالثاً : أنّ المراد قتال أهل الكتاب جميعاً لا بعضهم بجعل « من » في قوله : « من الّذين اُوتوا الكتاب » للتبعيض .

قوله تعالى : « حتّى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون » قال الراغب في المفردات : الجزية ما يؤخذ من أهل الذمّة ، و تسميتها بذلك للاجتزاء بها في حقن دمهم . انتهى .

و في المجمع : الجزية فعلة من جزى يجزي مثل العقدة والجلسة و هي عطيّة مخصوصة جزاءً لهم على تمسّكهم بالكفر عقوبة لهم . عن عليّ بن عيسى . انتهى .

والاعتماد على ماذكره الراغب فإنّه المتأيّد بما ذكرناه آنفاً أنّ هذه عطيّة ماليّة مصروفة في جهة حفظ ذمّتهم وحقن دمائهم وحسن إدارتهم .

وقال الراغب أيضاً : الصغر والكبر من الأسماء المتضادّة الّتي تقال عند اعتبار بعضها ببعض فالشيء قد يكون صغيراً في جنب الشيء و كبيراً في جنب آخر ـ إلى أن قال ـ يقال : صغر صغراً ـ بالكسر فالفتح ـ في ضدّ الكبير و صغر صغرا و صغاراً ـ بالفتحتين فيهما ـ في الذلّة . والصاغر الراضي بالمنزلة الدنيّة : «حتّى يعطوا الجزية عن يد و هم صاغرون » انتهى .

والاعتبار بما ذكر في صدر الآية من أوصافهم المقتضية لقتالهم ثمّ إعطاؤهم الجزية لحفظ ذمّتهم يفيد أن يكون المراد بصغارهم خضوعهم للسنّة الإسلاميّة والحكومة الدينيّة العادلة في المجتمع الإسلاميّ فلا يكافؤوا المسلمين ولا يبارزوهم بشخصيّة مستقلّة حرّة في بثّ ما تهواه أنفسهم وإشاعة ما اختلقته هوساتهم من العقائد والأعمال المفسدة للمجتمع الإنسانيّ مع مافي إعطاء المال بأيديهم من الهوان .

فظاهر الآية أنّ هذا هو المراد من صغارهم لا إهانتهم والسخريّة بهم من جانب المسلمين أو أولياء الحكومة الدينيّة فإنّ هذا ممّا لا يحتمله السكينة والوقار الإسلاميّ وإن ذكر بعض المفسّرين .

واليد : الجارحة من الإنسان وتطلق على القدرة والنعمة فإن كان المراد به في قوله : « حتّى يعطوا الجزية عن يد » هو المعنى الأوّل فالمعنى حتّى يعطوا الجزية متجاوزة عن يدهم إلى يدكم ، وإن كان المراد هو المعنى الثاني فالمعنى : حتّى يعطوا الجزية عن قدرة وسلطة لكم عليهم وهم صاغرون غير مستعلين عليكم ولا مستكبرين .

فمعنى الآية ـ والله أعلم ـ قاتلوا أهل الكتاب لأنّهم لايؤمنون بالله واليوم الآخر إيماناً مقبولاً غير منحرف عن الصواب ولا يحرّمون ما حرّمه الإسلام ممّا يفسد اقترافه المجتمع الإنسانيّ ولا يدينون ديناً منطبقاً على الخلقة الإلهيّة قاتلوهم وداوموا على قتالهم حتّى يصغروا عندكم ويخضعوا لحكومتكم ، ويعطوا في ذلك عطيّة ماليّة مضروبة عليهم يمثّل صغارهم ، ويصرف في حفظ ذمّتهم وحقن دمائهم وحاجة إدارة اُمورهم .

قوله تعالى : « وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله » إلى آخر الآية المضاهاة المشاكلة . والإفك على ماذكره الراغب كلّ مصروف عن وجهه الّذي يحقّ أن يكون عليه فمعنى « يؤفكون » يصرفون في اعتقادهم عن الحقّ إلى الباطل .

وقوله : « وقالت اليهود عزير ابن الله » عزير هذا هو الّذي يسمّيه اليهود عزرا غيّرت اللفظة عند التعريب كما غيّر لفظ «يسوع» فصار بالتعريب « عيسى » ولفظ «يوحنّا» فصار كما قيل « يحيى » .

وعزرا هذا هو الّذي جدّد دين اليهود و جمع أسفار التوراة و كتبها بعد ما افتقدت في غائلة بخت نصّر ملك بابل الّذي فتح بلادهم وخرّب هيكلهم و أحرق كتبهم و قتل رجالهم وسبى نساءهم وذراريهم والباقين من ضعفائهم وسيّرهم معه إلى بابل فبقوا هنالك مايقرب من قرن ثمّ لمّا فتح « كورش » ملك ايران بابل شفع لهم عنده عزرا وكان ذاوجه عنده فأجاز له أن يعيد اليهود إلى بلادهم و أن يكتب لهم التوراة ثانياً بعد ما افتقدوا نسخها وكان ذلك في حدود سنة ٤٥٧ قبل المسيح على ما ذكروا فراجت بينهم ثانياً ما جمعه عزرا من التوراة وإن كانوا افتقدوا ايضاً في زمن أنتيوكس صاحب سوريّة الّذي فتح بلادهم حدود سنة ١٦١ ق م وتتبّع مساكنهم فأحرق ماوجده من نسخ التوراة و قتل من وجدت عنده أو اُخذت عليه على ما في كتب التاريخ .

ولمانالهم من خدمته عظّموا قدره واحترموا أمره وسمّوه ابن الله ولا ندري أكان دعاؤه بالبنوّة بالمعنى الّذي يسمّي به النصارى المسيحَ ابنَ الله ـ والمراد أنّ فيه شيئاً من جوهر الربوبيّة أوهومشتقّ منه أوهوهو ؟ ـ أوأنّها تسمية تشريفيّة كما قالوا : نحن أبناء الله وأحبّاؤه ؟ وإن كان ظاهر سياق الآية التالية : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من

دون الله والمسيح بن مريم » الآية يؤيّد الثاني على ما سيأتي .

وقد ذكر بعض المفسّرين : أنّ هذا القول منهم : «عزير ابن الله» كلمة تكلّم بها بعض اليهود ممّن في عصره صلى الله عليه وآله لا لجميع اليهود فنسب إلى الجميع كما أنّ قولهم : « إنّ الله فقير ونحن أغنياء » و كذا قولهم : « يدالله مغلولة » ممّا قاله بعض يهود المدينة ممّن عاصر النبيّ صلى الله عليه وآله فنسب في كلامه تعالى إلى جميعهم لأنّ البعض منهم راضون بما عمله البعض الآخر ، والجميع ذو رأي متوافق الأجزاء ورويّة متشابهة التأثير .

وقوله : « وقالت النصارى المسيح ابن الله » كلمة قالتها النصارى ، وقد تقدّم الكلام فيها و في ما يتعلّق بها في قصّة المسيح عليه السلام من سورة آل عمران في الجزء الثالث من الكتاب .

وقوله : « يضاهؤون قول الّذين كفروا من قبل » تنبىء الآية عن أنّ القول بالبنوّة منهم مضاهاة و مشاكلة لقول من تقدّمهم من الأمم الكافرة وهم الوثنيّون عبدة الأصنام فإنّ من آلهتهم من هو إله أب إله ومن هو إله ابن إله ، و من هي إلهة أمّ إله أو زوجة إله ، و كذا القول بالثالوث ممّا كان دائراً بين الوثنيّين من الهند والصين و مصر القديم و غيرهم وقد مرّ نبذة من ذلك فيما تقدّم من الكلام في قصّة المسيح في ثالث أجزاء هذا الكتاب .

وتقدّم هناك أنّ تسرّب العقائد الوثنيّة في دين النصارى ومثلهم اليهود من الحقائق الّتي كشف عنها القرآن الكريم في هذه الآية : « يضاهؤون قول الّذين كفروا من قبل »

وقد اعتنى جمع (١) من محقّقي هذا العصر بتطبيق ما تضمّنته كتب القوم أعني العهدين : العتيق والجديد على ما حصل من مذاهب البوذيّين والبرهمائيّين فوجدوا معارف العهدين منطبقة على ذلك حذو النعل بالنعل حتّى كثيراً من القصص والحكايات الموجودة في الأناجيل فلم يبق ذلك ريباً لأيّ باحث في أصالة قوله تعالى : «يضاهؤون » الآية في هذا الباب .

ثمّ دعا عليهم بقوله : « قاتلهم الله أنّى يؤفكون » و ختم به الآية .

---

(١) Budhist and Christian Gospels Edmuds A. J. 2V. Philadelphia 1908

قوله تعالى : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله و المسيح بن مريم » الأحبار جمع حبر بفتح الحاء و كسرها وهو العالم و غلب استعماله في علماء اليهود و الرهبان جمع راهب وهو المتلبّس بلباس الخشية وغلب على المتنسّكين من النصارى .

واتّخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله هو إصغاؤهم لهم و إطاعتهم من غير قيد و شرط ولا يطاع كذلك إلّا الله سبحانه .

وأمّا اتّخاذهم المسيح بن مريم ربّاً من دون الله فهو القول باُلوهيّته بنحو كما هو المعروف من مذاهب النصارى ، وفي إضافة المسيح إلى مريم إشارة إلى عدم كونهم محقّين في هذا الاتّخاذ لكونه إنساناً ابن مرأة .

و لكون الاتّخاذين مختلفين من حيث المعنى فصل بينهما فذكر اتّخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله أوّلاً ثمّ عطف عليه قوله : « والمسيح بن مريم » .

والكلام كما يدلّ على اختلاف الربوبيّتين كذلك لا يخلو عن دلالة على أنّ قولهم ببنوّة عزير وبنوّة المسيح على معنيين مختلفين ، وهو البنوّة التشريفيّة في عزير والبنوّة بنوع من الحقيقة في المسيح عليه السلام فإنّ الآية أهملت ذكر اتّخاذهم عزيراً ربّاً من دون الله ، ولم يذكر مكانه إلّا اتّخاذهم الأحبار والرهبان أرباباً من دون الله .

فهو ربّ عندهم بهذا المعنى إمّا لاستلزام التشريف بالبنوّة ذلك أو لأنّه من أحبارهم وقد أحسن إليهم في تجديد مذهبهم ما لا يقاس به إحسان غيره وأمّا المسيح فبنوّته غير هذه البنوّة .

وقوله : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو » جملة حاليّة أي اتّخذوا لهم أرباباً والحال هذه .

وفي الكلام دلالة أوّلاً : على أنّ الاتّخاذ بالربوبيّة بواسطة الطاعة كالاتّخاذ بها بواسطة العبادة فالطاعة إذا كانت بالاستقلال كانت عبادة ، ولازم ذلك أنّ الربّ الّذي هو المطاع من غير قيد وشرط و على نحو الاستقلال إله ، فإنّ الإله هو المعبود الّذي من حقّه أن يعبد ، يدلّ على ذلك كلّه قوله تعالى : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً » حيث بدّل الربّ بالإله ، و كان مقتضى الظاهر أن يقال وما اُمروا إلّا ليتّخذوا ربّاً واحداً

فالاتّخاذ للربوبيّة بواسطة الطاعة المطلقة عبادة ، واتّخاذ الربّ معبوداً اتّخاذ له إلهاً فافهم ذلك .

وثانياً : على أنّ الدعوة إلى عبادة الله وحده فيما وقع من كلامه تعالى كقوله تعالى : « لا إله إلّا أنا فاعبدون » الأنبياء : ٢٥ وقوله : « فلا تدع مع الله إلهاً آخر » الشعراء ٢١٣ وأمثال ذلك كما اُريد بها قصر العبادة بمعناها المتعارف فيه تعالى كذلك اُريد قصر الطاعة فيه تعالى، وذلك أنّه تعالى لم يؤاخذهم في طاعتهم لأحبارهم ورهبانهم إلّا بقوله عزّ من قائل : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلّا هو » .

وعلى هذا المعنى يدلّ قوله تعالى : « ألم أعهد إليكم يابني آدم أن لا تعبدوا الشيطان إنّه لكم عدوّ مبين وأن اعبدوني هذا صراط مستقيم » يس : ٦١ ، وهذا باب ينفتح منه ألف باب .

وفي قوله : « لا إله إلّا هو » تتميم لكلمة التوحيد الّتي يتضمّنها قوله : « وما اُمروا إلّا ليعبدوا إلهاً واحداً » فإنّ كثيراً من عبدة الأصنام كانوا يعتقدون بوجود آلهة كثيرة ، وهم مع ذلك لا يخصّون بالعبادة إلّا واحداً منها فعبادة إله واحد لا يتمّ به التوحيد إلّا مع القول بأنّه لا إله إلّا هو .

وقد جمع تعالى بين العبادتين مع الإشارة إلى مغايرة ما بينهما وأنّ قصر العبادة بكلا معنييها عليه تعالى هو معنى الإسلام له سبحانه الّذي لا مفرّ منه للانسان؛ فيما أمر به نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم من دعوة أهل الكتاب بقوله : « قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم أن لا نعبد إلّا الله ولا نشرك به شيئاً ولا يتّخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله فإن تولّوا فقولوا اشهدوا بأنّا مسلمون » آل عمران : ٦٤ .

وقوله تعالى في ذيل الآية : « سبحانه عمّا يشركون » تنزيه له تعالى عمّا يتضمّنه قولهم بربوبيّة الأحبار والرهبان ، وقولهم بربوبيّة المسيح عليه السلام من الشرك .

والآية بمنزلة البيان التعليليّ لقوله تعالى في أوّل الآيات : « الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر » فإنّ اتّخاذ إله أو آلهة دون الله سبحانه لا يجامع الإيمان بالله ، ولا الإيمان بيوم لا ملك فيه إلّا لله .

قوله تعالى : « يريدون أن يطفؤوا نور الله بأفواههم » إلى آخر الآية الإطفاء

إخماد النار أوالنور ، والباء في قوله : « بأفواههم » للآلة أو السببيّة .

وإنّما ذكر الأفواه لأنّ النفخ الّذي يتوسّل به إلى إخماد الأنوار والسرج يكون بالأفواه قال في المجمع : وهذا من عجيب البيان مع ما فيه من تصغير شأنهم وتضعيف كيدهم لأنّ الفم يؤثّر في الأنوار الضعيفة دون الأقباس العظيمة . انتهى .

وقال في الكشّاف : مثّل حالهم في طلبهم أن يبطلوا نبوّة محمّد صلى الله عليه وآله وسلم بالتكذيب بحال من يريد أن ينفخ في نور عظيم منبثّ في الآفاق يريد الله أن يزيده ، و يبلغه الغاية القصوى في الإشراق والإضاءة ليطفئه بنفخه ويطمسه . انتهى ، والآية إشارة إلى حال الدعوة الإسلاميّة ، وما يريده منه الكافرون ، وفيها وعد جميل بأنّ الله سيتمّ نوره .

قوله تعالى : « هو الّذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحقّ ليظهره على الدين كلّه ولو كره المشركون » الهدى الهداية الإلهيّة الّتي قارنها برسوله ليهدي بأمره ، ودين الحقّ هو الإسلام بما يشتمل عليه من العقائد والأحكام المنطبقة على الواقع الحقّ .

والمعنى أنّ الله هو الّذي أرسل رسوله وهو محمّد صلى الله عليه وآله مع الهداية ـ أو الآيات و البيّنات ـ ودين فطريّ ليظهر و ينصر دينه الّذي هو دين الحقّ على كلّ الأديان ولو كره المشركون ذلك .

وبذلك ظهر أنّ الضمير في قوله : « ليظهره » راجع إلى دين الحقّ كما هو المتبادر من السياق ، وربّما قيل : إنّ الضمير راجع إلى الرسول ، والمعنى ليظهر رسوله ويعلّمه معالم الدين كلّها و هو بعيد .

وفي الآيتين من تحريض المؤمنين على قتال أهل الكتاب والإشارة إلى وجوب ذلك عليهم ما لا يخفى فإنّهما تدلّان على أنّ الله أراد انتشار هذا الدين في العالم البشريّ فلابدّ من السعي والمجاهدة في ذلك ، وأنّ أهل الكتاب يريدون أن يطفؤوا هذا النور بأفواههم فلابدّ من قتالهم حتّى يفنوا أو يستبقوا بالجزية والصغار ، وأنّ الله سبحانه يأبى إلّا أن يتمّ نوره ، ويريد أن يظهر هذا الدين على غيره فالدائرة بمشيّة الله لهم على أعداءهم فلا ينبغي لهم أن يهنوا ويحزنوا وهم الأعلون إن كانوا مؤمنين .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون

أموال الناس بالباطل و يصدّون عن سبيل الله » الظاهر أنّ الآية إشارة إلى بعض التوضيح لقوله في أوّل الآيات : ولا يحرّمون ماحرّم الله ورسوله ولا يدينون دين الحقّ » كما أنّ الآية السابقه كالتوضيح لقوله فيها : «الّذين لايؤمنون بالله ولاباليوم الآخر » .

أمّا إيضاح قوله تعالى : « ولا يحرّمون ماحرّم الله ورسوله » بقوله : «إنّ كثيراً من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل » فهو إيضاح بأوضح المصاديق و أهمّها تأثيراً في إفساد المجتمع الإنسانيّ الصالح ، وإبطال غرض الدين .

فالقرآن الكريم يعدّ لأهل الكتاب وخاصّة لليهود جرائم وآثاماً كثيرة مفصّلة في سورة البقرة والنساء والمائدة وغيرهالكنّ الجرائم و التعدّيات الماليّة شأنها غير شأن غيرها ، وخاصّة فيهذا المقام الّذي تعلّق الغرض بإفساد أهل الكتاب المجتمع الإنسانيّ الصالح لوكانوا مبسوطي اليد واستقلالهم الحيويّ قائماً على ساق ، ولا مفسد للمجتمع مثل التعدّي الماليّ .

فإنّ أهمّ مايقوم به المجتمع الإنسانيّ على أساسه هو الجهة الماليّة الّتي جعل الله لهم قياماً فجلّ المآثم والمساوي والجنايات والتعدّيات و المظالم تنتهي بالتحليل إمّا إلى فقر مفرط يدعو إلى اختلاس أموال الناس بالسرقة وقطع الطرق وقتل النفوس والبخس في الكيل والوزن والغصب وسائر التعدّيات الماليّة ، و إمّا إلى غنى مفرط يدعو إلى الإتراف والإسراف في المأكل والمشرب والملبس و المنكح و المسكن ، و الاسترسال في الشهوات وهتك الحرمات ، وبسط التسلّط على أموال الناس وأعراضهم ونفوسهم .

و تنتهي جميع المفاسد الناشئة من الطريقين كليهما بالتحليل إلى ما يعرض من الاختلال على النظام الحاكم في حيازة الأموال واقتناء الثروة ، والأحكام المشرّعة لتعديل الجهات المملّكة المميّزة لأكل المال بالحقّ من أكله بالباطل؛فإذا اختلّ ذلك و أذعنت النفوس بإمكان القبض على ماتحتها من المال ، وتتوّق إليه من الثروة بأيّ طريق أمكن لقّن ذلك إيّاها أن يظفر بالمال ويقبض على الثروة بأيّ طريق ممكن حقّ أو باطل ، و أن يسعى إلى كلّ مشتهى من مشتهيات النفس مشروع أو غيرمشروع أدّى إلى ما أدّى ، وعند ذلك يقوم البلوى بفشوّ الفساد وشيوع الانحطاط الأخلاقيّ في المجتمع ، و انقلاب

المحيط الإنساني إلى محيط حيواني رديّ لا همّ فيه إلّا البطن ومادونه ولايملك فيه إرادة أحد بسياسة أو تربية ولاتفقّه فيه لحكمة ولا إصغاء إلى موعظة .

ولعلّ هذا هو السبب الموجب لاختصاص أكل المال بالباطل بالذكر ، وخاصّة من الأحبار والرهبان إليهم تربية الاُمّة وإصلاح المجتمع .

وقد عدّ بعضهم من أكلهم أموال الناس بالباطل ما يقدّمه الناس إليهم من المال حبّاً لهم لتظاهرهم بالزهد والتنسّك ، وأكل الربا والسحت ، وضبطهم أموال مخالفيهم وأخذهم الرشا على الحكم ، وإعطاء أوراق المغفرة وبيعها ، ونحوذلك .

والظاهر أنّ المراد بها أمثال أخذ الرشوة على الحكم كما تقدّم من قصّتهم في تفسير قوله تعالى : « يا أيّها الرسول لايحزنك الّذين يسارعون في الكفر » الآية المائدة: ٤١ في الجزء الخامس من الكتاب .

ولولم يكن من ذلك إلّا ماكانت تأتي به الكنيسة من بيع أوراق المغفرة لكفى به مقتاً ولوماً .

وأمّا ماذكره من تقديم الأموال إليهم لتزهّدهم ، وكذا تخصيصهم بأوقاف ووصايا ومبرّات عامّة فليس بمعدود من أكل المال بالباطل ، وكذا ما ذكره من أكل الربا و السحت فقد نسبه تعالى في كلامه إلى عامّة قومهم كقوله تعالى : « وأخذهم الربا وقد نهوا عنه » النساء . ٦١ وقوله : « سمّاعون للكذب أكّالون للسحت » المائدة : ٤٢ . و إنّما كلامه تعالى في الآية الّتي نحن فيهافيما يخصّ أحبارهم ورهبانهم من أكل المال بالباطل لاما يعمّهم وعامّتهم .

إلّا أنّ الحقّ أنّ زعماء الاُمّة الدينيّة ومربّيهم في سلوك طريق العبوديّة المعتنين با صلاح قلوبهم و أعمالهم إذا انحرفوا عن طريق الحقّ إلى سبيل الباطل كان جميع ما أكلوه لهذا الشأن واستدرّوه من منافعه سحتاً محرّماً لا يبيحه لهم شرع ولا عقل .

وأمّا إيضاح قوله تعالى : « ولا يدينون دين الحقّ » بقوله : « ويصدّون عن سبيل الله » فهو أيضاً مبنيّ على ما قدّمناه من النكتة في توصيفهم بالأوصاف الثلاثة الّتي ثالثها قوله : « ولا يدينون دين الحقّ » وهو بيان مايفسد من صفاتهم وأعمالهم المجتمع الإنسانيّ

ويسدّ طريق الحكومة الدينيّة العادلة دون البلوغ إلى غرضها من إصلاح الناس وتكوين مجتمع حيّ فعّال بما يليق بالإنسان الفطريّ المتوجّه إلى سعادته الفطريّة .

و لذاخصّ بالذكر من مفاسد عدم تديّنهم بدين الحقّ ما هو العمدة في إفساد المجتمع الصالح ، وهو صدّهم عن سبيل الله ومنعهم الناس عن أن يسلكوه بما قدروا عليه من طرقه الظاهرة و الخفيّة ، ولا يزالون مصرّين على هذه السليقة منذ عهد النبيّ صلّى الله عليه وآله حتّى اليوم .

قوله تعالى : «والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم» قال الراغب : الكنز جعل المال بعضه على بعض وحفظه ، و أصله من كنزت التمر في الوعاء ، وزمن الكناز وقت ما يكنز فيه التمر ، وناقة كناز مكتنزة اللحم ، وقوله «والّذين يكنزون الذهب والفضّة» أي يدّخرونها انتهى .

ففي مفهوم الكنز حفظ المال المكنوز وادّخاره ومنعه من أن يجري بين الناس في وجوه المعاملات فينمو نماءً حسناً ، ويعمّ الانتفاع به في المجتمع فينتفع به هذا بالأخذ ، و ذاك بالردّ ، وذلك بالعمل عليه وقد كان دأبهم قبل ظهور البنوك و المخازن العامّة أن يدفنوا الكنوز في الأرض ستراً عليها من أن تقصد بسوء .

والآية وإن اتّصلت في النظم اللفظيّ بما قبلها من الآيات الذامّة لأهل الكتاب والموبّخة لأحبارهم ورهبانهم في أكلهم أموال الناس بالباطل والصدّ عن سبيل الله إلّا أنّه لا دليل من جهة اللفظ على نزولها فيهم واختصاصها بهم البتّة .

فلا سبيل إلى القول بأنّ الآية إنّما نزلت في أهل الكتاب وحرّمت الكنز عليهم ، وأمّا المسلمون فهم ومايقتنون من ذهب وفضّة يصنعون بأموالهم ما يشاؤون من غير بأس عليهم .

والآية توعد الكانزين إيعاداً شديداً ، ويهدّدهم بعذاب شديد غير أنّها تفسّر الكنز المدلول عليه بقوله : «الّذين يكنزون الذهب والفضّة» بقوله : «ولا ينفقونها في سبيل الله» فتدلّ بذلك على أنّ الّذي يبغضه الله من الكنز ما يلازم الكفّ عن إنفاقه في سبيل الله إذا كان هناك سبيل .

وسبيل الله على ما يستفاد من كلامه تعالى هو ما توقّف عليه قيام دين الله على ساقه وأن يسلم من انهدام بنيانه كالجهاد وجميع مصالح الدين الواجبة حفظها ، وشؤون مجتمع المسلمين الّتي ينفسخ عقد المجتمع لو انفسخت ، والحقوق الماليّة الواجبة الّتي أقام الدين بها صلب المجتمع الدينيّ ، فمن كنز ذهباً أو فضّة والحاجة قائمة والضرورة عاكفة فقد كنز الذهب والفضّة ولم ينفقها في سبيل الله فليبشّر بعذاب أليم فإنّه آثر نفسه على ربّه وقدّم حاجة نفسه أو ولده الاحتماليّة على حاجة المجتمع الدينيّ القطعيّة .

ويستفاد هذا ممّا في الآية التالية من قوله : « هذا ما كنزتم لأنفسكم » فإنّه يدلّ على أنّ توجّه العتاب عليهم لكونهم خصّوه بأنفسهم وآثروها فيما خافوا حاجتها إليه على سبيل الله الّذي به حياة المجتمع الإنسانيّ في الدنيا والآخرة ، وقد خانوا الله ورسوله في ذلك من جهة اُخرى وهي الستر والتغييب إذ لو كان ظاهراً جارياً على الأيدي كان من الممكن أن يأمره وليّ الأمر بإنفاقه في حاجة دينيّة قائمة لكن إذا كنز كنزاً و أخفى عن الأنظار لم يلتفت إليه ، وبقيت الحاجة الضروريّة قائمة في جانب والمال المكنوز الّذي هو الوسيلة الوحيدة لرفع الحاجة في جانب مع عدم حاجة من كنزه إليه .

فالآية إنّما تنهى عن الكنز لهذه الخصيصة الّتي هي إيثار الكانز نفسه بالمال من غير حاجة إليه على سبيل الله مع قيام الحاجة إليه ، و ناهيك أنّ الإسلام لا يحدّ أصل الملك من جهة الكمّيّة بحدّ فلو كان لهذا الكانز أضعاف ما كنزه من الذهب والفضّة ولم يدّخرها كنزاً بل وضعها في معرض الجريان يستفيد به لنفسه اُلوفاً واُلوفاً ، ويفيد غيره ببيع أو شراء أو عمل وغير ذلك لم يتوجّه إليه نهي دينيّ لأنّه حيث نصبها على أعين الناس وأجراها في مجرى النماء الصالح النافع لم يخفها ولم يمنعها من أن يصرف في سبيل الله فهو وإن لم ينفقها في سبيل الله إلّا أنّه بحيث لو أراد وليّ أمر المسلمين لأمره بالإنفاق فيما يرى لزوم الإنفاق فيه فليس هو إذا لم ينفق وهو بمرأى و مسمع من وليّ الأمر بخائن ظلوم .

فالآية ناظرة إلى الكنز الّذي يصاحبه الامتناع عن الإنفاق في الحقوق الماليّة الواجبة لا بمعنى الزكاة الواجبة فقط بل بمعنى يعمّها وغيرها من كلّ ما يقوم عليه ضرورة

المجتمع الديني من الجهاد وحفظ النفوس من الهلكة و نحو ذلك .

وأمّا الإنفاق المستحب كالتوسعة على العيال ، وإعطاء المال وبذله على الفقراء في الزائد على ضرورة حياتهم فهو وإن أمكن أن يطلق عليه فيما عندنا الإنفاق في سبيل الله إلّا أنّ نفس أدلّته المبيّنة لاستحبابه تكشف عن أنّه ليس من هذا الإنفاق في سبيل الله المذكور في هذه الآية فكنز المال وعدم إنفاقه إنفاقاً مندوباً مع عدم سبيل ضروري ينفق فيه ليس من الكنز المنهيّ عنه في هذه الآية فهذا ماتدلّ عليه الآية الكريمة ، وقد طال فيها ـ لما يتعلّق بها من بعض الأبحاث الكلاميّة ـ المشاجرة بين المفسّرين ، وسنورد فيه كلاماً بعد الفراغ عن البحث الروائيّ المتعلّق بالآيات إن شاء الله تعالى .

وقوله في ذيل الآية : « فبشّرهم بعذاب أليم » إيعاد بالعذاب يدلّ على تحريمه الشديد .

قوله تعالى : « يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم و جنوبهم و ظهورهم » إلى آخر الآية . إحماء الشيء جعله حارّاً في الإحساس و الإحماء عليه الإيقاد ليتسخّن والإحماء فوق التسخين ، والكيّ إلصاق الشيء الحارّ بالبدن .

والمعنى: أنّ ذلك العذاب المبشّر به في يوم يوقد على تلك الكنوز في نار جهنّم فتكون محماة بالنار فتلصق بجباههم وجنوبهم وظهورهم ، و يقال لهم عند ذلك : « هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » : فقد عاد عذاباً عليكم تعذّبون به .

ولعلّ تخصيص الجباه و الجنوب و الظهور لأنّهم خضعوا لها وهو السجدة الّتي تكون بالجباه ولاذوا إليها واللواذ بالجنوب ، واتّكؤوا عليها والاتّكاء بالظهور ، وقيل غير ذلك والله أعلم .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن حفص بن غياث عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث الأسياف الّذي ذكره عن أبيه قال : و أمّا السيوف الثلاثة المشهورة فسيف على مشركي العرب، قال الله

عزّ وجلّ : « اقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » .

قال : والسيف الثاني على أهل الذمّة قال الله عزّ وجلّ : « و قولوا للناس حسناً» نزلت هذه الآية في أهل الذمّة ثمّ نسخها قوله عزّ وجلّ : « قاتلوا الّذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرّمون ماحرّم الله ورسوله ولايدينون دين الحقّ من الّذين اُوتوا الكتاب حتّى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » فمن كان منهم في دارالإسلام فلن يقبل منه إلّا الجزية أو القتل ومالهم فيء و ذراريهم سبي ، وإذا قبلوا الجزية على أنفسهم حرم علينا سبيهم ، وحرمت أموالهم ، وحلّت لنامنا كحتهم .

ومن كان منهم في دارالحرب حلّ لناسبيهم وأموالهم ، ولم يحلّ منا كحتهم ، ولم يقبل إلّا الدخول في دارالإسلام أوالجزية أوالقتل .

وفيه بإسناده عن طلحة بن زيد عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام قال : جرت السنّة أن‌لاتؤخذ الجزية من المعتوه ولامن المغلوب على عقله .

وفيه بإسناده عن أبي‌يحيى‌الواسطيّ عن بعض أصحابنا قال : سئل أبوعبدالله عليه‌السلام عن المجوس أكان لهم شيء ؟ فقال : نعم أما بلغك كتاب رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله إلى أهل مكّة : أن أسلموا وإلّا نابذتكم بحرب فكتبوا إلى رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : أن خذمنّا الجزية و دعنا على عبادة الأوثان . فكتب إليهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله : إنّي لست آخذ الجزية إلّا من أهل الكتاب .

فكتبوا إليه ـ يريدون بذلك تكذيبه ـ : زعمت أنّك لا تأخذالجزية إلّامن أهل‌الكتاب ثمّ أخذت الجزية من مجوس هجر . فكتب إليهم النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله إنّ المجوس كان لهم نبيّ فقتلوه و كتاب أحرقوه . أتاهم نبيّهم بكتابهم في‌اثني عشر ألف جلد ثور .

أقول : وفي هذه المعاني روايات اُخرى مودعة في جوامع الحديث واستيفاءالكلام في مسائل الجزية والخراج وغيرهما في‌الفقه .

وفي‌الدرّ المنثور أخرج ابن عساكر عن‌أبي‌اُمامة عن رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله قال : القتال قتالان : قتال المشركين حتّى يؤمنوا أو يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون ، وقتال الفئة الباغية حتّى تفيء إلى‌أمرالله فإذا فاءت اُعطيت العدل .

وفيه أخرج ابن أبي‌شيبة وابن جرير و ابن المنذر و ابن أبي‌حاتم و أبوالشيخ و البيهقيّ في‌سننه عن مجاهد في‌قوله : « قاتلوا الّذين لايؤمنون بالله» الآية قال : نزلت‌هذه حين اُمر محمّد صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وأصحابه بغزوة تبوك .

أقول : وقد تقدّمت الروايات في ذيل آية المباهلة أنّ‌النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله أقرّ الجزية على نصارى نجران ، وكان ذلك على مادلّ عليه أمثل الروايات سنة ستّ من الهجرة قبل غزوة تبوك بسنين ، و كذا دعوته صلى‌الله‌عليه‌وآله ملوك الروم ومصر والعجم وهم من أهل الكتاب كانت سنة ستّ .

وفيه أخرج ابن أبي‌شيبة عن الزهريّ قال : أخذ رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم الجزية من مجوس أهل هجر ومن يهود اليمن ونصاراهم من كلّ حالم دينار .

وفيه أخرج مالك والشافعيّ وأبوعبيد في كتاب الأموال وابن أبي‌شيبة عن جعفر عن أبيه أنّ عمربن الخطّاب استشار الناس في‌المجوس في‌الجزية فقال عبدالرحمان بن‌عوف سمعت رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم يقول : سنّوابهم سنّة أهل‌الكتاب .

وفيه أخرج عبدالرزّاق في‌المصنّف عن‌عليّ بن أبي‌طالب أنّه سئل عن أخذالجزية من المجوس فقال : والله ماعلى الأرض اليوم أحد أعلم بذلك منّي إنّ المجوس كانوا أهل كتاب يعرفونه ، وعلم يدرسونه فشرب أميرهم الخمر فسكر فوقع على اُخته فرآه‌نفرمن المسلمين فلمّا أصبح‌قالت اُخته : إنّك قد صنعت بها كذا و كذا ، وقدر آك نفر لايسترون عليك فدعا أهل الطمع ثمّ قال لهم : قد علمتم أنّ آدم عليه‌السلام فدأنكح بنيه بناته .

فجاء اُولئك الّذين رأوه فقالوا : ويل للأبعد إنّ في‌ظهرك حدّ الله فقتلهم اُولئك الّذين كانوا عنده ثمّ جاءت امرأة فقالت له : بلى قد رأيتك فقال لها : ويحاًلبغيّ بني‌فلان قالت : أجل والله قدكانت بغيّة ثمّ تابت فقتلها ، ثمّ‌أسرى‌على مافي قلوبهم وعلى كتبهم فلم يصبح عندهم شيء .

وفي تفسيرالعيّاشيّ في قوله تعالى : « وقالت اليهودعزيرابن الله » الآية عن عطيّة العوفيّ عن أبي‌سعيد الخدريّ قال : قال‌رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله : اشتدّ غضب‌الله على‌اليهود حين قالوا : عزير ابن الله ، واشتدّ غضب‌الله على‌النصارى حين قالوا : المسيح ابن‌الله ، و اشتدّ

غضب الله على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

وفي الدرّ المنثور أخرج البخاريّ في تاريخه عن أبي سعيد الخدريّ قال : لمّا كان يوم اُحد شجّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في وجهه و كسرت رباعيّته فقام رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ رافعاً يديه يقول : إنّ الله عزّ وجلّ اشتدّ غضبه على اليهود أن قالوا : عزير ابن الله ، واشتدّ غضبه على النصارى أن قالوا المسيح ابن الله وإنّ الله اشتدّ غضبه على من أراق دمي وآذاني في عترتي .

أقول : وقد روي في الدرّ المنثور وغيره عن ابن عبّاس و كعب الأحبار و السدّيّ وغيرهم روايات في قصّة عزير هي أشبه بالإسرائيليّات ، و الظاهر أنّ الجميع تنتهي إلى كعب .

وفي الاحتجاج للطبرسيّ عن عليّ عليه السلام قال : « قاتلهم الله أنّى يؤفكون » أي لعنهم الله أنّى يؤفكون فسمّي اللعنة قتالاً ، و كذلك : « قتل الإنسان ما أكفره » أي لعن الإنسان .

أقول : وروي ذلك من طرق أهل السنّة عن ابن عبّاس وهو على أيّ حال تفسير بلازم المعنى لا بالمراد اللفظيّ .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير ، عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قلت له : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » فقال : أما والله ما دعوهم إلى عبادة أنفسهم ، ولو دعوهم إلى عبادة أنفسهم ما أجابوهم ، و لكن أحلّوا لهم حراماً و حرّموا عليهم حلالاً فعبدوهم من حيث لا يشعرون .

أقول : وروى هذا المعنى البرقيّ في المحاسن و رواه العيّاشيّ في تفسيره عن أبي بصير وعن جابر جميعاً عن أبي عبدالله عليه السلام وعن حذيفة ، ورواه في الدرّ المنثور عن عدّة من أصحاب الفرق عن حذيفة .

وفي تفسير القمّيّ قال : وفي رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « اتّخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله » قال : هما عيسى ومريم أمّا المسيح فبعض عظّموه

في أنفسهم حتّى زعموا أنّه إله وأنّه ابن الله ، وطائفة منهم قالوا : ثالث ثلاثة ، و طائفة منهم قالوا : هو الله .

وأمّا قوله : « أحبارهم ورهبانهم » فإنّهم أطاعوا و أخذوا بقولهم ، و اتّبعوا ما أمروهم به ، ودانوا بما دعوهم إليه فاتّخذوهم أرباباً بطاعتهم لهم وتركهم أمرالله و كتبه ورسله فنبذوه وراء ظهورهم ، وماأمرهم به الأحبار والرهبان اتّبعوهم و أطاعوهم و عصوا الله . الحديث .

وفي تفسير البرهان عن المجمع قال : و روى الثعلبيّ بإسناده عن عديّ بن حاتم قال : أتيت رسول‌الله صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم و في عنقي صليب من ذهب فقال لي : يا عديّ اطرح هذا الربق .

و في تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن أبي بصير قال : قال أبوعبدالله عليه‌السلام في قوله عزّوجلّ : « هو الّذي أرسل رسوله بالهدى و دين الحقّ » الآية والله ما نزل تأويلها بعدولاينزل تأويلها حتّى يخرج القائم فإذا خرج القائم لم يبق كافر بالله ولا مشرك بالإمام إلّا كره خروجه حتّى لوكان الكافر في بطن صخرة قالت : يا مؤمن في بطني كافر فاكسرني واقتله .

أقول : وروى ما في معناه العيّاشيّ عن أبي المقدام عن أبي جعفر عليه‌السلام وعن سماعة عن أبي عبدالله عليه‌السلام ، و كذا الطبرسيّ مثله عن أبي جعفر عليه‌السلام ، وفي تفسير القمّيّ أنّها نزلت في القائم من آل محمّد عليهم‌السلام ، ومعنى نزولها فيه كونه تأويلها كما يدلّ عليه رواية الصدوق .

وفي الدرّ المنثور أخرج سعيدبن منصور وابن المنذر والبيهقيّ في سننه عن جابر في قوله : « ليظهره على الدين كلّه » قال : لايكون ذلك حتّى لايبقى يهوديّ ولا نصرانيّ صاحب ملّة إلّا الإسلام حتّى تأمن الشاة الذئب ، و البقرة الأسد ، و الإنسان الحيّة ، وحتّى لا تقرض فأرة جراباً ، وحتّى يوضع الجزية ويكسر الصليب و يقتل الخنزير ، و ذلك إذا نزل عيسى بن مريم عليه‌السلام .

أقول : والمراد بوضع الجزية أن تصيرمتروكة لاحاجة إليها لعدم الموضوع بقرينة

صدر الحديث ، وما دلّت عليه هذه الروايات من عدم بقاء كفر ولا شرك يومئذ يؤيّدها روايات اُخرى ، وهناك روايات اُخرى تدلّ على وضع المهديّ عليه‌السلام الجزية على أهل الكتاب بعد ظهوره .

وربّما أيّده قوله تعالى في أهل الكتاب : « وألقينا بينهم العداوة و البغضاء إلى يوم القيامة » المائدة : ٦٤ « وأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة » المائدة : ١٤ و ما في معناه من الآيات فإنّها لاتخلو من ظهور مّا في بقائهم إلى يوم القيامة إن لم تكن كناية عن ارتفاع المودّة بينهم ارتفاعاً أبديّاً ، وقد تقدّم في ذيل الآيات بعض الكلام في هذا المعنى .

وفي الدرّ المنثور أيضاً أخرج ابن الضريس عن علباء بن أحمر أنّ عثمان بن عفّان لمّا أراد أن يكتب المصاحف أرادوا أن يلقوا الواو الّتي في براءة : « والّذين يكنزون الذهب والفضّة » قال اُبيّ : لتلحقنّها أولأضعنّ سيفي على عاتقي فألحقوها .

وفي أمالي الشيخ قال : أخبرنا جماعة عن أبي المفضّل وساق إسناده قال : قال رسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله لمّا نزلت هذه الآية : « والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » كلّ مايؤدّى زكاته فليس بكنز وإن كان تحت سبع أرضين ، و كلّ مال لايؤدّى زكاته فهو كنز وإن كان فوق الأرض .

أقول : وروى ما في معناه في الدرّ المنثور عن ابن عديّ و الخطيب عن جابر عن النبيّ صلى‌الله‌عليه‌وآله‌وسلم وكذا بطرق اُخرى عن ابن عبّاس و غيره .

وفيه أيضاً بإسناده عن أبي عبدالله عليه‌السلام عن أبيه أبي جعفر عليه‌السلام أنّه سئل عن الدنانير والدراهم وماعلى الناس . فقال أبوجعفر عليه‌السلام : هي خواتيم الله في أرضه جعلها الله مصلحة لخلقه ، وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم فمن أكثر له منها فقام بحقّ الله تعالى فيها و أدّى زكاتها فذاك الّذي طلبه ، وخلص له ، ومن اُكثر له منها فبخل بها ولم يؤدّ حقّ الله فيها واتّخذ منها الأبنية فذاك الّذي حقّ عليه وعيدالله عزّ وجلّ في كتابه، يقول الله تعالى « يوم يحمى عليها في نار جهنّم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون » .

أقول : والرواية يؤيّد ما استفدناه سابقاً من الآية .

و في تفسير القمّي قال : كان أبوذرّ الغفاريّ يغدو كلّ يوم وهو في الشام فينادي بأعلى صوته : بشّر أهل الكنوز بكيّ في الجباه ، و كيّ في الجنوب ، و كيّ في الظهور حتّى يتردّد الحرّ في أجوافهم .

أقول : وقد استفاد الطبرسيّ في المجمع من الرواية الوجه في تخصيص الجباه و الجنوب والظهور من بين أعضاء الإنسان بالذكر في الآية ، وأنّ الغرض من تعذيبهم بهذا الوجه إيراد حرّ النار في أجوافهم وهي داخل الرؤوس فتكوى جباههم وداخل الصدور و البطون فتكوى جنوبهم وظهورهم .

ويمكن تتميم ماذكره بأنّهم يكبّون على وجوههم و رؤوسهم منكوسة على ما يشعر به الأخبار و بعض الآيات ثمّ تكوى أعضاؤهم من فوق فينتج ذلك كيّ الجباه و الجنوب والظهور .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق في المصنّف عن أبي ذرّ قال : بشّر أصحاب الكنوز بكيّ في الجباه وفي الجنوب وفي الظهور .

وفيه أخرج ابن سعد وابن أبي شيبة والبخاريّ وابن أبي حاتم و أبوالشيخ و ابن مردويه عن زيدبن وهب قال : مررت على أبي ذرّ بالربذة فقلت : ما أنزلك بهذه الأرض ؟ قال : كنّا بالشام فقرأت : « والّذين يكنزون الذهب و الفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » فقال معاوية : ما هذه فينا هذه في أهل الكتاب . قلت أنا : إنّها لفينا وفيهم .

و فيه أخرج مسلم و ابن مردويه عن الأحنف بن قيس قال : جاء أبوذرّ فقال: بشّر الكانزين بكيّ من قبل ظهورهم يخرج من جنوبهم ، و كيّ من جباههم يخرج من أقفائهم فقلت : ماذا ؟ قال : ماقلت إلّا ما سمعت من نبيّهم صلّى الله عليه وآله وسلّم .

وفيه أخرج أحمد في الزهد عن أبي بكربن المنكدر قال : بعث حبيب بن سلمة إلى أبي ذرّ و هو أمير الشام بثلاثمائة دينار ، و قال : استعن بها على حاجتك ؛ فقال أبوذرّ ارجع بها إليه أما وجد أحداً أغرّ بالله منّا مالنا إلّا الظلّ نتوارى به ، و ثلاثة من غنم

تروح علينا ، و مولاة لنا تصدّق علينا بخدمتها ثمّ إنّي لأ نا أتخوّف الفضل .

وفيه أخرج البخاريّ ومسلم عن الأحنف بن قيس قال : جلست إلى ملإ من قريش فجاء رجل خشن الشعر و الثياب و الهيئة حتّى قام عليهم فسلّم ثمّ قال : بشّر الكانزين برضف يحمى عليه في نار جهنّم ثمّ يوضع على حلمة ثدي أحدهم حتّى يخرج من نغض كتفه ، ويوضع على نغض كتفه حتّى يخرج من حلمة ثديه فيتدلدل .

ثمّ ولّى وجلس إلى سارية فتبعته وجلست إليه وأنا لا أدري من هو ؟ فقلت : لاأرى القوم إلّا قد كرهوا ماقلت ، قال : إنّهم لايعقلون شيئاً قال لي خليلي . قلت : من خليلك؟ قال : النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، أتبصر اُحداً ؟ قلت : نعم . قال : ما اُحبّ أن يكون لي مثل اُحد ذهباً اُنفقه كلّه إلّا ثلاثة دنانير و إنّ هؤلاء لايعقلون إنّما يجمعون للدنيا والله لا أسألهم دنيا ، ولا أستفتيهم عن دين حتّى ألقى الله عزّ وجلّ .

وفي تاريخ الطبريّ عن شعيب عن سيف عن محمّد بن عوف عن عكرمة عن ابن عبّاس أنّ أباذرّ دخل على عثمان وعنده كعب الأحبار فقال لعثمان : لاترضوا من النّاس بكفّ الأذى حتّى يبذلوا المعروف ، و قد ينبغي لمؤدّي الزكاة أن لايقتصر عليها حتّى يحسن إلى الجيران و الإخوان ويصل القرابات .

فقال : كعب من أدّى الفريضة فقد قضى ماعليه فرفع أبوذرّ محجنه فضربه فشجّه فاستوهبه عثمان فوهبه له ، وقال : يا أباذرّ اتّق الله واكفف يدك ولسانك ، وقد كان قال له : يابن اليهوديّة ما أنت وما ههنا ؟

أقول : و قصص أبي ذرّ و اختلافه مع عثمان ومعاوية معروفة مضبوطة في كتب التاريخ و التدبّر فيما مرّ من أحاديثه وما قاله لمعاوية إنّ الآية لا تختصّ بأهل الكتاب وما خاطب به عثمان وواجه به كعباً يدلّ على أنّه إنّما فهم من الآية ما قدّمناه أنّها توعد على الكفّ عن الإنفاق في السبيل الواجب .

و يؤيّده تحليل الحال الحاضر يومئذ فقد كان الناس يومئذ انقسموا قسمين و تبعّضوا شطرين عامّة لايقدرون على قوت اليوم ، ولا يجدون مايستر عورتهم وما لهم إلى

أوجب حوائجهم سبيل ، وخاصّة أسكرتهم الدنيا بجماع ما فيها من مال و منال يكنزون مآت الاُلوف واُلوف الاُلوف من عطايا الخلافة وغنائم الحروب و مال الخراج . ويكفيك في التبصّر فيه أن تراجع ماضبطته التواريخ من أموال الصحابة من نقد ورقيق و ضيعة و شامخات القصور وناجمات الدور ، وما أحدثه معاوية وسائر بني اُميّة بالشام وغيره من أزياء قيصرانيّة و كسروانيّة .

و الإسلام لايرتضي شيئاً من ذلك ولا ينفذ هذا الاختلاف الفاحش دون أن تتقارب الطبقات بالإنفاق ، وتصلح عامّة الأوضاع بانعطاف الأغنياء على الفقراء ، و الأقوياء على الضعفاء .

و ربّما قيل . إنّ أباذرّ كان يرى باجتهاد منه أنّ الزائد على القدر الواجب من المال الّذي ينفق لسدّ الجوع وستر العورة كنز يجب إنفاقه في سبيل الله أو أنّه كان يدعو إلى الزهد في الدنيا .

لكنّ الّذي يوجد من بعض كلامه في الروايات يكذّبه فإنّه لايستند في شيء ممّا قاله إلى اجتهاده ورأي نفسه بل بقوله : ما قلت لهم إلّا ماسمعت من نبيّهم ، وقال خليلي كذا و كذا ، وقد صحّت الرواية و استفاضت من طرق الفريقين عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال : ما أظلّت الخضراء ولا أقلّت الغبراء ذالهجة أصدق من أبي ذرّ » .

و بذلك يظهر فساد ماذكره شدّاد بن أوس فيما روى عنه أحمد والطبرانيّ قال:كان أبوذرّ يسمع عن رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ثمّ يخرج إلى باديته ثمّ يرخّص فيه رسول الله صلى الله عليه وآله بعد ذلك فيحفظ من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم الرخصة فلا يسمعها أبوذرّ فيأخذ أبوذرّ بالأمر الأوّل الّذي سمع قبل ذلك » .

وذلك أنّ الّذي ذكر من أبي ذرّ إنّما هو قوله : إنّ آية الكنز لاتختصّ بأهل الكتاب بل يعمّهم و المسلمين ، و ليس هذا مصداقاً لما ذكره في الرواية من العزيمة و الرخصة ، وكذا قوله : إنّ تأدية الزكاة فحسب لايكفي في جواز الكنز وعدم إنفاقه في الواجب من سبيل الله ، وكيف يتصوّر في حقّه أن لا يكون يسمع أنّ الإنفاق منه

مستحبّ كما أنّ منه واجباً و أن لا يعلم أن أدلّة الإنفاق المندوب أحسن مبيّن لآية الكنز .

و أوهن من ذلك ما تعلّق به الطبريّ في تاريخه فقد روى عن شعيب عن سيف عن عطيّة عن يزيد الفقعسيّ قال : لمّا و رد ابن السوداء الشام لقي أباذرّ فقال : يا أباذرّ ألا تعجب إلى معاوية يقول : المال مال الله ألا إنّ كلّ شيء لله ؟ كأنّه يريد أن يحتجبه دون المسلمين ، ويمحو اسم المسلمين .

فأتاه أبوذرّ فقال : ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أباذرّ ألسنا عبادالله و المال ماله و الخلق خلقه والأمر أمره ؟ قال : فلا تقله ، قال : فإنّي لا أقول : إنّه ليس لله ، و لكن سأقول : مال المسلمين .

قال : وأتى ابن السوداء أبا الدرداء فقال له : من أنت ؟ أظنّك و الله يهوديّاً ؟ فأتى عبادة بن الصامت فتعلّق به فأتى به معاوية فقال : هذا و الله الّذي بعث عليك أباذرّ .

و قام أبوذرّ بالشام وجعل يقول : يا معشر الأغنياء و اسوا الفقراء بشّر الّذين يكنزون الذهب والفضّة ولا ينفقونها في سبيل الله بمكان من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم . الحديث .

ومحصّله أنّ أباذرّ إنّما بادر إلى ما بادر و ألحّ عليه بتسويل من ابن السوداء و هذان الّذان روى عنهما الحديث وعنهما يروي جلّ قصص عثمان أعني شعيباً وسيفاً هما من الكذّابين الوضّاعين المشهورين ذكرهما علماء الرجال وقد حوافيهما .

و الّذي اختلقاه من حديث ابن السوداء و هو الّذي سمّوه عبد الله بن سبا ،وإليهما ينتهي حديثه،من الأحاديث الموضوعة ، وقد قطع المحقّقون من أصحاب البحث أخيراً أنّ ابن السوداء هذا من الموضوعات الخرافيّة الّتي لاأصل لها .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلّى الله عليه و سلّم : ما من ذي كنز لايؤدّي حقّه إلّا جيء به يوم القيامة تكوى به جبينه و جبهته ، و قيل له : هذا كنزك الّذي بخلت به .

وفيه أخرج الطبرانيّ في الأوسط وأبوبكر الشافعيّ في الغيلانيّات عن عليّ قال:

قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : إنّ الله فرض على أغنياء المسلمين في أموالهم القدر الّذي يسع فقراءهم ، و لن يجهد الفقراء إذا جاعوا أوعروا إلّا بما يمنع أغنياؤهم . ألا وإنّ الله يحاسبهم حساباً شديداً أويعذّبهم عذاباً أليماً .

وفيه أخرج الحاكم وصحّحه وضعّفه الذهبيّ عن أبي سعيد الخدريّ عن بلال قال قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : يا بلال ألق الله فقيراً ولا تلقه غنيّاً . قلت : و كيف لي بذلك ؟ قال : إذا رزقت فلا تخبأ ، و إذا سئلت فلا تمنع ، قلت : و كيف لي بذلك ؟ قال : هو ذاك و إلّا فالنار .

﴿ كلام فى معنى الكنز ﴾

لاريب أنّ المجتمع الّذي أوجده الإنسان بحسب طبعه الأوّلي إنّما يقوم بمبادلة المال و العمل ، ولولا ذلك لم يعش المجتمع الإنسانيّ ولا طرفة عين فإنّما يتزوّد الإنسان من مجتمعه بأن يحرز اُموراً من أوّليّات المادّة الأرضيّة ويعمل عليها ما يسعه من العمل ثمّ يقتني من ذلك لنفسه مايحتاج إليه ، ويعوّض ما يزيد على حاجته من سائر مايحتاج إليه ممّا عند غيره من أفراد المجتمع كالخبّاز يأخذ لنفسه من الخبز مايقتات به و يعوّض الزائد عليه من الثوب الّذي نسجه النسّاج و هكذا فإنّما أعمال المجتمعين في ظرف اجتماعهم بيع وشرى و مبادلة و معاوضة .

و الّذي يتحصّل من الأبحاث الاقتصاديّة أنّ الإنسان الأوّليّ كان يعوّض في معاملاته العين بالعين من غير أن يكونوا متنبّهين لأزيد من ذلك غير أنّ النسب بين الأعيان كانت تختلف عندهم باشتداد الحاجة و عدمه ، و بوفور الأعيان المحتاج إليها و إعوازها فكلّما كانت العين أمسّ بحاجة الإنسان أوقلّ وجودها توفّرت الرغبات إلى تحصيلها ، وارتفعت نسبتها إلى غيرها ، و كلّما بعدت عن مسيس الحاجة أو ابتذلت بالكثرة و الوفور انصرفت النفوس عنها و انخفضت نسبتها إلى غيرها ، وهذا هو أصل القيمة .

ثمّ إنّهم عمدوا إلى بعض الأعيان العزيزة الوجود عندهم فجعلوها أصلا في القيمة

تقاس إليه سائر الأعيان الماليّة بمالها من مختلف النسب كالحنطة والبيضة و الملح فصارت مداراً تدور عليها المبادلات السوقيّة ، وهذه السليقة دائرة بينهم في بعض المجتمعات الصغيرة في القرى وبين القبائل البدويّة حتّى اليوم .

ولم يزالوا على ذلك حتّى ظفروا ببعض الفلزّات كالذهب و الفضّة و النحاس و نحوها فجعلوها أصلاً إليه يعود نسب سائر الأعيان من جهة قيمها ، ومقياساً واحداً يقاس إليها غيرها فهي النقود القائمة بنفسها وغيرها يقوم بها .

ثمّ آل الأمر إلى أن يحوز الذهب المقام الأوّل والفضّة يتلوه ، ويتلوها غيرهما ، وسكّت الجميع بالسكك الملوكيّة أو الدوليّة فصارت ديناراً ودرهماً وفلساً وغير ذلك بما يطول شرحه على خروجه من غرض البحث .

فلم يلبث النقدان حتّى عادا أصلاً في القيمة بهما يقوّم كلّ شيء ، وإليهما يقاس ما عند الإنسان من مال أو عمل ، وفيهما يرتكز ارتفاع كلّ حاجة حيويّة ، وهما ملاك الثروة والوجد كالمتعلّق بهما روح المجتمع في حياته يختلّ أمره باختلال أمرهما ، إذا جريا في سوق المعاملات جرت المعاملات بجريانهما . وإذا وقفا وقفت .

وقد أوضحت ما عليهما من الوظيفة المحوّلة إليهما في المجتمعات الإنسانيّة من حفظ قيم الأمتعة والأعمال ، وتشخيص نسب بعضها إلى بعض ، الأوراق الرسميّة الدائرة اليوم فيما بين الناس كالبوند والدولار وغيرهما والصكوك البنكيّة المنتشرة فإنّها تمثّل قيم الأشياء من غير أن تتضمّن عينيّة لها قيمة في نفسها فهي قيم خالصة مجرّدة تقريباً .

فالتأمّل في مكانة الذهب و الفضّة الاجتماعيّة بما هما نقدان حافظان للقيم و مقياسان يقاس إليهما الأمتعة والأموال بما لها من النسب الدائرة بينها تنوّر أنّهما ممثّلان لنسب الأشياء بعضها إلى بعض ، وإن كانت بحسب الاعتبار ممثّلات للنسب ـ وإن شئت فقل : نفس النسب ـ تبطل النسب ببطلان اعتبارها ، وتحبس بحبسها ومنع جريانها ، و تقف بوقوفها .

وقد شاهدنا في الحربين العالميّين الأخيرين ماذا أوجده بطلان اعتبار نقود بعض الدول كالمنات في الدولة التزاريّة والمارك في الجرمن من البلوى و سقوط الثروة و اختلال

أمر الناس في حياتهم ، والحال في كنزهما ومنع جريانهما بين الناس هذا الحال .

و إلى ذلك يشير قول أبي جعفر عليه‌السلام في رواية الأمالي المتقدّمة : « جعلها الله مصلحة لخلقه وبها يستقيم شؤونهم ومطالبهم » .

ومن هنا يظهر أنّ كنزهما إبطال لقيم الأشياء و إماتة لما في وسع المكنوز منهما من إحياء المعاملات الدائرة وقيام السوق في المجتمع على ساقه،وببطلان المعاملات وتعطّل الأسواق تبطل حياة المجتمع ، وبنسبة مالها من الركود والوقوف تقف و تضعف .

لست اُريد خزنهما في مخازن تختصّ بهما فإنّ حفظ نفائس الأموال و كرائم الأمتعة من الضيعة من الواجبات الّتي تهدي إليه الغريزة الإنسانيّة و يستحسنه العقل السليم فكلّما جرت وجوه النقد في سبيل المعاملات كيفما كان فهو وإذا رجعت فمن الواجب أن تختزن وتحفظ من الضيعة ومايهدّدها من أيادي الغصب والسرقة والغيلة و الخيانة .

وإنّما أعني به كنزهما و جعلهما في معزل عن الجريان في المعاملات السوقيّة و الدوران لإصلاح أيّ شأن من شؤون الحياة ورفع الحوائج العاكفة على المجتمع كإشباع جائع وإرواء عطشان و كسوة عريان وربح كاسب وانتفاع عامل ونماء مال و علاج مريض وفكّ أسير وإنجاء غريم والكشف عن مكروب والتفريج عن مهموم وإجابة مضطرّ والدفع عن بيضة المجتمع الصالح وإصلاح مافسد من الجوّ الإجتماعيّ .

وهي موارد لا تحصى واجبة أو مندوبة أو مباحة لايتعدّى فيها حدّ الاعتدال إلى جانبي الإفراط و التفريط و البخل و التبذير ، و المندوب من الإنفاق و إن لم يكن في تركه مأثم ولا إجرام شرعاً ولا عقلاً غير أنّ التسبّب إلى إبطال المندوبات من رأس و الاحتيال لرفع موضوعها من أشدّ الجرم و المعصية .

اعتبر ذلك فيما بين يديك من الحياة اليوميّة بما يتعلّق به من شؤون المسكن و المنكح والمأكل والمشرب والملبس تجد أنّ ترك النفل المستحبّ من شؤون الحياة والمعاش والاقتصار دقيقاً على الضروريّ منها ـ الّذي هو بمنزلة الواجب الشرعيّ ـ يوجب اختلال أمر الحياة اختلالاً لايجبره جابر ولا يسدّ طريق الفساد فيه سادّ .

وبهذا البيان يظهر أنّ قوله تعالى : «والّذين يكنزون الذهب والفضّة ولاينفقونها

في سبيل الله فبشّرهم بعذاب أليم » ليس من البعيد أن يكون مطلقاً يشمل الإنفاق المندوب بالعناية الّتي مرّت فإنّ في كنز الأموال رفعاً لموضوع الإنفاق المندوب كالإنفاق الواجب لا مجرّد عدم الإنفاق مع صلاحية الموضوع لذلك .

وبذلك يتبيّن أيضاً معنى ما خاطب به أبوذرّ عثمان بن عفّان لمّا دخل عليه على ما تقدّم في رواية الطبريّ حيث قال له : « لا ترضوا من الناس بكفّ الأذى حتّى يبذلوا المعروف ، وقد ينبغي لمؤدّي الزكاة أن لا يقتصر عليها حتّى يحسن إلى الجيران والإخوان ويصل القرابات » .

فإنّ لفظه كالصريح أو هو صريح في أنّه لا يرى كلّ إنفاق فيما يفضل من المؤنة بعد الزكاة واجباً ، وأنّه يقسّم الإنفاق في سبيل الله إلى ما يجب وما ينبغي غير أنّه يعترض بانقطاع سبيل الإنفاق من غير جهة الزكاة وانسداد باب الخيرات بالكلّيّة وفي ذلك إبطال غرض التشريع وإفساد المصلحة العامّة المشرّعة .

يقول : ليست هي حكومة استبداديّة قيصرانيّة أو كسروانيّة لا وظيفة لها إلّا بسط الأمن و كفّ الأذى بالمنع عن إيذاء بعض الناس بعضاً ثمّ الناس أحرار فيما فعلوا غير ممنوعين عن ما اشتهوا من عمل أفرطوا أو فرّطوا أصلحوا أو أفسدوا اهتدوا أو ضلّوا وتاهوا ، والمتقلّد لحكومتهم حرّ فيما عمل ولا يسأل عمّا يفعل .

وإنّما هي حكومة اجتماعيّة دينيّة لا ترضى عن الناس بمجرّد كفّ الأذى بل تسوق الناس في جميع شؤون معيشتهم إلى ما يصلح لهم ويهيّئ لكلّ من طبقات المجتمع من أميرهم ومأمورهم ورئيسهم و مرؤوسهم و مخدومهم وخادمهم وغنيّهم وفقيرهم و قويّهم و ضعيفهم ما يسع له من سعادة حياتهم فترفع حاجة الغنيّ بإمداد الفقير و حاجة الفقير بمال الغنيّ وتحفظ مكانة القويّ باحترام الضعيف وحياة الضعيف برأفة القويّ ومراقبته ، ومصدريّة العالي بطاعة الداني و طاعة الداني بنصفة العالي وعدله ، ولا يتمّ هذا كلّه إلّا بنشر المبرّات وفتح باب الخيرات ، والعمل بالواجبات على ما يليق بها و المندوبات على ما يليق بها وأمّا القصر على القدر الواجب ، وترك الإنفاق المندوب من رأس فإنّ فيه هدماً لأساس الحياة الدينيّة ، وإبطالاً لغرض الشارع ، و سيراً حثيثاً إلى نظام مختلّ و هرج و مرج

وفساد عريق لا يصلحه شيء كلّ ذلك عن المسامحة في إحياء غرض الدين ، والمداهنة مع الظالمين إلّا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير .

وكذلك قول أبي ذرّ لمعاوية فيما تقدّم من رواية الطبريّ : « ما يدعوك إلى أن تسمّي مال المسلمين مال الله ؟ قال : يرحمك الله يا أباذرّ ألسنا عباد الله والمال ماله والخلق خلقه والأمر أمره قال : فلا تقله » .

فإنّ الكلمة الّتي كان يقولها معاوية وعمّاله ومن بعده من خلفاء بني اُميّة وإن كانت كلمة حقّ وقد رويت عن النبيّ صلّى الله عليه وآله ويدلّ عليها كتاب الله لكنّهم كانوا يستنتجون منه خلاف ما يريده الله سبحانه فإنّ المراد به أنّ المال لا يختصّ به أحد بعزّة أو قوّة أو سيطرة وإنّما هو لله ينفق في سبيله على حسب ما عيّنه من موارد إنفاقه فإن كان ممّا اقتناه الفرد بكسب أو إرث أو نحوهما فله حكمه ، وإن كان ممّا حصّلته الحكومة الإسلاميّة من غنيمة أو جزية أو خراج أو صدقات أو نحو ذلك فله أيضاً موارد إنفاق معيّنة في الدين ، وليس في شيء من ذلك لوالي الأمر أن يخصّ نفسه أو واحداً من أهل بيته بشيء يزيد على لازم مؤنته فضلاً أن يكنز الكنوز ويرفع به القصور ويتّخذ الحجاب ويعيش عيشة قيصر وكسرى .

وأمّا هؤلاء فإنّما كانوا يقولونه دفعاً لاعتراض الناس عليهم في صرف مال المسلمين في سبيل شهواتهم وبذله فيما لا يرضى الله ، ومنعه أهليه ومستحقّيه أنّ المال للمسلمين تصرفونه في غير سبيلهم ! ! فيقولون : إنّ المال مال الله ونحن اُمناؤه نعمل فيه بما نراه فيستبيحون بذلك اللّعب بمال الله كيف شاؤوا ويستنتجون به صحّة عملهم فيه بما أرادوا وهو لا ينتج إلّا خلافه ، ومال الله ومال المسلمين بمعنى واحد ، وقد أخذوهما لمعنيين اثنين يدفع أحدهما الآخر .

ولو كان مراد معاوية بقوله : « المال مال الله » هو الصحيح من معناه لم يكن معنى لخروج أبي ذرّ من عنده وندائه في الملإ من الناس : بشّر الكانزين بكيّ في الجباه وكيّ في الجنوب وكيّ في الظهور .

على أنّ معاوية قد قال لأبي ذرّ إنّه يرى أنّ آية الكنز خاصّة بأهل الكتاب و

ربّما كان من أسباب سوء ظنّه بهم إصرارهم عند كتابة مصحف عثمان أن يحذفوا الواو من قوله : « والّذين يكنزون الذهب » الخ حتّى هدّدهم اُبيّ بالقتال إن لم يلحقوا الواو فألحقوها وقد مرّت الرواية.

فالقصّة في حديث الطبريّ عن سيف عن شعيب وإن سيقت بحيث تقضي على أبي ذرّ بأنّه كان مخطئاً في ما اجتهد به كما اعترف به الطبريّ في أوّل كلامه غير أنّ أطراف القصّة تقضي بإصابته .

وبالجملة فالآية تدلّ على حرمة كنز الذهب و الفضّة فيما كان هناك سبيل لله يجب إنفاقه فيه و ضرورة داعية إليه لمستحقّي الزكاة مع الامتناع من تأديتها ، والدفاع الواجب مع عدم النفقة وانقطاع سبيل البرّ والإحسان بين الناس .

ولا فرق في تعلّق وجوب الإنفاق بين المال الظاهر الجاري في الأسواق وبين الكنز المدفون في الأرض غير أنّ الكنز يختصّ بشيء زائد وهو خيانة وليّ الأمر في ستر المال وغروره كما تقدّم ذكره في البيان المتقدّم .



***

إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْراً فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (٣٦) إِنَّمَا النَّسِيءُ زِيَادَةٌ فِي الْكُفْرِ يُضَلُّ بِهِ الَّذِينَ كَفَرُوا يُحِلُّونَهُ عَاماً وَيُحَرِّمُونَهُ عَاماً لِيُوَاطِئُوا عِدَّةَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ فَيُحِلُّوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ زُيِّنَ لَهُمْ سُوءُ أَعْمَالِهِمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ (٣٧) .

﴿ بيان ﴾

في الآيتين بيان حرمة الأشهر الحرم ذي القعدة وذي الحجّة والمحرّم ورجب الفرد وتثبيت حرمتها وإلقاء نسيء الجاهليّة ، وفيها الأمر بقتال المشركين كافّة .

قوله تعالى : « إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً في كتاب الله يوم خلق السماوات و الأرض » الشهر كالسنة و الاُسبوع ممّا يعرفه عامّة الناس منذ أقدم أعصار الإنسانيّة ، وكأنّ لبعضها تأثيراً في تنبّههم للبعض فقد كان الإنسان يشاهد تحوّل السنين و مرورها بمضيّ الصيف والشتاء والربيع والخريف وتكرّرها بالعود ثمّ العود ثمّ تنبّهوا لانقسامها إلى أقسام هي أقصر منها مدّة حسب ما ساقهم إليه مشاهدة اختلاف أشكال القمر من الهلال إلى الهلال ، و ينطبق على ما يقرب من ثلاثين يوماً و تنقسم بذلك السنة إلى اثني عشر شهراً .

والسنة الّتي ينالها الحسّ شمسيّة تتألّف من ثلاثمائة وخمسة وستّين يوماً وبعض يوم لا ينطبق على اثني عشر شهراً قمريّاً هي ثلاثمائة وأربعة وخمسون يوماً تقريباً إلّا

برعاية حساب الكبيسة غير أنّ ذلك هو الّذي يناله الحسّ و ينتفع به عامّة الناس من الحاضر والبادي والصغير والكبير والعالم والجاهل .

ثمّ قسّموا الشهر إلى الأسابيع و إن كان هو أيضاً لا ينطبق عليها تمام الانطباق لكن الحسّ غلب هناك أيضاً الحساب الدقيق ، و هو الّذي أثبت اعتبار الاُسبوع و أبقاه على حاله من غير تغيير مع ما طرء على حساب السنة من الدقّة من جهة الأرصاد ، و على حساب الشهور من التغيير فبدّلت الشهور القمريّة شمسيّة تنطبق عليها السنة الشمسيّة تمام الانطباق .

وهذا بالنسبة إلى النقاط الاستوائيّة وما يليها من النقاط المعتدلة أو ما يتّصل بها من الأرض إلى عرض سبع وستّين الشماليّ والجنوبيّ تقريباً ، وفيها معظم المعمورة ، وأمّا ما وراء ذلك إلى القطبين الشماليّ والجنوبيّ فيختلّ فيها حساب السنة والشهر والاُسبوع ، والسنة في القطبين يوم وليلة ، وقد اضطرّ ارتباط بعض أجزاء المجتمع الإنسانيّ ببعض سكّان هذه النقاط ـ وهم شرذمة قليلون ـ أن يراعوا في حساب السنة والشهر والاُسبوع واليوم ما يعتبره عامّة سكّان المعمورة فحساب الزمان الدائر بيننا إنّما هو بالنسبة إلى جلّ سكّان المعمورة من الأرض .

على أنّ هذا إنّما هو بالنسبة إلى أرضنا الّتي نحن عليها ، وأمّا سائر الكواكب فالسنة ـ وهي زمان الحركة الانتقاليّة من الكوكب حول الشمس دورة واحدة كاملة ـ فيها تختلف وتتخلّف عن سنتنا نحن ، و كذلك الشهر القمريّ فيما كان له قمر أو أقمار منها على ما فصّلوه في فنّ الهيئة .

فقوله تعالى : « إنّ عدّة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً » الخ ناظر إلى الشهور القمريّة الّتي تتألّف منها السنون وهي الّتى لها أصل ثابت في الحسّ و هو التشكّلات القمريّة بالنسبة إلى أهل الأرض .

والدليل على كون المراد بها الشهور القمريّة ـ أوّلاً ـ قوله بعد : « منها أربعة حرم » لقيام الضرورة على أنّ الإسلام لم يحرّم إلّا أربعة من الشهور القمريّة الّتي هي ذو القعدة و ذوالحجّة و المحرّم ورجب ، والأربعة من القمريّة دون الشمسيّة .

و ثانياً : قوله : « عند الله » وقوله : « في كتاب الله يوم خلق السماوات و الأرض» فإنّ هذه القيود تدلّ على أنّ هذه العدّة لا سبيل للتغيّر و الاختلاف إليها لكونها عند الله كذلك ولا يتغيّر علمه ، و كونها في كتاب الله كذلك يوم خلق السماوات و الأرض فجعل الشمس تجري لمستقرّ لها ، والقمر قدّره منازل حتّى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا اللّيل سابق النهار و كلّ في فلك يسبحون فهو الحكم المكتوب في كتاب التكوين ، ولا معقّب لحكمه تعالى .

ومن المعلوم أنّ الشهور الشمسيّة و ضعيّة اصطلاحيّة و إن كانت الفصول الأربعة والسنة الشمسيّة على غير هذا النعت فالشهور الاثنا عشر الّتي هي ثابتة ذات أصل ثابت هي الشهور القمريّة .

فمعنى الآية أنّ عدّة الشهور اثناعشر شهراً تتألّف منها السنون ، وهذه العدّة هي الّتي في علم الله سبحانه ، وهي الّتي أثبتها في كتاب التكوين يوم خلق السماوات والأرض وأجرى الحركات العامّة الّتي منها حركة الشمس وحركة القمر حول الأرض وهي الأصل الثابت في الكون لهذه العدّة .

و من هنا يظهر فساد ما ذكره بعض المفسّرين أنّ المراد بكتاب الله في الآية القرآن أو كتاب مكتوب فيه عدّة الشهور على حدّ الكتب و الدفاتر الّتي عندنا المؤلّفة من قراطيس و أوراق يضبط فيها الألفاظ بخطوط خاصّة وضعيّة .

قوله تعالى : « منها أربعة حرم ذلك الدين القيّم فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم » الحرم جمع حرام وهو الممنوع منه ، و القيّم هو القائم بمصلحة الناس المهيمن على إدارة اُمور حياتهم وحفظ شؤونها .

وقوله : « منها أربعة حرم » هي الأشهر الأربعة : ذو القعدة وذوالحجّة و المحرّم ورجب بالنقل القطعيّ ، والكلمة كلمة تشريع بدليل قوله : « ذلك الدين القيّم » الخ .

وإنّما جعل الله هذه الأشهر الأربعة حرماً ليكفّ الناس فيها عن القتال ، وينبسط عليهم بساط الأمن ، و يأخذوا فيها الأهبة للسعادة ، و يرجعوا إلى ربّهم بالطاعات و القربات .

وكانت حرمتها من شريعة إبراهيم ، وكانت العرب تحترمها حتّى في الجاهليّة حينما كانوا يعبدون الأوثان غير أنّهم ربّما كانوا يحوّلون الحرمة من شهر إلى شهر سنة أو أزيد منها بالنسيء الّذي تتعرّض له الآية التالية .

و قوله : « ذلك الدين القيّم » ، الإشارة إلى حرمة الأربعة المذكورة ، والدين كما تطلق على مجموع ما أنزله الله على أنبيائه تطلق على بعضها فالمعنى أنّ تحريم الأربعة من الشهور القمريّة هو الدين الّذي يقوم بمصالح العباد . كما يشير إليه في قوله : «جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام » الآية المائدة : ٩٧ وقد تقدّم الكلام فيه في الجزء السادس من الكتاب .

و قوله : « فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم » الضمير إلى الأربعة إذ لو كان راجعاً إلى « اثنا عشر » المذكور سابقاً لكان الظاهر أن يقال « فيها » كما نقل عن الفرّاء ، و أيضاً لو كان راجعاً إلى « اثنا عشر » وهي تمام السنة لكان قوله : « فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم » كما قيل في معنى قولنا : فلا تظلموا أبداً أنفسكم ، وكان الكلام متفرّعاً على كون عدّة الشهور عند الله اثني عشر شهراً ، ولا تفرّع له عليه ظاهراً فالمعنى لمّا كانت هذه الأربعة حرماً تفرّع على حرمتها عند الله أن تكفّوا فيها عن ظلم أنفسكم رعاية لحرمتها و عظم منزلتها عند الله سبحانه .

فالنهي عن الظلم فيها يدلّ على عظم الحرمة وتأكّدها لتفرّعها على حرمتها أوّلاً ولأنّها نهي خاصّ بعد النهي العامّ كما يفيده قولنا : لا تظلم أبداً ولا تظلم في زمان كذا .

والجملة أعني قوله : « فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم » وإن كانت بحسب إطلاق لفظها نهياً عن كلّ ظلم و معصية لكنّ السياق يدلّ على كون المقصود الأهمّ منها النهي عن القتال في الأشهر الحرم .

قوله تعالى : « وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة و اعلموا أنّ الله مع المتّقين » قال الراغب في المفردات : الكفّ كفّ الإنسان وهي ما بها يقبض و يبسط ، و كففته أصبت كفّه ، و كففته أصبته بالكفّ ودفعته بها ، و تعورف الكفّ بالدفع على أيّ وجه كان ، بالكفّ كان أوغيرها حتّى قيل : رجل مكفوف لمن قبض بصره .

وقوله : وما أرسلناك إلّا كافّة للناس أي كافّاً لهم عن المعاصي ، والهاء فيه للمبالغة كقولهم : راوية و علّامة ونسّابة ، وقوله : « وقاتلوا المشركين كافّة كما يقاتلونكم كافّة» قيل : معناه كافّين لهم كما يقاتلونكم كافّين ، و قيل : معناه جماعة كما يقاتلونكم جماعة ، وذلك أنّ الجماعة يقال لهم : الكافّة كما يقال لهم : الوازعة لقوّتهم باجتماعهم ، و على هذا قوله : « يا أيّها الّذين آمنوا ادخلوا في السلم كافّة » . انتهى .

وقال في المجمع : كافّة بمعنى الإحاطة مأخوذ من كافّة الشيء وهي حرفه وإذا انتهى الشيء إلى ذلك كفّ عن الزيادة ، وأصل الكفّ المنع . انتهى .

وقوله : «كافّة» في الموضعين حال عن الضمير الراجع إلى المسلمين أو المشركين أو في الأوّل عن الأوّل وفي الثاني عن الثاني أو بالعكس فهناك وجوه أربعة ، والمتبادر إلى الذهن هو الوجه الرابع للقرب اللّفظيّ الّذي بين الحال وذي الحال حينئذ ، ومعنى الآية على هذا : وقاتلوا المشركين جميعهم كما يقاتلونكم جميعكم .

فالآية توجب قتال جميع المشركين فتصير نظيرة قوله تعالى : « فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم » الآية ينسخ هذه ما ينسخ تلك و تتخصّص أو تتقيّد بما تخصّص أو تقيّد به هي .

و الآية مع ذلك إنّما تتعرّض لحال القتال مع المشركين و هم عبدة الأوثان غير أهل الكتاب فإنّ القرآن وإن كان ربّما نسب الشرك تصريحاً أو تلويحاً إلى أهل الكتاب لكنّه لم يطلق المشركين على طريق التوصيف إلّا على عبدة الأوثان ، وأمّا الكفر فعلاً أو وصفاً فقد نسب إلى أهل الكتاب واُطلق عليهم كما نسب واُطلق إلى عبدة الأوثان .

فالآية أعني قوله : « وقاتلوا المشركين كافّة» الآية لا هي ناسخة لآية أخذ الجزية من أهل الكتاب ، ولا هي مخصّصة أو مقيّدة بها . و قد قيل في الآية بعض و جوه اُخر تركناه لعدم جدوى في التعرّض له .

و قوله : « واعلموا أنّ الله مع المتّقين » تعليم و تذكير و فيه حثّ على الاتّصاف بصفة التقوى يترتّب عليه من الفائدة : أوّلاً : الوعد الجميل بالنصر الإلهيّ والغلبة والظفر فإنّ حزب الله هم الغالبون .

وثانياً : منعهم أن يتعدّوا حدود الله في الحروب و المغازي بقتل النساء و الصبيان و من ألقى إليهم السلام كما قتل خالد في غزوة حنين مرأة فأرسل إليه النبيّ ﷺ ينهاه عن ذلك وقتل رجالاً من بني جذيمة وقد أسلموا فوداهم النبيّ ﷺ وتبرّأ إلى الله من فعله ثلاثاً (١) ، وقتل اُسامة يهوديّاً أظهر له الإسلام فنزل قوله تعالى : « ولا تقولوا لمن ألقى إليكم السلام لست مؤمناً تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة » النساء : ٩٤ وقد تقدّم .

قوله تعالى : « إنّما النسيء زيادة في الكفر » إلى آخر الآية يقال : نسأ الشيء ينسؤه نسأً ومنسأة و نسيئاً إذا أخّره تأخيراً ، وقد يطلق النسيء على الشهر الّذي اُخّر تحريمه على ماكانت العرب تفعله في الجاهليّة فإنّهم ربّما كانوا يؤخّرون حرمة بعض الأشهر الحرم إلى غيره وأمّا أنّه كيف كان ذلك فقد اختلف فيه كلام المفسّرين كأهل التاريخ .

و الّذي يظهر من خلال الكلام المسرود في الآية أنّه كانت لهم فيما بينهم سنّة جاهليّة في أمر الأشهر الحرم وهي المسمّاة بالنسيء ، وهو يدلّ بلفظه على تأخير الحرمة من شهر حرام إلى بعض الشهور غير المحرّمة الّذي بعده ، و أنّهم إنّما كانوا يؤخّرون الحرمة ولا يبطلونها برفعها من أصلها لإرادتهم بذلك أن يتحفّظوا على سنّة قوميّة ورثوها عن أسلافهم عن إبراهيم عليه السلام .

فكانوا لايتركون أصل التحريم لغيّ وإنّما يؤخّرونه إلى غير الشهر سنة أو أزيد ليواطؤوا عدّة ماحرّم الله ، وهي الأربعة ثمّ يعودون ويعيدون الحرمة إلى مكانها الأوّل .

وهذا نوع تصرّف في الحكم الإلهيّ بعد كفرهم بالله باتّخاذ الأوثان شركاء له تعالى وتقدّس ، ولذا عدّه الله سبحانه في كلامه زيادة في الكفر .

و قد ذكر الله سبحانه من الحكم الخاصّ بحرمة الأشهر الحرم النهي عن ظلم الأنفس حيث قال : «فلا تظلموا فيهنّ أنفسكم» وأظهر مصاديقه القتال كما أنّه المصداق

---

(١) القصتان الاوليان مذكورتان فى كتب السير و المغازى و الثالثة تقدمت فى تفسير الاية سابقا

الوحيد الّذي استفتوا فيه النبي ﷺ فحكاه الله سبحانه بقوله : « يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه » الآية البقرة : ٢١٧ و كذا مافي معناه من قوله : « لاتحلّوا شعائر الله ولا الشهر الحرام » المائدة : ٣ ، وقوله : « جعل الله الكعبة البيت الحرام قياماً للناس والشهر الحرام و الهدي والقلائد » المائدة : ٩٧ .

و لذلك الأثر الظاهر من حرمة البيت أو الحرم هو جعل الأمن فيه كما قال : « و من دخله كان آمناً » آل عمران : ٩٧ و قال : « أولم نمكّن لهم حرماً آمناً » القصص:٥٧.

فالظاهر أنّ النسيء الّذي تذكره الآية عنهم إنّما هوتأخير حرمة الشهرالحرام للتوسّل بذلك إلى قتال فيه لا لتأخير الحجّ الّذي هو عبادة دينيّة مختصّة ببعضها .

وهذا كلّه يؤيّد ما ذكروه : أنّ العرب كانت تحرّم هذه الأشهر الحرم ، و كان ذلك ممّا تمسّكت به من ملّة إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ، وهم كانوا أصحاب غارات وحروب فربّما كان يشقّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر متوالية لا يغزون فيها فكانوا يؤخّرون تحريم المحرّم إلى صفر فيحرّمونه و يستحلّون المحرّم فيمكثون بذلك زماناً ثمّ يعود التحريم إلى المحرّم ، ولا يفعلون ذلك أي إنساء حرمة المحرّم إلى صفر إلّا في ذي الحجّة .

وأمّا ما ذكره بعضهم أنّ النسيء هو ما كانوا يؤخّرون الحجّ من شهر إلى شهر فممّا لا ينطبق على لفظ الآية البتّة ، و سيجيء تفصيل الكلام فيه في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله . ولنرجع إلى ما كنّا فيه .

فقوله تعالى : إنّما النسيء زيادة في الكفر » أي تأخير الحرمة الّتي شرعها الله لهذه الأشهرالحرم من شهر منها إلىشهر غيرحرام زيادة في الكفر لأنّه تصرّف في حكم الله المشروع و كفر بآياته بعد الكفر بالله من جهة الشرك فهو زيادة في الكفر .

وقوله : « يضلّ به الّذين كفروا » أي ضلّوا فيه بإضلال غيرهم إيّاهم بذلك ، وفي الكلام إشعار أو دلالة على أنّ هناك من يحكم بالنسيء ، وقد ذكروا أنّ المتصدّي لذلك كان بعض بني كنانة ، وسيجيء تفصيله في البحث الروائيّ إن شاء الله .

وقوله : « يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً ليواطؤوا عدّة ماحرّم الله فيحلّوا ماحرّم الله »

في موضع التفسير للإنساء ، والضمير للشهر الحرام المعلوم من سياق الكلام أي و هو أنّهم يحلّون الشهر الحرام الّذي نسؤوه بتأخير حرمته عاماً ويحرّمونه عاماً ، أي يحلّونه عاماً بتأخير حرمته إلى غيره ، ويحرّمونه عاماً بإعادة حرمته إليه .

وإنّما يعملون على هذه الشاكلة بالتأخير سنة والإثبات اُخرى ليواطؤوا ويوافقوا عدّة ما حرّم الله فيحلّوا ما حرّم الله في حال حفظهم أصل العدد أي إنّهم يريدون التحفّظ على حرمة الأشهر الأربعة بعددها مع التغيير في محلّ الحرمة ليتمكّنوا ممّا يريدونه من الحروب والغارات مع الاستنان بالحرمة .

وقوله : « زيّن لهم سوء أعمالهم والله لا يهدي القوم الكافرين » المزيّن هو الشيطان كما وقع في آيات من الكتاب ، وربّما نسب إلى الله سبحانه كما في آيات اُخر ، ولا ينسب الشرّ إليه سبحانه إلّا ما قصد به الجزاء على الشرّ كما قال تعالى : « يضلّ به كثيراً ويهدي به كثيراً وما يضلّ به إلّا الفاسقين » البقرة : ٢٦

وذلك بأن يفسق العبد فيمنعه الله الهداية فيكون ذلك إذناً لداعي الضلال و هو الشيطان أن يزيّن له سوء عمله فيغويه ويضلّه ، ولذلك قال تعالى : « زيّن لهم سوء أعمالهم » ثمّ عقّبه بقوله : « إنّ الله لا يهدي القوم الظالمين » كأنّه لمّا قيل : زيّن لهم سوء أعمالهم قيل : كيف أذن الله فيه و لم يمنع ذلك قيل : إنّ هؤلاء كافرون والله لا يهدي القوم الكافرين .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العيّاشيّ عن أبي خالد الواسطيّ في حديث ثمّ قال ـ يعني أبا جعفر عليه السلام ـ حدّثني أبي عن عليّ بن الحسين عن أمير المؤمنين عليه السلام أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لمّا ثقل في مرضه قال : أيّها الناس إنّ السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثمّ قال بيده : رجب مفرد و ذو القعدة وذو الحجّة والمحرّم ثلاث متواليات .

أقول : وقد ورد في عدّة روايات تأويل الشهور الاثني عشر بالأئمّة الاثني عشر ، وتأويل الأربعة الحرم بعليّ أميرالمؤمنين وعليّ بن الحسين وعليّ بن موسى وعليّ بن محمّد عليهم السلام ، وتأويل السنة برسول الله صلى الله عليه وآله ، وانطباقها على الآية بما لها من السياق لا يخلو عن خفاء .

وفي الدرّ المنثور أخرج أحمد والبخاريّ ومسلم وأبوداود وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في شعب الإيمان عن أبي بكرة : أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله خطب في حجّته فقال : ألا إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض السنة اثنا عشر شهراً منها أربعة حرم ثلاثة متواليات ذوالقعدة وذوالحجّة والمحرّم ، ورجب مضر الّذي بين جمادى وشعبان .

أقول : وهي من خطب النبيّ صلى الله عليه وآله المشهورة ، وقد رويت بطرق اُخرى عن أبي هريرة وابن عمر وابن عبّاس وعن أبي حمزة الرقاشيّ عن عمّه وكانت له صحبة وغيرهم .

والمراد باستدارة الزمان كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض استقرار الأحكام الدينيّة على ما تقتضيه الفطرة والخلقة وتمكّن الدين القيّم من الرقابة في أعمال الناس ، ومن ذلك حرمة الأشهر الأربعة الحرم وإلغاء النسيء الّذي هو زيادة في الكفر .

وفيه أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن ابن عمر قال : وقف رسول الله صلى الله عليه وآله بالعقبة فقال : إنّ النسيء من الشيطان زيادة في الكفر يضلّ به الّذين كفروا يحلّونه عاماً ويحرّمونه عاماً فكانوا يحرّمون المحرّم عاماً ، ويحرّمون صفر عاماً ويستحلّون المحرّم وهو النسيء .

وفيه أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس قال : كان جنادة بن عوف الكنانيّ يوفي الموسم كلّ عام وكان يكنّى أبا ثمادة فينادي : ألا إنّ أبا ثمادة لا يخاف ولا يعاب ألا إنّ صفر الأوّل حلال .

وكان طوائف من العرب إذا أرادوا أن يغيروا على بعض عدوّهم أتوه فقالوا أحلّ لنا هذا الشهر يعنون صفر ، وكانت العرب لا تقاتل في الأشهر الحرم فيحلّه لهم عاماً ، ويحرّمه عليهم في العام الآخر ، ويحرّم المحرّم في قابل ليواطؤوا عدّة ما حرّم الله يقول :

ليجعلوا الحرم أربعة غير أنّهم جعلوا صفر عاماً حلالاً وعاماً حراماً .

وفيه أخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله : « إنّما النسيء زيادة في الكفر » الآية قال : عمد اُناس من أهل الضلالة فزادوا صفر في الأشهر الحرم ، وكان يقوم قائمهم في الموسم فيقول : إنّ آلهتكم قد حرّمت صفر فيحرّمونه ذلك العام ، وكان يقال لهما الصفران .

وكان أوّل من نسأ النسيء بنومالك من كنانة ، وكانوا ثلاثة أبو ثمامة صفوان بن اُميّة ، أحد بني فقيم بن الحارث ، ثمّ أحد بني كنانة .

و فيه أخرج ابن أبي حاتم عن السدّيّ في الآية قال : كان رجل من بني كنانة يقال له : جنادة بن عوف يكنّى أبا اُمامة ينسىء الشهور ، وكانت العرب يشتدّ عليهم أن يمكثوا ثلاثة أشهر لا يغير بعضهم على بعض فإذا أراد أن يغير على أحد قام يوماً بمنى فخطب فقال : إنّي قد أحللت المحرّم وحرّمت صفر مكانه فيقاتل الناس في المحرّم فإذا كان صفر عمدوا ووضعوا الأسنّة ثمّ يقوم في قابل فيقول : إنّي قد أحللت صفر وحرّمت المحرّم فيواطؤوا أربعة أشهر فيحلّوا المحرّم .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في قوله : يحلّونه عاماً و يحرّمونه عاماً » قال : هو صفر كانت هوازن و غطفان يحلّونه سنة ويحرّمونه سنة .

أقول محصّل الروايات ـ كما ترى ـ أنّ العرب كانت تدين بحرمة الأشهر الحرم الأربعة رجب وذي القعدة وذي الحجّة والمحرّم ثمّ إنّهم ربّما كانوا يتحرّجون من القعود عن الحروب والغارات ثلاثة أشهر متواليات فسألوا بعض بني كنانة أن يحلّ لهم ثالث الشهور الثلاثة فقام فيهم بعض أيّام الحجّ بمنى وأحلّ لهم المحرّم ونسأ حرمته إلى صفر فذهبوا لوجههم عامهم ذلك يقاتلون العدوّ ثمّ ردّ الحرمة إلى مكانه في قابل و هذا هو النسيء .

وكان يسمّى المحرّم صفر الأوّل وصفر صفر الثاني وهما صفران كالربيعين والجماديين والنسيء إنّما ينال صفر الأوّل ولا يتعدّى صفر الثاني فلمّا أقرّ الإسلام الحرمة لصفر الأوّل عبّروا عنه بشهر الله المحرّم ثمّ لمّا كثر الاستعمال خفّف و قيل : المحرّم ، و اختصّ اسم صفر بصفر الثاني فالمحرّم من الألفاظ الإسلاميّة كما ذكره السيوطيّ في المزهر .

وفيه أخرج عبدالرزّاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبوالشيخ عن مجاهدفيقوله : « إنّما النسيء زيادة فيالكفر » قال : فرض الله الحجّ في ذي الحجّة ، و كان المشركون يسمّون الأشهر ذاالحجّة والمحرّم وصفر وربيع وربيع وجمادى وجمادى ورجب و شعبان و رمضان وشوّال وذوالقعدة وذوالحجّة ثمّ يحجّون فيه .

ثمّ يسكتون عن المحرّم فلا يذكرونه ثمّ يعودون فيسمّون صفر صفر ثمّ يسمّون رجب جمادى الآخرة ثمّ يسمّون شعبان رمضان و رمضان شوّال ، و يسمّون ذاالقعدة شوّال ثمّ يسمّون ذاالحجّة ذاالقعدة ثمّ يسمّون المحرّم ذاالحجّةثمّ يحجّون فيه واسمه عندهم ذوالحجّة .

ثمّ عادوا إلى مثل هذه القصّة فكانوا يحجّون في كلّ شهرعاماً حتّى وافق حجّة أبي بكر الآخرة من العام في ذي القعدة ثمّ حجّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم حجّته الّتي حجّ فيها فوافق ذوالحجّة فذلك حين يقول صلى الله عليه وآله وسلم في خطبته : إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السماوات والأرض .

أقول ، ومحصّله على مافيه منالتشويش والاضطراب أنّ العرب كانت قبلالإسلام يحجّ البيت في ذي الحجّة غير أنّهم أرادوا أن يحجّوا كلّ عام في شهر فكانوا يدورون بالحجّ الشهور شهراً بعد شهر و كلّ شهر وصلت إليه النوبة عامهم ذلك سمّوه ذا الحجّة وسكتوا عن اسمه الأصليّ .

ولازم ذلك أن يتألّف كلّ سنة فيها حجّة من ثلاثة عشر شهراً ، و أن يتكرّر اسم بعض الشهور مرّتين أو أزيد كما يشعر به الرواية ، ولذا ذكر الطبريّ أنّ العرب كانت تجعل السنة ثلاثة عشر شهراً ، وفي رواية اثنى عشر شهراً وخمسة و عشرين يوماً .

ولازم ذلك أيضاً أن تتغيّر أسماء الشهور كلّها ، وأن لا يواطىء اسم الشهر نفس الشهر إلّا في كلّ اثنتي عشرة سنة مرّة إنكان التأخير على نظام محفوظ ، و ذلك علىنحو الدوران .

ومثل هذا لايقال له الإنساء والتأخير فإنّ أخذ السنة ثلاثة عشر شهراً و تسمية آخرها ذا الحجّة تغيير لأصل التركيب لا تأخير لبعض الشهور بحسب الحقيقة .

على أنّه مخالف لسائر الأخبار والآثار المنقولة ، ولا مأخذ لذلك إلّا هذه الرواية وماضاهاها كرواية عمرو بن شعيب عن أبيه عن جدّه قال : كانت العرب يحلّون عاماًشهراً وعاماً شهرين ، ولا يصيبون الحجّ إلّا في كلّ ستّة وعشرين سنة مرّة وهو النسيء الّذي ذكرالله تعالى في كتابه فلمّا كان عام الحجّ الأكبر ثمّ حجّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم من العام المقبل فاستقبل الناس الأهلّة فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنّ الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق‌الله السماوات و الأرض . وهو في الاضطراب كخبر مجاهد .

على أنّ الّذي ذكره من حجّة أبي‌بكر في ذي القعدة هو الّذي ورد من طرق‌أهل السنّة أنّ النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم جعل أبابكر أميراً للحاجّ عام تسع فحجّ بالناس ، وقد ورد في بعض روايات اُخر أيضاً أنّ الحجّة عامئذ كانت في ذي القعدة .

وهذه الحجّة على أيّ نعت فرضت كانت بأمر من النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وإمضائه ، ولايأمر بشيء ولا يمضي أمراً إلّا ما أمر به ربّه تعالى ، وحاشا أن يأمرالله سبحانه بحجّة في‌شهر نسيء ثمّ يسمّيها زيادة في الكفر .

فالحقّ أنّ النسيء هو ما تقدّم أنّهم كانوا يتحرّجون من توالي شهور ثلاثة محرّمة فينسؤون حرمة المحرّم إلى صفر ثمّ يعيدونها مكانها في العام المقبل .

وأمّا حجّهم في كلّ شهر سنة أوفي كلّ شهر سنتين أوفي شهر سنة وفي شهرسنتين فلم يثبت عن مأخذ واضح يوثق به ، وليس من البعيد أن تكون عرب الجاهليّة مختلفين في ذلك لكونهم قبائل شتّى وعشائر متفرّقة كلّ متّبع لهوى نفسه غير أنّ الحجّ كان عبادة ذات موسم لايتخلّفون عنه لحاجتها إلى أمن لنفوسهم و حرمة لدمائهم ، وما كانوا يتمكّنون من ذلك لوكان أحلّ الشهر بعضهم و حرّمه آخرون على اختلاف في شاكلة التحريم ، وهو ظاهر .

***

يا أيها الذين آمنوا مالكم اذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثاقلتم الى الأرض أرضيتم بالحيوة الدنيا من الآخرة فما متاع الحيوة الدنيا في الآخرة الا قليل (٣٨) الا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً و يستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئاً والله على كل شيء قدير (٣٩) الا تنصروه فقد نصره الله اذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين اذهما في الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم (٤٠) انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون (٤١) لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتبعوك ولكن بعدت عليهم الشقة وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون (٤٢) عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين (٤٣) لا يستأذنك الذين يؤمنون بالله واليوم الآخر أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم والله عليم بالمتقين (٤٤) انما يستأذنك الذين لا يؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يترددون (٤٥) ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة ولكن كره الله انبعاثهم فثبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين (٤٦) لو خرجوا فيكم ما زادوكم الا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سماعون لهم والله عليم بالظالمين (٤٧) لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلبوا لك الأمور حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون (٤٨) .

﴿ بيان ﴾

تعرّض للمنافقين وفيه بيان لجمل أو صافهم و علائمهم ، و شرح مالقي الإسلام و المسلمون من كيدهم ومكرهم وماقاسوه من المصائب من جهة نفاقهم ، و في مقدّمها عتاب المؤمنين في تثاقلهم عن الجهاد ، وحديث خروج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من مكّة وذكر الغار .

قوله تعالى : « ياأيّها الّذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض » الآية اثّاقلتم أصله تثاقلتم على وزان ادّاركوا وغيره ، و كأنّه اُشرب معنى الميل ونحوه فعدّي بإلى وقيل : اثّاقلتم إلى الأرض أي ملتم إلى الأرض متثاقلين أو تثاقلتم مائلين إلى الأرض والمراد بالنفر في سبيل الله الخروج إلى الجهاد .

وقوله : « أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة » كأنّ الرضا اُشرب معنى القناعة فعدّي بمن كما يقال : رضيت من المال بطيّبه ، ورضيت من القوم بخلّة فلان ، و على هذا ففي الكلام نوع من العناية المجازيّة كأنّ الحياة الدنيا نوع حقير من الحياة الآخرة قنعوا بها منها ، ويشعر بذلك قوله بعده : « فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلّا قليل » .

فمعنى الآية : ياأيّها الّذين آمنوا مالكم إذا قال لكم النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم ـ لم يصرّح باسمه صوناً وتعظيماً ـ اخرجوا إلى الجهاد أبطأتم كأنّكم لا تريدون الخروج أقنعتم بالحياة الدنيا راضين بهامن الآخرة فما متاع الحياة الدنيا بالنسبة إلى الحياة الآخرة إلّا قليل .

وفي الآية وما يتلوها عتاب شديد للمؤمنين وتهديد عنيف وهي تقبل الانطباق على غزوة تبوك كما ورد ذلك في أسباب النزول .

قوله تعالى : « إلّا تنفروا يعذّبكم عذاباً أليماً و يستبدل قوماً غيركم » إلى آخر الآية العذاب الّذي اُنذروا به مطلق غير مقيّد فلا وجه لتخصيصه بعذاب الآخرة بل هو على إبهامه . و ربّما أيّدالسياق كون المراد به عذاب الدنيا أو عذاب الدنيا و الآخرة جميعاً .

و قوله : « يستبدل قوماً غيركم » أي يستبدل بكم قوماً غيركم لايتثاقلون في

امتثال أوامر الله والنفر في سبيل الله إذا قيل لهم : انفروا ، و الدليل على هذا المعنى قرينة المقام .

وقوله : « ولا تضرّوه شيئاً » إشارة إلى هوان أمرهم على الله سبحانه لو أراد أن يذهب بهم ويأتي بآخرين فإنّ الله لا ينتفع بهم بل نفعهم لأنفسهم فضررهم على أنفسهم ، و قوله : « والله على كلّ شيء قدير » تعليل لقوله : « يعذّبكم عذاباً أليما ويستبدل قوماً غيركم »

قوله تعالى : « إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذهما في الغار » ثاني اثنين أي أحدهما ، والغار الثقبة العظيمة في الجبل ، والمراد به غار جبل ثور قرب منى وهو غير غار حراء الّذي ربّما كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يأوي إليه قبل البعثة للأخبار المستفيضة ، والمراد بصاحبه هو أبو بكر للنقل القطعيّ .

وقوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا » أي لا تحزن خوفاً ممّا تشاهده من الوحدة والغربة وفقد الناصر و تظاهر الأعداء و تعقيبهم إيّاي فإنّ الله سبحانه معنا ينصرني عليهم .

وقوله : « فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها » أي أنزل الله سكينته على رسوله وأيّد رسوله بجنود لم تروها يصرفون القوم عنهم بوجوه من الصرف بجميع العوامل الّتي عملت في انصراف القوم عن دخول الغار والظفر به صلى الله عليه وآله وسلم ، و قد روي في ذلك أشياء ستأتي في البحث الروائيّ إن شاء الله .

والدليل على رجوع الضمير في قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوّلاً : رجوع الضمائر الّتي قبله و بعده إليه صلى الله عليه وآله وسلم كقوله : « إلّا تنصروه » و « نصره » و « أخرجه » و « يقول » و « لصاحبه » و « أيّده » فلا سبيل إلى رجوع ضمير « عليه » من بينها وحده إلى غيره من غير قرينة قاطعة تدلّ عليه .

وثانياً : أنّ الكلام في الآية مسوق لبيان نصر الله تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم حيث لم يكن معه أحد ممّن يتمكّن من نصرته إذ يقول تعالى : « إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ » الآية و إنزال السكينة والتقوية بالجنود من النصر فذاك له صلى الله عليه وآله وسلم خاصّة .

ويدلّ على ذلك تكرار « إذ » وذكرها في الآية ثلاث مرّات كلّ منها بيان لما قبله

بوجه فقوله « إذ أخرجه الّذين كفروا » بيان لوقت قوله : « فقد نصره الله » و قوله : «إذهما في الغار » بيان لتشخيص الحال الّذي هوقوله : « ثاني اثنين » و قوله : « إذ يقول لصاحبه » بيان لتشخيص الوقت الّذي يدلّ عليه قوله : « إذ هما في الغار » .

وثالثاً : أنّ الآية تجري في سياق واحد حتّى يقول : « وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا » ولاريب أنّه بيان لما قبله ، و أنّ المراد بكلمة الّذين كفروا هي ماقضوا به في دارالندوة وعزموا عليه من قتله صلى الله عليه وآله وإطفاء نورالله ، و بكلمة الله هي ما وعده من نصره وإتمام نوره ، و كيف يجوز أن يفرّق بين البيان و المبيّن وجعلُ البيان راجعاً إلى نصره تعالى إيّاه صلى الله عليه وآله ، والمبيّن راجعاً إلى نصره غيره .

فمعنى الآية : إن لم تنصروه أنتم أيّها المؤمنون فقد أظهر الله نصره إيّاه في وقت لم يكن له أحد ينصره ويدفع عنه وقد تظاهرت عليه الأعداء و أحاطوا به من كلّ جهة وذلك إذهمّ المشركون به وعزموا على قتله فاضطرّ إلى الخروج من مكّة في حال لم يكن إلّا أحد رجلين اثنين ، وذلك إذهما في الغار إذ يقول النبيّ صلى الله عليه وآله لصاحبه وهو أبوبكر : لا تحزن ممّا تشاهده من الحال إنّ الله معنا بيده النصر فنصره الله .

حيث أنزل سكينته عليه وأيّده بجنود غائبة عن أبصاركم ، وجعل كلمة الّذين كفروا ـ وهي قضاؤهم بوجوب قتله وعزيمتهم عليه ـ كلمة مغلوبة غيرنافذة ولامؤثّرة ، و كلمة الله ـ وهي الوعد بالنصر وإظهار الدين وإتمام النور ـ هي العليا العالية القاهرة والله عزيز لا يغلب حكيم لا يجهل ولا يغلط فيما شاءه وفعله .

وقد تبيّن ممّا تقدّم أوّلاً : أنّ قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » متفرّع على قوله : « فقد نصره الله » في عين أنّه متفرّع على قوله : « إذ يقول لصاحبه لا تحزن » فإنّ الظرف ظرف للنصرة على ما تقدّم ، والكلام مسوق لبيان نصره تعالى إيّاه صلى الله عليه وآله لاغيره فالتفريع تفريع على الظرف بمظروفه الّذي هو قوله : « فقد نصره الله » لا على قوله : « يقول لصاحبه لا تحزن » .

وربّما استدلّ لذلك بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يزل على سكينة من ربّه فإنزال السكينة في هذا الظرف خاصّة يكشف عن نزوله على صاحبه .

ويدفعه أوّلاً قوله تعالى : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » في قصّة حنين ، والقول بأنّ نفسه الشريفة اضطربت بعض الاضطراب في وقعة حنين فناسب نزول السكينة بخلاف الحال في الغار . يدفعه أنّه من الافتعال بغير علم فالآية لاتذكر منه ﷺ حزناً ولا اضطراباً ولا غير ذلك إلّا ما تذكر من فرار المؤمنين . على أنّه يبطل أصل الاستدلال أنّ النبيّ ﷺ لم يزل على سكينة من ربّه لايتجدّد له شيء منها فكيف جازله أن يضطرب في حنين فتنزل عليه سكينة جديدة اللّهمّ إلّا أن يريدوا به أنّه لم ينزل في الغار كذلك .

ونظيرتها الآية الناطقة بنزول السكينة عليه ﷺ وعلى المؤمنين في سورة الفتح : « إذ جعل الّذين كفروا في قلوبهم الحميّة حميّة الجاهليّة فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الفتح : ٢٦ .

ويدفعه ثانياً : لزوم تفرّع قوله : « وأيّده بجنود لم تروها » على أثر تفرّع قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » لأنّهما في سياق واحد ، ولازمه عدم رجوع التأييد بالجنود إليه ﷺ أو التفكيك في السياق الواحد من غير مجوّز يجوّزه .

وربّما التزم بعضهم ـ فراراً من شناعة لزوم التفكيك ـ أنّ الضمير في قوله تعالى: « وأيّده » أيضاً راجع إلى صاحبه ، ولازمه كون إنزال السكينة والتأييد بالجنود عائدين إلى أبي بكر دون النبيّ ﷺ .

وربّما أيّده بعض آخر بأنّ الوقائع الّتي تذكر الآيات فيها نزول جنود لم يروها كوقعة حنين والأحزاب وكذا نزول الملائكة لوقعة بدر وإن لم تذكر نزولهم على المؤمنين ولم تصرّح بتأييدهم بهم لكنّهم حيث كانوا إنّما نزلوا للنصر وفيه نصر المؤمنين وإمدادهم فلا مانع من القول بأنّ الجنود الّتي لم يروها إنّما أيّدت أبا بكر ، و تأييدهم المؤمنين جميعاً أو أبا بكر خاصّة تأييد منهم في الحقيقة للنبيّ ﷺ .

والأولى على هذا البيان أن يجعل الفرع الثالث الّذي هو قوله : « وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى » الآية مترتّباً على ما تقدّمه من الفرعين لئلّا يلزم التفكيك في السياق .

ولا يخفى عليك أنّ هذا الّذي التزموا به يخرج الآية عن مستقرّ معناها الواحداني إلى معنى متهافت الأطراف يدفع آخره أوّله ، وينقض ذيله صدره فقد بدأت الآية بأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله أكرم على الله وأعزّ من أن يستذلّه ويحوجه إلى نصرة هؤلاء بل هو تعالى وليّه القائم بنصره حيث لم يكن أحد من هؤلاء الحافّين حوله المتّبعين أثره ثمّ إذا شرعت في بيان نصره تعالى إيّاه بيّن نصره غيره بإنزال السكينة عليه وتأييده بجنود لم يروها إلى آخر الآية .

هب أنّ نصره تعالى بعض المؤمنين به صلى الله عليه وآله أو جميعهم نصر منه له بالحقيقة لكنّ الآية في مساق يدفعه البتّة فإنّ الآية السابقة يجمع المؤمنين في خطاب واحد ـ يا أيّها الّذين آمنوا ـ ويعاتبهم ويهدّدهم على التثاقل عن إجابة النبيّ صلى الله عليه وآله إلى ما أمرهم به من النفر في سبيل الله والخروج إلى الجهاد ثمّ الآية الثانية تهدّدهم بالعذاب والاستبدال إن لم ينفروا وتبيّن لهم أنّ الله ورسوله في غنىً عنهم ولا يضرّونه شيئاً ، ثمّ الآية الثالثة توضح أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله في غنى عن نصرهم لأنّ ربّه هو وليّه الناصر له ، وقد نصره حيث لم يكن لأحد منهم صنع فيه وهو نصره إيّاه إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا .

و من البيّن الّذي لا مرية فيه أنّ مقتضى هذا المقام بيان نصره صلى الله عليه وآله الخاصّ به المتعلّق بشخصه من الله سبحانه خاصّة من دون صنع لأحد من المؤمنين في ذلك لا بيان نصره إيّاه بالمؤمنين أو ببعضهم وقد جمعهم في خطاب المعاتبة ، ولا بيان نصره بعض المؤمنين به ممّن كان معه .

ولا أنّ المقام مقام يصلح لأن يشار بقوله : « إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين » إشارة إجماليّة إلى نصره العزيز لنبيّه صلى الله عليه وآله ثمّ يؤخذ في تفصيل ما خصّ به صاحبه من الخصيصة بإنزال السكينة والتأييد بالجنود فإنّ المقام على ما تبيّن لك يأبى ذلك .

ويدفعه ثالثاً : أنّ فيه غفلة عن حقيقة معنى السكينة وقد تقدّم الكلام فيها في ذيل قوله تعالى : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الآية : ٢٦ من السورة .

والامر الثاني : أنّ المراد بتأييده صلى الله عليه وآله بجنود لم يروها تأييده بذلك يومئذ على

ما يفيده السياق ، وأمّا قول بعضهم : إنّ المراد به ما أيّده بالجنود يوم الأحزاب ويوم حنين على ما نطقت به الآيات . فممّا لا دليل عليه من اللّفظ البتّة .

والامر الثالث : أنّ المراد بالكلمة في قوله : « وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى » هو ما قضوا به في دار الندوة وعزموا عليه من قتله صلى الله عليه وآله وسلم و إبطال دعوته الحقّة بذلك ، وبقوله : « و كلمة الله هي العليا » هو ما وعد الله نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم من النصر و إظهار دينه على الدين كلّه .

وذلك أنّ هذه الآية بما تتضمّنه من قوله : «فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا » تشير إلى ما يقصّه قوله تعالى : « وإذ يمكر بك الّذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين » الأنفال : ٣٠ ، والّذي في ذيل الآية من إبطال كلمتهم و إحقاق الكلمة الإلهيّة مرتبط بما في صدر الآية من حديث الإخراج أي الاضطرار إلى الخروج لا محالة ، والّذي اضطرّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى الخروج هو عزمهم على قتله حسب ما اتّفقوا عليه من القضاء بقتله فهذه هي الكلمة الّتي أبطلها الله سبحانه وجعلها السفلى وتقابلها كلمة الله وليست إلّا النصر والإظهار .

و من هنا يظهر أنّ قول بعضهم إنّ المراد بكلمة الّذين كفروا الشرك والكفر ، وبكلمة الله تعالى التوحيد والإيمان غير سديد فإنّ الشرك وإن كان كلمة لهم ، والتوحيد كلمة لله لكنّه لا يستلزم كونهما المرادين كلّما ذكرت الكلمتان حتّى مع وجود القرينة على الخلاف .

قوله تعالى : انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » الخفاف والثقال جمعا خفيف وثقيل ، والثقل بقرينة المقام كناية عن وجود الموانع الشاغلة الصارفة للإنسان عن الخروج إلى الجهاد نظير كثرة المشاغل الماليّة وحبّ الأهل والولد والأقرباء والأصدقاء الّذي يوجب كراهة مفارقتهم ، و فقد الزاد والراحلة والسلاح ونحو ذلك ، والخفّة كناية عن خلاف ذلك .

فالأمر بالنفر خفافاً وثقالاً وهما حالان متقابلان في معنى الأمر بالخروج على أيّ حال ، وعدم اتّخاذ شيء من ذلك عذراً يعتذر به لترك الخروج كما أنّ الجمع بين

الأموال والأنفس في الذكر في معنى الأمر بالجهاد بأيّ وسيلة أمكنت .

وقد ظهر بذلك أنّ الأمر في الآية مطلق لا يأبى التقييد بالأعذار الّتي يسقط معها وجوب الجهاد كالمرض والعمى والعرج و نحو ذلك فإنّ المراد بالخفّة والثقل أمر وراء ذلك .

قوله تعالى : « لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتّبعوك » إلى آخر الآية. العرض ما يسرع إليه الزوال و يطلق على المال الدنيويّ وهو المراد في الآية بقرينة السياق ، والمراد بقربه كونه قريباً من التناول ، والقاصد من القصد وهو التوسّط في الأمر ، والمراد بكون السفر قاصداً كونه غير بعيد المقصد سهلاً على المسافر ، و الشقّة : المسافة لما في قطعها من المشقّة .

والآية كما يلوح من سياقها تعيير وذمّ للمنافقين المتخلّفين عن الخروج مع النبيّ صلّى الله عليه وآله إلى الجهاد في غزوة تبوك إذ الغزوة الّتي خرج فيها النبيّ ﷺ وتخلّف عنه المنافقون وهي على بعد من المسافة هي غزوة تبوك لاغيرها .

ومعنى الآية : لو كان ما أمرتهم به ودعوتهم إليه عرضاً قريب التناول وغنيمة حاضرة وسفراً قاصداً قريباً هيّناً لاتّبعوك يا محمّد و خرجوا معك طمعاً في الغنيمة ولكن بعدت عليهم الشقّة والمسافة فاستصعبوا السير وتثاقلوا فيه .

و سيحلفون بالله إذا رجعتم إليهم و لمتموهم على تخلّفهم : لو استطعنا الخروج لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم بما أخذوه من الطريقة : من الخروج إلى القتال طمعاً في عرض الدنيا إذا استيسروا القبض عليه ، والتخلّف عنه إذا شقّ عليهم ثمّ الاعتذار بالعذر الكاذب على نبيّهم والحلف في ذلك بالله كاذبين؛ أو يهلكون أنفسهم بهذا الحلف الكاذب ، والله يعلم إنّهم لكاذبون .

قوله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا و تعلم الكاذبين » الجملة الاُولى دعاء للنبيّ ﷺ بالعفو نظير الدعاء على الإنسان بالقتل في قوله : « قتل الإنسان ما أكفره » عبس : ١٧ ، و قوله : « فقتل كيف قدّر » المدّثّر : ١٩ وقوله : « قاتلهم الله أنّى يؤفكون» التوبة : ٣٠ .

والجملة متعلّقة بقوله : « لم أذنت لهم » أي في التخلّف والقعود، ولمّا كان الاستفهام للإنكار أو التوبيخ كان معناه : كان ينبغي أن لا تأذن لهم في التخلّف والقعود ، ويستقيم به تعلّق الغاية الّتي يشتمل عليها قوله : « حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا » الآية . بقوله : « لم أذنت لهم » فالتعلّق إنّما هو بالمستفهم عنه دون الاستفهام وإلّا أفاد خلاف المقصود ، والكلام مسوق لبيان ظهور كذبهم وأنّ أدنى الامتحان كالكفّ عن إذنهم في القعود يكشف عن فضاحتهم .

ومعنى الآية : عفا الله عنك لم أذنت لهم في التخلّف والقعود ؟ ولو شئت لم تأذن لهم ـ وكانوا أحقّ به ـ حتّى يتبيّن لك الّذين صدقوا وتعلم الكاذبين فيتميّز عندك كذبهم ونفاقهم .

والآية ـ كما ترى وتقدّمت الإشارة إليه ـ في مقام دعوى ظهور كذبهم ونفاقهم ، وأنّهم مفتضحون بأدنى امتحان يمتحنون به ، ومن مناسبات هذا المقام إلقاء العتاب إلى المخاطب وتوبيخه والإنكار عليه كأنّه هو الّذي ستر عليهم فضائح أعمالهم وسوء سريرتهم ، وهو نوع من العناية الكلاميّة يتبيّن به ظهور الأمر ووضوحه لا يراد أزيد من ذلك فهو من أقسام البيان على طريق : « إيّاك أعني واسمعي يا جارة » .

فالمراد بالكلام إظهار هذه الدعوى لا الكشف عن تقصير النبيّ صلّى الله عليه وآله وسوء تدبيره في إحياء أمر الله ، وارتكابه بذلك ذنباً ـ حاشاه ـ وأولويّة عدم الإذن لهم معناها كون عدم الإذن أنسب بظهور فضيحتهم وأنّهم أحقّ بذلك لما بهم من سوء السريرة وفساد النيّة لا لأنّه كان أولى وأحرى في نفسه وأقرب وأمسّ بمصلحة الدين .

والدليل على هذا الّذي ذكرنا قوله تعالى بعد ثلاث آيات : « لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلّا خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة وفيكم سمّاعون لهم » إلى آخر الآيتين ، فقد كان الأصلح أن يؤذن لهم في التخلّف ليصان الجمع من الخبال وفساد الرأي وتفرّق الكلمة ، والمتعيّن أن يقعدوا فلا يفتّنوا المؤمنين بإلقاء الخلاف بينهم والتفتين فيهم وفيهم ضعفاء الإيمان ومرضى القلوب وهم سمّاعون لهم يسرعون إلى المطاوعة لهم ، ولو لم يؤذن لهم فأظهروا الخلاف كانت الفتنة أشدّ والتفرّق في كلمة الجماعة أوضح وأبين .

ويؤكّد ذلك قوله تعالى بعد آيتين : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين » فقد كان تخلّفهم ونفاقهم ظاهراً لائحاً من عدم إعدادهم العدّة يتوسّمه في وجوههم كلّ ذي لبّ ، ولا يخفى مثل ذلك على مثل النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وقد نبّأه الله بأخبارهم قبل نزول هذه السورة كراراً فكيف يصحّ أن يعاتب ههنا عتاباً جدّيّاً بأنّه لِم لم يكفّ عن الإذن ولم يستعلم حالهم حتّى يتبيّن له نفاقهم ويميّز المنافقين من المؤمنين؟ فليس المراد بالعتاب إلّا ما ذكرناه .

وممّا تقدّم يظهر فساد قول من قال : إنّ الآية تدلّ على صدور الذنب عنه صلى الله عليه وآله وسلم لأنّ العفو لا يتحقّق من غير ذنب ، وأنّ الإذن كان قبيحاً منه صلى الله عليه وآله وسلم ومن صغائر الذنوب لأنّه لا يقال في المباح لم فعلته ؟ انتهى .

وهذا من لعبهم بكلام الله سبحانه ، ولو اعترض معترض على ما يهجون به في مثل المقام الّذي سيقت الآية فيه لم يرضوا بذلك ، وقد أوضحنا أنّ الآية مسوقة لغرض غير غرض الجدّ في العتاب .

على أنّ قولهم : إنّ المباح لا يقال فيه : لم فعلت؟ فاسد فإنّ من الجائز إذا شوهد من رجّح غير الأولى على الأولى أن يقال له : لم فعلت ذلك ورجّحته على ما هو أولى منه ؟ على أنّك قد عرفت أنّ الآية غير مسوقة لعتاب جدّيّ .

ونظيره ما ذكره بعض آخر حيث قال : إنّ بعض المفسّرين ولا سيّما الزمخشريّ قد أساؤوا الأدب في التعبير عن عفو الله تعالى عن رسوله صلى الله عليه وآله وسلم في هذه الآية ، وكان يجب أن يتعلّموا أعلى الأدب معه صلى الله عليه وآله وسلم إذ أخبره ربّه ومؤدّبه بالعفو قبل الذنب ، وهو منتهى التكريم واللّطف .

وبالغ آخرون كالرازيّ في الطرف الآخر فأرادوا أن يثبتوا أنّ العفو لا يدلّ على الذنب ، وغايته أنّ الإذن الّذي عاتبه الله عليه هو خلاف الأولى .

وهو جمود مع الاصطلاحات المحدثة والعرف الخاصّ في معنى الذنب وهو المعصية ، وما كان ينبغي لهم أن يهربوا من إثبات ما أثبته الله في كتابه تمسّكاً باصطلاحاتهم وعرفهم المخالف له ولمدلول اللّغة أيضاً .

فالذنب في اللغة كل عمل يستتبع ضرراً أوفوت منفعة أومصلحة ، مأخوذ من ذنب الدابة ، وليس مرادفاً للمعصية بل أعم منها . والإذن المعفو عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبين الذين صدقوا والعلم بالكاذبين ، وقد قال تعالى : « إنا فتحنا لك فتحاً مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر » الآية : الفتح : ٢ .

ثم ذكر في كلام له طويل أن ذلك كان اجتهاداً منه صلى الله عليه وآله فيما لا وحي فيه من الله وهو جائز وواقع من الأنبياء عليهم السلام و ليسوا بمعصومين من الخطاء فيه و إنما العصمة المتفق عليها خاصة بتبليغ الوحي ببيانه والعمل به فيستحيل على الرسول أن يكذب أو يخطىء فيما يبلغه عن ربه أويخالفه بالعمل .

ومنه ما تقدم في سورة الأنفال من عتابه تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله في أخذ الفدية من اُسارى بدر حيث قال : « ماكان لنبي أن يكون له أسرى حتى يثخن في الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » الأنفال : ٦٧ ثم بين أنه كان مقتضياً لنزول عذاب أليم لولا كتاب من الله سبق فكان مانعاً انتهى كلامه بنوع من التلخيص .

وليت شعري ما الذي زاد في كلامه على ما تفصى به الرازي و غيره حيث ذكروا أن ذلك من ترك الأولى ، ولا يسمونه ذنباً في عرف المتشرعين وهوالذي يستتبع عقاباً ، وذكر هو أنه من ترك الأصلح وسماه ذنباً لغة .

على أنك قد عرفت فيما تقدم أنه لم يكن ذنباً لا عرفاً ولا لغة بدلالة ناصة من الآيات على أن عدم خروجهم كان هو الأصلح لحال جيش المسلمين لتخلصهم بذلك عن غائلة وقوع الفتنة واختلاف الكلمة ، وكانت هذه العلة بعينها موجودة لولم يأذن لهم النبي صلى الله عليه وآله وظهر منهم ما كانوا أبطنوه من الكفر والخلاف وأن الذي ذكره الله بقوله : « ولو أرادوا الخروج لأعدوا له عدة » أن عدم إعدادهم العدة كان يدل على عدم إرادتهم الخروج ؛ كان رسول الله صلى الله عليه وآله أجل من أن يخفى عليه ذلك وهم بمرئى منه ومسمع .

مضافاً إلى أنه صلى الله عليه وآله كان يعرفهم في لحن القول كما قال تعالى : « ولتعرفنهم في لحن القول » سورة محمد : ٣٠ وكيف يخفى على من سمع من أحدهم مثل قوله : « ائذن لي

ولا تفتنّي» أو يقول للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : « هو أُذن » أو يلمزه في الصدقات ولا ينصح له صلى الله عليه وآله وسلم أنّ ذلك من طلائع النفاق يطلع منهم وما وراءه إلّا كفر وخلاف .

فقد كان النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم يتوسّم منهم النفاق والخلاف و يعلم بما في نفوسهم ، و مع ذلك فعتابه صلى الله عليه وآله وسلم ،أنّه لم لم يكفّ عن الإذن ولم يستعلم حالهم ولم يميّزهم من غيرهم ؟ ليس إلّا عتاباً غير جدّيّ للغرض الّذي ذكرناه .

وأمّا قوله : « إنّ الإذن المعفوّ عنه قد استتبع فوت المصلحة المنصوصة في الآية وهي تبيّن الّذين صدقوا والعلم بالكاذبين » ففيه أنّ الّذي تشتمل عليه الآية من المصلحة هو تبيّن الّذين صدقوا للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم وعلمه هو بالكاذبين لا مطلق تبيّنهم ولا مطلق العلم بالكاذبين ، وقد ظهر عمّا تقدّم أنّه صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن يخفى عليه ذلك ، و أنّ حقيقة المصلحة إنّما كانت في الإذن وهي سدّ باب الفتنة واختلاف الكلمة فإنّه صلى الله عليه وآله وسلم كان يعلم من حالهم أنّهم غير خارجين البتّة سواء أذن لهم في القعود أم لم يأذن فبادر إلى الإذن حفظاً على ظاهر الطاعة ووحدة الكلمة .

وليس لك أن تتصوّر أنّه لو بان نفاقهم يومئذ وظهر خلافهم بعدم إذن النبيّ لهم بالقعود لتخلّص الناس من تفتينهم وإلقائهم الخلاف لما في الإسلام يومئذ وهو يوم خروج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم إلى غزوة تبوك ـ من الشوكة والقوّة ، وله صلى الله عليه وآله وسلم من نفوذ الكلمة .

فإنّ الإسلام يومئذ إنّما كان يملك القوّة والمهابة في أعين الناس من غير المسلمين كانوا يرتاعون شوكته و يعظّمون سواد أهله و يخافون حدّ سيوفهم و أمّا المسلمون في داخل مجتمعهم وبين أنفسهم فلم يخلصوا بعد من النفاق و مرض القلوب ، ولم يستول عليهم بعد وحدة الكلمة وجدّ الهمّة والعزيمة و الدليل على ذلك نفس هذه الآيات وما يتلوها إلى آخر السورة تقريباً .

وقد كانوا تظاهروا بمثل ذلك يوم اُحد وقد هجم عليهم العدوّ في عقر دارهم فرجع ثلث الجيش الإسلاميّ من المعركة ولم يؤثّر فيهم عظة ولا إلحاح حتّى قالوا : لو نعلم قتالاً لاتّبعناكم ، فكان ذلك أحد الأسباب العاملة في انهزام المسلمين .

وأمّا قوله : ومن عتابه تعالى لرسوله صلى الله عليه وآله وسلم في خطائه في اجتهاده ماتقدّم في سورة

الأنفال من عتابه في أخذ الفدية من اُسارى بدر حيث قال : « ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى حتّى يثخن في الأرض »الآية .

ففيه أوّلاً : أنّه من سوء الفهم فمن البيّن الّذي لايرتاب فيه أنّ الآية بلفظها لا تعاتب على أخذ الفدية من الأسرى وإنّما يعاتب على نفس أخذ الأسرى ـ ماكان لنبيّ أن يكون له أسرى ـ ولم تنزل آية ولا وردت رواية في أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان أمرهم بالأسر بل روايات القصّة تدلّ على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لمّا أمر بقتل بعض الأسرى خاف الناس أن يقتلهم عن آخرهم فكلّموه وألحّوا عليه في أخذ الفدية منهم ليتقوّوا بذلك على أعداء الدين و قد ردّ الله عليهم ذلك بقوله : « تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة » .

وهذا من أحسن الشواهد على أنّ العتاب في الآية متوجّه إلى المؤمنين خاصّة من غير أن يختصّ به النبيّ صلى الله عليه وآله أو يشاركهم فيه و أنّ أكثر ما ورد من الأخبار في هذا المعنى موضوعة أو مدسوسة .

وثانياً : أنّ العتاب في الآية لو اختصّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله أو شمله و غيره لم يكن من العتاب على ما ذكره من الذنب بمعناه اللغويّ وهو تفويت المصلحة بوجه فإنّ هذا العتاب مذيّل بقوله تعالى في الآية التالية : « لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم » الأنفال : ٦٨ فلا يرتاب ذولبّ في أنّ التهديد بالعذاب العظيم لا يتأتّى إلّا مع كون المهدّد عليه من المعصية المصطلحة بل ومن كبائر المعاصي ، و هذا أيضاً من الشواهد على أنّ العتاب في الآية متوجّه إلى غير النبيّ صلى الله عليه وآله .

قوله تعالى : « لايستأذنك الّذين يؤمنون بالله واليوم الآخر » إلى آخر الآيتين تذكر الآيتان أحد مايعرف به المنافق و يتميّز به من المؤمن وهو الاستيذان في التخلّف عن الجهاد في سبيل الله .

وقد بيّن الله سبحانه ذلك بأنّ الجهاد في سبيل الله بالأموال والأنفس من لوازم الإيمان بالله واليوم الآخر بحقيقة الإيمان لما يورثه هذا الإيمان من صفة التقوى ، و المؤمن لمّا كان على تقوى من قبل الإيمان بالله واليوم الآخر كان على بصيرة من وجوب الجهاد في سبيل الله بماله ونفسه ، ولا يدعه ذلك أن يتثاقل عنه فيستأذن في القعود لكنّ

المنافق لعدم الإيمان بالله واليوم الآخر فقد صفة التقوى فارتاب قلبه ولا يزال يتردّد في ريبه فيحبّ التطرّف ، ويستأذن في التخلّف والقعود عن الجهاد .

قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » إلى آخر الآية ، العدّة الاُهبة ، والانبعاث ـ على ما في المجمع ـ الانطلاق بسرعة في الأمر ، و التثبيط التوقيف عن الأمر بالتزهيد فيه .

والآية معطوفة على ماتقدّم من قوله : « والله يعلم إنّهم لكاذبون » بحسب المعنى أي هم كاذبون في دعواهم عدم استطاعتهم الخروج بل ماكانوا يريدونه ولو أرادوه لأعدّوا له عدّة لأنّ من آثار من يريد أمراً من الاُمور أن يتأهّب له بما يناسبه من العدّة و الاُهبة ولم يظهر منهم شيء من ذلك .

وقوله : « ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم » أي جزاء بنفاقهم و امتناناً عليك و على المؤمنين لئلاّ يفسدوا جمعكم ، ويفرّقوا كلمتكم بالتفتين و إلقاء الخلاف .

وقوله : « وقيل اقعدوا مع القاعدين » أمر غيرتشريعيّ لا ينافي الأمر التشريعيّ بالنفر و الخروج،فقد أمرهم الله بلسان نبيّه صلى الله عليه وآله بالنفر والخروج ـ وهوأمر تشريعيّ ـ وأمرهم من ناحية سريرتهم الفاسدة والريب المتردّد في قلوبهم و سجاياهم الباطنيّة الخبيثة بالقعود ـ وهو أمر غير تشريعيّ ـ ولاتنافي بينهما .

ولم ينسب قول : « اقعدوا مع القاعدين » إلى نفسه تنزيهاً لنفسه عن الأمر بما لا يرتضيه وهناك أسباب متخلّلة آمرة بذلك كالشيطان والنفس ، وإنّما ينسب إليه تعالى بالواسطة لانطباق معنى الجزاء والامتنان على المؤمنين عليه .

وليتوافق الأمران المتخالفان صورة في السياق أعني قوله : « قيل لكم انفروا في سبيل الله » وقوله : « قيل اقعدوا مع القاعدين » .

قوله تعالى : « لوخرجوا فيكم مازادوكم إلاّ خبالاً ولأوضعوا خلالكم » الآية الخبال هو الفساد واضطراب الرأي ، و الإيضاع : الإسراع في الشرّ ، والخلال : البين ، و البغي هو الطلب فمعنى يبغونكم الفتنة أي يطلبون لكم أوفيكم الفتنة على ماقيل ، و الفتنة هي المحنة كالفرقة و اختلاف الكلمة على ما يناسب الآية من معانيها ، و السمّاع

السريع الإجابة والقبول .

والآية في مقام التعليل لقوله : « ولكن كره الله انبعاثهم فثبّطهم » امتناناً ، و لذا جيء بالفصل من غير عطف ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل و قلّبوا لك الاُمور حتّى جاء الحقّ و ظهر أمرالله وهم كارهون » أي اُقسم لقد طلبوا المحنة و اختلاف الكلمة و تفرّق الجماعة من قبل هذه الغزوة ـ وهي غزوة تبوك ـ كما في غزوة اُحد حين رجع عبدالله بن اُبيّ بن سلول بثلث القوم وخذل النبيّ صلى الله عليه وآله ، و قلّبوا لك الاُمور بدعوة الناس إلى الخلاف و تحريضهم على المعصية وخذلانهم عن الجهاد و بعث اليهود والمشركين على قتال المؤمنين و التجسّس وغير ذلك حتّى جاء الحقّ ـ وهوالحقّ الّذي يجب أن يتّبع ـ وظهر أمرالله ـ وهو الّذي يريده من الدين ـ وهم كارهون لجميع ذلك .

والآية تستشهد على الآية السابقة بذكر الأمثال كما يستدلّ على الأمر بمثله ، وفي توجيه الخطاب إلى النبيّ صلى الله عليه وآله خاصّة بعد عمومه في الآية السابقة لاختصاص الأمر فيه بالنبيّ صلى الله عليه وآله أعني تقليب الاُمور عليه بخلاف ما في الآية السابقة من خروجهم في الناس .

﴿بحث روائى﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « إن لاتنصروه فقد نصره الله » الآية أخرج ابن مردويه وأبو نعيم في الدلائل عن ابن عبّاس قال : لمّا خرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الليل لحق بغار ثور . قال : وتبعه أبو بكر فلمّا سمع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حسّه خلفه خاف أن يكون الطلب فلمّا رأى ذلك أبو بكر تنحنح فلمّا سمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عرفه فقام له حتّى تبعه فأتيا الغار .

فأصبحت قريش في طلبه فبعثوا إلى رجل من قافة بني مدلج فتبع الأثر حتّى انتهى إلى الغار وعلى بابه شجرة فبال في أصلها القائف ثمّ قال : ما جاز صاحبكم الّذي تطلبون

هذا المكان قال : فعند ذلك حزن أبو بكر فقال له رسول الله صلّى الله عليه وآله : لا تحزن إنّ الله معنا .

قال : فمكث هو وأبو بكر في الغار ثلاثة أيّام يختلف إليهم بالطعام عامر بن فهيرة وعليّ يجهّزهم فاشتروا ثلاثة أباعر من إبل البحرين واستأجر لهم دليلاً فلمّا كان بعض الليل من الليلة الثالثة أتاهم عليّ بالإبل والدليل فركب رسول الله صلّى الله عليه وآله راحلته وركب أبو بكر اُخرى فتوجّهوا نحو المدينة ، و قد بعثت قريش في طلبه .

وفيه أخرج ابن سعد عن ابن عبّاس وعليّ وعائشة بنت أبي بكر وعائشة بنت قدامة وسراقة بن جعشم ـ دخل حديث بعضهم في بعض ـ قالوا : خرج رسول الله صلّى الله عليه و سلّم والقوم جلوس على بابه فأخذ حفنة من البطحاء فجعل يذرّها على رؤوسهم و يتلو : «يس والقرآن الحكيم» الآيات ومضى .

فقال لهم قائل ما تنتظرون ؟ قالوا : محمّداً . قال : قدوالله مرّ بكم قالوا : والله ما أبصرناه وقاموا ينفضون التراب من رؤوسهم ، وخرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم وأبو بكر إلى غار ثور فدخلاه وضربت العنكبوت على بابه بعشاش بعضها على بعض .

و طلبته قريش أشدّ الطلب حتّى انتهوا إلى باب الغار فقال بعضهم : إنّ عليه لعنكبوتاً قبل ميلاد محمّد .

وفي إعلام الورى ـ في حديث سراقة بن جعشم مع النبيّ صلّى الله عليه وآله ـ قال : الّذي اشتهر في العرب يتقاولون فيه الأشعار ويتفاوضونه في الديار أنّه تبعه وهو متوجّه إلى المدينة طالباً لغرّته صلّى الله عليه وآله ليحظى بذلك عند قريش ، حتّى إذا أمكنته الفرصة في نفسه ، و أيقن أن قد ظفر ببغيته ساخت قوائم فرسه حتّى تغيّبت بأجمعها في الأرض وهو بموضع جدب وقاع صفصف فعلم أنّ الّذي أصابه أمر سماويّ فنادى يا محمّد : ادع ربّك يطلق لي فرسي وذمّة الله أن لا أدلّ عليك أحداً ؛ فدعا له فوثب جواده كأنّه أفلت من اُنشوطة و كان رجلاً داهية ، وعلم بما رأى أنّه سيكون له نبأ فقال : اكتب لي أماناً فكتب له وانصرف .

قال محمّد بن إسحاق : إنّ أباجهل قال في أمر سراقة أبياتاً فأجابه سراقة نظماً :

أباحكم واللات[1] لو كنت شاهداً * لأمر جوادي إذ تسيخ قوائمه

---

(١) والله .

عجبت ولم تشكك بأنّ محمّداً * نبيٌّ ببرهان فمن ذا يكاتمه ؟
عليك بكفّ النّاس عنه فإنّني * أرى أمره يوماً ستبدو معالمه

أقول : ورواه في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمّار عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام ، و في الدرّ المنثور بعدّة طرق ، وأورده الزمخشريّ في ربيع الأبرار .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن سعد وابن مردويه عن ابن مصعب قال : أدركت أنس بن مالك وزيدبن أرقم و المغيرةبن شعبة فسمعتهم يتحدّثون : أنّ النبيّ صلّى‌الله عليه و سلّم ليلة الغار أمرالله شجرة فنبتت في وجه النبيّ صلّى‌الله عليه و سلّم فسترته ، و أمرالله العنكبوت فنسجت في وجه النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم فسترته وأمرالله حمامتين وحشيّتين فوقفتابفم الغار .

وأقبل فتيان قريش من كلّ بطن رجل بعصيّهم و أسيافهم و هراويهم حتّى إذا كانوا من النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم قدرأربعين ذراعاً فعجّل بعضهم فنظر في الغار فرجع إلى أصحابه فقالوا : مالك لم تنظر في الغار ؟ فقال : رأيت حمامتين بفم الغار فعرفت أن ليس فيه أحد . الحديث .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق وابن المنذر عن الزهريّ في قوله : « إذهما في الغار » قال : الغار الّذي فيالجبل الّذي يسمّى ثوراً .

أقول : وقد استفاضت الروايات بكون الغار المذكور في القرآن الكريم هو غار جبل ثور ، وهو على أربعة فراسخ من‌مكّة تقريباً .

وفي إعلام الورى وقصص الأنبياء ، وبقي‌رسول‌الله صلّى‌الله عليه وآله في الغار ثلاثة أيّام ثمّ أذن الله تعالى له بالهجرة ، وقال : اخرج من مكّة يا محمّد فليس لك بها ناصر بعد أبي‌طالب فخرج رسول الله صلّى‌الله‌عليه‌وآله .

وأقبل راع لبعض قريش يقال له : ابن‌اُريقط فدعاه رسول الله صلّى‌الله‌عليه‌وآله فقال له : يابن اُريقط أءتمنك على دمي ؟ فقال : إذن والله أحرسك وأحفظك ولا أدلّ عليك ، فأين تريد يامحمّد ؟ قال : يثرب . قال : لأسلكنّ بك‌مسلكاً لا يهتدي فيها أحد فقال‌له رسول‌الله صلّى‌الله‌عليه‌وآله : ائت عليّاً وبشّره بأنّ الله قد أذن لي في الهجرة فهيّىء لي زاداً وراحلة .

وقال له أبو بكر : ائت أسماء ابنتي وقل لها : تهيّئي لي زاداً وراحلتين ، و أعلم عامر بن فهيرة أمرنا ، وكان من موالي أبي بكر وكان قد أسلم ، و قل له : ائتنا بالزاد والراحلتين .

فجاء ابن اُريقط إلى عليّ عليه السلام فأخبره بذلك فبعث عليّ بن أبي طالب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله بزاد وراحلة . وبعث ابن فهيرة بزاد و راحلتين ، وخرج رسول الله صلى الله عليه وآله من الغار و أخذ به ابن اُريقط على طريق نخلة بين الجبال فلم يرجعوا إلى الطريق إلّا بقُدَيد فنزلوا على اُمّ معبد هناك .

قال : وقد كانت الأنصار بلغهم خروج رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم و كانوا يتوقّعون قدومه إلى أن وافى مسجد قبا ونزل فخرج الرجال والنساء يستبشرون بقدومه .

أقول : والأخبار في تفاصيل قصص الهجرة بالغة في الكثرة رواها أصحاب النقل وأرباب السير من الشيعة وأهل السنّة ، وهي على كثرتها متدافعة مضطربة لا يسع نقدها واستخراج الصافي منها مجال هذا الكتاب ، وللدلالة على إجمال القصّة فيما أوردناه كفاية وهو كالمتّفق عليه بين أخبار الفريقين .

وفي الدرّ المنثور أخرج خيثمة بن سليمان الطرابلسيّ في فضائل الصحابة وابن عساكر عن عليّ بن أبي طالب قال : إنّ الله ذمّ الناس كلّهم ومدح أبا بكر فقال : إلّا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا .

أقول : نقد البحث في مضامين الآيات الحافّة بالقصّة وما ينضمّ إليها من النقل الصحيح يوجب سوء الظنّ بهذه الرواية فإنّ الآيات الّتي تذمّ المؤمنين ـ أو الناس كلّهم كما في الرواية ـ وإليها تشير آية الغار بما فيها من قوله : « إلّا تنصروه » هي قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا ما لكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل الله اثّاقلتم إلى الأرض » الآية و النقل القطعيّ يدلّ على أنّ التثاقل المذكور لم يكن من عامّة المؤمنين وجميعهم، وأنّ كثيراً منهم سارع إلى إجابة الرسول صلى الله عليه وآله فيما أمر به من النفر، وإنّما تثاقل جماعة من الناس من مؤمن ومنافق .

فخطاب « يا أيّها الّذين آمنوا » الشامل لجميع المؤمنين ، والذمّ المتعقّب له إنّما هو من خطاب الجماعة بشأن بعضهم كخطاب اليهود بقوله : « فلم تقتلون أنبياء الله » البقرة : ٩١ وغيره ، وهو كثير في القرآن غير أنّ ديدن القرآن في مثل هذه الموارد أن لا يضيع حقّ الصالحين ولا أجر المحسنين أعني الأقلّين الّذين تعمّهم أمثال هذه الخطابات العامّة بالذمّ والتوبيخ فيتدارك أمرهم ويستثنيهم ويذكرهم بالجميل كما فعل ذلك فيما سيأتي في هذه السورة من الآيات المادحة للمؤمنين الشاكرة لجميل مساعيهم بقوله : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » الآية وغيره .

وإذا كانت الآيات ـ وقد نزلت في غزوة تبوك ـ تعمّ المؤمنين جميعاً المسارعين في الخروج والمتثاقلين فيه من غير استثناء فهي تشمل عامّة الصحابة والمؤمنين وفيهم أبو بكر نفسه غير أنّه تعالى تدارك ما لحق بالمسارعين في الطاعة والإجابة منهم في آيات تالية و شكر سعيهم .

فلو كان قوله في الآية : « إلّا تنصروه » وهو يشير إلى ما تقدّم من حديث التثاقل ويؤمي إليه ذمّاً للناس كلّهم كان ذمّاً لأبي بكر كما هو ذمّ لغيره بعدم نصرتهم للنبيّ صلّى الله عليه وآله أو تثاقلهم في نصره ، ومع ذلك لا تسمح الآية بالدلالة على نصر أبي بكر له صلّى الله عليه وآله بما فيها من قوله : « فقد نصره الله إذ أخرجه الّذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إنّ الله معنا » بل لو دلّ لدلّ على نصر النبيّ صلّى الله عليه وآله لأبي بكر حيث طيّب قلبه وسلّاه بقوله : « لا تحزن إنّ الله معنا » .

على أنّك قد عرفت في البيان السابق أنّ الآية بمقتضى المقام لا تتعرّض إلّا لنصر الله سبحانه وحده نبيّه صلّى الله عليه وآله بعينه وشخصه ، قبال ما يفرض من عدم نصر كافّة المؤمنين له و خذلانهم إيّاه فدلالة الآية على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله يوم الغار لم ينصره إلّا الله سبحانه وحده دلالة قطعيّة .

وهذا المعنى في نفسه أدلّ شاهد على أنّ الضمائر في تتمّة جمل الآية : « فأنزل الله سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى و كلمة الله هي العليا » للنبيّ صلّى الله عليه وآله ، والجمل مسوقة لبيان قيامه تعالى وحده بنصره نصراً عزيزاً غيبيّاً لا صنع

فيه لأحد من الناس فيه ، وهو إنزال السكينة عليه وتأييده بجنود غائبة عن الأبصار ، و جعل كلمة الّذين كفروا السفلى وإعلاء كلمة الحقّ والله عزيز حكيم .

وأمّا غير نصره النبيّ صلى الله عليه وآله من المناقب الّتي يمدح الإنسان عليها فلو كان هناك شيء من ذلك لكان هو ما في قوله : « ثاني اثنين » وما في قوله : «لصاحبه» فلنسلّم أنّ كون الإنسان ثانياً لاثنين أحدهما النبيّ صلى الله عليه وآله ، و كونه صاحباً للنبيّ صلى الله عليه وآله مذكوراً في القرآن بالصحبة من المفاخر الّتي يتنفّس لها لكنّها من المناقب الاجتماعيّة الّتي تقدّر لها في المجتمعات قيمة ونفاسة ، وأمّا القرآن الكريم فللقيمة فيه ملاك آخر ، وللفضل والشرف في منطقه معنى آخر متّكىء على حقيقة هي أعلى من المقاصد الوضعيّة الاجتماعيّة ، وهي كرامة العبوديّة ودرجات القرب والزلفى .

ومجرّد الصحابة الجسمانيّة والدخول في العدد لا يدلّ على شيء من ذلك ، وقد تكرّر في كلامه تعالى أنّ التسمّي بمختلف الأسماء والتلبّس بما يتنفّس فيه عامّة الناس ويستعظمه النظر الاجتماعيّ لا قيمة له عند الله سبحانه ، وأنّ الحساب على ما في القلوب دون ما يتراءاى من ظواهر الأعمال وتقدّمه الأحساب والأنساب .

وقد أفصح عنه في مورد أصحاب النبيّ صلى الله عليه وآله و ملازميه خاصّة بأبلغ الإفصاح قوله تعالى : « محمّد رسول الله و الّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم تراهم ركّعاً سجّداً ـ إلى أن قال ـ وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً» الفتح : ٢٩ فانظر إلى ما في صدر الآية من المدح وما في ذيله من القيد وتدبّر .

هذه نبذة ممّا يتعلّق بالآية والرواية من البحث ، والزائد على هذا المقدار يخرجنا من البحث التفسيريّ إلى البحث الكلاميّ الّذي هو خارج عن غرضنا .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل وابن عساكر في تاريخه عن ابن عبّاس في قوله : « فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر لأنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم يزل السكينة معه .

و فيه أخرج الخطيب في تاريخه عن حبيب بن أبي ثابت : « فأنزل الله سكينته عليه » قال : على أبي بكر فأمّا النبيّ صلى الله عليه وآله فقد كانت عليه السكينة .

أقول : قد حقّق فيما تقدّم أنّ الضمير راجع إلى النبيّ صلى الله عليه وآله على مايهدي إليه السياق ، والروايتان على ما بهما من الوقف ضعيفتان ، ولا حجّيّة لقول ابن عبّاس ولا حبيب لغيرهما .

وأمّا الحجّة الّتي أورداها فيهما وهي أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله لم تنزل السكينة معه فمدخولة يدفعها قوله تعالى في قصّة حنين : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله و على المؤمنين » الآية : التوبة : ٢٦ ونظيرته آية سورة الفتح المشيرة إلى قصّة الحديبية وهما تصرّحان بنزول السكينة عليه صلى الله عليه وآله في خصوص المورد فليكن الأمر على تلك الوتيرة في الغار .

وكأنّ بعضهم[1] أحسّ بالإشكال فحمل قولهما في الروايتين : أنّ السكينة لم تنزل مع النبيّ صلى الله عليه وآله على معنى آخر وهو كون السكينة ملازمة للنبيّ صلى الله عليه وآله في الغار فيكون قرينة على كون الّتي نزلت فيه إنّما نزلت على صاحبه دونه ، ولعلّ رواية حبيب أقرب دلالة على ما ذكره .

قال بعد إيراد رواية ابن عبّاس ثمّ رواية حبيب : وقد أخذ بهذه الرواية بعض مفسّري اللّغة والمعقول ووضّحوا ما فيها من التعليل بأنّه صلى الله عليه وآله لم يحدث له وقتئذ اضطراب ولا خوف ولا حزن ، وقوّاها بعضهم بأنّ الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور . وليس هذا بشيء .

وذهب آخرون إلى أنّ الضمير يعود إلى النبيّ صلى الله عليه وآله وأنّ إنزال السكينة عليه لا يقتضي أن يكون خائفاً أو مضطرباً أو منزعجاً . و هذا ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتّبه عليه ، وأنّ نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى .

أمّا ما ذكروه من عدم طروّ خوف واضطراب عليه صلى الله عليه وآله وقتئذ فإن كانوا استفادوه من عدم ذكر شيء من ذلك في الآية أو في رواية معتمد عليها فكلامه تعالى في قصّة حنين و الحديبية أيضاً خال عن ذكر النبيّ صلى الله عليه وآله بخوف أو حزن أو اضطراب ، ولم ترد رواية

(١) صاحب المنار في تفسيره .

معتمد عليها تدلّ على ذلك فكيف استقام ذكر نزول السكينة عليه صلى الله عليه وآله فيهما !؟

و إن قالوا باستلزام إنزال السكينة الاضطراب والخوف والحزن فهو ممنوع كما تقدّم ، كيف ؟ ونزول نعمة من النعم الإلهيّة لايتوقّف على سبق الاتّصاف بحالة مضادّة لها و نقمة مقابلة لها كنزول الرحمة بعد الرحمة والنعمة بعد النعمة والإيمان والهداية بعد الإيمان و الهداية وغير ذلك ، وقدنصّ القرآن الكريم باُمور كثيرة من هذا القبيل .

وأمّا قوله : إنّ رجوع الضمير إلى النبيّ صلى الله عليه وآله ضعيف لعطف إنزال السكينة على ما قبلها الدالّ على وقوعه بعده وترتّبه عليه وأنّ نزولها وقع بعد قوله لصاحبه : لا تحزن . انتهى.

ففيه : أنّه لا ريب أنّ فاء التفريع تدلّ على ترتّب ما بعدها على ما قبلها و وقوعه بعده لكن بعديّة رتبيّة لا بعديّة زمانيّة ولم يقل أحد بوجوب كونها زمانيّة دائماً .

فمن الواجب فيما نحن فيه أن يترتّب قوله : « فأنزل الله سكينته عليه و أيّده » على ما تقدّم عليه من الكلام لاعلى ما هو أقرب إليه من غيره إلّا على القول بأنّ الأصل في الضمير أن يعود إلى أقرب مذكور ، وقد ضعّفه في سابق كلامه .

والّذي يصلح من سابق ليتعلّق به التفريع المذكور هو قوله : فقد نصره الله في كذا و كذا وقتاً وتفرّع هذه الفروع عليه من قبيل تفرّع التفصيل على الإجمال والسياق على استقامته : « فقد نصره الله في وقت كذا فأنزل سكينته عليه وأيّده بجنود لم تروها وجعل كلمة الّذين كفروا السفلى .

فظهر أنّ ما أجاب به أخيراً هو عين ما ضعّفه أوّلاً من حديث أصل قرب المرجع من الضمير ـ ذاك الأصل الّذي لا أصل له ـ كرّره ثانياً بتغيير مّا في اللفظ .

ومن هنا يظهر جهة المناقشة في رواية اُخرى رواها في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن أنس بن مالك « قال : دخل النبيّ صلى الله عليه وآله وأبو بكر غار حراء فقال أبو بكر للنبيّ صلى الله عليه وآله لو أنّ أحدهم يبصر موضع قدمه لأبصرني وإيّاك فقال : ما ظنّك باثنين الله ثالثهما إنّ الله أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود لم تروها » .

على أنّ الرواية تذكر غار حراء وقد ثبت بالمستفيض المتكاثر من الأخبار أنّ الغار

كان غار ثور لا غار حراء .

على أنّ الرواية مشتملة على تفكيك السياق صريحاً بما فيها من قوله : أنزل سكينته عليك وأيّدني بجنود ، الخ .

وقد أورد الآلوسيّ في روح المعاني الرواية هكذا : « إنّ الله أنزل سكينته عليك وأيّدك بجنود لم تروها » فأرجع الضميرين إلى أبي بكر دون النبيّ صلى الله عليه وآله .

ولا ندري أيّ اللفظين هو الأصل و أيّهما المحرّف غير أنّه يضاف على رواية « وأيّدك بجنود لم تروها » إلى ما ذكر من الإشكال آنفاً إشكالات اُخرى تقدّمت في البيان السابق مضافاً إلى إشكال آخر جديد من جهة قوله : « لم تروها » بخطاب الجمع ولا مخاطب يومئذ جمعاً .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « لوكان عرضاً قريباً و سفراً قاصداً » في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « لوكان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً» يقول : غنيمة قريبة « لاتّبعوك » .

وفي تفسير العيّاشيّ عن زرارة و حمران ومحمد بن مسلم ، عن أبي جعفر و أبي عبدالله عليهما السلام في قول الله : « لو كان عرضاً قريباً و سفراً قاصداً لاتّبعوك » الآية إنّهم يستطيعون وقد كان في علم الله أنّه لوكان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لفعلوا .

أقول : و رواه الصدوق في المعاني بإسناده عن عبدالأعلى بن أعين عن أبي عبدالله عليه السلام مثله .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ولكن بعدت عليهم الشقّة » يعني إلى تبوك وسبب ذلك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله لم يسافر سفراً أبعد منه ولا أشدّ منه .

و كان سبب ذلك أنّ الصيّافة كانوا يقدمون المدينة من الشام و معهم الدرموك والطعام ، وهم الأنباط فأشاعوا بالمدينة أنّ الروم قد اجتمعوا يريدون غزو رسول الله صلى الله عليه وآله في عسكر عظيم ، وأنّ هرقل قد سار في جمع جنوده ، وجلب معهم غسّان وجذام وبهراء و عاملة ، وقد قدّم عساكره البلقاء ونزل هو حمص .

فأرسل رسول الله صلى الله عليه وآله أصحابه إلى تبوك وهي من بلاد البلقاء ، وبعث إلى القبائل

حواله ، وإلى مكّة ، وإلى من أسلم من خزاعة ومزينة وجهينة فحثّهم على الجهاد .

وأمر رسول الله ﷺ بعسكره فضرب في ثنيّة الوداع ، وأمر أهل الجدّة أن يعينوا من لا قوّة به ؛ ومن كان عنده شيء أخرجه ، و حملوا و قوّوا و حثّوا على ذلك .

و خطب رسول الله ﷺ وقال بعد حمد الله والثناء عليه : أيّها الناس إنّ أصدق الحديث كتاب الله ، وأولى القول كلمة التقوى ، و خير الملل ملّة إبراهيم ، و خير السنن سنّة محمّد ، وأشرف الحديث ذكر الله ، وأحسن القصص هذا القرآن ، وخير الاُمور عزائمها وشرّ الاُمور محدثاتها ، وأحسن الهدى هدى الأنبياء ، وأشرف القتلى الشهداء ، وأعمى العمى الضلالة بعد الهدى ، وخير الأعمال ما نفع ، وخير الهدى ما اتّبع ، وشرّ العمى عمى القلب واليد العليا خير من اليد السفلى ، وما قلّ و كفى خير ممّا كثر وألهى ، و شرّ المعذرة محضر الموت ، وشرّ الندامة يوم القيامة ، ومن الناس من لا يأتي الجمعة إلّا نزراً ، ومنهم من لا يذكر الله إلّا هجراً ، ومن أعظم الخطايا اللسان الكذب ، وخير الغنى غنى النفس ، وخير الزاد التقوى، ورأس الحكمة مخافة الله ، وخير ما اُلقي في القلب اليقين ؛ والارتياب من الكفر ، والتباعد من عمل الجاهليّة ، والغلول من قيح جهنّم ، والسكر جمر النار ، والشعر من إبليس، والخمر جمّاع الإثم ، والنساء حبائل إبليس ، والشباب شعبة من الجنون وشرّ المكاسب كسب الربا ، وشرّ الأكل أكل مال اليتيم ، والسعيد من وعظ بغيره ، والشقيّ من شقي في بطن اُمّه ، وإنّما يصير أحدكم إلى موضع أربعة أذرع ، والأمر إلى آخره وملاك الأمر خواتيمه ، وأربى الربا الكذب ، و كلّما آت هو قريب ، وسباب المؤمن فسوق وقتال المؤمن كفر ، وأكل لحمه من معصية الله ، وحرمة ماله كحرمة دمه ، ومن توكّل على الله كفاه ، ومن صبر ظفر ، ومن يعف يعف الله عنه ، ومن كظم الغيظ آجره الله ، ومن يصبر على الرزيّة يعوّضه الله ، ومن تبع السمعة يسمع الله به ، ومن يصم يضاعف الله له ، و من يعص الله يعذّبه ؛ اللّهمّ اغفر لي و لاُمّتي . اللهمّ اغفر لي و لاُمّتي أستغفر الله لي ولكم .

قال : فرغب الناس في الجهاد لمّا سمعوا هذا من رسول الله ، و قدمت القبائل من

العرب ممّن استنفرهم ، و قعد عنه قوم من المنافقين و غيرهم ، ولقي رسول الله صلى الله عليه وآله الجدّ بن قيس فقال له : يا أبا وهب ألا تنفر معنا في هذه الغزاة ؟ لعلّك أن تحتفد من بنات الأصفر فقال يا رسول الله والله إنّ قومي ليعلمون أن ليس فيهم أشدّ عجباً بالنساء منّي وأخاف إن خرجت معك أن لا أصبر إذا رأيت بنات الأصفر فلا تفتنّي وائذن لي أن اُقيم . وقال للجماعة من قومه : لا تخرجوا في الحرّ .

فقال ابنه : ترد على رسول الله و تقول له ما تقول ثمَّ تقول لقومك : لا تنفروا في الحرّ والله لينزلنّ الله في هذا قرآناً يقرؤه الناس إلى يوم القيامة فأنزل الله على رسوله صلى الله عليه وآله في ذلك : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا و إنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » .

ثمّ قال الجدّ بن قيس : أيطمع محمّد أنّ حرب الروم مثل حرب غيرهم . لا يرجع من هؤلاء أحد أبداً .

أقول : و قد روي هذه المعاني في روايات اُخرى كثيرة من طرق الشيعة و أهل السنّة .

وفي العيون بإسناده عن عليّ بن محمّد بن الجهم قال : حضرت مجلس المأمون وعنده الرضا عليّ بن موسى عليه السلام فقال له : يا ابن رسول الله أليس من قولك : إنّ الأنبياء معصومون؟ قال : بلى؛ فقال له المأمون - فيما سأله - يا أبا الحسن فأخبرني عن قول الله تعالى : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » .

قال الرضا عليه السلام : هذا ممّا نزل: إيّاك أعني واسمعي ياجارة ، خاطب الله تعالى بذلك نبيّه وأراد به اُمّته ، و كذلك قوله عزّ وجلّ : « لئن أشركت ليحبطنّ عملك ولتكوننّ من الخاسرين » ، وقوله تعالى : « ولولا أن ثبّتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً » . قال : صدقت يا ابن رسول الله .

أقول : ومضمون الرواية ينطبق على ما قدّمناه في بيان الآية ، دون ما ذكروه من كون إذنه صلى الله عليه وآله لهم في القعود من قبيل ترك الأولى فإنّه لا يستقيم معه كون الآية

من قبيل «إيّاك أعني واسمعي يا جارة» .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق في المصنّف ؛ وابن جرير ، عن عمرو بن ميمون الأوديّ قال : اثنتان فعلهما رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لم يؤمر فيهما بشيء : إذنه للمنافقين ، وأخذه من الأُسارى فأنزل الله : « عفا الله عنك لم أذنت لهم » الآية .

أقول : وقد تقدّم الكلام على مضمون الرواية .

و في تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » الآية وما بعدها قال : وتخلّف عن رسول الله ﷺ أهل نيّات وبصائر لم يكن يلحقهم شكّ ولا ارتياب ولكنّهم قالوا : نلحق برسول الله ﷺ .

منهم أبوخيثمة وكان قويّاً و كان له زوجتان وعريشان ، و كانتا زوجتاه قد رشّتا عريشتيه ، وبرّدتا له الماء ، وهيّأتا له طعاماً فأشرف على عريشتيه فلمّا نظر إليهما قال : لا والله ماهذا بإنصاف ، رسول الله قد غفر الله له ما تقدّم من ذنبه وما تأخّر قد خرج في الفيح والريح ، و قد حمل السلاح يجاهد في سبيل الله ، وأبوخيثمة قويّ قاعد في عريشة وامرأتين حسناوين لا والله ما هذا بإنصاف .

ثمّ أخذ ناقته فشدّ عليها رحله و لحق برسول الله ﷺ فنظر الناس إلى راكب على الطريق فأخبروا رسول الله ﷺ بذلك فقال رسول الله ﷺ : كن أبا خيثمة فأقبل ، وأخبر النبيّ بما كان منه فجزّاه خيراً ودعا له .

وكان أبوذرّ تخلّف عن رسول الله ثلاثة أيّام و ذلك أنّ جمله كان أعجف ، فلحق بعد ثلاثة أيّام به و وقف عليه جمله في بعض الطريق فتركه وحمل ثيابه على ظهره فلمّا ارتفع النهار نظر المسلمون إلى شخص مقبل فقال رسول الله ﷺ : كن أبا ذرّ فقالوا : هو أبوذرّ فقال رسول الله ﷺ أدركوه فإنّه عطشان فأدركوه بالماء .

ووافى أبوذرّ رسول الله ﷺ و معه إداوة فيها ماء فقال رسول الله ﷺ : ياأبا ذرّ معك ماء وعطشت ؟ قال : نعم يا رسول الله بأبي أنت واُمّي انتهيت إلى صخرة عليها ماء السماء فذقته فإذا هو عذب بارد فقلت : لا أشربه حتّى يشرب رسول الله .

فقال رسول الله ﷺ : يا أباذرّ رحمك الله ، تعيش وحدك ، و تموت و حدك ، وتبعث

وحدك ، وتدخل الجنّة وحدك ، يسعد بك قوم من أهل العراق يتولّون غسلك وتجهيزك والصلاة عليك و دفنك ،

ثمّ قال : وقد كان تخلّف عن رسول الله صلى الله عليه وآله قوم من المنافقين و قوم من المؤمنين مستبصرين لم يعثر عليهم في نفاق : منهم كعب بن مالك الشاعر ومُرارة بن الربيع وهلال بن أُميّة الرافعيّ فلمّا تاب الله عليهم قال كعب : ما كنت قطّ أقوى منّي في ذلك الوقت الّذي خرج رسول الله صلى الله عليه وآله إلى تبوك ، وما اجتمعت لي راحلتان قطّ إلّا في ذلك اليوم ، و كنت أقول : أخرج غداً بعد غد فإنّي مقوّى ، وتوانيت وثقلت بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وآله أيّاماً أدخل السوق ولا أقضي حاجة فلقيت هلال بن اُميّة ومرارة بن الربيع و قد كانا تخلّفا أيضاً فتوافقنا أن نبكر إلى السوق ؛ فلم نقض حاجة فما زلنا نقول : نخرج غداً وبعد غد حتّى بلغنا إقبال رسول الله صلى الله عليه وآله فندمنا .

فلمّا وافى رسول الله صلى الله عليه وآله استقبلناه نهنّئه السلامة فسلّمنا عليه فلم يردّ علينا السلام و أعرض عنّا ، و سلّمنا على إخواننا فلم يردّوا علينا السلام فبلغ ذلك أهلونا فقطعوا كلامنا ؛ وكنّا نحضر المسجد فلا يسلّم علينا أحد ولا يكلّمنا فجاءت نساؤنا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقلن : قد بلغنا سخطك على أزواجنا أفنعتزلهم ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : لا تعتزلنّهم ولكن لا يقربوكنّ ،

فلمّا رأى كعب بن مالك وصاحباه ماقد حلّ بهم قالوا : مايقعدنا بالمدينة ولا يكلّمنا رسول الله صلى الله عليه وآله ولا إخواننا ولا أهلونا ؟ فهلمّوا نخرج إلى هذا الجبل فلا نزال فيه حتّى يتوب الله علينا أو نموت .

فخرجوا إلى ذباب -جبل بالمدينة- فكانوا يصومون وكان أهلوهم يأتونهم بالطعام فيضعونه ناحية ثمّ يولّون عنهم ولا يكلّمونهم .

فبقوا على هذا أيّاماً كثيرة يبكون بالليل والنهار ويدعون الله أن يغفر لهم فلمّا طال عليهم الأمر قال لهم كعب : يا قوم قد سخط الله علينا ورسوله ، وقد سخط علينا أهلونا ،

وإخواننا قد سخطوا علينا فلا يكلّمنا أحد فلم لا يسخط بعضنا على بعض؟ فتفرّقوا في الجبل وحلفوا أن لا يكلّم أحد منهم صاحبه حتّى يموت أو يتوب الله عليه فبقوا على ذلك ثلاثة أيّام ؛ وكلّ واحد منهم في ناحية من الجبل لا يرى أحد منهم صاحبه ولا يكلّمه .

فلمّا كان في الليلة الثالثة ، ورسول الله صلى الله عليه وآله في بيت اُمّ سلمة نزلت توبتهم على رسول الله صلى الله عليه وآله قوله : « لقد تاب الله بالنبيّ على المهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه السلام : هكذا نزلت وهو أبوذرّ وأبوخيثمة وعمير بن وهب الّذين تخلّفوا ثمّ لحقوا برسول الله صلى الله عليه وآله .

ثمّ قال في هؤلاء الثلاثة : « وعلى الثلاثة الّذين خلّفوا » فقال العالم عليه السلام : إنّما اُنزل : على الثلاثة الّذين خالفوا ولو خلّفوا لم يكن عليهم عيب « حتّى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت » حيث لا يكلّمهم رسول الله صلى الله عليه وآله ولا إخوانهم ولا أهلوهم فضاقت عليهم المدينة حتّى خرجوا منها « وضاقت عليهم أنفسهم » حيث حلفوا أن لا يكلّم بعضهم بعضاً فتفرّقوا وتاب الله عليهم لما عرف من صدق نيّاتهم .

أقول : وسيأتي الكلام في الآيتين وما ورد فيهما من الروايات .

وفي تفسير العيّاشيّ عن المغيرة قال : سمعته يقول في قول الله عزّ وجلّ : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » ، قال : يعني بالعدّة النيّة ، يقول : « لو كان لهم نيّة لخرجوا .

أقول : الرواية على ضعفها وإرسالها وإضمارها لا تنطبق على لفظ الآية والله أعلم .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن إسحاق وابن المنذر عن الحسن البصريّ قال : كان عبدالله ابن اُبيّ وعبدالله بن نبتل ورفاعة بن زيد بن تابوت من عظماء المنافقين ، وكانوا ممّن يكيد الإسلام وأهله ، وفيهم أنزل الله : « لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الاُمور » إلى آخر الآية .

***

وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ ائْذَنْ لِى وَلَا تَفْتِنِّى أَلَا فِى الْفِتْنَةِ سَقَطُوا وَإِنَّ جَهَنَّمَ
لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ (٤٩) وَإِنْ تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ وَإِنْ تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا
قَدْ أَخَذْنَا أَمْرَنَا مِنْ قَبْلُ وَيَتَوَلَّوْا وَهُمْ فَرِحُونَ (٥٠) قُلْ لَنْ يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ
اللّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَيٰنَا وَعَلَى اللّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ (٥١) قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا
إِلَّا إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ أَوْ
بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ (٥٢) قُلْ أَنْفِقُوا طَوْعاً أَوْ كَرْهاً لَنْ يُتَقَبَّلَ
مِنْكُمْ إِنَّكُمْ كُنْتُمْ قَوْماً فَاسِقِينَ(٥٣) وَمَا مَنَعَهُمْ أَنْ تُقْبَلَ مِنْهُمْ نَفَقَاتُهُمْ إِلَّا أَنَّهُمْ
كَفَرُوا بِاللّهِ وَبِرَسُولِهِ وَلَا يَأْتُونَ الصَّلَاةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنْفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ
كَارِهُونَ (٥٤) فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا
فِى الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ (٥٥) وَيَحْلِفُونَ بِاللّهِ إِنَّهُمْ
لَمِنْكُمْ وَمَا هُمْ مِنْكُمْ وَلَكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ(٥٦) لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَأً أَوْ مَغَارَاتٍ
أَوْ مُدَّخَلًا لَوَلَّوْا إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ (٥٧) وَمِنْهُمْ مَنْ يَلْمِزُكَ فِى الصَّدَقَاتِ فَإِنْ
أُعْطُوا مِنْهَا رَضُوا وَإِنْ لَمْ يُعْطَوْا مِنْهَا إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ (٥٨) وَلَوْ أَنَّهُمْ
رَضُوا مَا آتَيٰهُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللّهُ سَيُؤْتِينَا اللّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ
إِنَّا إِلَى اللّهِ رَاغِبُونَ (٥٩) إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا
وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِى الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِى سَبِيلِ اللّهِ وَابْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً
مِنَ اللّهِ وَاللّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٦٠) وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِىَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ

قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَكُمْ يُؤْمِنُ بِاللّهِ وَ يُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَ رَحْمَةٌ لِلَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللّهِ لَهُمْ عَذابٌ أَلِيمٌ (٦١) يَحْلِفُونَ بِاللّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللّهُ وَ رَسُولُهُ أَحَقُّ أَنْ يُرْضُوهُ إِنْ كانُوا مُؤْمِنِينَ (٦٢) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَنْ يُحادِدِ اللّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نارَ جَهَنَّمَ خالِداً فِيها ذٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ (٦٣).

﴿ بيان ﴾

الآيات تعقّب القول في المنافقين و بيان حالهم و فيها ذكر أشياء من أقوالهم و أفعالهم ، والبحث عمّا يكشف عنه من خبائث أوصافهم الباطنة و اعتقاداتهم المبنيّة على الضلال .

قوله تعالى : « و منهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي ألا في الفتنة سقطوا » الآية الفتنة ههنا ـ على ما يهدي إليه السياق ـ إمّا الإلقاء إلى ما يفتتن ويغرّ به ، وإمّا الإلقاء في الفتنة والبليّة الشاملة .

والمراد على الأوّل : ائذن لي في القعود وعدم الخروج إلى الجهاد ، ولا تلقني في الفتنة بتوصيف ما في هذه الغزوة من نفائس الغنائم ومشتهيات الأنفس فأفتتن بها وأضطرّ إلى الخروج ، وعلى الثاني ائذن لي ولا تلقني إلى ما في هذه الغزوة من المحنة والمصيبة والبليّة .

فأجاب الله عن قولهم بقوله : « ألا في الفتنة سقطوا » ومعناه أنّهم يحترزون بحسب زعمهم عن فتنة مترقّبة من قبل الخروج ، وقد أخطؤوا فإنّ الّذي هم عليه من الكفر والنفاق وسوء السريرة ، ومن آثاره هذا القول الّذي تفوّهوا به هو بعينه فتنة سقطوا فيها فقد فتنهم الشيطان بالغرور ، ووقعوا في مهلكة الكفر والضلال وفتنته .

هذا حالهم في هذه النشأة الدنيويّة وأمّا في الآخرة فإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين

على حذو إحاطة الفتنة بهم في الدنيا وسقوطهم فيها فقوله : « ألا في الفتنة سقطوا » وقوله : « وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » كأنّهما معاً يفيدان معنى واحداً وهو أنّ هؤلاء واقعون في الفتنة والتهلكة أبداً في الدنيا والآخرة .

ويمكن أن يفهم من قوله : « وإنّ جهنّم لمحيطة بالكافرين » الإحاطة بالفعل دون الإحاطة الإستقباليّة كما تهدي إليه الآيات الدالّة على تجسّم الأعمال .

قوله تعالى : « إن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك سيّئة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل » المراد بالحسنة والسيّئة بقرينة السياق ما تتعقّبه الحروب والمغازي لأهلها من حسنة الفتح والظفر والغنيمة والسبي ، ومن سيّئة القتل والجرح والهزيمة .

و قوله : « يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل » كناية عن الاحتراز عن الشرّ قبل وقوعه كأنّ أمرهم كان خارجاً من أيديهم فأخذوه وقبضوا وتسلّطوا عليه فلم يدعوه يفسد ويضيع .

فمعنى الآية أنّ هؤلاء المنافقين هواهم عليك: إن غنمت وظفرت في وجهك هذا ساءهم ذلك ، وإن قتلت أو جرحت أو اُصبت بأيّ مصيبة اُخرى قالوا قد احترزنا عن الشرّ من قبل وتولّوا وهم فرحون .

وقد أجاب الله سبحانه عن ذلك بجوابين اثنين في آيتين : قوله : « قل لن يصيبنا » الخ وقوله : « قل هل تربّصون » الخ .

قوله تعالى : « قل لن يصيبنا إلّا ما كتب الله لنا هو مولانا و على الله فليتوكّل المؤمنون » محصّله أنّ ولاية أمرنا إنّما هي لله سبحانه فحسب - على ما يدلّ عليه قوله : « هو مولانا » من الحصر - لا إلى أنفسنا ولا إلى شيء من هذه الأسباب الظاهرة ، بل حقيقة الأمر لله وحده وقد كتب كتابة حتم ما سيصيبنا من خير أو شرّ أو حسنة أو سيّئة ، و إذا كان كذلك فعلينا امتثال أمره والسعي لإحياء أمره والجهاد في سبيله ولله المشيّة فيما يصيبنا في ذلك من حسنة أو سيّئة فما على العبيد إلّا ترك التدبير وامتثال الأمر و هو التوكّل .

وبذلك يظهر: أنّ المراد بقوله : « وعلى الله فليتوكّل المؤمنون » ليس كلاماً مستأنفاً

بل معطوف على ما قبله متمّم له ، والمعنى أنّ ولاية أمرنا لله ونحن مؤمنون به ، و لازمه أن نتوكّل عليه ونرجع الأمر إليه من غير أن نختار لأنفسنا شيئاً من الحسنة والسيّئة فلو أصابتنا حسنة كان المنّ له وإن أصابتنا سيّئة كانت المشيّة والخيرة له ، ولا لوم علينا ولا شماتة تتعلّق بنا ، ولا حزن ولا مساءة يطرء على قلوبنا .

وقد قال تعالى : «ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلّا في كتاب من قبل أن نبرأها إنّ ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم » الحديد : ٢٣ ، وقال : «ما أصاب من مصيبة إلّا بإذن الله ومن يؤمن بالله يهد قلبه» التغابن : ١١ وقال : « ذلك بأنّ الله مولى الّذين آمنوا » سورة محمد : ١١ ، وقال : « والله وليّ المؤمنين » آل عمران : ٦٨ ، وقال : « فالله هو الوليّ » الشورى : ٩ .

والآيات ـ كما ترى ـ تتضمّن اُصول هذه الحقيقة الّتي تنبىء عنه الآية الّتي نتكلّم فيها جواباً عن وهم المنافقين ، وهي أنّ حقيقة الولاية لله سبحانه ليس إلى أحد من دونه من الأمر شيء فإذا آمن الإنسان به وعرف مقام ربّه علم ذلك و كان عليه أن يتوكّل على ربّه ويرجع إليه حقيقة المشيّة والخيرة فلا يفرح بحسنة أصابته ، ولا يحزن لسيّئة أصابته .

ومن الجهل أن يسوء الإنسان ما أصابت عدوّه من حسنة أو يسرّه ما أصابته من سيّئة فليس له من الأمر شيء ، وهذا هو الجواب الأوّل عن مساءتهم بما أصاب المؤمنين من الحسنة وفرحهم بما أصابتهم من السيّئة .

وظاهر كلام بعض المفسّرين أنّ المولى في الآية بمعنى الناصر ، و كذا ظاهر كلام بعضهم : أنّ قوله : « وعلى الله فليتوكّل المؤمنون » جملة مستأنفة أمر الله فيها المؤمنين بالتوكّل عليه ، والسياق المشهود من الآيتين لا يساعد عليه .

قوله تعالى : « قل هل تربّصون بنا إلّا إحدى الحسنيين ونحن نتربّص بكم » الآية الحسنيان هما الحسنة والسيّئة على ما يدلّ عليه الآية الاُولى الحاكية أنّهم يسوؤهم ما أصاب النبيّ صلى الله عليه وآله من حسنة ، و تسرّهم ما أصابه من سيّئة فيقولون قد أخذنا أمرنا من قبل فهم على حال تربّص ينتظرون ما يقع به وبالمؤمنين من الحسنة أو السيّئة .

والحسنة والسيّئة كلتاهما حسنيان بحسب النظر الديني فإنّ في الحسنة حسنة الدنيا وعظيم الأجر عند الله ، و في السيّئة الّتي هي الشهادة أو أيّ تعب و عناء أصابهم مرضاة الله وثواب خالد دائم .

ومعنى الآية أنّا نحن وأنتم كلّ يتربّص بصاحبه غير أنّكم تتربّصون بنا إحدى خصلتين كلّ واحدة منهما خصلة حسنى وهما : الغلبة على العدوّ مع الغنيمة ، والشهادة في سبيل الله ، ونحن نتربّص بكم أن يعذّبكم الله بعذاب من عنده كالعذاب السماويّ أو بعذاب يجري بأيدينا كأن يأمرنا بقتالكم وتطهير الأرض من قذارة وجودكم فنحن فائزون على أيّ حال، إن وقع شيء ممّا تربّصتم سعدنا ، وإن وقع ما تربّصنا سعدنا فتربّصوا إنّا معكم متربّصون ، وهذا جواب ثان عن المنافقين .

و قد ذكر في الآية الأولى إصابة الحسنة و السيّئة النبيّ ﷺ ، و في مقام الجواب في الآيتين الثانية والثالثة إصابتهما النبيّ والمؤمنين جميعاً لملازمتهم إيّاه ومشاركتهم إيّاه فيما أصابه من حسنة أو سيّئة .

قوله تعالى : « قل أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبّل منكم إنّكم كنتم قوماً فاسقين » لفظ أمر في معنى الشرط . والترديد للتعميم ولفظ الأمر في هذه الموارد كناية عن عدم النهي وسدّ السبيل إيماءً إلى أنّ الفعل لغو لا يترتّب عليه أثر، وقوله : « لن يتقبّل منكم » تعليل للأمر كما أنّ قوله تعالى : « إنّكم كنتم قوماً فاسقين » تعليل لعدم القبول .

ومعنى الآية : لا نمنعكم عن الإنفاق في حال من طوع أو كره فإنّه لغو غير مقبول لأنّكم فاسقون ، ولا يقبل عمل الفاسقين ، قال تعالى : « إنّما يتقبّل الله من المتّقين » المائدة : ٢٧ والتقبّل أبلغ من القبول .

قوله تعالى : « وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلّا أنّهم كفروا بالله وبرسوله» الخ الآية تعليل تفصيليّ لعدم تقبّل نفقاتهم ، وبعبارة أُخرى بمنزلة الشرح لفسقهم ، و قد عدّت الكفر بالله تعالى و رسوله و الكسل في إقامة الصلاة و الكره في الإنفاق أركاناً لنفاقهم .

قوله تعالى: « فلا تعجبك أموالهم ولا أولادهم إنّما يريد الله ليعذّبهم بها » إلى آخر الآية ، الإعجاب بالشيء السرور بما يشاهدفيه من جمال أو كمال أو نحوهما ، والزهوق خروج الشيء بصعوبة وأصله الهلاك على ما قيل .

وقد نهى الله سبحانه نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم عن الإعجاب بأموال المنافقين وأولادهم أي بكثرتها على ما يعطيه السياق ، وعلّل ذلك بأنّ هذه الأموال والأولاد ـ وهي شاغلة للإنسان لا محالة ـ ليست من النعمة الّتي تهتف لهم بالسعادة بل من النقمة الّتي تجرّهم إلى الشقاء فإنّ الله و هو الّذي خوّلهم إيّاها إنّما أراد بها تعذيبهم في الحياة الدنيا ، و توفّيهم وهم كافرون .

فإنّ الحياة الّتي يعدّها الموجود الحيّ سعادة لنفسه و راحة لذاته إنّما تكون سعادة فيها الراحة والبهجة إذا جرت على حقيقة مجراها وهو أن يتلبّس الإنسان بواقع آثارها من العلم النافع والعمل الصالح من غير أن يشتغل بغير ما فيه خيره ونفعه ، فهذه هي الحياة الّتي لا موت فيها ، والراحة الّتي لا تعب معها ، واللّذة الّتي لا ألم دونها ، و هي الحياة في ولاية الله . قال تعالى : « ألا إنّ أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون » يونس : ٦٢ .

وأمّا من اشتغل بالدنيا وجذبته زيناتها من مال و بنين إلى نفسها و غرّته الآمال و الأمانيّ الكاذبة الّتي تتراءى له منها و استهوته الشياطين فقد وقع في تناقضات القوى البدنيّة وتزاحمات اللّذائذ المادّيّة ، وعذّب أشدّ العذاب بنفس ما يرى فيه سعادته ولذّته فمن المشاهد المعاين أنّ الدنيا كلّما زادت إقبالاً على الإنسان ، ومتّعته بكثرة الأموال والأولاد أبعدته عن موقف العبوديّة وقرّبته إلى الهلاكة وعذاب الروح فلا يزال يتقلّب بين هذه الأسباب الموافقة والمخالفة ، والأوضاع والأحوال الملائمة والمزاحمة؛ فالّذي يسمّيه هؤلاء المغفّلون سعة العيش هو بالحقيقة ضنك كما قال تعالى : « ومن أعرض عن ذكري فإنّ له معيشة ضنكاً ونحشره يوم القيامة أعمى * قال ربّ لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً * قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها و كذلك اليوم تنسى » طه : ١٢٦ .

فغاية إعراض الإنسان عن ذكر ربّه ، وانكبابه على الدنيا يبتغي به سعادة الحياة

وراحة النفس ولذّة الروح أن يعذّب بين أطباق هذه الفتن الّتي يراها نعماً ، ويكفر بربه بالخروج عن زيّ العبوديّة كما قال : « إنّما يريد الله ليعذّبهم بها وتزهق أنفسهم وهم كافرون » وهو الإملاء والاستدراج الّذين يذكرهما في قوله : « سنستدرجهم من حيث لا يعلمون وأُملي لهم إنّ كيدي متين » : الأعراف : ١٨٢ .

قوله تعالى : « ويحلفون بالله إنّهم لمنكم وماهم منكم » إلى آخر الآيتين الفرق انزعاج النفس من ضرر متوقّع ، والملجأ الموضع الّذي يلتجأ إليه ويتحصّن فيه ، والمغار المحلّ الّذي يغور فيه الإنسان فيستره عن الأنظار ، ويطلق على الغار وهو الثقب الّذي يكون في الجبال ، والمدّخل من الافتعال الطريق الّذي يتدسّس بالدخول فيه ، والجماح مضيّ المارّ مسرعاً على وجهه لا يصرفه عنه شيء ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن اُعطوا منها رضوا و إن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » اللمز العيب ، وإنّما كانوا يعيبونه فيها إذا لم يعطهم منها لعدم استحقاقهم ذلك أو لأسباب اُخر كما يدلّ عليه ذيل الآية .

قوله تعالى : ولو أنّهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله » إلى آخر الآية «لو» للتمنّي وقوله : « رضوا ما آتاهم الله » كأنّ الرضى ضمّن معنى الأخذ ولذا عدّي بنفسه أي أخذوا ذلك راضين به أو رضوا آخذين ذلك ، والإيتاء الإعطاء ، وحسبنا الله أي كفانا فيما نرغب إليه و نأمله .

و قوله : « سيؤتينا الله من فضله ورسوله » بيان لما يرغب إليه ويطمع فيه و ليس إخباراً عمّا سيكون ، و قوله : « إنّا إلى الله راغبون » كالتعليل لقوله : « سيؤتينا الله » إلى آخر الآية .

والمعنى وكان ممّا يتمنّى لهم أن يكونوا أخذوا ما أعطاهم الله ورسوله بأمر منه من مال الصدقات أو غيره ، وقالوا كفانا الله سبحانه من سائر الأسباب ونحن راغبون في فضله ونطمع أن يؤتينا من فضله ويؤتينا رسوله .

و في الآية ما لا يخفى من لطيف البيان حيث نسب الإيتاء إلى الله و إلى رسوله وخصّ الكفاية والفضل والرغبة بالله على ما هو لازم دين التوحيد .

قوله تعالى : « إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » الآية، بيان لموارد تصرف إليها الصدقات الواجبة وهي الزكوات بدليل قوله في آخر الآية : « فريضة من الله » وهي ثمانية موارد على ظاهر ما يعطيه سياق الآية و لازمه أن يكون الفقير والمسكين موردين أحدهما غير الآخر .

وقد اختلفوا في الفقير والمسكين أنّهما صنف واحد أو صنفان ، ثمّ على الثاني في معناهما على أقوال كثيرة لا ينتهي أكثرها إلى حجّة بيّنة ، والّذي يعطيه ظاهر لفظهما أنّ الفقير هو الّذي اتّصف بالعدم وفقدان مايرفع حوائجه الحيويّة من المال قبال الغنيّ الّذي اتّصف بالغنى و هو الجدة واليسار .

وأمّا المسكين فهو الّذي حلّت به المسكنة والذلّة مضافة إلى فقدان المال وذلك إنّما يكون بأن يصل فقره إلى حدّ يستذلّه بذلك كمن لا يجد بدّاً من أن يبذل ماء وجهه ويسأل كلّ كريم ولئيم من شدّة الفقر و كالأعمى والأعرج فالمسكين أسوء حالاً من الفقير .

والفقير والمسكين وإن كانا بحسب النسبة أعمّ وأخصّ فكلّ مسكين من جهة الحاجة الماليّة فقير ولا عكس غير أنّ العرف يراهما صنفين متقابلين لمكان مغايرة الوصفين في نفسهما فلا يرد أنّ ذكر الفقير على هذا المعنى مغن عن ذكر المسكين لمكان أعمّيّته وذلك أنّ المسكنة هي وصف الذلّة كالزمانة والعرج والعمى و إن كان بعض مصاديقه نهاية الذلّة من جهة فقد المال .

وأمّا العاملون عليها أي على الصدقات فهم الساعون لجمع الزكواة وجُباتها .

وأمّا المؤلّفة قلوبهم فهم الّذين يؤلّف قلوبهم بإعطاء سهم من الزكاة ليسلموا أو يدفع بهم العدوّ أو يستعان بهم على حوائج الدين .

وأمّا قوله : « وفي الرقاب » فهو متعلّق بمقدّر والتقدير : وللمصرف في الرقاب أي في فكّها كما في المكاتب الّذي لا يقدر على تأدية ما شرطه لمولاه على نفسه لعتقه أو الرقّ الّذي كان في شدّة .

وقوله : « والغارمين » أي وللمصرف في الغارمين الّذين ركبتهم الديون فيقضى ديونهم بسهم من الزكاة .

وقوله : « وفي سبيل الله » أي وللمصرف في سبيل الله ، وهو كلّ عمل عامّ يعود عائدته إلى الإسلام والمسلمين وتحفظ به مصلحة الدين و من أظهر مصاديقه الجهاد في سبيل الله ، ويلحق به سائر الأعمال الّتي تعمّ نفعه و تشمل فائدته كإصلاح الطرق و بناء القناطر و نظائر ذلك .

وقوله : « وابن السبيل » أي وللمصرف في ابن السبيل وهو المنقطع عن وطنه الفاقد لما يعيش به وإن كان غنيّاً ذا يسار في بلده فيرفع حاجته بسهم من الزكاة .

وقد اختلف سياق العدّ فيما ذكر في الآية من الأصناف الثمانية فذكرت الأربعة الأول باللام : « للفقراء و المساكين و العاملين عليها و المؤلّفة قلوبهم » ثمّ غيّر السياق في الأربعة الباقية فقيل : « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله و ابن السبيل » فإنّ ظاهر السياق الخاصّ بهذه الأربعة أنّ التقدير : وفي الرقاب وفي الغارمين وفي سبيل الله و في ابن السبيل .

أمّا الأربعة الأول : « للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم » فاللام فيها للملك بمعنى الاختصاص في التصرّف فإنّ الآية بحسب السياق كالجواب عن المنافقين الّذين كانوا يطمعون في الصدقات وهم غير مستحقّين لها و كانوا يلمزون النبيّ صلى الله عليه وآله في حرمانهم منها فاُجيبوا بالآية أنّ للصدقات مواضع خاصّة تصرف فيها ولا تتعدّاها ، و الآية ليست بظاهرة في أزيد من هذا المقدار من الاختصاص .

وأمّا كون ملكهم للصدقات هو الملك بمعناه المعروف فقهاً ؟ و كذا حقيقة هذا الملك مع كون المالكين أصنافاً بعناوينهم الصنفيّة لا ذوات شخصيّة ؟ ونسبة سهم كلّ صنف إلى بقيّة السهام ؟ فإنّما هي مسائل فقهيّة خارجة عن غرضنا ، وقد اختلفت أقوال الفقهاء فيها اختلافاً شديداً فليرجع إلى الفقه .

وأمّا الأربعة الباقية : « وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل » فقد قيل في تغيير السياق فيها وفي تأخيرها عن الأربعة الأول وجوه :

منها : أنّ الترتيب لبيان الأحقّ فالأحقّ من الأصناف ، فأحقّ الأصناف بها الفقراء ثمّ المساكين وهكذا على الترتيب ، ولكون الأربعة الأخيرة بحسب ترتيب الأحقّيّة واقعة في المراتب الأربع الأخيرة وضع كلّ في موضعه الخاصّ ، ولولا هذا الترتيب لكان الأنسب أن يذكر الأصناف ثمّ تذكر موارد المصالح فيقال : للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم والغارمين وابن السبيل ثمّ يقال : وفي الرقاب و سبيل الله .

والحقّ أنّ دلالة الترتيب بما فيه من التقديم و التأخير على أهمّيّة الملاك و قوّة المصلحة في أجزاء الترتيب لاريب فيه فإن كان مراده بالأحقّ فالأحقّ الأهمّ ملاكاً فالأهمّ فهو ، ولوكان المراد التقدّم والتأخّر من حيث الإعطاء و الصرف وما يشبه ذلك فلادلالة من جهة اللفظ عليه البتّة كما لايخفى والّذي أيّده به من الوجه لاجدوى فيه .

ومنها : أنّ العدول عن اللام في الأربعة الأخيرة إلى « في » للإيذان بأنّهم أرسخ في استحقاق التصدّق عليهم ممّن سبق ذكره لأنّ « في » للوعاء فنبّه على أنّهم أحقّاء بأن توضع فيهم الصدقات ويجعلوا مظنّة لها ومصبّاً ، وذلك لما في فكّ الرقاب من الكتابة أوالرقّ والأسر ، وفي فكّ الغارمين من الغرم والتخليص والانقاذ ، ولجمع الغازي الفقير أو المنقطع في الحجّ بين الفقر و العبادة ، و كذلك ابن السبيل جامع بين الفقر و الغربة عن الأهل والمال .

وتكرير « في » في قوله : « وفي سبيل الله وابن السبيل » فيه فضل ترجيح لهذين على الرقاب والغارمين . كذا ذكره في الكشّاف .

وفيه : أنّه معارض بكون الأربعة الأول مدخولة للام الملك فإنّ المملوك أشدّ لزوماً واتّصالاً بالنسبة إلى مالكه من المظروف بالنسبة إلى ظرفه ، وهوظاهر .

ومنها : أنّ الأصناف الأربعة الأوائل ملاّك لماعساه يدفع إليهم ، و إنّما يأخذونه ملكاً فكان دخول اللاّم لائقاً بهم ، وأمّا الأربعة الأواخر فلايملكون مايصرف نحوهم بل ولا يصرف إليهم ولكن في مصالح تتعلّق بهم .

فالمال الّذي يصرف في الرقاب إنّما يتناوله السادة المكاتبون والبائعون فليس نصيبهم مصروفاً إلى أيديهم حتّى يعبّر عن ذلك باللاّم المشعرة بتملّكهم لما يصرف نحوهم ، وإنّما

هم محال لهذا الصرف والمصلحة المتعلّقة به ، و كذلك الغارمون إنّما يصرف نصيبهم لأرباب ديونهم تخليصاً لذممهم لا لهم ، وأمّا سبيل الله فواضح ذلك فيه ، و أمّا ابن السبيل فكأنّه كان مندرجاً في سبيل[1] الله ، وإنّما اُفرد بالذكر تنبيهاً على خصوصيّته مع أنّه مجرّد من الحرفين جميعاً وعطفه على المجرور باللّام ممكن ولكنّه على القريب منه أقرب .

وهذا الوجه لا يخلو عن وجه غير أنّ إجراءه في ابن السبيل لا يخلو عن تكلّف ، وما ذكر من دخوله في سبيل الله هو وجه مشترك بينه وبين غيره .

ولو قال قائل بكون الغارمين و ابن السبيل معطوفين على المجرور باللام ثمّ ذكر الوجه الأوّل بالمعنى الّذي ذكرناه وجهاً للترتيب والوجه الأخير وجهاً لاختصاص الرقاب وسبيل الله بدخول «في» لم يكن بعيداً عن الصواب .

وقوله في ذيل الآية : « فريضة من الله والله عليم حكيم » إشارة إلى كون الزكاة فريضة واجبة مشرّعة على العلم والحكمة لا تقبل تغيير المغيّر ، ولا يبعد أن يتعلّق الغرض بتقسّمها إلى الأصناف الثمانية كما ربّما يؤيّده السياق فإنّ الغرض في الآية إنّما تعلّق ببيان مصارف الصدقات لا بفرض أصلها فالأنسب أن يكون قوله : « فريضة من الله » إشارة إلى أنّ تقسّمها إلى الأصناف الثمانية أمر مفروض من الله لا يتعدّى عنه على خلاف ما كان يطمع فيه المنافقون في لمزهم النبيّ صلى الله عليه وآله .

ومن هنا يظهر أنّ الآية لا تخلو عن إشعار بكون الأصناف الثمانية على سهمها من غير اختصاص بزمان دون زمان خلافاً لما ذكره بعضهم : أنّ المؤلّفة قلوبهم كانوا جماعة من الأشراف في زمن النبيّ صلى الله عليه وآله ألّف قلوبهم بإعطاء سهم من الصدقات إيّاهم ، و أمّا بعده صلى الله عليه وآله فقد ظهر الإسلام على غيره ، وارتفعت الحاجة إلى هذا النوع من التأليفات ، و هو وجه فاسد و ارتفاع الحاجة ممنوع .

قوله تعالى : « ومنهم الّذين يؤذون النبيّ ويقولون هو اُذن قل اُذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين ورحمة للّذين آمنوا منكم » الاُذن جارحة السمع المعروفة ، وقد أطلقوا

---

(١) • بل هو أيضاً كالغارمين و الرقاب لا يدفع إليه نصيبه و انما يصرف في المصلحة المتعلقة به من الزاد و اكتراء الراحلة حتى يصل إلى وطنه (ب) .

عليه صلى الله عليه وآله الأُذن وسمّوه بها إشارة إلى أنّه يصغي لكلّ ماقيل له ويستمع إلى كلّ ما يذكر له فهو اُذن .

وقوله : « قل اُذن خير لكم » من الإضافة الحقيقيّة أي سمّاع يسمع مافيه خير كم حيث يسمع من الله سبحانه الوحي وفيه خير لكم ، ويسمع من المؤمنين النصيحة وفيها خير لكم ويمكن أن يكون من إضافة الموصوف إلى الصفة أي اُذن هي خير لكم لأنّه لايسمع إلّا ماينفعكم ولايضرّكم .

والفرق بين الوجهين أنّ اللازم على الأوّل أن يكون مسموعه خيراً لهم كالوحي من الله والنصيحة من المؤمنين ، واللازم على الثاني أن يكون استماعه استماع خير و إن لم يكن مسموعه خيراً كأن يستمع إلى بعض ماليس خيراً لهم لكنّه يستمع إليه فيحترم بذلك قائله ثمّ يحمل ذلك القول منه على الصحّة فلايهتك حرمته ولا يسيء الظنّ به ثمّ لايرتّب أثر الخبر الصادق المطابق للواقع عليه فلا يؤاخذ من قيل فيه بما قيل فيه فيكون قد احترم إيمانه كما احترم إيمان القائل الّذي جاءه بالخبر .

ومن هنا يظهر أنّ الأنسب بسياق الآية هوالوجه الثاني لما عقّبه بقوله : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » الآية .

وذلك أنّ الإيمان هو التصديق ، وقدذكر متعلّق الإيمان في قوله : « يؤمن بالله » و أمّا قوله : « و يؤمن للمؤمنين » فلم يذكر متعلّقه و إنّما ذكر أنّ هذا التصديق لنفع المؤمنين لمكان اللام ، والتصديق الّذي يكون فيه نفع المؤمنين حتّى في الخبر الّذي يتضمّن ما يضرّهم إنّما هو التصديق بمعنى إعطاء الصدق المخبريّ دون الخبريّ أي فرض أنّ المخبر صادق بمعنى أنّه معتقد بصدق خبره و إن كان كاذباً لا يطابق الواقع .

وهذا كما في قوله تعالى : « إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنّك لرسول الله والله يعلم إنّك لرسوله والله يشهد إنّ المنافقين لكاذبون » المنافقون : ١ فالله سبحانه يكذّب المنافقين لا من حيث خبرهم برسالة النبيّ صلى الله عليه وآله بل من حيث إخبارهم بخلاف ما يعتقدونه وهذا بخلاف قول المؤمنين فيما حكى الله سبحانه : « ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله » الأحزاب : ٢٢ فهم يصدّقون الله ورسوله في

الخبر لا في الاعتقاد .

وبالجملة ظاهر قوله : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » أنّه يصدّق الله فيما أخبره به من الوحي ، ويصدّق لنفع المؤمنين كلّ من ألقى إليه منهم خبراً بحمل فعله على الصحّة وعدم رميه بالكذب وسوء النيّة من غير أن يرتّب أثراً على كلّ ما يسمعه ويستمع إليه وإلّا لم يكن تصديقه لنفع المؤمنين واختلّ الأمر ، و هذا المعنى كما ترى يؤيّد الوجه الثاني المذكور .

و كأنّ المراد بالمؤمنين المجتمع المنسوب إليهم و إن اشتمل على أفراد من غيرهم كالمنافقين وعلى هذا كان المراد بالّذين آمنوا منهم المؤمنون من قومهم حقّاً فمعنى الكلام أنّه يصدّق ربّه و يصدّق كلّ فرد من أفراد مجتمعكم احتراماً لظاهر حاله من الانتساب إلى المؤمنين وهو رحمة للّذين آمنوا منكم حقّاً لأنّه يهديهم إلى مستقيم الصراط .

وإن كان المراد من الّذين آمنوا هم الّذين آمنوا في أوّل البعثة قبل الفتح ـ كما تقدّم سابقاً أنّ « الّذين آمنوا » اسم تشريفيّ في القرآن للمؤمنين الأوّلين في الإسلام ـ كان المراد بالمؤمنين في قوله : « و يؤمن للمؤمنين » المؤمنون منهم حقّاً كما اُطلق بهذا المعنى في قوله : « ولمّا رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله و رسوله» الأحزاب : ٢٢ .

وربّما قيل : إنّ اللام في قوله : « ويؤمن للمؤمنين » للتعدية كما في قوله : « يؤمن بالله » فالإيمان يتعدّى بالحرفين جميعاً كما في قوله : « فآمن له لوط » العنكبوت : ٢٦ وقوله : « فما آمن لموسى إلّا ذرّيّة من قومه » يونس : ٨٣ وقوله : « أنؤمن لك واتّبعك الأرذلون » الشعراء : ١١١.

و ربّما قيل : إنّ اللّفظ جار على طريقة التضمين بتضمين الإيمان معنى الجنوح المتعدّي باللّام و المعنى يجنح للمؤمنين مؤمناً بهم أو يؤمن جانحاً لهم .

والوجهان وإن كانا لا بأس بهما في نفسهما لكن يبعّد ذلك لزوم التفكيك في قوله « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » بين « يؤمن » الأوّل والثاني من غير نكتة ظاهرة إلّا أن يحمل على التفنّن في التعبير ومع ذلك فالنتيجة هي النتيجة السابقة فإنّ إيمانه بالمؤمنين

لا يختص بالمخبرين خاصة حتى يصدق خبرهم ويؤاخذ آخرين إذا أخبر بما يضرهم بل إيمان يعم جميع المؤمنين فيصدق المخبر في خبره بمعنى إعطاء الصدق المخبري و يصدق المخبر عنه بحمل فعله على الصحة فافهم ذلك .

وعده تعالى نبيه في قوله : « ورحمة للذين آمنوا منكم » رحمة لقوم خاص في هذه الآية مع عده رحمة للناس كلهم في قوله عز وجل : « وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين » الأنبياء : ١٠٧ إنما هو لاختلاف المراد بالرحمة في الآيتين فالمراد بهاههنا الرحمة الفعلية وهناك الرحمة الشأنية .

وبعبارة اُخرى هو صلى الله عليه وآله رحمة لمن آمن به حقاً بمعنى أن الله سبحانه أنقذه به من الضلالة وختم له بالسعادة والكرامة،ورحمة للناس كلهم مؤمنهم وكافرهم ، من معاصريه و ممن يأتي بعده بمعنى أن الله بعثه صلى الله عليه وآله بملة بيضاء وسنة طيبة فحول المجتمع البشري وصرفه عن مسيره المنحرف عن الاستقامة إلى طريق الشقاوة والهلاك ، وأنار بمشعلته صراط الفطرة الإلهية فمن راكب على السبيل فائز بالغاية المطلوبة ، ومن خارج عن مسير الردى والهلكة ولما يركب متن الصراط الفطري ، ومن قاصد للخروج والورود ولما يخرج وهذا حال المجتمع العام البشري بعد طلوع الإسلام و بسطه معارفه بين الناس و إيصاله إلى سمع كل سامع وتأثيره في كل من السنن الاجتماعية بما في وسعه أن يتأثر به ، و هذا مما لا يرتاب فيه باحث عن طبيعة المجتمع الإنساني ، وهذا الوجه قريب المأخذ من الوجه السابق أو راجع إليه بالحقيقة .

قوله تعالى: « يحلفون بالله لكم ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » قال في المجمع : « الفرق بين الأحق والأصلح أن الأحق قد يكون من غير صفات الفعل كقولك : زيد أحق بالمال ، والأصلح لا يقع هذا الموقع لأنه من صفات الفعل وتقول : الله أحق بأن يطاع ولا تقول أصلح» . انتهى.

والسبب الأصلي فيه أن الصلاحية والصلوح يحمل معنى الاستعداد والتهيؤ،والحق يحمل معنى الثبوت واللزوم ، والله سبحانه لا يتصف بشيء من معنى الاستعداد والقبول المستلزم لتأثير الغير فيه وتأثره عنه .

وقد حوّل الله الخطاب في الآية عن نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم إلى المؤمنين التفاتاً وكأنّ الوجه فيه التلويح لهم بما يشتمل عليه قوله : « والله ورسوله أحقّ أن يرضوه إن كانوا مؤمنين » من الحكم وهو أنّ من الواجب على كلّ مؤمن أن يرضي الله ورسوله ، ولا يحادّ الله ورسوله فإنّ فيه خزياً عظيماً نار جهنّم خالداً فيها.

ومن أدب التوحيد في الآية ما في قوله : « أحقّ أن يرضوه » من إفراد الضمير ولم يقل : أحقّ أن يرضوهما صوناً لمقامه تعالى من أن يعدل به أحد فإنّ أمثال هذه الحقوق وكذا الأوصاف الّتي يشاركه تعالى غيره من حيث الإطلاق والإجراء ، له تعالى بالذات ولنفسه ولغيره بالتبع أو بالعرض ومن جهته كوجوب الإرضاء والتعظيم والطاعة وغيرها ، وكالاتّصاف بالعلم والحياة والإحياء والإماتة وغيرها .

وقد روعي نظير هذا الأدب في القرآن في موارد كثيرة فيما يشارك النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم غيره من الأمّة من الشؤون فأخرج النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم من بينهم وأفرد بالذكر كما في قوله : « يوم لا يخزي الله النبيّ والّذين آمنوا » التحريم : ٨ وقوله : « فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » الفتح : ٢٦ وقوله : آمن الرسول بما أُنزل إليه من ربّه والمؤمنون» البقرة : ٢٨٥ وغير ذلك .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أنّه من يحادد الله ورسوله فأنّ له نار جهنّم » إلى آخر الآية قال في المجمع : المحادّة مجاوزة الحدّ بالمشاقّة ، وهي والمخالفة والمجانبة والمعاداة نظائر ، وأصله المنع والمحادّة ما يلحق الإنسان من النزق لأنّه يمنعه من الواجب وقال: والخزي الهوان وما يستحيى منه . انتهى .

والاستفهام في الآية للتعجيب ، والكلام مسوق لبيان كونه تعالى وكون رسوله أحقّ بالإرضاء ومحصّله أنّهم يعلمون أن محادّة الله ورسوله والمشاقّة والمعاداة مع الله ورسوله والإسخاط يوجب خلود النار ، وإذا حرم إسخاط الله ورسوله وجب إرضاؤه وإرضاء رسوله على من كان مؤمناً بالله ورسوله .

﴿ بحث روائى ﴾

في تفسير القمّي عن أبي الجارود عن أبي جعفر عليه‌السلام في قوله تعالى : « وإن تصبك حسنة تسؤهم وإن تصبك مصيبة » الآية أمّا الحسنة فهي الغنيمة والعافية ، وأمّا المصيبة فالبلاء والشدّة .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم عن جابر بن عبدالله قال : جعل المنافقون الّذين تخلّفوا بالمدينة يخبرون عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أخبار السوء ، و يقولون : إنّ محمّداً وأصحابه قد جهدوا في سفرهم وهلكوا فبلغهم تكذيب حديثهم وعافية النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وأصحابه فساءهم ذلك فأنزل الله تعالى : «إن تصبك حسنة تسؤهم » الآية .

وفي الكافي بإسناده عن أبي حمزة عن أبي جعفر عليه‌السلام قال : قلت له : قول الله عزّ وجلّ «هل تربّصون بنا إلّا إحدى الحسنيين» قال : إمّا موت في طاعة الإمام أو إدراك ظهور إمام «ونحن نتربّص بكم» مع مانحن فيه من المشقّة «أن يصيبكم الله بعذاب من عنده» قال : هو المسخ «أو بأيدينا» وهو القتل قال الله عزّ وجلّ لنبيّه : « فتربّصوا إنّا معكم متربّصون» .

أقول : وهو من الجري دون التفسير .

في المحاسن بإسناده عن يوسف بن ثابت عن أبي عبدالله عليه‌السلام قال : لا يضرّ مع الإيمان عمل ، ولا ينفع مع الكفر عمل .

ثمّ قال : ألاترى أنّ الله تبارك وتعالى قال : «وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلّا أنّهم كفروا بالله ورسوله » .

أقول : ورواه العيّاشي والقمّي عنه و كذا الكليني في الكافي عنه في حديث مفصّل والرواية تبيّنها آيات وروايات اُخرى فالإيمان مادام باقياً لايضرّه معصية بإيجاب خلود النار ، والكفر مادام كفراً لاينفع معه حسنة .

وفي المجمع في قوله تعالى : « مدّخلاً » الآية قال : سرباً عن أبي جعفر عليه‌السلام .

وفي الكافي بإسناده عن إسحاق بن غالب قال : قال أبوعبدالله عليه‌السلام يا إسحاق كم ترى أهل هذه الآية : «فإن اُعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون » قال:

هم أكثر من ثلثي الناس .

أقول : ورواه العيّاشيّ في تفسيره والحسين بن سعيد في كتاب الزهد عن إسحاق عنه عليه السلام .

و في الدرّ المنثور أخرج البخاريّ والنسائيّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : بينما النبيّ صلى الله عليه وآله يقسم قسماً إذ جاءه ذو الخويصرة التميميّ فقال : اعدل يا رسول الله فقال : ويلك و من يعدل إذا لم أعدل . فقال عمر بن الخطّاب : يا رسول الله ائذن لي فأضرب عنقه فقال رسول الله صلى الله عليه وآله دعه فإنّ له أصحاباً يحقّر أحدكم صلاته مع صلاتهم وصيامه مع صيامهم يمرقون من الدين كما يمرق السهم من الرمية فينظر في قذذه فلا يوجد فيه شيء ، ثمّ ينظر في نضيه فلا يرى فيه شيء ثمّ ينظر في رصافه فلا يرى فيه شيء ، ثمّ ينظر في نصله فلا يوجد فيه شيء قد سبق الفرث والدم آيتهم رجل أسود إحدى ثديه ـ أو قال : ثدييه ـ مثل ثدي المرأة أو مثل البضعة تدردر يخرجون على حين فرقة من الناس قال : فنزلت فيهم : «ومنهم من يلمزك في الصدقات» الآية .

قال أبو سعيد : أشهد أنّي سمعت هذا من رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، و أشهد أنّ عليّاً حين قتلهم و أنا معه جيء بالرّجل على النعت الّذي نعت رسول الله صلّى الله عليه وسلّم.

وفي تفسير القمّيّ في الآية : أنّها نزلت لمّا جاءت الصدقات وجاء الأغنياء وظنّوا أنّ الرسول يقسمها بينهم فلمّا وضعها رسول الله صلى الله عليه وآله في الفقراء تغامزوا رسول الله صلى الله عليه وآله ولمزوه ، وقالوا : نحن الّذين نقوم في الحرب ونغزو معه ونقوّي أمره ثمّ يدفع الصدقات إلى هؤلاء الّذين لا يعينونه ولا يغنون عنه شيئاً فأنزل الله : « ولو أنّهم رضوا ما آتاهم الله و رسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله إنّا إلى الله راغبون » .

ثمّ فسّر الله عزّ وجلّ الصدقات لمن هي وعلى من يجب ؟ فقال : « إنّما الصدقات للفقراء والمساكين و العاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم و في الرقاب والغارمين و في سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم » فأخرج الله من الصدقات جميع الناس إلّا هذه الثمانية الأصناف الّذين سمّاهم .

وبيّن الصادق عليه السلام من هم ؟ فقال : الفقراء هم الّذين لا يسألون وعليهم مؤونات من عيالهم ، والدليل على أنّهم لا يسألون قول الله تعالى في سورة البقرة : « للفقراء الّذين اُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضرباً في الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفّف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً .

والمساكين هم أهل الزمانة من العميان والعرجان والمجذومين وجميع أصناف الزمنى من الرجال والنساء والصبيان .

والعاملين عليها هم السعاة والجباة في أخذها وجمعها وحفظها حتّى يؤدّيها إلى من يقسمها .

والمؤلّفة قلوبهم قوم وحّدوا الله ولم يدخل المعرفة قلوبهم أنّ محمّداً رسول الله فكان رسول الله صلى الله عليه وآله يتألّفهم ويعلّمهم كيما يعرفوا فجعل الله لهم نصيباً في الصدقات كي يعرفوا ويرغبوا .

أقول : وقد وردت في تأييد هذا الّذي أرسله من الرواية روايات كثيرة مسندة من طرق أهل البيت عليهم السلام . و في بعض الروايات تعارض مّا ، و ليرجع في تفصيل الروايات على كثرتها وتنقيح المطلب إلى جوامع الحديث و كتب الفقه .

وفي الدرّ المنثور أخرج البخاريّ وابن أبي حاتم وابن مردويه عن أبي سعيد الخدريّ قال : بعث عليّ بن أبي طالب من اليمن إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم بذهيبة فيها تربتها فقسمها بين أربعة من المؤلّفة : الأقرع بن حابس الحنظليّ و علقمة بن علاثة العامريّ و عيينة بن بدر الفزاريّ و زيد الخيل الطائيّ ، فقالت قريش و الأنصار : أتقسم بين صناديد أهل نجد وتدعنا ؟ فقال النبيّ صلّى الله عليه وسلّم : إنّما أتألّفهم .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق وابن المنذر وابن أبي حاتم وابن مردويه عن يحيى ابن أبي كثير قال : المؤلّفة قلوبهم من بني هاشم أبوسفيان بن الحارث بن عبدالمطّلب ، ومن بني اُميّة أبوسفيان بن حرب ، ومن بني مخزوم الحارث بن هشام وعبدالرحمان بن يربوع ومن بني أسد حكيم بن حزام ، ومن بني عامر سهيل بن عمرو وحويطب بن عبدالعزّى ، و من بني جمح صفوان بن اُميّة ، و من بني سهم عديّ بن قيس ، و من ثقيف العلاء بن

جارية أو حارثة ، ومن بني فزارة عيينة بن حصن ، ومن بني تميم الأقرع بن حابس ، ومن بني نصر مالك بن عوف ، ومن بني سليم العبّاس بن مرداس .

أعطى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم كلّ رجل منهم مائة ناقة إلّا عبدالرحمان بن يربوع وحو يطب بن عبدالعزّى فإنّه أعطى كلّ واحد منهما خمسين .

وفي تفسير القمّي في رواية أبي الجارود عن أبي جعفر عليه السلام قال : المؤلّفة قلوبهم : أبوسفيان بن حرب بن اُميّة وسهيل بن عمرو وهو من بني عامر بن لؤيّ ، و هشام بن عمرو أخوه ـ : أخو بني عامر بن لؤيّ ـ وصفوان بن اُميّة بن خلف القرشيّ ثمّ الجمحيّ ، والأقرع بن حابس التميميّ أحد بني حازم وعيينة بن حصن الفزاريّ ومالك بن عوف وعلقمة بن علاثة .

بلغني أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله كان يعطي الرجل منهم مائة من الإبل ورعاتها وأكثر من ذلك وأقلّ .

أقول : وهؤلاء هم المؤلّفة قلوبهم الّذين أعطاهم النبيّ صلى الله عليه وآله تأليفاً لقلوبهم ، وليس المراد حصر المؤلّفة قلوبهم وهم صنف من الأصناف الثمانية المذكور في الآية في هؤلاء الأشخاص بأعيانهم .

و في تفسير العيّاشيّ عن ابن إسحاق عن بعض أصحابنا عن الصادق عليه السلام قال : سئل عن مكاتب عجز عن مكاتبته وقد أدّى بعضها قال : يؤدّى من مال الصدقة إنّ الله يقول في كتابه : « وفي الرقاب » .

وفيه عن زرارة قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام : عبد زنى ؟ قال : يجلّد نصف الحدّ ، قال : قلت : فإن هو عاد قال : يضرب مثل ذلك قال : قلت : فإن هو عاد ؟ قال : لا يزاد على نصف الحد . قال : قلت : فهل يجب عليه الرجم في شيء من فعله ؟ قال : نعم يقتل في الثامنة إن فعل ذلك ثمان مرّات .

قال : قلت : فما الفرق بينه و بين الحرّ وإنّما فعلهما واحد ؟ فقال له : إنّ الله رحمه أن يجمع عليه ربق الرقّ وحدّ الحرّ . قال : ثم قال : وعلى إمام المسلمين أن يدفع ثمنه إلى مولاه من سهم الرقاب .

وفيه عن الصباح بن سيابة قال : أيّما مسلم مات وترك ديناً لم يكن في فساد وعلى

إسراف فعلى الإمام أن يقضيه فإن لم يقض فعليه إثم ذلك إنّ الله يقول : « إنّما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلّفة قلوبهم والغارمين » فهو من الغارمين وله سهم عند الإمام فإن حبسه فإثمه عليه .

وفيه عن محمّد بن القسريّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن الصدقة فقال : اقسمها فيمن قال الله ، ولا يعطى من سهم الغارمين الّذين يغرمون في مهور النساء ولا الّذين ينادون نداء الجاهلية قال : قلت : وما نداء الجاهليّة ؟ قال : الرجل يقول : يا آل بني فلان فيقع بينهم القتل و لا يؤدّى ذلك من سهم الغارمين ، و لا الّذين لا يبالون ما صنعوا بأموال الناس .

وفيه عن الحسن بن محمّد قال . قلت لأبي عبدالله عليه السلام إنّ رجلاً أوصى لي في السبيل قال : فقال لي : اصرف في الحجّ قال : قلت : إنّه أوصى في السبيل ! قال : اصرفه في الحجّ فإنّي لا أعلم سبيلاً من سبله أفضل من الحجّ .

أقول : و الروايات في الباب أكثر من أن تحصى ، و إنّما أوردنا منها ما يجري مجرى الاُنموذج .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى : « ومنهم الّذين يؤذون النبيّ » الآية أخرج ابن إسحاق وابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن عبّاس قال : كان نبتل بن الحارث يأتي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم فيجلس إليه فيسمع ثمّ ينقل حديثه إلى المنافقين ، وهو الّذي قال لهم : إنّما محمّد اُذن من حدّثه شيئاً صدّقه فأنزل الله فيه : « ومنهم الّذين يؤذون النبيّ ويقولون هو اُذن » الآية .

وفي تفسير القمّيّ في الآية قال : سبب نزولها أنّ عبدالله بن نبتل كان منافقاً وكان يقعد إلى رسول الله صلّى الله عليه وآله فيسمع كلامه وينقله إلى المنافقين فينمّ عليه فنزل جبرئيل على رسول الله صلّى الله عليه وآله فقال : يا محمّد إنّ رجلاً من المنافقين ينمّ وينقل حديثك إلى المنافقين فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله من هو ؟ قال : الرجل الأسود الوجه الكثير شعر الرأس ينظر بعينين كأنّهما قدران ، وينطق بلسان شيطان .

فدعاه رسول الله صلّى الله عليه وآله فأخبره فحلف أنّه لم يفعل فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله : قد قبلت

منك فلا تفعل فرجع إلى أصحابه فقال : إنّ محمّداً اُذن . أخبره‌الله أنّي أنمّ عليه وأنقل أخباره فقبله ، وأخبرته أنّي لم أقل ولم أفعل فقبله !

فأنزل الله على نبيّه : « ومنهم الّذين يؤذون‌النبيّ ويقولون هو اُذن قل اُذن خير لكم يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » أي يصدّق الله فيما يقول له ، ويصدّقكم فيما تعتذرون إليه ولا يصدّقكـ[ـم في الباطن ، ويؤمن للمؤمنين يعني‌المقرّين بالإيمان من غير اعتقاد .

أقول : وروي ما يقرب منه في نهج‌البيان عن الصادق عليه‌السلام .

وفي الدرّ‌المنثور أخرج ابن أبي‌حاتم عن السدّيّ قال : اجتمع ناس من المنافقين فيهم جُلاس‌بن سويد بن صامت وجحش بن‌حمير ووديعة بن ثابت فأرادوا أن يقعوا في‌النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم فنهى بعضهم بعضاً وقالوا : إنّا نخاف أن يبلغ محمّداً فيقع بكم ، وقال : بعضهم : إنّ محمّداً اُذن نحلف له فيصدّقنا فنزل : « ومنهم‌الّذين يؤذون النبيّ ويقولون هو اُذن » الآية .

وفي تفسير‌العيّاشيّ عن حمّاد بن سنان عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام قال : إنّي أردت أن أستبضع فلاناً بضاعة‌إلى‌اليمن فأتيت‌إلى‌أبي جعفر عليه‌السلام فقلت : إنّي اُريد أن‌أستبضع فلاناً فقال لي : أما علمت أنّه يشرب الخمر ؟ فقلت : قد بلغني من المؤمنين أنّهم يقولون ذلك فقال : صدّقهم‌إنّ الله عزّ وجلّ يقول : « يؤمن بالله ويؤمن للمؤمنين » فقال : يعني يصدّق الله ويصدّق للمؤمنين لأنّه‌كان رؤوفاً رحيماً بالمؤمنين .

~~~~~~~~~~
~~~~~~~~~~

***

يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِؤُا
اِنَّ اللّٰهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ اِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ
قُلْ أَبِاللّٰهِ وَ آيَاتِهِ وَ رَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِؤُنَ (٦٥) لَا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَرْتُمْ بَعْدَ
اِيمَانِكُمْ اِنْ نَعْفُ عَنْ طَائِفَةٍ مِنْكُمْ نُعَذِّبْ طَائِفَةً بِأَنَّهُمْ كَانُوا مُجْرِمِينَ (٦٦)
الْمُنَافِقُونَ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ
وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللّٰهَ فَنَسِيَهُمْ اِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٦٧) وَعَدَ اللّٰهُ
الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا هِىَ حَسْبُهُمْ وَلَعَنَهُمُ
اللّٰهُ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُقِيمٌ (٦٨) كَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْكُمْ قُوَّةً وَأَكْثَرَ
أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا فَاسْتَمْتَعُوا بِخَلَاقِهِمْ فَاسْتَمْتَعْتُمْ بِخَلَاقِكُمْ كَمَا اسْتَمْتَعَ الَّذِينَ مِنْ
قَبْلِكُمْ بِخَلَاقِهِمْ وَخُضْتُمْ كَالَّذِى خَاضُوا أُولٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِى الدُّنْيَا
وَالْآخِرَةِ وَأُولٰئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ (٦٩) أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ قَوْمِ
نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ وَقَوْمِ اِبْرَاهِيمَ وَأَصْحَابِ مَدْيَنَ وَالْمُؤْتَفِكَاتِ أَتَتْهُمْ رُسُلُهُمْ
بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلٰكِنْ كَانُوا أَنْفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ (٧٠) وَالْمُؤْمِنُونَ
وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ
الصَّلٰاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكٰوةَ وَيُطِيعُونَ اللّٰهَ وَرَسُولَهُ أُولٰئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللّٰهُ اِنَّ اللّٰهَ
عَزِيزٌ حَكِيمٌ (٧١) وَعَدَ اللّٰهُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِى مِنْ تَحْتِهَا
الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِى جَنَّاتِ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللّٰهِ أَكْبَرُ

ذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٧٢) يٰا أَيُّهَا النَّبِيُّ جٰاهِدِ الْكُفّٰارَ وَالْمُنٰافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ وَمَأْوٰيهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (٧٣) يَحْلِفُونَ بِاللّٰهِ مٰا قٰالُوا وَلَقَدْ قٰالُوا كَلِمَةَ الْكُفْرِ وَكَفَرُوا بَعْدَ إِسْلاٰمِهِمْ وَ هَمُّوا بِمٰا لَمْ يَنٰالُوا وَمٰا نَقَمُوا إِلاّٰ أَنْ أَغْنٰاهُمُ اللّٰهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ فَإِنْ يَتُوبُوا يَكُ خَيْراً لَهُمْ وَإِنْ يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللّٰهُ عَذٰاباً أَلِيماً فِي الدُّنْيٰا وَ الْآخِرَةِ وَ مٰا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِنْ وَلِيٍّ وَلاٰ نَصِيرٍ (٧٤).

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات شأناً آخر من شؤون المنافقين، وتكشف عن سوأة اُخرى من سوءاتهم ستروا عليها بالنفاق، وكانوا يحذرون أن تظهر عليهم وتنزل فيها سورة تقصّ ما همّوا به منها .

والآيات تنبىء عن أنّهم كانوا جماعة ذوي عدد كما يدلّ عليه قوله : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » وأنّه كان لهم بعض الاتّصال والتوافق مع جماعة آخرين من المنافقين كما في قوله : « المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض » الآية وأنّهم كانوا على ظاهر الإسلام والإيمان حتّى اليوم وإنّما نافقوا يومئذ أي تفوّهوا بكلمة الكفر فيما بينهم وأسرّوا بها يومئذ كما في قوله : « قد كفرتم بعد إيمانكم » .

وأنّهم تواطؤوا على أمر دبّروه فيما بينهم فأظهروا عند ذلك كلمة الكفر و همّوا على أمر عظيم فحال الله بينهم وبينه فخاب سعيهم ولم يؤثّر كيدهم كما في قوله : « ولقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا » .

وأنّه ظهر ممّا همّوا به بعض ما يستدلّ عليه من الآثار والقرائن فسئلوا عن ذلك فاعتذروا بما هو مثله قبحاً وشناعة كما في قوله : « ولئن سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوض

ونلعب » والآيات التالية لهذه الآيات في سياق متّصل منسجم تدلّ على أنّ هذه الوقعة أيّاً مّا كانت وقعت بعد خروج النبيّ صلى الله عليه وآله إلى غزوة تبوك ولمّا يرجع إلى المدينة كما يدلّ عليه قوله : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم » الآية آية ٨٣ من السورة : وقوله : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم » آية ٩٥ من السورة .

فيتلخّص من الآيات أنّ جماعة ممّن خرج مع النبيّ صلى الله عليه وآله تواطؤوا على أن يمكروا بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، وأسرّوا عند ذلك فيما بينهم بكلمات كفروا بها بعد إسلامهم ثمّ همّوا أن يفعلوا ما اتّفقوا عليه بفتك أو نحوه فأبطل الله كيدهم وفضحهم و كشف عنهم فلمّا سئلوا عن ذلك قالوا : إنّما كنّا نخوض ونلعب فعاتبهم الله بلسان رسوله صلى الله عليه وآله بأنّه استهزاء بالله و آياته ورسوله ، وهدّدهم بالعذاب إن لم يتوبوا ، وأمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يجاهدهم ويجاهد الكافرين .

فالآيات ـ كما ترى ـ أوضح انطباقاً على حديث العقبة منها على غيره من القصص الّتي تتضمّنها الروايات الاُخر الواردة في بيان سبب نزول الآيات ، و سنورد جلّها في البحث الروائيّ الآتي إن شاء الله تعالى .

قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة تنبّؤهم بما في قلوبهم » إلى آخر الآية . كان المنافقون يشاهدون أنّ جلّ ما يستسرّون به من شؤون النفاق ؛ ويناجي به بعضهم بعضاً من كلمة الكفر ووجوه الهمز واللّمز والاستهزاء أو جميع ذلك لا يخفى على الرسول ، ويتلى على الناس في آيات من القرآن يذكر النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه من وحي الله ، ولا محالة كانوا لا يؤمنون بأنّه وحي نزل به الروح الأمين على رسول الله صلى الله عليه وآله ، ويقدّرون أنّ ذلك ممّا يتجسّسه المؤمنون فيخبرون به النبيّ صلّى الله عليه و آله فيخرجه لهم في صورة كتاب سماويّ نازل عليهم وهم مع ذلك كانوا يخافون ظهور نفاقهم وخروج ما خبؤه في سرائرهم الخبيثة لأنّ السلطنة والظهور كانت للنبيّ صلى الله عليه وآله عليهم يجري فيهم ما يأمر به و يحكم عليه .

فهم كانوا يحذرون نزول سورة يظهر بها ما أضمروه من الكفر وهمّوا به من تقليب الاُمور على النبيّ صلى الله عليه وآله وقصده بما يبطل به نجاح دعوته وتمام كلمته فأمر الله نبيّه صلى الله عليه وآله

أن يبلّغهم أنّ الله عالم بما في صدورهم مخرج ما يحذرون خروجه و ظهوره بنزول سورة من عنده أي يخبرهم بأنّ الله منزّل سورة هذا نعتها .

وبهذا يستنير معنى الآية فقوله : « يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة » الخطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله ووجه الكلام إليه ، و هو يعلم بتعليم الله أنّ هذا الكلام الّذي يتلوه على الناس كلام إلهيّ وقرآن منزّل من عنده فيصف سبحانه الكلام الّذي يخاف منه المنافقون بما له من الوصف عند النبيّ صلى الله عليه وآله و هو أنّه سورة منزّلة من الله على الناس و منهم المنافقون لا على ما يراه المنافقون أنّه كلام بشريّ يدّعى كونه كلام الله .

فهم كانوا يحذرون أن يتلو النبيّ صلى الله عليه وآله عليهم وعلى الناس كلاماً هذا نعته الواقعيّ وهو أنّه سورة منزّلة عليهم بما أنّها متوجّهة بمضمونها إليهم قاصدة نحوهم ينبّؤهم هذه السورة النازلة بما في قلوبهم فيظهر على الناس ويفشو بينهم ما كانوا يسرّونه من كفرهم وسوء نيّاتهم ، وهذا الظهور في الحقيقة هو الّذي كانوا يحذرونه من نزول السورة .

و قوله : « قل استهزؤوا إنّ الله مخرج ما تحذرون » كأنّ المراد بالاستهزاء هو نفاقهم وما يلحق به من الآثار فإنّ الله سمّى نفاقهم استهزاء حاكياً في ذلك قولهم حيث قال : « و إذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا و إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤون » البقرة : ١٤ فالمراد بالاستهزاء هو ستر ما يحذرون ظهوره ، و الأمر تعجيزيّ أي دوموا على نفاقكم و ستركم ما تحذرون خروجه من عندكم إلى مرئى الناس ومسمعهم فإنّ الله مخرج ذلك وكاشف عن وجهه الغطاء ، ومظهر ما أخفيتموه في صدوركم .

فصدر الآية وإن كان يذكر أنّهم يحذرون تنزيل سورة كذا و كذا لكنّهم إنّما كانوا يحذرونها لما فيها من الأنباء الّتي يحذرون أن يطّلع عليها النبيّ صلى الله عليه وآله و تنجلي للناس ، و هذا هو الّذي يذكر ذيلها أنّهم يحذرونه فالكلام بمنزلة أن يقال : يحذر المنافقون تنزيل سورة قل إنّ الله منزّلها ، أو يقال : يحذر المنافقون انكشاف باطن أمرهم وما في قلوبهم قل استهزؤوا إنّ الله سيكشف ذلك وينبىء عمّا في قلوبكم .

وبما تقدّم يظهر سقوط ما اُشكل على الآية أوّلاً بأنّ المنافقين لكفرهم في الحقيقة

لم يكونوا يرون أنّ القرآن كلام منزّل من عندالله فكيف يصحّ القول إنّهم يحذرون أن تنزّل عليهم سورة ؟

وثانياً : أنّهم لمّا لم يكونوا مؤمنين في الواقع فكيف يصحّ أن يطلق أنّ سورة قرآنيّة نزّلت عليهم ولا تنزّل السورة إلّا على النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم أوعلى المؤمنين ؟

وثالثاً : أنّ حذرهم نزول السورة وهو حال داخليّ جدّي فيهم لا يجامع كونه استهزاء .

ورابعاً : أنّ صدر الآية يذكر أنّهم يحذرون أن تنزّل سورة وذيلها يقول : إنّ الله مخرج ما تحذرون فهوفي معنى أن يقال : إنّ الله مخرج سورة أو مخرج تنزيل سورة .

وقد يجاب عن الإشكال الأوّل بأنّ قوله : يحذرالمنافقون الخ إنشاء في صورةخبر أي ليحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة الخ .

وهو ضعيف إذلا دليل عليهأصلاً على أنّ ذيل الآية لايلائم ذلك إذلا معنى لقولنا : ليحذر المنافقون كذا قل استهزؤوا إنّ الله مخرج ما تحذرون أي مايجب عليكم حذره . وهو ظاهر .

وقد يجاب عنه بأنّهم إنّما كانوا يظهرون الحذر استهزاءً لاجدّاً وحقيقة . و فيه أنّ لازمه أنّهم كانوا على ثقة بأنّ ما فيقلوبهم من الأنباء وما أبطنوه من الكفر و الفسوق لاسبيلللظهور والانجلاء إليه ، ولاطريق لأحد إلىالاطّلاع عليه ، ويكذّبه آيات كثيرة فيالقرآن الكريم تقصّ ماعقدوا عليها القلوب منالكفر والفسوق وهمّوا به من الخدعة والمكيدة كالآيات منسورة البقرة وسورة المنافقين وغيرهما ، وإذ كانوا شاهدوا ظهورأنبائهم ومطويّات قلوبهم عياناً مرّة بعدمرّة فلا معنى لثقتهم بأنّها لا تنكشف أصلاً و إظهارهم الحذر استهزاءً لاجدّاً ، وقدقال تعالى : « يحسبون كلّ صيحة عليهم» المنافقون : ٤ .

وقد يجاب عنه بأنّ أكثر المنافقين كانوا على شكّ من صدق الدعوة النبويّة من غير أنيستيقنوا كذبه ، وهؤلاء كانوا يجوّزون تنزيل سورة تنبّؤهم بما فيقلوبهم احتمالاً عقليّاً ، وهذا الحذر والإشفاق كما ذكروه أثر طبيعيّ للشكّ والارتياب فلوكانوا موقنين بكذب الرسول صلى الله عليه وآله وسلم لما خطرلهم هذاالخوف علىبال ، ولوكانوا موقنين بصدقه لماكانهناك

محلّ لهذا الخوف والحذر لأنّ قلوبهم مطمئنّة بالإيمان .

وهذا الجواب ـ وهو الّذي اعتمد عليه جمهور المفسّرين ـ وإن كان بظاهره لا يخلو عن وجه غير أنّ فيه أنّه إنّما يحسم مادّة الإشكال لو كان الواقع من التعبير في الآية نحواً من قولنا : يخاف المنافقون أن تنزّل عليهم سورة ، ولذا قرّروا الجواب بأنّ الخوف يناسب الشكّ دون اليقين .

لكنّ الآية تعبّر عن شأنهم بالحذر ، ويخبر أنّهم يحذرون أن تنزّل عليهم سورة الخ والحذر فيه شيء من معنى الاحتراز والاتّقاء ، ولا يتمّ ذلك إلّا بالتوسّل إلى أسباب ووسائل تحفظ الحاذر ممّا يحذره ويحترز منه ، وتصونه عن شرّ مقبل إليه من ناحية ما يخافه .

ولو كان مجرّد شكّ من غير مشاهدة أثر من الآثار وإصابة شيء ممّا يتّقونه إيّاهم لما صحّ الاحتراز والاتّقاء ، فحذرهم يشهد أنّهم كانوا يخافون أن يقع بهم هذه المرّة نظير ما وقع بهم قبل ذلك من جهة آيات البقرة وغيرها ، فهذا هو الوجه لحذرهم دون الشكّ والارتياب فالمعتمد في الجواب ما قدّمناه .

وقد يجاب عن الإشكال الثاني بأنّ « على » في قوله : « أن تنزّل عليهم » بمعنى : في كما في قوله : « واتّبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان » البقرة : ١٠٢ والمعنى : يحذر المنافقون أن تنزّل فيهم أي في شأنهم وبيان حالهم سورة تكشف عمّا في ضمائرهم .

وفيه أنّه لا بأس به لولا قوله بعده : « تنبّؤهم بما في قلوبهم » على ما سنوضحه .

وقد يجاب عنه بأنّ الضمير في قوله : « عليهم » راجع إلى المؤمنين دون المنافقين والمعنى : يحذر المنافقون أن تنزّل على المؤمنين سورة تنبّؤ المنافقين بما في قلوب المنافقين أو تنبّؤ المؤمنين بما في قلوب المنافقين .

وردّ عليه بأنّه يستلزم تفكيك الضمائر . ودفع بأنّ تفكيك الضمائر غير ممنوع ولا أنّه مناف للبلاغة إلّا إذا كان المعنى معه غير مفهوم ، وربّما أيّد بعضهم هذا الجواب بأنّه ليس ههنا تفكيك للضمائر فإنّه قد سبق أنّ المنافقين يحلفون للمؤمنين ليرضوهم ثمّ وبّخهم الله بأنّ الله ورسوله أحقّ أن يرضوه إن كانوا مؤمنين فقد بيّن ههنا بطريقة الاستئناف

أنّهم يحذرون أن تنزّل على المؤمنين سورة تنبـّؤهم بما في قلوبهم فتبطل ثقتهم بهم فاُعيد الضمير إلى المؤمنين لأنّ سياق الكلام فيهم فلا أثر من التفكيك .

وفيه أنّ من الواضح الّذي لا يرتاب فيه أنّ موضوع الكلام في هذه الآيات و آيات كثيرة ممّا يتّصل بها من قبل ومن بعد ، هم المنافقون ، والسياق سياق الخطاب للنبيّ صلّى الله عليه وآله لاغيره ، وإنّما كان خطاب المؤمنين في قوله : « يحلفون بالله لكم ليرضوكم خطاباً التفاتيّاً للتنبيه على غرض خاصّ أومأنا إليه ثمّ عاد الكلام إلى سياقها الأصليّ من خطاب النبيّ صلّى الله عليه وآله بتبدّل خطابهم إلى خطابه فلا معنى لقوله : إنّ سياق الكلام في المؤمنين .

ولو كان السياق هو الّذي ذكره لكان من حقّ الكلام أن يقال : أن تنزّل عليكم سورة تنبـّؤكم بما في قلوبهم ، فما معنى العدول إلى ضمير الغيبة ، ولم يتقدّم في سابق الكلام ذكر لهم على هذا النعت ؟

على أنّ قوله : إنّ الآية ـ يحذر المنافقون ـ بيان من طريق الاستئناف لسبب حلفهم للمؤمنين ليرضوهم، إخراج لهذه الطائفة من الآيات من استقلال غرضها الأصليّ الّذي بحثنا عنه في أوّل الكلام ، ويختلّ بذلك ما يتراءى من فقرات الآيات من الاتّصال و الارتباط .

فالآية ـ يحذر المنافقون الخ ـ ليست بياناً لسبب حلفهم المذكور سابقاً بل استئناف مسوق لغرض آخر يهدي إليه مجموع الآيات الإحدى عشرة .

وبالجملة الآيات السابقة على هذه الآية خالية عن ذكر المؤمنين ذكراً يوجب انعطاف الذهن إليه حينما يلقي ضميراً يمكن عوده إليهم و هذا هو التفكيك المذكور ، وهو مع ذلك تفكيك ممنوع لا يجابه إبهاماً في البيان ينافي بلاغته .

والحقّ أنّ الضمير في قوله : « أن تنزّل عليهم » للمنافقين ـ كما تقدّمت الإشارة إليه ـ ولا بأس بأن يسمّى تنزيل سورة لبيان حالهم وذكر مثالبهم و توبيخهم على نفاقهم تنزيلاً للسورة عليهم وهم في جماعة المؤمنين غير متميـّزين منهم كما عبّر بنظير التعبير في مورد المؤمنين حيث قال : « و اذكروا نعمة الله عليكم وما اُنزل عليكم من الكتاب والحكمة

يعظكم به » البقرة : ٢٣١ .

وقد أتى سبحانه بنظير هذا التعبير في أهل الكتاب حيث قال : « يسألك أهل الكتاب أن تنزّل عليهم كتاباً من السماء » النساء : ١٥٣ ، وفي المشركين حيث حكى عنهم قولهم : « ولن نؤمن لرقيك حتّى تنزّل علينا كتاباً نقرؤه » أسرى : ٩٣ ، وليست نسبة المنافقين وهم في المؤمنين إلى نزول القرآن عليهم بأبعد من نسبة المشركين وأهل الكتاب إلى نزوله عليهم ، والنزول والإنزال و التنزيل يقبل التعدّي بإلى بعناية الإنتهاء وبعلى بعناية الاستعلاء والإتيان من العلو ، والتعدية بكلّ واحد منهما كثير في تعبيرات القرآن ، والمراد بنزول الكتاب إلى قوم وعلى قوم تعرّضه لشؤونهم وبيانه لما ينفعهم في دنياهم وأُخراهم .

وقد يجاب عن الإشكال الثالث بأنّ قوله تعالى : « قل استهزؤوا » دليل على أنّهم كانوا يستهزؤون بالحذر ولم يكن من جدّ الحذر في شيء .

وفيه أنّ الآيات الكثيرة النازلة في سورة البقرة و النساء و غيرها ـ و كلّ ذلك قبل هذه الآيات نزولاً ـ المخرجة لكثير من خبايا قلوبهم الكاشفة عن أسرارهم تدلّ على أنّ هذا الحذر كان منهم على حقيقته من غير استهزاء وسخريّة .

على أنّه تعالى وصفهم في سورة المنافقون بمثل قوله : « يحسبون كلّ صيحة عليهم » المنافقون : ٤ ، وقال في مثل ضربه لهم وفيهم : « يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » البقرة : ٢٠ وقد ذكر في الآية التالية .

والحقّ أنّ استهزاءهم إنّما هو نفاقهم وقولهم في الظاهر خلاف ما في باطنهم كما يؤيّده قوله تعالى : « وإذا لقوا الّذين آمنوا قالوا آمنّا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤون » البقرة : ١٤ .

والجواب عن الإشكال الرابع أنّ الشيء الّذي كانوا يحذرونه في الحقيقة هو ظهور نفاقهم وانكشاف ما في قلوبهم ، وإنّما كانوا يحذرون نزول السورة لأجل ذلك فالمحذور الّذي ذكر في صدر الآية و الّذي في ذيل الآية أمر واحد ، و معنى قوله « إنّ الله مخرج ما تحذرون » أنّه مظهر لما أخفيتموه من النفاق ومنبىء لما في قلوبكم .

قوله تعالى : « ولئن سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلعب قل أبالله و آياته و

ورسوله كنتم تستهزؤون » الخوض ـ على ما في المجمع ـ دخول القدم فيما كان مائعاً من الماء والطين ثمّ كثر حتّى استعمل في غيره .

و قال الراغب في المفردات : الخوض هو الشروع في الماء والمرور فيه ، و يستعار في الاُمور ، وأكثر ماورد في القرآن ورد فيما يذمّ الشروع فيه . انتهى .

ولم يذكر الله سبحانه متعلّق السؤال وأنّ المسؤول عنه الّذي إن سأل النبي صلى الله عليه وآله سأل عنه ماهو ؟ غير أنّ قوله : «ليقولنّ إنّما كنّا نخوض ونلعب» بماله من السياق المصدّر بإنّما يدلّ على أنّه كان فعلاً صادراً منهم له نوع تعلّق بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، وكان أمراً سيّئاً يسيء الظنّ بهم ، ولم يكن في وسعهم أن يعتذروا منه بعد ما تبيّن وانكشف للنبيّ صلى الله عليه وآله إلّا بأنّه إنّما كان منهم خوضاً ولعباً لم يريدوا به غير ذلك .

و الخوض و اللعب الّذين اعتذروا بهما من الأعمال السيّئة الّتي لا يعترف بهما الناس في حالهم العاديّ وخاصّة المؤمنون و سائر المتظاهرين بالإيمان وخاصّة إذا كان ذلك في أمر يرجع إلى الله ورسوله غير أنّهم لم يجدوا وصفاً يصفون به فعلهم لإخراجه عن ظاهر مايدلّ عليه ، دون أن يعنونوه بأنّه كان خوضاً و لعباً .

و لذا أمر نبيّه صلى الله عليه وآله أن يوبّخهم على ما اعتذروا به فقال : « قل أبالله و آياته و رسوله كنتم تستهزؤون » ثمّ فسّر عملهم في آخر الآيات بقوله : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا » الآية .

ويتحصّل من مجموع هذه القرائن أنّ المنافقين كانوا أرادوا النبيّ صلى الله عليه وآله بسوء كالفتك به ومفاجأته بما يهلكه وأقدموا على ماقصدوه وتكلّموا عند ذلك بشيء من الكلام الرديّ لكنّهم أخطؤوا في ما أوقعوه عليه واندفع الشرّ عنه ، ولم يصب السهم هدفه فلمّا خاب سعيهم وبان أمرهم سألهم النبيّ صلى الله عليه وآله عن ذلك وما تصدّوه به اعتذروا بأنّهم كانوا يخوضون ويلعبون فوبّخهم النبيّ صلى الله عليه وآله بقوله : « أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون» وردّ الله سبحانه إليهم عذرهم الّذي اعتذروا به وبيّن حقيقة ماقصدوا بذلك .

وبالجملة معنى الآية : واُقسم لئن سألتهم عن فعلهم الّذي شوهد منهم : ما الّذي أرادوا به؟وكان ظاهره أنّهم همّوا بأمر فيك.ليقولنّ : لم يكن قصد سوء ولا بالّذي ظننت

فأسأت الظنّ بنا ، و إنّما كنّا نخوض و نلعب خوض الركب في الطريق لا على سبيل الجدّ ولكن لعباً .

وهذا اعتذار منهم بالاستهزاء بالله وآياته ورسوله فإنّهم يعترفون بأنّهم فعلوا فيك ما فعلوه خوضاً ولعباًفقد استهزؤوابالله ورسوله فقل : أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون أي أتعتذرون عن سيّيء فعلكم بسيّئة اُخرى هي الاستهزاء بالله وآياته و رسوله ، و هو كفر ؟

وليس من البعيد أن يكون الغرض الأصيل بيان كونه استهزاء بالرسول ، وإنّما ذكر الله وآياته للدلالة على معنى الاستهزاء بالرسول ، وأنّه لمّا كان من آيات الله كان الاستهزاء به استهزاء بآيات الله ، و الاستهزاء بآيات الله استهزاء بالله العظيم فالاستهزاء برسول الله استهزاء بالله وآياته ورسوله .

قوله تعالى : « لاتعتذروا قد كفرتم بعدإيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » الآية قال الراغب في المفردات : الطوف المشي حول الشيء و منه الطائف لمن يدور حول البيوت حافظاً ـ إلى أن قال ـ و الطائفة من الناس جماعة منهم و من الشيء القطعة منه .

وقوله تعالى : « فلولانفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين » قال بعضهم: قد يقع ذلك على الواحد فصاعداً ، و على ذلك قوله : «وإن طائفتان من المؤمنين.إذ همّت طائفتان منكم» .

و الطائفة إذا اُريد بها الجمع فجمع طائف ، « و إذا اُريد بهاالواحد فيصحّ أن يكون جمعاً ويكنّى به عن الواحد ، ويصحّ أن يجعل كراوية و علاّمة ونحو ذلك .انتهى

وقد خطّأ بعضهم القول بجواز صدق الطائفة على الواحد والاثنين من الناس كما تصدق على الثلاثة فصاعداً ، وبالغ في ذلك حتّى عدّه غلطاً ولا دليل له على ماذكره ، و مادّة اللّفظ لا يستوجب شيئاً معيّناً من العدد ، و إطلاقها على القطعة من الشيء يؤيّد استعمالها في الواحد .

وقوله : «لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم » نهي عن الاعتذار بدعوى أنّه لغو كما

يدلّ عليه قوله : « قد كفرتم بعد إيمانكم » فإنّ الاعتذار لافائدة تترتّب عليه بعدالحكم بكفرهم بعد إيمانهم .

و المراد بإيمانهم هو ظاهر الإيمان الّذي كانوا يتظاهرون به لا حقيقة الإيمان الّذي هو من الهداية الإلهيّة الّتي لا يعقبها ضلال ، و يؤيّده قوله تعالى في آخر هذه الآيات : « ولقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد إسلامهم » فبدّل الإيمان إسلاماًوهوظاهر الشهادتين .

و يمكن أن يقال : إنّ من مراتب الإيمان ماهواعتقاد وإذعان ضعيف غير آب عن الزوال كإيمان الّذين في قلوبهم مرض وقد عدّهم الله من المؤمنين و ذكرهم مع المنافقين لامنهم ، ولا مانع من أن ينسلخوا هذا الإيمان .

و كيف لا ؟ وقد سلخ الله الإيمان ممّن هو أرسخ إيماناً منهم كالّذي يقصّه في قوله: «واتل عليهم نبأ الّذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين ولوشئنا لرفعناه بها ولكنّه أخلد إلى الأرض واتّبع هواه » الأعراف : ١٧٦ .

وقال أيضا : « إنّ الّذين آمنوا ثمّ كفروا ثمّ آمنوا ثمّ كفروا ثمّ ازدادوا كفراً» النساء : ١٣٧ وقد أكثر القرآن الكريم من ذكر الكفر بعد الإيمان فلامانع من زوال الاعتقاد القلبيّ قبل رسوخه وهو اعتقاد .

نعم الإيمان المستقرّ والاعتقاد الراسخ لاسبيل إلى عروض الزوال له قال تعالى : « من يهدي الله فهو المهتدي » الأعراف : ١٧٨ وقال : « فإنّ الله لا يهدي من يضلّ » النحل : ٣٧ .

و قوله : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » يدلّ على أنّ هؤلاء المنافقين المذكورين في الآيات كانوا ذوي عدد و كثرة ، وأنّ كلمة العذاب وقعت عليهم لابدّ لهم من العذاب فلو شمل بعضهم عفو إلهيّ لمصلحة في ذلك وقع العذاب على الباقين فهذامعنى الجملة : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » بحسب ما يفهم من نظمه وسياقه .

وبعبارة اُخرى رابطة اللزوم بين الشرط والجزاء بترتّب الجزاء وتفرّعه على الشرط إنّما هي بالتبع وأصله ترتّب الجزاء ههنا على أمر يتعلّق به الشرط و هو أنّ العذاب

وجب على جماعتهم فإن عفي عن بعضهم تعيّن الباقون من غير تخلّف .

وقد ظهر بما قدّمناه أوّلاً : وجه ترتّب قوله : « نعذّب طائفة » على قوله : « إن نعف عن طائفة » و اندفع مااستشكله بعضهم على الآية أنّه لاملازمة بين العفو عن البعض وعذاب البعض فما معنى الاشتراط ؟

والجواب : أنّ اللزوم بحسب الأصل بين وجوب نزول العذاب على الجماعة وبين نزوله على بعضهم ثمّ انتقل إلى ما بين العفو عن البعض و بين نزوله على بعضهم كما قرّرناه .

و ثانياً : أنّ المراد بالعفو هو ترك العذاب لمصلحة من مصالح الدين دون العفو بمعنى المغفرة المستندة إلى التوبة إذ لاوجه ظاهراً لمثل قولنا : إن غفرنا لطائفة منكم لتوبتهم نعذّب طائفة لجرمهم مع أنّهم لوتابوا جميعاً لم يعذّبوا قطعاً .

وقد ندب الله إليهم جميعاً أن يتوبوا حيث قال في آخر الآيات : « فإن يتوبوا يك خيراً لهم وإن يتولّوا يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا والآخرة » .

وثالثاً : أنّ العفو في الآية بل والعذاب المذكور فيها هو العفو عن العذاب الدنيويّ وتركها و كذا القول في العذاب فإنّ العفو من العذاب الاُخرويّ على ما تنصّ عليه الآيات القرآنيّة إنّما يكون لتوبة أوشفاعة ، ولا تحقّق لواحد منهما فيما نحن فيه أمّا التوبة فلما تبيّن أنّها غير مرادة في الآية ، و أمّا الشفاعة فلما ثبت بآيات الشفاعة أن الشفاعة لاينالها في الآخرة إلّا مؤمن مرضيّ الإيمان ، وقد استوفينا البحث عنها في الجزء الأوّل من الكتاب .

و رابعاً : أنّه لا مانع من كون الآية أعني قوله : « لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة » الآية من تتمّة كلام النبيّ صلى الله عليه وآله فإنّ المراد بالعفو و العذاب هو العذاب الدنيويّ بالسياسة وتركه ، ولا مانع من نسبتهما إلى النبيّ صلى الله عليه وآله .

لكن ظاهر الآيات التالية هو كونه من قول الله سبحانه خطاباً للمنافقين فيكون التفاتاً من خطاب النبيّ صلى الله عليه وآله إلى خطابهم والنكتة فيه إظهار كمال الغضب واشتداد السخط من صنعهم حتّى كأنّه لايفي بإيذانه وإعلامه الرسالة فواجههم بنفسه و خاطبهم بشخصه

فهدّدهم بعذاب واقع لامردّ له ولا مفرّ منه .

قوله تعالى : « المنافقون و المنافقات بعضهم من بعض » إلى آخر الآيتين، ذكروا أنّه استئناف يتعرّض لحال عامّة المنافقين بذكر أوصافهم العامّة الجامعة وتعريفهم بها وما يجازيهم الله في عاقبة أمرهم ثمّ يتعرّض لحال عامّة المؤمنين ويعرّفهم بصفاتهم الجامعة ويذكر ما ينبّئهم الله به على سبيل المقابلة استتماماً للقسمة ، ومن الدليل على هذا الاستيفاء ذكر جزاء الكفّار مع المنافقين في قوله : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّار » الآية .

والظاهر أنّ الآية في مقام التعليل لقوله في الآية السابقة : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » وسياق مخاطبة المنافقين جار لم ينقطع بعد .

فالآية السابقة لمّا دلّت على أنّه تعالى لايترك المنافقين حتّى يعذّبهم بإجرامهم فإن ترك بعضاً منهم لحكمة و مصلحة أخذ آخرين منهم بالعذاب كان هناك مظنّة أن يسأل فيقال : ما وجه أخذ البعض إذا ترك غيره ؟ و هل هو إلاّ كأخذ الجار بجرم الجار فاُجيب ببيان السبب وهو أنّ المنافقين جميعاً بعضهم من بعض لاشتراكهم في خبائث الصفات والأعمال ، واشتراكهم في جزاء أعمالهم وعاقبة حالهم .

ولعلّه ذكر المنافقات مع المنافقين مع عدم سبق لذكرهنّ للدلالة على كمال الاتّحاد والاتّفاق بينهم في نفسيّتهم ، وليكون تلويحاً على أنّ من النساء أيضاً أجزاء مؤثّرة في هذا المجتمع النفاقيّ الفاسد المفسد .

فمعنى الآية لاينبغي أن يستغرب أخذ بعض المنافقين إذا ترك البعض الآخر لأنّ المنافقين والمنافقات يحكم عليهم نوع من الوحدة النفسيّة يوحّد كثرتهم فيرجع بعضهم إلى بعض ، فيشرّكهم في الأوصاف و الأعمال وما يجازون به بوعد من الله تعالى .

فهم يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويمسكون عن الإنفاق في سبيل الله و بعبارة اُخرى نسوا الله تعالى بالإعراض عن ذكره لأنّهم فاسقون خارجون عن زيّ العبوديّة فنسيهم الله فلم يثبهم بما أثاب عباده الذاكرين مقام ربّهم .

ثمّ ذكر ما وعدهم على ذلك فقال : « وعد الله المنافقين والمنافقات والكفّار ـ وعطف عليهم

الكفّار لأنّهم جميعاً سواء ـ نار جهنّم خالدين فيها هي حسبهم» من الجزاء لا يتعدّى فيهم إلى غيرها «ولعنهم الله» وأبعدهم «ولهم عذاب مقيم» ثابت لا يزول عنهم البتّة .

وقد ظهر بذلك أنّ قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم» الخ بيان لما تقدّمه من قوله : « يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم » .

ويتفرّع على ذلك أنّ الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و الإنفاق في سبيل الله من الذكر .

قوله تعالى : « كالّذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة وأكثر أموالاً و أولاداً فاستمتعوا بخلاقهم » الخ قال الراغب : الخلاق ما اكتسبه الإنسان من الفضيلة بخلقه قال تعالى : « وما له في الآخرة من خلاق » انتهى وفسّره غيره بمطلق النصيب .

والآية من تتمّة مخاطبة المنافقين الّتي في قوله : « لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم» الآية في سياق واحد متّصل و في الآية تشبيه حال المنافقين بحال من كان قبلهم من الكفّار و المنافقين و قياسهم إليهم ليستشهد بذلك على ما قيل : أنّ المنافقين و المنافقات بعضهم من بعض وأنّهم جميعاً و الكفّار ذووا طبيعة واحدة في الإعراض عن ذكر الله و الإقبال على الاستمتاع بما اُوتوا من أعراض الدنيا من أموال وأولاد والخوض في آيات الله ثمّ في حبط أعمالهم في الدنيا و الآخرة و الخسران .

ومعنى الآية ـ والله أعلم ـ أنتم كالّذين من قبلكم كانت لهم قوّة وأموال وأولاد بل أشدّ و أكثر في ذلك منكم ، فاستمتعوا بنصيبهم وقد تفرّع على هذه المماثلة أنّكم استمتعتم كما استمتعوا وخضتم كما خاضوا اُولئك حبطت أعمالهم في الدنيا و الآخرة و اُولئك هم الخاسرون و أنتم أيضاً أمثالهم في الحبط و الخسران و لذا وعدكم النار الخالدة و لعنكم .

وذكر كون قوّة من قبلهم أشدّ و أموالهم و أولادهم أكثر للإيماء إلى أنّهم لم يعجزوا الله بذلك ، ولم يدفع ذلك عنهم غائلة الحبط والخسران فكيف بكم وأنتم أضعف قوّة و أقلّ أموالاً و أولاداً ؟

قوله تعالى : « ألم يأتهم نبأ الّذين من قبلهم قوم نوح وعاد وثمود وقوم إبراهيم وأصحاب مدين والمؤتفكات » الآية رجوع إلى السياق الأوّل وهو سياق مخاطبة النبيّ ﷺ مع افتراض الغيبة في المنافقين ، وتذكيرٌ لهم بما قصّ عليهم القرآن من قصص الاُمم الماضين .

فذاك قوم نوح عمّهم الله سبحانه بالغرق ، و عاد وهم قوم هود أهلكهم بريح صرصر عاتية ، وثمود وهم قوم صالح عذّبهم بالرجفة ، وقوم إبراهيم أهلك ملكهم نمرود و سلب عنهم النعمة ، والمؤتفكات و هي القرى المنقلبات على وجهها ـ من ائتفكت الأرض إذا انقلبت ـ قرى قوم لوط جعل عاليها سافلها .

وقوله : « أتتهم رسلهم بالبيّنات » أي بالواضحات من الآيات والحجج والبراهين وهو بيان إجماليّ لنبأهم أي كان نبأهم أن أتتهم رسلهم بالآيات البيّنة فكذّبوها فانتهى أمرهم إلى الهلاك ، ولم يكن من شأن السنّة الإلهيّة أن يظلمهم لأنّه بيّن لهم الحقّ والباطل، وميّز الرشد من الغيّ ، والهدى من الضلال ، ولكن كان اُولئك الأقوام والاُمم أنفسهم يظلمون بالاستمتاع من نصيب الدنيا والخوض في آيات الله وتكذيب رسله .

قوله تعالى : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » إلى آخر الآية . ثمّ وصف الله سبحانه حال المؤمنين عامّة محاذاة لما وصف به المنافقين فقال : « والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض » ليدلّ بذلك على أنّهم مع كثرتهم وتفرّقهم من حيث العدد ومن الذكورة و الاُنوثة ذوو كينونة واحدة متّفقة لا تشعّب فيها و لذلك يتولّى بعضهم أمر بعض و يدبّره .

و لذلك كان يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف و ينهى بعضهم بعضاً عن المنكر فلولاية بعض المجتمع على بعض ولاية سارية في جميع الأبعاض دخلا في تصدّيهم الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فيما بينهم أنفسهم .

ثمّ وصفهم بقوله : « ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة » وهما الركنان الوثيقان في الشريعة فالصلاة ركن العبادات الّتي هي الرابطة بين الله وبين خلقه ، والزكاة في المعاملات

الّتي هي رابطة بين الناس أنفسهم .

ثمّ وصفهم بقوله : « و يطيعون الله و رسوله » فجمع في إطاعة الله جميع الأحكام الشرعيّة الإلهيّة و جمع في إطاعة رسوله جميع الأحكام الولائيّة الّتي يصدرها رسوله في إدارة اُمور الاُمّة و إصلاح شؤونهم كفرامينه في الغزوات ، وأحكامه في القضايا و إجراء الحدود وغير ذلك .

على أنّ إطاعة شرائع الله النازلة من السماء من جهة اُخرى منطوية في إطاعة الرسول فإنّ الرسول هو الصادع بالحقّ القائم بالدعوة إلى اُصول الدين وفروعه .

و قوله : « اُولئك سيرحمهم الله » إخبار عمّا في القضاء الإلهيّ من شمول الرحمة الإلهيّة لهؤلاء القوم الموصوفين بما ذكر ، وكأنّ في هذه الجملة محاذاة لما سرد في المنافقين من قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » و الظاهر أيضاً أنّ قوله : « إنّ الله عزيز حكيم » تعليل لما ذكر من الرحمة فلا مانع من رحمته لعزّته ، ولا اختلال أو وهناً و جزافاً لحكمته .

قوله تعالى : « وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار » إلى آخر الآية ، العدن مصدر بمعنى الإقامة والاستقرار يقال : عدن بالمكان أي أقام فيه واستقرّ ومنه المعدن للأرض الّتي تستقرّ فيه الجواهر والفلزّات المعدنيّة ، وعلى هذا فمعنى جنّات عدن جنّات إقامة واستقرار وخلود .

و قوله : « ورضوان من الله أكبر » أي رضى الله سبحانه عنهم أكبر من ذلك كلّه ـ على ما يفيده السياق ـ وقد نكّر «رضوان» إيماء إلى أنّه لا يقدّر بقدر ولا يحيط به وهم بشر أو لأنّ رضواناً مّا منه و لو كان يسيراً أكبر من ذلك كلّه لا لأنّ ذلك كلّه ممّا يتفرّع على رضاه تعالى ويترشّح منه ـ وإن كان كذلك في نفسه ـ بل لأنّ حقيقة العبوديّة الّتي يندب إليها كتاب الله هي عبوديّته تعالى حبّاً له : لا طمعاً في جنّة ، أو خوفاً من نار ، و أعظم السعادة و الفوز عند المحبّ أن يستجلب رضى محبوبه دون أن يسعى لإرضاء نفسه .

وكأنّه للإشارة إلى ذلك ختم الآية بقوله : « ذلك هو الفوز العظيم » و تكون في

الجملة دلالة على معنى الحصر أي أنّ هذا الرضوان هو حقيقة كلّ فوز عظيم حتّى الفوز العظيم بالجنّة الخالدة إذ لولا شيء من حقيقة الرضى الإلهيّ في نعيم الجنّة كان نقمة لا نعمة.

قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنّم و بئس المصير » جهاد القوم ومجاهدتهم بذل غاية الجهد في مقاومتهم و هو يكون باللّسان و باليد حتّى ينتهي إلى القتال ، وشاع استعماله في الكتاب في القتال و إن كان ربّما استعمل في غيره كما في قوله : « والّذين جاهدوا فينا لنهدينّهم سبلنا » الآية .

واستعماله في قتال الكفّار على رسله لكونهم متجاهرين بالخلاف والشقاق ، وأمّا المنافقون فهم الّذين لا يتظاهرون بكفر ولا يتجاهرون بخلاف ، و إنّما يبطنون الكفر ويقلّبون الاُمور كيداً ومكراً ولا معنى للجهاد معهم بمعنى قتالهم ومحاربتهم ، ولذلك ربّما يسبق إلى الذهن أنّ المراد بجهادهم مطلق ما تقتضيه المصلحة من بذل غاية الجهد في مقاومتهم فإن اقتضت المصلحة هجروا ولم يخالطوا ولم يعاشروا ، و إن اقتضت وعظوا باللسان ، وإن اقتضت اُخرجوا وشرّدوا إلى غير الأرض أو قتلوا إذا اُخذ عليهم الردّة ، أو غير ذلك .

وربّما شهد لهذا المعنى أعني كون المراد بالجهاد في الآية مطلق بذل الجهد تعقيب قوله : « جاهد الكفّار و المنافقين » بقوله : « واغلظ عليهم » أي شدّد عليهم و عاملهم بالخشونة .

و أمّا قوله : « ومأواهم جهنّم و بئس المصير » فهو عطف على ما قبله من الأمر ، ولعلّ الّذي هوّن الأمر في عطف الإخبار على الإنشاء هو كون الجملة السابقة في معنى قولنا : « إنّ هؤلاء الكفّار والمنافقين مستوجبون للجهاد » . والله أعلم .

قوله تعالى : « يحلفون بالله ما قالوا ولقد قالوا كلمة الكفر و كفروا بعد إسلامهم وهمّوا بما لم ينالوا » الآية . سياق الآية يشعر بأنّهم أتوا بعمل سيّىء و شفّعوه بقول تفوّهوا به عند ذلك ، وأنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله عاتبهم على قولهم مؤاخذاً لهم فحلفوا بالله ما قالوا كما تقدّم في قوله : « و لئن سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوض و نلعب » إلى آخر الآية

أنّهم كانوا يعتذرون بذلك عن عملهم أنّه كان خوضاً ولعباً لا غير ذلك .

والله سبحانه يكذّبهم في الأمرين جميعاً : أمّا في إنكارهم القول فبقوله : « ولقد قالوا كلمة الكفر » وفسّره ثانياً بقوله : « وكفروا بعد إسلامهم » للدلالة على جدّ القول فيتفرّع عليه الكفر بعد الإسلام .

ولعلّه قال ههنا : « وكفروا بعد إسلامهم » وقد قيل سابقاً : « قد كفرتم بعد إيمانكم » لأنّ القول السابق للنبيّ صلى الله عليه وآله الجاري على ظاهر حالهم وهو الإيمان الّذي كانوا يدّعونه ويتظاهرون به ، والقول الثاني لله العالم بالغيب والشهادة فيشهد بأنّهم لم يكونوا مؤمنين ولم يتعدّوا الشهادتين بلسانهم فهم كانوا مسلمين لا مؤمنين ، وقد كفروا بقولهم وخرجوا عن الإسلام إلى الكفر ، وفي هذا إيماء إلى أنّ قولهم كان كلمة فيه الردّ على الشهادتين أو إحداهما ،

أو لأنّ القول الأوّل في قبال عملهم الّذي أرادوا إيقاع الشرّ بالنبيّ صلى الله عليه وآله ، والعمل الخالي من القول وهو لم يصب الغرض لا يضرّ بالإسلام الّذي هو نصيب اللّفظ والشهادة ، وإنّما يضرّ بالإيمان الّذي هو نصيب الاعتقاد ، والقول الثاني في قبال قولهم الّذي تفوّهوا به ، وهو ينافي الإسلام الّذي يكتسب باللّفظ دون الإيمان الّذي هو نوع من الاعتقاد القلبيّ .

وأمّا في إنكارهم العمل السيّىء الّذي أتوا به وتأويلهم إيّاه إلى الخوض واللّعب فبقوله : « وهمّوا بما لم ينالوا » .

ثمّ قال في مقام ذمّهم وتعييرهم : « وما نقموا إلّا أن أغناهم الله ورسوله من فضله » أي بسبب أن أغناهم الله ورسوله ، أي كان سبب نقمتهم هذه أنّ الله أغناهم من فضله بما رزقهم من الغنائم وبسط عليهم الأمن والرفاهية فمكّنهم من توليد الثروة و إنماء المال من كلّ جهة ، وكذا رسوله حيث هداهم إلى عيشة صالحة تفتح عليهم أبواب بركات السماء والأرض ، وقسّم بينهم الغنائم وبسط عليهم العدل .

فهو من قبيل وضع الشيء موضع ضدّه : وضع فيه الإغناء وهو بحسب الطبع سبب للرضى والشكر موضع سبب النقمة والسخطة كالظلم والغصب وإن شئت قلت : وضع فيه الإحسان

موضع الإساءة ، ففيه نوع من التهكّم المشوب بالذمّ نظير ما في قوله تعالى : « و تجعلون رزقكم أنّكم تكذّبون » الواقعة : ٨٢ أي تجعلون رزقكم سبباً للتكذيب بآيات الله وهو سبب بحسب الطبع لشكر النعمة والرضا بالموهبة على ما قيل : إنّ المعنى : وتجعلون بدل شكر رزقكم أنّكم تكذّبون .

والضمير في قوله : «من فضله» راجع إلى الله سبحانه قال في المجمع : و إنّما لم يقل : من فضلهما لأنّه لا يجمع بين اسم الله واسم غيره في الكناية تعظيماً لله ، ولذلك قال النبيّ صلّى الله عليه وآله لمن سمعه يقول : « من أطاع الله ورسوله فقد اهتدى ومن عصاهما فقد غوى » : بئس خطيب القوم أنت فقال : كيف أقول يا رسول الله ؟ قال : قل : ومن يعص الله ورسوله ، و هكذا القول في قوله سبحانه : « والله و رسوله أحقّ أن يرضوه » و قيل : إنّما لم يقل من فضلهما لأنّ فضل الله منه وفضل رسوله من فضله انتهى كلامه .

وهناك وراء التعظيم أمر آخر قدّمنا القول فيه في تفسير قوله تعالى : «لقد كفر الّذين قالوا إنّ الله ثالث ثلاثة » المائدة : ٧٣ في الجزء السادس من الكتاب ، وهو أنّ وحدته تعالى ليست من سنخ الوحدة العدديّة حتّى يصحّ بذلك تأليفها مع وحدة غيره واستنتاج عدد من الأعداد منه .

ثمّ بيّن الله سبحانه لهؤلاء المنافقين أنّ لهم مع هذه الذنوب المهلكة وصريح كفرهم بالله و همّهم بما لم ينالوا أن يرجعوا إلى ربّهم ، وبيّن عاقبة أمر هذه التوبة و عاقبة التولّي والإعراض عنها فقال : « فإن يتوبوا يك خيراً لهم» لأدائه إلى المغفرة والجنّة « وإن يتولّوا » ويعرضوا عن التوبة « يعذّبهم الله عذاباً أليماً في الدنيا » بالسياسة والنكال أو بإغراء النبيّ صلّى الله عليه وآله عليهم أو بالمكر والاستدراج ، ولو لم يكن من عذابهم إلّا أنّهم مخالفون بنفاقهم نظام الأسباب المبنيّ على الصدق والإيمان فتقادمهم سلسلة الأسباب و تحطمهم وتفضحهم لكان فيه كفاية ، وقد قال الله : « والله لا يهدي القوم الفاسقين » التوبة : ٢٤ « والآخرة » بعذاب النار .

وقوله تعالى : « وما لهم في الأرض من وليّ ولا نصير » معناه أنّ هؤلاء لا وليّ لهم في الأرض يتولّى أمرهم ويصرف العذاب عنهم ، ولا نصير ينصرهم ويمدّهم بما يدفعون به

العذاب الموعود عن أنفسهم لأنّ سائر المنافقين أيضاً منهم و كلمة الفساد يجمعهم و أصلهم الفاسد منقطع عن سائر الأسباب الكونيّة فلا وليّ لهم يتولّى أمرهم ولا ناصر لهم ينصرهم ولعلّ هذه الجملة من الآية إشارة إلى ما أومأنا إليه في معنى عذاب الدنيا .

(بحث روائي)

في المجمع في قوله تعالى : « يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة » الآية : قيل : نزلت في اثني عشر رجلاً وقفوا على العقبة ليفتكوا برسول الله صلى الله عليه وآله عند رجوعه من تبوك فأخبر جبرئيل رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك ، وأمره أن يرسل إليهم و يضرب وجوه رواحلهم .

وعمّار كان يقود دابّة رسول الله صلى الله عليه وآله وحذيفة يسوقها فقال لحذيفة : اضرب وجوه رواحلهم فضربها حتّى نحّاهم فلمّا نزل قال لحذيفة : من عرفت من القوم ؟ قال : لم أعرف منهم أحداً فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : إنّه فلان وفلان حتّى عدّهم كلّهم فقال حذيفة : ألا تبعث إليهم فتقتلهم ؟ فقال : أكره أن تقول العرب : لمّا ظفر بأصحابه أقبل يقتلهم . عن ابن كيسان .

و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام مثله إلّا أنّه قال : ائتمروا بينهم ليقتلوه و قال بعضهم لبعض : إن فطن نقول : إنّما كنّا نخوض ونلعب ، و إن لم يفطن نقتله .

و قيل : إنّ جماعة من المنافقين قالوا في غزوة تبوك : يظنّ هذا الرجل أن يفتح قصور الشام وحصونها هيهات هيهات فأطلع الله نبيّه صلى الله عليه وآله على ذلك فقال : احبسوا عليّ الركب فدعاهم فقال لهم : قلتم كذا و كذا . فقالوا : يا نبيّ الله إنّما كنّا نخوض ونلعب و حلفوا على ذلك فنزلت الآية : « ولئن سألتهم ليقولنّ » الخ عن الحسن وقتادة .

وقيل : كان ذلك عند مصرفه من غزوة تبوك إلى المدينة وكان بين يديه أربعة نفر أوثلاثة يستهزؤون ويضحكون ، وأحدهم يضحك ولا يتكلّم فنزل جبرئيل وأخبر رسول الله صلى الله عليه وآله بذلك فدعا عمّار بن ياسر وقال : إنّ هؤلاء يستهزؤون بي وبالقرآن أخبرني جبرئيل بذلك ، و لئن سألتهم ليقولنّ : كنّا نتحدّث بحديث الركب فأتبعهم عمّار و قال لهم

تضحكون ؟ قالوا : نتحدّث بحديث الركب فقال عمّار : صدق الله ورسوله احترقتم أحرقكم الله فأقبلوا إلى النبيّ ﷺ يعتذرون فأنزل الله تعالى الآيات . عن الكلبيّ وعليّ بن إبراهيم وأبي حمزة .

وقيل : إنّ رجلاً قال في غزوة تبوك : ما رأيت أكذب لساناً ولا أجبن عند اللّقاء من هؤلاء يعني رسول الله ﷺ وأصحابه فقال له عوف بن مالك : كذبت ولكنّك منافق وأراد أن يخبر رسول الله بذلك فجاء وقد سبقه الوحي فجاء الرجل معتذراً ، وقال : إنّما كنّا نخوض ونلعب ففيه نزلت الآية عن ابن عمرو زيد بن أسلم ومحمّد بن كعب .

وقيل : إنّ رجلاً من المنافقين قال : يحدّثنا محمّد أنّ ناقة فلان بوادي كذا وكذا وما يدريه ما الغيب ؟ فنزلت الآية عن مجاهد .

وقيل : نزلت في عبدالله بن اُبيّ ورهطه ، عن الضحّاك .

وفي المجمع أيضاً في قوله تعالى : « يحلفون بالله ماقالوا » الآية اختلف في من نزلت فيه هذه الآية فقيل : إنّ رسول الله ﷺ كان جالساً في ظلّ شجرة فقال : إنّه سيأتيكم إنسان فينظر إليكم بعيني الشيطان فلم يلبثوا أن طلع رجل أزرق فدعاه رسول الله ﷺ فقال : علام تشتمني أنت وأصحابك ؟ فانطلق الرجل فجاء بأصحابه فحلفوا بالله : ما قالوا فأنزل الله هذه الآية عن ابن عبّاس .

وقيل : خرج المنافقون مع رسول الله ﷺ إلى تبوك فكانوا إذا خلا بعضهم ببعض سبّوا رسول الله ﷺ وأصحابه وطعنوا في الدين فنقل ذلك حذيفة إلى رسول الله ﷺ فقال لهم : ما هذا الّذي بلغني عنكم فحلفوا بالله : ما قالوا شيئاً من ذلك عن الضحّاك .

وقيل : نزلت في جُلاس بن سويد بن الصامت ، وذلك أنّ رسول الله ﷺ خطب ذات يوم بتبوك وذكر المنافقين فسمّاهم رجساً وعابهم فقال الجلاس : والله لئن كان محمّد صادقاً فيما يقول فنحن شرّ من الحمير فسمعه عامر بن قيس فقال : أجل والله إنّ محمّداً لصادق وأنتم شرّ من الحمير فلمّا انصرف رسول الله ﷺ إلى المدينة أتاه عامر بن قيس فأخبره بما قال الجلاس فقال الجلاس : كذب يا رسول الله .

فأمرهما رسول الله ﷺ أن يحلفا عند المنبر فقام الجلاس عند المنبر فحلف بالله ما

قال ثمّ قام عامر فحلف بالله لقد قال : ثمّ قال : اللّهمّ أنزل على نبيّك الصادق منّا الصدق فقال رسول الله صلى الله عليه وآله والمؤمنون : آمين فنزل جبرائيل عليه السلام قبل أن يتفرّقا بهذه الآية حتّى بلغ : «فإن يتوبوا يك خيراً لهم» ،

فقام الجلاس فقال : يا رسول الله أسمع الله قد عرض عليّ التوبة صدق عامر بن قيس فيما قال لك لقد قلته و أنا أستغفر الله و أتوب إليه فقبل رسول الله صلى الله عليه وآله ذلك منه . عن الكلبيّ ومحمّد بن إسحاق ومجاهد .

وقيل: نزلت في عبدالله بن اُبيّ بن سلول حين قال : «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ» . عن قتادة .

وقيل : نزلت في أهل العقبة فإنّهم ائتمروا في أن يغتالوا رسول الله صلى الله عليه وآله في عقبة عند مرجعهم من تبوك ، و أرادوا أن يقطعوا أنساع راحلته ثمّ ينخسوا به فأطلعه الله على ذلك وكان من جملة معجزاته لأنّه لا يمكن معرفة مثل ذلك إلّا بوحي من الله تعالى .

فسار رسول صلى الله عليه وآله في العقبة ، وعمّار وحذيفة معه أحدهما يقود ناقته والآخر يسوقها وأمر الناس كلّهم بسلوك بطن الوادي ، وكان الّذين همّوا بقتله اثني عشر رجلاً أوخمسة عشر رجلاً على الخلاف فيه عرفهم رسول الله صلى الله عليه وآله و سمّاهم واحداً واحداً عن الزجّاج والواقديّ والكلبيّ ، والقصّة مشروحة في كتاب الواقديّ .

وقال الباقر عليه السلام : كانت ثمانية منهم من قريش وأربعة من العرب .

أقول : والّذي ذكره رحمه الله ممّا جمعه واختاره من الروايات مرويّة في كتب التفسير بالمأثور وجوامع الحديث من كتب الفريقين وهناك روايات اُخرى تركها وأحرى بها أن تترك فتركنا أكثرها كما ترك .

وأمّا الّذي أورده من الروايات فشيء منها لا ينطبق على الآيات غير حديث العقبة الّذي أورده تارة في تفسير الآية الاُولى : « يحذر المنافقون أن تنزّل عليهم سورة » الآية وتارة في تفسير الآية : « يحلفون بالله ما قالوا » الآية .

و أمّا سائر الروايات الواردة فإنّما هي روايات تتضمّن من متفرّقات القصص والوقائع مالو صحّت وثبتت كانت من قصص المنافقين من غير أن ترتبط بهذه الآيات ـ وهي

كما عرفت في البيان السابق إحدى عشرة آية متّصل بعضها ببعض مسرودة لغرض واحد ، وهو الإشارة إلى قصّة من قصص المنافقين همّوا فيها باغتيال رسول الله صلى الله عليه وآله ، و تكلّموا عند ذلك بكلمة الكفر فحال الله سبحانه بينهم وبين أن ينالوا ما همّوا به فسألهم رسول الله صلى الله عليه وآله عن أمرهم وما تفوّهوا به فأوّلوا فعلهم وأنكروا قولهم وحلفوا على ذلك فكذّبهم الله تعالى فيه .

فهذا إجمال ما يلوح من خلال الآيات ، ولا ينطبق من بين الروايات إلّا على الروايات المشتملة على قصّة العقبة في الجملة دون سائرها .

ولا مسوّغ للاستناد إليها في تفسير الآيات إلّا على مسلك القوم من تحكيم الروايات بحسب مضمونها على الآيات سواء ساعدت على ذلك ألفاظ الآيات أو لم تساعد على ما فيها ـ أعني الروايات ـ من الاختلاف الفاحش الّذي يوجب سوء الظنّ بها كما يظهر لمن راجعها .

على أنّ في الروايات مغمزاً آخر وهو ظهورها في تقطّع الآيات و تشتّت بعضها و انفصاله عن بعض بنزول كلّ لسبب آخر وتعقيبه غرضاً آخر ، وقد عرفت أنّ الآيات ذات سياق واحد متّصل ليس من شأنه إلّا أن يعقّب غرضاً واحداً .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبدالرزّاق وابن المنذر وأبو الشيخ عن الكلبيّ أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا أقبل من غزوة تبوك و بين يديه ثلاثة رهط استهزؤوا بالله و رسوله وبالقرآن قال : كان رجل منهم لم يمالئهم في الحديث يسير مجانباً لهم يقال له : يزيد بن وديعة فنزلت : « إن نعف عن طائفة منكم نعذّب طائفة » فسمّي طائفة وهو واحد .

أقول : وهذا هو منشأ قول بعضهم : إنّ الطائفة تطلق على الواحد كما تطلق على الكثير مع أنّ الآية جارية مجرى الكناية دون التسمية و نظير ذلك كثير في الآيات القرآنيّة كما تقدّمت الإشارة إليه .

وفيه أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس قال : نزلت هذه الآية في رهط من المنافقين من بني عمرو بن عوف فيهم وديعة بن ثابت ، ورجل من أشجع حليف لهم يقال له : مخشيّ ابن حميّر* كانوا يسيرون مع رسول الله صلى الله عليه وآله وهو منطلق إلى تبوك فقال بعضهم لبعض :

* وقد مر في ص ٣٣٨ نقلا عن المصدر نفسه جحش بن حمير وهو مصحف (ب) .

أتحسبون قتال بني الأصفر كقتال غيرهم والله لكأنّا بكم غداً تقادون في الحبال .

قال مخشيّ بن حميّر لوددت أنّي اُقاضى على أن يضرب كلّ رجل منكم مائة على أن ينجو من أن ينزّل فينا قرآن فقال رسول الله صلّى الله عليه وآله لعمّار بن ياسر : أدرك القوم فإنّهم قد احترقوا فسلهم عمّا قالوا فإن هم أنكروا و كتموا فقل : بلى قد قلتم كذا و كذا فأدركهم فقال لهم فجاؤوا يعتذرون فأنزل الله : « لاتعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم » الآية فكان الّذي عفا الله عنه مخشيّ بن حميّر فتسمّى عبدالرحمان ، وسأل الله أن يقتل شهيداً لايعلم بمقتله فقتل باليمامة لايعلم مقتله ولا من قتله ولا يرى له أثر ولا عين .

أقول : وقصّة مخشيّ بن حميّر وردت في عدّة روايات غير أنها على تقدير صحّتها لاتستلزم نزول الآيات فيها على مابينها وبين مضامين الآيات من البون البعيد .

وليس من الواجب علينا إذا عثرنا على شيء من القصص الواقعة في زمن النبي صلّى الله عليه وآله أيّ قصّة كانت أن نلجم بها آية من آيات القرآن الكريم ثمّ نعود فنفسّر الآية بالقصّة ونحكّمها عليها .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم و أبوالشيخ عن ابن عبّاس قال : ما أشبه الليلة بالبارحة : «كالّذين من قبلكم كانوا أشدّ منكم قوّة ـ إلى قوله ـ وخضتم كالّذي خاضوا » هؤلاء بنو إسرائيل أشبهناهم ، والّذي نفسي بيده لتتّبعنّهم حتّى لودخل رجل جحر ضبّ لدخلتموه .

أقول : ورواه في المجمع أيضاً عنه .

وفي المجمع عن تفسير الثعلبيّ عن أبي هريرة عن أبي سعيد الخدريّ عن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : لتأخذنّ كما أخذت الاُمم من قبلكم ذراعاً بذراع وشبراً بشبر و باعاً بباع حتّى لوأنّ أحداً من اُولئك دخل جحر ضبّ لدخلتموه . قالوا : يارسول الله كما صنعت فارس والروم وأهل الكتاب ؟ قال : فهل الناس إلّا هم ؟

وفيه أيضاً عن تفسير الثعلبيّ عن حذيفة قال : المنافقون الّذين فيكم اليوم شرّ من المنافقين الّذين كانوا على عهد رسول الله صلّى الله عليه وآله . قلنا : و كيف ؟ قال : اُولئك كانوا يخفون

نفاقهم وهؤلاء أعلنوه .

وفي العيون بإسناده عن القاسم بن مسلم عن أخيه عبدالعزيز بن مسلم قال : سألت الرضا عليه السلام عن قول الله عزّ وجلّ : « نسوا الله فنسيهم » فقال : إنّ الله تبارك و تعالى لا ينسى ولا يسهو ، وإنّما ينسى ويسهو المخلوق المحدث ألا تسمعه عزّ وجلّ يقول : « وماكان ربّك نسيّاً » ، وإنّما يجازي من نسيه ونسي لقاء يومه أن ينسيهم أنفسهم كما قال عزّ و جلّ : « ولا تكونوا كالّذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم اُولئك هم الفاسقون »[و]قوله عزّ وجلّ « فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا » أي نتركهم كما تركوا الاستعداد للقاء يومهم هذا .

وفي تفسير العيّاشيّ عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام « نسوا الله » قال : تركوا طاعة الله « فنسيهم » قال : فتركهم .

وفيه عن أبي معمر السعدانيّ قال : قال عليّ عليه السلام في قوله : « نسوا الله فنسيهم » فإنّما يعني أنّهم نسوا الله في دار الدنيا فلم يعملوا له بالطاعة ولم يؤمنوا به وبرسوله فنسيهم في الآخرة أي لم يجعل لهم في ثوابه نصيباً فصاروا منسيّين من الخير .

أقول : ورواه الصدوق في المعاني بإسناده عن أبي معمر عنه عليه السلام .

وفي الكافي بإسناده عن أبي بصير عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث ـ قلت : « والمؤتفكات أتتهم رسلهم بالبيّنات » قال : اُولئك قوم لوط ائتفكت عليهم أي انقلبت و صارت عاليها سافلها .

وفي التهذيب بإسناده عن صفوان بن مهران قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام تأتيني المرأة المسلمة قد عرفتني بعملي و أعرفها بإسلامها ليس لها محرم فأحملها ؟ قال : فاحملها فإنّ المؤمن محرم للمؤمنة . ثمّ تلا هذه الآية : « و المؤمنون و المؤمنات بعضهم أولياء بعض » .

أقول : ورواه العيّاشيّ في تفسيره عن صفوان الجمّال عنه عليه السلام .

وفي تفسير العيّاشيّ عن ثوير عن عليّ بن الحسين عليهما السلام قال : إذا صار أهل الجنّة في الجنّة ودخل وليّ الله إلى جنّاته ومساكنه ، واتّكىء كلّ مؤمن على أريكته حفّته خدّامه ،

و تهدّلت عليه الأثمار ، و تفجّرت حوله العيون ، وجرت من تحته الأنهار ، و بسطت له الزرابيّ ، ووضعت له النمارق ، وأتته الخدّام بماشاءت هواه من قبل أن يسألهم ذلك قال : وتخرج عليه الحورالعين من الجنان فيمكثون بذلك ماشاءالله .

ثمّ إنّ الجبّار يشرف عليهم فيقول لهم : أوليائي وأهل طاعتي وسكّان جنّتي في جواري ألاهل اُنبّؤكم بخير ممّا أنتم فيه ؟ فيقولون : ربّنا وأيّ شيء خير ممّا نحن فيه: فيما اشتهت أنفسنا ولذّت أعيننا من النعم في جوار الكريم ؟

قال : فيعود عليهم القول فيقولون ربّنا نعم فأتنا بخير ممّا نحن فيه فيقول تبارك و تعالى لهم : رضاي عنكم ومحبّتي لكم خير وأعظم ممّا أنتم فيه قال : فيقولون : نعم ياربّنا رضاك عنّا ومحبّتك لنا خير وأطيب لأنفسنا .

ثمّ قرء عليّ بن الحسين عليه السلام هذه الآية : « وعدالله المؤمنين و المؤمنات جنّات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها ومساكن طيّبة في جنّات عدن ورضوان من الله أكبر ذلك هو الفوز العظيم » .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا دخل أهل الجنّة الجنّة قال الله : هل تشتهون شيئاً فأزيدكم ؟ قالوا : يا ربّنا و هل بقي شيء ؟ إلّا قد أنلتناه ؟ فيقول : نعم رضائي فلا أسخط عليكم أبداً .

أقول : وهذا المعنى وارد في روايات كثيرة من طرق الفريقين .

وفي جامع الجوامع عن أبي الدرداء عن النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم : عدن دار الله الّتي لم ترها عين ولم تخطر على قلب بشر لايسكنها غير ثلاثة : النبيّون والصدّيقون والشهداء يقول الله : طوبى لمن دخلك .

أقول : ولا ينافي خصوص سكنة الجنّة في الرواية عمومهم في الآية لدلالة قوله تعالى : « والّذين آمنوا بالله ورسله اُولئك هم الصدّيقون والشهداء عند ربّهم » الحديد: ١٩ على أنّ الله سبحانه سيلحق عامّة المؤمنين بالصدّيقين والشهداء .

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار والمنافقين » الآية

قال حدّثني أبي عن ابن أبي عمير عن أبي بصير عن أبي جعفر عليه السلام قال : جاهد الكفّار والمنافقين بإلزام الفرائض .

وفي الدرّ المنثور أخرج البيهقيّ في شعب الإيمان عن ابن مسعود قال : لمّا نزلت: «يا أيّها النبيّ جاهد الكفّار و المنافقين» أمر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يجاهد بيده فإن لم يستطع فبقلبه فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فليلقه بوجه مكفهرّ .

أقول : و في الرواية تشويش من حيث ترتّب أجزائها فالجهاد بالقلب بعد الجميع وقد تخلّل بينها .

***

وَمِنْهُم مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَيْنَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ (٧٥) فَلَمَّا آتَيهُم مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ (٧٦) فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقاً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ بِمَا أَخْلَفُوا اللَّهَ مَا وَعَدُوهُ وَبِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ (٧٧) أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَيهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ (٧٨) الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٧٩) اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِنْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَنْ يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ (٨٠) .

﴿ بيان ﴾

تذكر الآيات طائفة اُخرى من المنافقين تخلّفوا عن حكم الصدقات فامتنعوا عن إيتاء الزكاة ، وقد كانوا فقراء فعاهدوا الله إن أغناهم وآتاهم من فضله ليصدّقنّ وليكوننّ من الصالحين فلمّا آتاهم مالاً بخلوا به وامتنعوا .

وتذكر آخرين من المنافقين يعيبون أهل السعة من المؤمنين بإيتاء الصدقات وكذلك يلمزون أهل العسرة منهم و يسخرون منهم و الله سبحانه يسمّي هؤلاء جميعاً منافقين ، و يقضي فيهم بعدم المغفرة البتّة .

قوله تعالى : « ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدّقنّ و لنكوننّ من الصالحين » إلى آخر الآيتين . الإيتاء الإعطاء ، وقد كثر إطلاق الإيتاء من الفضل على إعطاء المال ، ومن القرائن عليه في الآية قوله « لنصدّقنّ » أي لنتصدّقنّ ممّا آتانا من

المال و كذلك مافي الآية التالية من ذكر البخل به .

والسياق يفيد أنّ الكلام متعرّضٌ لأمرٍ واقع ، والروايات تدلّ على أنّ الآيات نزلت في ثعلبة في قصّة سيأتي نقلها في البحث الروائيّ التالي إن شاء الله تعالى ، و معنى الآيتين ظاهر .

قوله تعالى : « فأعقبهم نفاقاً في قلوبهم إلى يوم يلقونه » الآية . الإعقاب الإيراث قال في المجمع : وأعقبه وأورثه و أدّاه نظائر وقد يكون أعقبه بمعنى جازاه . انتهى و هو مأخوذ من العقب ، ومعناه الإتيان بشيء عقيب شيء .

و الضمير في قوله : « فأعقبهم » راجع إلى البخل أو إلى فعلهم الّذي منه البخل ، وعلى هذا فالمراد بقوله : « يوم يلقونه » يوم لقاء البخل أي جزاء البخل بنحو من العناية .

ويمكن أن يرجع الضمير إليه تعالى و المراد بيوم يلقونه يوم يلقون الله و هو يوم القيامة على ما هو المعروف من كلامه تعالى من تسمية يوم القيامة بيوم لقاء الله أو يوم الموت كما هو الظاهر من قوله تعالى : « من كان يرجو لقاء الله فإنّ أجل الله لآت » العنكبوت : ٥ .

و هذا الثاني هو الظاهر على الثاني لأنّ الأنسب عند الذهن أن يقال : فهم على نفاقهم إلى أن يموتوا . دون أن يقال : فهم على نفاقهم إلى أن يبعثوا إذ لا تغيّر لحالهم فيما بعد الموت على أيّ حال .

وقوله : « بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون » الباء في الموضعين منه للسببيّة أي إنّ هذا البخل أورثهم نفاقاً بما كان فيه من الخلف في الوعد و الاستمرار على الكذب الموجبين لمخالفة باطنهم لظاهرهم وهو النفاق .

ومعنى الآية : فأورثهم البخل والامتناع عن إيتاء الصدقات نفاقاً في قلوبهم يدوم لهم ذلك ولا يفارقهم إلى يوم موتهم وإنّما صار هذا البخل و الامتناع سبباً لذلك لما فيه من خلف الوعد لله والملازمة و الاستمرار على الكذب .

أو المعنى : جازاهم الله نفاقاً في قلوبهم إلى يوم لقائه وهو يوم الموت لأنّهم أخلفوه ماوعدوه وكانوا يكذبون .

و في الآية دلالة أوّلاً على أنّ خلف الوعد و كذب الحديث من أسباب النفاق و أماراته .

وثانياً : أنّ من النفاق ما يعرض الإنسان بعد الإيمان كما أنّ من الكفر ماهو كذلك وهو الردّة وقد قال الله سبحانه : «ثمّ كان عاقبة الّذين أساؤوا السوءى أن كذّبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزؤون» الروم : ١٠ فذكر أنّ الإساءة ربّما أدّى بالإنسان إلى تكذيب آيات الله ، و التكذيب ربّما كان ظاهراً و باطناً معاً وهو الكفر ، أو باطناً فحسب وهو النفاق .

قوله تعالى : «ألم يعلموا أنّ الله يعلم سرّهم و نجواهم» الآية النجوى الكلام الخفيّ والاستفهام للتوبيخ والتأنيب .

قوله تعالى : «الّذين يلمزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات و الّذين لا يجدون إلّا جهدهم» الآية التطوّع الإتيان بما لاتكرهه النفس ولا تحسبه شاقّاً و لذلك يستعمل غالباً في المندوبات لما في الواجبات من شائبة التحميل على النفس بعدم الرضى بالترك .

ومقابلة المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات بالّذين لايجدون إلّا جهدهم قرينة على أنّ المراد بالمطّوّعين فيها الّذين يؤتون الزكاة على السعة والجدة كأنّهم لسعتهم و كثرة مالهم يؤتونها على طوع ورغبة من غير أن يشقّ ذلك عليهم بخلاف الّذين لايجدون إلّا جهدهم أي مبلغ جهدهم وطاقتهم أوما يشقّ عليهم القنوع بذلك .

وقوله : «الّذين يلمزون» الآية كلام مستأنف أوهو وصف للّذين ذكروا بقوله : «ومنهم من عاهد الله» الآية كما قالوا . والمعنى : الّذين يعيبون الّذين يتطوّعون بالصدقات من المؤمنين الموسرين و الّذين لا يجدون من المال إلّا جهد أنفسهم من الفقراء المعسرين فيعيبون المتصدّقين موسرهم ومعسرهم و غنيّهم وفقيرهم ويسخرون منهم سخر الله منهم و لهم عذاب أليم ، وفيه جواب لاستهزائهم وإيعاد بعذاب شديد .

قوله تعالى : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم» الترديد بين الأمر والنهي كناية عن تساوي الفعل والترك أي لغويّة الفعل كما

مرّ نظيره في قوله : « أنفقوا طوعاً أو كرهاً لن يتقبّل منكم » التوبة : ٥٣ .

فالمعنى أنّ هؤلاء المنافقين لاتنالهم مغفرة من الله ويستوي فيهم طلب المغفرة وعدمها لأنّ طلبها لهم لغو لا أثر له .

وقوله : « إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » تأكيد لما ذكر قبله من لغويّة الاستغفار لهم ، وبيان أنّ طبيعة المغفرة لا تنالهم البتّة سواء سئلت المغفرة في حقّهم أولم يسأل ، وسواء كان الاستغفار مرّة أو مرّات قليلاً أو كثيراً .

فذكر السبعين كناية عن الكثرة من غير أن يكون هناك خصوصيّة للعدد حتّى يكون الواحد والاثنان من الاستغفار حتّى يبلغ السبعين غير مؤثّر في حقّهم فإذا جاوز السبعين أثّر أثره ، ولذلك علّله بقوله : « ذلك بأنّهم كفروا بالله ورسوله » أي أنّ المانع من شمول المغفرة هو كفرهم بالله و رسوله ، ولا يختلف هذا المانع بعدم الاستغفار ولا وجوده واحداً أو كثيراً فهم على كفرهم .

و من هنا يظهر أنّ قوله : « و الله لا يهدي القوم الفاسقين » متمّم لسابقه و الكلام مسوق سوق الاستدلال القياسيّ والتقدير : إنّهم كافرون بالله ورسوله فهم فاسقون خارجون عن عبوديّة الله ، والله لايهدي القوم الفاسقين لكن المغفرة هداية إلى سعادة القرب والجنّة فلاتشملهم المغفرة ولاتنالهم البتّة .

واستعمال السبعين في الكثرة المجرّدة عن الخصوصيّة كاستعمال المائة والألف فيها كثير في اللغة .

﴿ بحث روائى ﴾

في المجمع قيل : نزلت في ثعلبة بن حاطب ، و كان من الأنصار فقال للنبيّ صلّى الله عليه وآله : ادع الله أن يرزقني مالاً فقال : يا ثعلبة قليل تؤدّي شكره خير من كثير لاتطيقه أمالك في رسول الله اُسوة حسنة ؟ و الّذي نفسي بيده لو أردت أن تسير الجبال معي ذهباً و فضّة لسارت .

ثم أتاه بعد ذلك فقال : يارسول‌الله ادع الله أن يرزقني مالاً والّذي بعثك بالحقّ ، لئن رزقني‌الله مالاً لاُعطينّ كلّ ذي حقّ حقّه ، فقال صلى الله عليه وآله : اللّهمّ ارزق ثعلبة مالاً فاتّخذ غنماً فنمت كما ينمو الدود فضاقت عليه المدينة فتنحّى عنها فنزل وادياً من أوديتها ثمّ كثرت نموّاً حتّى تباعد من المدينة فاشتغل بذلك عن الجمعة والجماعة ، وبعث رسول‌الله صلى الله عليه وآله إليه المصدّق ليأخذ الصدقة فأبى وبخل وقال : ماهذه إلّا اُخت الجزية فقال رسول‌الله صلى الله عليه وآله : ياويح ثعلبة ياويح ثعلبة ، وأنزل الله الآيات . عن أبي اُمامة الباهليّ وروي ذلك مرفوعاً .

وقيل : إنّ ثعلبة أتى مجلساً من الأنصار فأشهدهم فقال : لئن آتاني الله من فضله تصدّقت منه وآتيت كلّ ذي حقّ حقّه ووصلت منه القرابة فابتلاه‌الله فمات ابن عمّ له فورّثه مالاً فلم يف بما قال فنزلت . عن‌ابن عبّاس وسعيدبن جبير وقتادة .

وقيل : نزلت في ثعلبة بن‌حاطب ومعتّب‌بن قشيروهما من بني عمروبن عوف قالا : لئن رزقنا الله مالاً لنصّدّقنّ فلمّا رزقهما الله المال بخلابه . عن الحسن ومجاهد .

أقول : ماذكره من الروايات لايدفع بعضها البعض فمن الجائز أن يكون ثعلبة عاهدالنبيّ صلى الله عليه وآله بذلك ثمّ أشهد عليه جماعة من‌الأنصار ، وأن يكون معه في ذلك غيره فتتأيّد الروايات بعضها ببعض .

وتتأيّد أيضاً بما روي عن الضحّاك أنّ الآيات نزلت في رجال من المنافقين : نبتل بن الحارث وجدّبن قيس وثعلبة بن حاطب‌ومعتّب‌بن قشير .

وأمّا مارواه في‌المجمع عن الكلبيّ أنّها نزلت في حاطب بن أبي‌بلتعة كان له مال بالشام فأبطأ عنه وجهد لذلك جهداً شديداً فحلف لئن آتاه الله ذلك المال ليصّدّقنّ فآتاه الله تعالى ذلك فلم يفعل؛فهو بعيد الانطباق على الآيات لأنّ إيصال المال إلى صاحبه لا يسمّى إيتاءً من الفضل ، وإنّماهوالإعطاء والرزق .

وفي تفسير القمّيّ قال : وفي‌رواية أبي‌الجارود عن‌أبي‌جعفر عليه السلام ـ في‌الآية ـ قال: هو ثعلبة بن حاطب‌بن عمرو بن عوف كان محتاجاً فعاهدالله فلمّا آتاه بخل به .

وفي الدرّ المنثور أخرج البخاريّ ومسلم والترمذيّ والنسائيّ عن أبي‌هريرة عن

النبيّ صلّى الله عليه وسلّم قال : آية المنافق ثلاث : إذا حدّث كذب وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان .

أقول : وهو مرويّ بغير واحد من الطرق عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وقد تقدّم بعضها .

وفيه في قوله تعالى : « الّذين يلمزون المطّوّعين» الآية أخرج البخاريّ و مسلم وابن المنذر وابن أبي‌حاتم وأبوالشيخ وابن‌مردويه وأبونعيم في المعرفة عن‌ابن مسعود قال لمّا نزلت آية الصدقة كنا نتحامل على ظهورنا فجاء رجل فتصدّق بشيء كثير فقالوا : مراء ، وجاء أبو عقيل بنصف صاع فقال المنافقون : إنّ الله لغنيّ عن صدقة هذا فنزلت : « الّذين يلمزون المطّوّعين من المؤمنين في الصدقات والّذين لايجدون إلّا جهدهم » الآية .

أقول : والروايات في سبب نزول الآية كثيرة وأمثلها ما أوردناه ، و في قريب من معناه روايات اُخرى ، وظاهرها أنّ الآية مستقلّة عما قبلها مستأنفة في نفسها .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن جرير وابن أبي‌حاتم عن عروة أنّ عبدالله بن اُبيّ قال لأصحابه : لولا أنّكم تنفقون على محمّد و أصحابه لانفضّوا من حوله ، وهو القائل : ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ فأنزل‌الله عزّوجلّ : «استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن‌تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفرالله لهم » قال‌النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم : لأزيدنّ على السبعين فأنزل‌الله : سواء عليهم أستغفرت لهم أولم تستغفر لهم لن يغفرالله لهم .

وفيه أخرج ابن أبي شيبة وابن جريروابن المنذرعن مجاهد قال : لمّا نزلت : « إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » قال النبيّ صلّى‌الله عليه و سلّم : سأزيد على سبعين فأنزل‌الله في السورة الّتي يذكر فيها المنافقون « لن يغفرالله لهم » .

وفيه أخرج ابن جرير عن ابن عبّاس أنّ رسول‌الله صلى الله عليه وآله قال : لمّا نزلت‌هذه‌الآية أسمع ربيّ قد رخّص لي فيهم فوالله لأستغفرنّ أكثر من سبعين مرّة لعلّ الله أن يغفرلهم فقال الله من شدّة غضبه عليهم : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفرالله لهم إنّ الله لايهدي القوم الفاسقين .

أقول : ممّا لاريب فيه أنّ هذه الآيات ممّا نزلت في أواخر عهد النبيّ صلى الله عليه وآله وقد

سبقتها في النزول السور المكيّة عامة و أكثر السور والآيات المدنيّة قطعاً ، وممّا لا ريب فيه لمن يتدبّر كتاب الله أنّه لارجاء في نجاة الكفّار والمنافقين وهم أشدّ منهم إذا ماتوا على كفرهم و نفاقهم ، ولا مطمع في شمول المغفرة الإلهيّة لهم فهناك آيات كثيرة مكيّة ومدنيّة صريحة قاطعة في ذلك .

والنبيّ صلى الله عليه وآله أجلّ من أن يخفى عليه ما أنزله الله إليه أو أن لايثق بما وعدهم الله من العذاب المخلّد وعداً حتميّاً فيطمع في نقض القضاء المحتوم بالإصرار عليه تعالى و الإلحاح في طلب الغفران لهم .

أو أن يخفى عليه أنّ الترديد في الآية لبيان اللغويّة وأن لاخصوصيّة لعدد السبعين حتّى يطمع في مغفرتهم لوزاد على السبعين .

وليت شعرى ماذا يزيد قوله تعالى في سورة المنافقون : «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لايهدي القوم الفاسقين» على قوله تعالى في هذه الآية « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم ذلك بأنّهم كفروا بالله ورسوله والله لايهدي القوم الفاسقين » و قد علّل الله سبحانه نفي المغفرة نفياً مؤبّداً فيهما بأنّهم فاسقون و الله لايهدي القوم الفاسقين .

فقد تلخّص أنّ هذه الروايات وما في معناها موضوعة يجب طرحها .

و في الدرّ المنثور أخرج أحمد و البخاريّ و الترمذيّ و النسائيّ و ابن أبي حاتم والنحّاس و ابن حبّان و ابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عبّاس قال : سمعت عمر يقول : لما توفّي عبد الله بن اُبيّ دُعي رسول الله صلى الله عليه وآله للصلاة عليه فقام عليه فلمّا وقف قلت : أعلى عدوّ الله عبد الله بن اُبيّ القائل كذا و كذا والقائل كذا و كذا ؟ اُعدّد أيّامه ورسول الله صلى الله عليه وآله يتبسّم حتّى إذا أكثرتُ قال : يا عمر أخّر عنّي إنّي قد خيّرت قد قيل لي : «استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة» فلو أعلم أنّي إن زدت على السبعين غفر له لزدت عليها .

ثمّ صلّى عليه رسول الله صلى الله عليه وآله ومشى معه حتّى قام على قبره حتّى فرغ منه فعجبت لي و لجرأتي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم والله ورسوله أعلم فوالله ماكان إلّا يسيراً حتّى

نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على منافق بعده حتّى قبضه الله عزّ وجلّ .

أقول : قوله صلى الله عليه وآله في الرواية : « فلو أعلم أنّي إن زدت على السبعين » الخ صريح في أنّه كان آئساً من شمول المغفرة له ، وهو يشهد بأنّ المراد من قوله : « إنّي قد خيّرت قد قيل لي استغفر لهم أولا تستغفر لهم » أنّ الله قد ردّد الأمر ولم ينهه عن الاستغفار لا أنّه خيّره بين الاستغفار وعدمه تخييراً حقيقيّاً حتّى ينتج تأثير الاستغفار في حصول المغفرة أو رجاء ذلك .

ومن ذلك يعلم أنّ استغفاره صلى الله عليه وآله لعبد الله و صلاته عليه وقيامه على قبره إن ثبت شيء من ذلك لم يكن شيء من ذلك لطلب المغفرة و الدعاء له جدّاً كما سيأتي في رواية القمّيّ ، وفي الروايات كلام سيأتي .

وفيه عن ابن أبي حاتم عن الشعبيّ أنّ عمر بن الخطّاب قال : لقد اُصبت في الاسلام هفوة ما اُصبت مثلها قطّ أراد رسول الله صلى الله عليه وآله أن يصلّي على عبد الله بن اُبيّ فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا لقد قال الله : « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : قد خيّرني ربّي فقال : استغفر لهم أولا تستغفر لهم فقعد رسول الله على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه : يا حباب افعل كذا يا حباب افعل كذا فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : الحباب اسم شيطان أنت عبد الله .

وفي تفسير القمّيّ في قوله تعالى : « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » الآية أنّها نزلت لمّا رجع رسول الله صلى الله عليه وآله المدينة ومرض عبد الله بن اُبيّ وكان ابنه عبد الله بن عبد الله مؤمناً فجاء إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وأبوه يجود بنفسه فقال : يا رسول الله بأبي أنت واُمّي إنّك إن لم تأت أبي كان ذلك عاراً علينا فدخل إليه رسول الله صلى الله عليه وآله و المنافقون عنده فقال ابنه عبد الله بن عبد الله استغفر له فاستغفر له .

فقال عمر : ألم ينهك الله يارسول الله أن تصلّي على أحد أو تستغفر له ؟ فأعرض عنه رسول الله صلى الله عليه وآله فأعاد عليه فقال له : ويلك إنّي قد خيّرت فاخترت إنّ الله يقول: « استغفر لهم أولا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم » .

فلمّا مات عبد الله جاء ابنه إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقال : بأبي أنت و أُمّي يا رسول الله إن رأيت أن تحضر جنازته فحضر رسول الله صلى الله عليه وآله فقام على قبره فقال له عمر : يارسول الله ألم ينهك الله أن تصلّي على أحد منهم مات أبداً وأن تقيم على قبره ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وآله : ويلك وهل تدري ما قلت ؟ إنّما قلت : اللّهمّ احش قبره ناراً وجوفه ناراً وأصله النار فبدا من رسول الله صلى الله عليه وآله مالم يكن يحبّ .

أقول : وفي الروايات تتمّة كلام سيوافيك في ذيل الآيات التالية .

***

فَرِحَ الْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَافَ رَسُولِ اللّٰهِ وَ كَرِهُوا أَنْ يُجَاهِدُوا
بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللّٰهِ وَ قَالُوا لَا تَنْفِرُوا فِي الْحَرِّ قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ
أَشَدُّ حَرًّا لَوْ كَانُوا يَفْقَهُونَ (٨١) فَلْيَضْحَكُوا قَلِيلًا وَ لْيَبْكُوا كَثِيرًا جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٨٢) فَإِنْ رَجَعَكَ اللّٰهُ إِلَى طَائِفَةٍ مِنْهُمْ فَاسْتَأْذَنُوكَ لِلْخُرُوجِ فَقُلْ لَنْ
تَخْرُجُوا مَعِيَ أَبَدًا وَ لَنْ تُقَاتِلُوا مَعِيَ عَدُوًّا إِنَّكُمْ رَضِيتُمْ بِالْقُعُودِ أَوَّلَ مَرَّةٍ
فَاقْعُدُوا مَعَ الْخَالِفِينَ (٨٣) وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُمْ مَاتَ أَبَدًا وَلَا تَقُمْ عَلَى
قَبْرِهِ إِنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللّٰهِ وَرَسُولِهِ وَمَاتُوا وَهُمْ فَاسِقُونَ (٨٤) وَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ
وَ أَوْلَادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللّٰهُ أَنْ يُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الدُّنْيَا وَ تَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ
كَافِرُونَ (٨٥) وَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ آمِنُوا بِاللّٰهِ وَجَاهِدُوا مَعَ رَسُولِهِ اسْتَأْذَنَكَ
أُولُوا الطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا ذَرْنَا نَكُنْ مَعَ الْقَاعِدِينَ (٨٦) رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا
مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ (٨٧) لَكِنِ الرَّسُولُ وَ الَّذِينَ
آمَنُوا مَعَهُ جَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَ أَنْفُسِهِمْ وَ أُولَئِكَ لَهُمُ الْخَيْرَاتُ وَأُولَئِكَ هُمُ
الْمُفْلِحُونَ (٨٨) أَعَدَّ اللّٰهُ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا
ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (٨٩) وَ جَاءَ الْمُعَذِّرُونَ مِنَ الْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَ قَعَدَ
الَّذِينَ كَذَبُوا اللّٰهَ وَرَسُولَهُ سَيُصِيبُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٩٠) لَيْسَ
عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَى وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنْفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا
نَصَحُوا لِلّٰهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ وَاللّٰهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩١) وَلَا
عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوْا وَ أَعْيُنُهُمْ

تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنْفِقُونَ (٩٢) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ
يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ
فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣) يَعْتَذِرُونَ إِلَيْكُمْ إِذَا رَجَعْتُمْ إِلَيْهِمْ قُلْ لَا تَعْتَذِرُوا لَنْ نُؤْمِنَ
لَكُمْ قَدْ نَبَّأَنَا اللَّهُ مِنْ أَخْبَارِكُمْ وَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ
الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (٩٤) سَيَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ إِذَا انْقَلَبْتُمْ
إِلَيْهِمْ لِتُعْرِضُوا عَنْهُمْ فَأَعْرِضُوا عَنْهُمْ إِنَّهُمْ رِجْسٌ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ جَزَاءً بِمَا كَانُوا
يَكْسِبُونَ (٩٥) يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَرْضَى
عَنِ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ (٩٦) .

﴿بيان﴾

الآيات تقبل الاتّصال بالآيات الّتي قبلها و هي تعقّب غرضاً يعقّبه ما تقدّمها .

قوله تعالى : « فرح المخلّفون بمقعدهم خلاف رسول الله » الآية الفرح والسرور خلاف الغمّ و هما حالتان نفسيّتان وجدانيّتان ملذّة ومؤلمة ، والمخلّفون اسم مفعول من قولهم خلّفه إذا تركه بعده و المقعد كالقعود مصدر قعد يقعد وهو كناية عن عدم الخروج إلى الجهاد .

والخلاف كالمخالفة مصدر خالف يخالف ، وربّما جاء بمعنى بعد كما قيل ولعلّ منه قوله : «وإذاً لا يلبثون خلافك إلّا قليلاً» وكان قياس الكلام أن يقال : «خلافك» لأنّ الخطاب فيه للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم وإنّما قيل : « خلاف رسول الله » للدلالة على أنّهم إنّما يفرحون على مخالفة الله العظيم فما على الرسول إلّا البلاغ .

والمعنى فرح المنافقون الّذين تركتهم بعدك بعدم خروجهم معك خلافاً لك ـ أو بعدك ـ وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله .

و قوله تعالى : « و قالوا لا تنفروا في الحرّ » خاطبوا بذلك غيرهم ليخذلوا النبيّ صلّى الله عليه وآله ويبطلوا مسعاه في تنفير الناس إلى الغزوة ، ولذلك أمره الله تعالى أن يجيب عن قولهم ذلك بقوله : « قل نار جهنّم أشدّ حرّاً » أي إنّ الفرار عن الحرّ بالقعود إن أنجاكم منه لم ينجكم ممّا هو أشدّ منه وهو نار جهنّم الّتي هي أشدّ حرّاً فإنّ الفرار عن هذا الهيّن يوقعكم في ذاك الشديد . ثمّ أفاد بقوله : « لو كانوا يفقهون » المصدّر بلو التمنّي اليأس من فقههم وفهمهم .

قوله تعالى : « فليضحكوا قليلاً وليبكوا كثيراً جزاءً بما كانوا يكسبون » تفريع على تخلّفهم عن الجهاد بالأموال و الأنفس وفرحهم بالقعود عن هذه الفريضة الإلهيّة الفطريّة الّتي لا سعادة للإنسان في حياته دونها .

وقوله : « جزاء بما كانوا يكسبون » والباء للمقابلة أو السببيّة دليل على أنّ المراد بالضحك القليل هو الّذي في الدنيا فرحاً بالتخلّف والقعود ونحو ذلك ، وبالبكاء الكثير ما كان في الآخرة في نار جهنّم الّتي هي أشدّ حرّاً فإنّ الّذي فرّع عليه الضحك والبكاء هو ما في الآية السابقة ، وهو فرحهم بالتخلّف وخروجهم من حرّ الهواء إلى حرّ نار جهنّم .

فالمعنى: فمن الواجب بالنظر إلى ماعملوه واكتسبوه أن يضحكوا و يفرحوا قليلاً في الدنيا وأن يبكوا ويحزنوا كثيراً في الآخرة فالأمر بالضحك والبكاء للدلالة على إيجاب السبب وهو ما كسبوه من الأعمال لذلك .

وأمّا حمل الأمر في قوله : « فليضحكوا » وقوله : « وليبكوا » على الأمر المولويّ لينتج تكليفاً من التكاليف الشرعيّة فلا يناسبه قوله : « جزاء بماكانوا يكسبون » .

ويمكن أن يكون المراد الأمر بالضحك القليل والبكاء الكثير معاً ما هو في الدنيا جزاء لسابق أعمالهم فإنّها هدتهم إلى راحة وَهميّة في أيّام قلائل و هي أيّام قعودهم خلاف رسول الله ﷺ ثمّ إلى هوان و ذلّة عند الله و رسوله والمؤمنين ما داموا أحياء في الدنيا ثمّ إلى شديد حرّ النار في الآخرة بعد موتهم .

قوله تعالى : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم فاستأذنوك للخروج » إلى آخر

الآية المراد بالقعود أوّل مرّة التخلّف عن الخروج في أوّل مرّة كان عليهم أن يخرجوا فيها فلم يخرجوا ، ولعلّها غزوة تبوك كما يهدي إليه السياق .

والمراد بالخالفين المتخلّفون بحسب الطبع كالنساء والصبيان والمرضى والزمنى وقيل : المتخلّفون من غير عذر ، وقيل : الخالفون هم أهل الفساد ، والباقي واضح .

وفي قوله : « فإن رجعك الله إلى طائفة منهم » الآية دلالة على أنّ هذه الآية وما في سياقها المتّصل من الآيات السابقة واللاحقة نزلت و رسول الله صلى الله عليه وآله في سفره و لمّا يرجع إلى المدينة ، وهو سفره إلى تبوك .

قوله تعالى : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنّهم كفروا بالله و رسوله و ماتوا وهم فاسقون » نهي عن الصلاة لمن مات من المنافقين والقيام على قبره وقد علّل النهي بأنّهم كفروا وفسقوا وماتوا على فسقهم ، وقد علّل لغويّة الاستغفار لهم في قوله تعالى : السابق : «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم» آية ٨٠ من السورة ، و كذا في قوله « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم إنّ الله لا يهدي القوم الفاسقين » المنافقون : ٦ بالكفر والفسق أيضاً .

ويتحصّل من الجميع أنّ من فقد الإيمان بالله باستيلاء الكفر على قلبه وإحاطته به فلا سبيل له إلى النجاة يهتدي به ، و أنّ الآيات الثلاث جميعاً تكشف عن لغويّة الإستغفار للمنافقين والصلاة على موتاهم والقيام على قبورهم للدعاء لهم .

و في الآية إشارة إلى أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله كان يصلّي على موتى المسلمين و يقوم على قبورهم للدعاء .

قوله تعالى : « ولا تعجبك أموالهم و أولادهم » الآية تقدّم بعض ما يتعلّق بالآية من الكلام في الآية ٥٥ من السورة .

قوله تعالى : « وإذا اُنزلت سورة أن آمنوا بالله وجاهدوا مع رسوله » إلى آخر الآيتين . الطول القدرة والنعمة ، والخوالف هم الخالفون والكلام فيه كالكلام فيه ، والباقي ظاهر .

قوله تعالى : «لكن الرسول والّذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم» لمّا ذمّ المنافقين في الآيتين السابقتين بالرضا بالقعود مع الخوالف والطبع على قلوبهم استدرك بالنبيّ صلى الله عليه وآله والّذين آمنوا معه ـ والمراد بهم المؤمنون حقّاً الّذين خلصت قلوبهم من رين النفاق بدليل المقابلة مع المنافقين ـ ليمدحهم بالجهاد بأموالهم وأنفسهم أي أنّهم لم يرضوا بالقعود ولم يطبع على قلوبهم بل نالوا سعادة الحياة والنور الإلهيّ الّذي يهتدون به في مشيهم كما قال تعالى : «أو من كان ميتاً فأحييناه وجعلنا له نوراً يمشي به في الناس» الأنعام : ١٢٢ .

ولذلك عقّب الكلام بقوله : «واُولئك لهم الخيرات واُولئك هم المفلحون» فلهم جميع الخيرات ـ على ما يقتضيه الجمع المحلّى باللام ـ من الحياة الطيّبة ونور الهدى والشهادة وسائر ما يتقرّب به إلى الله سبحانه ، وهم المفلحون الفائزون بالسعادة .

قوله تعالى : «أعدّ الله لهم جنّات تجري» الآية الإعداد هو التهيئة وقد عبّر بالإعداد دون الوعد لأنّ الاُمور بخواتيمها وعواقبها فلو كان وعداً وهو وعد لجميع من آمن معه لكان قضاءً حتميّاً واجب الوفاء سواء بقي الموعودون على صفاء إيمانهم وصلاح أعمالهم أو غيّروا والله لا يخلف الميعاد .

والاُصول القرآنيّة لا تساعد على ذلك ، ولا الفطرة السليمة ترضى أن ينسب إلى الله سبحانه أن يطبع بطابع المغفرة والجنّة الحتميّة على أحد لعمل عمله من الصالحات ثمّ يخلّي بينه وبين ما شاء وأراد .

ولذلك نجده سبحانه إذا وعد وعداً علّقه على عنوان من العناوين العامّة كالإيمان والعمل الصالح يدور معه الوعد الجميل من غير أن يخصّ به أشخاصاً بأعيانهم فيفيد التناقض بالجمع بين التكليف والتأمين كما قال تعالى : «وعد الله المؤمنين والمؤمنات جنّات» الآية ٧٢ من السورة وقال تعالى : «محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم ـ إلى أن قال ـ وعد الله الّذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً» الفتح : ٢٩ .

قوله تعالى : «وجاء المعذّرون من الأعراب ليؤذن لهم» الآية . الظاهر أنّ

المراد بالمعذّرين هم أهل العذر كالّذي لا يجد نفقة ولا سلاحاً بدليل قوله : « و قعد الّذين كذبوا » الآية والسياق يدلّ على أنّ في الكلام قياساً لإحدى الطائفتين إلى الاُخرى ليظهر به لؤم المنافقين و خسّتهم و فساد قلوبهم و شقاء نفوسهم ، حيث إنّ فريضة الجهاد الدينيّة والنصرة لله ورسوله هيّج لذلك المعذّرين من الأعراب وجاؤوا إلى النبيّ صلى الله عليه وآله يستأذنونه ، ولم يؤثّر في هؤلاء الكاذبين شيئاً .

قوله تعالى : « ليس على الضعفاء ولا على المرضى ولا على الّذين لا يجدون ما ينفقون حرج » المراد بالضعفاء بدلالة سياق الآية : الّذين لا قوّة لهم على الجهاد بحسب الطبع كالزمنى كما أنّ المرضى لا قوّة لهم عليه بحسب عارض مزاجيّ ، والّذين لايجدون ماينفقون لا قوّة لهم عليه من جهة فقد المال ونحوه .

فهؤلاء مرفوع عنهم الحرج والمشقّة أي الحكم بالوجوب الّذي لووضع كان حكماً حرجيّاً ، و كذا ما يستتبعه الحكم من الذمّ والعقاب على تقرير المخالفة .

وقد قيّد الله تعالى رفع الحرج عنهم بقوله : « إذا نصحوا لله ورسوله » و هو ناظر إلى الذمّ والعقاب على المخالفة والقعود فإنّما يرفع الذمّ والعقاب عن هؤلاء المعذورين إذا نصحوا لله و رسوله وأخلصوا عن الغشّ والخيانة ولم يجروا في قعودهم على ما يجري عليه المنافقون المتخلّفون من تقليب الاُمور و إفساد القلوب في مجتمع المؤمنين ، و إلّا فيجري عليهم ما يجري على المنافقين من الذمّ والعقاب .

وقوله : « ما على المحسنين من سبيل » في مقام التعليل لنفي الحرج عن الطوائف المذكورين بشرط أن ينصحوا للهورسوله أي لأنّهم يكونون حينئذ محسنين وما على المحسنين من سبيل فلا سبيل يتسلّط عليهم يؤتون منه فيصابون بما يكرهونه .

ففي السبيل كناية عن كونهم في مأمن ممّا يصيبهم من مكروه كأنّهم في حصن حصين لا طريق إلى داخله يسلكه الشرّ إليهم فيصيبهم ، والجملة عامّة بحسب المعنى و إن كان مورد التطبيق خاصّاً .

قوله تعالى : « ولا على الّذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت » الآية قال في المجمع : الحمل إعطاء المركوب من فرس أو بعير أو غير ذلك تقول : حمله يحمله حملاً إذا أعطاه

ما يحمل عليه قال :

ألا فتى عنده خفّان يحملني * عليهما إنّني شيخ على سفر

قال : والفيض الجري عن امتلاء من قولهم : فاض الإناء بما فيه ، و الحزن ألم في القلب لفوت أمر مأخوذ من حزن الأرض وهي الأرض الغليظة المسلك . انتهى .

وقوله : « ولا على الّذين » الآية.موصول صلته قوله : « تولّوا » الآية ، وقوله : «إذا ما أتوك لتحملهم » كالشرط والجزاء والمجموع ظرف لقوله : « تولّوا » وحزناً مفعول له ، «وأن لا يجدوا » منصوب بنزع الخافض .

والمعنى : ولا حرج على الفقراء الّذين إذاما أتوك لتعطيهم مركوباً يركبونه و تصلح سائر ما يحتاجون إليه من السلاح وغيره قلت لا أجد ما أحملكم عليه تولّوا والحال أنّ أعينهم تمتلىء وتسكب دموعاً للحزن من أن لا يجدوا ـ أو لأن لا يجدوا ـ ماينفقونه في سبيل الله للجهاد مع أعدائه .

وعطف هذا الصنف على ما تقدّمه من عطف الخاص على العامّ عناية بهم لأنّهم في أعلى درجة من النصح وإحسانهم ظاهر .

قوله تعالى : « إنّما السبيل على الّذين يستأذنوك وهم أغنياء » الآية القصر للإفراد ، والمعنى ظاهر .

قوله تعالى : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم » إلى آخر الآية . خطاب الجمع للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين جميعاً وقوله : « لن نؤمن لكم » أي لن نصدّقكم على ما تعتذرون به بناء على تعدية الإيمان باللام كالباء ـ أو لن نصدّق تصديقاً ينفعكم ـ بناء على كون اللام للنفع ـ والجملة تعليل لقوله : « لاتعتذروا » كما أنّ قوله : « قد نبّأنا الله من أخباركم» تعليل لهذه الجملة .

والمعنى يعتذر المنافقون إليكم عند رجوعكم من الغزوة إليهم قل يا محمّد لهم : لا تعتذروا إلينا لأنّا لن نصدّقكم فيما تعتذرون به لأنّ الله قد أخبرنا ببعض أخباركم ممّا يظهر به نفاقكم و كذبكم فيما تعتذرون به ، و سيظهر عملكم ظهور شهود لله و رسوله ثمّ تردّون إلى الله الّذي يعلم الغيب والشهادة يوم القيامة فيخبركم بحقائق أعمالكم .

و في قوله : « و سيرى الله عملكم و رسوله » الخ في إيضاحه كلام سيمرّ بك عن قريب .

قوله تعالى : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم فأعرضوا عنهم » الآية أي لتعرضوا عنهم فلا تتعرّضوا لهم بالعتاب والتقريع وما يتعقّب ذلك فأعرضوا عنهم لاتصديقاً لهم فيما يحلفون له من الأعذار بل لأنّهم رجس ينبغي أن لايقترب منهم ومأواهم جهنّم جزاء بما كانوا يكسبون .

قوله تعالى : « يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين » أي هذا الحلف منهم كما كان للتوسّل إلى صرفكم عنهم ليأمنوا الذمّ والتقريع كذلك هو للتوسّل إلى رضاكم عنهم أمّا الإعراض فافعلوه لأنّهم رجس لاينبغي لنزاهة الإيمان وطهارته أن تتعرّض لرجس النفاق والكذب وقذارة الكفر والفسق ، وأمّا الرضى فاعلموا أنّكم إن ترضوا عنهم فإنّ الله لا يرضى عنهم لفسقهم والله لا يرضى عن القوم الفاسقين .

فالمراد أنّكم إن رضيتم عنهم فقد رضيتم عمّن لم يرض الله عنه أي رضيتم بخلاف رضى الله ، ولا ينبغي لمؤمن أن يرضى عمّا يسخط ربّه فهو أبلغ كناية عن النهي عن الرضا عن المنافقين .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور في قوله تعالى : « فرح المخلّفون » الآية أخرج ابن أبي حاتم عن جعفر بن محمّد عن أبيه - عليهما السلام - قال : كانت غزوة تبوك آخر غزوة غزاها رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، و هي غزوة الحرّ « قالوا لا تنفروا في الحرّ » وهي غزوة العسرة .

وفيه أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم وابن مردويه عن ابن عبّاس أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أمر الناس أن ينبعثوا معه وذلك في الصيف فقال رجال : يا رسول الله إنّ الحرّ شديد ولا نستطيع الخروج فلاتنفروا في الحرّ فقال الله: «قل نار جهنّم أشدّ حرّاً لو كانوا يفقهون» فأمره بالخروج .

أقول : ظاهر الآية أنّهم إنّما قالوه ليخذلوا الناس عن الخروج ، وظاهر الحديث أنّهم إنّما قالوه إشارة فلا يتطابقان .

و فيه أخرج ابن جرير عن محمّد بن كعب القرظيّ و غيره قالوا : خرج رسول الله صلّى الله عليه وسلّم في حرّ شديد إلى تبوك فقال رجل من بني سلمة : لا تنفروا في الحرّ فأنزل الله : « قل نار جهنّم أشدّ حرّاً » الآية .

أقول : تقدّمت أخبار في قوله تعالى : « ومنهم من يقول ائذن لي ولا تفتنّي » الآية أنّ القائل لقوله : « لا تنفروا في الحرّ » هو جدّ بن قيس .

و في الدرّ المنثور أيضاً في قوله تعالى : « ولا تصلّ على أحد منهم » الآية أخرج البخاريّ ومسلم وابن أبي حاتم وابن المنذر وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن ابن عمر قال : لمّا توفّي عبدالله بن اُبيّ بن سلول أتى ابنه عبدالله رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يسأله أن يعطيه قميصه ليكفّنه فيه فأعطاه ثمّ سأله أن يصلّي عليه فقام رسول الله صلّى الله عليه وسلّم .

فقام عمر بن الخطّاب فأخذ ثوبه فقال : يا رسول الله أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي على المنافقين ؟ فقال : إنّ ربّي خيّرني و قال : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفر الله لهم ، وسأزيد على السبعين فقال : إنّه منافق فصلّى عليه فأنزل الله تعالى : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فترك الصلاة عليهم .

أقول . وفي هذا المعنى روايات اُخرى رواها أصحاب الجوامع ورواة الحديث عن عمر بن الخطّاب وجابر و قتادة ، وفي بعضها أنّه كفّنه في قميصه ونفث في جلده و نزل في قبره .

وفيه أخرج أحمد والبخاريّ والترمذيّ والنسائيّ وابن أبي حاتم والنحّاس وابن حبّان وابن مردويه وأبو نعيم في الحلية عن ابن عبّاس قال : سمعت عمر يقول : لمّا توفّي عبدالله ابن اُبيّ دُعي رسول الله صلّى الله عليه وسلّم للصلاة عليه فقام عليه فلمّا وقف قلت : أتصلّي على عدوّ الله عبدالله بن اُبيّ القائل كذا و كذا والقائل كذا و كذا ـ اُعدّد أيّامه ـ ورسول

الله يتبسّم حتّى إذا أكثرتُ قال : ياعمر أخّر عنّي إنّي قدخيّرت قد قيل لي : استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلوأعلم أنّي إن زدت علىالسبعين غفرله لزدت عليها ثمّ صلّى عليه رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و مشى معه حتّى قام على قبره حتّىفرغ منه .

فعجبت لي ولجرأتي على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم ، والله ورسوله أعلم فوالله ما كان إلّا يسيراً حتّى نزلت هاتان الآيتان : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » فما صلّى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم على منافق بعده حتّى قبضه الله عزّوجلّ .

وفيه أخرج ابن أبيحاتم عن الشعبيّ أنّ عمر بن الخطّاب قال : لقد اُصبت في الإسلام هفوة ما اُصبت مثلهاقطّ أراد رسولالله صلّىالله عليه وسلّم أن يصلّي علىعبدالله بن اُبيّ فأخذت بثوبه فقلت : والله ما أمرك الله بهذا . لقد قال الله : « استغفرلهم أو لا تستغفر لهم إنتستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفرالله لهم فقالرسولالله ﷺ : قد خيّرني ربّي فقال « استغفر لهم أو لا تستغفر لهم » .

فقعد رسول الله صلّىالله عليه وسلّم على شفير القبر فجعل الناس يقولون لابنه ، يا حباب افعل كذا ياحباب افعل كذا فقال رسولالله صلّىالله عليه وسلّم : الحباب اسم شيطان أنت عبدالله .

وفيه أخرج الطبرانيّ وابنمردويه والبيهقيّ في الدلائل عنابن عبّاس أنّ عبدالله ابن اُبيّ قال له أبوه : اطلب لي ثوباً من ثياب النبيّ صلّىالله عليه و سلّم فكفّنّي فيه ومره أن يصلّي عليّ قال : فأتاه فقال : يا رسول الله قد عرفت شرف عبدالله و هو يطلب إليك ثوباً من ثيابك نكفّنه فيه وتصلّي عليه .

فقال عمر : يا رسول الله قد عرفت عبدالله ونفاقه أتصلّي عليه وقد نهاك الله أن تصلّي عليه ؟ فقال : وأين ؟ فقال : « استغفرلهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفرلهم سبعين مرّة فلن يغفرالله لهم » قال : فإنّي سأزيد على سبعين فأنزل الله : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً ولا تقم على قبره » الآيةقال : فأرسل إلىعمرفأخبره بذلك ، وأنزل الله : « سواء عليهم

أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » .

أقول : و قد ورد استغفار النبيّ ﷺ لعبد الله بن اُبيّ و صلاته عليه في بعض المراسيل من روايات الشيعة أيضاً أوردها العيّاشيّ والقمّيّ في تفسيريهما ، وقد تقدّم خبر القمّيّ .

وهذه الروايات على ما فيها من بعض التناقض و التدافع و اشتمالها على التعارض فيما بينها يدفعها الآيات الكريمة دفعاً بيّناً لامرية فيه :

أمّا أوّلاً فلظهور قوله تعالى : « استغفر لهم أولا تستغفرلهم إن تستغفر لهم سبعين مرّة فلن يغفرالله لهم » ظهوراً بيّنا في أنّ المراد بالآية بيان لغويّة الإستغفار للمنافقين دون التخيير ، وأنّ العدد جيىء به لمبالغة الكثرة لا لخصوصيّة في السبعين بحيث ترجى المغفرة مع الزائد على السبعين .

والنبيّ ﷺ أجلّ من أن يجهل هذه الدلالة فيحمل الآية على التخيير ثمّ يقول سأزيد على سبعين ثمّ يذكّره غيره بمعنى الآية فيصرّ على جهله حتّى ينهاه الله عن الصلاة وغيرها بآية اُخرى ينزّلها عليه .

على أنّ جميع هذه الآيات المتعرّضة للاستغفار للمنافقين و الصلاة عليهم كقوله : « استغفر لهم أو لاتستغفر لهم» وقوله : «سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » وقوله : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً » تعلّل النهي و اللغويّة بكفرهم و فسقهم ، حتّى قوله تعالى في النهي عن الاستغفار للمشركين : « ماكان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اُولي قربى من بعد ماتبيّن لهم أنّهم أصحاب الجحيم » آية : ١١٣ من السورة ينهى عن الاستغفار معلّلاً ذلك بالكفر و خلود النار ، و كيف يتصوّر مع ذلك جواز الاستغفار لهم والصلاة عليهم ؟

وثانياً : أنّ سياق الآيات الّتي منها قوله : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً » الآية.صريح في أنّ هذه الآية إنّما نزلت و النبيّ ﷺ في سفره إلى تبوك ولمّا يرجع إلى المدينة ، وذاك في سنة ثمان ، وقد وقع موت عبد الله بن اُبيّ بالمدينة سنة تسع من الهجرة كلّ ذلك مسلّم من طريق النقل .

فما معنى قوله في هذه الروايات : إنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم صلّى على عبدالله وقام على قبره ثمّ أنزل الله عليه : « ولا تصلّ على أحد منهم مات أبداً » الآية ؟

وأعجب منه ماوقع في بعض الروايات السابقة أنّ عمر قال للنبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم : أتصلّي عليه وقد نهاك عن الصلاة للمنافقين فقال : إنّ ربّي خيّرني ثمّ أنزل الله : « ولا تصلّ على أحد منهم » الآية .

وأعجب منه مافي الرواية الأخيرة من نزول قوله : « سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم » الآية ، والآية من سورة المنافقون وقد نزلت بعد غزاة بني المصطلق و كانت في سنة خمس و عبدالله بن اُبيّ حيّ عندئذ وقد حكي في السورة قوله : لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ .

وقد اشتمل بعض هذه الروايات وتعلّق به بعض من انتصر لها على أنّ النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم إنّما استغفر وصلّى على عبد الله ليستميل قلوب رجال منافقين من الخزرج إلى الإسلام ، و كيف يستقيم ذلك ؟ و كيف يصحّ أن يخالف النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم النصّ الصريح من الآيات استمالة لقلوب المنافقين ومداهنة معهم ؟ وقد هدّده الله على ذلك بأبلغ التهديد في مثل قوله « إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف المماة » الآية أسرى : ٧٥ . فالوجه أنّ هذه الروايات موضوعة يجب طرحها بمخالفة الكتاب .

وفي الدرّ المنثور في قوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » الآية أخرج ابن مردويه عن سعد بن أبي وقّاص أنّ عليّ بن أبي طالب خرج مع النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم حتّى جاء ثنيّة الوداع يريد تبوك ، وعليّ يبكي ويقول : تخلّفني مع الخوالف ؟ فقال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : ألا ترضى أن تكون منّي بمنزلة هارون من موسى إلّا النبوّة .

أقول : والرواية مرويّة بطرق كثيرة من طرق الفريقين .

وفي تفسير العيّاشيّ عن جابر عن أبي جعفر عليه السلام في قوله : « رضوا بأن يكونوا مع الخوالف » قال : مع النساء .

وفي الدرّ المنثور أخرج عبد الرزّاق في المصنّف و ابن أبي شيبة وأحمد والبخاريّ وأبو الشيخ وابن مردويه عن أنس أنّ رسول الله صلّى الله عليه وسلّم لمّا قفل من غزوة تبوك

فأشرف على المدينة قال : لقد تركتم بالمدينة رجالاً ماسرتم فيمسير ولا أنفقتم من نفقة ولا قطعتم وادياً إلّا كانوا معكم فيه . قالوا : يا رسول الله و كيف يكونون معنا وهم بالمدينة؟ قال : حبسهم العذر .

وفي المجمع فيقوله تعالى : «ليس على الضعفاء ولا على المرضى » الآيتين قيل :إنّ الآية الاُولى نزلت في عبد الله بن زائدة وهو ابن اُمّ مكتوم وكان ضرير البصر جاء إلى رسول الله صلّى الله عليهوسلّمفقال : يا نبيّ الله إنّي شيخ ضرير خفيف الحال نحيفالجسم وليس لي قائد فهل لي رخصة في التخلّف عن الجهاد ؟ فسكت النبيّ صلّى الله عليه و سلّم فأنزل الله الآية . عن الضحّاك ، و قيل : نزلت في عائذ بن عمرو و أصحابه . عن قتادة .

و الآية الثانية نزلت في البكّائين وهم سبعة نفر : منهم عبد الرحمان بن كعب و علبة بن زيد وعمرو بن ثعلبة ابن غنمة وهؤلاء من بني النجّار ، وسالم بن عمير وهرميّ بن عبدالله وعبدالله بن عمرو بن عوف [أ]وعبدالله بن مغفّل من مزينة جاؤوا إلى رسول الله فقالوا يارسول الله احملنا فإنّه ليس لنا مانخرج عليه فقال : لاأجد ما أحملكم عليه . عن أبي حمزة الثماليّ .

وقيل : نزلت في سبعة من قبائل شتّى أتوا النبيّ صلّى الله عليه و سلّم فقالوا له : احملنا على الخفاف و النعال . عن محمّد بن كعب و ابن إسحاق .

وقيل : كانوا جماعة من مزينة . عن مجاهد ، و قيل : كانوا سبعة من فقراء الأنصار فلمّا بكوا حمل عثمان منهم رجلين ، والعبّاس بن عبد المطّلب رجلين ، و يامين بن كعب النضريّ ثلاثة عن الواقديّ قال : وكان الناس بتبوك مع رسول الله صلّىالله عليه وسلّم ثلاثين ألفاً منهم عشرة آلاف فارس

أقول : والروايات في أسماء البكّائين مختلفة اختلافا شديداً .

وفي تفسير القمّي قال : قال : وإنّما سألهؤلاء البكّاؤون نعلاً يلبسونها .

وفي المعاني بإسناده عن ثعلبة عن بعض أصحابنا عن أبي عبد الله عليه السلام في قول الله عزّ وجلّ : « عالم الغيب و الشهادة » فقال : الغيب ما لم يكن والشهادة ما قد كان .

أقول : وهو من باب إراءة بعض المصاديق و اللّفظ أعمّ .

و في تفسير القمّي قال : ولمّا قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله من تبوك كان أصحابه المؤمنون يتعرّضون المنافقين و يؤذونهم فأنزل الله : « سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم لتعرضوا عنهم » إلى آخر الآيتين .

و في المجمع قيل : نزلت الآيات في جدّ بن قيس ومعتّب بن قشير وأصحابهما من المنافقين وكانوا ثمانين رجلاً ، ولمّا قدم النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم المدينة راجعاً عن تبوك قال : لاتجالسوهم ولا تكلّموهم . عن ابن عبّاس .

***

الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَنْ لَا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللّٰهُ عَلٰى
رَسُولِهِ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٩٧) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ
بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٩٨) وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَنْ يُؤْمِنُ
بِاللّٰهِ وَالْيَوْمِ الْاٰخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ قُرُبَاتٍ عِنْدَ اللّٰهِ وَصَلَوٰاتِ الرَّسُولِ أَلَا
إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللّٰهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (٩٩) وَالسَّابِقُونَ
الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُمْ
وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذٰلِكَ
الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (١٠٠) وَمِمَّنْ حَوْلَكُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ مُنَافِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ الْمَدِينَةِ
مَرَدُوا عَلَى النِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ سَنُعَذِّبُهُمْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ يُرَدُّونَ إِلٰى عَذَابٍ
عَظِيمٍ (١٠١) وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى
اللّٰهُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللّٰهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ (١٠٢) خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً
تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلٰوتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللّٰهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (١٠٣)
أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللّٰهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللّٰهَ هُوَ
التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٠٤) وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللّٰهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ
وَسَتُرَدُّونَ إِلٰى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ (١٠٥) وَ
آخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ اللّٰهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَاللّٰهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١٠٦)

﴿ بيان ﴾

الكلام جارعلى الغرض السابق يبيّن به حال الأعراب في كفرهم ونفاقهم وإيمانهم وفي خلال الآيات آية الصدقة .

قوله تعالى : «الأعراب أشدّ كفراً ونفاقاً و أجدر أن لايعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله » الآية قال الراغب في المفردات : العرب ولد إسماعيل ، و الأعراب جمعه في الأصل ، وصار ذلك اسماً لسكّان البادية : « قالت الأعراب آمنّا . الأعراب أشدّ كفراً و نفاقاً . و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر » وقيل في جمع الأعراب أعاريب قال الشاعر :

أعاريب ذو وفخر بإفك وألسنة لطاف في المقال

و الأعرابيّ في التعارف صار اسماً للمنسوب إلى سكّان البادية و العربيّ المفصح و الإعراب البيان انتهى موضع الحاجة . يبيّن تعالى حال سكّان البادية و أنّهم أشدّ كفراً و نفاقاً لأنّهم لبعدهم عن المدنيّة و الحضارة ، و حرمانهم من بركات الإنسانيّة من العلم و الأدب أقسى و أجفى ، فهم أجدر و أحرى أن لا يعلموا حدود ما أنزل الله من المعارف الأصليّة والأحكام الشرعيّة من فرائض وسنن وحلال وحرام .

قوله تعالى : « ومن الأعراب من يتّخذ ماينفق مغرماً ويتربّص بكم الدوائر » الآية قال في المجمع : المغرم الغرم وهو نزول نائبة بالمال من غيرخيانة ، وأصله لزوم الأمر، ومنه قوله : إنّ عذابها كان غراماً ، وحبّ غرام أي لازم ، و الغريم يقال لكلّ واحد من المتداينين للزوم أحدهما الآخر وغرمته كذا أي ألزمته إيّاه في ماله ـ انتهى .

و الدائرة الحادثة و تغلب في الحوادث السوء كأنّ الحوادث السوء تدور بين الناس فتنزل كلّ يوم بقوم فتربّص الدوائر بالمؤمنين انتظار نزول الحوادث السوء عليهم للتخلّص من سلطتهم والرجوع الى رسوم الشرك والضلال .

و قوله : « يتّخذ ما ينفق مغرماً » أي يفرض الإنفاق غرماً أو المال الّذي ينفقه

مغرماً ـ على أن يكون ما مصدريّة أو موصولة ـ و المراد الإنفاق في الجهاد أو أيّ سبيل من سبل الخير على ماقيل ، ويمكن أن يكون المراد الإنفاق في خصوص الصدقات ليكون الكلام كالتوطئة لما سيجيء بعد عدّة آيات من حكم أخذ الصدقة من أموالهم ، و يؤيّده ما في الآية التالية من قوله : « ويتّخذ ما ينفق قربات عندالله و صلوات الرسول » فإنّه كالتوطئة لقوله في آية الصدقة : « وصلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم » .

فمعنى الآية : ومن سكّان البادية من يفرض الإنفاق في سبيل الخير أو في خصوص الصدقات غرماً وخسارة و ينتظر نزول الحوادث السيّئة بكم،عليهم دائرة السوء ـ قضاء منه تعالى أو دعاء عليهم ـ والله سميع للأقوال عليم بالقلوب .

قوله تعالى : « و من الأعراب من يؤمن بالله و اليوم الآخر و يتّخذ ما ينفق قربات عندالله و صلوات الرسول » الخ الظاهر أنّ قوله : « و صلوات الرسول » عطف على قوله : « ما ينفق » و أنّ الضمير في قوله : « ألا إنّها قربة » عائد إلى ما ينفق و صلوات الرسول .

و معنى الآية : ومن الأعراب من يؤمن بالله فيوحّده من غير شرك و يؤمن باليوم الآخر فيصدّق الحساب و الجزاء و يتّخذ إنفاق المال لله و ما يتبعه من صلوات الرسول و دعواته بالخير و البركة كلّ ذلك قربات عندالله وتقرّبات منه إليه ألا إنّ هذا الإنفاق وصلوات الرسول قربة لهم ، و الله يعدهم بأنّه سيدخلهم في رحمته لأنّه غفورللذنوب رحيم بالمؤمنين به و المطيعين له .

قوله تعالى : « و السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار و الّذين اتّبعوهم بإحسان » الخ القراءة المشهورة « والأنصار » بالكسر عطفاً على « المهاجرين » والتقدير : السابقون الأوّلون من المهاجرين و السابقون الأوّلون من الأنصار و الّذين اتّبعوهم بإحسان؛وقرء يعقوب : و الأنصار بالرفع فالمراد به جميع الأنصار دون السابقين الأوّلين منهم فحسب .

و قد اختلفت الكلمة في المراد بالسابقين الأوّلين فقيل : المراد بهم من صلّى إلى القبلتين ، وقيل : من بايع بيعة الرضوان وهي بيعة الحديبية ، وقيل : هم أهل بدرخاصّة ،

و قيل : هم الّذين أسلموا قبل الهجرة ، و هذه جميعاً وجوه لم يوردوا لها دليلاً من جهة اللفظ .

والّذي يمكن أن يؤيّده لفظ الآية بعض التأييد هو أنّ بيان الموضوع ـ السابقون الأوّلون ـ بالوصف بعد الوصف من غير ذكر أعيان القوم و أشخاصهم يشعر بأنّ الهجرة و النصرة هما الجهتان اللّتان روعي فيهما السبق و الأوّليّة .

ثمّ الّذي عطف عليهم من قوله : « و الّذين اتّبعوهم بإحسان ، يذكر قوماً ينعتهم بالاتّباع ويقيّده بأن يكون بإحسان و الّذي يناسب وصف الاتّباع أن يترتّب عليه هو وصف السبق دون الأوّليّة فلا يقال : أوّل وتابع وإنّما يقال : سابق و تابع و تصديق ذلك قوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الّذين اُخرجوا من ديارهم و أموالهم ـ إلى أن قال ـ والّذين تبوّؤا الدار و الإيمان من قبلهم ـ إلى أن قال ـ و الّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان » الآيات الحشر : ١٠ .

فالمراد بالسابقين هم السابقون إلى الإيمان من بين المسلمين من لدن طلوع الإسلام إلى يوم القيامة .

و لكون السبق و يقابله اللحوق و الاتّباع من الاُمور النسبيّة ، و لازمه كون مسلمي كلّ عصر سابقين في الإيمان بالقياس إلى مسلمي ما بعد عصرهم كما أنّهم لاحقون بالنسبة إلى من قبلهم قيّده « السابقون » بقوله : « الأوّلون » ليدلّ على كون المراد بالسابقين هم الطبقة الاُولى منهم .

و إذ ذكر الله سبحانه ثالث الأصناف الثلاثة بقوله : « والّذين اتّبعوهم بإحسان » ولم يقيّده بتابعي عصر دون عصر و لا وصفهم بتقدّم و أوّليّة و نحوهما وكان شاملاً لجميع من يتّبع السابقين الأوّلين كان لازم ذلك أن يصنّف المؤمنون غير المنافقين من يوم البعثة إلى يوم البعث في الآية ثلاثة أصناف : السابقون الأوّلون من المهاجرين ، و السابقون الأوّلون من الأنصار ، و الّذين اتّبعوهم بإحسان ، و الصنفان الأوّلان فاقدان لوصف التبعيّة وإنّما هما إمامان متبوعان لغيرهما و الصنف الثالث ليس متبوعاً إلّا بالقياس .

و هذا نعم الشاهد على أنّ المراد بالسابقين الأوّلين هم الّذين أسّسوا أساس الدين

و رفعوا قواعده قبل أن يشيد بنيانه و يهتزّ راياته صنف منهم بالإيمان واللحوق بالنبيّ ﷺ و الصبر على الفتنة والتعذيب ، والخروج من ديارهم وأموالهم بالهجرة إلى الحبشة و المدينة ، و صنف بالإيمان و نصرة الرسول و إيوائه و إيواء من هاجر إليهم من المؤمنين و الدفاع عن الدين قبل وقوع الوقائع .

وهذا ينطبق على من آمن بالنبيّ ﷺ قبل الهجرة ثمّ هاجر قبل وقعة بدر الّتي منها ابتدء ظهور الإسلام على الكفر أو آمن بالنبيّ ﷺ و آواه وتهيّأ لنصرته عند ما هاجر إلى المدينة .

ثمّ إنّ قوله : « و الّذين اتّبعوهم بإحسان » قيّد فيه اتّباعهم بإحسان و لم يرد الاتّباع في الإحسان بأن يكون المتبوعون محسنين ثمّ يتبعهم التابعون في إحسانهم ويقتدوا بهم فيه ـ على أن يكون الباء بمعنى في ـ و لم يرد الاتّباع بواسطة الإحسان ـ على أن يكون الباء للسببيّة أو الآليّة ـ بل جيء بالإحسان منكّراً ، و الأنسب له كون الباء بمعنى المصاحبة فالمراد أن يكون الاتّباع مقارناً لنوع مّا من الإحسان مصاحباً له ، وبعبارة اُخرى يكون الإحسان وصفاً للاتّباع .

و إنّما نجده تعالى في كتابه لايذمّ من الاتّباع إلّا ما كان عن جهل وهوى كاتّباع المشركين آباءهم ، واتّباع أهل الكتاب أحبارهم و رهبانهم وأسلافهم عن هوى و اتّباع الهوى واتّباع الشيطان فمن اتّبع شيئاً من هؤلاء فقد أساء في الاتّباع و من اتّبع الحقّ لا لهوى متعلّق بالأشخاص و غيرهم فقد أحسن في الاتّباع قال تعالى : « الّذين يستمعون القول فيتّبعون أحسنه اُولئك الّذين هداهم الله » الزمر : ١٨ ومن الإحسان في الاتّباع كمال مطابقة عمل التابع لعمل المتبوع و يقابله الإساءة فيه .

فالظاهر أنّ المراد بالّذين اتّبعوهم بإحسان أن يتّبعوهم بنوع من الإحسان في الاتّباع وهو أن يكون الاتّباع بالحقّ ـ وهو اتّباعهم لكون الحقّ معهم ـ ويرجع إلى اتّباع الحقّ بالحقيقة بخلاف اتّباعهم لهوى فيهم أو في اتّباعهم ، و كذا مراقبة التطابق.

هذا ما يظهر من معنى الاتّباع بإحسان ، و أمّا ما ذكروه من أنّ المراد كون الاتّباع مقارناً لإحسان في المتّبع عملاً بأن يأتي بالأعمال الصالحة و الأفعال الحسنة فهو

لا يلائم كلّ الملائمة التنكير الدالّ على النوع في الإحسان ، وعلى تقدير التسليم لامفرّ فيه من التقييد بما ذكرنا فإنّ الاتّباع للحقّ وفي الحقّ يستلزم الإتيان بالأعمال الحسنة الصالحة دون العكس وهو ظاهر .

فقد تلخّص أنّ الآية تقسم المؤمنين من الاُمّة إلى ثلاثة أصناف : صنفان هما السابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار ، والصنف الثالث هم الّذين اتّبعوهم بإحسان .

و ظهر ممّا تقدّم أوّلاً : أنّ الآية تمدح الصنفين الأوّلين ، بالسبق إلى الإيمان و التقدّم في إقامة صلب الدين و رفع قاعدته ، و تفضيلهم على غيرهم على ما يفيده السياق .

و ثانياً : أنّ « من » في قوله : « من المهاجرين و الأنصار » تبعيضيّة لابيانيّة لما تقدّم من وجه فضلهم ، ولما أنّ الآية تذكر أنّ الله رضي عنهم و رضوا عنه ، والقرآن نفسه يذكر أنّ منهم من في قلبه مرض و منهم سمّاعون للمنافقين ، و منهم من يسمّيه فاسقاً ، و منهم من تبرّأ النبيّ ﷺ من عمله و لامعنى لرضى الله عنهم ، والله لايرضى عن القوم الفاسقين .

و ثالثاً : أنّ الحكم بالفضل و رضى الله سبحانه في الآية مقيّد بالإيمان و العمل الصالح على ما يعطيه السياق فإنّ الآية تمدح المؤمنين في سياق تذمّ فيه المنافقين بكفرهم و سيّئات أعمالهم ويدلّ على ذلك سائر المواضع الّتي مدحهم الله فيها أو ذكرهم بخيرو وعدهم وعداً جميلاً فقد قيّد جميع ذلك بالإيمان و العمل الصالح كقوله تعالى : « للفقراء المهاجرين الّذين اُخرجوا من ديارهم و أموالهم يبتغون فضلاً من الله و رضواناً و ينصرون الله ورسوله » إلى آخر الآيات الثلاث الحشر : ٨ .

وقوله فيما حكاه من دعاء الملائكة لهم : « ويستغفرون للّذين آمنوا ربّنا وسعت كلّ شيء رحمة و علماً فاغفر للّذين تابوا و اتّبعوا سبيلك و قهم عذاب الجحيم ربّنا و أدخلهم جنّات عدن الّتي و عدتهم و من صلح من آبائهم و أزواجهم و ذرّيّاتهم » المؤمن : ٨ .

وقوله : « محمّد رسول الله والّذين معه أشدّاء على الكفّار رحماء بينهم ـ إلى أن قال ـ و عدالله الّذين آمنوا و عملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً » الفتح : ٢٩ .

و قوله : « و الّذين آمنوا و اتّبعتهم ذرّيّتهم بإيمان ألحقنابهم ذرّيّتهم و ما ألتناهم من عملهم من شيء كلّ امرء بما كسب رهين » الطور : ٢١ انظر إلى موضع قوله : « بإيمان » وقوله : كلّ امرء الخ .

و لوكان الحكم في الآية غير مقيّد بقيد الإيمان و العمل الصالح و كانوا مرضيّين عندالله مغفوراًلهم أحسنوا أو أساؤوا و اتّقوا أوفسقواكان ذلك تكذيباًصريحاً لقوله تعالى : « فإنّ اللهلايرضى عنالقوم الفاسقين » التوبة : ٩٦ ، وقوله : «والله لايهدي القومالفاسقين» التوبة : ٨٠ ، وقوله : « والله لايحبّ الظالمين » آل عمران : ٥٧ إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالّة مطابقة أوالتزاماً أنّ الله لايرضى عن الظالم والفاسق و كلّ من لايطيعه في أمر أونهي ، وليست الآيات ممّا يقبل التقييد أو النسخ .

و كذا أمثال قوله تعالى خطاباً للمؤمنين : «ليس بأمانيّكم ولاأمانيّ أهل الكتاب من يعمل سوءً يجزبه » النساء : ١٢٣ .

على أنّ لازم عدم تقييد الحكم في هذه الآية تقييد جميع الآيات الدالّة على الجزاء والمشتملة على الوعيد و التهديد ، وهي آيات جمّة في تقييدها اختلال نظام الوعد والوعيد و إلغاء معظم الأحكام و الشرائع ، وبطلان الحكمة ، ولافرق في ذلك بين أن نقول بكون « من » تبعيضيّة و الفضل لبعض المهاجرين و الأنصار أوبيانيّة و الفضل للجميع والرضى الإلهيّ للكلّ ، و هو ظاهر .

وقوله تعالى : «رضي الله عنهم و رضوا عنه » الرضى منّا موافقة النفس لفعل من الأفعال من غير تضادّ وتدافع يقال : رضي بكذا أي وافقه ولم يمتنع منه ، ويتحقّق بعدم كراهته إيّاه سواء أحبّه أولم يحبّه ولميكرهه فرضى العبد عن الله هو أن لايكره بعض مايريدهاللهولايحبّ بعضما يبغضه ولايتحقّق إلّا إذا رضي بقضائه تعالى وما يظهر منأفعاله التكوينيّة ، وكذابحكمه وما أراده منه تشريعاً ، وبعبارة اُخرى إذا سلّم له في التكوين و التشريع و هو الإسلام و التسليم لله سبحانه .

وهذا بعينه شاهد آخر على ماتقدّم أنّ الحكم في الآية مقيّد بالإيمان والعمل الصالح بمعنى أنّ الله سبحانه إنّما يمدح من المهاجرين و الأنصار و التابعين منآمن به

وعمل صالحاً ، ويخبر عن رضاه عنه وإعداده له جنّات تجري تحتها الأنهار .

وليس مدلول الآية أنّ من صدق عليه أنّه مهاجر أو أنصاريّ أو تابع فإنّ الله قد رضي عنه رضاً لا سخط بعده أبداً وأوجب في حقّه المغفرة والجنّة سواء أحسن بعد ذلك أو أساء ، اتّقى أو فسق .

وأمّا رضاه تعالى فإنّما هو من أوصافه الفعليّة دون الذاتيّة فإنّه تعالى لا يوصف لذاته بما يصير معه معرضاً للتغيير والتبدّل كأن يعرضه حال السخط إذا عصاه ثمّ الرضى إذا تاب إليه ، وإنّما يرضى و يسخط بمعنى أنّه يعامل عبده معاملة الراضي من إنزال الرحمة وإيتاء النعمة أو معاملة الساخط من منع الرحمة و تسليط النقمة و العقوبة .

ولذلك كان من الممكن أن يحدث له الرضى ثمّ يتبدّل إلى السخط أو بالعكس غير أنّ الظاهر من سياق الآية أنّ المراد بالرضى هو الرضى الّذي لا سخط بعده فإنّه حكم محمول على طبيعة أخيار الأُمّة من سابقيهم و تابعيهم في الإيمان و العمل الصالح ، وهذا أمر لا مداخلة للزمان فيه حتّى يصحّ فرض سخط بعد رضى وهو بخلاف قوله تعالى : « لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة » الآية الفتح : ١٨ فإنّه رضى مقيّد بزمان خاصّ يصلح لنفسه لأن يفرض بعده سخط .

قوله تعالى : « وممّن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة » الآية حول الشيء ما يجاوره من المكان من أطرافه وهو ظرف ، و المرد العتوّ و الخروج عن الطاعة ، و الممارسة و التمرين على الشرّ و هو المعنى المناسب لقوله في الآية : « مردوا على النفاق » أي مرّنوا عليه وما رسوا حتّى اعتادوه .

ومعنى الآية : وممّن في حولكم أو حول المدينة من الأعراب الساكنين في البوادي منافقون مرّنوا على النفاق ومن أهل المدينة أيضاً منافقون معتادون على النفاق لا تعلمهم أنت يا محمّد نحن نعلمهم سنعذّبهم مرّتين ثمّ يردّون إلى عذاب عظيم .

وقد اختلفت كلماتهم في المراد من تعذيبهم مرّتين . ماهما المرّتان ؟ فقيل : يعني مرّة في الدنيا بالسبي و القتل ونحوهما ومرّة بعذاب القبر ، وقيل : في الدنيا بأخذ الزكاة وفي الآخرة بعذاب القبر ، وقيل بالجوع مرّتين وقيل مرّة عند الاحتضار ومرّة في القبر ،

وقيل : بإقامة الحدود وعذاب القبر ، وقيل مرّة بالفضيحة في الدنيا ومرّة بالعذاب في القبر وقيل غير ذلك ،ولادليل على شيء من هذه الأقوال ، وإن كان ولا بدّ فأوّلها أولاها .

قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً» الآية أي ومن الأعراب جماعة آخرون مذنبون لاينافقون مثل غيرهم بل اعترفوا بذنوبهم لهم عمل صالح و عمل آخر سيّىء خلطوا هذا بذلك من المرجوّ أن يتوب الله عليهم إنّ الله غفور رحيم .

وفي قوله : «عسى الله أن يتوب عليهم» إيجاد الرجاء في نفوسهم لتكون نفوسهم واقعة بين الخوف والرجاء من غير أن يحيط بها اليأس و القنوط ، وفي قوله : «إنّ الله غفور رحيم» ترجيح جانب الرجاء .

قوله تعالى : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّيهم بها و صلّ عليهم إنّ صلاتك سكن لهم و الله سميع عليم » التطهير إزالة الأوساخ و القذارات من الشيء ليصفى وجوده ويستعدّ للنشوء و النماء و ظهور آثاره وبركاته ، و التزكية إنماؤه و إعطاء الرشد له بلحوق الخيرات و ظهور البركات كالشجرة بقطع الزوائد من فروعها فتزيد في حسن نموّها وجودة ثمرتها فالجمع بين التطهير و التزكية في الآية من لطيف التعبير .

فقوله : « خذ من أموالهم صدقة » أمر للنبيّ صلى الله عليه وآله بأخذ الصدقة من أموال الناس ولم يقل : من مالهم ليكون إشارة إلى أنّها مأخوذة من أصناف المال ، و هي النقدان : الذهب والفضّة ، و الأنعام الثلاثة : الإبل و البقر و الغنم ، و الغلّات الأربع : الحنطة و الشعير و التمر و الزبيب .

وقوله : «تطهّرهم وتزكّيهم بها» خطاب للنبيّ صلى الله عليه وآله ، وليس وصفاً لحال الصدقة، والدليل عليه ضمير بها الراجع إلى الصدقة أي خذ يامحمّد من أصناف أموالهم صدقة تطهّرهم أنت وتزكّيهم بتلك الصدقة أي أخذها .

وقوله : « وصلّ عليهم » الصلاة عليهم هي الدعاء لهم و السياق يفيد أنّه دعاء لهم ولأموالهم بالخير و البركة وهو المحفوظ من سنّة النبيّ صلى الله عليه وآله فكان يدعو لمعطي الزكاة و لماله بالخير و البركة .

وقوله : « إنّ صلاتك سكن لهم » السكن ما يسكن إليه الشيء و المراد به أنّ نفوسهم تسكن إلى دعائك وتثق به وهو نوع شكر لسعيهم في الله كما أنّ قوله تعالى في ذيل الآية : « و الله سميع عليم » سكن يسكن إليه نفوس المكلّفين ممّن يسمع الآية أو يتلوها .

و الآية تتضمّن حكم الزكاة الماليّة الّتي هي من أركان الشريعة و الملّة على ما هو ظاهر الآية في نفسها ، وقد فسّرتها بذلك أخبار متكاثرة من طرق أئمّة أهل البيت عليهم السلام وغيرهم .

قوله تعالى : « ألم يعلموا أنّ الله هو يقبل التوبة عن عباده و يأخذ الصدقات و أنّ الله هو التوّاب الرحيم » استفهام إنكاريّ بداعي تشويق الناس إلى إيتاء الزكاة ، و ذلك أنّهم إنّما يؤتون الصدقة لله وإنّما يسلّمونها إلى الرسول أو إلى عامله و جابيه بما أنّه مأمور من قبل الله في أخذها فإيتاؤه إيتاء لله ، وأخذه أخذ من الله فالله سبحانه هو الآخذ لها بالحقيقة ، وقد قال تعالى في أمثاله : « إنّ الّذين يبايعونك إنّما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم » الفتح : ١٠ وقال : « وما رميت إذ رميت و لكنّ الله رمى » الأنفال : ١٧ و قال قولاً عامّاً : « من يطع الرسول فقد أطاع الله » النساء : ٨٠ .

فإذا ذكّر الناس بمثل قوله : «ألم يعلموا أنّ الله » الآية انبعثت رغباتهم واشتاقوا أن يعاملوا ربّهم فيصافحوه ويمسّوا بأيديهم يده تنزّه عن عوارض الأجسام و تعالى عن ملابسة الحدثان .

ومقارنته الصدقة بالتوبة لما أنّ التوبة تطهّر وإيتاء الصدقة تطهّر فالتصدّق بصدقة توبة ماليّة كما أنّ التوبة بمنزلة الصدقة في الأعمال والحركات ، و لذلك عطف على صدر الآية قوله ذيلاً : « وأنّ الله هو التوّاب الرحيم » فذكّر عباده باسميه التوّاب و الرحيم ، وجمع فيهما التوبة والتصدّق .

وقد بان من الآية أنّ التصدّق وإيتاء الزكاة نوع من التوبة .

قوله تعالى : « وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » الآية . الآية على ظاهر اتّصالها بما قبلها كأنّها تخاطب المؤمنين وتسوقهم وتحرّضهم إلى إيتاء الصدقات .

غير أنّ لفظها مطلق لادليل على تخصيص خطابها بالمتصدّقين من المؤمنين ولابعامّة المؤمنين بل هي تشمل كلّ ذي عمل من الناس من الكفّار والمنافقين والمؤمنين ولا أقلّ من شمولها للمنافقين والمؤمنين جميعاً .

إلّا أنّ نظير الآية الّذي مرّ أعني قوله في سياق الكلام على المنافقين : «وسيرى الله عملكم ورسوله ثمّ تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون » التوبة: ٩٤ حيث ذكر الله ورسوله في رؤية عملهم ولم يذكر المؤمنين لايخلو من إيماء إلى أنّ الخطاب في الآية الّتي نحن فيها للمؤمنين خاصّة فإنّ ضمّ إحدى الآيتين إلى الاُخرى يخطر بالبال أنّ حقيقة أعمال المنافقين أعني مقاصدهم من أعمالهم لمّا كانت خفيّة على ملإ الناس فإنّما يعلم بها الله ورسوله بوحي من الله تعالى ، و أمّا المؤمنون فحقائق أعمالهم أعني مقاصدهم منها وآثارها و فوائدها الّتي تتفرّع عليها وهي شيوع التقوى و إصلاح شؤون المجتمع الإسلاميّ وإمداد الفقراء في معايشهم وزكاة الأموال و نماؤها يعلمها الله تعالى ورسوله ويشاهدها المؤمنون فيما بينهم .

لكن ظهور الأعمال بحقائق آثارها وعامّة فوائدها أو مضرّاتها في محيط كينونتها وتبدّلها بأمثالها وتصوّرها في أطوارها زماناً بعد زمان و عصراً بعد عصر ممّا لا يختصّ بعمل قوم دون عمل قوم ، ولا مشاهدتها والتأثّر بها بقوم دون قوم .

فلوكان المراد من رؤية المؤمنين أعمالاً لعاملين ظهور آثارها ونتائجها وبعبارة اُخرى ظهور أنفسها في ألبسة نتائجها لهم لم يختصّ المشاهدة بقوم دون قوم ولا بعمل قوم دون عمل قوم فما بال الأعمال يراها المؤمنون ولا يراها المنافقون وهم أهل مجتمع واحد ؟ وما بال أعمال المنافقين لايشاهدها المؤمنون وقد كوّنت في مجتمعهم وداخلت أعمالهم ؟

وهذا مع مافي الآية من خصوص السياق ممّا يقرّب الذهن أن يفهم من الآية معنى آخر فإنّ قوله : « ثمّ تردّون إلى عالم الغيب و الشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون » يدلّ أوّلاً على أنّ قوله : « فسيرى الله عملكم » الآية ناظر إلى ماقبل البعث و هي الدنيا لمكان قوله : « ثمّ تردّون » فإنّه يشير إلى يوم البعث وما قبله هو الدنيا .

وثانياً : أنّهم إنّما يوقفون على حقيقة أعمالهم يوم البعث و أمّا قبل ذلك فإنّما

يرون ظاهرها ، وقد نبّهنا على هذا المعنى كراراً في أبحاثنا السابقة ، و إذ قصر علمهم بحقائق أعمالهم على إنبائه تعالى إيّاهم بها يوم القيامة و ذكر رؤية الله و رسوله و المؤمنين أعمالهم قبل يوم البعث في الدنيا وقد ذكر الله مع رسوله و غيره وهو عالم بحقائقها وله أن يوحي إلى نبيّه بها كان المراد بها مشاهدة الله سبحانه ورسوله و المؤمنون حقيقة أعمالهم ، وكان المراد بالمؤمنين شهداء الأعمال منهم لا عامّة المؤمنين كما يدلّ عليه أمثال قوله تعالى « و كذلك جعلناكم اُمّة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً» البقرة : ١٤٣ وقد مرّ الكلام فيه في الجزء الأوّل من الكتاب .

وعلى هذا فمعنى الآية : وقل يا محمد اعملوا ماشئتم من عمل خيراً أو شرّاً فسيشاهد الله سبحانه حقيقة عملكم ويشاهدها رسوله و المؤمنون ـ وهم شهداء الأعمال ـ ثمّ تردّون إلى الله عالم الغيب والشهادة يوم القيامة فيريكم حقيقة عملكم .

و بعبارة اُخرى : ما عملتم من عمل خير أو شرّ فإنّ حقيقته مرئيّة مشهودة لله عالم الغيب والشهادة ثمّ لرسوله والمؤمنين في الدنيا ثمّ لكم أنفسكم معاشر العاملين يوم القيامة .

فالآية مسوقة لندب الناس إلى مراقبة أعمالهم بتذكيرهم أنّ لأعمالهم من خير أو شرّ حقائق غير مستورة بستر ، وأنّ لها رقباء شهداء سيطّلعون عليها ويرون حقائقها وهم رسول الله وشهداء الأعمال من المؤمنين والله من ورائهم محيط فهو تعالى يراها وهم يرونها ، ثمّ إنّ الله سبحانه سيكشف عنها الغطاء يوم القيامة للعاملين أنفسهم كما قال : «لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد» ق : ٢٢ ففرق عظيم بين أن يأتي الإنسان بعمل في الخلوة لا يطّلع عليه أحد ، وبين أن يعمل ذلك العمل بعينه بين ملإ من الناظرين جلوة وهو يرى أنّه كذلك .

هذا في الآية الّتي نحن فيها ، وأمّا الآية السابقة : « يعتذرون إليكم إذا رجعتم إليهم قل لا تعتذروا قد نبّأنا الله من أخباركم وسيرى الله عملكم و رسوله ثمّ تردّون إلى عالم الغيب والشهادة فينبّؤكم بما كنتم تعملون » فإنّ وجه الكلام فيها إلى أشخاص من المنافقين بأعيانهم يأمر الله فيها نبيّه ﷺ أن يردّ إليهم اعتذارهم ، ويذكر لهم أوّلاً أنّ

الله قد نبأهم أي النبيّ والّذين معه من المؤمنين في جيش الإسلام أخبارهم بنزول هذه الآيات الّتي تقصّ أخبار المنافقين وتكشف عن مساوي أعمالهم .

ثم يذكر لهم أنّ حقيقة أعمالهم غير مستورة عن الله سبحانه ولا خفيّة عليه وكذلك رسوله وحده ولم يكن معه أحد من شهداء الأعمال ثمّ الله يكشف لهم أنفسهم عن حقيقة أعمالهم يوم القيامة .

فهذا هو الفرق بين الآيتين مع اتّحادهما في ظاهر السياق حيث ذكر في الآية الّتي نحن فيها : الله ورسوله والمؤمنون ، وفي الآية السابقة : الله ورسوله ، و اقتصر على ذلك . فهذا مايعطيه التدبّر في معنى الآية ومن لم يقنع بذلك ولم يرض دون أن يصوّر للآية معنى ظاهريّاً فليقل إنّ ذكره تعالى « الله ورسوله » في خطاب المنافقين إنّما هو لأجل أنّهم إنّما يريدون أن يكيدوا الله ورسوله ولاهمّ لهم في المؤمنين ، و أمّا ذكره تعالى : « الله ورسوله والمؤمنين» في الخطاب العامّ فإنّما الغرض فيه تحريضهم على العمل الصالح في مشهد من الملإ الصالح ولم يعبأ بحال غيرهم من الكفّار والمنافقين . فتدبّر .

قوله تعالى : « وآخرون مرجون لأمر الله إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم والله عليم حكيم » الإرجاء التأخير ، والآية معطوفة على قوله : « و آخرون اعترفوا بذنوبهم » ومعنى إرجائهم إلى أمر الله أنّهم لاسبب عندهم يرجّح لهم جانب العذاب أوجانب المغفرة فأمرهم يؤول إلى أمر الله ماشاء وأراد فيهم فهو النافذ في حقّهم .

وهذه الآية تنطبق بحسب نفسها على المستضعفين الّذين هم كالبرزخ بين المحسنين و المسيئين ، وإن ورد في أسباب النزول أنّ الآية نازلة في الثلاثة الّذين خلّفوا ثمّ تابوا فأنزل الله توبتهم على رسوله صلّى الله عليه وآله وسيجيء إن شاء الله تعالى .

وكيف كان فالآية تخفي مايؤول إليه عاقبة أمرهم وتبقيها على إبهامها حتّى فيما ذيّلت به من الاسمين الكريمين : العليم والحكيم الدالّين على أنّ الله سبحانه يحكم فيهم بما يقتضيه علمه وحكمته ، وهذا بخلاف ماذيّل قوله : «وآخرون اعترفوا بذنوبهم» حيث قال : « عسى الله أن يتوب عليهم والله غفور رحيم » .

﴿ بحث روائي ﴾

في تفسير العيّاشيّ عن داود بن الحصين عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « ومن الأعراب من يؤمن بالله واليوم الآخر ويتّخذ ما ينفق قربات عندالله » أيثيبهم عليه ؟ قال : نعم .

وفيه عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : إنّ الله سبّق بين المؤمنين كما سبّق بين الخيل يوم الرهان .

قلت : أخبرني عمّا ندب الله المؤمن من الإسباق إلى الإيمان . قال : قول الله تعالى « سابقوا إلى مغفرة من ربّكم وجنّة عرضها كعرض السماء والأرض اُعدّت للّذين آمنوا بالله ورسله » وقال : « السابقون السابقون اُولئك المقرّبون » .

وقال : « والسابقون الأوّلون من المهاجرين والأنصار و الّذين اتّبعوهم بإحسان رضي الله عنهم و رضوا عنه » فبدء بالمهاجرين الأوّلين على درجة سبقهم ثمّ ثنّى بالأنصار ثمّ ثلّث بالتابعين وأمر[هم] بإحسان فوضع كلّ قوم على قدر درجاتهم ومنازلهم عنده .

وفي تفسير البرهان عن مالك بن أنس عن أبي صالح عن ابن عبّاس قال : « و السابقون الأوّلون » نزلت في أمير المؤمنين عليه السلام وهو أسبق الناس كلّهم بالإيمان ، و صلّى على القبلتين ، وبايع البيعتين بيعة بدر وبيعة الرضوان ، وهاجر الهجرتين مع جعفر من مكّة إلى الحبشة ومن الحبشة إلى المدينة .

أقول : و في معناها روايات اُخر .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه من طريق الأوزاعيّ حدّثني يحيى بن كثير والقاسم ومكحول وعبدة بن أبي لبابة وحسّان بن عطيّة أنّهم سمعوا جماعة من أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقولون : لمّا اُنزلت هذه الآية : « و السابقون الأوّلون ـ إلى قوله ـ ورضوا عنه» قال رسول الله صلّى الله عليه وسلّم : هذا لاُمّتي كلّهم ، وليس بعد الرضا سخط .

أقول : معناه أنّ من رضي الله عنهم ورضوا عنه هم الّذين جمعتهم الآية لا أنّ الآية

تدل على رضاه تعالى عن الاُمّة كلّهم فهذا ممّا يدفعه الكتاب بالمخالفة القطعيّة ، و كذا قوله : «وليس بعدالرضا سخط» مراده ليس بعدالرضا المذكور في الآية سخط ، وقد قرّرناه فيما تقدّم لاأنّه ليس بعد مطلق رضى الله سخط فهو ممّا لا يستقيم البتّة .

وفيه أخرج أبوالشيخ وابن عساكر عن أبي صخر حميد بن زياد قال : قلت لمحمّد بن كعب القرظيّ : أخبرني عن أصحاب رسول الله صلّى الله عليه و سلّم و إنّما اُريد الفتن . فقال : إنّ الله قد غفر لجميع أصحاب النبيّ صلّى الله عليه وسلّم ، وأوجب لهم الجنّة في كتابه محسنهم ومسيئهم . قلت : وفي أيّ موضع أوجب الله لهم الجنّة في كتابه ؟ قال : ألا تقرأ : « و السابقون الأوّلون » الآية أوجب لجميع أصحاب النبيّ صلّى الله عليه و سلّم الجنّة والرضوان ، وشرط على التابعين شرطاً لم يشترطه فيهم .

قلت : وما اشترط عليهم ؟ قال : اشترط عليهم أن يتّبعوهم بإحسان يقول : يقتدوا بهم في أعمالهم الحسنة ، ولا يقتدون بهم في غير ذلك . قال أبوصخر : فوالله لكأنّي لم أقرأها قبل ذلك ، وما عرفت تفسيرها حتّى قرأها عليّ محمّد بن كعب .

أقول : هو ـ كما ترى ـ يسلّم أنّ في أعمالهم حسنة وسيّئة وطاعة وفسقاً غير أنّ الله رضي عنهم في جميع ذلك وغفرها لهم فلا يجازيهم بالسيّئة سيّئة ، وهو الّذي ذكرنا في البيان المتقدّم أنّ مقتضاه تكذيب آيات كثيرة قرآنيّة تدلّ على أنّ الله لا يرضى عن القوم الفاسقين والظالمين وأنّه لا يحبّهم ولا يهديهم ، وتقيد آيات أكثر من ذلك و هي أكثر الآيات القرآنيّة الدالّة على عموم جزاء الحسنة بالحسنة والسيّئة بالسيّئة من غير مقيّد وعليها تعتمد آيات الأمر والنهي وهي آيات الأحكام بجملتها .

ولو كان مدلول الآية هذا الّذي ذكره لكانت الصحابة على عربيّتهم المحضة واتّصالهم بزمان النبوّة ونزول الوحي أحقّ أن يفهموا من الآية ذلك ، ولو كانوا فهموا منها ذلك لما عامل بعضهم بعضاً بما ضبطه النقل الصحيح .

و كيف يمكن أن يتحقّق كلّهم بمضمون قوله : « رضي الله عنهم و رضوا عنه » و يفهموا ذلك منه ثمّ لا يرضى بعضهم عن بعض وقد رضي الله عنه ، والراضي عن الله راض عمّا رضي الله عنه ، ولا يندفع هذا الاشكال بحديث اجتهادهم فإنّ ذلك لو سلّم يكون عذراً

في مقام العمل لا مصحّحاً للجمع بين صفتين متضادّتين وجداناً و هما الرضا عن الله و عدم الرضا عمّا رضي الله عنه والكلام طويل .

وفيه أخرج أبوعبيد وسنيد وابن‌جرير وابن‌المنذر وابن مردويه عن حبيب الشهيد عن عمروبن عامرالأنصاريّ أنّ عمر بن‌الخطّاب قرء « والسابقون‌الأوّلون من المهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوهم بإحسان » فرفع الأنصار ولم يلحق الواو في الّذين فقال‌له زيد ابن‌ثابت : والّذين فقال عمر : الّذين فقال زيد : أميرالمؤمنين أعلم فقال عمر : ائتوني بأُبيّ ابن كعب فأتاه فسأله عن ذلك فقال اُبيّ : والّذين فقال عمر : فنعم إذن نتابع اُبيّاً .

أقول : ومقتضى قراءة عمر اختصاص المهاجرين بما يتضمّنه قوله : « والسابقون الأوّلون » من‌المنقبة ومنقبة اُخرى وهي كونهم متبوعين للأنصار كما يشيرإليه الحديث الآتي .

وفيه أخرج ابن جرير وأبوالشيخ عن محمّد بن كعب القرظيّ قال : مرّ عمر برجل يقرء « والسابقون الأوّلون من‌المهاجرين والأنصار » فأخذ عمر بيده فقال : من‌أقرأك هذا ؟ قال : اُبيّ بن كعب . قال : لا تفارقني‌حتّى أذهب بك إليه فلمّا جاءه قال عمر: أنت أقرأت هذا هذه الآية هكذا ؟ قال : نعم قال : وسمعتها من رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم ؟ قال : نعم . قال : كنت أرى أنّا رفعنا رفعة لا يبلغها أحد بعدنا .

فقال اُبيّ : تصديق ذلك في‌أوّل سورة الجمعة : « وآخرين منهم لمّا يلحقوا بهم » وفي سورة الحشر : « والّذين جاؤوا من بعدهم يقولون ربّنا اغفر لنا ولإخواننا الّذين سبقونا بالإيمان » و في الأنفال : « والّذين آمنوا و هاجروا و جاهدوا معكم فاُولئك منكم » .

وفي الكافي بإسناده عن موسى بن بكر عن رجل‌قال : قال أبوجعفر عليه السلام : « الّذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيّئاً » فاُولئك قوم مؤمنون يحدثون في إيمانهم من الذنوب الّتي يعيبها المؤمنون ويكرهونها فاُولئك عسى‌الله أن يتوب عليهم .

أقول : و رواه العيّاشيّ عن زرارة عنه عليه السلام إلّا أنّ فيه « مذنبون » مكان « مؤمنون » .

و في المجمع في قوله تعالى : « وآخرون اعترفوا بذنوبهم » الآية قال : أبوحمزة الثماليّ : بلغنا أنّهم ثلاثة نفر من الأنصار : أبو كنانة بن عبدالمنذر و ثعلبة بن وديعة و أوس بن حذام تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله عند مخرجه إلى تبوك فلمّا بلغهم ما أنزل الله فيمن تخلّف عن نبيّه صلى الله عليه وآله أيقنوا بالهلاك وأوثقوا أنفسهم بسواري المسجد فلم يزالوا كذلك حتّى قدم رسول الله صلى الله عليه وآله فسأل عنهم فذكر له أنّهم أقسموا أن لا يحلّون أنفسهم حتّى يكون رسول الله يحلّهم ، وقال رسول الله صلى الله عليه وآله : وأنا اُقسم لا أكون أوّل من حلّهم إلّا أن اُومر فيهم بأمر .

فلمّا نزل : « عسى الله أن يتوب عليهم » عمد رسول الله صلى الله عليه وآله إليهم فحلّهم فانطلقوا فجاؤوا بأموالهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقالوا : هذه أموالنا الّتي خلّفتنا عنك فخذها وتصدّق بها عنّا . قال : ما اُمرت فيها ، فنزل : « خذ من أموالهم صدقة » الآيات .

أقول : و في هذا المعنى روايات اُخرى رواها في الدرّ المنثور بينها اختلاف في أسامي الرجال ، وفيها نزول آية الصدقة في خصوص أموالهم ، ويضعّفها تظافر الروايات في نزول الآية في الزكاة الواجبة .

و فيه : و روي عن أبي جعفر الباقر عليه السلام أنّها نزلت في أبي لبابة ولم يذكر غيره معه و سبب نزولها فيه ما جرى منه في بني قريظة حين قال : إن نزلتم على حكمه فهو الذبح .

وفي الكافي بإسناده عن عبدالله بن سنان قال : قال أبوعبدالله عليه السلام : لمّا نزلت هذه الآية : « خذ من أموالهم صدقة تطهّرهم و تزكّيهم بها » و اُنزلت في شهر رمضان فأمر رسول الله صلى الله عليه وآله مناديه فنادى في الناس : إنّ الله فرض عليكم الزكاة كما فرض عليكم الصلاة ففرض الله عزّ و جلّ عليهم من الذهب والفضّة وفرض الصدقة من الإبل والبقر والغنم ، ومن الحنطة والشعير والتمر والزبيب فنادى بهم بذلك في شهر رمضان ، وعفى لهم عمّا سوى ذلك .

قال : ثمّ لم يفرض لشيء من أموالهم حتّى حال عليه الحول من قابل فصاموا وأفطروا فأمر مناديه فنادى في المسلمين : أيّها المسلمون زكّوا أموالكم تقبل صلاتكم . قال : ثمّ

وجه عمال الصدقة وعمال الطسوق .

وفي الدر المنثور أخرج ابن أبي شيبة والبخاري ومسلم وأبوداود والنسائي وابن ماجه وابن المنذر وابن مردويه عن عبدالله بن أبي أوفى قال : كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم إذا اُتي بصدقة قال : اللّهمّ صلّ على آل فلان فأتاه أبي بصدقته فقال : اللّهمّ صلّ على آل أبي أوفى .

وفي تفسير البرهان عن الصدوق بإسناده عن سليمان بن مهران عن أبي عبدالله عليه السلام في قوله تعالى : « ويأخذ الصدقات » قال : يقبلها من أهلها ويثيب عليها .

و في تفسير العيّاشيّ عن مالك بن عطيّة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : قال عليّ بن الحسين عليه السلام : ضمنت على ربّي أنّ الصدقة لا تقع في يد العبد حتّى تقع في يد الربّ ، وهو قوله : « هو يقبل التوبة عن عباده ويأخذ الصدقات » .

أقول : و في معناه روايات اُخرى مرويّة عن النبيّ صلى الله عليه وآله و عليّ و أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وفي بصائر الدرجات بإسناده عن محمّد بن مسلم عن أبي جعفر عليه السلام قال : سألت عن الأعمال هل تعرض على رسول الله صلى الله عليه وآله ؟ قال : ما فيه شكّ . قال : أرأيت قول الله « اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون » فقال : لله شهداء في خلقه .

أقول : و في معناه روايات متظافرة متكاثرة مرويّة في جوامع الشيعة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام ، وفي أكثرها : أنّ «المؤمنون» في الآية هم الأئمّة ، وانطباقها على ما قدّمناه من التفسير ظاهر .

و في الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام في قول الله « وآخرون مرجون لأمر الله » قال : قوم كانوا مشركين فقتلوا مثل حمزة وجعفراً وأشباههما من المسلمين ثمّ إنّهم دخلوا في الإسلام فوحّدوا الله وتركوا الشرك ، ولم يعرفوا الإيمان بقلوبهم فيكونوا من المؤمنين فيجب لهم الجنّة ، ولم يكونوا على جحودهم فيكفروا فيجب لهم النار فهم على تلك الحال مرجون لأمر الله إمّا يعذّبهم وإمّا يتوب عليهم .

أقول : و رواه العيّاشيّ في تفسيره عن زرارة عنه عليه السلام و في معناه روايات اُخر.

وفي تفسير العيّاشيّ عن حمران قال : سألت أبا عبدالله عليه السلام عن المستضعفين قال : هم ليسوا بالمؤمنين ولا بالكفّار فهم المرجون لأمرالله .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن‌المنذر عن عكرمة في قوله : « وآخرون مرجون لأمر الله » قال ؛ هم الثلاثة الّذين خلّفوا .

أقول : وروى مثله عن مجاهد وقتادة و أنّ أسماءهم هلال بن اُميّة و مرارة بن الربيع و كعب بن مالك من الأوس والخزرج ، ولا تنطبق قصّتهم على هذه الآية وسيجيء إن شاء الله تعالى .

﴿ كلام في الزكاة و سائر الصدقة ﴾

الأبحاث الاجتماعيّة والاقتصاديّة وسائر الأبحاث المرتبطة بها جعلت اليوم حاجة المجتمع من حيث أنّه مجتمع إلى مال يختصّ به و يصرف لرفع حوائجه العامّة في صفّ البديهيّات الّتي لا يشكّ فيها شاكّ ولا يداخلها ريب فكثير من المسائل الاجتماعيّة والاقتصاديّة ـ ومنها هذه المسألة ـ كانت في الأعصار السالفة ممّا يغفل عنها عامّة الناس ولا يشعرون بها إلّا شعوراً فطريّاً إجماليّاً وهي اليوم من الأبجديّات الّتي يعرفها العامّة والخاصّة .

غير أنّ الإسلام بحسب ما بيّن من نفسيّة الإجتماع وهويّته وشرع من الأحكام الماليّة الراجعة إليها ، والأنظمة والقوانين الّتي رتّبها في أطرافها ومتونها له اليد العليا في ذلك .

فقد بيّن القرآن الكريم أنّ الاجتماع يصيغ من عناصر الأفراد المجتمعين صيغة جديدة فيكوّن منهم هويّة جديدة حيّة هي المجتمع ، وله من الوجود والعمر والحياة والموت والشعور والإرادة والضعف والقوّة والتكليف والإحسان والإساءة والسعادة والشقاوة أمثال أونظائرما للإنسان الفرد وقد نزلت في بيان ذلك كلّه آيات كثيرة قرآنيّة كرّرنا الإشارة إليها في خلال الأبحاث السابقة .

وقد عزلت الشريعة الإسلاميّة سهماً من منافع الأموال وفوائدها للمجتمع كالصدقة الواجبة الّتي هي الزكاة و كالخمس من الغنيمة و نحوها ، ولم يأت في ذلك ببدع فإنّ القوانين والشرائع السابقة عليها كشريعة حمورابي و قوانين الروم القديم يوجد فيها أشياء من ذلك بل سائر السنن القوميّة في أيّ عصر و بين أيّة طائفة دارت لا يخلو عن اعتبارجهة ماليّة لمجتمعها فالمجتمع كيفما كان يحسّ بالحاجة الماليّة في سبيل قيامه و رشده .

غير أنّ الشريعة الاسلاميّة تمتاز في ذلك من سائرالسنن والشرائع باُمور يجب إمعان النظر فيها للحصول على غرضها الحقيقيّ ونظرها المصيب في تشريعها وهي :

أولا : أنّها اقتصرت في وضع هذا النوع من الجهات الماليّة على كينونة الملك وحدوثه موجوداً ولم يتعدّ ذلك ، وبعبارة اُخرى إذا حدثت ماليّة في ظرف من الظروف كغلّة حاصلة عن زراعة أو ربح عائد من تجارة أو نحو ذلك بادرت فوضعت سهماً منهاملكاً للمجتمع وبقيّة السهام ملكاً لمن له رأس‌المال أو العمل مثلاً ، وليس عليه إلّا أن يردّ مال المجتمع وهوالسهم إليه .

بل ربّما كان المستفاد من أمثال قوله تعالى : « خلق لكم ما في الأرض جميعاً » البقرة : ٢٩و قوله : « ولا تؤتوا السفهاء أموالكم الّتي جعل الله لكم قياماً » النساء : ٤ أنّ الثروة الحادثة عند حدوثها للمجتمع بأجمعها ثمّ اختصّ سهم منها للفرد الّذي نسمّيه المالك أو العامل ، وبقي سهم أعني سهم الزكاة أو سهم الخمس في ملك المجتمع كما كان فالمالك الفرد مالك في طول مالك وهوالمجتمع ، وقد تقدّم بعض البحث عن ذلك في تفسير الآيتين .

وبالجملة فالّذي وضعته الشريعة من الحقوق الماليّة كالزكاة والخمس مثلاً إنّما وضعته في الثروة الحادثة عند حدوثها فشرّكت المجتمع مع الفرد من رأس ثمّ الفرد في حريّة من ماله المختصّ به يضعه حيث يشاء من أغراضه المشروعة من غير أن يعترضه في ذلك معترض إلّا أن يدهم المجتمع من المخاطر العامّة ما يجب معه صرف شيء من رؤوس الأموال في سبيل حفظ حياته كعدوّ هاجم يريد أن يهلك الحرث والنسل ، والمخمصة

العامّة الّتي لا تبقي ولا تذر .

وأمّا الوجوه الماليّة المتعلّقة بالنفوس أوالضياع والعقار أو الأموال التجاريّة عند حصول شرائط أو في أحوال خاصّة كالعشر المأخوذ في الثغور و نحو ذلك فإنّ الإسلام لا يرى ذلك بل يعدّه نوعاً من الغصب وظلماً يوجب تحديداً في حريّة المالك في ملكه .

ففي الحقيقة لا يأخذ المجتمع من الفرد إلّا مال نفسه الّذي يتعلّق بالغنيمة والفائدة عند أوّل حدوثه ويشارك الفرد في ملكه على نحو يبيّنه الفقه الإسلاميّ مشروحاً ، وأمّا إذا انعقد الملك واستقرّ لمالكه فلا اعتراض لمعترض على مالك في حال أو عند شرط ، يوجب قصور يده وزوال حرّيّتة .

وثانيا : أنّ الإسلام يعتبر حال الأفراد في الأموال الخاصّة بالمجتمع كما يعتبر حال المجتمع بل الغلبة في ما يظهر من نظره لحالهم على حاله فإنّه يجعل السهام في الزكاة ثمانية لا يختصّ بسبيل الله منها إلّا سهم واحد وباقي السهام للأفراد كالفقراء والمساكين والعاملين والمؤلّفة قلوبهم و غيرهم ، و في الخمس ستّة لم يجعل لله سبحانه إلّا سهم واحد والباقي للرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

وذلك أنّ الفرد هو العنصر الوحيد لتكوّن المجتمع ، ورفع اختلاف الطبقات الّذي هو من اُصول برنامج الإسلام ، وإلقاء التعادل والتوازن بين قوى المجتمع المختلفة وتثبيت الاعتدال في مسيره بأركانه وأجزائه لا يتمّ إلّا بإصلاح حال الأجزاء أعني الأفراد و تقريب أحوالهم بعضهم من بعض .

و أمّا قصر مال المجتمع في صرفه في إيجاد الشوكة العامّة والتزيينات المشتركة و رفع القصور المشيدة العالية و الأبنية الرفيعة الفاخرة وتخلية القويّ والضعيف أوالغنيّ والفقير على حالهما لا يزيدان كلّ يوم إلّا ابتعاداً فلتدلّ التجربة الطويلة القطعيّة أنّه لا يدفع غائلاً ولا يغني طائلاً .

و ثالثاً : أنّ للفرد من المسلمين أن يصرف ما عليه من الحقّ الماليّ الواجب كالزكاة مثلاً في بعض أرباب السهام كالفقير والمسكين من دون أن يؤدّيه إلى وليّ الأمر أو

عامله في الجملة فيردّه هو إلى مستحقّيه .

و هذا نوع من الاحترام الاستقلاليّ الّذي اعتبره الإسلام لأفراد مجتمعه نظير إعطاء الذمّة الّذي لكلّ فرد من المسلمين أن يقوم به لمن شاء من الكفّار المحاربين وليس للمسلمين ولا لوليّ أمرهم أن ينقض ذلك .

نعم لوليّ الأمر إذا رأى في مورد أنّ مصلحة الإسلام و المسلمين في خلاف ذلك أن ينهى عن ذلك فيجب الكفّ عنه لوجوب طاعته .

***

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِداً ضِرَاراً وَكُفْراً وَتَفْرِيقاً بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَاداً لِمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِنْ قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَى وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ (١٠٧) لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَداً لَمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَنْ تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَنْ يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ (١٠٨) أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى تَقْوَى مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَمْ مَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَى شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٠٩) لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَنْ تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (١١٠) .

(بيان)

تذكر الآيات طائفة اُخرى من المنافقين بنوا مسجد الضرار وتقيس حالهم إلى حال جماعة من المؤمنين بنوا مسجداً لتقوى الله .

قوله تعالى « والّذين اتّخذوا مسجداً ضراراً وكفراً » إلى آخر الآية الضرار والمضارّة إيصال الضرر ، والإرصاد اتّخاذ الرصد والانتظار والترقّب .

وقوله : « والّذين اتّخذوا مسجداً ضراراً » إن كانت الآيات نازلة مع ماتقدّم من الآيات النازلة في المنافقين فالعطف على من تقدّم ذكرهم من طوائف المنافقين المذكورين بقوله : ومنهم ، ومنهم أي ومنهم الّذين اتّخذوا مسجداً ضراراً .

وإن كانت مستقلّة بالنزول فالوجه كون الواو استئنافيّة وقوله : « الّذين اتّخذوا » مبتدأ خبره قوله : « لا تقم فيه أبداً » ويمكن إجراء هذا الوجه على التقدير السابق أيضاً ،

وقد ذكر المفسرون في إعراب الآية وجوهاً اُخرى لا تخلو عن تكلّف تركناها .

وقد بيّن الله غرض هذه الطائفة من المنافقين في اتّخاذ هذا المسجد وهو الضرار بغيرهم والكفر والتفريق بين المؤمنين والإرصاد لمن حارب الله و رسوله ، والأغراض المذكورة خاصّة ترتبط إلى قصّة خاصّة بعينها ، وهي على ما اتّفق عليه أهل النقل أنّ جماعة من بني عمرو بن عوف بنوا مسجد قُبا وسألوا النبيّ أن يصلّي فيه فصلّى فيه فحسدهم جماعة من بني غنم ابن عوف وهم منافقون فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا ليضرّوا به ويفرّقوا المؤمنين منه و ينتظروا لأبي عامر الراهب الّذي وعدهم أن يأتيهم بجيش من الروم ليخرجوا النبيّ صلى الله عليه وآله من المدينة ، وأمرهم أن يستعدّوا للقتال معه .

و لمّا بنوا لمسجد أتوا النبيّ صلى الله عليه وآله وهو يتجهّز إلى تبوك وسألوه أن يأتيه ويصلّي فيه ويدعو لهم بالبركة فوعدهم إلى الفراغ من أمر تبوك والرجوع إلى المدينة فنزلت الآيات .

فكان مسجدهم لمضارّة مسجد قبا ، و للكفر بالله ورسوله ، ولتفريق المؤمنين المجتمعين في قبا ، ولإرصاد أبي عامر الراهب المحارب لله ورسوله من قبل ، وقد أخبر الله سبحانه عنهم أنّهم ليحلفنّ إن أردنا من بناء هذا المسجد إلّا الفعلة الحسنى و هو التسهيل للمؤمنين بتكثير معابد يعبد فيها الله ، وشهد تعالى بكذبهم بقوله : « و ليحلفنّ إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنّهم لكاذبون » .

قوله تعالى : « لا تقم فيه أبداً » إلى آخر الآية بدء بنهي النبيّ صلى الله عليه وآله عن أن يقوم فيه ثمّ ذكر مسجد قبا و رجّح القيام فيه بعد ما مدحه بقوله : « لمسجد اُسّس على التقوى من أوّل يوم أحقّ أن تقوم فيه » فمدحه بحسن نيّة مؤسّسيه من أوّل يوم وبنى عليه رجحان القيام فيه على القيام في مسجد الضرار .

و الجملة و إن لم تفد تعيّن القيام في مسجد قبا حيث عبّر بقوله : أحقّ غير أنّ سبق النهي عن القيام في مسجد الضرار يوجب ذلك ، وقوله تعالى : « فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا » تعليل للرجحان السابق ، وقوله : « والله يحبّ المطّهّرين » متمّم للتعليل المذكور ، وهذا هو الدليل على أن المراد بقوله : « لمسجد اُسّس » الخ هو مسجد قبا لا

مسجد النبيّ أو غيره .

ومعنى الآية : لا تقم أي للصلاة فيمسجد الضرار أبداً ، أُقسم،لمَسجدُ قبا الّذي هو مسجد أُسّس على تقوى الله من أوّل يوم أحقّ و أحرى أن تقوم فيه للصلاة وذلك أنّ فيه رجالاً يحبّون التطهّر من الذنوب أو من الأرجاس والأحداث واللهيحب المطّهّرين وعليك أن تقوم فيهم .

وقد ظهر بذلك أنّ قوله : « لمسجدٌ أُسّس » الخ بمنزلة التعليل لرجحانالمسجد على المسجد وقوله : « فيه رجال » الخ لإفادة رجحان أهله علىأهله ، وقوله الآتي « أفمن أسّس بنيانه » الخ لبيان الرجحان الثاني .

قوله تعالى : « أفمنأسّس بنيانه على تقوى منالله ورضوان خير » إلى آخرالآية شفا البئر طرفه ، وجرفالواديجانبه الّذي انحفربالماء أصلهوهارالشيء يهارفهوهائروربّما يقال : هاربالقلبوانهار ينهارانهياراً أي سقطعنلين فقوله : «على شفاجرف هار فانهار بهفي نارجهنّم» استعارة تخييليّة شبّه فيها حالهم بحالمن بنى بنياناً على نهاية شفير واد لا ثقة بثباتها وقوامها فتساقطت بما بني عليه منالبنيان وكان فيأصله جهنّم فوقع في ناره ، وهذا بخلاف من بنى بنيانه على تقوى من الله ورضوان منه أي جرى في حياته على اتّقاء عذاب الله وابتغاء رضاه .

وظاهر السياق أنّقوله : « أفمنأسّسبنيانه علىتقوى»الخوقوله: «أممنأسّسبنيانه علىشفا جرف » الخ مثلان يمثّل بهمابنيان حياة المؤمنين والمنافقين وهو الدين والطريق الّذي يجريان عليه فيها فدين المؤمنهو تقوى الله وابتغاء رضوانه عنيقين به ، ودينالمنافق مبنيّعلى التزلزل والشكّ.

و لذلك أعقبه الله تعالى وزاد في بيانه بقوله : « لا يزال بنيانهم » يعني المنافقين « الّذي بنوا ريبة » و شكّاً « في قلوبهم » لا يتعدّى إلى مرحلة اليقين « إلّا أن تقطّع قلوبهم » فتتلاشي الريبة بتلاشيها « والله عليم حكيم » ولذلك يضع هؤلاء ويرفع اُولئك .

﴿ بحث روائي ﴾

في المجمع قال المفسّرون : إنّ بني عمرو بن عوف اتّخذوا مسجد قبا ، وبعثوا إلى رسول الله صلى الله عليه وآله أن يأتيهم فأتاهم و صلّى فيه فحسدهم جماعة من المنافقين من بني غنم ابن عوف فقالوا نبني مسجداً فنصلّي فيه ولا نحضر جماعة محمّد ، وكانوا اثني عشر رجلاً وقيل : خمسة عشر رجلاً منهم : ثعلبة بن حاطب ومعتّب بن قشير ونبتل بن الحارث فبنوا مسجداً إلى جنب مسجد قبا .

فلمّا بنوه أتوا رسول الله صلى الله عليه وآله و هو يتجهّز إلى تبوك فقالوا : يا رسول الله إنّا قد بنينا مسجداً لذي العلّة والحاجة واللّيلة المطرة واللّيلة الشاتية ، وإنّا نحبّ أن تأتينا فتصلّي فيه لنا و تدعو بالبركة فقال صلى الله عليه وآله : إنّي على جناح سفر ولو قدمنا أتيناكم إن شاء الله فصلّينا لكم فيه فلمّا انصرف رسول الله صلى الله عليه وآله من تبوك نزلت عليه الآية في شأن المسجد .

قال : فوجّه رسول الله صلى الله عليه وآله عند قدومه من تبوك عاصم بن عوف العجلانيّ ومالك ابن الدخشم وكان مالك من بني عمرو بن عوف فقال لهما : انطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدماه وحرّقاه ، وروي أنّه بعث عمّار بن ياسر ووحشيّاً فحرّقاه ، وأمر بأن يتّخذ كناسة يلقى فيها الجيف .

أقول : وفي رواية القمّيّ أنّه صلى الله عليه وآله بعث لذلك مالك بن دخشم الخزاعيّ وعامر ابن عديّ أخا بني عمرو بن عوف فجاء مالك و قال لعامر انتظرني حتّى اُخرج ناراً من منزلي فدخل وجاء بنار ، وأشعل في سعف النخل ثمّ أشعله في المسجد فتفرّقوا ، وقعد زيد بن حارثة حتّى احترقت البنية ثمّ أمر بهدم حائطه .

والقصّة مرويّة بطرق كثيرة من طرق أهل السنّة والروايات متقاربة إلّا أنّ في أسامي من بعثه النبيّ صلى الله عليه وآله اختلافاً .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن المنذر وابن أبي حاتم عن ابن إسحاق قال : كان الّذين بنوا

مسجد الضرار اثني عشر رجلاً : خذام بن خالد بن عبيد بن زيد وثعلبة بن حاطب و هلال ابن اُميّة ومعتّب بن قشير وأبوحبيبة بن الأزعر وعبّاد بن حنيف وجارية بن عامر وابناه مجمّع وزيد ونبتل بن الحارث وبخدج بن عثمان [(١)] ووديعة بن ثابت .

وفي المجمع في قوله : «وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله» قال : هو أبوعامر الراهب ، قال وكان من قصّته أنّه كان قد ترهّب في الجاهليّة ولبس المسوح فلمّا قدم النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة حسده ، وحزّب عليه الأحزاب ثمّ هرب بعد فتح مكّة إلى الطائف فلمّا أسلم أهل الطائف لحق بالشام ، وخرج إلى الروم وتنصّر وهو أبوحنظلة غسيل الملائكة الّذي قتل مع النبيّ صلى الله عليه وآله يوم اُحد وكان جنباً فغسلته الملائكة .

وسمّى رسول الله صلى الله عليه وآله أبا عامر الفاسق ، وكان قد أرسل إلى المنافقين أن استعدّوا وابنوا مسجداً فإنّي أذهب إلى قيصر وآتي من عنده بجنود ، واُخرج محمّداً من المدينة فكان هؤلاء المنافقون يتوقّعون أن يجيئهم أبوعامر فمات قبل أن يبلغ ملك الروم .

أقول : وفي معناه عدّة من الروايات .

وفي الكافي بإسناده عن الحلبيّ عن أبي عبدالله عليه السلام قال : سألته عن المسجد الّذي اُسّس على التقوى فقال : مسجد قبا .

أقول : ورواه العيّاشيّ في تفسيره ، وروى هذا المعنى أيضاً في الكافي بإسناده عن معاوية بن عمّار عنه عليه السلام .

وقد روى في الدرّ المنثور بغير واحد من الطرق عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال : هو مسجدي هذا ، وهو مخالف لظاهر الآية وخاصّة قوله : « فيه رجال » الخ فإنّ الكلام موضوع في القياس بين المسجدين : مسجد قبا ومسجد الضرار والقياس بين أهليهما ولا غرض يتعلّق بمسجد النبيّ صلى الله عليه وآله .

وفي تفسير العيّاشيّ عن الحلبيّ عن الصادق عليه السلام قال : سألته عن قول الله : « فيه رجال يحبّون أن يتطهّروا» قال : الّذين يحبّون أن يتطهّروا نظف الوضوء وهو الاستنجاء بالماء وقال : قال : نزلت هذه في أهل قبا .

(١) وفى السيرة : بجاد بن عثمان و هوالصحيح (ب)

وفي المجمع في الآية قال : يحبّون أن يتطهّروا بالماء عن الغائط والبول وهو المرويّ عن السيّدين : الباقر والصادق عليهما السلام وروي عن النبيّ صلى الله عليه وآله أنّه قال لأهل قبا : ماذا تفعلون في طهركم فإنّ الله تعالى قد أحسن عليكم الثناء ؟ قالوا : نغسل أثر الغائط . فقال : أنزل الله فيكم : والله يحبّ المطّهّرين ».

وفيه في قراءة قوله : « إلّا أن تقطّع قلوبهم » وقرء يعقوب وسهل : « إلى أن » على أنّه حرف الجرّ ، و هو قراءة الحسن و قتادة و الجحدريّ و جماعة ، و رواه البرقيّ عن أبي عبدالله عليه السلام :

***

إِنَّ اللّٰهَ اشْتَرٰى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ
فِى سَبِيلِ اللّٰهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْداً عَلَيْهِ حَقّاً فِى التَّوْرٰيةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ
وَمَنْ أَوْفٰى بِعَهْدِهِ مِنَ اللّٰهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِى بَايَعْتُمْ بِهِ وَذٰلِكَ هُوَ الْفَوْزُ
الْعَظِيمُ (١١١) التَّائِبُونَ الْعَابِدُونَ الْحَامِدُونَ السَّائِحُونَ الرَّاكِعُونَ السَّاجِدُونَ
الْآمِرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّاهُونَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَالْحَافِظُونَ لِحُدُودِ اللّٰهِ وَ بَشِّرِ
الْمُؤْمِنِينَ (١١٢) مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَنْ يَسْتَغْفِرُوا لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوا
أُولِى قُرْبٰى مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَابُ الْجَحِيمِ (١١٣) وَمَا كَانَ اسْتِغْفَارُ
إِبْرٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَنْ مَوْعِدَةٍ وَعَدَهَا إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّهُ عَدُوٌّ لِلّٰهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ
إِنَّ إِبْرٰهِيمَ لَأَوَّاهٌ حَلِيمٌ (١١٤) وَمَا كَانَ اللّٰهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدٰيهُمْ حَتّٰى
يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ إِنَّ اللّٰهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ (١١٥) إِنَّ اللّٰهَ لَهُ مُلْكُ السَّمٰوٰتِ
وَالْأَرْضِ يُحْيِى وَيُمِيتُ وَمَا لَكُمْ مِنْ دُونِ اللّٰهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (١١٦) لَقَدْ
تَابَ اللّٰهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ الْعُسْرَةِ
مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَؤُفٌ رَحِيمٌ (١١٧)
وَعَلَى الثَّلٰثَةِ الَّذِينَ خُلِّفُوا حَتّٰى إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ
عَلَيْهِمْ أَنْفُسُهُمْ وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللّٰهِ إِلَّا إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوا إِنَّ اللّٰهَ
هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١١٨) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّٰهَ وَكُونُوا مَعَ
الصَّادِقِينَ (١١٩) مَا كَانَ لِأَهْلِ الْمَدِينَةِ وَمَنْ حَوْلَهُمْ مِنَ الْأَعْرَابِ أَنْ يَتَخَلَّفُوا
عَنْ رَسُولِ اللّٰهِ وَلَا يَرْغَبُوا بِأَنْفُسِهِمْ عَنْ نَفْسِهِ ذٰلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا

نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطَؤُنَ مَوْطِئاً يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَيْلاً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ (١٢٠) وَلَا يُنْفِقُونَ نَفَقَةً صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً وَلَا يَقْطَعُونَ وَادِياً إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ لِيَجْزِيَهُمُ اللَّهُ أَحْسَنَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٢١) وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنْفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُمْ طَائِفَةٌ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ (١٢٢) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ (١٢٣) .

﴿بيان﴾

آيات في أغراض متفرّقة يجمعها غرض واحد مرتبط بغرض الآيات السابقة فإنّها تتكلّم حول القتال فمنها ما يمدح المؤمنين ويعدهم وعداً جميلاً على جهادهم في سبيل الله ومنها ما ينهى عن التودّد إلى المشركين والاستغفار لهم ، ومنها ما يدلّ على توبته تعالى للثلاثة المخلّفين عن غزوة تبوك ، ومنها ما يفرض على أهل المدينة ومن حولهم من الأعراب أن يخرجوا مع النبيّ صلى الله عليه وآله إذا أراد الخروج إلى قتال ولايتخلّفوا عنه ، ومنهاما يفرض على الناس أن يلازم بعضهم البيضة للتفقّه في الدين ثمّ تبليغه إلى قومهم إذا رجعوا إليهم ومنها ما يقضي بقتال الكفّار ممّن يلي بلاد الإسلام .

قوله تعالى : « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأنّ لهم الجنّة » إلى آخر الآية الاشتراء هو قبول العين المبيعة بنقل الثمن في المبايعة .

والله سبحانه يذكر في الآية وعده القطعيّ للّذين يجاهدون في سبيل الله بأنفسهم و أموالهم بالجنّة ، و يذكر أنّه ذكر ذلك في التوراة و الإنجيل كما يذكره في القرآن .

وقد قلبه سبحانه في قالب التمثيل فصوّر ذلك بيعاً ، وجعل نفسه مشترياً والمؤمنين بايعين ، وأنفسهم وأموالهم سلعة ومبيعاً ، والجنّة ثمناً ، والتوراة والإنجيل والقرآن سنداً للمبايعة ، وهو من لطيف التمثيل ثمّ يبشّر المؤمنين ببيعهم ذلك ، ويهنّئهم بالفوز العظيم .

قوله تعالى : « التائبون العابدون الحامدون السائحون » إلى آخر الآية يصف سبحانه المؤمنين بأجمل صفاتهم ، والصفات مرفوعة بالقطع أي المؤمنون هم التائبون العابدون الخ فهم التائبون لرجوعهم من غير الله إلى الله سبحانه العابدون له ويعبدونه بألسنتهم فيحمدونه بجميل الثناء ، وبأقدامهم فيسيحون ويجولون من معهد من المعاهد الدينيّة ومسجد من مساجد الله إلى غيره ، وبأبدانهم فيركعون له ويسجدون له .

هذا شأنهم بالنسبة إلى حال الانفراد وأمّا بالنسبة إلى حال الاجتماع فهم آمرون بالمعروف في السنّة الدينيّة وناهون عن المنكر فيها ثمّ هم حافظون لحدود الله لا يتعدّونه في حالتي انفرادهم واجتماعهم خلوتهم وجلوتهم ، ثمّ يأمر النبيّ ﷺ بأن يبشّرهم وقد بشّرهم تعالى نفسه في الآية السابقة ، وفيه من كمال التأكيد ما لا يقدّر قدره .

وقد ظهر بما قرّرنا أوّلاً وجه الترتيب بين الأوصاف الّتي عدّها لهم فقد بدء بأوصافهم منفردين وهي التوبة والعبادة والسياحة والركوع والسجود ثمّ ذكر مالهم من الوصف الخاصّ بهم المنبعث عن إيمانهم مجتمعين وهو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وختم بمالهم من جميل الوصف في حالتي انفرادهم واجتماعهم وهو حفظهم لحدود الله ، وفي التعبير بالحفظ مضافاً إلى الدلالة على عدم التعدّي دلالة على الرقوب والاهتمام .

وثانياً : أنّ المراد بالسياحة ـ ومعناه السير في الأرض ـ على ما هو الأنسب بسياق الترتيب هو السير إلى مساكن ذكر الله وعبادته كالمساجد ، وأمّا القول بأنّ المراد بالسياحة الصيام أو السياحة في الأرض للاعتبار بعجائب قدرة الله وما جرى على الاُمم الماضية ممّا تحكيه ديارهم وآثارهم أو المسافرة لطلب العلم أو المسافرة لطلب الحديث خاصّة فهي وجوه غير سديدة .

أمّا الأوّل فلا دليل عليه من جهة اللّفظ البتّة ، وأمّا الوجوه الاُخر فإنّها وإن

كانت ربّمااستفيد الندب إليها من مثل قوله تعالى : « أفلم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الّذين من قبلهم » المؤمن : ٨٢ ، وقوله : « فلولا نفرمن كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين » الآية ١٢٢ من السورة إلّا أنّ إرادتها منقوله : « السائحون » تبطل جودة الترتيب بين الصفات المنضودة .

وثالثاً : أنّ هذه الصفات الشريفة هي الّتي يتمّ بها إيمان المؤمن المستوجب للوعد القطعيّ بالجنّة المستتبع للبشارة الإلهيّة والنبويّة وهي الملازمة للقيام بحقّ الله المستلزمة لقيام الله سبحانه بما جعله من الحقّ على نفسه .

قوله تعالى : « ما كان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اُولي قربى » إلى آخر الآيتين معنى الآية ظاهر غير أنّه تعالى لمّا ذكر في الآية الثانية الّتي تبيّن سبب استغفار إبراهيم لأبيه مع كونه كافراً أنّه تبرّأ منه بعد ذلك لمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله ، فدلّ ذلك على أنّ تبيّن كون المشركين أصحاب الجحيم إنّما يرشد إلى عدم جواز الاستغفار لكونه ملازماً لكونهم أعداء لله فإذا تبيّن للنبيّ و الّذين آمنوا أنّ المشركين أعداء لله كشف ذلك لهم عن حكم ضروريّ و هو عدم جواز الاستغفار لكونه لغواً لا يترتّب عليه أثر و خضوع الإيمان مانع أن يلغو العبد مع ساحة الكبرياء .

و ذلك أنّه تارة يفرض الله تعالى عبداً عدوّاً لله مبغضاً له لتقصير من ناحيته وسوء من عمله فمن الجائز بالنظر إلى سعة رحمة الله أن يستغفر له ويسترحم إذا كان العبد متذلّلاً غير مستكبر ، و تارة يفرض العبد عدوّاً لله محارباً له مستكبراً مستعلياً كأرباب الجحود والعناد من المشركين ، والعقل الصريح حاكم بأنّه لا ينفعه حينئذ شفاعة بمسألة أو استغفار إلّا أن يتوب و يرجع إلى الله و ينسلخ عن الاستكبار و العناد و يتلبّس بلباس الذلّة و المسكنة فلا معنى لسؤال الرحمة و المغفرة لمن يأبى عن القبول ، ولا للاستعطاء لمن لا يخضع للأخذ والتناول إلّا الهزؤ بمقام الربوبيّة و اللعب بمقام العبوديّة و هو غير جائز بضرورة من حكم الفطرة ،

و في الآية نفي الجواز بنفي الحقّ بدليل قوله : « ماكان للنبيّ والّذين آمنوا » أي ما كانوا يملكون الاستغفار بعد ماتبيّن لهم كذا و كذا ، و قد تقدّم في ذيل قوله

تعالى : « ماكان للمشركين أن يعمروا مساجد الله » الآية ١٧ من السورة أنّ حكم الجواز مسبوق في الشرع بجعل الحقّ .

و المعنى أنّ النبيّ والّذين آمنوا بعد ما ظهر و تبيّن بتبيين الله لهم أنّ المشركين أعداء لله مخلّدون في النار لم يكن لهم حقّ يملكون به أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا اُولي قربى منهم ، وأمّا استغفار إبراهيم لأبيه المشرك فإنّه ظنّ أنّه ليس بعدوّ معاند لله وإن كان مشركاً فاستعطفه بوعد وعدها إيّاه فاستغفر له فلمّا تبيّن له أنّه عدوّ لله معاند على شركه وضلاله تبرّأ منه .

و قوله : « إنّ إبراهيم لأوّاه حليم » تعليل لوعد إبراهيم و استغفاره لأبيه بأنّه تحمّل جفوة أبيه ووعده وعداً حسناً لكونه حليماً و استغفرله لكونه أوّاهاً ، والأوّاه هو الكثير التأوّه خوفاً من ربّه و طمعاً فيه .

قوله تعالى : « وماكان الله ليضلّ قوماً بعد إذهداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون » إلى آخر الآيتين الآيتان متّصلتان بالآيتين قبلهما المسوقتين للنهي عن الاستغفار للمشركين .

أمّا الآية الاُولى أعني قوله : « و ما كان الله ليضلّ » الخ ففيه تهديد للمؤمنين بالإضلال بعد الهداية إن لم يتّقوا ما بيّن الله لهم أن يتّقوه و يجتنبوا منه ، وهو بحسب ما ينطبق على المورد أنّ المشركين أعداء لله لايجوز الاستغفار لهم و التودّد إليهم فعلى المؤمنين أن يتّقوا ذلك و إلّا فهو الضلال بعد الهدى ، و عليك أن تذكر ما قدّمناه في تفسير قوله تعالى : « اليوم يئس الّذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم و اخشوني » المائدة: ٣ في الجزء الخامس من الكتاب و في تفسير آيات ولاية المشركين و أهل الكتاب الواقعة في السور المتقدّمة .

و الآية بوجه في معنى قوله تعالى : «ذلك بأنّ الله لم يك مغيّراً نعمة أنعمها على قوم حتّى يغيّروا ما بأنفسهم » الأنفال : ٥٣ و ما في معناه من الآيات ، و هي جميعاً تهتف بأنّ من السنّة الإلهيّة أن تستمرّ على العبد نعمته و هدايته حتّى يغيّر هو ما عنده بالكفران و التعدّي فيسلب الله منه النعمة والهداية .

و أمّا الآية الثانية أعني قوله : «إنّ الله له ملك السماوات والأرض يحيي ويميت و مالكم من دون الله من وليّ ولانصير » فذيلها بيان لعلّة الحكم السابق المدلول عليه بالآية السابقة وهو النهي عن تولّي أعداء الله أو وجوب التبرّي منهم إذ لا وليّ ولانصير حقيقة إلّا الله سبحانه و قد بيّنه للمؤمنين فعليهم بدلالة من إيمانهم أن يقصروا التولّي عليه تعالى أو من أذن في تولّيهم له من أوليائه و ليس لهم أن يتعدّوا ذلك إلى تولّي أعدائه كائنين من كانوا .

و صدر الآية بيان لسبب هذا السبب و هو أنّ الله سبحانه هو الّذي يملك كلّ شيء و بيده الموت و الحياة فإليه تدبير كلّ أمر فهو الوليّ لا وليّ غيره .

وقد ظهر من عموم البيان و العلّة في الآيات الأربع أنّ الحكم عامّ وهو وجوب التبرّي أو حرمة التولّي لأعداء الله سواء كان التولّي بالاستغفار أو بغير ذلك و سواء كان العدوّ مشركاً أو كافراً أو منافقاً أو غيرهم من أهل البدع الكافرين بآيات الله أو المصرّين على بعض الكبائر كالمرابي المحارب لله و رسوله .

قوله تعالى : « لقد تاب الله على النبيّ و المهاجرين و الأنصار الّذين » إلى آخر الآيتين الساعة مقدار من الزمان فساعة العسرة الزمان الّذي تعسر فيه الحياة لابتلاء الإنسان بما تشقّ معه العيشة عليه كعطش أو جوع أو حرّ شديد أو غير ذلك ، و الزيغ هو الخروج من الطريق و الميل عن الحقّ ، و إضافة الزيغ إلى القلوب و ذكر ساعة العسرة و سائر مايلوح من سياق الكلام دليل على أنّ المراد بالزيغ الاستنكاف عن امتثال أمر النبيّ صلى الله عليه وآله و الخروج عن طاعته بالتثاقل عن الخروج إلى الجهاد أو الرجوع إلى الأوطان بقطع السير تحرّجاً من العسرة و المشقّة الّتي واجهتهم في مسيرهم .

و التخليف ـ على ما في المجمع ـ تأخير الشيء عمّن مضى فأمّا تأخير الشيء عنك في المكان فليس بتخليف ، و هو من الخلف الّذي هو مقابل لجهة الوجه يقال ، خلّفه أي جعله خلفه فهو مخلّف . انتهى و الرحب هو السعة الّتي تقابل الضيق ، و بما رحبت أي برحبها فما مصدريّة .

و الآيتان و إن كانت كلّ واحدة منهما ناظرة إلى جهة دون جهة الاُخرى

فالأولى تبيّن التوبة على النبيّ والمهاجرين والأنصار و الثانية تبيّن توبة الثلاثة المخلّفين مضافاً إلى أنّ نوع التوبة على أهل الآيتين مختلف فأهل الآية الاُولى أو بعضهم تاب الله عليهم من غير معصية منهم، و أهل الآية الثانية تيب عليهم و هم عاصون مذنبون.

و بالجملة الآيتان مختلفتان غرضاً و مدلولاً غير أنّ السياق يدلّ على أنّهما مسوقتان لغرض واحد و متّصلتان كلاماً واحداً تبيّن فيه توبته تعالى للنبيّ والمهاجرين و الأنصار و الثلاثة الّذين خلّفوا، و من الدليل عليه قوله: لقدتاب الله على النبيّ إلى أن قال ـ وعلى الثلاثة » الخ فالآية الثانية غير مستقلّة عن الاُولى بحسب اللفظ و إن استقلّت عنها في المعنى، و ذلك يستدعي نزولهما معاً وتعلّق غرض خاصّ بهذا الاتّصال و الامتزاج.

و لعلّ الغرض الأصليّ بيان توبة الله سبحانه لاُولئك الثلاثة المخلّفين و قد ضمّ إليها ذكر توبته تعالى للمهاجرين و الأنصار حتّى للنبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لتطيب قلوبهم بخلطهم بغيرهم و زوال تميّزهم من سائر الناس و عفو أثر ذلك عنهم حتّى يعود الجميع على نعت واحد وهو أنّ الله تاب عليهم برحمته فهم فيه سواء من غير أن يرتفع بعضهم عن بعض أو ينخفض بعضهم عن بعض.

و بهذا تظهر النكتة في تكرار ذكر التوبة في الآيتين فإنّ الله سبحانه يبدء بذكر توبته على النبيّ و المهاجرين و الأنصار ثمّ يقول: « ثمّ تاب عليهم » و على الثلاثة الّذين خلّفوا ثمّ يقول: « ثمّ تاب عليهم ليتوبوا » فليس إلّا أنّ الكلام مسوق على منهج الإجمال و التفصيل ذُكر فيه توبته تعالى على الجميع إجمالاً ثمّ اُشير إلى حال كلّ من الفريقين على حدته فذُكرت عند ذلك توبته الخاصّة به.

و لو كانت كلّ واحدة من الآيتين ذات غرض مستقلّ من غير أن يجمعهما غرض جامع لكان ذلك تكراراً من غير نكتة ظاهرة.

على أنّ في الآية الاُولى دلالة واضحة على أنّ النبيّ صلى الله عليه وآله وسلم لم يكن له في ذلك ذنب

و لازيغ و لا كادأن يزيغ قلبه فإنّ في الكلام مدحاً للمهاجرين و الأنصار باتّباع النبيّ صلى الله عليه وآله فلم يزغ قلبه و لاكاد أن يزيغ حتّى صار متّبعاً يقتدى به و لولا ما ذكرناه من الغرض لم يكن لذكره عليه السلام مع سائر المذكورين وجه ظاهر .

فيؤول معنى الآية إلى أنّ الله - اُقسم لذلك - تاب و رجع برحمته رجوعاً إلى النبيّ و المهاجرين والأنصار والثلاثة الّذين خلّفوا فأمّا توبته و رجوعه بالرحمة على المهاجرين و الأنصار فإنّهم اتّبعوا النبيّ في ساعة العسرة وزمانها - وهو أيّام مسيرهم إلى تبوك - اتّبعوه من بعد ماكاد يزيغ قلوب فريق منهم و يميل عن الحقّ بترك الخروج أو ترك السير فبعد ما اتّبعوه تاب الله عليهم إنّه بهم لرؤوف رحيم .

و أمّا الثلاثة الّذين خلّفوا فإنّهم آل أمرهم إلى أن ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ووسعت - و كان ذلك بسبب أنّ الناس لم يعاشروهم و لا كلّموهم حتّى أهلهم فلم يجدوا أنيساً يأنسون به - وضاقت عليهم أنفسهم - من دوام الغمّ عليهم - و أيقنوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه بالتوبة و الإنابة فلمّا كان ذلك كلّه تاب الله عليهم و انعطف ورجع برحمته إليهم ليتوبوا إليه فيقبل توبتهم إنّه هو التوّاب - كثير الرجوع إلى عباده يرجع إليهم بالهداية و التوفيق للتوبة إليه ثمّ بقبول تلك التوبة - و الرحيم بالمؤمنين .

وقد تبيّن بذلك كلّه أوّلاً : أنّ المراد بالتوبة على النبيّ صلى الله عليه وآله محض الرجوع إليه بالرحمة ، ومن الرجوع إليه بالرحمة ، الرجوع إلى اُمّته بالرحمة فالتوبة عليهم توبة عليه فهو صلى الله عليه وآله الواسطة في نزول الخيرات والبركات إلى اُمّته .

وأيضاً فإنّ من فضله تعالى على نبيّه صلى الله عليه وآله أن: كلّما ذكر اُمّته أو الّذين معه بخير أفرده من بينهم وصدّر الكلام بذكره تشريفاً له كما في قوله : « آمن الرسول بما اُنزل إليه من ربّه والمؤمنون » البقرة : ٢٨٥ وقوله : « ثمّ أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين » التوبة : ٢٦ ، و قوله : « لكن الرسول والّذين آمنوا معه جاهدوا » التوبة ٨٨ إلى غير ذلك من الموارد .

و ثانياً : أنّ المراد بما ذكر ثانياً وثالثاً من التوبة بقوله : « ثمّ تاب عليهم » في

الموضعين هو تفصيل ما ذكره إجمالاً بقوله : «لقد تاب الله» .

و ثالثاً : أنّ المراد بالتوبة في قوله : « ثمّ تاب عليهم » في الموضعين رجوعه تعالى إليهم بالهداية إلى الخير والتوفيق فقد ذكرنا مراراً في الأبحاث السابقة أنّ توبة العبد محفوفة بتوبتين من الربّ تعالى ، وأنّه يرجع إليه بالتوفيق و إفاضة رحمة الهداية و هو التوبة الاُولى منه فيهتدي العبد إلى الاستغفار وهو توبته فيرجع تعالى إليه بقبول توبته وغفران ذنوبه وهو التوبة الثانية منه تعالى.

والدليل على أنّ المراد بها في الموضعين ذلك أمّا في الآية الاُولى فلأنّه لم يذكر منهم فيها ذنباً يستغفرون له حتّى تكون توبته عليهم توبة قبول، وإنّما ذكر أنّه كان من المتوقّع زيغ قلوب بعضهم وهو يناسب التوبة الاُولى منه تعالى دون الثانية ، وأمّا في الآية الثانية فلأنّه ذكر بعدها قوله : « ليتوبوا » وهو الاستغفار، اُخذ غاية لتوبته تعالى فتوبته تعالى قبل توبتهم ليست إلّا التوبة الاُولى منه .

و ربّما أيّد ذلك قوله تعالى في مقام تعليل توبته عليهم : « إنّه بهم رؤوف رحيم » حيث لم يذكر من أسمائه ما يدلّ بلفظه على قبول توبتهم كما لم يذكر منهم توبة بمعنى الاستغفار.

ورابعاً : أنّ المراد بقوله في الآية الثانية : « ليتوبوا » توبة الثلاثة الّذين خلّفوا المترتّب على توبته تعالى الاُولى عليهم ، فالمعنى ثمّ تاب الله على الثلاثة ليتوب الثلاثة فيتوب عليهم ويغفر لهم إنّه هو التوّاب الرحيم .

فان قلت : فالآية لم تدلّ على قبول توبتهم وهذا مخالف للضرورة الثابتة من جهة النقل أنّ الآية نزلت في توبتهم .

قلت : القصّة ثابتة نقلاً غير أنّها لا توجد دلالة في لفظ الآية إلّا أنّ الآية تدلّ بسياقها على ذلك فقد قال تعالى في مقام الإجمال : « لقد تاب الله » وهو أعمّ بإطلاقه من التوبة بمعنى التوفيق وبمعنى القبول ، وكذا قوله بعد : « إنّ الله هو التوّاب الرحيم » و خاصّة بالنظر إلى ما في الجملة من سياق الحصر الناظر إلى قوله : « وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلّا إليه » فإذا كانوا أقدموا على التوبة ليأخذوا ملجأ من الله يأمنون فيه وقد هداهم

الله إليه بالتوبة فتابوا فمن المحال أن يردّهم الله من بابه خائبين و هو التوّاب الرحيم ، و كيف يستقيم ذلك ؟ وهو القائل عزّ من قائل : « إنّما التوبة على الله للّذين يعملون السوء بجهالة ثمّ يتوبون من قريب فاُولئك يتوب الله عليهم » النساء : ١٧ .

و ربّما قيل : إنّ معنى « ثمّ تاب الله عليهم ليتوبوا » ثمّ سهّل الله عليهم التوبة ليتوبوا . وهوسخيف . وأسخف منه قول من قال : إنّ المراد بالتوبة في « ليتوبوا » الرجوع إلى حالتهم الاُولى قبل المعصية . وأسخف منه قول آخرين : إنّ الضمير في « ليتوبوا » راجع إلى المؤمنين والمعنى ثم تاب على الثلاثة وأنزل توبتهم على نبيّه صلى الله عليه وآله وسلم ليتوب المؤمنون من ذنوبهم لعلمهم بأنّ الله قابل التوب .

و خامساً : أنّ الظنّ يفيد في الآية مفاد العلم لا لدلالة لفظيّة بل لخصوص المورد .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله و كونوا مع الصادقين » الصدق بحسب الأصل مطابقة القول والخبر للخارج ، ويوصف به الإنسان إذا طابق خبره الخارج ثمّ لمّا عدّ كلٌّ من الاعتقاد والعزم ـ الإرادة ـ قولاً توسّع في معنى الصدق فعدّ الإنسان صادقاً إذا طابق خبره الخارج وصادقاً إذا عمل بما اعتقده و صادقاً إذا أتى بما يريده ويعزم عليه على الجدّ .

ومافي الآية من إطلاق الأمر بالتقوى وإطلاق الصادقين وإطلاق الأمر بالكون معهم ـ والمعيّة هي المصاحبة في العمل وهو الاتّباع ـ يدلّ على أنّ المراد بالصدق هو معناه الوسيع العامّ دون الخاصّ .

فالآية تأمر المؤمنين بالتقوى واتّباع الصادقين في أقوالهم وأفعالهم وهو غير الأمر بالاتّصاف بصفتهم فإنّه الكون منهم لا الكون معهم وهو ظاهر .

قوله تعالى : «ما كان لأهل المدينة ومن حولهم من الأعراب» إلى آخر الآيتين الرغبة ميل خاصّ نفسانيّ والرغبة في الشيء الميل إليه لطلب منفعة فيه ، والرغبة عن الشيء الميل عنه بتركه والباء للسببيّة فقوله : « ولا يرغبوا بأنفسهم عن نفسه» معناه وليس لهم أن يشتغلوا بأنفسهم عن نفسه فيتركوه عند مخاطر المغازي وفي تعب الأسفار ودعثائها ويقعدوا

للتمتّع من لذائذ الحياة ، والظمأ العطش ، والنصب التعب والمخمصة المجاعة ، والغيظ أشدّ الغضب ، والموطىء الأرض الّتي توطأ بالأقدام .

والآية تسلب حقّ التخلّف عن النبيّ ﷺ من أهل المدينة والأعراب الّذين حولها ثمّ تذكر أنّ الله قابَلَ هذا السلب منهم بأنّه يكتب لهم في كلّ مصيبة تصيبهم في الجهاد من جوع وعطش وتعب وفي كلّ أرض يطؤونها فيغيظون به الكفّار أو نيل نالوه منهم عملاً صالحاً فإنّهم محسنون والله لا يضيع أجر المحسنين ، وهذا معنى قوله : « ذلك بأنّهم لا يصيبهم ظمأ » الخ .

ثمّ ذكر أنّ نفقاتهم صغيرة يسيرة كانت أو كبيرة خطيرة وكذا كلّ واد قطعوه فإنّه مكتوب لهم محفوظ لأجلهم ليجزوا به أحسن الجزاء .

وقوله : « ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » غاية متعلّقة بقوله : « كتب لهم » أي غاية هذه الكتابة هي أن يجزيهم بأحسن أعمالهم ، وإنّما خصّ جزاء أحسن الأعمال بالذكر لأنّ رغبة العامل عاكفة عليه ، أو لأنّ الجزاء بأحسنها يستلزم الجزاء بغيره ، أو لأنّ المراد بأحسن الأعمال الجهاد في سبيل الله لكونه أشقّها وقيام الدعوة الدينيّة به

وههنا معنى آخر وهو أنّ جزاء العمل في الحقيقة إنّما هو نفس العمل عائداً إلى الله فأحسن الجزاء هو أحسن العمل فالجزاء بأحسن الأعمال في معنى الجزاء بأحسن الجزاء ومعنى آخر وهو أن يغفر الله سبحانه سيّئاتهم المشوبة بأعمالهم الحسنة ويسترجهات نقصها فيكون العمل أحسن بعد ما كان حسناً ثمّ يجزيهم بأحسن ما كانوا يعملون فافهم ذلك وربّما رجع المعنيان إلى معنى واحد.

قوله تعالى : « وما كان المؤمنون لينفروا كافّة فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين » السياق يدلّ على أنّ المراد بقوله :«لينفروا كافة» لينفروا وليخرجوا إلى الجهاد جميعاً ، وقوله : « فرقة منهم » الضمير للمؤمنين الّذين ليس لهم أن ينفروا كافّة ، ولازمه أن يكون النفر إلى النبيّ ﷺ منهم .

فالآية تنهى مؤمني سائر البلاد غير مدينة الرسول أن ينفروا إلى الجهاد كافّة

بل يحضّضهم أن ينفر طائفة منهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله للتفقّه في الدين ، وينفر إلى الجهاد غيرهم .

والأنسب بهذا المعنى أن يكون الضمير في قوله « رجعوا » للطائفة المتفقّهين ، وفي قوله « : إليهم » لقومهم و المراد إذا رجع هؤلاء المتفقّهون إلى قومهم ، ويمكن العكس بأن يكون المعنى : إذا رجع قومهم من الجهاد إلى هؤلاء الطائفة بعد تفقّههم و رجوعهم إلى أوطانهم .

ومعنى الآية لا يجوز لمؤمني البلاد أن يخرجوا إلى الجهاد جميعاً فهلّا نفر وخرج إلى النبيّ صلى الله عليه وآله طائفة من كلّ فرقة من فرق المؤمنين ليتحقّقوا الفقه والفهم في الدين فيعملوا به لأنفسهم ولينذروا بنشر معارف الدين و ذكر آثار المخالفة لاُصوله و فروعه قومهم إذا رجعت هذه الطائفة إليهم لعلّهم يحذرون ويتّقون .

ومن هنا يظهر أوّلاً أنّ المراد بالتفقّه تفهّم جميع المعارف الدينيّة من اُصول و فروع لا خصوص الأحكام العمليّة وهو الفقه المصطلح عليه عند المتشرّعة ، والدليل عليه قوله : « لينذروا قومهم » فإنّ ذلك أمر إنّما يتمّ بالتفقّه في جميع الدين وهو ظاهر .

و ثانياً : أنّ النفر إلى الجهاد موضوع عن طلبة العلم الدينيّ بدلالة من الآية .

وثالثاً : أنّ سائر المعاني المحتملة الّتي ذكروها في الآية بعيدة عن السياق كقول بعضهم : إنّ المراد بقوله : « لينفروا كافّة » نفرهم إلى النبيّ صلى الله عليه وآله للتفقّه ، وقول بعضهم في « فلولا نفر » : أي إلى الجهاد ، والمراد بقوله : « ليتفقّهوا » أي الباقون المتخلّفون فينذروا قومهم النافرين إلى الجهاد إذا رجعوا إلى اُولئك المتخلّفين . فهذه ونظائرها معان بعيدة لا جدوى في التعرّض لها والإطناب في البحث عنها .

قوله تعالى : « يا أيّها الّذين آمنوا قاتلوا الّذين يلونكم من الكفّار وليجدوا فيكم غلظة واعلموا أنّ الله مع المتّقين » أمر بالجهاد العامّ الّذي فيه توسّع الإسلام حتّى يشيع في الدنيا فإنّ قتال كلّ طائفة من المؤمنين من يليهم من الكفّار لا ينتهي إلّا باتّساع الاسلام اتّساعاً باستقرار سلطنته على الدنيا وإحاطته بالناس جميعاً .

والمراد بقوله : « و ليجدوا فيكم غلظة » أي الشدّة في ذات الله و ليس يعني بها

الخشونة والفظاظة وسوء الخلق والقساوة والجفاء فجميع الاُصول الدينيّة تذمّ ذلك و تستقبحه ، و لحن آيات الجهاد ينهى عن كلّ تعدّ واعتداء و جفاء كما مرّ في سورة البقرة .

وفي قوله : « واعلموا أنّ الله مع المتّقين » وعداً إلهيّاً بالنصر بشرط التقوى، ويؤول معناه إلى إرشادهم إلى أن يكونوا دائماً مراقبين لأنفسهم ذا كرين مقام ربّهم منهم ، وهو أنّه معهم ومولاهم فهم الأعلون إن كانوا يتّقون .

﴿ بحث روائي ﴾

في الدرّ المنثور أخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن جابر بن عبدالله قال : نزلت هذه الآية على رسول الله صلّى الله عليه وآله وسلّم وهو في المسجد : « إنّ الله اشترى من المؤمنين أنفسهم » الآية فكبّر الناس في المسجد فأقبل رجل من الأنصار ثانياً طرفي ردائه على عاتقه فقال : يا رسول الله أنزلت هذه الآية ؟ قال : نعم . فقال الأنصاريّ : بيع ربيح لا نقيل ولا نستقيل .

وفي الكافي بإسناده عن سماعة عن أبي عبدالله عليه السلام قال : لقي عبّاد البصريّ عليّ ابن الحسين عليه السلام في طريق مكّة فقال له : يا عليّ بن الحسين تركت الجهاد و صعوبته وأقبلت على الحجّ ولينته إنّ الله يقول : « إنّ الله اشترى » الخ فقال عليّ بن الحسين عليه السلام إذا رأينا هؤلاء الّذين هذه صفتهم فالجهاد معهم أفضل من الحجّ .

أقول : يريد عليه السلام ما في الآية الثانية : « التائبون العابدون » الآية من الأوصاف .

وعن النبيّ صلّى الله عليه وآله قال : سياحة اُمّتي في المساجد .

أقول : وروي عن أبي هريرة عن النبيّ صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ السائحين هم الصائمون ، وعن أبي اُمامة عنه صلّى الله عليه وآله وسلّم أنّ سياحة اُمّتي الجهاد في سبيل الله ، وقد تقدّم الكلام فيه .

وفي المجمع : « التائبين العابدين » إلى آخرها بالياء عن أبي جعفر وأبي عبدالله عليهما السلام .

وفي الدرّ المنثور في قوله تعالى: « ماكان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين» أخرج ابن أبي شيبة وأحمد والبخاريّ ومسلم والنسائيّ وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه والبيهقيّ في الدلائل عن سعيد بن المسيّب عن أبيه قال : لمّا حضرت أبا طالب الوفاة دخل عليه النبيّ صلّى الله عليه وسلّم وعنده أبوجهل وعبدالله بن أبي اُميّة فقال النبيّ صلّى الله عليه و سلّم : أي عمّ قل لا إله إلّا الله اُحاجّ لك بها عند الله فقال أبوجهل وعبدالله بن أبي اُميّة : يا أبا طالب أترغب عن ملّة عبدالمطّلب ؟ و جعل النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يعرضها عليه وأبوجهل وعبدالله يعانوانه بتلك المقالة فقال أبوطالب آخر ما كلّمهم هو: على ملّة عبدالمطّلب ، وأبى أن يقول :لا إله إلّا الله .

فقال النبيّ صلّى الله عليه و سلّم : لأستغفرنّ لك ما لم أنه عنك فنزلت : « ما كان للنبيّ والّذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين » الآية ، و أنزل الله في أبي طالب فقال لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم : « إنّك لا تهدي من أحببت ولكنّ الله يهدي من يشاء » .

أقول : وفي معناه روايات اُخرى من طرق أهل السنّة ، وفي بعضها أنّ المسلمين لمّا رأوا النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يستغفر لعمّه و هو مشرك استغفروا لآبائهم المشركين فنزلت الآية ، وقد اتّفقت الرواية عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام أنّه كان مسلماً غير متظاهر بإسلامه ليتمكّن بذلك من حماية النبيّ صلى الله عليه وآله ، وفيما روي بالنقل الصحيح من أشعاره شيء كثير يدلّ على توحيده وتصديقه النبوّة ، وقد قدّمنا نبذة منها .

وفي الكافي بإسناده عن زرارة عن أبي جعفر عليه السلام قال : الأوّاه الدعّاء .

وفي المجمع في قوله تعالى : « وما كان الله ليضلّ قوماً » الآية قيل : مات قوم من المسلمين على الإسلام قبل أن تنزل الفرائض فقال المسلمون : يارسول الله إخواننا المسلمون ماتوا قبل الفرائض ما منزلتهم ؟ فنزل : « وما كان الله ليضلّ قوماً » الآية عن الحسن .

وفي الدرّ المنثور أخرج ابن مردويه عن ابن عبّاس في الآية قال : نزلت حين أخذوا الفداء من المشركين يوم الأسارى [1] قال : لم يكن لكم أن تأخذوه حتّى يؤذن لكم

---

(١) يعني يوم بدر .

ولكن ماكان الله ليعذّب قوماً بذنب أذنبوه حتّى يبيّن لهم ما يتّقون . قال : حتّى ينهاهم قبل ذلك .

أقول : ظاهر الروايتين أنّهما من التطبيق دون النزول بمعناه المصطلح عليه ، واتّصال الآية بالآيتين قبلها ودخولها في سياقهما ظاهر ، وقد تقدّم توضيحه .

وفي الكافي باسناده عن حمزة بن محمّد الطيّار عن أبي‌عبدالله عليه‌السلام في قول الله : « وما كان الله ليضلّ قوماً بعد إذ هداهم حتّى يبيّن لهم ما يتّقون » قال : يعرّفهم ما يرضيه وما يسخطه . الحديث.

أقول : ورواه أيضاً عن عبدالأعلى عنه عليه‌السلام ، ورواه البرقيّ أيضاً في المحاسن .

وفي تفسيرالقمّيّ : « لقد تاب الله بالنبيّ على المهاجرين والأنصار الّذين اتّبعوه في ساعة العسرة » قال الصادق عليه‌السلام : هكذا نزلت وهم أبو ذرّ وأبوخيثمة و عمير بن وهب الّذين تخلّفوا ثمّ لحقوا برسول الله صلى‌الله‌عليه‌وآله .

اقول : وقد استخرجناه من حديث طويل أورده القمّيّ في تفسيره في قوله تعالى : « ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدّة » الآية : ٤٦ من السورة ، وروى قراءة « بالنبيّ » في المجمع عنه وعن الرضا عليهماالسلام .

وفي المجمع في قوله :«وعلى الثلاثة الّذين خلّفوا» وقرء عليّ بن الحسين زين العابدين ومحمّد بن عليّ الباقر وجعفر بن محمّد الصادق عليهم‌السلام وأبوعبدالرحمان السلميّ . خالفوا .

وفيه في قوله « لقد تاب الله على النبيّ والمهاجرين والأنصار » الآية نزلت في غزاة تبوك وما لحق المسلمين فيها من العسرة حتّى همّ قوم بالرجوع ثمّ تداركهم لطف الله سبحانه قال الحسن : كان العشرة من المسلمين يخرجون على بعير يعتقبونه بينهم يركب الرجل ساعة ثمّ ينزل فيركب صاحبه كذلك ، وكان زادهم الشعير المسوّس والتمر المدوّد والإهالة السنخة وكان النفر منهم يخرجون ما معهم من التميرات بينهم فإذا بلغ الجوع من أحدهم أخذ التمرة فلاكها حتّى يجد طعمها ثمّ يعطيها صاحبه فيمصّها ثمّ يشرب عليها جرعة من ماء كذلك حتّى يأتي على آخرهم فلا يبقى من التمرة إلّا النواة .

وفيه في قوله . « وعلى الثلاثة الّذين خلّفوا » الآية نزلت في شأن كعب بن مالك

ومرارة بن الربيع وهلال بن اُميّة ، وذلك أنّهم تخلّفوا عن رسول الله صلى الله عليه وآله ولم يخرجوا معه لا عن نفاق ولكن عن توان ثمّ ندموا فلمّا قدم النبيّ صلى الله عليه وآله المدينة جاؤوا إليه واعتذروا فلم يكلّمهم النبيّ صلى الله عليه وآله و تقدّم إلى المسلمين بأن لا يكلّمهم أحد منهم فهجرهم الناس حتّى الصبيان ، وجاءت نساؤهم إلى رسول الله صلى الله عليه وآله فقلن له يا رسول الله نعتزلهم ؟ فقال لا ولكن لا يقربوكنّ .

فضاقت عليهم المدينة فخرجوا إلى رؤوس الجبال ، وكان أهاليهم يجيؤون لهم بالطعام ولا يكلّمونهم فقال بعضهم لبعض : قد هجرنا الناس ولا يكلّمنا أحد منهم فهلاّ نتهاجر نحن أيضاً فتفرّقوا ولم يجتمع منهم اثنان ، وبقوا على ذلك خمسين يوماً يتضرّعون إلى الله تعالى ويتوبون إليه فقبل الله تعالى توبتهم وأنزل فيهم هذه الآية .

اقول : وقد تقدّمت القصّة في حديث طويل نقلناه من تفسير القمّيّ في الآية ٤٦ من السورة ، ورويت القصّة بطرق كثيرة .

وفي تفسير البرهان عن ابن شهرآشوب من تفسير أبي يوسف بن يعقوب بن سفيان حدّثنا مالك بن أنس عن نافع عن ابن عمر قال : « يا أيّها الّذين آمنوا اتّقوا الله » قال : أمر الله الصحابة أن يخافوا الله . ثمّ قال : « و كونوا مع الصادقين » يعني مع محمّد و أهل بيته عليهم السلام.

اقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن أئمّة أهل البيت عليهم السلام وقد روي في الدرّ المنثور عن ابن مردويه عن ابن عبّاس . و أيضاً عن ابن عساكر عن أبي جعفر في قوله : « و كونوا مع الصادقين » قالا : مع عليّ بن أبي طالب .

وفي الكافي بإسناده عن يعقوب بن شعيب قال : قلت لأبي عبدالله عليه السلام إذا حدث على الإمام حدث كيف يصنع الناس ؟ قال : أين قول الله عزّ وجلّ : « فلولا نفر من كلّ فرقة منهم طائفة ليتفقّهوا في الدين و لينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلّهم يحذرون » قال : هم في عذر ماداموا في الطلب ، و هؤلاء الّذين ينتظرونهم في عذر حتّى يرجع إليهم أصحابهم .

أقول : وفي هذا المعنى روايات كثيرة عن الأئمّة عليهم السلام ، وهو ممّا يدلّ على أن المراد بالتفقّه في الآية أعمّ من تعلّم الفقه بالمعنى المصطلح عليه اليوم .

واعلم أنّ هناك أقوالاً اُخرى في أسباب نزول بعض الآيات السابقة تركناها لظهور ضعفها ووهنها .

***

وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَنْ يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هٰذِهِ إِيمَانًا فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَزَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ (١٢٤) وَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُوا وَهُمْ كَافِرُونَ (١٢٥) أَوَلَا يَرَوْنَ أَنَّهُمْ يُفْتَنُونَ فِي كُلِّ عَامٍ مَرَّةً أَوْ مَرَّتَيْنِ ثُمَّ لَا يَتُوبُونَ وَلَا هُمْ يَذَّكَّرُونَ (١٢٦) وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ (١٢٧) لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ (١٢٨) فَإِنْ تَوَلَّوْا فَقُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَهُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ (١٢٩)

﴿ بيان ﴾

هي آيات تختتم بها آيات براءة وهي تذكر حال المؤمنين والمنافقين عند مشاهدة نزول السور القرآنيّة ، ويحصّل بذلك أيضاً أمارة من أمارات النفاق يعرف بها المنافق من المؤمن ، وهو قولهم عند نزول القرآن : أيّكم زادته هذه إيماناً ؟ و نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد ؟

وفيها وصفه تعالى نبيّه صلى الله عليه وآله وصفاً يحنّ به إليه قلوب المؤمنين ، وأمره بالتوكّل عليه إن أعرضوا عنه .

قوله تعالى : « وإذا ما أُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً » إلى آخر الآيتين . نحو السؤال في قولهم : هل يراكم من أحد ؟! يدلّ على أنّ سائله لا يخلو من شيء في قلبه فإنّ هذا السؤال بالطبع سؤال من لا يجد في قلبه أثراً من

نزول القرآن و كأنّه يذعن أنّ قلوب غيره كقلبه فيما يتلقّاه فيتفحّص عمّن أثّر في قلبه نزول القرآن كأنّه يرى أنّ النبيّ ﷺ يدّعي أنّ القرآن يصلح كلّ قلب سواء كان مستعدّاً مهيّأً للصلاح أم لاوهو لايذعن بذلك و كلّما تليت عليه سورة جديدة ولم يجد في قلبه خشوعاً لله ولا ميلاً وحناناً إلى الحقّ زاد شكّاً فبعثه ذلك إلى أن يسأل سائر من حضر عند النزول عن ذلك حتّى يستقرّ في شكّه ويزيد ثباتاً في نفاقه .

وبالجملة السؤال سؤال من لايخلو قلبه من نفاق .

وقد فصّل الله سبحانه أمر القلوب و فرّق بين قلوب المؤمنين و الّذين في قلوبهم مرض فقال : «فأمّا الّذين آمنوا » وهم الّذين قلوبهم خالية عن النفاق بريئة من المرض وهم على يقين من دينهم بقرينة المقابلة « فزادتهم » السورة النازلة « إيماناً » فإنّها بإنارتها أرض القلب بنورهدايتها توجب اشتداد نور الإيمان فيه ، وهذه زيادة في الكيف ، وباشتمالها على معارف وحقائق جديدة من المعارف القرآنيّة والحقائق الإلهيّة ، وبسطها على القلب نورالإيمان بها توجب زيادة إيمان جديد على سابق الإيمان و هذه زيادة في الكمّيّة ونسبة زيادة الإيمان إلى السورة من قبيل النسبة إلى الأسباب الظاهرة و كيف كان فالسورة تزيدالمؤمنين إيماناً فتنشرح بذلك صدورهم و تتهلّل وجوههم فرحاً « وهم يستبشرون » .

« وأمّا الّذين في قلوبهم مرض » وهم أهل الشكّ و النفاق « فزادتهم رجساً إلى رجسهم » أي ضلالاً جديداً إلى ضلالهم القديم وقد سمّى الله سبحانه الضلال رجساً في قوله : « ومن يردأن يضلّه يجعل صدره ضيّقاً حرجاً كأنّما يصّعّدفي السماء كذلك يجعل الله الرجس على الّذين لايؤمنون » الأنعام : ١٢٥ والمقابلة الواقعة بين «الّذين آمنوا » و «الّذين فيقلوبهم مرض» يفيد أنّ هؤلاء ليس في قلوبهم إيما ن صحيح و إنّما هوالشكّ أوالجحد و كيف كانفهو الكفر ولذلكقال «وماتوا وهمكافرون » .

والآية تدلّ على أنّ السورة من القرآن لاتخلو عن تأثير في قلب من استمعه فإن كان قلباً سليماً زادته إيماناً واستبشاراً وسروراً ، وإنكان قلباً مريضاً زادته رجساً و ضلالاً نظير ما يفيده قوله : « وننزّل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلّا

خساراً » أسرى : ٨٢ .

قوله تعالى : « أولا يرون أنّهم يفتنون في كلّ عام مرّة أو مرّتين » الآية الاستفهام للتقرير أي مالهم لايتفكّرون ولا يعتبرون وهم يرون أنّهم يبتلون و يمتحنون كلّ عام مرّة أو مرّتين فيعصون الله ولا يخرجون من عهدة المحنة الإلهيّة و هم لايتوبون ولا يتذكّرون ولو تفكّروا في ذلك انتبهوا لواجب أمرهم و أيقنوا أنّ الاستمرار على هذا الشأن ينتهي بهم إلى تراكم الرجس على الرجس والهلاك الدائم والخسران المؤبّد .

قوله تعالى : « وإذا ما اُنزلت سورة نظر بعضهم إلى بعض هل يراكم من أحد » الآية وهذه خصيصة اُخرى من خصائصهم وهي أنّهم عند نزول سورة قرآنيّة ـ ولا محالة هم حاضرون ـ ينظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ، وهذا قول من يسمع حديثاً لا يطيقه و يضيق بذلك صدره فيتغيّر لونه ويظهر القلق والاضطراب في وجهه فيخاف أن يلتفت إليه ويظهر السرّ الّذي طواه في قلبه فينظر إلى بعض من كان قد أودعه سرّه و أوقفه على باطن أمره كأنّه يستفسره هل يطّلع على ما بنا من القلق و الاضطراب أحد ؟

فقوله : « نظر بعضهم إلى بعض » أي بعض المنافقين ، و هذا من الدليل على أنّ الضمير في قوله في الآية السابقة : « فمنهم من يقول » أيضاً للمنافقين ، وقوله : « نظر بعضهم إلى بعض » أي نظر قلق مضطرب يحذر ظهور أمره و انهتاك ستره ، وقوله : « هل يراكم من أحد » في مقام التفسير للنظر أي نظر بعضهم إلى بعض نظر من يقول : هل يراكم من أحد ؟ ومن للتأكيد و أحد فاعل يراكم .

وقوله : « ثمّ انصرفوا صرف الله قلوبهم بأنّهم قوم لايفقهون » ظاهر السياق أنّ المعنى ثمّ انصرفوا من عند النبيّ صلى الله عليه وآله في حال صرف الله قلوبهم عن وعي الآيات الإلهيّة و الإيمان بها بسبب أنّهم قوم لا يفقهون الكلام الحقّ فالجملة حاليّة على ما يجوّزه الكوفيّون من خلوّ الجملة الحاليّة المصدّرة بالفعل الماضي عن قد .

وربّما احتمل كون قوله : « صرف الله قلوبهم » دعاءً منه تعالى على المنافقين ، وله

نظائر في القرآن ، والدعاء منه تعالى على أحد إيعاد له بالشرّ .

قوله تعالى : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ماعنتّم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » العنت هو الضرر و الهلاك ، وما في قوله : « ماعنتّم » مصدريّة و التأويل عنتكم ، والمراد بالرسول على مايشهد سياق الآيتين محمّد صلى الله عليه وآله ، وقد وصفه بأنّه من أنفسهم والظاهر أنّ المراد به أنّه بشر مثلكم ومن نوعكم إذ لادليل يدلّ على تخصيص الخطاب بالعرب أو بقريش خاصّة ، وخاصّة بالنظر إلى وجود رجال من الروم وفارس و والحبشة بين المسلمين في حال الخطاب .

والمعنى لقد جاءكم أيّها الناس رسول من أنفسكم من أوصافه أنّه يشقّ عليه ضرّكم أوهلاككم وأنّه حريص عليكم جميعاً من مؤمن أوغير مؤمن ، وأنّه رؤوف رحيم بالمؤمنين منكم خاصّة فيحقّ عليكم أن تطيعوا أمره لأنّه رسول لايصدع إلّا عن أمر الله ، وطاعته طاعة الله ، وأن تأنسوا به وتحنّوا إليه لأنّه من أنفسكم ، وأن تجيبوا دعوته وتصغوا إليه كما ينصح لكم .

ومن هنا يظهر أنّ القيود المأخوذة في الكلام من الأوصاف أعني قوله « رسول » و « من أنفسكم » و « عزيز عليه ما عنتّم » الخ جميعها مسوقة لتأكيد الندب إلى إجابته وقبول دعوته ، ويدلّ عليه قوله في الآية التالية : « فإن تولّوا فقل حسبي الله » .

قوله تعالى : « فإن تولّوا فقل حسبي الله لا إله إلّا هو عليه توكّلت وهو ربّ العرش العظيم » أي وإن تولّوا عنك وأعرضوا عن قبول دعوتك فقل حسبي الله لا إله إلّا هو أي هو كافيّ لاإله إلّا هو .

فقوله : « لاإله إلّا هو » في مقام التعليل لانقطاعه من الأسباب و اعتصامه بربّه فهو كاف لاكافي سواه لأنّه الله لا إله غيره ، و من المحتمل أن تكون كلمة التوحيد جيىء بها للتعظيم نظير قوله : « وقالوا اتّخذ الله ولداً سبحانه » البقرة : ١١٦ .

وقوله : « عليه توكّلت » وفيه معنى الحصر تفسير يفسّر به قوله : « حسبي الله » الدالّ على معنى التوكّل بالالتزام ، وقد تقدّم في بعض الأبحاث السابقة أنّ معنى التوكّل هو اتّخاذ العبد ربّه وكيلاً يحلّ محلّ نفسه ويتولّى تدبير اُموره أي انصرافه عن

التسبّب بذيل ما يعرفه من الأسباب ، ولامحالة هو بعض الأسباب الّذي هو علّة ناقصة و الاعتصام بالسبب الحقيقيّ الّذي إليه ينتهي جميع الأسباب .

و من هنا يظهر وجه تذييل الكلام بقوله « وهو ربّ العرش العظيم » أي الملك و السلطان الّذي يحكم به على كلّ شيء ويدبّر به كلّ أمر .

وإنّما قال تعالى : « فقل حسبي الله » الآية ولم يقل : فتوكّل على الله لإرشاده إلى أن يتوكّل على ربّه وهو ذاكر هذه الحقائق الّتي تنوّر حقيقة معنى التوكّل ، وأنّ النظر المصيب هو أن لا يثق الإنسان بما يدركه من الأسباب الظاهرة الّتي هي لامحالة بعض الأسباب بل يأخذ بما يعلمه منها على ما طبعه الله عليه و يثق بربّه و يتوكّل عليه في حصول بغيته وغرضه .

وفي الآية من الدلالة على عجيب اهتمامه صلى الله عليه وآله باهتداء الناس ما ليس يخفى فإنّه تعالى يأمره بالتوكّل على ربّه فيما يهتمّ به من الأمر و هو ما تبيّنه الآية السابقة من شدّة رغبته وحرصه في اهتداء الناس وفوزهم بالسعادة فافهم ذلك .

﴿ بحث روائي ﴾

في الكافي بإسناده عن أبي عمرو الزبيريّ عن أبي عبدالله عليه السلام ـ في حديث طويل يذكر فيه تمام الإيمان و نقصه ، قال : قلت : قد فهمت نقصان الإيمان وتمامه فمن أين جاءت زيادته ؟ فقال : قول الله عزّوجلّ : « وإذا ما اُنزلت سورة فمنهم من يقول أيّكم زادته هذه إيماناً فأمّا الّذين آمنوا فزادتهم إيماناً وهم يستبشرون وأمّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » وقال : « نحن نقصّ عليك نبأهم بالحقّ إنّهم فتية آمنوا بربّهم وزدناهم هدى » .

ولو كان كلّه واحداً لا زيادة فيه ولا نقصان لم يكن لأحد منهم فضل على الآخر ، ولاستوت النعم فيه ، ولاستوى الناس وبطل التفضيل ، ولكن بتمام الإيمان دخل المؤمنون الجنّة و بالزيادة في الإيمان تفاضل المؤمنون بالدرجات عند الله ، و بالنقصان دخل المفرّطون النار .

وفي تفسيرالعيـّاشي ّعن زرارة بن أعين عن أبي‌جعفر عليه السلام « وأمـّا الّذين في قلوبهم مرض فزادتهم رجساً إلى رجسهم » يقول شكّاً إلى شكّهم .

وفي‌الدر ّالمنثور في‌قوله : « لقد جاء كم رسول من‌أنفسكم »أخرج أبونعيم في‌الدلائل عن ابن‌عبـّاس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : لم يلتق أبواي قطّ على سفاح : لم يزل الله ينقلني من الأصلاب الطيـّبة إلى الأرحام الطاهرة مصفّى مهذ ّباً لا تتشعب شعبتان إلّا كنت في خيرهما .

أقول : وقد أورد فيه روايات كثيرة في هذا المعنى عن رجال من الصحابة و غيرهم كالعبـّاس وأنس وأبي‌هريرة وربيعة بن‌الحارث بن عبدالمطـّلب وابن عمر وابن‌عبـّاس وعليّ ومحمّد بن عليّ الباقر وجعفر بن محمّد الصادق عليهما السلام و غيرهم عن النبيّ صلّى‌الله عليه وسلّم .

وفيه أخرج ابن‌الضريس في فضائل‌القرآن وابن‌الأنباريّ في المصاحف وابن‌مردويه عن الحسن‌أنّ أُبيّ بن كعب‌كان يقول : إنّ‌أحدث القرآن عهداً بالله ـ وفي‌لفظ بالسماء ـ هاتان الآيتان : « لقد جاء كم رسول من أنفسكم » إلى آخرالآية .

أقول : و الرواية مرويـّة من طريق آخر عن أُبيّ بن كعب ، و هي لا تخلو عن تعارض مع ما سيأتي من الرواية و كذا مع ما تقدّم من‌الروايات في‌قوله تعالى : « واتـّقوا يوماً ترجعون فيه إلى الله » الآية البقرة : أنـّها آخر آية نزلت من القرآن .

على أنّ لفظ الآيتين لا يلائم كونهما آخر ما نزلت من القرآن إلّا أن يكون إشارة إلى بعض الحوادث الواقعة في مرض النبيّ صلى الله عليه وآله كحديث الدواة والقرطاس .

وفيه أخرج ابن إسحاق وأحمد بن‌حنبل وابن أبي‌داود عن‌عبـّاد بن عبدالله بن‌الزبير قال : أتى‌الحارث بن خزيمة بهاتين‌الآيتين من‌آخربراءة : « لقد جاء كم رسول من أنفسكم ـ إلى قوله ـ « وهو ربّ العرش‌العظيم » إلى‌عمر فقال : من معك على‌هذا ؟ فقال : لا أدري والله إلّا أنـّي أشهد لسمعتها من رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم ووعيتها وحفظتها فقال عمر : و أنا أشهد لسمعتها من رسول الله صلّى‌الله عليه وسلّم لو كانت ثلاث آيات لجعلتها سورة على‌حدة فانظروا سورة من القرآن فألحقوها فاُلحقت في‌آخر براءة .

أقول : وفي رواية اُخرى أنّ عمر قال‌للحارث : لا أسألك عليها بيـّنة أبداً كذلك

كان رسول الله ﷺ ، وفي هذا المعنى أحاديث اُخرى ، وسنستوفي الكلام في تأليف القرآن وما يتعلّق به من الأبحاث في تفسير سورة الحجر إن شاء الله تعالى .

وقد كنّا نرجو أن نفرد كلاماً في آخر براءة نبحث فيه عن شأن المنافقين في الإسلام ونستخرج ما يشرحه القرآن في أمرهم مع تحليل في تاريخهم وتبيين لما أودعوه من الفساد والبلوى بين المسلمين لكنّ طول الكلام في تفسير الآيات عاقنا عن ذلك فأخّرناه إلى موضع آخر يناسبه والله نسأل التوفيق فهو وليّه . تمّ والحمد لله .

هو

لا يسعني دون أن أشكر فضل مصحّح الكتاب (البهبوديّ المحترم) تجاه دقّته في عمله الّتي نزّلت أرقام الخطاء في طبعة الجزءين الثامن والتاسع من الكتاب بالنسبة إلى الأجزاء الماضية تنزيلاً بالغاً ثمّ لا يسعني دون أن أقول ـ رعايةً لحقّه ـ إنّ أكثر الأغلاط المذكورة في الجدول لا تستند إلّا إلى الأصل (نسختي أنا) دونه فأشكر جميل سعيه و أسأل الله أن يوفّقه ويؤيّده .

المؤلف

الصحيفة	السطر	الخطاء	الصواب
٤	١٦	يرتفع	ترتفع
٥	٦	ملكه	ملكها
٥	٧	نزعه	نزعها
١٣	١١	وخفنا	لستم بأحق منّا نحن أحدقنا برسول الله ﷺ وخفنا
١٩	١٧	بذلك	على ذلك
٢١	١٧	الغفّاريّ	الغفاريّ
٥٢	٢٤	ينجّز	ينجز
٦٥	١٦	فيه	فيها
٦٩	٣	واللآعي	واللآغي
٧٣	٢	فإنّها	فإنّه
٧٣	٣	تركت لم ينظروا	تركـلم تنظروا
٧٤	١٨	إلى أصله	بأصله
٧٥	٦	يفاجؤكم	تفاجؤكم
٧٥	١٤	يلفوا	يلقوا
٩٠	٢١	الخطاب	التكلّم
٩١	١٤	«أن تكفّوا عن التصرف فيها و أمركم»	زائد
٩٢	١٤	قهرعلى	قهرت
٩٢	٢٣	بان	بانت
٩٤	٨	وإنّ	وأنّ
١٠٦	١١	نحدة	نجدة
١١٢	٥	يحسبنّ	تحسبنّ
١١٥	١٤	ليكونوا	لتكونوا
١١٨	٢٠	الدائرة	الداثرة
١١٩	١٦	بالقاء	بالغاء
١٢٠	١١	شيء	شتّى
١٢١	١٧	يتماسّ	يماسّ
١٢٢	١٩	سيفنى	ستفنى
١٢٣	١١	إلقاء	إلغاء
١٢٣	١٢	المتادّية	النادبة
١٢٥	٥	يراه	تراه
١٢٧	٧	ضاقت	ضاقت عليكم
١٤٨	٦	ورسولَهَ	ورسولُهُ
١٥٥	٥	لباالمرصاد	لبالمرصاد
١٦٣	٩	الدين	الدين أخوّة
١٦٤	٨	التحضيس	التحضيض
١٧١	١	سبتقاوضون	سيتقاضون
١٧٤	١١	سواء	سواه
١٧٤	٢٠	عن الله	من الله
١٧٥	٨	عوضاًعنك	عوضاًمنك
١٨٦	٢٤	ترجع	يرجع
١٨٨	١٣	رسول	رسول الله
١٩٢	١٧	لعقد	كعقد
١٩٢	٢٤	لمن	كمن
١٩٤	١٢	غير لك	غير ذلك

الصحيفة	السطر	الخطأ	الصواب
١٩٤	٢١	التردّي	التروّي
١٩٥	٧	التقوى	التقوى الّذي
١٩٥	١٩	يفوت	يفوّت
٢٠٧	٢٠	عن القرآن	من القرآن
٢١٦	٢٠	يتربّصوله	يتربّصوا له
٢٢٧	١٩	إلي	إليّ
٢٣٩	٤	فاشتبيه	فاشتبه
٢٥٩	٤	إليهم	وإليهم
٢٦٥	٢٢	الفرق	الطرق
٢٧٣	٧	يتلوه	تتلاوه
٢٧٨	١٠	والقاء	والغاء
٢٧٨	٢٤	لاينطبق	لاتنطبق
٢٨٤	٥	ولذلك	وكذلك
٢٨٥	١٤	الظالمين	الكافرين
٢٩٣	١٦	العالية	الغالبة
٢٩٨	١٣	لا يراد	لا يراد
٣٠١	٩	عمّا	ممّا
٣٠٢	٤	وإنّمايعاتبه	وإنّما تعاتب
٣٠٢	١٣	من الذنب	على الذنب
٣٠٩	١	الناس فيه	الناس
٣٠٩	١٣	تقدّمه	تقدمة
٣١٣	٢	الجدّة	الجدة
٣١٣	١٤	جمّاع	جماع
٣٢٥	٨	نهاية	في نهاية
٣٥٣	٢٠	دخلا	دخل
٣٥٨	٢١	مصرفه	منصرفه
٣٦٠	١٢	رسول	رسول الله
٣٦٩	٦	يسأل	تسأل
٣٨٠	١٤	عن الغشّ	من الغشّ
٣٨٢	٢١	ابن ابن	ابن أبي
٣٨٩	٣	يُنفِقَ	يُنفِقُ
٤٠٩	١	ولاندر	ولاتذر
٤١٢	٩	بنوالمسجد	بنوا المسجد
٤٢٠	١٥	عبداً عدوّاًلله	عدوّاً للعبد

موردان من الخطاء عثرنا عليه أخيراً
في الجزء الثاني من الكتاب

ص	س	خ	ص
١٤٥	١٨	خمسة	بضعة
١٤٥	٢١	سليمان	سليمان وأيوب